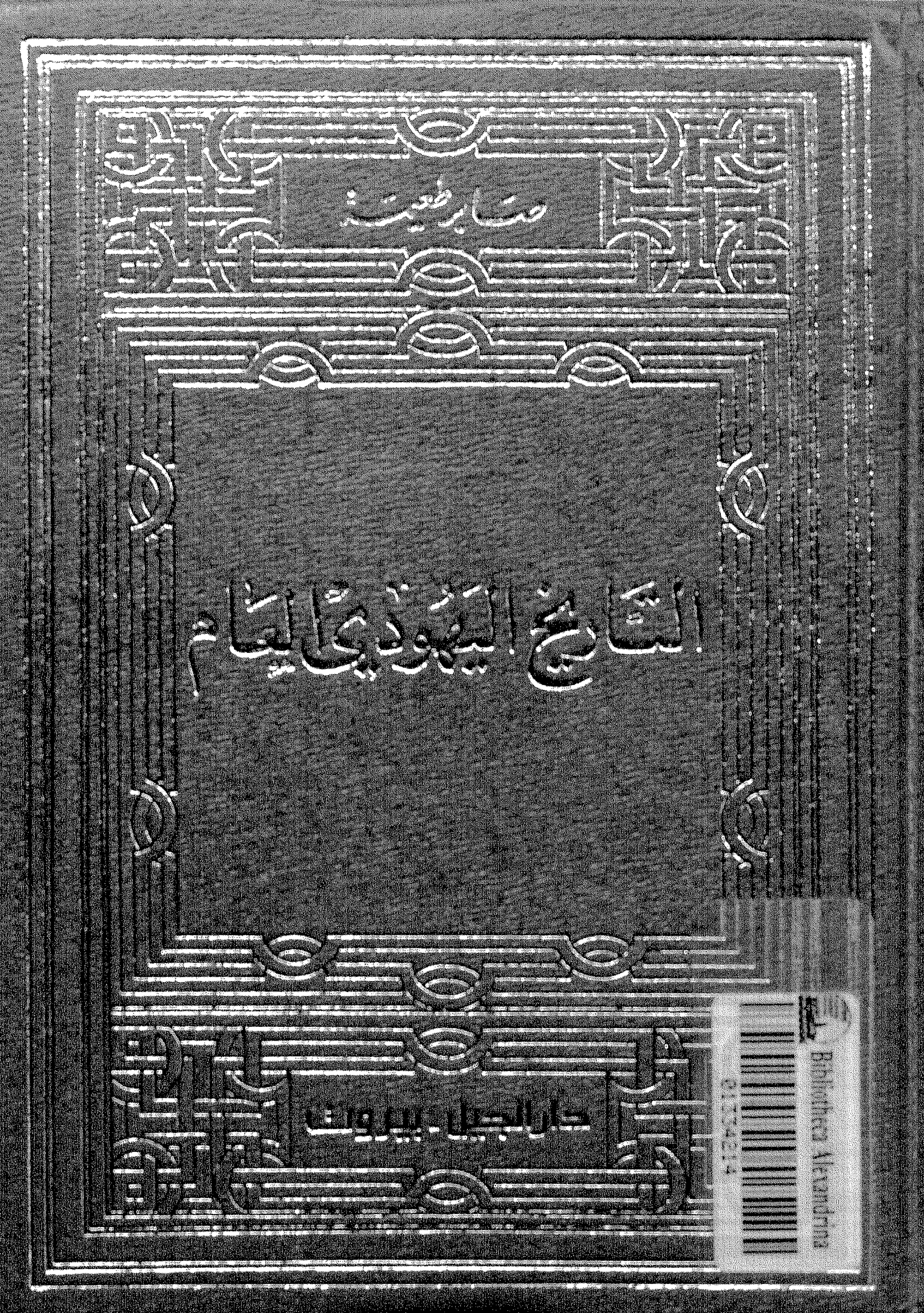

صابر طعيمة
التاريخ اليهودي العام
دار الجيل - بيروت
Bibliotheca Alexandrina

التاريخ اليهودي

صابر طعيمة

التاريخ اليهودي العام

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثالثة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

مقدّمة

التاريخ اليهودي العام من القضايا الانسانية الشائكة والموغلة في الغموض ، ذلك لان هذا التاريخ قد اختلطت فيه وارتبطت عوامل التاريخ الاجتماعي والسياسي ، مع معطيات العقيدة الدينية واتجاهات الاخلاق ، وافرازات الادب والفن .

ومع ان الديانة اليهودية الحقة كشأن كل الاديان السماوية تقوم في جوهرها على التسامح والمحبة ، والخير والايثار ، فضلا عن الايمان بالله رب العالمين الا ان التفسير اليهودي لها والاخذ اليهودي منها انحصرا في سلوكيات العدوان ، وتزييف قيم الخير ، وتحريف روح المحبة ، وتشويه قضنية الايمان بالله ، فالله في هذا التاريخ اليهودي ليس رب العالمين ، وانما هو : (يهوه) رب اسرائيل فقط الذي يقرر لهم كل شيء وليس عليهم من شيء ، والمحبة فيهم ولهم ، وليست بينهم وبين الناس .

لكنه من غير المعقول ان تكون مرحلة من التاريخ اليهودي كهذه منذ عصر : النبوة والرسالة الدينية على يد ابي الانبياء ابراهيم عليه السلام ، حتى انتهاء دور النبوة في بيت ولد اسحق بن ابراهيم عليهما السلام بمجيء السيد المسيح عليه السلام ، وانتقالها الى بيت ولد اسماعيل بالنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، دون أن تكون فيها بعض جوانب من الحق والخير كاثر من طول المعاناة والتضحيات التي قام بها انبياء بني اسرائيل .

ومن هنا كانت تلك المهمة العسيرة لمن يلج هذا الباب الطويل وخاصة حين يلتزم بالموضوعية العلمية والتقصي المحقق بأمل أن يميز بين حقائق التاريخ وأباطيله ، لعل قراءة التاريخ أن تكون باعثا لتصور جديد في عالم اليوم الذي تثب فيه القوى اليهودية الى مقدرات العالم الانساني ومستقبله

لتضع في طريقه قضية هذا التاريخ اليهودي الطويل ، في ادعاء يهـودي ، أن قضية هذا التاريخ ، هي أداة المستقبل اليهودي التي لا بديل عنهـا ، حتى لو كان ذلك يكلف العالم مثل تلك الحروب التي ترهق بهـا القـوى اليهودية ، شعوب العالم ، لتبدأ بالسيطرة على ارض العرب والمسلمين في اتجاه احتلال أوطان الامم والشعوب الاخرى لاقامة « مملكة اسرائيل » .

ولذا كان علينا في هذا الكتاب ، أن نبدأ مع قصة الوجود اليهـودي منذ عصر النشأة الاولى لاباء بني اسرائيل ، ونتابع الرحلة في مسار طويل، حتى انتهينا بدراسة أوجه الصراع الذي تشنه القوى اليهودية في العالم ، ضد الامم والشعوب ، بدءا بالارض العربية في فلسطين .

هذا وقد خصصنا الجزء الاول من هذا الكتاب ، ليتناول رحـلات النبي ابراهيم في المنطقة العربية كلها ما بين العراق والشام ومصر والجزيرة العربية كما درسنا العلاقة التاريخية للنبي ابراهيم عليه السلام بفلسطين.

ولما كانت الرحلة الى مصر ، قد كان من بين نتائجها ان امتزج الـدم الاسيوي بالدم الافريقي في بيت النبوة وذلك باقتران النبي ابراهيم بالسيدة المصرية « هاجر » وظهور النبي اسماعيل عليه السلام ، يحمل دم ابيـه ابراهيم العربي من العراق ، و « هاجر » المصرية العربية في مصر ليكـون أبا مباشرا لكل العرب المستعربة ، فانا قد وقفنا امام هذه المرحلة كثيـرا نظرا لغموضها في كتب التاريخ .

هذا ولما كانت فترة التواجد اليهودي في مصر القديمة ممثلا في أبناء يعقوب عليه السلام وأجيالهم من بعدهم نغمة عدوان يدق عليها الاعـلام اليهودي ، فضلا عن الفكر اليهودي ، الذي يتناولهـا كجـذور للعـدوان والمطاردة القديمة في المنطقة العربية فاننا قد عالجنا هذه المرحلة من كافـة جوانبها : التاريخية والدينية والسياسية والاخلاقية ، ومن بين مصـادر عديدة بعضها يهودي منصف للحقيقة والتاريخ .

وقد تناولنا شخصية النبي موسى عليه السلام ، واستشهدنا بفكر وانتاج المفكرين العرب وغيرهم في تناولهم لهذه الشخصية العظيمة التـي يكن لها كل عربي ومسلم الحب والاحترام والتقدير .

ولقد تناولنا في موضوعية محايدة ترجيح أسلم وأصوب آراء رجال

التاريخ القديم في تحديد بدء العلاقة التاريخية لليهود كجماعة بعينها في الارض العربية ، حتى انتهى بنا المطاف في هذه المرحلة الى عصر النبوة والرسالة بشكلهما الواسع والشهير ، ونعني بهذا العصر : القرن العاشر قبل الميلاد ، فترة النبي داود وابنه سليمان عليهما السلام . ففي هذه المرحلة ، وعند هذين النبيين العظيمين ، يدور لغط يهودي كبير ، ويجهد المؤرخون والمفكرون اليهود انفسهم لتقرير أن ثمة علاقة قوية بين اليوم والامس ، وعندهم تتجلى عظمة هذا الامس في عصر داود وسليمان ، وما أتماه وما مثلاه في التقدير اليهودي لهما في هذه المنطقة من العالم والتي يريد بها اليهود في القرن العشرين أن يجعلوها معبرا الى اطماعهم في العالم من خلال دعوى يقيمونها ويحاولون ايهام الشعوب بها ، وهي : انهم يقيمون : (بيت داود) .

وكان من الضرورة ان نتابع استقصاءنا لحركة التاريخ في هذه المنطقة من العالم ، وما تعرضت له من غزو او اغارة منذ هذه الفترة حتى ظهور السيد المسيح الذي أفردنا له بابا مستقلا لدراسة كل ما يتعلق بدعوته ورسالته وعلاقته ببني اسرائيل ، واقتضت طبيعة البحث التاريخي البحث ان نتناول العلاقة اليهودية المسيحية من مصادر مسيحية وخاصة كتب العهد الجديد ، حتى انتهى بنا البحث في هذه المرحلة وتلك القضية الى طرح ما تصوره مصادر العقيدة المسيحية المتداولة لدى المفكرين المسيحيين . ومع ان هذه المرحلة ذات حساسية خاصة ، لاننا كنا نتناول بالنهج التاريخي مصادر عقيدة نختلف معها فيما نحن عليه من عقيدة الاسلام وخاصة فيما يتعلق بنهاية السيد المسيح ، الا اننا وسط التتابع الزمني والموضوعي للتاريخ اليهودي العام ، كانت امامنا كتب العقيدة المسيحية وهي تتناول العلاقة المسيحية اليهودية ، كمصادر تاريخ امامنا فلم نستطع اغفالها ، ولنكشف في النهاية عن نوعية العلاقة بين شعب اسرائيل ورسل وانبياء الله لبني اسرائيل .



هذا وقد خصصنا الجزء الثاني من الكتاب للعلاقة التاريخية لليهود بأرض العرب وخاصة بعد مراحل التكتل اليهودي في مناطق جزيرة العرب قبيل البعثة المحمدية .

وفي الباب الثامن من الجزء الثاني اقتضى البحث ان نتناول المنظمات

اليهودية في عصر ظهور الاسلام ، والكشف عن العناد والمقاومة اليهودية للاسلام وموقف المسلمين من الرفض اليهودي للتعايش السلمي والجوار المشترك وقبول الدعوة الاسلامية ، حتى كانت معارك الاسلام واليهود في قينقاع وقريظه والنضير وخيبر .

وكان حريا بالبحث الذي اخذناه على انفسنا ان نتابع بعد عمليات الطرد التي قام بها العرب المسلمون بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم ضد اليهود كنتيجة طبيعية لروح العدوان ضد الدعوة الاسلامية ، تجمعات اليهود في مهاجرهم في اوربا في العصور الوسطى ، لان الفترة من عصر الدعوة الاسلامية حتى العصور الوسطى ، سعد فيها اليهود بالمواطنة بين الشعوب التي كانوا فيها وخاصة الشعوب الاسلامية .

ومنذ العصور الوسطى ، حتى قيام النهضة الاوربية ظهرت القوى اليهودية كاخطار قومية وعنصرية في وجه الحضارة الغربية .

لذا كان علينا أن نتعرض لهذه المرحلة بكثير من التفصيل .

ولما كان من بين تراث المفكرين اليهود في عصر النهضة الاوربية من راح يتشدق بنقاء الجنس اليهودي ، واصطفاء الديانة اليهودية فاننا قد رحنا نعالج هذه القضية ، واقتضى ذلك بعض البحوث العلمية من علوم الاجناس والاحياء ، حتى انتهينا الى جملة مقررات علمية ترفض زيف دعوى الفكر اليهودي الحديث .

كذلك عرضنا لعمل مقارنة بين تأثر اليهود في عقيدتهم بالديانةالمصرية القديمة (دين اخناتون) والاشورية والاكدية ، وغيرها .

ولما افرزت التناقضات الاوربية بعد حركة تطور وتصاعد اخطار الثورة الصناعية ، وازدهار راس المال العالمي ، وبروز الاحتكارات الكبرى الفكر الصهيوني الحديث ، فاننا قد افردنا بابا بذاته ، لدراسة الحركة الصهيونية وايديولوجيتها وانشطتها في علاقات القوى الدولية ، حتى استطاعت خلق الموقف الدولي المعقد وخاصة في منطقة الشرق الاوسط ، فضلا عما جره على شعوب المنطقة من آلام وويلات حروب اربعة ، ارهقت الامة العربية ، وهي لما تزل بعد تنفض عن جسدها غبار تراب الزمن بعد رقدة طويلة قهرها فيه العدو الاجنبي والاعجمي .

وكان لا بد في نهاية المطاف من تقرير جملة نتائج ينتهي بها البحث العلمي في هذا الكتاب ، ليساهم بدوره في معركة الرشد العربي التي تحملها بأمانة شعوب وقيادات كثيرة من أبناء الامة العربية بأمل الصحوة ، التي بها يجابهون الاستعمار ، ويسدون عليه الطريق .

ونرجو أن تكون بهذا الجهد العلمي قد وقفنا امام الحق في زاوية منه.

وعلى الله قصد السبيل

١٩٧٥

المؤلف

الباب الاول

- النشأة التاريخية الاولى .
- هجرة ابي الانبياء في المنطقة العربية .
- العلاقة التاريخية للنبي ابراهيم بفلسطين .
- حول رحلة النبي ابراهيم الى مصر .
- أبناء ابراهيم في فلسطين .
- اسماعيل في الجزيرة العربية .
- دور النبي اسماعيل في الجنس العربي .
- دور اسحاق في الشعب الاسرائيلي .
- دلالة التسمية باليهود .
- اليهود في العصور الفرعونية .
- اليهود بعد موسى .
- الصلات التاريخية لليهود .

الباب الثاني

- العوامل التي ساعدت على وجود اليهود في مصر .
- الموقف اليهودي في مصر القديمة .
- نشأة موسى الرسول في مصر .
- راي العلامة فرويد في النبي موسى .
- القصص الديني حول شخصية موسى .
- اضواء على القصص الديني الموسوي .
- الخروج الاسرائيلي بقيادة موسى .
- الاطماع الاسرائيلية القديمة في الارض العربية .
- طبيعة العدوان في العلاقات اليهودية .
- التوسع الاسرائيلي القديم في فلسطين .
- أوضاع القدس في خضم الصراع .
- القدس بين التراث العربي والتزييف الاسرائيلي .
- أورشليم « القدس » قبل العبريين .

النشأة التاريخية الاولى

تتعدد الدراسات وتختلف من منهج لاخر حول محاولات التتبع التاريخي القديم ، وخاصة حول مصادر البيئة التاريخية لحركة التواجد اليهودي في التاريخ ومقومات النشأة الاولى للتاريخ اليهودي على وجه الخصوص .

لكن الامل في تصور تقريبي للتفاوت الحاد عند بعض المناهج التاريخية في تتبعها وتقصيها لمراحل النشأة التاريخية الاولى للآباء الاول للوجود اليهودي يجعل من الاسلم التقريب ما بين تقريرات كثيرةتصل في استقلالها ورؤيا بعضها والبعض الاخر حد التناقض احيانا .

ومن هنا فان الجوانب الاجتماعية والاقتصادية حين تكون في الاعتبار عند تقدير بعض تصورات تتعلق بالحقيقة نفيا او اثباتا تعاون كثيرا في دراسة هذا الجانب الدقيق والهام من عمر الوجود اليهودي القديم في التاريخ .

ولقد كانت البداية الاولى والمبكرة فيالعراق انه كان عند مشارقتخوم الجزء الجنوبي منه وحوالي القرن الخامسوالعشرين كانت صحراء الجزيرة العربية قد قذفت من احشائها افواجا من البشر على دفعات متتابعة تعبر البادية موجة اثر موجة في اتجاه منطقة الهلال الخصيب .

وحوالى عام ١٨٠٠ ق ـ م كانت مجموعات من الرعاة الرحلوالمنتسبة تاريخيا لبعض هذه الافواج التى هاجرت من الصحراء الى منطقة الهلال الخصيب قد استطاعت ان تستقر وان تنتشر في العراق لتؤلف دولةيذكرها التاريخ باسم دولة الكلدانيين قامت تاريخيا على اساس من علاقات الصراع والقهر اليومي الذي كانت فيه الكثرة الكثيرة من جمهور ذلك الشعب الذي

تسمى باسم « كلدان » مضيعة بين اساليب التناقض التي يعمل لها مجموعات من الرجال المتسلطين والمستغلين ، واولئك الذين انتزعوا لانفسهم كهانة دينية وسيادة سياسية ، فخلقوا بهما مظاهر التفاوت الطبقي وعلاقات الاستغلال .

وسط هذا الجو الاجتماعي المضيع فيه جمهور الكلدائي والمضلل ، وهناك من وسط الطبقات الدنيا من قلب هذا الشعب الوثني المتخلف ، نشأ النبي ابراهيم عليه السلام اول ما يشغل باله ويهز مشاعره هو امكانية ان يصل بمشاعره الى واقع جديد يرفض صور الغبن الاجتماعي والاخلاقي التي وجدها امامه عائقا يحول دون ان يتيسر للفرد « الانسان » ان يحيا الحياة. فثار ابراهيم عليه السلام في أرض « أور » الكلدانية ، يحمل على عاتقه مهمة التبشير والدعوة الى قضية العدل الاجتماعي وما ان تنفعل اعماقه ويصلب عوده بقيم ومبادىء النضال الاجتماعي آلتي آمن بها حتى يكون قد هيىء لحمل رسالة دينية أعم وأعمق وجهودا اكثر مسئولية واعظم تضحية وهو ان يوجه الدعوة الالهية للناس عن طريق الايمان والارتباط بقضية العدل الاجتماعي ليصبح طريق رسالة الله الدينية متصلا بآمال الناس ومستقبلهم .

ولما احس الكلدانيون ان ابراهيم النبي الرسول ابتدأ بهذا الرصيد الذي اضيف الى نفسه يشكل خطرا عليهم وعلى اسلوب حياتهم ، خاصة بعد ان ابتدأت جموع كبيرة من جمهور الشعب تسمعه وتتحمس لدعوته بعد ان استشرفت آمالها على يديه ، دخل الكهنة والسادة معه في معركة تحديات سافرة اوشكت في بعض مراحلها ان تقضي على حياته لولا انه معد من قبل ربه لكي يواصل الطريق .

هجرة أبي الانبياء في المنطقة العربية :

بعد ان سفه ابراهيم احلام القوم وآلهتهم وثار على نظام حياتهم وآجه موقفا عنيفا اوشك ان يقضي عليه ويقطع عليه الطريق ، يعبر القرآن الكريم صراحة عن هذا الموقف الذي اتخذه القوم ضد ابراهيم بقوله « قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » وهنا احس ابراهيم عليه السلام أن الزمن يدور على عكس دورته ومساره . فمن حيث أتت افواج ورحلات منذ مئات السنين اصبحت الان في تقدير بعض المشتغلين بالدراسات السامية القديمة منذ حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. حين كانت هجرات متوالية . ذهب بعضها الى الساحل اللبناني واستقر حواليه ، وعرفوا « بالفينيقيين » وذهب البعض

الاخر الى الجزء المنخفض من ارض بادية الشام على ساحل البحر واستقروا فيها وتسموا باسم « الكنعانيين » نسبة الى ارض « كنعان » : اي الارض المنخفضة ، او الارض الكائمة حسبما تفيد الدلالة اللغوية للفظة « كنعان » في اللغة العربية ، كان على ابراهيم النبي عليه السلام ان يبدأ رحلته وهجرته سائرا شمالا بغرب ثم جنوبا بطول الهلال الخصيب حتى وصل هو ومن معه من الذين آثروا أن يرحلوا بما آمنوا به . وان يتحملوا المشاق في سبيله الى « حوران » «منطقة بالاردن الان » ثم الى فلسطين في هجرة مرحلية على دفعات وتوقفات مكثوا خلالها بعض الوقت في فلسطين ، المنطقة المعروفة اليوم بحدودها الاقليمية بعد صنيع الاستعمار في المنطقة عقب الحرب العالمية الاولى ما بين ضفة الاردن وسوريا وساحل البحر الابيض وشبه جزيرة سيناء . وكان ابراهيم عليه السلام بما اقدم عليه من حركة الهجرة هذه حين قدم من اعالي العراق الى فلسطين يمثل مجموعة من موجات حركة انتقال وارتحال بعض القبائل التي بدات تنتجع وتتنقل في بادية الشام وسيناء وتتسمى باسم « العبرانيين » صفة لهم او نسبة الى عبورهم البادية والصحراء او لعبورهم نهر الاردن او الفرات وخاصة حين تكون الحاجة شديدة الى حيث يوجد الحيوان والمرعى فكانت تتم حركات هجرة ــ عبرية ــ عامة من اعالي البادية تارة الى اسفلها ، او تأخذ في مرحلة اخرى عكس الطريق ، وبهذا المعنى البدوي المرتحل الذي لا يركن الى ارض بذاتها ولا الى مكان بعينه الا بقصد هذا المعنى الاقتصادي والذي يمثل قيمة الحياة الاجتماعية وصلب المعيشة ــ حينئذ ــ كانت تتم حركات هجرة ــ عبرية ــ دائمة ومنتظمة .

ولما قدم ابراهيم بمن خرج معه في بدء هجرته وبمن امن به في طريق رحلته الى ارض فلسطين لم يطب له المقام بها لاسباب كثيرة منها : ان سكان فلسطين حين اقاموا لهم ما يشبه « الممالك » التي تسمت بالفعل « الممالك الكنعانية » كانت هذه الممالك قد قطعت شوطا في طريق التقدم الزراعي والصناعي وكان بعض من اهل هذه الممالك تجارا للسلع التي كانت تنتقل من بلاد ما بين النهرين الى ساحل البحر الابيض وبالعكس ، بالاضافة الى انهم كانوا حراسا للقوافل التي تعبر طريق بلادهم ، وقد اقاموا من اجل سلامة هذا العمل والحفاظ عليه المدن المحصنة والاسوار المنيعة ، فلما جاءهم ابراهيم عليه السلام بدعوة الله ، تلك الدعوة التي كان من اول مبادئها قضية العدل الاجتماعي لم يتقبل الكنعانيون دعوته بالاسلوب الالهي الذي دعاهم به ولم يقبلوه بينهم ، بعد ان كانوا قد علموا بعض انباء للقبائل والجماعات العبرية التي كانت قد بدات تجوب البادية والصحراء ، وساءهم

ما عليه القوم من صلف وحب للسطو والاغارة فانفوا ان تكون الجماعـــات العبرية التي لم يتيسر لها ان تستقر في مكان بعينه والتي لما تسطع بعد ان تكسب شيئا من آداب الاستيطان وتقاليد الحضر بينهم وفيهم من يدعو الى قيم او خلق جديد ولذا اعتزلوهم فلما جاء ابراهيم بالدعوة الدينية الـى القوم اعتبر الكنعانيون ابراهيم واحدا من العبرانيين ولم يستجيبوا لـــه تماما فكان على ابراهيم عليه السلام ان يرتحل سريعا من على ارض فلسطين الى حيث يظن ان تتقبل دعوته .

العلاقة التاريخية للنبي ابراهيم بفلسطين :

قد يتصور البعض من اولئك الذين لم تتح لهم امكانياتهم دراسة المنطقة العربية وخاصة حركة الهجرات السامية ان ابراهيم عليه السلام «الكلداني» الذي نشأ بأرض « اور » في العراق اول من ذهب او فكر في التوجه الى ارض فلسطين لاستيطانها او اتخاذها وطنا له خاصة بعد أن رفضت دعوته حيث نشأ ، فان هذا المعنى غير مرتبط بحقيقة التاريخ المروي في صدق وفي امانة والمرتبط ماديا وحضاريا بالمنطقة العربية كلها فضلا عن اقليم فلسطين ، بل ان هذا المعنى غير مرتبط ايضا حتى بحركة التاريخ المتعلقة بابراهيم في كل ما ورد في التوراة عنه وهو مصدر لا تقره كل وجهات النظر التاريخية ، فضلا عن المعتقدات المخالفة لكل ما تعبر عنه ايات العهد القديم الا انه هنا وعند هذا اللبس التاريخي وبالتجرد عن تأثير هذا الادعاء الذي سنعرض لـــه بالدراسة في الصفحات المقبلة فانه حتى التوراة تعطي تصـــورا يخالف ويرفض الزيف المنسوب الى ابراهيم عليه السلام . ذلك انه كما يذهب كثير ممن كتبوا في تاريخ المنطقة واكثرهم من الغربيين بل بعضهم كتاب اليهـــود انفسهم . ان فلسطين بحدودها الاقليمية اليوم والتي لم تكن معروفة بهـــا تماما كما هي مميزة بها اليوم كانت مسكونة بل وعامرة بقبائل وجماعـــات عربية ترجع في اصلها الى الجنس السامي الذي ينتسب مباشرة الى « سام » ابن نوح وان سنة التطور الطبيعي قد قذفت بمجموعات هذه القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية حيث منشأهم الصحراوي القاسي الى الشمـــال في حركات هجرة متتالية وشبه منتظمة بدات عند بعض بحاث الدراسات السامية لهذه المرحلة من بدء الهجرات حوالي ٤٠٠٠ ــ ١٥٠٠ ق.م. وقد اخذت هذه الهجرات اكثر من مسار ، فجزء من هذه الافواج اتجه الـــى سوريا بينما واصل الرحلة جزء اخر الى العراق والذين استقروا بفلسطين من جموع هذه الهجرات كانوا هم «الكنعانيون» الذين يرجح كثير من المؤرخين انهم اصل « للفينيقيين » الذين اتجهوا بعد ذلك غربا الى ساحل البحـــر

ليقيموا لهم هم الاخرون بعد ذلك الحضارة الفينيقية في المدن والحصون التي اقاموها في صور وصيدا وطرابلس وبيروت ، ولقد امتد النشاط الحضاري للفينيقيين وهم جزء من الكنعانيين سكان فلسطين كما اشرنا في البحر المتوسط الى ان وصل قبرص وكريت وقرطاجنة ، وتدين بلاد اليونان والرومان القديمة الى ما قدمه الفينيقيون من مظاهر حضارة واسلوب حياة اليهم في خلال رحلات الفينيقيين التي وصلت ساحل انجلترا وبلاد آفريقيا بالشيء الكثير ولقد كانت الابجدية الفينيقية المادة التي اخذ منها اليونانيون مصادر الكتابة اللاتينية بعد ذلك حين بدأوا يبحثون عن منابع المعرفة والحضارة ثم طرأ تغيير طفيف على الكنعانيين الذين سموا المنطقة المحاطة بأعالي منطقة سوريا اليوم والبحر الابيض والبحر الميت وسيناء مصر بأرض ـ كنعان ـ بأن جاءت اليهم مجموعات مهاجرة على راسها قبيلة تتسمى باسم سيدها وقائد حركة الهجرة وزعيم القوم « فلسيتا » وقدمت الى ارض الكنعانيين من جزيرة كريت ثم استقرت في المنطقة الممتدة من يافا الى عكا ليمتد نشاطها وامتزاجها بالكنعانيين سكان الارض ومستعمريها قبل أن يحل بها بشر وهؤلاء الكنعانيون هم الذين قبلوا ان تتسمى الارض التي يقيمون فيها والتي اطلقوا هم عليها اسم « كنعان » اللفظة العربية التي تعني الهبوط والانخفاض للدلالة على طبوغرافية الارض بانها ارض « كائعة » اي منخفضة وغائرة ودفعهم الى خلق هذه التسمية الذوق العربي والفطرة العربية وما وجدوه امامهم من وجود ارض غائرة ومنخفضة واسعفهم في استعمال اللفظ ـ كنعان ـ دلالة على الارض : دلالة اللفظ العربي نفسه الذي يتداولونه فيما بينهم من مادة « كنع » وكانع وكنعان ، التي لا تزال تستعمل في هذا المعنى للان في اللغة العربية الفصحى ، وحين جاءت المجموعات المهاجرة الى ارض كنعان من جزيرة كريت على راسها القبيلة التي يتزعمها سيدها « فلسيتا » اطلق الكنعانيون على ارضهم اسم ارض « فلسطين » صفة ونسبة الى قبيلة « فلسيتا » التي استقرت بالارض وامتزجت بشعبها واصبحت جزءا من سكان الارض القدامى من الكنعانيين الذين كانوا قد سموا الارض بالدلالة الطبوغرافية التي امامهم قبل قدوم الفلسطينيين اليهم .

وفضلا عما هو مقرر في صحائف التاريخ الصحيح الذي لا يحتاج الى كثير اجتهاد في التدليل على صلة الكنعانيين والفلسطينيين التاريخية في الاستيطان المبكر والذي لم يسبقه استيطان في ارض فلسطين والذي يبدأ من ٣٥٠٠ ق.م حين كانت الهجرة المنظمة للكنعانيين بالاضافة الى رحلات وافواج هجرة الى فلسطين قام بها البابليون والاشوريون والطوائف العربية

في المناطق المجاورة على امتداد البادية وعرضها مثل « مملكةماري » العمورية التي قامت في سوريا وعلى وجه التحديد في شمال سوريا ، المنطقة التي هي اليوم اواسط نهر الفرات قبل قدوم النبي ابراهيم الى فلسطين بزمن طويل ، وكانت عاصمة هذه المملكة التي كانت على جانبمن التمدين والتحضر بلدة تسمى « تل حرير » وكالممالك الارامية التي قامت بجهود القبائل « الارامية » الذين جعلوا من دمشق عاصمة لهم فان رحلات هجرة متعددة كانت قد تمت واستقرت واستعمرت الارض قبل قدوم ابراهيم عليه السلام الى فلسطين ، وحين جاءها من ارض العراق وجدها تتسمى باسمها العربي المعروف لدينا لليوم ووجد شعبها العربي على حال من التقليد الاجتماعي واداب السلوك واستقرار التقاليد الى حد ادرك معه ابراهيم عليه السلام انه لا امل له في الاستقرار او الاستيطان بين القوم .

ولما احس عليه السلام عصبية القوم ورفضهم قبول افكار غريبة عليهم بل واستعدادهم لنقل موقف الرفض الى حال من الحرب والصد كما يعبر الاصحاح الحادي والثلاثون منسفر صنموئيل الاول: من انهم كانوا يشددون قبضتهم في الحرب قرر عليه السلام ان لا تكون له علاقة استيطان او استقرار بفلسطين . هكذا تقرر التوراة ايضا فيما سنتعرض له بالدرس في الصفحات التالية .

والذي نود ان نشير اليه ببعض التوضيح قبل الدخول موضوعيا في موضوع محفوف بالغموض والتناقضات انه في الفترة التي بدات بـ ١٨٠٠ ق.م تقريبا لم يكن النبي الرسول ابراهيم عليه السلام يمثل قيادة « العبريين » الذين خرجوا من «اور» الكلدانية والذين اكتسبوا من حياة البداوة اسلوب الاستغلال والانتهازية فاصبحوا بما اكتسبوه : بدوا خلقهم السطو والاغارة والصيد والقتل والحل والترحال . وانما ابراهيم عليه السلام حين كان مهاجرا من العراق الى فلسطين التصقت به هذه الصفة التي خلعها عليه « العبريون » بعد ذلك نظرا لانه هو ايضا كان يعبر البادية والانهار فالعبريون حين بداوا رحلاتهم على نفس خط سير ابراهيم في الهجرة لم يكونوا يمثلون اخلاق ابراهيم ولا يعبرون عن دينه ، ومن هنا فالحروب التي نشات بين العرب سكان فلسطين والعبريين لم يكن ابراهيم وقتئذ يمثلها ولا كان العبريون في قيادته .

ومهما تكن هناك من معتقدات توراتية تقول : ان الله وعد ابراهيم بان تكون له هذه الارض فان الذي لا جدال فيه لا تاريخيا ولا دينيا بل انه الذي

يستفاد حتى من التوراة ومن سفر التكوين في الاصحاح الثاني عشر من الايات الاولى ان ابراهيم عليه السلام لم تكن له علاقة استيطان بهذه الارض، بل كان ما فعل كما يقول الاصحاح الثاني عشر من التكوين : انه كان يبني خيمته ــ وهو في سن الخامسة والسبعين بعد ان ظهر له الرب الذي قال له : « لنسلك » ــ الذين لم يكن منهم لا اسماعيل ولا اسحاق ولا غيرهما قد وجد بعد ــ « اعطي هذه الارض » .

يقول التكوين في الاصحاح الثاني عشر :

وقال الرب لابراهيم اذهب من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك الى الارض التي اريك ، فاجعلك امة عظيمة وابارك واعظم اسمك . وتكون بركة وابارك مباركيك ولاعنك العنه، وتتبارك فيه جميع قبائل اهل الارض ، فذهب ابرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط ، وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من « حاران » .. وخرجوا ليذهبوا الى ارض كنعان.. واجتاز ابرام في الارض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة ، وكان الكنعانيون حينئذ في الارض وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك اعطي هذه الارض، فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له ثم نقل من هناك الى الجبل شرقي بيت ايل ونصب خيمته ثم ارتحل ارتحالا متواليا نحو الجنوب .

ثم قرر ابراهيم عليه السلام هو ومجموعات من الذين يواصلون الرحلة معه ومن الذين ينضمون اليه ايمانا به وايضا بقصد الحاجة حيث يوجد الحيوان والمرعى ان يتجه الى مصر والقوم جميعا في سيرهم الذين امنوا وعمل الايمان فيهم عمله والذين تأثروا والذين استجابوا لحركة الهجرة في حد ذاتها اسلموا زمام امرهم لما يقصده ابراهيم عليه السلام من ان يتجه الى الجنوب في مسيرته ليدخل مصر تخلصا من الجدب الذي اصاب البادية كلها بالقحط والكساد والجفاف حيث ساءت الاحوال الاقتصادية بشكل تعذر معه ان تنتظم حياة جماعات البدو الرحل الذين يعبرون البادية والصحراء طلبا للحياة والاقتصاد بل ولا غيرهم من الذين استوطنوا ارضا واستقروا حول ريها وريعها فاتجهت جموع في ركب ابراهيم ممن امن به وايضا كانت قد اتجهت قبائل اخرى قبله ثم قبائل من بعده تقصد الحياة في مصر والعيش فيها غير انه كثيرا ما كان يبتلى الشعب المصري المثابر بانه ما ان يفتح بلده وقلبه لافواج من البشر تتجه الى ارضه وتقصده حتى يشعر بما تبيته هذه العناصر من غدر وما تطمع فيه من اوضاع وميزات ولكنه دائما ابدا كانت لدى هذا الشعب العريق القدرة على المواجهة

والمجابهة لكل العناصر الطامعة فيه والمتربصة له حتى ولـــو كانت تدعي الانتساب الى نبي او رسول مثلما حاولت العناصر اليهودية ان تفعـل بعد ذلك في مصر .

حول رحلة النبي ابراهيم الى مصر :

وجهات نظر في البحث لهذه المرحلة من التاريخ تتردد كثيرا في الاخذ بالقول ان نبي الله ابراهيم عليه السلام قد جاء الى مصر ، ومع ان القرآن الكريم قد اشار في ايجاز الى رحلات للنبي ابراهيم الا ان بعض الباحثين الاوروبيين يرفضون الفكرة القائلة بتوجه النبي ابراهيم الى مصر .

لكن الذي نميل اليه وشواهد كثيرة ترجحه ، هو ان النبي ابراهيم قد جاء الى مصر .

ومنذ خرج ابراهيم عليه السلام من العراق بدينه ودعوته في رحلتـه الطويلة المتنقلة رغم الفترات الصغيرة او المحطات التي كان فيها يشـــد خيامه ويتقرب الى الله هو وجماعة من المؤمنين به ، لم يكن معه من النساء غير السيدة التي آمنت به في بدء الدعـوة واستجابت لرسالته ، السيـدة سارة ، وبالمنهج العقلي البحت في دراسة ظواهر حركة التاريخ فانه غيـر واضح لدينا للان السر في صبر ابراهيم وتحمله عدم الانجاب من السيـدة سارة ورضاه بان يعيش معها رغم العقم الذي بها الى الحد الذي لم يكن قد انجب فيه الى حين بدء الرحلة الطويلة وهو محروم من الذرية كمـــا يصوره التكوين من التوراة وهو شيخ مسن ابن خمس وسبعين سنة ، ايا كان الغموض حول هذا المعنى فان المتفق عليه ان ابراهيم عليه السـلام قد ذهب الى مصر دون ان ينجب اولادا ومعه في رفقته القريبة منه وفي صحبته وتحت قيادته المباشرة مجموعة قليلة لم تكن تمثل عصبة تستطيع حماية سيدها او تمنعه وكانت محدودة فلم يكن من اليسر او السهولة ان يذاع بينها سرا او ان تتعرف خبيئتها في بساطـة فان التوراة حسبما تصـوره قد استطاع آن يقنع السيدة « ساراي » ـ سارة ـ فيما بعد ان تقول على نفسهـا انها اختـه لئـلا يحاولـوا قتلـه عند آخذها منه نظـرا لجمالها المفرط المدعى في التوراة وايضا حتى يكرموه ويكرموا القوم معه ويقدموا اليه الهدايا والخير بسببها ،وبالفعل فان ما تعبر عنه التوراة من احاكة ابراهيم لهذه اللعبة التي تكررت بعد ذلك مع ابراهيم نفسه ثم مع ولده اسحـاق كما سنتعرض لذلك ، لم تعرف تفاصيلها الا بما تكشفه التوراة نفسهـــا

من ان احلاما مزعجة قد ارقت الفرعون المصري الذياخذ المراة وتزوجها أو عاشرها واستمتع بها .

وعاش ابراهيم فترة من عمره في مصر اكرم خلالها، فلما عرفتالقيمة الدينية والاخلاقية عند الرجل على سجيته وهبه المصريون على عاداتهم القديمة في تقديم الهدايا وتكريم ضيوفهم الخير الكثير ، وكان بين الهدايا وآيات التكريم للرجل السيدة المصرية « هاجر » التي اتخذها ابراهيم زوجة له عقب خروجه من مصر ، وحول بداية هذه المرحلة الدقيقة التي سيدخل فيها ابراهيم تقول التوراة في الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين .

وحدث جوع في الارض فانحدر ابراهيم الى مصر ليتغرب هناك لان الجوع في الارض كان شديدا . وحدث لما قرب أن يدخل مصر انه قال لساراي امراته اني قد علمت انك حسنة المنظر فيكون اذ رآك المصريون انهم يقولون هذه امراته ، فيقتلونني ويستبقونك قولي انك اختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك .

فحدث لما دخل ابرام الى مصر ان المصريين راوا المراة انها حسنة جدا ، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المراة الىبيت فرعون فصنع الى ابرامخيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء واتن وجمال . فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسببساراي امراة ابرام . فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني انها امراتك، لماذا قلت هياختيحتى اخذتها لي لتكون زوجتيوالآن هوذا امراتك ، خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالا ، فشيعوه وامراته وكل ما كان له .

ونحن فيما نستشهد به في تصوير الملامح العامة لهذه المرحلة ببعض ما جاء في التوراة فانه ليس دليلنا القاطع لعدم الاطمئنان منهاجيا الى كل ما جاء في التوراة كمصدر التاريخ . وانما نحن نحاول ان نقرب الملامح العامة التاريخية على ضوء كل معتقدات القوم الدينية الذين سنتحدث عنهم ، فنحن مثلا لو اردنا مناقشة هذا النص الذي أوردناه فانه يتعارض تماما دينيا مع ما تصفه التوراة عن ابراهيم من ان ابراهيم بنى بيتا للرب وكان نبيا ورسولا ، ثم يجيء الى مصر في هذا النص ليكذب على الفرعون ويقول على زوجته انها اخته ، ومهما يكن من ان التوراة قد تحدثت في موضع منها

عن ان سارة هي بالفعل اخت ابراهيم (١) فان العلاقة الزوجية هنا ، هي الاقرب للصدق والحقيقة في علاقة سارة به ثم تفسر التوراة في هذا النص ايضا جوانب قبيحة في شخصية ابراهيم فتصفه بأنه كان « تنزه نبي الله عن ذلك » ـ جبانا يقتلونني ويستبقونك ـ بل ان في النص بعد ذلك معنى يجرد ابراهيم من رجولته فضلا من ابائه وعظمته كنبي ورسول ، هذا المعنى هو انه كان « ديوثا » على أهله يعيش على ريعهم وينعم بثمن امرأته « ... نصنع لابرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء واتن وجمال » .

وقد يصبح من المؤكد بعد ذلك اللغط التوراتي الذي روى فيالاصحاح العشرين من سفر التكوين عن خبر ارتحال ابراهيم الىارض الجنوبواقامته بين « قادش » و « شور » وغربته على حد تعبير التوراة في « جرار » الموقع الذي يرجح بعض البحاث من المشتغلين بتاريخ المنطقة انه المكان الذي يقع الى شرقي « خان يونس » والذي يعرف « بأم الجرار » (٢) والمنطقة التي نزل فيها بعد ذلك هي منطقة « بئر سبع » من وجود موقف مشابه تماما لقصة ابراهيم وسارة مع فرعون مصر ، حين جاء آيضا في هذه المرة ملك جرار واخذ سارة بعد ان قال ابراهيم ـ مثلما روت عنه التوراة في المرة الاولى ـ انها اختي حتى لا يقتله ملك المنطقة الجديدة التي حل بها ويأخذ زوجته تقول التوراة بالنص : وانتقل ابراهيم من هناك (اي من مصر) الى ارض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في «جرار» (٣) وقال ابراهيم عن سارة امراته هي اختي فأرسل ابيمالك ملك جرار واخذ سارة وقضت معه ليلة . وايضا مثلماقدم الفرعون المصري لابراهيم الخير الكثير بسبب امراته سارة « أخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا واماء واعطاها لابراهيم ورد اليه سارة امرأته » .

ثم واصل بعد ذلك ابراهيم رحلته الى ارض كنعان « فلسطين » مرة ثانية ليواصل باقي غربته كما تقول التوراة وهي تحكي قصة وفاة سارة من ان ابراهيم ذهب الى أهل القرية التي توفيت فيها زوجته ، قرية «حبرون» وكلم أهلها بني حث قائلا « انا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر معكم لادفن ميتي من امامي » .

---

(١) التكوين ـ الاصحاح العشرون ـ ١٢ ـ ١٣ .

(٢) انظر : تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم ، للاستاذ محمد عزة دروزة، طبعةمكتبة نهضة مصر ، القاهرة .

(٣) الاصحاح العشرون ـ سفر التكوين .

ابناء ابراهيم في فلسطين :

في احيان كثيرة وحين لا تسعف الباحث مصادر قد استقر الـراي العلمي حولها فان القصص الديني المتوارث يصبح مـن بين المصادر التـي يرجحها الباحث ورغم ان قصص الانبياء تتعدد صور روايته ما بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم فالاول حشد من الروايات والاساطير والحـوادث والحقائق ، والثاني اخبار الهي في ايجاز .

ولقد راح القصص الديني يقبض كثيرا حول علاقة اسماعيل واسحق التاريخية بأرض كنعان ونحن هنا سنحاول ان نستأنس برواية التوراة وما يتعلق بها من شروح وتفـاسير ، فضلا عـن مصادر اخـرى تهتـم بهـذه المرحلة في محاولات الكشف عن علاقة ابناء ابراهيم عليه السلام بفلسطين.

ولقد كانت البداية انه كان من نتائج رحلة ابراهيم الى مصر ان قدم اليه مع الهدايا والخير الكثير بل وكل آيـات التكريم التي وهبت لابراهيم فتاة مصرية اسمها « هاجر » . ومع ان آيات التوراة ترى في كل ما منحه ابراهيم بأنه كان هدية له الا هاجر فترى التوراة انها كانت في خدمةالسيدة سارة وجارية لها .

وبعد الرحلة الطويلة التي بداتها سارة مع ابراهيم من العـراق الـى فلسطين ثم الى مصر والعودة مرة ثانية الى فلسطين بعد انقضاء فترةطويلة من العمر في مصر ، تأكد عقم السيدة المسنة التي تحدد التوراة عمرها حين اخذها ملك جرار بأنها كانت في التسعين ، ولا ندري كيف ؟ رغـم شظـف الحياة وعناء السفر وطول الزمن كيف استطاعت السيدة سارة ان تحتفظ بجمالها حتى عندما كانت في الطريق الى فلسطين في المرة الثانيـة ، ومـن عجب انه فقط بعد عشر سنين كما تقول التوراة في فلسطين ، تستشعـر السيدة التي تعيش الوحدة والعقم دون امومة انها كبرت وانها لا تلد ، وانها تبحث في اعماقها عن غلام يملأ عليها الحياة ويؤنس وحدتهـا ، آن الاوان لتطلبه ولو لم يكن من ذاتها وبالفعل فانها طلبت على حد تعبير التوراة من ابراهيم ان يتزوج بالجارية « هاجر » ويضطجع معهـا ليأتي منهـا بأولاد تقر بهم عين السيدة التي لا تلد .

ورغم ان هذا المعنى هو مفهوم التوراة في التكوين من الاصحاحالسادس عشر ، وهو معنى قد يتقبل داخل دائرة الامور الاخلاقية العفة والكريمـة وهو معنى قريب مما يمكن ان يكون في بيت تسيطر على القيم الاخلاقية فيه

معاني النبوة والرسالة الدينية بل وهو معنى قريب مما يمكن أن يكون بين علاقة زوجية ناجحة يقفها احد الزوجين من الآخر ، الا ان المنهج العجيب للتوراة يعود ليقول، وقبل ان تلد السيدةالثانيةهاجر ـ ولد هو الغلامالذي وصف بعد ذلك في القرآن الكريم في سورة الصافات بالحلم والسلم : « فبشرناه بغلام حليم » وكانت هذه البشارة عقب طلب النبي ابراهيم رجاءه من ربه « رب هب لي من لصالحين » هذا الغلام هو اسماعيل بن ابراهيم الذي ما ان شب على قدميه بل منذ ولد والغيرة والانانية ـ كما تعبر التوراة ـ تملأ قلب ومشاعر السيدة التي كانت ترجو بالامس ولدا من زوجها يملأ عليها الحياة ويؤنس الوحشة ويخفف عنها عناء الغربة في الرحلات يقول الاصحاح المذكور (١) واما سارة اي امراة ابراهيم فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها : هاجر فقالت ساراي لابرام هوذا الرب قد امسكني عن الولادة . ادخل على جاريتي لعلي ارزق منها بنين ، فسمع ابرام لقول ساراي ، فأخذت ساراي امراة ابراهيم ـ هاجر ـ المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة ابرام فيارض كنعان واعطتها لابرام رجلها زوجة له ، فدخل على هاجر فحبلت ، فلما رات انها حبلت صغرت مولاتها في عينها . فقالت سارة لابرام ظلمي عليك ، انا دفعت جاريتي الى حضنك فلما رأت انها حبلت صغرت أنا في عينها ، يقضي الرب بيني وبينك فقال ابرام لساراي ، هوذا جاريتك في يدك ، افعلي بها ما يحسن في عينيك ، فأذلتها ساراي ، فهربت من وجهها .

ويمضي الاصحاح المذكور من تكوين التوراة ، فيحكي من بين السطور عن غير قصد في التدوين اباء الجارية المصرية هاجر ، ورفضها حياة المذلة والهوان التي تفرضها عليها سارة ـ ضرتها ـ فخرجت هائمة الىان حدثها الرب هي الاخرى . وفي منهج التوراة من اليسر ان يحدث الله الجميع . البار منهم والفاجر ، كأنها هي الاخرى « هاجر » كانت نبية ورسولة يخاطبها الله ويناجيها بأن تمتثل لاذلال سيدتها سارة لها ولا تخرج من أسرها ثم يؤكد الاصحاح في هذا الجو العجيب قصة ميلاد « اسماعيل » ابن ابراهيم ولد هاجر في ارض كنعان ـ فلسطين ـ قبل رحلة ابيه ابراهيم الى مكة ورفقة الفتى لابيه .

يقول الاصحاح (٢) : فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على

---

(١) السادس عشر ـ من سفر التكوين ـ ١ ـ ٦ .
(٢) السادس عشر ـ من سفر التكوين ـ ٧ ـ ١٢ .

العين التي في طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي من اين اتيت والى أين تذهبين ، فقالت انا هاربة من وجه مولاتي ساراي فقال لها ملاك الرب: ارجعي الى مولاتك واخضعي تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب تكثيرا اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها انت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه اسماعيل لان الرب قد سمع لمذلتك وانه يكون انسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع اخوته يسكن .

ومهما يكن بعد ذلك من لغط وخلط في النصوص التوراتية والتاريخية المتعلقة ببني اسرائيل من وجهة نظرهم ، حول ما جاء في التكوين من ان اسحاق بن ابراهيم المولود من السيدة سارة كان وحيد ابيه وبكره ورفيقه في التحدث مع الله ، فان الذي نود ان نثبته وان نحقق له حتى من التوراة نفسها هو ان اسماعيل هو الولد البكر الذي ولد لابراهيم من هاجر قبل غيره سواء من هاجر وسارة او غيرهما من النساء اللواتي تزوجهن ابراهيم على حد روايات التوراة ، ذلك لانه فوق المعنى العاطفي والنفسي الذي يرفض دعوى التصاق وايثار غير اسماعيل الى قلب ابيه باعتباره الولد البكر لابيه بعد طول المعاناة وحرمانه الذرية فالولد البكر قريب الى قلب ابيه قريب الى مشاعره ، قريب الى امكانية تحمل مسئولية حياة ابيه وميراثه قبل غيره من الاولاد فان تأكيد هذه الحقيقة التي تفصح عنها معطيات من نصوص التوراة قبل غيرها ، تجعلنا نرفض في شدة ما يساق بعد ذلك من ان اسحاق الولد الثاني من السيدة سارة ــ التي كما تدعي عليها التوراة ــ قد عملت فيها الغيرة كل عملها حين حملت ام اسماعيل ، ثم كبر الغلام امامها وصلب عوده فلم تتحمل ان ينمو المولد امامها مع انه كما عبرت التوراة استجابة من الله لرغبتها في ان ينجب ابراهيم اولادا من هاجر فتقر بهم عينها ، ولكنها الصنعة التوراتية التي عرفت حين كانت مرحلة التدوين ان اسماعيل بن ابراهيم الولد البكر الذي اشعر اباه احساس الرجل بالابوة وبالذرية قد اصبح فيما اصبح ابا للعرب وسيدا لهم .

وما تقوله التوراة بعد ذلك في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين واضح فيه تماما زج وحشر اسم اسحاق على انه الولد القريب الى قلب ابيه والى نفسه بل ان النص التوراتي هنا يدعي ان اسحاق كان وحيد ابيه في رحلته التي رافقه فيها الى احد الجبال وتم فيها الفداء الذي تكرم به الرب على ابراهيم ليخلص ابراهيم من فكرة ذبح الولد الذي انيطت به تقربا الى الله وامتثالا له .

يقول الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين :

« خذ ابنك وحيدك الذي تحبه آسحاق واذهب الى ارض المريا واصعده هناك محرقة على احد الجبال الذي اقول لك » .

والمعنى البدهي الواضح من سياق ما ترويه التوراة نفسها وهي التي نميل الى ان نجعلها من اهم ما نرجع اليه كما قلنا وخاصة في هذه المرحلة من عمر المصادر الاولى التي ينتسب اليها اليهود والاسرائيليون ان اسحاق ليس هو وحيد ابراهيم الذي يحبه ويؤثره ، واذا كان من الممكن انتكون هذه الايات التوراتية مثلا تؤرخ للمرحلة التي سبقت ذهاب ابراهيم عليه السلام الى الجزيرة العربية بغلامه الوحيد او بولده البكر فالولد الوحيد والبكر هو من غير جدال الولد اسماعيل ، بكر ابراهيم ووحيده طول المرحلة التي لم يكن ابراهيم فيها قد رزق بالولد الثاني اسحاق من السيدة سارة التي لم تكن قد انجبت حين كانت الجارية هاجر كما تعبر التوراة قد حبلت وصغرتمولاتها فيعينها. وعليها وحسبما نرىفان الصنعةالعنصريةالمرحلية التي لازمت ظروف التدوين لاسفار العهد القديم قد حشرت اسم اسحاق الاب الذي انتسب اليه بعد ذلك الاسرائيليون واليهود وخلعوا كل قيم الميراث الاجتماعي والاخلاقي والديني المدعى على اسحاق الاب الاعلى للاسرائيليين حين ارادوا ان يخلعوا على اسحاق قداسة المواقف البطولية التي كانت بين ابراهيم وبين وحيده وبكره الحقيقي اسماعيل الذي رزق به ابراهيم ، وكان وحده ولم يكن له من اخ فترة طويلة كبر فيها الطفل واصبح يافعا قبل ان يرزق ابراهيم باسحاق . ان محاولة خلق علاقة خاصة بين الولد اسحاق وابيه ابراهيم يحرم منها الولد الاكبر لينفرد بها اسحاق دون غيره واضحة في القصد والزيف .

ورغم كل ما هو مدعى وغير ذي موضوع ولا علاقة له بمنطق التطور الطبيعي لحركة الحياة ونظام الاجتماع حينئذ حيث يوجد ابراهيم هو ومن معه فان مجموعة التآليف التاريخية من تناقضات الرواية والحوادث في منهج التوراة تفصح عن معطيات يمكن ان تقدم منهجا جديدا يرفض في موضوعية دينية الادعاءات الصارخة التي تضج بها ايات العهد القديم حول القداسة الدينية والتاريخية لعلاقة اسحاق بأبيه ابراهيم دوناخيهاسماعيل الذي اصبح ابا لقسم من العرب بعد ذلك ، بل ودون باقي ابناء ابراهيم عليه السلام من غير سارة ومن غير هاجر ، من النساء اللائي تزوجهن ابراهيم بعد وفاة سارة كما تقيم على ذلك التوراة القول وتدعيه من ان ابراهيم

في الوقت الذي كان فيه قد بلغ سن المائة والعشرين أو يزيد قد تزوج بامرأة اسمها «قطورة» ولدت له من البنين ستة وكما هو واضح ابناء غير اسماعيل واسحاق وهم : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشاق وشوحا ، ورغم كل هذا التوهان غير الموضوعي ثم عدم امكانية ربط سياق الحـوادث وبمنهج الحياة العامة لصلب نظام الاجتماع وحال البشر حينئذ فان سفر التكوين يأتي حول اسحاق ليجعل منه الشخصية الفدائية والمثالية في علاقته بأبيه ابراهيم وعلاقتهما معا بربهما ، بينما كما قلنا فانه لو صدقت مثل هـذه المعاني من جانب التوراة لكان كل ما يقصد من تقرير هذه المعاني هو اسماعيل الولد الذي كما يؤخذ من الدلالة العامة لبعض ايات العهد القديم لم يتخل عن ابيه ولم يتركه لحاله حين كبر يعبر البادية يحل او يرتحل من مكان لآخر وهو ومجموعات الذين يؤمنون به بل انه يستفاد انه كان يتردد على ابيـه في الجزيرة العربية حيث ذهب مع ابيه وامه كما تقص التوراة تجنبا للنزاع الذي تضخم وعظم بين امه وامرأة ابيه بسبب الغيرة المدعاة فلما حضرت ابراهيم الوفاة كان اسماعيل باعتباره الولد البكر قبل اسحاق بجانب أبيه وهما معا اسماعيل واسحاق بعد ان ولد اسحاق كانا يشتركان في دفـــن ابيهما يحمل كل منهما عبء مسئوليته فيما يمكن ان يوكل اليه ، وعلى هذا فانه من غير المعقول في منهج جميع الناس وعلى تباين جميع المشاعر واختلاف المذاهب دينيا وسياسيا واجتماعيا ان تتقبل الافكار التي ترويها التـوراة عن افضلية لاسحاق مدعاة لا سند لها من الحوادث او منطق الاشياء .

يقول التكوين في السفر الخامس والعشرين على نهجه في سوق الدعوى ومواصلة التعصب العنصري المصنوع (١) اسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة . ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفـرون ابن صوحر الحثي الذي امام ممرا الحقل الذي اشتراه ابراهيم من بنـي حث . هناك دفن ابراهيم وسارة امرأته .

واضح كما تبين آيات التوراة هذه نغمة التعصب المبكرة عن الافضلية المدعاة عنصريا لاسحاق باعتباره كما قلنا قد اصبح فيما بعد ابا للاسرائيليين واليهود ، حين انجب ولده « يعقوب » واضحة جدا نغمة التعصب المبكرة حتى هنا بتقديم اسم الصغير اسحاق ، وهو الصغير فيما يمكن ان يقوم به من مسئوليات اهله في مجتمع كان عامل كبر السن مناط ما يمكن ان يقوم به الرجل وما يوكل اليه وايضا واضحة جدا نغمة التعصب في ايثار والتصاق

---

(١) الاصحاح الخامس والعشرون من التكوين .

ابراهيم وتبعيته للزوجة الاولى حتى وهو ميت فحيث دفن ابراهيم ، دفن في حقل عفرون بن صوحر الحثي وهو من القبيلة التي وقف امامها ابراهيم حين ماتت زوجته سارة قائلا لبني حث : انا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر معكم لادفن ميتي من امامي . يجيء السفر الخامس والعشرون من التكوين الذي اوردنا نصه ويسوقهو الآخر دعوى تتضحفيها محاولة الباس العلاقة بين ابراهيم وزوجه سارة ام اسحاق اياه تقديراً ومنزلة خاصة تفصح عنها العبارة التي تقول :

« الحقل الذي اشتراه ابراهيم من بني حث ، وهناك دفن ابراهيم وسارة امرأته » .

ومهما يكن من تناقضات الرواية الدينية اليهودية التي جعلها بعض تصورنا في محاولة الوقوف على الملامح العامة لهذه المرحلة الدقيقة والخطيرة من تاريخ البيئة الاولى وعمر مصادر النشأة الاولى للاسرائيليين واليهود فان طبيعة البحث العلمي الذي يتحرى وجهاتنظر مختلفالمصادر والوقوف على ظروف كل روايات السياق العام تجعلنا نواصل المنهج لنرى كيف تكون الصنعة الدينية سندا لكل الادعاءات ، بل واساسا لكل المعتقدات وفي منهج القوم مرجعا لكل الحقائق والمسلمات . وقبل ان نذهب مع القوم في الشوط الى نهايته فانا نعرج في ايجاز خفيف الى حيث يوجد الولد البكر لابراهيم باعتباره جزءا مهما من القصة الطويلة في الصراع وحتى لا نهمل في الموضوع الذي يشمل ابراهيم ونسله ، تاريخ اسماعيلوتاثيره في التاريخ العام للمنطقة كلها ، ورغم ادراكنا ان الكلام عن اسماعيل العربي من وجهة نظر عربي في معرض دراسة اليهود فانه مفترض فيه انه متحيز لا محالة الا انا نرجو فيما سنعرض له عن اسماعيل في الصفحات التالية ان نكون موضوعيين حتى يمكن ربط السياق العام لابناء ابراهيم في وحدة موضوعية تتعرف خلالها على عمل وطبيعة كل عضو في هذه الوحدة التي عمل التناقض فيها وقصد الهوى واللعب بالمعتقد والميراث كل ما يمكن أن يكون بينعناصر متضادة ينفر كل عضو من الآخر ويختلف ، لا ان يمتزج او يتحد .

اسماعيل في الجزيرة العربية :

يكاد يكون هناك اجماع تام بين المؤرخين حول قدوم اسماعيل مع ابيه ابراهيم الى الجزيرة العربية واستقراره في مكة باستثناء قلة قليلة من المؤرخين وقفت حائرة مترددة بين الاخذ بما جاء في القرآن والتوراة عن

قدوم ابراهيم واسماعيل الى مكة او رفض هذه الاخبار خاصة وان كل ما جاء حول هذه الرحلة وما تعلق بها لم يرد بتفصيل في غير هذين الكتابين.

وهناك فريق ضعيف من المؤرخين يمثلهم « سير وليم موير » يرون في قصة اسماعيل فترة اقامته بمكة اسطورة خيال صنعها الاسرائيليون عبر التاريخ وابتدعوها ليربطوا بينهم وبين العرب ليكون حظهم مشتركا في كل ميراث تاريخي وحضاري على حد سواء باعتبار انتمائهم جميعا الى ابيهم الاعلى ابراهيم ، ومهما تكن مستندات اولئك النفر من المؤرخين وحيثيات اجتهادات لهم ، فان صحة وسلامة السياق العام لمجموع تاريخ المنطقة التي شهدت حركة النشأة الاولى للاباء الاول من ذرية ابراهيم الذي اكدت كل الاثار التاريخية على صحة وحقيقة وجوده التاريخي (١) يحقق صحة بعضها الاخر بالاضافة الى ان ما ورد في القرآن الكريم والتوراة وهما من اهم المصادر الدينية التي يعتمد عليها كل من العرب واليهود في تكييف مواقفهما الدينية والسياسية على حد سواء يثبت كذب وخطأ ما يذهب اليه اولئك المؤرخون .

والذي نود ان نلفت اليه هو انه ليس معنا من دليل حتى الان ولم نطلع على ما يقدم منهجا اصيلا ينفي قدوم اسماعيل الى الجزيرة العربية وانتماء ارومات عربية اليه بعد ان عاش بين القوم واصبح منهم وأبا لهم. بل ان تتبعنا الرتيب لتناقضات هذه المرحلة الدقيقة وتداخلات احداثها وغموضها قد اوقفنا طويلا الى ما اشارت اليه التوراة صراحة من اشتراك اسماعيل في دفن ابيه ابراهيم مع اخيه اسحاق في ارض فلسطين ، اي ان اسماعيل الذي اثبتنا انه المقصود بآيات التوراة حين الفداء وحين التضحية والذي ثبت بالقطع انه المقصود بالفداء في آيات القرآن الكريم والذي كان بالجزيرة العربية حيث تم الفداء كان يتردد على ابيه ابراهيم من الجزيرة العربية الى فلسطين والا لو كان قد بقي في فلسطين لظلت الغيرة والحسد يعملان في نفس السيدة سارة كما تعبر التوراة عنها وتدعي والا لو بقي في فلسطين ولم يكن قد ذهب الى الجزيرة العربية وكبر واصبح يتردد على ابيه لما كان هناك من معنى للايات التوراتية التي تقول فيها « هاجر » لابراهيم بعد ان وصل الى الجزيرة العربية يصحبها ومعه ولده اسماعيل منها وابتنى البيت الذي ورد ذكره في القرآن صراحة واراد العودة الى حيث

---

(١) انظر في هذا : ابراهيم ابو الانبياء للاستاذ عباس محمود العقاد صادر عن كتاب الهلال القاهرة .

ترك سارة فتقول له هاجر : الى من تكلنا ؟ فيقول لها الى الله فترد عليه اذن لا يضيعنا نقول انه اذا صح القول اليهودي بانه اسماعيل لم يذهب الى الجزيرة فمن اذن الذي كان مع ابراهيم وزوجه هاجر ، اهو اسحاق ايضا هذه المرة وهو لما لم يكن قد ولد بعد ؟

فاسماعيل وامه قد استجابا لابراهيم فيما ارتآه من ان يجنبهما النزاع الذي قد يتفاقم بين الزوجين والغيرة التي قد تفتل سارة وتزعج أمن ابراهيم واستقراره ـ هذا على فرض تقدير سلامة منهاجية التوراة فيما ترويه ـ والاغضاء جدلا عن مقاصد عظمى اخرى في معتقدات دينية اسلامية مثلا حول سر ذهاب ابراهيم الى الجزيرة العربية وتوجيه الرحلة اليها على منهج التوراة نحاول ان نرى الصورة من بعض جوانبها وان كان التقدير الاجتماعي للرجال الكبار في دراسة حياتهم فضلا عن القداسة الدينية التي تجعل النبي الرسول اكرم واعظم من ان يوجه ـ من جانب بشر ـ الى توجيه او ينبه الى عدم الوقوع في خطأ او ان يطلب منه ما لا يرضى يرفض ان يؤمر الرجال من قبل نسائهم بالجور على واحدة وولدها دون الاخرى او استبقاء واحدة ثم طرد الثانية وتشريدها .

ويبقى بعد كل ذلك التسليم المعقول بأن ابراهيم عليه السلام فيما اقدم عليه من رحلته الى الجزيرة العربية بزوجه وولده انه كان امتثالا لامر الله في ان ينشر قضية العدل التي يؤمن بها ويدعو اليها ثم يفتح الطريق الى الله امام بيئة جديدة ومناخ جديد لقوم كانوا في صحرائهم وظلوا فيها مصدر خلق لكل الجماعات الانسانية في طول بادية الشام وعرضها وارض الجزيرة العربية وما حولها والى ما جاورها من اراضي اقيمت فيها ممالك وحضارات على يد البدو الرحل من العرب الذين قدموا في اولى رحلاتهم من الجزيرة العربية الى العراق والى مصر منذ القرن الخامس والاربعين قبل ميلاد السيد المسيح .

وعليها فان قدوم ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام الى مكة كان في حوالى عام ١٧٦٠ ق . م اي بعد خروج ابراهيم من ارض « اور » الكلدانية وذهابه الى ارض الكنعانيين ثم غربته في مصر والعودة مرة ثانية الى فلسطين وبقائه فيها عشر سنين الى ان انجب اسماعيل وكبر وصلب عوده ورافق اباه في الرحلة الى الجزيرة العربية وكان عمر اسماعيل حينئذ على ما يذهب جمهور كبير من المؤرخين والمفسرين الاسلاميين ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاما يكبر اسحاق اربعة عشر عاما حين كان ابوهما يزمع السفر باسماعيل .

ولقد انتهى امر القافلة : ابراهيم وزوجه هاجر وولده اسماعيل الى احد أودية مكة القفر وحطوا رحالهم عند دوحة شجرة هنالك في الموضع القريب من زمزم الى ان استقروا بعض الشيء وكان على ابراهيم ان يفكر في مواصلة امتثاله لربه يبشر بالحق والعدل ويحمل الدعوة الى الله في طول هذه المنطقة الشاسعة من البادية كلها وشبه الجزيرة العربية فهم بالرحيل عن الولد وامه قاصدا بعض ما تبقى منه في ارض فلسطين . وهنا يدور حوار بين الرجل وزوجه تأثرت به احداث المنطقة كلها من يومها : الزوجة في موقف رجاء وصمت خشوع وحال استفسار : الى من تكلنا يا ابراهيم ؟ ويتحسس الرجل الطاعن في السن اعماق نفسه كنبي وكرسول وينفعل كل كيانه اكلكما الى الله ؟ ويخرج من فم السيدة الممتثلة لربها والمؤمنة به على الفور ودون ما صنعة او ادعاء ، يخرج من فمها مفتاح الموقف كله بل وتحديد معالمه ورفض كل زيف وشجب كل ادعاءات باطلة : آلله امرك بهذا ؟ ويقول النبي واعماق قلبه ممتثلة لربه مستجيبة مطمئنة الى حكمته وتدبيره : نعم ، وترد عليه السيدة هاجر زوجة النبي وام الفتى النبي : اذن لا يضيعنا وقد كان واستجاب الله لرجاء السيدة الداعية من اعماقها محققا وعده ولم تتعرض هاجر وولدها لاذى بل كان منه بعد ذلك الشيء الكثير والخير الوفير ويقص القرآن الكريم في السورة رقم ١٤ من الاية ٣٧ عنف هذا الموقف العميق الرهيب فيقول تعبيرا عما انفعلت به نفس ابراهيم ومشاعره حين هم بالرحيل تاركا ولده وزوجه : ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ويصدق الله مطلب النبي الرسول ويكون من ذريته المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم والذي بدعوته استقر البيت في قلوب الناس واصبح امل وحلم كل مسلم ان يطوف البيت العتيق وان يكبر لله فيه ، وان الملايين التي تشد رحالها كل عام على امتداد قارات الدنيا وبكل اللغات تنطق حول البيت بلغة ابي الانبياء الله اكبر الله اكبر دليل على صدق وعده للنبي الرسول الكريم .

دور النبي اسماعيل في الجنس العربي :

لا يلتفت الكثيرون الى اهمية الدور الاساسي الذي قام به النبي اسماعيل في عملية تجميع وحدة الجنس العربي ، فاسماعيل عليه السلام من الناحية الانثروبولوجية حركة عضوية كبيرة تربط ما بين امتداد الارض العربية في آفريقيا واسيا .

والذي نود ان نلفت اليه ان اسماعيل بن ابراهيم من ناحية الجنس عراقي اسيوي لابيه الذي ولد في اور الكلدانية ومصري افريقي لامه هاجر المصرية التي كانت من بين الهدايا والخير الكثير الذي وهبه الفرعون لابراهيم عند خروجه من مصر متوجها الى ارض كنعان مرة ثانية .

وحين كبر اسماعيل في الجزيرة العربية واصبح رجلا كان يحمل هذه الخصائص والمكونات . فهذه الصفات البيئية الواسعة ما بين الافريقية في مصر والاسيوية في العراق ، فلما تزوج من القبيلة القادمة من اليمن الى وادي مكة حيث كان يقيم وحيث كان قد ابتنى مع ابيه ابراهيم البيت الذي لم يعد هناك من ينكرعلاقة نبي الله ابراهيم به حتى ان هناك بعض المفكرين الماديين من الذين لا ينكرون رحلة ابراهيم واسماعيل الى الجزيرة العربية وينكرون العقيدة الدينية في علاقتها بالوحي الالهي يقولون : بانهما ابتنيا بيتا كان قصد ابراهيم منه أن يقي الولد وامه برد الشتاء وحر الصيف ، بينما هو البيت الذي يرى فيه كثير من المفكرين الدينيين المعنى المقصود لـ : « بيت لله » الذي كان منذ زمن قديم جدا قبل قدوم ابراهيم الى ارض مكة قائما بالفعل ، فلما جاء ابراهيم واسماعيل رفعا قواعد البيت ووسعا ارجاءه ، وظل اسماعيل بجانبه الى ان تزوج من الجراهمة وهي القبيلة التي كانت قد خرجت من جنوب الجزيرة العربية ضمن حركةالهجرة التي كانت تموج بها المنطقة وضمن الافواج التي كانت لا تستقر في مكان بعينه بل حيث يوجد الحيوان والمرعى او حيث كانت الجماعات تتجه تحمل التجارة وتقصد البيع والشراء في اماكن تجمع البشر واستقرارهم .

وتزوج اسماعيل من « جرهم » القبيلة العربية الخالصة من فتاة اسمها « رعلة بنت عمرو » ثم تزوج من نفس القبيلة بفتاة ثانية اسمها « سعيدة بنت مضاض » واقترن بالثالثة ايضا من نفس القبيلة فتاة اسمها « الحنفاء بنت الحارث بن مضاض » وبالزوجات الثلاث اللائي اقترن بهن اسماعيل جرى في اعماقه واعماقهن الدم العربي الخالص ممتزجا بالدم المصري الافريقي بالدم العراقي الاسيوي الذي كان مزاجا لمكونات قسم جديد من العرب بدأ بأولاد اسماعيل الذين ترد اخبارهم في التوراة بانهم كانوا اثني عشر ولدا والذين كانوا نتاج زواجه من البنات الثلاث وبدات السلسلة العربية لهذا القسم من العرب الذي كان اسماعيل المصدر الاعلى له بهذا الترتيب : بنايوت ، قيدار ، أوئيل ، ميسام ، مشاع ، دومة ، مسا ، حدار ، يطور ، تيما ، قدمه ، نافيش (١) .

---

(١) انظر في هذا « ابكار السقاف » في « اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة » صادر عام ١٩٦٧ عن « عالم الكتب » القاهرة .

وهؤلاء الابناء هم الذين كانوا مصادر مباشرة للجنس العربي من عصر اسماعيل وعنصرا جديدا فيه بدأ يعمل عمله بالخلق والتكاثر منذ الولد «قيدار» الابن البكر لاسماعيل وقد أصبح قيدار ابا لـ «حمل» الذي اصبح ابا لـ « ثابت » الذي اصبح ابا لـ « سلامان » الذي اصبح ابا لـ « الهيسع » الذي اصبح ابا لـ « اود » الذي اصبح ابا لـ « نزار » الذي اصبح ابا لـ « اياد ، وانمار ، وربيعة ، وعيلان ، ومضر » هذا الذي اصبح ابا لـ «الياس » الذي ولد له « هزيل ومدركة » هذا الذي اصبح ابا لـ « خزيمة » الذي أصبح ابا لـ « الهون واسد وكنانة » وكنانة هذا الذي اصبح ابا لـ « للنضر » الذي ولد له عمرو وعامر وملكان ، وعبد مناف وقيس ومالك ، مالك هذا الذي اصبح ابا لـ « فهر » الذي ولد له محارب والحارث وضبة وهلال وعبدالله والجراح وابو عبيدة عامر ، وغالب الذي اصبح ابا لـ « لؤي » الذي اصبح ابا لـ « كعب » الذي اصبح ابا لـ «مرة» الذي اصبح ابا لـ « كلاب » الذي اصبح ابا لـ « قصي » الذي اصبح ابا لـ «عبدمناف » الذي اصبح ابا لـ «هاشم» الذي اصبح ابا لـ «عبدالمطلب» الذي أصبح ابا لـ « عبد الله » الذي اصبح ابا لـ « محمد » النبي الرسول العربي عليه السلام .

ومن هذه السلسلة الطويلة كانت تتعدد فروع السلسلة وتتسع ، لتشمل بطونا وقبائل وافخاذا واسرا عربية كانت جميعا ترجع في اصلها التاريخي والجنسي الى اسماعيل بن ابراهيم الذي يحمل خصائص ودم الشعب المصري والعراقي منذ تزوج ابراهيم الذي ولد في العراق ، هاجر المصرية .

وقد اصبح اسماعيل ابا لكل هذه السلسلة العربية منذ تزوج من بنات العرب بثلاث اصبح بهن اسماعيل ابا للعرب « المستعربة » ذلك القسم من العرب الذي منذ وجد قد جعل من تكامل الطبيعة الاقتصادية وثروة الحياة لهذه الرقعة الجغرافية الممتدة من الخليج العربي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ميدانا واحدا لمزج العناصر الجنسية لسكان هذه المنطقة الشاسعة التي عملت فيها المعتقدات الدينية والرسالات السماوية التي نادى بها اصحابها كل عملها في التأثير والهدايا فكانت قوة اضافت الى مقومات التكامل الجغرافي لرقعة الارض والتكامل الجنسي لوحدة الشعب معاني جديدة تساعد على المزج والانفعال القومي بقيم الارض والجنس والدين .

وفي هذه الارض العربية التي شهدت نمو وتكاثر وتناسل هذه القسم

من العرب الذي ولد لاسماعيل بن ابراهيم عليه السلام كان هناك في رقعة اخرى من وحدة وتراب هذه الارض ولد آخر لابراهيم اصلا ومصدرا للجنس الذي نعرض له بهذه الدراسة وهو الولد الثاني لابراهيم الذي ولد بعد اخيه اسماعيل ببضع سنين من السيدة العجوز سارة هذا الولد : هو اسحاق وفي لغة المسلمين وعاطفتهم وعقائدهم : « النبي » اسحاق عليه السلام .

دور اسحاق في الشعب الاسرائيلي :

اسحاق : الولد الثاني لابراهيم والمولود في سن متأخرة جدا من عمر ابراهيم بعد المائة والعشرين كما تحكي التوراة ما ان اصبح رجلا في سن الاربعين الا واتخذ لنفسه زوجة اسمها : « رفقة بنت بتوئيل الارامي » . ومن عجب ان التوراة في منهجها القصصي وسردها الحوادث حريصة على اشياء بذاتها كثيرا ما يكررها النهج التوراتي ويحرص عليها مثل عقم النساء الى سن متأخرة ثم انجابهن الاولاد بعد سن اليأس ، ومثل تكرار الموقف الذي يقول فيه الرجل ايا كانت مرتبته عند قومه وايا كانت قيمته الاجتماعية او الدينية فهو دائما في النهج التوراتي عند مواقف الشدة يقول عن زوجته : انها اختي حتى يكون له بهذا الموقف مخرجا من الحرج او المشقة فكما حدث لابراهيم في مصر وعند الملك ابيمالك في جرار وفي منطقة بئر سبع ، من ان ابراهيم قال عن زوجته سارة انها اختي في الموقفين كذلك فان اسحاق حين تزوج من « رفقة التي كانت عاقرا لا تلد الى ان اصبح اسحاق رجلا يتضرع ويبتهل الى ربه وتستجاب دعواته ويتقبل رجاؤه ، حبلت له «رفقة» بولدين بشرا بهما اسحاق فانه كذلك قد قال لابيمالك ملك الفلسطينيين حين خرجا من ارض كنعان الى منطقة بئر سبع ورآها ملك ابيمالك : انها اختي ولست ادري كيف توافقت الصنعة التوراتية للمواقف التقليدية هذه الى هذا الحد الذي مثل فيه الولد دور الاب تماما يقول التكوين (١) في تدوينه لهذه المرحلة من عمر اسحاق بن ابراهيم » وصلى اسحاق الى الرب لاجل امرأته لانها كانت عاقرا . فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان في بطنها . فقالت ان كان هكذا فلماذا انا ، فمضت لتسأل الرب . فقال لها الرب في بطنك امتان ومن احشائك يفترق شعبان شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير ، فلما اكملت ايامها لتلد اذ في بطنها توأمان ، فخرج الاول احمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه « عيسو » وبعد ذلك خرج اخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه « يعقوب » وكان اسحاق بن ستين لما ولدتهما .

---

(١) التكوين : الاصحاح الخامس والعشرون : آيات ٢١ ــ ٢٣ .

ويمضي الاصحاح يسترسل في قصص طويل يبرز من خلاله مختلف جوانب الالتواء والانانية في نفس الاباء الاول للابنــاء الذين كانوا بعد ذلك نماذج للدس والخديعة والانانية والذاتية والتسلق والتصيد وادوات لكل مظاهر الزيف والهوى .

يقول سفر التكوين (١) : فكبر الغلامان ، وكان عيسو انسانا يعرف الصيد انسان البرية ويعقوب انسانا كاملا ، يسكن الخيام فأحب اسحاق عيسو لان في فمه صيداً . واما رفقة فكانت تحب يعقوب .

وكما هو واضح وصريح من مفهوم هذه الايات فان العلاقة الابوية التي تصورها الاية كانت مرتبطة بهذا المعنى المادي القائم على الحاجة ورغبــة الحس ، وان الاسرة الاولى منذ نشأتها كما تصور هذه الايات : الرجل الكبير اسحاق في سن الستين والام « رفقة » والوالدان اللذان كبرا ، واصبح منهما انسان البرية الذي يعرف الصيد ، والثاني الذي يسكن الخيــام ، مهزوزة ومخلخلة ، جوانب الامن والتضحية فيها مفتقدة ، وعلاقــات الايناس والائتمان بين افرادها منعدمة ، فكل منها على هواه ، وحسبما تحكمــه الحاجة والرغبة او ما تدفعه اليه حواسه من الحاجة والقصد ، ومــا تحكيه التوراة وتقصه حول الاباء الاول لليهود وعنهم هو من وجهة نظر الذيــن يتشدقون بالتوراة ويبررون بها ما يصنعون دينا للجماعات التي تتصور انها تتعلق بهذا الميراث الديني والتاريخي المدعى .

وفي نفس المعنى وعلى هذا النهج يمضي سفر التكوين (٢) يقص حكايته عن اسحاق وولديه عيسو ويعقوب فيقول : وطبخ يعقوب طبيخا ، فاتــى عيسو من الحقل وهو قد اعيا ، فقال عيسو ليعقوب اطعمني من هذا الاحمر لاني قد اعييت ، لذلك دعي ادوم . فقال يعقوب : بعني اليــوم بكوريتك . فقال عيسو ها انا ماض الى الموت فلماذا الى بكورية ، فقال يعقوب احلــف لي اليوم ، فحلف له فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبــزا وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية .

ويمضي السفر فيحكي عن مرحلة من عمر اسحاق لم يشر فيها الى دور ولديه عيسو ويعقوب ، وهي مرحلة الهجرة الى سيناء عند ملك جرار « ابيمالك » .

---

(١) التكوين : الاصحاح الخامس والعشرون ــ آيات ٢١ ــ ٢٢ .
(٢) التكوين : الاصحاح الخامس والعشرون ــ آيات ٢٩ ــ ٣٤ .

وتقول التوراة عن هذه المرحلة (١) ، وكان في الارض جوع غير الجوع الاول الذي كان في ايام ابراهيم فذهب اسحاق الى ابيمالك ملكالفلسطينيين الى جرار . وظهر له الرب ، وقال لا تنزل الىمصر ، اسكن في الارض التي اقول لك . تغرب في هذه الارض فأكون معك واباركك لاني لك ولنسلك اعطي جميع هذه البلاد ، وافي بالقسم الذي اقسمت لابراهيم ابيك ، واكثر نسلك كنجوم السماء واعطي نسلك جميع البلاد ويتبارك في نسلك جميع امم الارض من اجل ان ابراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي آوامري وفرائضي وشرائعي فأقام اسحاق في جرار . وسأله اهل المكان عن امرأته فقال هي اختي لانه خاف ان يقول امرأتي لعل اهل المكان يقتلونني من اجل رفقة لانها كانت حسنة المنظر ، وحدث اذ طالت له الايام هناك ان ابيمالك ملك الفلسطينيين اشرف من الكوة ونظر ، واذا اسحاق يلاعب رفقة امرأته فدعا ابيمالك اسحاق وقال : انما هي امرأتك فكيف قلت هي اختي فقال له اسحاق لاني قلت لعل اموت بسببها فقال ابيمالك ما هذا الذي صنعت بنا لولا قليل لاضطجع احد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا ، فأوصى ابيمالك جميع الشعب قائلا : الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتا يموت .

ويمضي التكوين العجيب فيقص علينا الفترة التي قضاها اسحاق في سيناء واغلب الراي والذي نميل اليه ايضا انه كان في صحبته ولداه عيسو ويعقوب وان لم يرد لهما من ذكر الا بعد ان شاخ وطعن في السن كما تعبر الايات التوراتية فنقف بعد ذلك على تلك الفترة التي قضاها اسحاق في منطقة سيناء يزرع الارض كما تقول التوراة ويباركه الرب وتكثر مقتنياته ويجمع المواشي والبقر والعبيد وينميها الى ان يصبح في حال اقتصادي واجتماعي احس معه سكان الارض انه ابتدأ ينافسهم او يشكل خطرا عليهم فيدخل معهم اسحاق في حوار ومناقشات ومناوشات وصلت بعض مراحلها الى الصدام والعنف الى ان طرات المرحلة التي قطع فيها سكان الارض واهلها على انفسهم ان يكرموه وان يكون بينهم حالة من سلام دائم على ان لا يهم بهم بشر اوعداوة (٢) .

وتقول التوراة وهي تسجل لهذه الحقيقة (٣) وزرع اسحاق في تلك الارض فأصاب في تلك السنة مائة ضعف وباركه الرب فتعاظم الرجل وكان

---

(١) التكوين : الاصحاح السادس والعشرون ـ آيات ١ ـ ١٠ .

(٢) من الممكن الرجوع الى الاستاذ محمد عزة دروزة في كتابه « تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم » ، صفحات ١٢ ـ ١٩ .

(٣) التكوين : الاصحاح السادس والعشرون ـ آيات ١٢ ـ ٣٣ .

يتزايد في التعاظم حتى صار عظيما جدا ، فكان له مواشي من الغنم ومواشي من البقر وعبيد كثيرون . فحسده الفلسطينيون . وجميع الابار التي حفرها عبيد ابيه في ايام ابيه ابراهيم طمها الفلسطينيون ، وملأوها ترابا وقال ابيمالك لاسحاق اذهب من عندنا لانك صرت اقوى منا جدا فمضى اسحاق من هناك . ونزل في وادي جرار واقام هناك فعاد اسحاق من هناك ونزل في وادي جرار ، واقام هناك فعاد اسحاق ونبش ابار الماء التي حفروها في ايام ابراهيم ابيه وطمها الفلسطينيون بعد موت ابيه ودعاها باسماء كالاسماء التي دعاها بها ابوه ، وحفر عبيد اسحاق في الوادي فوجدوا هناك بئر ماء حي فخاصم رعاة جرار رعاة اسحاق قائلين : لنا الماء فدعا اسحاق البئر « عسق » لانهم نازعوه ، ثم حفروا بئرا اخرى ، وتخاصموا عليها ايضا فدعا اسمها « رحوبوث » . وقال انه الان قد أرحب لنا الرب واثمرنا في الارض، ثم صعد من هناك الى « بئر سبع » فظهر له الرب في تلك الليلة وقال انا اله ابراهيم ابيك ، لا تخف لاني معك واباركك واكثر نسلك من اجل ابراهيم عبدي فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب ، ونصب هناك خيمته ، وحفر هناك عبيد اسحاق بئرا ، وذهب اليه من جرار ابيمالك واحزات من اصحابه وفيكول رئيس جيشه فقال لهم اسحاق ما بالكم اتيتم الي وانتم قد ابغضتموني وصرفتموني من عندكم فقالوا انا قد راينا الرب كان معك . فقلنا ليكن بيننا حلف بيننا وبينك ، ونقطع معك عهدا أن لا تصنع بنا شرا كما لم نمسك ، وكما لم نصنع بك الا خيرا وصرفناك بسلام انت الان مبارك الرب . فصنع لهم ضيافة فأكلوا وشربوا ثم بكروا في الغد وحلفوا بعضهم لبعض ،وصرفهم اسحاق فمضوا من عنده بسلام وحدث في ذلك اليوم ان عبيد اسحق جاءوا واخبروه عن البئر التي حفروا وقالوا له قد وجدنا ماء . فدعاها « شبعة » لذلك اسم المدينة بئر سبع الى هذا اليوم .

ولسنا نجد تفسيرا مقبولا لكل ما تقصه التوراة حول هذه البيئة التي كان فيها الاباء الاول لبني اسرائيل في حال من التركيز والتأكيد حول الاشياء المادية المحسوسة وارتباط امور القداسة والتطهر او البركة ومعاني الخير فيها ، حريصين عليها ، مرتبطين بها فبركة الاب اسحق هي حظوة يغتنمها ولد دون الاخر ، وطاعة الولد اكلة لمن يقدمها للوالد النبي الداعي الى الله ، بل وتصوير البركة او الطاعة على انها سلعة عند صاحبها ، اسحق اب لولدين يتصارعان عليها تنفذ اذا ما حصل عليها واحد منهما ولو بالوشاية والتزييف . ثم اي بيت هذا والنبوة والهداية فيه ترتبطان بالاب الذي يدعو الى الله على طريق ابيه ابراهيم عليه السلام صاحب الدعوة الى قضية العدل الاجتماعي وصاحب الدعوة الى الله كي يهدي البشر على الارض بهدي

السماء ، اي بيت هذا وكل ما فيه قائم على الوشاية والنفاق والصراع ، والوحدة الاسرية في بيت النبوة المدعاة في التوراة ممزقة هكذا ومبعثرة بل ومتصارعة (١) ، فكما تقص التوراة في النص الذي اوردناه السابق تتضح المعالم الاتية : ولد في البيت تحبه امه وقريب الى قلبها ، واخر يحبه ابوه واثير لديه ثم تعمل الام بكيد النساء ومكرهن في ان يحظى من الاولاد من ترضى هي عنه وتؤثره بكل خير ابيه وخير الدنيا ، بينما يترك الثاني لحال سبيله مضيعا ومسلوبا ، واي اخوين هما ، وهما يحملان ميراث ابيهما وقد كبرا ، واصبح كل منهما يمثل ابوة جيل جديد من ابنائه واحفاده في الوقت الذي يرضى او يندفع كل منهما لان يصارع الاخر ويحتال عليه عجيب امر التكوين من التوراة وهو يدون لهذه المرحلة التي تاه فيها المصنف التوراتي ، فلم يستطع ان يوفق بين هذه القداسة المدعاة للاباء الاول وبين القيم الاخلاقية والحال العام الذي كان يتأثر به ويكتب له .

يقول التكوين : (٢) « ... وحدث لما شاخ اسحق وكلت عيناه عن النظر انه دعا عيسو ابنه الاكبر ، وقال له : يا ابني، فقال : ها انذا، فقال: اني قد شخت ولست اعرف يوم وفاتي ، فالآن خذ عدتك، جعبتك وقوسك واخرج الى البرية ،وتصيد لي صيدا ، واصنع لي اطعمة كما احب ، واتني بها حتى تباركك نفسي قبل ان اموت ، وكانت رفقة سامعة اذا تكلم اسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو الى البرية كي يصطاد صيدا ليأتي به . واما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة اني سمعت اباك يكلم عيسو اخاك قائلا : ائتني بصيد واصنع اطعمة لاكل واباركك امام الرب قبل وفاتي فالآن يا بني اسمع لقولي في ما انا آمرك به ، اذهب الى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى ، فاصنعهما اطعمة لابيك كما يجب ليأكل حتى يباركك قبل وفاته ، فقال يعقوب لرفقة امه هو ذا عيسو اخي رجل أشعر وانا املس ، ربما يجسني ابي فاكون كمتهاون واجلب على نفسي لعنة لا بركة ، فقالت امه لعنتك علي يا بني اسمع لقولي فقط واذهب خذ لي ، فذهب

---

(١) من الجدير بالذكر ان هذا البيت بمنظار الاسلام اليه من خلال رواية القرآن الكريم يختلف عما يستفاد من التوراة تماما .

(٢) الاصحاح : ٢٧ - ١ - ٤٥ ، ومن الممكن ان يرجع في الكشف عن الجوانب الاخلاقية عند مصادر اباء اليهود الى البحث العلمي الممتاز الذي كتبه الاستاذ الدكتور صبري جرجس في كتابه التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي : الصادر عن عالم الكتب عام ١٩٧٠ م.

واخذ واحضر لامه فصنعت له اطعمة كما كان ابوه يحب ، فأخذت رفقةثياب عيسو ابنها الاكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت والبست يعقوب ابنها الاصغر ، والبست يديه وملاسة عنقه جلود جديي المعزى ، واعطت الاطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها فدخل الى ابيه وقال يا ابي ، فقال ها انذا من انت يا ابني فقال يعقوب لابيه انا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك . فقال اسحق لابنه ما هذا الذي اسرعت لتجد يا ابني ، فقال ان الرب الهك قد يسر لي ، فقال اسحق ليعقوب : تقدم لاجسك يا بني اانت هو ابني عيسو ام لا ؟ فتقدم يعقوب الى اسحق ابيه فجسه ، وقال الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو ولم يعرفه لان يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو اخيه فباركه ، وقال هل انت هو ابني عيسو ؟ فقال انا هو ، فقال قدم لي الاكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي . فقدم له فأكل ، واحضر له خمرا فشرب فقال له اسحق ابوه تقدم وقبلني يا ابني ، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه ، وقال : انظر رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب . فليعطك الله من ندى السماء ، ومن دسم الارض وكثرة حنطة وخمر ، ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل ، كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو امك ، ليكن لاعنوك ملعونين . ومباركوك مباركين .

وحدث لما فرغ اسحق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن اسحق ابيه ان عيسو اخاه قد اتى من صيده ، فصنع هو ايضا اطعمة ودخل بها الى ابيه ، وقال لابيه : ليقم ابي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك، فقال له اسحق ابوه من انت ؟ فقال انا ابنك بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعادا عظيما جدا ، وقال فمن هو الذي اصطاد صيدا واتى به الي فأكلت من الاكل قبل ان تجيء وباركته ، نعم ويكون مباركا ؟ فعندما سمع عيسو كلام ابيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدا ، وقال لابيه باركني انا ايضا يا ابي . فقال قد جاء اخوك بمكر واخذ بركتك . فقال الا ان اسمه دعي يعقوب ، فقد تعقبني الان مرتين : اخذ بكوريتي ، وهو ذا الان قد اخذ بركتي ، ثم قال اما بقيت لي بركة ؟ فأجاب اسحق وقال لعيسو : اني قد جعلته سيدا لك ، ودفعت اليه جميع اخوته عبيدا وعضدته بحنطة وخمر ، فماذا اصنع اليك يا ابني ؟ فقال عيسو لابيه : الك بركة واحدة فقط يا ابي ؟ باركني انا ايضا يا ابي ورفع صوته وبكى ، فأجاب اسحاق ابوه ، وقال له هو ذا بلا دسم الارض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك تعيش ، ولاخيك تستعبد ولن يكون حينما تجمح انك تكسر نيره عن عنقك . فحقد عيسو على يعقوب من اجل البركة التي باركه بها ابوه ،

وقال عيسو في قلبه قربت ايام مناحة ابي ، فأقتل يعقوب اخي ، فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الاكبر . فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الاصغر ، وقالت له : هو ذا عيسو اخوك منسل من جهتك بأن يقتلك ، فالآن يا ابني اسمع لقولي وقم اهرب الى اخي «لابان » الى حاران ، واقم عنده اياما قليلة حتى يرتد سخط اخيك ، حتى يرتد غضب اخيك عنك وينسى ما صنعت به ، ثم ارسل فآخذك من هنا . لماذا اعدم اثنيكما في يوم واحد .

هذا الحوار المصنوع والذي يعطي الدارس في اول وهلة التصور الكامل عن فنية التدين الهزيل الذي يفصح اليوم عن مدى سقم خيال المؤلف التوراتي في الصياغة وهو يؤرخ لموقف عائلي في بيت الاباء الاول ، الذين يحمل بنو اسرائيل اليوم في دعوى زيف جنسي وتاريخي وديني ميراثهم (١) فان النص يقدم دون ما اجتهاد كبير صورا من التناقض الاجتماعي والخلخلة الاسرية ، بل والوشاية والدسيسة في بيت صغير متمثل في اسحق وولديه يعقوب وعيسو ، بل ان الدارس ليعجب كيف تكون القداسة الدينية في جو كهذا ، وكيف تنحصر في بيت فيه الاباء يقدمون بركتهم ويمنحون هدايتهم وميراثهم نظير لقمة عيش لمن يقدمها من الابناء في سباق اخلاقي تحركه الانانية النسائية في تفضيل « رفقة » ام عيسو ولدها عيسو على اخيه يعقوب بل ولا ندري ، لم قضى رجل مقام اسحق يوصف حسبما تدعيه التوراة نفسها في بعض اياتها بالنبوة والهداية ، ويوصف ايضا كما تدعي التوراة بانه يحمل ميراث ابيه ابراهيم الذي ترى فيه التوراة بانه كان خليل الرحمن وحبيبه ، بان يصبح الولد الذي يقدم طعام الصيد كما اراد وكما اشتهى يعقوب هو الذي سيصير عظيما ، وهو الذي يقوى ويصبح سيدا ويتغلب على ابناء امه وعلى اله ويحمل بركة ابيه . ومهما تكن من دوافع الرفض المبني على اعتبارات وعوامل الفطرة السليمة فانا لا نود ان ندخل بالكامل هذه في تفسير ديني او تفنيد علمي لمنهاج التوراة الديني او فنية تصنيفها في هذا المبحث بالذات وان كنا سنعرض لجوانب من العلاقة الدينية التاريخية عند بني اسرائيل فان لنا دراسة اخرى في القريب العاجل عن منهج التوراة الديني ومدى علاقته بالتاريخ .

والذي يمكن ان يقدمه لنا هذا النص من التكوين في الاصحاح السابع والعشرين ، هو ان العلاقة الخاصة المدعاة والتي منحها اسحق لابنه كانت

(١) سنتعرض بالدراسة في هذا الكتاب لموضوع الارتباط الجنسي والتاريخي المدعى عند جماعات يهود اليوم ونناقش قضية الشعب المختار .

لعيسو شقيق يعقوب ، ولم تكن ليعقوب الاب المباشر لابناء اسرائيل واليهود من بعدهم ، وانما كان يعقوب في النبوة والقداسة بمنهجالتوراة التي تقص الرواية الدينية حتى اليوم صنعة امه حين سمع لها واستجاب في آن يسرق بركة ابيه اسحق المحتجزة لعيسو ، فمهما تكن بعد ذلك من قداسة يعقوب وبركته وصنع احاديث المعجزات حواليه . فانما هي بركة مسروقة وقداسة مختلسة ، ومعجزات اساسها الديني باطل . فما صنع الابناء بعد ذلك من دعوات وما امنوا به من معتقدات وما ادعوه من ميراث عظموه وقدسوه بين ايديهم للاباء وجعلوه سبيل الابناء فان باطل ما صنعوا وزيفوا هو الذي يجعل التاريخ يضج بمفترياتهم حتى قيل ان تصبح صناعة المعتقدات اليومية والمذاهب العصرية منهجهم وتزييف كل ما لا يوائم النشأة التي تعتمد على السطو والاغارة وسرقة ما للغير في حقه ثم مسخه وتشويهه حتى ولو كان ميراث اب كما تفصح الايات المصنوعة من يعقوب وابيه مكونات طبعهم ومزاجهم ، وخلق ميراثهم وعقيدتهم .

ومما يحير حقا هو سر برور الطبع الملتوي والخلق النهاز والحرص الاناني، والعمل بالوشاية والدس بالخديعة في البيت الثاني لابناء ابراهيم في اسحق وولديه ثم ذريتهما من بعدهما ، بينما هناك في الجزيرة العربية عند مكة وفي واديها حيث نشا الولد الاول لابراهيم ، اسماعيل وحيث واصل حياتههناك واستعرب وعاشر القوم العرب واصبح منهم بل واصبح ابا وسيد الرجال والقبائل والبطون التي عرفت بالمروءة والنخوة والفداء والتضحية وكلمعاني الشهامة والنبل الانسائي والترفع بآداب واخلاق التعامل الانسائي بينهم وبين اخوانهم من القبائلوالبطون والعشائر وبين جيرانهم على الحدود ما يجعل من هذا البيت الاول للولد الاول من ابناء ابراهيم امل ورجاء كل ما يمكن ان يحمله اب من ميراث ومن امانة دين وسجية طبع ، وسلامة فطرة لمثل هذه النشأة في هذا البيت لهذا الولد الذي حافظ على مصادر هداية الاب وايات التعاليم التي غرسها فيه وفي بيته فعمل بها وتحمل مسئوليتها واستحق عن جدارة ان يكون مصدرا للهداية والتوجيه .

دلالة التسمية باليهود :

قبل ان يموت يعقوب كان قد نبه اولاده جميعا واوصاهم بأن يسمعوا ويطيعوا وان يكونوا تحت قيادة اخيهم « يهوذا » وكان يهوذا الولد الرابع ليعقوب ، ولتقديم يعقوب الولد الرابع « يهوذا » على سائر اخوته لم يكن الاخوة العشرة يدينون له جميعا بولاء واحد ، بل لم يذعن له بالولاء بعضهم

والشق عليه ، فلما اصبح سيد اخوته وتولى أمرهم منصبا نفسه عليهم اطلقت لفظة « يهوذا » واليهوذ : على اولئك الذين رضوا بأن يكونوا تحت لواء « يهوذا » من ابناء ابيهم يعقوب ، وعندما نطق العرب الكلمة « يهوذا » ابدلوا الذال بالدال ، ومن تاريخها عصر ابناء يعقوب اصبحت تنطق لفظتي: الاسرائيليون واليهود ، وهما يرتبطان تاريخيا بأبناء يعقوب بن اسحق بن ابرآهيم عليه السلام وهذا التقرير حول الاستعمال التاريخي للتسميتين « الاسرائيليون واليهود » هو ما يستفاد ـ بالرؤية العلمية ـ من السياق العام لايات التوراة رغم ما ذهب اليه واحـد من المفكرين الاسلاميين كالشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » من قوله عن « اليهود » واليهودية انها دين انتسب اليه بعض بني اسرائيل في عصر موسى من قول: هاد الرجل اي رجع وتاب ، وانما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام : انّا هدنا اليك ـ اي رجعنا ـ وتضرعنا ، وهم أمة موسى وكتابهم التوراة (١) .

الا ان هذا المعنى الذي ذهب اليه مفكر اسلامي عظيم كالشهرستاني لعله يخدم او يقدم لمرحلة الهداية والتوبة حين استجاب بعض القوم لموسى عندما ظهر بينهم نبي الله ولعل هذا المعنى هو الذي كان يؤرخ ويكتب له رجل عظيم كالشهرستاني ، ويبقى فوق كل ما كان يؤرخ له الشهرستاني الظروف الموضوعية المرتبطة بلفظتي « اسرائيل » و « اليهود » على ضوء معطيات النص اللغوي تارة والسياق العام لحوادث التوراة وتناقضات تدوينها تارة اخرى وهي التي قلنا سنجعلها رغم انها معتقد اليهود ودينهم والمعبرة عن وجهة نظرهم وما يلوكونه من دعوى وما يمثلونه من مواقف ، اداة لنا في بعض ما نذهب اليه نلقي عليه النظرة العلمية المعاصرة التي تبحث عن اليهود بين الدين والتاريخ لعله قد يتيسر للمطلع على تاريخ القوم الديني المرتبط بموقفهم السياسي عبر مراحل طويلة من التاريخ ان يفهم موقف القوم على ضوء تصور وفهم جديدين ..

وحول تقرير ما ذهبنا اليه فان من الملاحظ ان ابناء يعقوب انقسموا رغم الوحدة الاسرية التي كان يمثلها الاب يعقوب الى قسمين او فئتين او

---

(١) الملل والنحل للامام الافضل محمد بن عبد الكريم الشهرستاني تخريج فضيلة المرحوم الدكتور محمد بن فتح الله بدران استاذ الملل والنحل لقسم التخصص بكلية اصول الدين ، ص ٤٩١ ، مطبعة الازهر .

مذهبين : قسم منها يدين بالولاء الاسري لنعرة الاسم والصفة القديمة التي خلعت على الاب « اسرائيل » فكانوا يحافظون على تـــداول التنـــادي بـ « اسرائيل » وابناء اسرائيل تميزا لهم واطلاقا عليهم ، والقسم الثانـــي الذي اتبع « يهوذا » ونسب نفسه اليه تسمى باسمــــه ، وتدولت كلمـــة « اليهوذ » ويهوذا دلالة عليهم .

واصبحت قبيلة يهوذا واسرة يهوذا ؛ تعني الولاء للولد الرابع يهوذا ابن يعقوب ومن العجيب حقا هو ذلك الارتباط التعصبي العنصري للاسرائيليين واليهود ، حتى عند الجماعات الاولى من ابناء يعقوب فالقوة والوشايـــة والمؤامرة هي كل صنعة صنعها القوم وخلعوها على انفسهم . فيعقوب يلبس لفظة « اسرائيل » عن طريق الغلبة والقهر و « يهوذا » يلبس السيادة على ابناء ابيه بالوصاية والتسلط لتصبح بعد ذلك هذه الصفات جزءا من الطبع الملتوي والخلق النهاز الصفات النفسية التي نشأ القوم عليها وألفوا حياتهم بحيث كان من المتعذر ان يترفع الواحد منهم او يتأبى عن سلوك مشين او خلق ممتهن حتى عندما كان يقوم واحد منهم بعمل او توكل اليه مهمة او يمثل شيئا ما فانه كان يسير بالطبع نفسه على غرار ما الف القوم جميعا ومـــا نشأوا عليه مثلما اصبح يهوذا الوالد الرابع من ابناء يعقوب في سن متقدمـــة بعد موت يعقوب ووكل اليه مسئولية جماعته او مجتمعه الصغير من الاهل والاتباع واصبح يهوذا يمثل بالنسبة لاتباعه ولاخوته في اقل الاعراف وابسط مظاهر السلوك العف قيمة اخلاقية ، او مثالا يحتذى خاصة وان القـــوم جميعا الفاجر منهم والمدعي كانا يمثلان الانتماء والالتصاق الى بيوت الابـــاء من ابراهيم واسحق ويعقوب .

الا ان يهوذا مثلا الذي ارتبط به بعض من ابناء ابيه واصبح اسمه يمثل معنى اسريا ودينيا في تاريخ اولئك القوم عندما كبر وطعن في السن واصبح في حال كان من الممكن ان يعف فيه وان تترفع جوارحه عن الخطيئة واتيـــان النساء : زنا ودعارة في فاحشة مفضوحة ، تقص علينا التوراة بعض ملامحه في جزء متأخر جدا من عمره وتكشف لنا عن سر التصاق الخلق الاجتماعـــي اليهودي بأساليب الدعارة والفسق العلني . واحتضان هذا الخلق المتوارث عند اليهود لدعوات العراة وموضوعات الشذوذ الجنسي واستغلال النساء في مآرب الحس ومقاصد الحياة الصاخبة دون ما تحرج او مشقة ، باعتباره خلقا موروثا حمله الابناء وتعلقوا به ، بل واصبح عندهم هو ميراث الابـــاء

الدينيين الذين من عجب يلتصق بهم اليوم في زيف دعوى ، يهود العالم شرقه وغربه على حد سواء (١) .

تقول التوراة عن يهوذا في الاصحاح الثامن والثلاثين : « ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امراة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا فصعد الى جزاز غنمه الى تمنة هو وحيرة صاحبه العدلامي فأخبرت ثامار ، وقيل لها هوذا حموك صاعد الى تمنة ليجز غنمه ، فخلعت عنها ثياب ترملها ، وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل « غينايم » التي على طريق تمنة لانها رات ان « شيلة » قد كبر وهي لم تعط له زوجة ، فنظر يهوذا وحسبها زانية لانها كانت قد غطت وجهها فمال اليها على الطريق وقال هاتي ادخل عليك ، لانه لم يكن يعلم انها كنته . فقالت ماذا تعطيني لكي تدخل علي ، فقال اني ارسل جدي معز من الغنم . فقالت هل تعطيني رهنا حتى ترسله ، فقال ما الرهن الذي اعطيك . فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك ، فأعطاها ودخل عليها . فحبلت منه . ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها ، فأرسل يهوذا جدي المعز بيد صاحبه العدلامي ليأخذ الرهن من يد المراة ، فلم يجدها ، فسأل اهل مكانها قائلا : اين الزانية التي كانت في غينايم على الطريق فقالوا لم تكن هنا زانية ، فرجع الى يهوذا وقال لم اجدها واهل المكان ايضا قالوا لم تكن هنا زانية ، فقال يهوذا لتأخذ لنفسها لئلا نصير اهانة . اني قد ارسلت هذا الجدي وانت لم تجدها ، ولما كان نحو ثلاثة اشهر اخبر يهوذا ، وقيل له قد زنت « ثامار » كنتك وها هي حبلى ايضا من الزنا ، فقال يهوذا اخرجوها فتحرق . اما هي فلما اخرجت ارسلت الى حميها قائلة : من الرجل الذي هذه له انا حبلى ، وقالت حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه فتحققها يهوذا وقال هي ابر مني لم اعطها « لشيلة » ابني فلم يعد يعرفها ايضا » .

ومن مثل هذا الخلق المنحرف ، وبسجايا الطبع الملتوي ، وبعنف الغرائز الحسية المتدفعة وبقيم الدين الاجتماعي والقائم على عنف حياتهم اليومية وزيفها . هذا الدين الذي جعلوه بديلا لكل دين ساقه الاباء الاول اليهم ولم يتح لهم الا ان يزيفوه من ابراهيم عليه السلام الى الذين امنوا به حملوا هم كل تناقضات اخلاقهم وجدبها وجاءوا جماعات ــ عبرية ــ تعبر الصحراء والبادية وتجتاز سيناء مصر لتدخل الى مصر الفرعونية التي كانت

(١) التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي ، دكتور صبري جرجس .

وقتئذ قد تغلب عليها قوم سبقوا العبريين في الزمن وجاءوا اليها رعاة موجة اثر موجة منذ ابتدات صحراء الجزيرة العربية تقذف من احشائها جموعا من آلبشر من وسط الجدب والقحط الصحراوي ، ما ان تنفتح اعينهم على المحيط العام بهم الا وتتجه ابصارهم الى حيث يوجد الحيوان والمرعى وليستقر منهم من يشاء على ضفات الانهار فكانت هجراتهم الى العراق عند الفرات تارة والى النيل عند مصر تارة اخرى . وحين قدم العبرانيون من ابناء يعقوب كان من اولئك القوم الرعاة ، القوى التي استطاعت ان تحكم مصر وتتسمى باسم « الهيكسوس » .

ونود هنا ان نوضح اللبس الذي وقع فيه بعض من الكتاب القدامى والمحدثين مستندين فيما ذهبوا اليه مما جاء ذكره على لسان المؤرخ اليهودي « يوسيفوس » الذي عاش في الفترة التي سبقت الميلاد مباشرة ، من ان العبرانيين من ابناء يعقوب هم الهيكسوس الذين حكموا مصر .

فالحقيقة التاريخية ان الهيكسوس ليسوا هم العبرانيين الذين يرادون عند الحديث عن الاباء الاول لليهود ، غير انهم في طريق هجرتهم ، بعد ان اقتحموا سوريا في قدومهم من اسيا الصغرى انهم امتزجوا بالكنعانيين الذين سكنوا ارض فلسطين في حركة هجرة قاموا بها من الجزيرة العربية سابقة لقدوم الهيكسوس في اقل تقدير حوالى ١٢٠٠ سنة .

ولما كان العبرانيون وخاصة من ابناء يعقوب قد مكثوا فترة من الزمن في ارض كنعان ، وحملوا معهم بعض عادات القوم آلكنعانيين ، وتم لهم استعمال الفاظ كنعانية ، شاع خطأ تاريخي بعد ذلك بين الاجناس الكنعانية والهيكسوسية والعبرية حين التقوا في مصر ، وهو ان الهيكسوس الذين حكموا مصر غرباء عن اهلها ودخلاء عليها كانوا هم العبريون أو جزء متقدم منهم في الهجرة والتوجه الى مصر لذا سمحوا لابناء جلدتهم من آل يعقوب بدخول ارض مصر ، ومرجع هذا الخطأ التاريخي عند جمهور من الباحثين هو ما وقع فيه « يوسيفوس » المؤرخ اليهودي الذي اشرنا آلى ان بعض المؤرخين قد نقلوا عنه ، فوقعوا حيث اخطأ هو ولم يتح له ان يتحرى الفرق بين الهجرتين آللتين قامت بهما فئات غريبة عن الشعب المصري طامعة به ومتربصة .

واذا ما اعتبرنا التوراة هنا سندا تاريخيا في تقريب الصورة فانها فيما نرويه تكاد تقول رأيا في هذا المعنى وتؤكد ما نذهب اليه من عدم وجود ما

بشير الى ان العبرانيين ، وخاصة من آل يعقوب الذين كانوا المقدمات الاولى لليهود الاسرائيليين في مصر كانوا هم الهيكسوس .

يقول التكوين من التوراة في الاصحاح السادس والاربعين : فقام يعقوب من بئر سبع . وحمل بنو اسرائيل يعقوب اباهم واولادهم ونساءهم في العجلات التي ارسل فرعون لحمله ، واخذوا مواشيهم ومقتناهم الذي اقتنوا في ارض كنعان . وجاءوا الى مصر . يعقوب وكل نسله معه بنوه وبنو بنيه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه الى مصر (١) .

ثم تعطي الاية ٢٦ من نفس الاصحاح بعدا جديدا ــ توراتيا ــ عن عدد الذين قدموا من ارض كنعان من آل يعقوب وبأنهم لم يكونوا القوة التي تركب العجلات ، وتضرب بالسهام والتي دخلت معارك مع المصريين حتى غلبتهم على امرهم فترة ضعف المصريين في الدولة الوسطى ١٧١٠ ق.م بعد ان تحفزت هذه القوة من على حدود الارض المصرية بعد فترة تربص على الحدود حتى تيسر لها ان تحكم وان تتسمى بالاسم الشهير « الهيكسوس » .

تقول الايات : « ان جميع النفوس ليعقوب التي اتت الى مصر الخارجة من صلبه ، ما عدا نساء بني يعقوب جميع النفوس ست وستون نفسا وابنا يوسف اللذان ولدا له في مصر نفسان جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت الى مصر سبعون » .

وفي مصر ومن عند مصر يبدأ اليهود الدخول في مرحلة جديدة حين يبداون قصتهم الطويلة مع التاريخ الذي شوهوا اكثر معالمه بالزيف والعدوان كان ذلك حين ارادوا ان يجعلوا من مصر مسرحا لاطماعهم ، ومركزا يثبون منه الى كل ما حولهم .

اليهود في العصور الفرعونية

من المتفق عليه انه ليس لليهود مراحل طويلة من التاريخ فيها استيطان تاريخي في بقعة من الارض يلتقون عليها ويحضرونها على اساس من قيم

---

(١) التكوين : الاصحاح السادس والاربعون .

الامن الاجتماعي أو الاستقرار التاريخي وهذه سمة بارزة في التاريخ اليهودي بوجه عام . وحول علاقتهم التاريخية بمصر القديمة يقول الاستاذ الدكتور « علي حسني الخربوطلي » في كتاب « العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود في العصور القديمة والاسلامية » الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية العالي بالجامعة العربية عام ١٩٦٩ ومن صفحات ١٤ لم يزل اليهود في هجرتهم من موطن الى موطن بين العراق وحوران وكنعان يعيشون الى جوار القبائل ولا يتغلبون على واحدة منها في وقعة فاصلة حتى لجأوا الى مصر ، وعادوا منها بعد قرون الى الارض التي زعموا انها ارض الميعاد » وان لم يتفقوا على حدودها .

والعرف الشائع بين العبريين انهم يتشاءمون تشاؤما تقليديا بالايام التي قضوها في مصر ، فيعتبرونها محنة المحن في تاريخهم كله من عهد أبراهيم الخليل الى عهد النازية الهتلرية في القرن العشرين .

ولكنهم يغالطون ، فهم لم يستفيدوا قط من هجرة في تاريخهم كله كما استفادوا من هجرتهم الى مصر ، حيث نعموا بالحياة الرغدة على ضفاف النيل ، وبجو صحي زاد من عددهم ، ونهلوا سن مناهل الحضارة المصرية العريقة مما زاد في خبرتهم بتدبير اموره‍م والدفاع عن انفسهم ، فاصبحوا يمارسون الزراعة ، كما احسنوا حمل السلاح بحيث اصبحوا قادرين على منازلة قبائل البادية التي عجزوا طوال خمسة قرون على مناهضتها مما اضطرهم الى الاعتصام بمصر .

ولولا هذه الزيادة في عددهم وفي خبرتهم لما استطاعوا ان يقاتلوا قبائل البادية التي كانوا يهابونها ويهربون منها ، ولا استطاعوا ان يهزموها وطردوها من مواقعها اذا اجترأوا على قتالها ، ولا تأتى لهم من دواعي الاستقرار في ارض كنعان ما يعينهم على اقامة الملك وبناء الهياكل من الحجارة بدلا من العرائش والخيام (١) .

اضطر يعقوب الى الهجرة الى بابل حيث اقام عند خاله عشرين سنة تزوج خلالها من بنتيه « ليا » و « راحيل » ثم عاد الى فلسطين ، واشترى ارضا في اورشليم وابتنى مذبحا سماه « بيت ايل » وهو بيت المقدس الذي جدده سليمان فيما بعد . واصاب البلاد اثناء وجوده قحط شديد ، فغادرها وقومه في سنة ١٤٠٠ ق.م الى مصر حيث تكاثروا فيها .

---

(١) العقاد : الثقافة العربية ، ص ٥٩ .

تروي التوراة (١) قصة بني اسرائيل في مصر ، فتذكر ان يعقوبا علم بتوافر القمح في مصر ، فقال لاولاده : « اني قد سمعت انه يوجد قمح في مصر ، انزلوا الى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت » . وخرج ابناء يعقوب الى حيث تقابلوا مع اخيهم يوسف ، وطلب منهم القدوم الى مصر « لان للجوع في الارض الان سنتين ، وخمس سنين ايضا لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد » . وعاد اخوة يوسف الى ابيهم يعقوب ينقلون اليه رغبة يوسف في هجرتهم الى مصر ، حيث اصبح يوسف كما وصف نفسه « قد جعلني الله ابا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطا على كل ارض مصر » .

وفي مصر ، احاطهم يوسف بعنايته ورعايته . واكرمهم فرعون اذ راى يوسف يهتم بهم وتذكر التوراة (٢) ان هذا الاكرام والاهتمام ادى الى زيادة عددهم وثروتهم ، فتقول : « اما بنو اسرائيل فاثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الارض منهم » (٣) .

عاش بنو اسرائيل في مصر في عزلة وابتعدوا عن الاختلاط بالشعب المصري فهم في كل زمان ومكان يميلون الى الانعزالية والانفصالية ، مما لم يوجد الالفة والتفاهم بينهم وبين سائر الشعوب . فقد تولى العرش في مصر فرعون جديد فبدأ الخطر يتهدد بني اسرائيل ، فقد اوجس الفرعون الجديد منهم خيفة فتقول التوراة : « ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف ، فقال لشعبه : هوذا بنو اسرائيل شعب اكثر واعظم منا هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون اذا حدثت حرب انهم ينضمون الى اعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الارض ، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم باثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما اذلوهم هكذا نموا وامتدوا ، فاختشوا من بني اسرائيل فاستعبد المصريون بني اسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل ... » (٤) .

وقد نتساءل : لماذا وقف فرعون من بني اسرائيل هذا الموقف ؟ كانت

---

(١) سفر التكوين من اصحاح ٤٢ الى اصحاح ٤٧ .
(٢) سفر الخروج : اصحاح : (١) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) سفر الخروج : اصحاح : (١) .

هناك عدة دوافع دفعت فرعون مصر الى انتهاج هذه السياسة . فلم يكن فرعون ينظر الى بني اسرائيل على انهم جزء من قومية ، فقد عاشوا في عزلة تامة عن الشعب المصري . كما ان بني اسرائيل قد قدموا الى مصر لا ليقيموا فيها او يندمجوا بأهلها : بل ليخرجوا منها بعد ان تتجمع لهم في مصر قوة المال والعدد . وهذا ما رسمه لهم ربهم (يهوه) اذ قال لهم مخاطبا اسرائيل « وانا انزل معك الى مصر وانا اصعدك ايضا » .

وكان فرعون قد نظر الى بني اسرائيل نظرة ريبة وشك وتخوف ، فقد خشي ان ينضموا الى الاعداء اذا دخلت مصر في حرب ، فقد كانت انظار الاسرائيليين وعواطفهم تتجه دائما الى خارج مصر ، وليس الى داخلها .

كما ان بني اسرائيل اعتادوا الا يعيشوا في ظل حكم سياسي الا واستغلوه لتحقيق مطامعهم الاقتصادية ، فما ان تضاءل نفوذ يوسف ، وفقد الاسرائيليون مركزهم الذي كان يحقق لهم الثراء بدون جهد ، حتى سخطوا على مصر وفرعونها وشعبها ، واتهموا نظام الحكم الجديد بالظلم والقسوة.

ورفض بنو اسرائيل ان يعملوا في الزراعة او البناء ، وهما الصناعتان الرئيسيتان في مصر القديمة حينئذ ، ولذا اعتبروا تكليف فرعون لهم بممارسة هاتين الصناعتين تعذيبا وقسوة . بينما كان فرعون في الحقيقة يريد ربط الاسرائيليين بالارض ، وان يشغلهم بالعمل عن تدبير المكائد والمؤامرات والتحالف مع اعداء مصر (١) .

ليس على الارض فريق من الناس تدلل على نبيه كما تدلل بنو اسرائيل على موسى ، وليس على الارض صنف من الناس ارسل الله اليهم عدة انبياء كما ارسل لبني اسرائيل ، ورغم ذلك ، فقد كان اليهود دائما مصدر متاعب لنبيهم موسى عليه السلام والانبياء من بعده ، وظلوا كذلك مصدر متاعب ومشاكل الى تاريخنا المعاصر (٢) .

روى القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام ، ومعجزاته ، وخروجه من مصر فقد طلب موسى وهارون من فرعون ان يرسل معهما بني اسرائيل مهاجرين من مصر بعد ان عانوا الوانا من الظلم والاضطهاد . ثم هاجر موسى

---

(١) دكتور محمد عبد المعز نصر : الصهيونية ، ص ٤١ .
(٢) برانق والمحجوب : محمد واليهود ، ص ٣ .

وهارون ببني اسرائيل شرقا متجهين نحو فلسطين ، فلحق بهم فرعون عند البحر ، فأوحى الله تعالى الى موسى ان يضرب بعصاه البحر ، فانفرق ماؤه عن طريق سلكه ببني اسرائيل وتبعهم فرعون وجنوده ونجى الله موسى وقومه واغرق فرعون ومن معه في البحر .

قال الله تعالى في القرآن الكريم : « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون » (١) .

واذا رجعنا الى كتاب اليهود الذي ادخلوا عليه كثيرا من التحريف والخيال نرى وصفا لعقاب الرب «يهوه» للمصريين ، يصور الخيال الاسرائيلي المجبول على الحقد والانتقام ، فقد حول هذا الخيال ماء النيل الى دماء تسبح فيها الضفادع : « ثم قال الرب لموسى قل لهرون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على انهارهم وعلى سواقيهم وعلى اجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دما فيكون دم في كل ارض مصر ، في الاخشاب وفي الاحجار ففعل هكذا موسى وهرون كما امر الرب ، ورفع العصا وضرب الماء الذي في النهر امام عيون عبيده ، فحول كل الماء الذي في النهر دما . ومات السمك الذي في النهر وانتن النهر . فلم يقدر المصريون ان يشربوا ماء من النهر، وكان الدم في كل ارض مصر .. ولما كملت سبعة ايام بعد ما ضرب الرب النهر ، قال الرب لموسى ادخل الى فرعون وقل له هكذا يقول الرب ، اطلق شعبي ليعبدوني وان كنت تابى ان تطلقهم فيها انا اضرب جميع تخومك بالضفادع ، فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل الى بيتك والى مخدع فراشك وعلى سريرك والى بيوت عبيدك وعلى شعبك والى تنانيرك والى معاجنك عليك وعلى شعبك وعبيدك تصد الضفادع » ..

بعد خروج اليهود من مصر ، بدات متاعب موسى ، فقد سار موسى ومن خلفه اليهود ، وطال بهم السير حتى تعبوا فصاحوا فيه يتساءلون الى اين المسير ، فأخبرهم انه يقصد جانب الطور الايمن للقاء ربه وتلقي اوامره، ولكنهم توجهوا بالشكوى ، فقد اجهدهم السير واشتد بهم العطش وطالبوه بايجاد عين ماء يستقون منها فدعا موسى ربه ، فامره الله ان يضرب بعصاه

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٧ .

حجرا امامه، فنفذ امر ربه ، وتفجر اثنتا عشرة عينا، لذرية كل ولد من ابناء اسرائيل الاثني عشر عين منها . وما كاد اليهود يروون ظمأهم حتى طالبوا بالطعام فعاد موسى يدعو ربه ان يحقق لليهود رغبتهم في الطعام ، وحقق الله سبحانه وتعالى رغبتهم ، فأنزل عليهم المن والسلوى (١) . وبعد ان فرغ اليهود من الاكل ، طالبوا موسى بالمكان الظليل حيث يجلسون بعيدا عن القيظ فعاد موسى يدعو ربه ، ولبى الله تعالى نداء نبيه ، فظللتهم سحابة حجبت عنهم حرارة الشمس .

قال الله تعالى في القرآن الكريم : « وظللنا عليهم الغمام وانزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » (٢) .

ترك موسى قومه ، ليلقى ربه ، ويتلقى الواح التوراة من الله فوق جبل الطور ، حتى اذا عاد موسى بعد شهر وجد اليهود وقد نبذوا شرائعه وتعاليمه ، واحاطوا بعجل من الذهب ، على شكل حلقة . يرقصون حوله ويهللون له ، يعبدونه دون الله ، ويقدمون له القرابين (٣) .

جاء في القرآن الكريم قوله عز وجل : « واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . واذ اتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (٤) .

لام موسى اليهود ، وشعروا بذنبهم ، واخذوا يعتذرون . وجاء في سفر الخروج ان موسى اعلن انه لن يقبل توبتهم الا اذا قاتل بعضهم بعضا، فتقاتل الجماعة التي امتنعت عن ان تعبد العجل ، الجماعة الاخرى التي عبدته واستجاب اليهود لرغبة موسى ، وسالت الدماء انهارا وسط ولولة النساء وصراخ الاطفال .

اختار موسى سبعين رجلا من اليهود وتوجه بهم الى جانب الطور

---

(١) المن : مادة على اوراق الاشجار حلوة الطعم . السلوى : طائر السمان يطير بشكل اسراب ويتساقط على الارض بكثرة .

(٢) سورة البقرة .

(٣) سفر الخروج : ٣٢ ـ ٩ .

(٢) سورة البقرة .

الايمن ، حيث اعتاد ان يلقى ربه دائما ، ليعلنوا لربهم التوبة والندم ، وتقدم موسى الى الله سبحانه وتعالى ، وقومه يسمعون ، يطلب منه عز وجل ان يغفر لليهود ويسامحهم . ولكن اليهود مدفوعين بجشعهم وجحودهم ، طلبوا ان يروا الله جهرة ، فانزل الله عليهم صاعقة ، ولكن موسى عاد يرجو ربه ان يغفر لقومه .

اخذ موسى يعظ قومه ويبلغهم أوامر ربه ، ولكنهم ابوا الهداية والرشد واستمروا في مضايقاتهم ونشوزهم ، فكان اذا دعاهم موسى للقتال قالوا : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون » . وانزل الله على اليهود عقابه ، وحكم عليهم بأن يتيهوا في الارض ، ويعيشوا مشردين ، محرومين من الوطن والاستقرار .

اليهود بعد موسى :

بعد موسى ، قام بشئون اليهود تابعه المخلص (يوشع بن نون) وهو من ذرية يوسف . وعاود اليهود نشوزهم وخروجهم عن الطاعة . وبعد يوشع جاء (كالب بن يوغنه) ، فلاقى من اليهود الامرين . ثم تتابع على بني اسرائيل قضاة ينظمون امورهم . ومرت السنون ، وتحولت معظم القبائل الاسرائيلية الى الوثنية ، واهملوا تعاليم التوراة ، وظهر عدة انبياء حاولوا ان يذكروهم بالدين الحقيقي ، دون جدوى .

وفي تلك الفترة ، قام اول احتكاك بين بني اسرائيل وبين عرب الحجاز (العمالقة) ، فقد نزحت اعداد كبيرة من الاسرائيليين وصحبهم زوجاتهم واطفالهم ، الى اراضي الحجاز في الجزيرة العربية ، ناشدين الحرية والامان بعيدا عن الاضطهادات والمنافسة حول الحياة . وفي الحجاز احتلوا اخصب الواحات ، واحتكروا اهم الموارد الاقتصادية . وكانت هذه الهجرة هي اولى الهجرات اليهودية التي سنراها تنزح الى شبه الجزيرة العربية فيما بعد .

الصلات التاريخية لليهود بمصر :

بدات الصلات التاريخية الاولى لبني اسرائيل واليهود في مصر الفرعونية حوالي عام ١٦٥٠ ق.م بعد ان حل بمنطقة غرب اسيا كلها حالة جدب

وقحط تعذر معه ان تستقر مجموعات كاملة من سكان المنطقة على سمتها خاصة القبائل والجماعات التي كانت تعتمد في حياتها على تربية الحيوان وبعض انواع الزراعة ، وساء الحال اكثر عند الذين لا يستقرون في ارض بعينها او هم غرباء على كل ارض يحلون بها نظرا لكثرة ترحالهم وتنقلهم من مكان لاخر طلبا لمقاصدهم كجماعات رحل ، وامام حال الجدب والقحط اتجهت ابصار ابناء يعقوب الى مصر خاصة وانهم كانوا قد عرفوا من موقعهم الذي كان اشبه ما يكون بنقطة مراقبة للاخبار وللقوافل التي تخرج من مصر وتتجه اليها ، ان مصر رغم الجدب والقحط والكساد المعروف الذي ساد اكثر بلاد العالم القديم حينئذ بل لقد وصل حتى الى مصر نفسها . واصبح الحال فيها كما تقول التوراة : سبع سنين جوعا ، فينسى كل الشبع في ارض مصر (١) ويتلف الجوع الارض ، ولا يعرف الشبع في الارض من اجل ذلك الجوع لانه يكون شديدا جدا ، بيت امان لكل اللاجئين اليها ، ومن اجل هذا فانهم ارادوا وقصدوا ان يحيوا الحياة على ضفاف النيل وان يعيشوا في قلب الشعب المصري ، فكانت هجرة ابناء يعقوب الى مصر هي بداية وجود اليهود في مصر وايضا بداية قصة الصراع الذي اصطنع له من بين الاسس ميراث اوهام مدعاة وغباء عقيدة تعلق بها الابناء بعد الاباء في عنصرية غير مألوفة على الاطلاق .

ورغم ندرة المصادر التي تكشف عن الطريقة التي دخلت بها الجماعات - العبرية - من ابناء يعقوب الى مصر ، فان التوراة هي التي تقول ان جماعة رحالة من ابناء يعقوب بعد ان تعرضوا لقسوة الجدب الصحراوي الذي تعرضت له آرض كنعان وما حواليها من البادية كلها قصدوا مصر حيث كان قد شاع فيها ان بها من استطاع ان يخطط اقتصادها ويوجه منتجاتها فنجت مما تعرضت له كل المنطقة الممتدة تقريبا من غرب اسيا كله الى شمال شرق افريقيا ، حين اجدبت الارض وهزل الحيوان ، وساءت احوال البشر نتيجة هذا الجدب والقحط الذي حل بالارض ، فجاءت المجموعة الاولى من ابناء يعقوب ، وهي التي التقت كما تحكي التوراة باخيها « يوسف » ابن يعقوب الذي كان قد جاء الى مصر بطريقة عملت فيها المعجزة الالهية كل عملها وتحدثت عنها التوراة وكذلك القرآن الكريم في تفصيل وتوسع ، وحين كان يوسف بمصر استطاع ان يصل الى رتبة وزير الخزانة بل وهو الذي دبر امر الاقتصاد المصري من كوارث محققة .

---

(١) التكوين : الاصحاح الحادي والاربعون ٣٠ - ٣٢ .

وانقذ الشعب مما كان يمكن ان يقع فيه ، مثله في ذلك مثل الشعوب المجاورة له ، ولما اطمأن يوسف بن يعقوب بعد حوار ومناقشة تمت بينهوبين الوفد العبري القادم اليه ان مجموعة هؤلاء القادمين ، مستنجدين بهمة الشعب المصري تعلقا بكرمه ، وأملا في عطائه ، هم اخوته ابناء ابيه الذين تآمروا عليه وارادوا قتله والتخلص منه هناك في ارض كنعان ، لما لمحوه في اخيهم من بوادر النبوغ المبكر وحظوته عند ابيه حين كان يكرمه ويحتفي به ، آمل وارتجى ان يجمع شملهم وان يحيا بهم في كنف الشعب المصري الذي كان قد اكرم يوسف واصبح فيه الرجل عند البيت الحاكم موضع ثقة كبيرة ، بل كما تقول التوراة بيده مقاليد الشعب ومصيره ، فاستصدر يوسف امرا وافق عليه الفرعون المصري الذي كان منح وزيره يوسف كل سلطات الدولة ، الا كرسي الحكم وقداسته عند الفراعين باعتباره ممثلا لفكرة الاله عندهم .

ووافق الفرعون المصري على ان يأتي يوسف بباقي اخوته ويقتطعهم رقعة ارض من مصر ليحيوا فيها في ظل سيادة الشعب المصري . وبالفعل فان ما قصه الابناء على ابيهم يعقوب وكانت هذه توقعات يوسف بعد ان عادوا اليه من مصر بخير كثير وبكمية وفيرة من الاطعمة والحيوان لم يكن يتصورها او يحلم بها يعقوب وأولاده ، ان اشتاقت نفسه وانفعل الرجل من اعماقه دون ان يفصح عن هذا المعنى في ان يستجيب لما قصه عليه ابناؤه من ان الرجل القائم بعمل الحاكم في مصر قد اشترط عليهم حين اعطاهم الخير الوفير ان يأتوا اليه بباقي آلهم وأخواتهم وخاصة الصغير .

فحمل القوم جميعا رحالهم وأوانيهم وماشيتهم بدوا رعاة جماعات ــ عبرية ــ تعبر الصحراء قاصدة ارض مصر كي تعيش فيها وتحيا الحياة في أمن بين جنبات اهلها وفي رخائها وخيرها .

تحكي التوراة وتقص علينا ملامح رحلة قدوم ابناء يعقوب الى مصر ، ومنشأ علاقة واحد من آبناء يعقوب بمصر هو يوسف ، بدات هذه العلاقة مبكرة بعد ان عملت في اسبابها كل الظروف المحيطة ببدء هذه العلاقة اعتبارات كثيرة لم يكن ليوسف نفسه ولا لاحد من آله ، بل ولا الذين اكرموا وفادته ادنى ترتيب اوجهد فيها . ومن يلقي نظرة على التفصيلات المحيطة بهذا الموضوع وخاصة في منهج القصص الديني حين يكون تمثيلا لوجهة نظر متعصبة تتحدث عن نفسها وتقص على هواها ، فان الصنعة والهوى

هنا يتكفلان بتقديم تصور قد يعمق الصورة ويوسع احداثها ويضخم الجوانب المادية فيها او بالعكس يعمل على مسخ الجانب الحق في الموقف والتقليل من كل الظروف المحيطة به .

وفيما نسوقه الان من التوراة في تصوير الملامح العامة لمرحلة دخول بني اسرائيل مصر وكيفية دخولهم حين قدموا اليها هو قصد نحن نعمد اليه في اثبات النص التوراتي هنا كدليل مادي سندخل معه في عملية نقدية حول التركيبة التاريخية في التوراة في محاولة منا لمعرفة كل الملابسات المحيطة بها وكيفية تركيبها ومنشئها ، ثم هو في نفس الوقت كمنهج توراتي في التاريخ للحوادث من يتناوله بالدرس قد لا يكون بعيدا عن امكانية المواجهة الجادة والموضوعية حول طبيعة الموقف الذي يمثله اليهود عبر التاريخ من جملة الدعاوى التي يصوغون منها وعلى هواهم حسبما تكون الايات التوراتية في تناولهم لكل مطامعهم وقصصهم ومستنداتهم .

نقول ان ما نسوقه الان من نص توراتي في تصوير الملامح العامة لمرحلة دخول بني اسرائيل مصر حين قدموا اليها ، قد يكون ما في التوراة على ضوء المنهج الذي ارتضيناه وهو اننا سننظر التاريخ اليهودي وحوادثه من التوراة على قدر ما يمكن تقبله وبالحد الذي لا ندخل فيه في صدام محقق مع حقائق التاريخ التي تصطدم احيانا برواية التوراة وترفضها وتمسخها هو من اقوى الاساليب الى امكانية التناول التاريخي لجملة قضايا بذاتها من عمر بني اسرائيل وتاريخهم خاصة وان القرآن الكريم حين نزل بعد عصر التوراة بزمن طويل قص بمنهجه في التناول والالمام ما لا يتناقض كثيرا مع ما جاء في التوراة حول كيفية دخول الجماعات العبرية الاولى من ابناء يعقوب الى مصر وحين كان في المقدمة يوسف بن يعقوب .

تقول التوراة في التكوين ابتداء من الاصحاح التاسع والثلاثين : (١)

« واما يوسف فأنزل الى مصر ، واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري من يد الاسماعيليين الذين انزلوه الى هناك ، وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا ، وكان في بيت سيده المصري ، ورأى سيده ان الرب معه وان كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده ، فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه ، فوكله على بيته ودفع الى يده كل ما كان له ، وكان

---

(١) التكوين : الاصحاح التاسع والثلاثون ١ ــ ٢٢ .

من حين وكله من بيته وعلى كل ما كان له ان الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف ، وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل، فترك كل ما كان له في يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئا الا الخبز الذي يأكل . وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر ، وحدث بعد هذه الامور ان امراة سيده رفعت عينيها الى يوسف وقالت اضطجع معي فابى وقال لامراة سيده هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت ، وكل ما كان له قد دفعه الى يدي، ليس من هو في البيت اعظم مني ولم يمسك عني شيئا غيرك لانك امراته، فكيف اصنع هذا الشر العظيم واخطىء الى الله .

وكان اذا كلمت يوسف يوما فيوما ، انه لم يسمع لها ان يضطجع بجانبها ليكون معها ، ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن انسان من اهل البيت هناك في البيت ، فأمسكته بثوبه قائلة ، اضطجع معي ، فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى خارج ، وكان لما رات انه ترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى خارج ، انها نادت اهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا : قد جاء الينا برجل « عبراني » ليداعبنا ودخل ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ، وكان لما سمع اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج الى خارج فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده الى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة : دخل العبد العبراني الذي جئت به الينا ، ليداعبني ، وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب الى خارج ، فكان لما سمع سيده كلام امراته الذي كلمته به قائلة ، بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمي ، فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن ، الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه ، وكان هناك في بيت السجن .

ولكن الرب كان مع يوسف وبسط اليه لطفا ، وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ، فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن ، ينتظر شيئا البتة مما في يده ، لان الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه . وحدث بعد هذه الامور (١) ان ساقي ملك مصر والخباز اذنبا الى سيدهما ملك مصر ، فسخط فرعون على خصيبه رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان المخصص الذي كان يوسف محبوسا فيه فقام رئيس

---

(١) التكوين : الاصحاح الاربعون ١ ــ ٢٣ .

الشرط يوسف عندهما فأخذهما ، وكانا اياما في الحبس وحلما كل منهما حلما في ليلة واحدة ، كل واحد حلمه ، كلواحد بحسب تعبير حلمه ، ساقي مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن ، فدخل يوسف اليهما في الصباح ونظرهما ، واذا هما مغتمان ، فسأل خصيي فرعون الذين معه في حبس بيت سيده قائلا : لماذا وجهاكما مكمدان اليوم ، فقالا له حلمنا حلما وليس من يعبره ، فقال لهما يوسف اليست لله التعابير ، قصا علي .

فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت في حلمي واذا كرمة امامي وفي الكرمة ثلاثة قضبان . وهي اذ افرخت طلع زهرها ، وانضجت عناقيدها عنبا ، وكانت كأس فرعون في يدي فاخذت العنب وعصرته في كأس فرعون واعطيت الكأس في يد فرعون فقال له يوسف ، هذا تعبيره ، الثلاثة قضبان هي ثلاثة ايام ، في ثلاثة ايضا يرفع الفرعون راسك ويردك الى مقامك ، فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الاولى حين كنت ساقيه، وانما اذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع الي احسانا ، وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت لاني قد سرقت من ارض العبرانيين . وهنا ايضا لم افعل شيئا حتى وضعوني فيالسجن، فلما راى رئيس الخبازين انه عبر جيدا ، قال ليوسف كنت انا ايضا في حلمي ، واذا ثلاثة سلاسل حواري على راسي ، وفي السل الاعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز والطيور تأكله من السل عن رأسي، فأجاب عن يوسف وقال تعبيره، الثلاثة السلال هي ثلاثة ايام، فيثلاثةايام ايضا يرفع فرعون راسكعنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك ، فحدث في اليوم الثالث يوم ميلاد فرعون انه صنع وليمة لجميع عبيده ، ورفع راس رئيس السقاة ، وراس رئيس الخبازين بين عبيده ، ورد رئيس السقاة الى سقيه ، فأعطى الكأس في يد فرعون ، واما رئيس الخبازين فعلقه كما عبر لهما يوسف ، ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه ، وحدث (١) من بعد سنتين من الزمان ان فرعون راى حلما واذا هو واقف عند النهر ، وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم ، فارتعت في روضة ، ثم هو ذا سبع بقرات اخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر رقيقة اللحم ، فوقفت بجانب البقرات الاولى على شاطىء النهر ، فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم ، البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة ، واستيقظ

(١) الاصحاح الحادي والاربعون من سفر التكوين ـ الآيات : ١ ـ ٢٣ .

فرعون ثم نام فحلم ثانية وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد سمينة وحسنة ، ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها ، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة ، واستيقظ فرعون واذا هو حلم ، وكان في الصباح ان نفسه انزعجت ، فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون ثم كلم رئيس السقاة فرعون قائلا ، أنا اتذكر اليوم خطاياي ، فرعون سخط على عبديه فجعلني في حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين ، فحلمنا حلما في ليلة واحدة انا وهو ، حلمنا كل واحد بحسب تعبير حلمه، وكان هناك معنا غلام عبراني عبد لرئيس الشرط، فقصصنا عليه ، فعبر لنا حلمينا ، عبر لكل واحد بحسب حلمه ، وكما عبر لنا هكذا حدث ردني الى مقامي واما هو فعلقه ، فأرسل فرعون ، ودعا يوسف ، فأسرعوا به من السجن ، فحلق وابدل ثيابه ودخل على فرعون فقال فرعون ليوسف حلمت حلما وليس من يعبره ، وأنا سمعت عنك قولا انك تسمع احلاما لتعبرها ، فأجاب يوسف قائلا : ليس لي ، الله يجيب سلامة فرعون، فقال فرعون ليوسف اني كنت في حلمي واقفا على شاطىء النهر وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة فارتعت في روضة .

ثم هو ذا سبع بقرات طالعة من النهر وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جدا ورقيقة اللحم لم انظر في كل ارض مصر مثلها في القباحة ؟ فأكلت البقرات الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الاولى السمينة ، فدخلت اجوافها ولم يعلم انها دخلت اجوافها فكان منظرها قبيحا كما في الاول واستيقظت، ثم رايت في حلمي وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد ممتلئة وحسنة ثم هو ذا سبع سنابل يابسة رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها ، فابتلعت السنابل السبع الحسنة فقلت للسحرة ولم يكن من يخبرني ، فقال يوسف لفرعون ، حلم فرعون واحد قد اخبر الله فرعون بما هو صانع ، البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين ، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين ، هو حلم واحد ، والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعا ، هو ذا سبع سنين قادمة شبعا عظيما في ارض مصر ، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا ، فينسى كل الشبع في ارض مصر ويتلف الجوع الارض ،ولا يعرف الشبع في الارض من اجل ذلك الجوع بعد لانه يكون شديدا جدا ، واما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلان الامر

مقرر من قبل الله والله مسرع ليصنعه .. فالان لينظر فرعون رجلا بصيرا أو حكيما ويجعله على ارض مصر ، يفعل فرعون فيوكل نظارا على الارض ويأخذ خمس غلة مصر في سبع سني الشبع فيجمعون جميع طعام هـــذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحا تحت يد فرعون ، طعاما في المـدن ويحفظونه فسيكون الطعام ذخيرة للارض لسبع سني الجوع التي تكـون في ارض مصر ، فلا تنقرض الارض بالجوع ، فحسن الكلام في عين فرعون وفي عيون جميع عبيده فقال فرعون لعبيده ، هل نجد مثل هذا رجلا فيــه روح الله ، ثم قال فرعون ليوسف بعدما اعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك ، انت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبــي الا ان الكرسي اكون فيه اعظم منك ، ثم قال فرعون ليوسف انظر اني قد جعلتك على كل ارض مصر ،وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوســـف ، والبسه ثياب بوص ، ووضع طوق ذهب في عنقه ، واركبه في مركبته الثانية ونادوا امامه اركعوا ، وجعله على كل ارض مصر ، وقال فرعون ليوسف انا فرعون فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله في كل ارض مصر .

ودعا فرعون اسم يوسف « صفنات فعنيج » واعطاه « اسنات بنت فوطي فارع كاهن اون » زوجة له ، فخرج يوسف على ارض مصر وكـان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل ارض مصر ، واثمرت الارض في سبع سني الشبع بحزم . فجمع كل طعام السبع سنين التي كانت في ارض مصر وجعل طعاما في المدن ، حقل طعام المدينة التي حواليها جعله فيها وخزن يوسف قمحـا كرمل البحر كثيرا جدا حتى ترك العدد اذ لم يكن له عدد ، وولد ليوسـف ابنان قبل ان تأتي سنة الجوع ، ولدتهما له « اسنات بنت فوطي فارع كاهن اون » ، ودعا يوسف اسم البكر « منسى » قائلا : لان الله انساني كل تعبي وكل بيت ابي ، ودعا الثاني « افرايم » قائلا : لان الله قد جعلني مثمـــرا في ارض مذلتي ، ثم كملت سبع سني الشبع الذي كان في ارض مصر وابتدات سبع سني الجوع تأتي ، كما قال يوسف فكان جوع في جميع البلدان ، واما جميع ارض مصر فكان فيها خبز ، ولما جاعت جميـع ارض مصر وصرخ الشعب الى فرعون لاجل الخبز قال فرعون لكل المصريين اذهبوا الـــى يوسف . والذي يقول لكم افعلوا ، وكان الجوع على كل وجه الارض وفتح يوسف جميع ما فيه طعام، وباع المصريين واشتد الجوع في ارض مصر : وجاءت كل الارض الى مصر الى يوسف لتشتري لان الجوع كان شديــــدا في كل الارض .

فلما راى يعقوب (١) انه يوجد قمح في مصر قال يعقوب لبنيه لماذا تنظرون بعضكم الى بعض ، وقال اني قد سمعت انه يوجد قمح في مصر انزلوا الى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت . فنزل عشرة من اخوة يوسف ليشتروا قمحا من مصر ، واما «بنيامين» اخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع اخوته ، لانه قال لعله تصيبه اذية ، فاتى بنو اسرائيل ليشتروا بين الذين اتوا . لان الجوع كان في ارض كنعان ، وكان يوسف هو المسلط على الارض ،وهو البائع لكل شعب الارض ، فاتى اخوة يوسف ، وسجدوا له بوجوههم الى الارض ، ولما نظر يوسف اخوته عرفهم فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء ، وقال لهم من اين جئتم ، فقالوا من ارض كنعان لنشتري طعاما ، وعرف يوسف اخوته ، واما هم فلم يعرفوه فتذكر يوسف الاحلام التي حلم عنهم ، وقال : جواسيس انتم لتروا عورة الارض جئتم فقالوا له لا يا سيدي ، بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاما نحن جميعنا بنو رجل واحد ، نحن امناء ، ليس عبيدك جواسيس فقال لهم : كلا بل لتروا عورة الارض جئتم ، فقالوا عبيدك اثنا عشر اخا . نحن بنو رجل واحد في ارض كنعان وهو ذا الصغير عند ابينا اليوم والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ذلك ما كلمتكم به قائلا : جواسيس انتم ، بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا الا بمجيء اخيكم الصغير الى هنا ، ارسلوا منكم واحدا ليجيء بأخيكم وانتم تحبسون ، فيمتحن كلامكم هل عندكم صدق، والا فوحياة فرعون انكم لجواسيس فجمعهم الى حبس ثلاثة ايام .

ثم قال لهم يوسف في اليوم الثالث : افعلوا هذا واحيوا انا خائف الله ان كنتم امناء فليحبس اخ واحد منكم في بيت حبسكم ، وانطلقوا انتم وخذوا قمحا لمجاعة بيوتكم ، واحضروا اخاكم الصغير الي ، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ففعلوا هكذا وقالوا لبعضهم حقا اننا مذنبون الى اخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ، ولم نسمع ، لذلك جاءت علينا هذه‌الضيقة فاجابهم « راوبين » قائلا : الم اكلمكم قائلا لا تأثموا بالولد ، وانتم لم تسمعوا فهو ذا دمه يطلب ولم يعلموا ان يوسف فاهم لان الترجمان كان بينهم فتحول عنهم وبكى ، ثم رجع اليهم وكلمهم ، واخذ منهم « شمعون » وقيده امام عيونهم ، ثم امر يوسف ان تملأ اوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد الى عدله وان يعطوا زادا للطريق ففعل لهم هكذا . فحملوا قمحهم على حميرهم ومضوا من هناك فلما فتح احدهم عدله ليعطي عليقا لحماره

---

(١) التكوين : الاصحاح الثاني والاربعون ـ الايات : ١ ـ ٢٨ .

في المنزل ، رأى فضته وارتعدوا بعضهم في بعض قائلين « ما الذي صنعه الله بنا » فجاءوا الى يعقوب ابيهم الى ارض كنعان واخبروه بكل ما اصابهم قائلين : تكلم معنا الرجل سيد الارض بجفاء وحسبنا جواسيس الارض ، فقلنا له نحن امناء لسنا جواسيس ، نحن اثنا عشر اخا بنو ابينا ، والواحد مفقود والصغير عند ابينا في ارض كنعان ، فقال لنا الرجل سيد الارض بهذا اعرف انكم امناء دعوا اخا واحدا منكم عندي وخذوا لمجاعة بيوتكم وانطلقوا واحضروا اخاكم الصغير الي فأعرف انكم لستم جواسيس بل انكم امناء فاعطيكم اخاكم وتتجرون في الارض ، واذا كانوا يفرغون عدالهم اذا صرة فضة كل واحد في عدله ، فلما راوا صرر فضتهم هم وابوهم خافوا ، فقال لهم يعقوب ، اعدمتموني الاولاد ، يوسف مفقود ، وشمعون مفقود ، وبنيامين تأخذونه صار كل هذا علي ، وكلم « راوبين » اباه قائلا : اقتل ابني ان لم أجيء به اليك : سلمه بيدي وانا ارده اليك : فقال لا ينزل ابني معكم لان اخاه قد مات وهو وحده باق فان اصابته اذية في الطريق التي تذهبون فيها ، تنزلون شيبتي بحزن الى الهاوية .

وكان الجوع شديدا (١) في الارض ، وحدث لما فرغوا من اكل القمح الذي جاءوا به من مصر ان اباهم قال لهم ارجعوا اشتروا لنا قليلا من الطعام فكلمه يهوذا قائلا : ان الرجل قد اشهد علينا قائلا : لا ترون وجهي بدون ان يكون اخوكم معكم ، ان كنت ترسل اخانا معنا ننزل ونشتري لك طعاما ولكن ان كنت لا ترسله لا ننزل ، لان الرجل قال لنا لا ترون وجهي بدون ان يكون اخوكم معكم ، فقال اسرائيل « يعقوب » لماذا اسأتم الي حتى اخبرتم الرجل ان لكم اخا ايضا ، فقال ان الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلا : هل ابوكم حي بعد ، هل لكم اخ فأخبرناه بحسب هذا الكلام . هل كنا نعلم انه يقول انزلوا بأخيكم ، وقال يهوذا لاسرائيل ابيه ارسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وانت واولادنا جميعا . انا اضمنه من يدي تطلبه ان لم اجيء به واوقفه قدامك اصر مذنبا اليك كل الايام ، لاننا لو لم نتوان لكناقد رجعنا الان مرتين ، فقال لهم اسرائيل ابوهم ان كان هكذا فافعلوا هذا ، خذوا من افخر جني الارض في اوعيتكم وانزلوا للرجل هدية ، قليلا من البلستان وقليلا من العسل وكثيرا لاذنا وفستقا ولوزا ، وخذوا فضة اخرى في اياديكم ، والفضة المردودة في افواه عدالكم ردوها في اياديكم ، لعله كان سهوا ، وخذوا اخاكم وقوموا ارجعوا الى الرجل ،

---

(١) التكوين : الاصحاح الثالث والاربعون ــ الآيات : ١ ــ ٣٤ .

والله القدير يعطيكم رحمة امام الرجل حتى يطلق لكم اخاكم الاخر وبنيامين. وانا اذا عدمت الاولاد عدمتهم فأخذ الرجال هذه الهدية واخذوا ضعف الفضة في اياديهم وبنيامين وقاموا ونزلوا الى مصر ووقفوا امام يوسف ، فلما راى يوسف بنيامين معهم قال للذي على بيته ادخل الرجال في البيت واذبح ذبيحة وهيىء لان الرجال ياكلون معي عند الظهر ، ففعل الرجل كما قال يوسف وادخل الرجل الرجال الى بيت يوسف ، فخاف الرجال اذ ادخلوا الى بيت يوسف وقالوا لسبب الفضة التي رجعت في عدالنا قد ادخلنا ليهجم علينا ويقع بنا ويأخذنا عبيدا وحميرنا فتقدموا الى الرجل الذي على بيت يوسف وكلموه في باب البيت وقالوا استمع يا سيدي ، اننا قد نزلنا اولا لنشتري طعاما وكان لما اتينا الى المنزل اننا فتحنا عدالنا ، واذا فضة كل واحد في فم عدله فضتنا بوزنها فقد رددناها في ايادينا . وانزلنا فضة اخرى في ايادينا لنشتري طعاما لا نعلم من وضع فضتنا في عدالنا ، فقال سلام لكم ، لا تخافوا . الهكم واله ابيكم اعطاكم كنزا في عدالكم ، فضتكم وصلت الي ، ثم اخرج اليهم شمعون واحل الرجل الرجال الى بيت يوسف واعطاهم ماء ليغسلوا ارجلهم واعطى عليقا لحميرهم ، وهيأوا الهدية الى ان يجيء يوسف عند الظهر لانهم سمعوا انهم هناك يأكلون طعاما .

فلما جاء يوسف الى البيت احضروا اليه الهدية التي في اياديهم الى البيت وسجدوا له الى الارض ، فسأل عن سلامتهم وقال : أسالم ابوكم الشيخ الذي قلتم عنه ، أحي بعد ، فقالوا عبدك آبونا سالم هو حي ، بعد ، وخروا سجودا فرفع عينيه ، ونظر بنيامين اخاه ابن امه وقال اهذا اخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ، ثم قال : الله ينعم عليك يا بني ، واستعجل يوسف لان احشاءه حنت الى اخيه ، وطلب مكانا ليبكي ، فدخل المخدع وبكى هناك ثم غسل وجهه وخرج وتجلد ، وقال قدموا طعاما فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الاكلين عنده وحدهم ، لان المصريين لا يقدرون ان يأكلوا مع العبرانيين لانه رجس عند المصريين ، فجلسوا قدامه البكر بحسب بكوريته والصغير بحسب صغره ، فبهت الرجال بعضهم الى بعض ، ورفع حصصا من قدامه اليهم ، فكانت حصة بنيامين اكبر من حصص جميعهم خمسة اضعاف ، وشربوا ورووا معه . ثم امر الذي على بيته قائلا (١) املأ عدال الرجال طعاما حسب ما يطيقون حمله ، وضع فضة

---

(١) التكوين : الاصحاح الرابع والاربعون ـ آيات : ١ ـ ٣٤ .

كل واحد في فم عداله ، وطاسي طاس الفضة تصنع في فم عدل الصغير وثمن قمحه ، ففعل بحسب كلام يوسف الذي تكلم به ، فلما اضاء الصبح انصرف الرجال هم وحميرهم ، ولما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبتعدوا قال يوسف للذي على بيته ، قم اسع وراء الرجال ومتى ادركتهم فقل لهم لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير ، اليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه ، وهو يتفاءل به اسأتم فيما صنعتم ، فأدركهم وقال لهم هذا الكلام ، فقالوا لماذا يتكلم سيدي مثل هذا الكلام ، حاشا لعبدك ان يفعلوا مثل هذا الامر ، هو ذا الفضة التي وجدنا في افواه عدالنا رددناها اليك من ارض كنعان فكيف نسرق من بيت سيدك فضة او ذهبا الذي يوجد معه من عبيدك يموت ، ونحن ايضا نكون عبيدا لسيدي فقال نعم الان بحسب كلامكم هذا يكون ، الذي يوجد معه يكون لي عبدا واما انتم فتكونون ابرياء ، فاستعجلوا وانزلوا كل واحد عدله الى الارض ففتش مبتدئا من الكبير حتى انتهى الى الصغير فوجد الطاس في عدل بنيامين فمزقوا ثيابهم ، وحمل كل واحد في حماره ورجعوا الى المدينة . فدخل يهوذا واخوته الى بيت يوسف وهو بعد هناك . ووقعوا امامه على الارض ، فقال لهم يوسف ما هذا الفعل الذي فعلتم ، الم تعلموا ان رجلا مثلي يتفاءل فقال يهوذا ماذا تقول لسيدي ماذا نتكلم وبماذا نتبرر الله قد وجد اثم عبدك ، ها نحن عبيد لسيدي نحن والذي وجد الطاس في يده جميعا ، فقال حاشا لي ان افعل هذا ، الرجل الذي وجد الطاس في يده هو الذي يكون لي عبدا ، واما انتم فاصعدوا بسلام الى ابيكم . ثم تقدم اليه يهوذا وقال : استمع يا سيدي ، ليتكلم عبدك كلمة في اذني سيدي ولا يحم غضبك على عبدك . لانك مثل فرعون سيدي سأل عبيده قائلا هل لكم اب او اخ فقلنا لسيدي لنا اب شيخ وابن شيخوخة صغير مات اخوه وبقي وحده لامه ، وابوه يحبه ، فقلت لعبيدك انزلوا به الي فاجعل نظري عليه ، فقلنا لسيدي لا يقدر الغلام ان يترك اباه ، وان ترك اباه يموت فقلت لعبيدك ان لم ينزل اخوكم الصغير معكم لا تعودوا تنظرون وجهي . فكان لما صعدنا الى عبدك ابي ، اننا اخبرناه بكلام سيدي. ثم قال لنا ابونا ارجعوا اشتروا لنا قليلا من الطعام ، فقلنا لا نقدر ان ننزل ، وانما اذا كان اخونا الصغير معنا ننزل لاننا لا نقدر ان ننظروجه الرجل واخونا الصغير ليس معنا . فقال لنا عبدك ، ابي انتم تعلمون ان امراتي ولدت لي اثنين ، فخرج الواحد من عندي وقلتم انما هو قد افترس افتراسا. ولم انظره الى الان فاذا اخذتم هذا ايضا من امام وجهي واصابته اذية تنزلون شيبتي بشر الى الهاوية . فالآن متى جئت الى عبدك ابي والغلام

ليس معنا ونفسه مرتبطة بنفسه يكون متى رأى ان الغلام مفقود انه يموت ، فينزل عبيدك شيبة عبدك ابينا بحزن الى الهاوية ، لان عبدك ضمن الغلام لابي قائلا : ان لم اجيء به اليك اصر مذنبا الى ابي كل الايام فالان ليمكث عبدك عوضا عن الغلام عبدا لسيدي ، ويصعد الغلام مع اخوته لأني كيف اصعد الى ابي والغلام ليس معي لئلا انظر الشر الذي يصيب ابي .

فلم يستطع يوسف (١) ان يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده (قائلا) اخرجوا كل انسان عني فلم يقف احد عنده حين عرف يوسف اخوته بنفسه فأطلق صوته بالبكاء ، فسمع المصريون وسمع بيت فرعون ، وقال يوسف لاخوته : انا يوسف أحي ابي بعد فلم يستطع اخوته ان يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه . فقال يوسف لاخوته تقدموا الي فتقدموا ، فقال انا يوسف اخوكم الذي بعتموه الى مصر ، والان لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لانكم بعتموني الى هنا لانه لاستبقاء حياة ارسلني الله قدامكم لان للجوع في الارض سنتين وخمس سنين ايضا فلا تكون فيها فلاحة ولا حصاد فقد ارسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الارض وليستبقي لكم نجاة عظيمة ، فالآن ليس ارسلتموني الى هنا بل الله ، وهو قد جعلني ابا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطا على كل ارض مصر ، اسرعوا واصعدوا الى ابي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف ، قد جعلني الله سيدا لكل مصر ، انزل الي لا تقف فتسكن ارض جاسان لتكون قريبا مني انت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك ، واعد لك هناك لانه يكون ايضا خمس سنين جوعا لئلا تفتقر انت وبيتك وكل ما لك ، وهو ذا عيونكم ترى وعينا اخي بنيامين ان فمي هو الذي يكلمكم ، وتخبرون ابي بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبي الى هنا . ثم وقع على عنق « بنيامين » اخيه وبكى وبكى بنيامين على عنقه ، وقبل جميع اخوته وبكى عليهم ، وبعد ذلك تكلم اخوته معه وسمع الخبر في بيت فرعون ، وقيل جاء اخوة يوسف ، فحسن في عيني فرعون وفي عيون عبيده ، فقال فرعون ليوسف : قل لاخوتك افعلوا هذا حملوا دوابكم وانطلقوا اذهبوا الى ارض كنعان وخذوا اباكم وبيوتكم وتعالوا الي اعطيكم خيرات ارض مصر وتأكلوا دسم الارض فأنت قد امرت ، افعلوا هذا خذوا لكم من ارض مصر عجلات لاولادكم ونسائكم واحملوا اباءكم وتعالوا ولا تحزن عيونكم على اثاثكم لان جميع خيرات ارض مصر لكم ، ففعل بنو اسرائيل هكذا واعطاهم يوسف عجلات

---

(١) التكوين : الاصحاح الخامس والاربعون ــ آيات : ١ ــ ٣٨ .

بحسب امر فرعون واعطاهم زادا للطريق واعطى كل واحد منهم حلل ثياب . واما بنيامين فأعطاه عشرة حمير حاملة من خيرات مصر وعشر آتن حاملة حنطة وخبزاً وطعاما لاجل الطريق ثم صرف اخوته ، فانطلقوا . وقال لهم لا تتغاضبوا في الطريق . فصعدوا من مصر وجاءوا الى ارض كنعان الى يعقوب ابيهم واخبروه قائلين : يوسف حي بعد وهو متسلط على كل ارض مصر فجمد قلبه لم يصدقهم ثم كلموه بكل كلام يوسف الذي كلمهم به ، وابصر العجلات التي تحملهم فعاشت روح يعقوب ابيهم ، فقال اسرائيل كفى ابني حي بعد . اذهب واراه قبل ان اموت . فارتحل اسرائيل (١) وكل ما كان له وجاء الى بئر سبع وذبح ذبائح لاله ابيه اسحق . فكلم آلله اسرائيل في رؤى الليل وقال : يعقوب. يعقوب فقال ها انذا ، فقال انا آلله اله ابيك، لا تخف من النمول الى ارض مصر وانا اصعدك ايضا ، ويضع يوسف يده على عينيك ، فقام يعقوب من بئر سبع وحمل بنو اسرائيل يعقوب اباهم واولادهم ونساءهم في العجلات التي ارسل فرعون لحمله، واخذوا مواشيهم ومقتناهم الذين اقتنوا في ارض كنعان وجاءوا الى مصر . يعقوب وكل نسله، بنوه وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه آلى مصر، جميع النفوس ليعقوب التي اتت الى مصر الخارجة من صلبه ، ما عدا نساء يعقوب ، جميع النفوس ست وستون نفسا ، وابنا يعقوب اللذان ولدا في نفسان ، جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءوا الى مصر سبعون ، فأرسل يهوذا امامه الى يوسف ليرى الطريق امامه الى جاسان ، ثم جاءوا الى ارض جاسان ، ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زمانا . فقال اسرائيل ليوسف اموت الآن بعد ما رايت وجهك انك حي بعد، ثم قال يوسف لاخوته وبيت ابيه اصعد واخبر فرعون واقول له اخوتي وبيت ابي الذين في ارض كنعان جاءوا الي ، والرجال رعاة غنم فانهم كانوا اهل مواشي وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لديهم فيكون اذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم ان تقولوا عبيدك اهل مواشي منذ صبانا الى الان نحن واباؤنا جميعا لكي تسكنوا في ارض جاسان لان كل راعي غنم رجس للمصريين ، فأتى يوسف واخبر فرعون (٢) وقال : ابي واخوتي وغنمهم وبقرهم وكل مالهم جاءوا من ارض كنعان ، وهو ذا هم في ارض جاسان ، واخذ من جملة اخوته خمسة رجال واوقفهم امام فرعون، فقال فرعون لاخوته ما صناعتكم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن واباؤنا جميعا ، وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب في الارض ، اذ

(١) التكوين : الاصحاح السادس والاربعون ـ آيات : ١ ـ ٣٤ .
(٢) التكوين : الاصحاح السابع والاربعون ـ آيات : ١ ـ ٢١ .

ليس لغنم عبيدك مرعى لان الجوع شديد في كنعان . فالآن ليكن عبيدك في ارض جاسان فكلم فرعون يوسف قائلا ابوك واخوتك جاءوا اليك ارض مصر قدامك ، في افضل الارض ، اسكن اباك واخوتك ليسكنوا في ارض جاسان ، وان علمت انه يوجد بينهم ذوو قدرة ، فاجعلهم رؤساء مواشي على التي لي ، ثم ادخل يوسف يعقوب اباه واوقفه امام فرعون ، وبارك يعقوب ، فقال فرعون ليعقوب كم هي ايام سني حياتك ، فقال يعقوب لفرعون ، ايام سني غربتي مائة وثلاثون قليلة ، وردية كانت ايام سني حياتي. ولم تبلغ الى ايام سني حياة آبائي في ايام غربتهم، وبارك يعقوب فرعون وخرج من لدن فرعون ، فأسكن يوسف اباه واخوته وأعطاهم ملكا في ارض مصر ، في افضل الارض في ارض «رعمسيس» كما امر فرعون، وعاد يوسف اباه واخوته وكل بيت ابيه بطعام على حسب الاولاد ، ولم يكن خبز في كل الارض ، لان الجوع كان شديدا جدا فخوربت ارض مصر ، وارض كنعان من اجل الجوع ، فجمع يوسف كل الفضة الموجودة في ارض مصر وفي ارض كنعان بالقمح الذي اشتروا وجاء يوسف بالفضة الى بيت فرعون ، فلما فرغت الفضة من ارض مصر ومن ارض كنعان اتى جميع المصريين الى يوسف قائلين : اعطنا خبزا . فلماذا نموت قدامك لان ليس فضة ايضا فقال يوسف هاتوا مواشيكم فجاءوا بمواشيهم الى يوسف فأعطاهم يوسف خبزا بالخيل وبمواشي الغنم والبقر وبالحمير فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم ، ولما تمت تلك السنة آتوا اليه في السنة الثانية وقالوا له لا تخفى عن سيدي انه اذ قد فرغت الفضة ومواشي البهائم عند سيدي ، لم يبق قدام سيدي الا اجسادنا وارضنا لماذا نموت امام عينيك نحن ، وارضنا جميعا اشترنا وارضنا بالخبز ، فنصير نحن وارضنا عبيدا لفرعون ، واعط بذارا لنحيا ولا نموت ، ولا تصير ارضنا قفرا فاشترى يوسف كل ارض مصر لفرعون ، اذ باع المصريون كل واحد حقله ، لان الجوع اشتد عليهم ، فصارت الارض لفرعون ،واما الشعب فنقلهم الى تلمدن من اقصى حد مصر الى اقصاه ، الا ان ارض الكهنة لم يشترها اذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون . فأكلوا فريضتهم التي اعطاهم فرعون . لذلك لم يبيعوا ارضهم . فقال يوسف للشعب : اني قد اشتريكم اليوم وارضكم لفرعون ، هوذا لكم بذار ، فتزرعون الارض ويكون عند الغلة انكم تعطون خمسا لفرعون والاربعة اجزاء تكون لكم بذار للحقل وطعاما لكم ولمن في بيوتكم وطعاما لاولادكم فقالوا احييتنا ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيدا لفرعون، فجعلها يوسف فرضا على ارض مصر الى هذا اليوم ، لفرعون الخمس ،

الا ان ارض الكهنةوحدهم لم تكن لفرعون ، وسكن اسرائيل في ارض مصر في ارض جاسان وتملكوا فيها واثمروا وكثروا جدا ، وعاش يعقوب من ارض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت ايام يعقوب سنو حياته مائة وسبعا واربعون سنة ، ولما قربت ايام اسرائيل ان يموت دعا ابنه يوسف وقال له ان كنت وجدت قد وجدت نعمة في عينيك فضع يدك تحت فخذي . واصنع معي معروفا وامانة لا تدفنني في مصر ، بل اضطجع مع ابائي . فتحملني من مصر وتدفنني في مقبرتهم ، فقال انا افعل بحسب قولك ، فقال احلف لي فحلف له فسجد اسرائيل على رأس السرير ، وحدث بعد هذه الامور انه قيل ليوسف هو ذا ابوك مريض (١) فأخذ معه ابنيه منسى وافرايم ، فأخبر يعقوب وقيل له هو ذا ابنك يوسف قادم اليك فتشدد اسرائيل وجلس على السرير وقال يعقوب ليوسف : الله القادر على كل شيء ظهر لي في « لوز » في ارض كنعان وباركني وقال لي ها اجعلك مثمرا واكثرك ، واجعلك جمهورا من الامم ، واعطي نسلك هذه الارض من بعدك مكانا ابديا . والان ابناك المولودان لك في ارض مصر ، قبل ما اتيت اليك الى مصر هما لي ، افرايم ومنسى كراوبين وشمعون يكونان لي ، اولادك الذين تلد بعدهما فيكونان لك على اسم اخويهم يسمون في نصيبهم . وانا حين جئت من « فدان » ماتت عندكما « راحيل » في ارض كنعان في الطريق افرالة التي هي « بيت لحم » ورأى اسرائيل ابني يوسف فقال من هذان ؟ فقال يوسف لابيه هما ابناي اللذان اعطاني الله هاهنا ، فقال قدمهما الي لاباركهما واما عينا اسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة ، لا يقدر ان يبصر فقدمهما اليه فقبلهما واحتضنهما ، وقال اسرائيل ليوسف لم اكن اظن اني ارى وجهك وهو ذا الله قد اراني نسلك ايضا ، ثم اخرجهما يوسف من بين ركبتيه وسجد امام وجهه الى الارض واخذ يوسف الابنين افرايم بيمينه على يسار اسرائيل ، ومنسى بيساره عن يمين اسرائيل وقربهما اليه فمد اسرائيل يمينه ووضعها على راس افرايم وهو الصغير ، ويساره على راس منسى ووضع يديه بفطنة ، فان منسى كان البكر ، وبارك يوسف وقال الذي سار امامه ابواي ابراهيم واسحق ، الله الذي رعاني منذ وجودي الى هذا اليوم الذي خلصني من كل شر ، يبارك الغلامين وليدع عليهما اسمي واسم ابوي ابراهيم واسحق وليكثرا كثيرا في الارض .

فلما راى يوسف ان اباه وضع يده اليمنى على افرايم ساء ذلك في

---

(١) التكوين : الاصحاح الثامن والاربعون ـ آيات : ١ ـ ٢٢ .

عينه ، فأمسك بيد ابيه لينقلها على راس افرايم الى راس منسى ، وقال يوسف لابيه :

ليس هكذا يا ابي ، لان هذا هو البكر . ضع يمينك على راسه ، فأبى ابوه وقال : علمت يا ابني علمت ، هو ايضا شعبا وهو ايضا يصير كبيرا ، ولكن اخاه الصغير يكون اكبر منه ونسله يكون جمهورا من الامم ، وباركهما في ذلك اليوم قائلا : بك يبارك اسرائيل ، قائلا : يجعلك الله كافرايم وكمنسى فقدم افرايم على منسى، وقال اسرائيل ليوسف ها انا اموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم الى ارض ابائكم ، وانا قد وهبت لك سهما واحدا فوق اخوتك اخذته من يد الاموريين بسيفي وقوسي .

ودعا يعقوب بنيه (١) وقال اجتمعوا لانبئكم بما يصيبكم في اخر الايام اجتمعوا واجتمعوا يا بني يعقوب ، واصغوا الى اسرائيل ابيكم : «رأوبين» انت بكري قوتي واول قدرتي ، فضل الرفعة وفضل العز فاترا كالماء لا تتفضل لانك صعدت على مضجع ابيك ، حينئذ دنسته ، على فراشي صعد شمعون ، ولاوي ، اخوان . الات ظلم سيوفهما ، في مجلسهما لا تدخل نفسي ، بمجمعهما لا تتحد كرامتي لانهما في غضبهما قتلا انسانا وفي رضاهما عرقبا ثورا ، ملعون غضبهما فانه شديد ، وسخطهما فانه قاسي اقسمهما في يعقوب وافرقهما في اسرائيل ، « يهوذا » اياك يحمد اخوتك ، يدل على قفا اعدائك ، يسجد لك بنو ابيك يهوذا جرو اسد ، من فرسة صعدت يا بني جثاوربض كأسد وكلبوة من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب ، مرابطا بالكرامة جحشة وبالحفنة ابن اتانة، عسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه ، مسود العينين من الخمر ، ومبيض الاسنان من اللبن .

« زبولون » عند ساحل البحر يسكن ، وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون .

« يساكر » حمار جسيم رابض بين الحضائر ، فراى المحل انه حسن، والارض انها نزهة فاحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبدا ، وان يدين شعبه كأحد اسباط اسرائيل يكون دان حية على الطريق افعوانا ، على السبيل يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه الى الوراء ، لخلاصك انتظرت يا رب .

---

(١) التكوين : الاصحاح التاسع والاربعون ـ آيات : ١ ـ ٣٣ .

« وجاد » يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

« اشير » خبزه سمين وهو يعطي لذات ملوك .

« نفتالي » ايلة مسيبة ، يعطي اقوالا حسنة .

« يوسف » غصن شجرة مثمرة ، غصن شجرة مثمرة على عين اغصان قد ارتفعت فوق حائط ، فمررته ورمته ، واضطهدته ارباب السهام ولكن نبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه ، ومن يدي عزيز يعقوب من هناك من الراعي صخر اسرائيل ، من اله ابيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك ، تأتي بركات السماء من فوق ، وبركات القمر الرابض تحت ، بركات الثديين والرحم بركات ابيك فاقت على بركات ابوي الى منية الاكام الدهرية تكون على راس يوسف وعلى قمة نذير اخوته .

« بنيامين » ذئب يفترس ، في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا .

جميع هؤلاء هم اسباط اسرائيل الاثنا عشر ، وهذا هو ما كلمهم به ابوهم وباركهم عليه . كل واحد بحسب بركته باركهم واوصى لهم وقال لهم انا انضم الى قومي . ادفنوني عند ابائي في المغارة التي في حقل «عفرون» الحثي ، في المغارة التي في حقل المكفيلة التي اقام ممرا في ارض كنعان التي اشتراها ابراهيم مع الحقل من عفرون الحثي ، ملك قبر ، هناك دفن ابراهيم وسارة امراته هناك دفن اسحق ورفقة امراته وهناك دفنت «ليئة» . شراء الحقل والمغارة التي فيه كان من بني حث .

ولما فرغ يعقوب من توصيته بنيه . ضم رجليه الى السرير واسلم الروح وانضم الى قومه . فوقع يوسف (1) على وجه ابيه وبكى عليه وقبله وامر يوسف عبيده الاطباء ان يحنطوا اباه فحنط الاطباء اسرائيل ، كمل له اربعون يوما ، لانه هكذا تكمل ايام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوما ، وبعد ما مضت ايام بكائه . كلم يوسف بيت فرعون قائلا : ان كنت قد وجدت نعمة في عيونكم فتكلموا في مسامع فرعون قائلين : ابي استحلفني قائلا : ها انذا اموت في قبري الذي حفرت لنفسي في ارض كنعان ، هناك تدفنني ، فالآن اصعد لادفن ابي وارجع ، فقال فرعون اصعد وادفن اباك

---

(1) التكوين : الاصحاح الخمسون ــ آيات : ١ ــ ٣٦ .

كما استحلفك . فصعد يوسف ليدفن اباه وصعد معه جميع عبيد فرعون ، شيوخ بيته وجميع شيوخ ارض مصر ، وكل بيت يوسف واخوته وبيت ابيه ، غير انهم تركوا اولادهم وغنمهم وبقرهم في ارض جاسان وصعد معه مركبات وفرسان ، فكان الجيش كثيراً جداً . فاتوا الى « بيدر اطاد » الذي في عبر الاردن ، وناحوا هناك نوحا عظيما وشديدا جدا وضع لابيه مناحة سبعة ايام ، فلما رأى اهل البلاد الكنعانيون المناحة في « بيدر اطاد » قالوا هذه مناحة ثقيلة للمصريين ، لذلك دعي اسمه « ابل مصر ايم » الذي في عبر الاردن ، وفعل له بنوه هكذا كما اوصاهم ، حمله بنوه الى ارض كنعان ، ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها ابراهيم مع الحقل ، ملك قبر من عفرون الحثي امام ممرا ، ثم رجع يوسف الى مصر هو واخوته وجميع الذين صعدوا معه لدفن ابيه ، بعدما دفن اباه ، ولما رأى اخوة يوسف ان اباهم قد مات قالوا لعل يوسف يضطهدنا ويرد علينا جميع الشر الذي صنعنا به ، فأوصوا الى يوسف قائلين : ابوك اوصى قبل موته قائلا : هكذا تقولون ليوسف ، اصفح عن ذنب اخوتك وخطيتهم ، فانهم صنعوا بك شرا ، فالآن اصفح عن ذنب عبيد اله ابيك فبكى يوسف حين كلموه . واتى اخوته ايضا ووقعوا امامه وقالوا ها نحن عبيدك ، فقال لهم يوسف لا تخافوا لانه هل انا مكان الله ، انتم قصدتم لي شرا ، اما الله فقصد به خيرا ، لكي يفعل كما اليوم ، ليحيي شعبا كثيرا . فالآن لا تخافوا ، انا اعولكم واولادكم ، فعزاهم وطيب قلوبهم .

وسكن يوسف في مصر هو وبيت ابيه ، وعاش يوسف مائة وعشر سنين . ورأى يوسف لافرايم اولاد الجيل الثالث واولاد «ماكير بن منسى» ايضا ولدوا على ركبتي يوسف ، وقال يوسف لاخوته انا اموت ولكن الله سيفتقدكم ، ويصعدكم من هذه الارض الى الارض التي خلف لابراهيم واسحق ويعقوب ، واستحلف يوسف بني اسرائيل . قائلا الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا ، ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ووضع في تابوت مصر .

وعلى هذه الصورة التي ترسم ملامحها التوراة في تفصيل قد قصدنا ان نتحمل ثقله في بعده عن لغة المعقول وفي بعده عن لغة المنطق النبوي والنظرة السليمة على هذه الصورة في تفصيل عملت فيه الصنعة الدينية في رسم ابعاد وجوانب لمواقف وحوادث مقصودة لكل ما يترتب عليها في المعتقد اليهودي خاصة فيما يتعلق بالاباء الاول لجماعات اليهود وتاريخهم

في تفصيل موسع قصت التوراة جزءا مهما من حياتهم حين بداوا تاريخهم الطويل بالاقامة في مصر على ضوء الكيفية الخاصة التي تقصها علينا التوراة فيما اوردناه الا انا اذا كنا نحرص على ان نبرز في عمد ، قصص التوراة في اكثر مراحل عمر الاباء الاول لليهود وخاصة حول الطريقة التي بدأ بها اليهود وجودهم في مصر فاننا نعني ان تقديم بضع ايات او مجموعات من قصص التوراة والمعتقد الديني فيها بقدر ما هو دعوة منا للتعرف على منهج القوم العقائدي حول حوادث التاريخ اليهودي القديم وعلاقتهم به ، فانذلك يتيح لنا مناقشة ما يتعلق بحوادث تاريخ القوم ومعتقداتهم. والنصالديني قريب مما يمكن ان يكون بداية لما نود ان نقرره او يمكن ايضا ان يكون دليلا لما نقيمه من قضايا تجريح او هدم او رفض لزيف المعتقدات الدينية ، ونحن فيما نورده من قصص التوراة نحرص على ان نأتي الى مواضيع الامان والتي لا تشكل افتراء او تناقضا صريحا ، يتعارض مثلا مع حقائق التاريخ او مع ما ورد في بعض ايات الاناجيل او ما يقصه القرآن الكريم احيانا بمنهجه المعجز في الايجاز ورسم الملامح العامة فيمثل هذه المواضيع .

اقول نحن نحرص على ان نبرز في عمد قصص التوراة في اكثر مراحل عمر الآباء الاول لليهود ، وان التوراة في بسطها للكيفية التي دخل بها اليهود والاسرائيليون مصر ، لا تشكل افتراء او تناقضا ، يتعارض مثلا مع ما جاء في ايجاز في مصادر ،معتقدات تخالف منهج القوم كآياتمنالعرض الذي ورد في القرآن الكريم الا اننا اذا كنا نريد ان نتحسس جوانب الصورة في المنهج التوراتي كله ، فسنرى في تأكيد ووضوح لا تتفق معه وجهات نظر اطراف كثيرة ومذاهب في المعتقد الديني متعددة ، وسنرى صنعة التدوين وعمل الهوى المقصود ، والمرتبط بظروف متأخرة بل وفي مراحل ظروف متقدمة جدا عن بدء حوادث الهجرة لابناء يعقوب وملابستها حين بدأ اليهود في التوجه الى مصر ، اقول عمل الهوى المقصود في منهج التوراة بكشف حتى فيما بصدده من الايات التي اوردناها عن امور تتعلق بجزء كبير من التناقضات حول الاسلوب والمنهج التدويني الذيدرجت عليهمعظم ايات ما ورد في التوراة ، وعلى سبيل المثال فانالتتبع لما اوردناه منالتوراة في التكوين ابتداء من الاصحاح التاسع والثلاثين يقدم معطيات تبدأ من البداية في تاريخ ابناء يعقوب الذي اطلق عليه « اسرائيل » واصبح حتى بعد ان تسمى بهذا الاسم الجديد ينادى «يعقوب» ويسمي هو نفسه احيانا بالاسمين معا ، ولا سند فيما تسوقه التوراة من دعواها العنصرية مع ان القوم الذين نكتب عنهم وعن تاريخهم فئة غريبة جدا من البشر ، وغرائز في

طبع لم تعمل فيه عوامل . أو مراحل الهجرة الطويلة الكثيرة والمتعددة او الحل او الترحال ، ادئى عمل من تهذيب او تربية بل منذ البداية كما تحكي التوراة من بين تناقضها عنهم فيما استشهدنا به من الايات التي اوردناها انهم لا يقبلون بينهم الصنفه الممتاز من الرجال او الخلق القويم من البشر وان اسلوبهم في التخلص ممن يرونه خطوا عليهم ــ ولو اخلاقيا ــ حتى ولو لم يحاربهم في اطماعهم هو الوشاية والتآمر ثم الانقضاض عليه والتخلص منـــه .

فمثلا عن علاقة ابناء يعقوب الاحد عشر بأخيهم الصغير يوسف والذي كان فيما بعد حين تخلص من ايديهم « المعبر » الذي جاءوا من عليه الـــى مصر ومكثوا فيها ، تكشف التوراة عن معنى الخيانة المرتبط بهم منذ النشأة الاولى وهو معنى لم يفارقهم وكانوا يتحسسون مظاهره في نفوسهم حتى بعد مرحلة من عمرهم حين مات ابوهم واصبحوا في كيف يوسف ورعايتـــه ان كانوا لفرط اجرامهم يخيل اليهم ان السنين لم تعمل في نفس يوســـف عملها ولم ينس قسوة ما عاملوه به فطلبوا الصفح والغفران ، ولكن متى ؟؟

بعد ان اصبحوا عبيدا يسجدون لمن ارادوا قتله والتخلص منه .

تقول التوراة عن معنى الخيانة المرتبط بهم والذي نتحدث عن تأصله في اعماق القوم منذ نشأتهم .

« ... فلما ابصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا عليه ليميتوه قال بعضهم لبعض ، هوذا صاحب الاحلام قادم ، فالآن هلم نقتله ونطرحه في احدى الابار ، ونقول وحش رديء اكله » .

وامام تدبير هذه الجريمة البشعة في ان يتآمر الاخوة الكبار جميعـــا دون ما خلق او ضمير ، بل ودون ما هزة انسانية امام جرم قتل الصغير ، بل لم يعمل الدم الواحد فيهم عمله ، اندفعوا في خيانتهم وان عقدة النقص في الاستعداد التي استشعروها في انفسهم وسيطرت عليهـــم امام نبـــوغ الولد المهيأ للنبوة والرسالة لم تجعل في قلب واحد منهم شفقة او رحمة ، وقال من رق قلبه واهتز لعنف الجريمة وهولها : نستطيع بدلا من قتلـــه ان نلقيه في بئر ، ونتخلص منه بهذه الطريقة ؟. تقول التوراة ، وقال لهـــم « رأوبين » لا تسفكوا دما ، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية » .

ومن عند هذه البداية المبكرة في التآمر وحب القتل والتخلص من كل ما لا يوائم طبع الجماعة التي تنتمي في دعوى وفي ميراث مدعى الـى الاباء الاول من عصر يعقوب بن اسحق ، بن ابراهيم ، وموقف القوم من غيرهم ومن اخيهم انهم قتلةوانهم جميعا لا يأمن واحد منهم الاخر على نفسه ، او ماله او عرضه ، وكلالخلق الذين حاولوا ان يجعلوه نموذجا للهـــداية والتطهر ، ينحصر في الفترة التي قسمت عليهم وعلى غيرهم الطبيعة فيفترة الجدب والقحط التي حلت ببقاع كثيرة ، كما تشير التوراة بل وكما تقصعلى ان الارض كلها كان بها حالة من الجوع والوباء ، ثم جاءوا بسببه الى مصر، وهذا الخلق ان ذهبنا نبحث عنه على ضوء ما قررت آلايات التي استشهدنا بها على الكيفية التي تكشف عن اسلوب القوم في علاقاتهم بغيرهم منذ البداية القديمة ، فان هذا الخلق ضعيف ومتخاذل جبان ، بل ومتسول ، دائمـا وابدا ، لا يعرف صاحبه شخصية تميزه عن غيره ، ولا ادبا يحفظ بـه ماء وجهه ، تفصح التوراة في بعض الايات التي اوردناها الى ان الحال السلبي الهزيل والحيرة المشتتة التي ملأت وجدان القوم وحياتهم ، قبل قدومهـم مصر ، كادت ان تقتل فيهم كل امل للحياة لولا ان الرجل العجوز الطاعن في السن ، قد سرى اليه انباء حال مصر الاقتصادي وانه يومئذ كان افضل حال يمكن ان تلجأ اليهجماعة او ان تعيش في كنفه فئة فاوصاهم ان يذهبوا ليأتوا ببعض خير مصر، وتلك كانت البداية في ان القوم جاءوا مصر سائلين اصحاب حاجة ورجاء ، ولم تكن في حركة القوم هذه ادنى علاقة من معاني الدين او تخطط الدعوى ، بل عفوية السؤال وحال الاستجداء وامل المعونة كان هو طابع كل فئة محدودة وجماعة غريبة تقصد البلد والناس في مصر .

« ... فلما راى يعقوب انه يوجد قمح في مصر ، قال يعقوب لبنيـه لماذا تنظرون بعضكم الى بعض ، وقال قد سمعت انه يوجد قمح بمصر ، وانزلوا الى هناك ، واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت » (١) .

ثم تكشف التوراة لا اقول عن عمد وامانة ، وانما هي فلتات الذيكان يدون لهذه المرحلـة او المرحلة التالية التي كان يقوم بها مؤلف غيره فلـم يستوعب كل ما يقصده المؤلف السابق او اللاحق في خدمة الهوى والمصلحة القديمة المدعاة ، او خانه التعبير فجاء البيان التوراتي في عبارة تكشف دون ان يدري المصنف التوراتي ما كان يود له ان يكون في طي الخفاء ، او ما كان

---

(١) التكوين ــ الاصحاح الثاني والاربعون ١ ــ ٢ .

يراد له ان يكون سندا للدعوى وزيف الاوهام ، تكشف التوراة عن انهم حين جاءوا الى مصر سائلين : كانوا في حالة من البداوة والتخلف ، وسوء الحال العام والاستعداد المفرط للعبودية والذل من اجل قضاء حوائجهم ولذا حين ادرك يوسف حال القوم وعرف حقيقتهم ، بل ووقوفه ببداهته من ناحية وبالجانب المعجز الذي كان يتمتع به من ناحية اخرى انهم رغم الهوان والمذلة وسوء حالهم : ابناء ابيه ، ان عاملهم بقسوة وجفاء ، تاديبا وتربية للعقوق والكفران من ناحية ، ثم لاظهاره ، **وهذا جانب مهم جدا ، سيادة الشعب الذي كان يوسف قد انتمى اليه وتسمى باسم واحد منه واصبح سيدا من ابنائه .**

يقول النص الذي ورد ذكره : « ... فأتى اخوة يوسف (١) وسجدوا بوجوههم الى الارض ، ولما نظر يوسف اخوته عرفهم ، فتنكر لهم ، وتكلم معهم بجفاء وقال لهم من اين جئتم ، فقالوا من ارض كنعان . « لنشتري طعاما » وعرف اخوته واما هم فلم يعرفوه » .

ويدخل معهم يوسف بن يعقوب الذي كان وقتئذ قد تحضر ولبس ثوب ومظهر المصريين ، في حوار يريد به ان يخبر خبيئة القوم ونياتهم ، ويهددهم بانه قاتلهم لا محالة لانهم جواسيس وعيون ، جاءت تستطلع حال الشعب المصري وتحاول سرقته بعد الوقوف على عورته واخباره .

ومن عجب ان تفصح التوراة فيما اوردناه عن معنى مصري عظيم حفظه يوسف بن يعقوب « الاسرائيلي » او العبراني على حد ما عبرت التوراة عند الموقف الذي سخطت فيه امراة الفرعون المصري على يوسف وقالت فيه لزوجها « **العبد العبراني** » .

اقول من عجب ان تفصح التوراة عن معنى مصري عظيم . حفظه يوسف ابن يعقوب الاسرائيلي وابرزه ، تاكيدا لسيادة المصريين وعظمتهم وقتئذ هذا المعنى هو تهديد يوسف لابناء ابيه الذين لم يكونوا قد علموا من امره شيئا ، انهم ان لم يكشفوا عن حقيقة امرهم ، فانه باسم الفرعون المصري صاحب العرش ، باسم الفرعون ، لا بل وحياته ان تقولوا من انتم حقيقة ؟ ومن اين وما هومقصدكم ، والا لاقتلنكم او احبسنكم ، هذا الحوار الذي

---

(١) التكوين ـ الاصحاح الثاني والاربعون ـ الآية ٧ .

تقصه التوراة علينا بين يوسف واخوته رغم انه حوار مقصود به من جانب يوسف معنى غير الذي ادركه القوم الا ان سياقه يكشف عـــن مدى ولاء يوسف بن يعقوب للشعب المصري وللحاكم المصري حين كان يوسف واحدا من سادة الشعب . تلقي التـــوراة بحسب منهجهـــا بعض ضوء على هـــذا الموقف فتقول على لسان يوسف مما أوردناه :

« ... جواسيس انتم لتروا عورة الارض جئتم ، فقالوا لـــه لا يا سيدي بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاما » .

ثم يطلب منهم يوسف ، كما تقول التوراة بأن يأتوا اليه بأخيهم الذي ادعوا له بانهم تركوه مع ابيهم ، مرة ثانية يؤكد يوسف ، سيادة فرعون مصر امام اخوته دون مقصد من عنف اسلوبه معهم في رواية التوراة ، والا فوحياة فرعون انكم لجواسيس » .

واخيرا ، يرق قلب الاخ النبي ، الذي جردته النبوة من كل شوائب اخوته بل وبيئته ، ويقول لهم في نغم جديد ولهجة مغايرة لاسلوب التهديد الذي بداهم به وبأنه لن يقتلهم ولن يحبسهم جميعـــا ، وانما يكفي وعـــد يصدقـــوا فيه وواحد منهم ليعبروا عن صدقـــهم فيما ادعوه من انهم ابناء رجل واحد وانهم تركوا اخا لهم مع ابيهم ويقول لهم يوسف كمـــا تعبر التـــوراة .

« انا خائف الله ... خذوا قمحا لمجاعة بيوتكم » (١) .

ويحمل ابناء يعقوب ما وهبه لهم الاخ الذي لم يكونوا قد استشعروا في انفسهم من امره شيئا ، الخير الكثير ، ومن عجب انه كما تقص التوراة لم يأخذ له ثمنا ولم يعلمهم بما فعل ، ويعود الاولاد الـــى ابيهم ، وينفـــد الطعام منهم والمئونة بعد فترة يقول لهم بعدها الرجل المسن : ارجعوا الـــى مصر ، اشتروا لنا قليلا من الطعام ، ويرد عليه ولده يهوذا قائلا : انـــا لا نستطيع ان نذهب الى مصر ، لان الرجل المسئول عنها قد اشهد علينا انه لا بد وان يكون « بنيامين » شقيق المفقود معنا فاذا كنت ترسل ــ معنـــا بنيامين ، ذهبنا واحضرنا لك ولانفسنا الطعام .

---

(١) التكوين ــ الاصحاح الثاني والاربعون ــ الآية ١٨ .

وبعد حوار طويل قصته التوراة واوردنا بعض نصوصه فيمـــا استشهدنا به عن كيفية دخول ابناء يعقوب الى مصر ، وافق يعقوب على ان يرافق « بنيامين » اخوته الراحلين الى مصر بقصد سؤال المصريين الحاجة من الطعام والمئونة .

وفي اللقاء الثاني بين ابناء يعقوب والمصريين تبرز من اعماق القوم اهم مميزاتهم وصفاتهم ، فالشكوك والوساوس الخ كانت تملأ قلوب ابناء يعقوب كمظاهر تعبير لحالات الطمع والجشع ، وايضا الجبن الذي لازم القوم منذ نشأتهم الاولى كان واضحا ، ذلك انهم حين جاءوا مصر في المرة الثانية وعلم يوسف وتحقق وتأكد ان ابناء الرجل الواحد ، اولئك الذين قدموا اليـه فعرفهم وطلب اليهم حضور أخيهم الصغير الذي تحدثوا عنه امامـه هـم اخوته تماما ، وقد جاءوا اليه ، اراد ان يكشف لهم عن نفسه ، وعن فضل الله عليه، فطلب ممن حوله ان يستعدوا لاكرام الذين قدموا مـن ارض كنعان سائلين ومستجدين ، ومن عجب انهم ما ان لمحوا مظاهر الحفاوة بهم والاستعداد لتكريمهم حتى هيىء اليهم ان ما يتخذ من اجراءات وما ينجزه الذين حول يوسف من المظاهر العامة ، توحي اليهم بانها ليست من اجلهم انما هي وشاية بهم ومحاولة للايقاع بهم والتخلص منهم .

تقول التوراة :

« ... فلما رأى يوسف (١) « بنيامين » معهم قال للذي على بيتـه ادخل الرجال الى البيت ، واذبح ذبيحة ، وهيىء لان الرجال يأكلون معي عند الظهر ، فخاف الرجال اذا دخلوا الى بيت يوسف ، وقالوا ... نحن قد ادخلنا ليهجم علينا ، ويقع بنا ويأخذنا عبيدا وحميرنا » .

واضح من هذا القصص ان القوم رغم انهم في حال المستجدي والسائل وأن كل ما يملكونه لا يطمع فيه طامع فضلا عن قوم هم كما تقول التوراة كانوا حينئذ مقصد الناس ورجاءهم الا انهم كما يقـول النص التوراتي قالوا : « وحميرنا ؟؟ » وكانت حميرهم في تعلقهم بها وحرصهم عليها قرينة انفسهم في الخوف عليها ، وهنا تنكشف قمة الانانية والحرص عند القوم على ما في ايديهم وانعدام ملكة البذل او التضحية والفـداء عنـدهم « ... ويأخذنا عبيدا وحميرنا » .

---

(١) التكوين ـ الاصحاح الثالث والاربعون ـ الاية ١٦ .

وتكشف التوراة رغم حرصها احيانا على اخفاء الصنعة التاريخية والتدوين المرحلي ،الذي كان يوائم كل ظرف ، ويتفق مع مزاج كل مرحلة، ان المصريين حتى منذ الفترة الاولى التي قدم فيها ابناء يعقوب الجماعات العبرية ـ الاولى يترفعون عن اولئك العبرانيين ، ويتأبون بأنفسهم وبسلوكهم ، بل وبكل مظاهر حياتهم عن تقاليد وعادات اولئك القوم لانهم في مظهرهم ، وفي سلوكهم بل وفي مهنتهم التي يحبون الحياة بها ، وهي انهم من البدو والرعاة للغنم يمثلون سلوكا اخلاقيا واجتماعيا ممتهنا (١) . لا يجاري اداب وتقاليد مجتمع كالمجتمع المصري يعيش على استقرار وامان وثقة بالارض ، وبالخير الذي ينبت فيها .

تقول الايات التي استشهدنا بها عن الكيفية التي دخل بها ابناء يعقوب مصر ، أن يوسف قال حين قدم اليه اخوته في المرة الثانية ومعهم « بنيامين » ما يكشف في وضوح لم يفطن إليه كاتب التوراة عن انفة المصريين وتأبيهم عن مخالطة العبرانيين وعدم استعدادهم حتى للاكل معهم **« ... قدموا طعاما فقدموا له وحده ولهم وحدهم لان المصريين لا يقدرون ان ياكلوا طعاما مع العبرانيين لانه رجس عند المصريين » .**

وفي الرحلة الثالثة التي قام بها ابناء يعقوب إلى مصر ومعهم يعقوب بعد ان عرفوا امر اخيهم يوسف في المرة الثانية ، قدموا الى مصر بناء على قبوله اياهم ان يحيوا الحياة في ارض مصر حتى يتيسر لهم ان ينجوا من الافة والقحط الذي تعرضوا له في المنطقة الواسعة التي كانوا يتنقلون فيها في الرحلة الثالثة الى مصر قدم ابناء يعقوب الى مصر بناء على توجيهات من يوسف حتى يمكن له ان يكرم والده وان يرعى شيخوخته ويأنس به، ولقد قال لهم كما تعبر التوراة .

« ... اسرعوا واصعدوا الى ابي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف انزل قد جعلني الله سيدا لكل مصر انزل الي لتسكن في ارض « جاسان » منطقة بمحافظة الشرقية » وتكون قريبا مني . (٢)

والذي نود ان نلفت اليه في تحديد ، انه رغم كل ما هو مقدس وعظيم

---

(١) دكتور غوستاف لوبون ، في كتابه : « اليهود في تاريخ الحضارات » الاولى . ترجمة عادل زعتر صادر عن : عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(٢) التكوين ـ الاصحاح الخامس والاربعون ـ آيات ٩ ـ ١٠ .

يحيط بشخصية يوسف بن يعقوب ، وسيادته على الشعب المصري وتدبيره لحياته واقتصاده ، بل ورغم دور المعجزة الخلاق الذي كان يتمتع به يوسف كنبي بلغ مرتبة الكمال الانساني داخل دائرة النبوة ، على ضوء ما ترسم ملامحه في منهج اخر وعقيدة اخرى في القرآن الكريم مثلا ، فان ما اقدم عليه يوسف حين طلب من اخوته ، بعد ان عرفهم تماما ووقف على حقيقة امرهم وبعد ان تأكد من ان والده الرجل الطاعن في السن يعيش جدب منطقة البادية كلها ، جائعا في ارض كنعان ، لم يكن حين دعا اخوته ووالده الى الاقامة في مصر، ـ رغم كل الادعاءآت التي كتبت في هذا الموضوع ـ قد قدم الارض المصرية التي ساقه اليها قدره ليصبح راعيها ، والشعب الذي اصبح واحدا منه ، لقمة سائغة ومنحة طيبة لابناء ابيه ، فانه منذ الفترة بين الرحلة الثانية لابناء يعقوب الى مصر وقدومهم للاقامة في الرحلة الثالثة ، كان الفرعون المصري ، الحاكم النهائي للشعب المصري بل وكان الشعب المصري نفسه بكافة جماهيره وفئاته يعلم ان يوسف القريب الى قلب الشعب المصري ، والذي قبل من يوسف ان يتمصر نظرا لوفائه وولائه واخلاصه وخدمته الحياة العامة في مصر ، قد حضر اليه اخوته ، وآله ضيوفا عليه ، سائلين وقاصدين ، فسمح لهم الفرعون المصري بعد استئذان يوسف بالقدوم ، ووافق على الاقامة ، وطابت نفسه في تقديم الحاجيات والمئونة واقتطاع بعض الارض ليمكثوا فيها ولا يختلطوا بالمصريين .

ومن اعجب العجب ان المصنف التوراتي ، الذي دون وسجل لهذه الحقبة قد جاء فيما رواه في الاصحاح السابع والاربعين من التكوين هذا المعنى الذي تقرره صراحة ، ولم يفطن هذا الذي دون وسجل لهذه المرحلة انه قد ابرز جانبا من الغموض الحائل دون التصور الكامل لهذه المرحلة حتى من وجهة نظر المصادر الدينية لدين يهود ، فان في النص التوراتي ما يكشف في هذا الجانب عن سيادة كاملة للفرعون المصري وتمكنه من ادارة وقيادة كل الذين كانوا في خدمته ، وخدمة الشعب المصري ، تقول التوراة :

« ... فاتى يوسف واخبر فرعون (1) وقال ابي واخوتي ، وغنمهم وبقرهم وكل ما لهم ، جاءوا من ارض كنعان ، وهو ذا هم في ارض

---

(1) التكوين ـ الاصحاح السابع والاربعون ـ الايات : ١ ـ ٧ .

« جاسان » ـ واخذ من جملة اخوته خمسة رجال واوقفهم امـام فرعون فقال فرعون لاخوته ، ما صناعتكم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحـن وآباؤنا جميعا ، وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب في الارض اذ ليس لغنـم عبيدك مرعى . لان الجوع شديد في ارض كنعان ، والان ليسكن عبيدك في ارض جاسان فكلم فرعون يوسف قائلا : ابوك واخوتك جاءوا اليك ارض مصر ، قدامك في افضل الارض اسكن اباك واخوتك ليسكنوا فـي ارض جـاسان .

وتلك كانت البداية التي اصبحت وجود اليهود في مصر ، لم يقتـرن وجودهم فيها في كل ارضها وبين شعبها بأدنى معاني القداسة او دعـوى اللغط الديني الذي يلوكونه في كل دعواهم بل جاءوا الى مصر سائلين مستجدين على شرط العودة منها والخروج نهائيا كما تقول ايات التوراة فيما بعـد وكما هو ديدنهم دائما وابدا باعتبار انهم من البدو الرحل الذين لا يستقرون في ارض بعينها ولا يطمئنون الى نظام بعينه .

العوامل التي ساعدت على وجود اليهود في مصر :

بالرغم من عدم وجود راي موحد يمكن ان يستقر عليه الباحثون في تحديد الفترة التي كان فيها اليهود بمصر ، الا ان الاقرب الى الاخـذ بـه وسط اضطراب كثير من المراجع واختلاف المؤرخين ، ان الفترة التي بدات حركة هجرة ابناء يعقوب فيها الى مصر (١) ثم استقرارهم فيها ، هـي الفترة التي اعقبت دخول الهيكسوس مصر عقب انهيار الدولة الوسطى ، التي كانت قد قامت في مصر بعد مرحلة من العنف والضياع نتيجـة عصر الاقطاع الذي امتد من الاسرة السادسة الى قيام الاسرة الحادية عشرة التي حكمت حوالى عام ٢١٣٢ ق.م. وفي هذا العصر بالذات امتلأت حياة السلطة المصرية بالصراعات ، والانقسامات ، وتميعت الشخصية المصرية الحاكمة الى الحـد الذي انقسمت فيه البلاد من موقع السلطـة المركزية الى عشر مقاطعات تكاد كل منها ان تكون دولة داخل الدولة ، تقاتل كل واحدة من هذه المقاطعات مع الاخرى وتحاول ابتلاعها ، ووسط هذه الاضطرابات ، طمع البدو الرعاة الذين يعيشون في الصحراء الاسيوية وفي شرق مصر ،

---

(١) انظر : « فلسطين والضمير الانساني » للاستاذ محمد علي علوية ـ كتاب دار الهلال القاهرة ـ صفحة ٤٧ .

والذين كان منهم جماعات تعيش في مصر ، وتعرف حالها الذي بلـغ من الفوضى حدا يفوق كل ما هو مألوف في خلق المجتمع المصري القديم ، فقد كان عهد مصر بالدولة الوسطى عقب تناقضات وانهيار الدولة القديمة سيئا للغاية ، فقد كان معظم ملوك الدولة الوسطى يتساقطون بسرعـة عجيبة بسبب الصراع والمنافسة الشديدة على الحكم الى الحد الذي نرى فيه في قائمة « تورين » اكثر من ١٨٠ ملكا في اقل من ١٥٠ عاما ، وكان مـــن نتيجةهذا الضياع ، وخلخلة نظام الحكم وعدم الاستقرار انساءت الاحوال الاقتصادية والاجتماعية واصبحت الظروف مهيأة تماما لان تتمكن جماعات البدو الاسيويين المندسين في حياة الشعب المصري، والذين كانوا يعيشون على هامش الحياة المصرية، ان تطل بعنقها وتحاول، وان تنقض الجماعات المترقبة والمتحفزة في بطن الصحراء في انتظار الوقت المناسب « في تاريخ هذا الاضطراب الطويل الذي تعرضت له مصر القديمة، فما أن تمكن الانحلال، وعم الفساد ، وساء الحال السياسي والاجتماعي ، بسبب صراعـات الاسرة الثالثة عشرة الا وقد جاءت الافواج المهاجرة للقبائل الجبلية غـير المتمدنة التي كانت تسكن المناطق الوسطى من اسيا (١) ثم بدأت هجرتها منذ القرن العشرين قبل الميلاد حين انحدر جزء منها نحو الجنوب والغرب متجهين الى جهات متعددة ، ذهب بعضهم الى بلاد افغانستان ، مجتـازين الممر الوحيد الى وادي السند « ممر خيبر » الذي كان ولا يزال المنفـذ الوحيد بين اواسط اسيا الجبلية ، وبين هذه المنطقة وذهب بعضهم الـى « بابل » بعد موت « حمورابي » وكان منهم تلك الموجة التي قصدت في حركة بطيئة الجنوب لتستقر في مناطق سورية وفلسطين ، تنتظر الوقت لتبـدا التحـرك نحو مصر التي اصبحت عام ١٧١٠ ق.م. من سوء الحال وانعدام من يدبر لها وحدتها واستقلالها وشئون اجتماعها الى درجـة من التمزق لم تتعرض له من قبل فاحتلت هذه الجماعات المسلحة بعربات تجرها الخيل مصر دون جهد او مشقة كبيرة ودون ان تلقى المقاومـة التي كانت تتعرض لها كل الجماعات التي كانت تحاول ان تشن الحرب على مصر فـي عصر الدولة القديمة .

احتلت هذه الجماعات من البدو الرعاة مصر دون جهد او مشقة الى الحد الذي روى فيه المؤرخ اليهودي « يوسيفوس » عن المؤرخ المصري

---

(١) انظر : « هزيمة الهيكسوس » للاستاذ محمد العزب موسى ـ عن دار الكاتب العربـي للطباعـة والنشر ـ القـاهرة .

« مانيتون » الذي ضاعت اكثر اعماله في مكتبة الاسكندرية كيفية احتلال « الهيكسوس » لمصر ، فكتب ينقل فقرة عن « مانيتون » .

« ... في عهد تيماوس ، اصابتنا ، ولست ادري لماذا ، نقمة من الإله فاندفع نحونا اقوام مجهولو الاصل ، جاءوا من المناطق الشرقية وكانوا من الجسارة الى الحد الذي جعلهم يقومون بغزونا ، وقد اخضعوا البلاد بسهولة ودون ان تخوض معركة معهم ، وعندما تمكنوا من هزيمة حكامنا ، اقدموا بعد ذلك على احراق مدننا . واتلاف معابد الالهة ، وعاملوا جميع السكان بوحشية بالغة فذبحوا البعض واسترقوا ابناءهم وزوجاتهم ، ثم جعلوا واحدا منهم ملكا على البلاد ، كان يدعى « سالانيس » ، واقام « سالانيس » في « ممفيس » وارغم الوجهين : القبلي والبحري على دفع الجزية اليه ، واقام الحاميات في الاماكن المناسبة وعمل بوجه خاص على تحصين المناطق الشرقية ، لانه كان يخشى ان يطمع الاشوريون في هذه المملكة ، ويقوموا على غزوها ، ووجد في اقليم « سايت » مدينة مناسبة تماما لغرضه تقع على الفرع « البوباسطي » للنيل اسمها « اواريس » فأعاد بناءها وحصنها ، جيدا بما بنى حولها من الاسوار وبما وضعه فيها من حامية قوية بلغت مائتين واربعين الفا من الرجال المسلحين (1) وكان « سالانيس » يذهب الى هنالك في فصل الصيف ليشرف على جمع محصوله ، ودفع مرتبات جنوده من ناحية وليجري « مناورات » لرجاله المسلحين ليرهب اعداءه من ناحية اخرى ، وبعد ان حكم هذا الرجل ١٣ عاما ، جاء بعده « بيون » وحكم ٤٤ عاما ، ثم « اماشناس » وحكم ٣٦ عاما وسبعة اشهر وبعده « ابوفيس » وحكم ٦١ عاما وبعده « جونياس » وحكم ٥٠ عاما وشهرا واحدا ، وبعد هؤلاء جميعا حكم « اسيس » ٤٩ عاما وشهرين ، وكان هؤلاء الملوك الستة ، اول حكام من الرعاة ، وكانوا طوال حكمهم يحاربون المصريين ويودون ان يجتثوهم من جذورهم .

وفي خلال هذه الفترة التي بدات عام ١٧١٠ ق — م لتستمر المرحلة الطويلة ٢٥٣ عاما اي حتى عام ١٤٥٧ ق — م كان الشعب المصري قد تعرض لصنوف من الالام والعذاب على ايدي الهيكسوس ، ووسط هذا الجو المريض المشحون بكل آلام السيطرة والاستعباد لم يكن الشعب المصري يتحسس

---

(1) انظر : « المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية » الذي عقدته الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية : ٨ — ١٨ نوفمبر عام ١٩٥٩ م .

مشاعره ، ويطمئن الى نفسه خلال كل مرحلة السيطرة الاستعمارية التي ابتلى بها على يد الهيكسوس من ١٧١٠ ق.م الى أن انتهت فترة هؤلاء الملوك الاقوياء الذين ورد اسمهم فيما نقله المؤرخ اليهودي « يوسيفوس » . وما ضاعف من محنة الشعب المصري وآلامه حينئذ انه رغم المدد الصغيرة في حكم الهيكسوس وسيطرتهم التي كان فيها احيانا ممن يتولى من الحكام القائمين بأمر السلطات بعضا من ابناء مصر ، كالفترة التي قدم فيها ابناء يعقوب الى مصر ، فان ماتصوره التوراة من ملامح الحاكم المصري حينئذ تدل على انه كان واحدا من المصريين وفرعونيا ، الا ان وجود ابناء يعقوب بعد عدة اجيال من الذين حملوا معنى المواصفات الاجتماعية لاسرائيل » و « اليهود » قد اصبحت تشكل اكثر من عبء على كيان الشعب المصري .

الموقف اليهودي في مصر القديمة :

قلنا فيما قررناه من الصفحات السابقة انه ليس هناك من دليل قاطع يحسم لنا تاريخ الفترة التي كان فيها اليهود بمصر ، ومتى بدأت على وجه التحديد ، واذا كانت مصادر التحقيق التاريخي ، وخاصة ما يتعلق بمصر القديمة يقدم بعض ايات تجعلنا نتردد كثيرا في الاخذ بما جاء في المصادر الدينية خاصة التوراة ، ان لم نرفضها تماما. الا اننا على منهجنا في البحث هنا ، نميل الى اعمال مصادر الدين وخاصة المصادر الاسرائيلية ، محاولة منا في الارتباط بالموضوعية الدراسية الدينية امام مجموعة الدعاوى التي تمثلها عقيدة يهود ودينهم ، وحتى نكون غير متورطين في الدخول في عراك ديني لوجهة نظر واحدة باسم العلم او الارتباط بسلامة الموقف الديني الواحد والايمان به ، فمثلا اذا اردنا ان نعمل رأي التاريخ المحقق فان اسم «اسرائيل» و « يعقوب » لم ترد لهما دلالة يمكن ذكرها ، وخاصة في الاثار المصرية القديمة قبل عام ١٢٢٥ حين قام الفرعون المصري الصميم « منفتاح » خليفة « رمسيس الثاني » وجرد حملاته على « فلسطين» وعاد ليسجل انتصاراته في لوحة باسمه ، وليكتب فيها يقول :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما » .
« وخربت تحينو » .
« وهدأت ارض الحيثيين » .
« وخربت اسرائيل ولم يعد لابنائها وجود » .

بل ان هناك الراي المصري في التاريخ القديم الذي يقول : ان قدوم العبرانيين

الى مصر لم يكن قبل عام ١٤٣٠ ق.م اي في عهد « امينوفيس » الثاني ، بعد ان قام سكان فلسطين العربية من القبائل الارامية بطرد العبرانيين فجاءوا الى مصر بعد طرد الهيكسوس منها ، وقيام الاسرة الثامنة عشرة الا ان مثل هذا الراي ، على سلامته العلمية لمن يسلمون به من المؤرخين القدامــى والمحدثين سيسلمنا للرأي القائل بأن ابناء يعقوب الاول ويعقوب نفسه ، لم يجيئوا الى مصر وما ورد في العهد القديم ، فانمــا هو تدوين مصنوع قام به الاسرائيليون انفسهم بعد ان قدمت مجموعات منهم مع الاقوام المتعددة التي قدمت الى مصر ، الا اننا نميل الى انه في الفترة التي صحبت قــدوم الهيكسوس الى مصر ١٧١٠ ق.م . بدأت بعدها ايضا هجرات متعــددة لاجناس واقوام من قلب صحراء آسيا وبطنها في حالة طرد بشري من جدب الصحراء الى حيث توجد الانهار وتستقر الشعوب فليس من المستبعد او غير المألوف انه بعد ان ساءت الاحوال الاقتصادية نتيجة للجدب المعروف الذي كان قد حل بالارض كلها في هذه المرحلة وكانالهيكسوس قد استطاعوا ان يدبروا امر انفسهم ، وان يحيوا الاقتصاد المصري ولا يتعرضوا لاخطــار المجاعة ان قدمت اقوام متعددة ، قبائل وجماعات ، ومن بينهــا قبيلة « يعقوب » الذي كان من ابنائه من كان قد وصل بالفعل الى مصر ، وعليها فنحن لا نستبعد بل ولا نرفض هنا في هذا المنهج ما جاء ترجيحا في « دائرة المعارف اليهودية » وفي كثير من المصادر الاسرائيلية من ان الابــاء الاول للعبرانيين والاسرائيليين » ــ قبيلة يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الذي نشأ حوالى ١٨٠٠ ق.م بالعراق ــ ان تكون قد جاءت الى مصر حوالى١٦٠٠ق.م اي بعد مائتين من السنين منذ نشأة ابراهيم ، وهي فترة معقولة في تقدير عمر الاجيال الثلاثة من ابناء ابراهيم ، اسحق ، ويعقوب وابنائه ، وجزء من عمر ابراهيم نفسه وعلى هذا التاريخ الراجح عندنا ، والذي ننفرد بتقريره على ضوء ما يستفاد من التوراة ، فانه يكشف لنا ويضعنا امام فترة زمنيــة في تاريخ مصر كان فيها الحكام الهيكسوس ، قد تمكنوا واستقروا في مصر، بل وارادوا ان يطمئنوا المصريين الى جانبهم ، الى حد كانوا فيه يولون بعض المصريين حكم بعض المقاطعات ، وهذه الفترة هي المرحلة من عام ١٦٠٠ ق.م اي انه بعد ١٠٠ او ١٣٠ سنة حسب تقدير من يرى من المؤرخين أن بداية سيطرة الهيكسوس على مصر كان ١٧٣٠ ق.م وبعد مرور هذه المــدة من احتلال الهيكسوس لمصر ، كان قد جاء احد الحكام المصريين ممن قربهم الهيكسوس اليهم او لعله كان هناك من الحكــام الهيكسوس الذين ارادوا الحفاظ على الحال السياسي والاجتماعي الذي آل اليهم ، من وقف الموقف الذي عبرت عنه ايات العهد القديم من الفرعون المصري الذي قال ليوسف

الاسرائيلي العبري : « انت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي الا الكرسي اكون فيه اعظم منك » (١) .

وعلى هذا التقرير فانا نقول ، ان فترة وجود اليهود الاسرائيليين العبرانيين في مصر كان في الفترة التي ابتلى فيها الشعب المصري بحكم الهيكسوس وسيطرتهم بالرغم مما تضفيه التوراة من ثوب الوطنية المصرية على الحاكم المصري الذي قرب واحدا من ابناء يعقوب الى اكبر مراتب السيادة . ويصبح من شأن هذه الرواية زيادة الغموض والتناقض بين الرواية الدينية وحقائق التاريخ ، ومع كل هذا . فهل كان موقف اليهود الاجتماعي ، والسياسي ، في هذه الفترة الطويلة التي امتدت من قدومهم ، جماعات اولى مبتدئة بأبناء يعقوب في ١٦٠٠ ق.م تقريبا حتى اصبحوا عددا ضخما من البشر عام ١٢٢٥ ق.م الى ان تحررت الشخصية المصرية منهم بعد ان كانت قد تحررت قبل ذلك على يد أبناء مصر امثال «سقنن رع» و «كامس» و « أحمس » الى آن تم تطهير البلاد من غزو الهيكسوس نهائيا عام ١٥٧٥ ق.م. بمثل قيما بغينة .

في الواقع ان جملة المصادر الدينية التي اتيح لنا ان نطلع عليها ، وبعض آثار حفظها التاريخ ، فيما ورد في رسائل تل العمارنة (٢) مثلا من ذكر اسم « العبيرو » الذين في الارجح هم العبرانيون تدلنا على ان العبرانيين هم « الاسرائيليون واليهود » في فترة وجودهم في مصر ، رغم انهم كما سبق ان اوضحنا جاءوا لا كغيرهم ، غزاة وفاتحين ، وانما سائلين ، ومتسولين ومستجدين كما تقول ايات العهد القديم التي اوردنا بعضا من نصوصها ، الا انهم بغرائز الطبع الملتوي ، والخلق النهاز استغلوا فرصة ضياع الشخصية المصرية وسيطرة الاجنبي ، وابتداوا يتقربون الى العدو الذي يسيطر على البلاد في نواحي الحياة العامة ونفذوا هم بالفعل اليها واستطاعوا ان يسيطروا بعد ذلك على كثير من مقومات الحياة وقتئذ ، فبعد ان خصصوا لانفسهم بالسطو وتوسيع الحيازة عن طريق الرشوة والاختلاس مساحات شاسعة من الارض الزراعية في اخصب بقاع الدلتا والوادي اقاموا حدودا من العلامات الحديدية التي دقوها على اراضيهم ثم جعلوا لهم اسواقا ، خاصة بهم ، وجعلوا مواسم خاصة لهم في تسويق ما يريدون او بيع ما

---

(١) التكوين ــ الاصحاح الحادي والاربعون ــ ٤٠ ــ ٤١ .

(٢) اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان ــ دكتور مصطفى كمال عبد العليم ، صادر عن مكتبة القاهرة الحديثة ــ عام ١٩٦٨ م.

يرغبون ، ثم جاءوا الى السادة الحاكمين ، واندسوا في صفوفهم خدماً ووشاة ولما كان بيدهم صنع حلى النساء وادوات الزينة ، وهي من الحرف التي احبوها منذ كانوا في مصر ، نظرا لاتساع مجالات العمل فيها في جو السمسرة والمقايضة وهي الهوايات والمهن التي غلبت على السلوك العام لأخلاق القوم وادابهم فاختلسوا الطريق الى القائمين على امور الحياة العامة وبيدهم علاقات نسائية خاصة قائمة على الرشوة والدس بالفساد بدعوى الخدمة العامة وهم يقصدون الذين يحبون ان يتسلطوا عليهم او يتسلقوا الطريق بهم حتى تمكنوا من ان يسيطروا على مظاهر الحياة العامة بل وابتداوا يروجون لاداب وتقاليد وعادات لهم كانت تتفق وطبيعتهم في الحياة اليومية ، في المأكل والمشرب وكل مظاهر السلوك العام واستطاعوا في الفترة التي كان فيها الهيكسوس حكاما على الشعب المصري أن يدخلوا المرحلة التي اوشكوا فيها ان يكونوا هم ايضا سادة مستعمرين للشعب المصري ، وما ان انجلت الغمة عن المصري بطرد الهيكسوس وتحرير الارض منهم على يد الرجال المصريين المناضلين من اجل استقلال مصر وسيادتها الا وقد احس المصريون ان « العبرانيين » من آبناء اجيال اسرائيل واليهود ، الذين اصبح اسمهم يتداول في مصر ، كما تشير الى ذلك ايات التوراة باليهود والاسرائيليين تارة وبالعبرانيين تارة اخرى ، انهم يشكلون خطرا آكيدا ومحققا ضد المصريين بل قد ادرك المصريون ، ان العبرانيين في مرحلة الاسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، المصريتين ، كانوا صفا ثانيا ، يمثل موقفا مضادا ، لمصر والمصريين ، وابتدات سموم هذه القوى المضادة تصل الى افواه الشعب ، وتوشك ان تقتل فيه روح الكفاح والنضال .

كان ذلك عندما اطلق الاسرائيليون واحدا من الاساليب التي طالما اتقنوها ، وحرصوا على العمل بها ، وهو : التشويه ، والتزييف والادعاء واقامة حرب مضادة امام الاتجاهات او المواقف التي تشكل خطرا عليهم فأشاعوا ان ولدا من بني آسرائيل سيولد في جيل الاسرة الثانية والعشرين وانه سيستولي على عرش الفرعون المصري ويلي امر المصريين والاسرائيليين على حد سواء (١) ليقيم بعد ذلك مجدا لاسرائيل ، فكان رد الفعل المصري ضد اساليب التسلط والسيطرة الاسرائيلية ، وضد كل ما قاموا به من وشاية ودس وخديعة ثم اخيرا توجيه هذه الحرب النفسية لخلخلة الرأي العام

---

(١) انظر في دراسة موسعة ما كتبه الاستاذ محمد عزة دروزة في كتابه « تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم » .

المصري ، ومحاولة تهيئته واعداده بالهدم والتخريب فيه لكي يتقبل سيادة غريب عنه هي التي حدت بالمصريين شعبا وسلطانا ان يتخذوا من بني اسرائيل موقفا مضادا لهم تمثل في عزلهم عن الحياة العامة والامور الدقيقة التي يمكن ان تتخذ كأداة في يد يهود للضغط على الشعب او مساومته ، بل اعملوهم في التسخير لبناء المعابد وشق الترع وتعبيد الطرق وغير ذلك . ولما رفضوا ان يحيوا الحياة بالشكل الذي يمكن ان تعيش به فئة قليلة ، وجالية منبوذة وارادوا ان ينظموا حركات تمرد وتخريب ضد الفرعون المصري ، وضد الشعب بان يتصيدوا العبيد مصريين وآسرائيليين على حد سواء ليدفعوهم الى التخريب او القيام باعمال الشغب والتدمير والاضراب عن العمل قاومهم المصريون في شدة الى حد ذهبوا فيه الى محاولة القضاء عليهم والتخلص منهم وذلك حين صدرت الاوامر الفرعونية (كما تحكي التوراة وتقص) بقتل الابناء واستحياء النساء ، وفي تقرير هذا المعنى يقول سفر الخروج في الاصحاح الاول : « .. وكلم ملك مصر ، قابلتي العبرانيات التي اسم احداهما « شفرة » واسم الاخرى « فرعة » وقال حينما تولدان العبرانيات ، وتنظرانهن على الكراسي ان كان ولدا فاقتلاه ، وان كانت بنتا فتحيا » .

آلا انه بطرق الالتواء والخديع امكن للاسرائيليين عن طريق القابلات ان يتخلصوا من قرار الفرعون المصري ، ومن مقاومة المصريين لهم حتى كثروا وتكاثروا واصبحوا يمثلون خطرا محققا على الشعب المصري ، وامام رد الفعل المصري على اليهود وعنف المقاومة المصرية ضدهم اصبح حالهم يستحث كل ذي همة في ان يعمل جهده لخلاص القوم او تهدئة الموقف ضدهم ، وكانت كل الظروف العامة المحيطة بهم سيئة للغاية ، وكان من الممكن ان يستمر اضطهاد المصريين لبني اسرائيل حتى يتيسر لهم التخلص نهائيا من هذه الفئة القليلة المحدودة التي استشرى خطرها واصبحت مرضا لا بد من التخلص منه . الا ان الموقف في تطوره وتصاعد حالات الصراع والمقاومة طرات عليه عوامل كثيرة اوشكت في تفاعلها والتقائها مجتمعة ان تحسم الخطر نهائيا خاصة في الفترة التي آستردت فيها مصر سيادتها وحافظت على هذا الاستقلال ودخلت مرحلة ما بعد تحررها حين امتد نشاطها وحملت على عاتقها مهمة توسيع املاكها وتأمين حدودها بالانتشار الى خارج هذه الحدود وتمتد في توسعاتها الى الحد الذي وصلت فيه بالفعل الى مناطق كثيرة من اسيا وبعدها تم للمصريين السيطرة الكاملة على فلسطين ، ولو لم يطرا على الموقف المصري الذي كان فيه المصريون قد واصلوا الحفاظ على سيادتهم وتحررهم من كل اجنبي وبالتالي مقاومتهم وتحررهم من مقاومة الاسرائيليين ما تعرضوا له في الفترة التي كان فيها

المصريون يوالون تأكيد وتعميق شخصيتهم الوطنية والسياسية لما امكن ان تقوم للاسرائيليين قائمة ولم يتيسر لهم الخروج من مصر او البقاء فيها افرادا كانوا او جماعات في المرحلة المقترنة بعصر المقاومة المصرية في ايام رمسيس الثاني ، الا ان الموقف قد طرأ عليه مجموعة من العوامل هي التي ادت الى المسيرة التاريخية التي ارتبط بها الاسرائيليون في دعوى والتصاق، نصبت حولها بعد ذلك قضايا التزييف ذلك انه قد ظهرت شخصية كبيرة في تاريخ مصر وتاريخ الاسرائيليين وكان ظهورها ووجودها بداية لمرحلة جديدة اضيفت الى رصيد القوم فاختلط عندهم الحق بالباطل وغمضت جوانب كثيرة من التاريخ ، منذ هذا التاريخ ، ونعني بهذه الشخصية الفذة النبي الرسول موسى عليه السلام .

نشأة موسى الرسول في مصر :

لم يكثر الجدل حول شخصية مثلما هو حول نبي الله موسى عليه السلام ذلك لان الرجل بحكم النشأة التاريخية في مصر قد تأثر بها كثيرا وخاصة في مجالات الثقافة والاخلاق وقيم المروءة والمعاملات فضلا عن ثقافة التدين التي كانت عليها مصر في الفترة التي ظهر فيها نبي الله وكليمه .

والذي يزيد في تعقيد الصورة وزيادة ابهامها ، هو ان العهد القديم حينما يصور مرحلة او يقص خبرا يضيف الى قلق الباحثين ما يساعد على زيادة الشكوك وذلك من كثرة الخلط والمبالغات العدوانية والاسطورية حول ما يقرره مثلا وكما يقول الاستاذ الكبير والعالم الحجة المحقق فؤاد محمد شبل سفير مصر الاسبق في اندونيسيا في كتابه اليهودية العالمية وهو يدرس آراء المؤرخ العالمي ارنولد توينبي من صفحة ٣٥ ــ ٤٨ .

توحي قراءة التوراة الى البعض بان الذاتية اليهودية تمتد الى ايام آدم او نوح . لكن جذور اليهودية لا تبعد وفقا للتوراة الى ابعد من ابراهيم ويوضح الاستقراء العلمي للتوراة ان العهد قد تم بين ياهوى وبين شعب اسرائيل وبمقتضاه اصطفى ياهوى اليهود شعبا مختارا له على ان يلتزموا بفروض خاصة في مقابل ان ينيلهم مبتغاهم في الاستيلاء على فلسطين .

وبالاحرى تم العهد بعد خروج اليهود من مصر . لكن اليهود يجعلون من ياهوى اله ابائهم : ابراهيم واسحق ويعقوب ، وان تبين من الاسفار

الخمسة ان لفظ « ياهوى » لم يعرفه اليهود الا بعد ان تجلى لموسى في سيناء واوحى اليه نصوص العقد بينه وبين الاسرائيليين .

وما اليهود ـ من الناحية العلمية ـ الا فرع من الاقوام السامية التي انحدرت من الجزيرة العربية في ذلك الحين ودفعت سكانها الساميين للبحث عن مظان للعيش في وديان الانهار وفي احضان الحضارتين العالميتين : البابلية والمصرية

ولا شبهة في ان التطور الذي طرا على العقيدة اليهودية بعد خروجهم من مصر يدفع بالباحث لاستقراء العنصر المصري في اليهودية :

واول ما يطالعنا في هذا السبيل لفظ « ياهوى » نفسه . ويقرر احد كبار مؤرخي العقائد الدينية الاستاذ البرايت ان لفظ « ياهوى » قد يكون اول كلمة في صيغة تعني « ذلك الذي يحدث ما ينبعث للوجود » . وهذه حقيقة وردت بالمتون الدينية التي شاعت في ايان القرن العشرين قبل الميلاد وفي تراتيم المعبود امون المصري بالذات .

وفي موضع اخر يقرر هذا المؤرخ ان موسى قد امن بالوحدانية الكاملة الا انه استقى اراءه بان ياهوى هو خالق الكون وسيده الاوحد وانه الاله الفرد الصمد من افكار اخناتون التوحيدية التي اثرت في همج الكنعانيين والمدينيين الذين كانوا ينتشرون في جنوب شرقي الحدود السورية لاملاك الدولة المصرية الحديثة ؛ واذا كانت عقيدة التوحيد الاتونية لم تعش في مصر طويلا بعد وفاة ملهمها اخناتون فلا يعني ذلك زوال تاثيرها من العالم كلية . اذ لا يستغرب الباحث ان تعيش خارج مصر وان تدخل في نطاق عقائد دينية اخرى . واصدق دليل يطالعنا ان العقيدة الدرزية التي نادى بها الحاكم بأمر الله في مصر لا تزال تعيش حتى اليوم بعد انقضاء حكم مؤسسها بـ ٩٥٠ عاما بين اقوام يعتنقونها في فلسطين ولبنان وسوريا ويخلصون لها .

فاليهود يؤمنون بان العقيدة اليهودية والشعب اليهودي قد تكاملا منذ ايام موسى ؛ لكن تتعارض هذه النظرية مع الحقائق التاريخية المقررة : انها لتتناقض مع الاسفار اليهودية ذاتها . وتبين الدراسة العلمية للاسفار الخمسة انها مادة مركبة استخلصت من وثائق اقدم منها . وانها عمل توليفي انتزع من مصنفات ابعد عصرا . ولقد تمت عملية التوليف والمزج

حتى ثبتت على صورتها الحالية في التوراة في تاريخ يرجع الى القـــرن التاسع او العاشر قبل الميلاد اي بعد عصر موسى التاريخي باربعمائة سنة.

وموسى شخصية تاريخية . وما برح إسمه يثير الجدل الشديد بين علماء التاريخ والدين . فظاهر ان إسمه هو المقطع الثاني لاسم مركب مثل « اح موسى » (اي احمس وفقا للنطق المتعارف عليه نقلا عن النطق اليوناني) ورع موسى (اي رمسيس) و « تحوت موسى » (اي تحتمس) وطبيعي ان لا يرضى الاسرائيليون ان يحمل بطلهم القومي اسما مصريا صميما بسبب دافع قومي غلاب مؤداه ان هذا البطل حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهل وجودها واسمها بأية حال من الاحوال.

ومن الناحية الاخرى ، فاذا كان بطل اليهود القومي يحمل بالفعـل اسما مصريا مركبا ، فانهم قد اسقطوا مقطعه الاول الذي يحمل اسم معبود مصري مثل رع او تحوت او امون اما قصة الفرعون عدو موسى فيفسرهـا المؤرخ روبينسون بانها قد انحدرت الى اليهود من قصة مصرية ترمز للصراع الدامي بين احموس وفرعون الهكسوس الشرير الـــذي هزمه احموس واستكمل تحرير مصر بعد استشهاد والده « سقنن رع » ووفاة اخيه الملك « كاموسي » . فكان اليهود وفقا لهذه النظرية قد واءموا بين صراع احموس بطل مصر القومي ضد الهكسوس ، وصراع موسى بطلهم القـومي المصري الاصل والذى نهض بعبء قيادتهم فى الخروج من مصر .

ويذهب بعض المؤرخين للقـول بأن قصـة الخـروج ترمـز لخروج الهكسوس من مصر وتولى ملكها طردهم وقتلهم وتشريدهم بعـد ان ذاق المصريون على ايديهم الذل والمهانة .

وتلقي هذه النظرية شيئا من الضوء على الغموض الفائق الذي يرين على خروج اليهود من مصر اذ لا نجد في المستندات المصرية الحافلة بذكـر التفاصيل اشارة ولو عابرة عن هذا الحدث الهام الذي اصبح له تاثير ضخم على التاريخ الديني وما برح يؤثر في نفسـة اليهود ، وهو الذي اثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة .

ولقد ظلت الاسماء المصرية شائعة بين اليهود وقتا طويلا وبخاصة في بيت هارون ، ولا يزال بعضها قائما مثل بنحاس (١) .

---

(١) بنحاس من كلمة نحس الفرعونية وتعني النوبي .

ويغفل انبياء اسرائيل ويهودا خلال القرن الثامن قبل الميلاد ذكر علاقة موسى بالتوراة ويستخدمون كلمة « توراة » تعبيرا عن احاديثهم . وكان النبي عزرا اول من نادى بأن التوراة اوحيت الى موسى ، وعزرا هو الذي ارتحل من بابل الى يهودا خلال عام ٤٥٨ قبل الميلاد او ٣٩٧ قبل الميلاد فاذا كانت الاسفار الخمسة ــ كما قررنا ــ قد وضعت في ابان القرن التاسع او العاشر قبل الميلاد فانالتوراة قد استكملت صورتها الحالية بعد الحرب الرومانية اليهودية (٦٦ ــ ٧٠ بعد الميلاد) .

لقد اظهرت الدراسات العلمية ان سفر الامثال قد اقتبس من اناشيد فينيقية نقلت هي الاخرى بنصها من امثال الحكيم المصري امنموبي .

اراء العلامة فرويد في النبي موسى :

يقول الاستاذ فؤاد شبل : ولا يمكن في دراسة تأثير مصر على العقيدة اليهودية ان نغفل ما قرره العلامة فرويد في كتابه الطريف « موسى والوحدانية » .

يقرر فرويد ان ياهوى اصله اله محلي متصل بالارض وان لفظ ياهوي قد استخدمه كهنة امون في نشيد للتسبيح باسم معبودهم . وفي الاصل انه ظهر لبصر الاسرائيليين لاول مرة على صورة كائن « جني » يسكن مكانا في شمال الجزيرة العربية ويتجلى في بركان . واله اليهود غيور الطوائي لكنه يتسامح مع منافسيه من الارباب المحليين من نوعه . ولكن ما ان حل اليهود بمصر واحتكوا بآراء اخناتون حتى برزت في ديانتهم خاصيتا « كلية الوجود » و « الوحدانية » اللتان تتصف بهما فكرة الرب في العقيدة اليهودية الحديثة .

ولقد تولى اخناتون ملك مصر العبقري عرش الامبراطورية المصرية عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد وفاة والده امنحت الثالث الذي بلغت مصر في عهده أزهىعصورها الحضاريةوابهاها. ولقد اتجه اخناتون اتجاها دينيا بحتا ولم تسيره العوامل الذاتية ، فلقد رنا الى ابعد من ذلك كثيرا . اذ هفت نفسه للوحدانية المجردة عن الاغراضالدنيوية ، وتبلورت عقيدته في عبادة القوة التي تعتبر الشمس اعظم مظاهرها على الارض واتخذ من اسم اتون علما على تلك القوة ، ورمز اليها بقرص الشمس ينبثق منه شعاع ينتهي بأيد بشرية تحمل في بعض الاحيان علامة الحياة المصرية القديمة (اي العنخ) .

واول ما يلفت نظر العلامة فرويد مثلما لفت نظر غيره من الباحثين اسم موسى عليه السلام ، فانه مشتق من اللغة المصرية القديمة ، ويعني طفل ويدخل في كثير من الاسماء المصرية مثل « امون موسى » ويعني امون وهب طفلا و « بتاح موسى » اي بتاح وهب طفلا . ويخلص فرويد من مناقشته اسم موسى وما احيط به مولده من اساطير وردت في سفر الخروج للقول بأن موسى محرر اليهود من رق المصريين وبطلهم ومانحهم شريعتهم وناموسهم لم يكن يهوديا بل كان مصريا صميما . ولكن عز على اليهود ان يكون بطلهم القومي اجنبيا فاحالته اساطيرهم الى يهودي وان كانت التوراة قد اعترفت بانه قد اكتسب حكمة المصريين » .

وجدير بالذكر ان كلمة توراة العبرية تعني « التعليم » وهذا هو بالضبط ما يعنيه لفظ « سبايت » الاسم المصري لمذهب اخناتون التوحيدي. ويعترف فرويد بأن احبار اليهود قد احاطوا موسى بالكثير من الاساطير وحاكوا حوله على مر الاجيال الروايات الخيالية الامر الذي اصبغ الغموض على تلك الشخصية الفذة ، كما تروي التوراة سيرتها .

وقد الزم موسى — بحكم مصريته — اليهود باعتناق عادة الختان ، وكان المصريون يجرونها دون بقية شعوب العالم باسرها وعرفوها قبل دخول اليهود مصر بآلاف السنين وهدف موسى من وراء ذلك أن يساوي بين اليهود والمصريين في عادة انفرد بها الاخيرون وكانوا يحسون بفضل ممارستها انهم انقى اجناس البشر جميعا .

وعلى اية حال ، حالت هذه العادة دون ذوبان اليهود في المجتمعات الاخرى اثناء ترحالهم وتجوالهم ، مثلما قد حالت بين المصريين والاختلاط على نطاق واسع بالامم التي احتلت بلادهم مثل الفرس واليونان والرومان. وما كان احبار اليهود ليعرفوا بالاصل المصري لعادة الختان ففي هذا الاعتراف اضعاف فكرة شعب الله المختار ، فادعوا في التوراة بان الختان التزام فرضه الرب على شعبه المختار بموجب عهد ارجعوه الى النبي ابراهيم .

وثمة مظهر اخر لفكرة التسامي عن بقية الشعوب والعزوف عن الاختلاط بها اقتبسه اليهود من مصر الا وهو تحريم تناول لحم الخنزير لاتصال ذلك باسطورة تقول بأن رب الشر (ست) قد تنكر في شكل خنزير وهاجم الرب « حور» ولما كانت الشعوب الاخرى تأكل لحم الخنزير امتنع

المصريون نساء ورجالا عن مصافحة الاجانب او تقبيلهم او استخدام ادوات مطبخهم خشية ان تكون قد تلوثت بلحم الخنزير . وبفضل هذا انحصر اختلاط المصريين بالاجانب في حدود ضيقة للغاية فكان ان احتفظت القومية المصرية بأصالتها المديدة على كر السنين والاحقاب الى يومنا الحاضر .

ولكن اليهود بعد خروجهم من مصر بقيادة موسى قد ارتدوا عن الوحدانية ، وذلك لان اخلاطا من القبائل المستوطنة الاراضي الواقعة بين مصر وكنعان انضمت لليهود بعد خروجهم من مصر ، وكانت قبائل شمال الجزيرة العربية تعبد ربا تعتقد انه يسكن بركانا ويتجلى لعابديه بانطلاق حممه ، وتطلق عليه « ياهوى » المصري الاصل كما قررنا ، وبذلك اصبح ما يطلق عليه الشعب اليهودي « ياهوى » يتكون من عنصرين اساسيين :

وكان عدد اليهود المصريين اقل من عدد من انضموا اليهم من ابناء القبائل الاخرى ، لكنهم بحكم توطنهم الطويل بمصر اسمى ثقافة بما لا يقاس . ويرجح فرويد ان يكون اللاويون ــ وكانوا ادنى اليهود المصريين الى قلب موسى ــ مصريين اقحاحا من اتباعه بقايا معتنقي العقيدة الاتونية، وكان اللاويون يحملون اسماء مصرية بحتة دون غيرهم من اليهود الذين خرجوا مع موسى .

وفي قادس ــ كما يقرر فرويد ــ اجتمع الفريقان الاقلية المصرية « المصريون الاقحاح اي اللاويون واليهود المتمصرون » والغالبية من القبائل البدوية التي انضمت اليهم . وهناك تقبل الجميع اسم « ياهوى » الاله البركاني معبود منطقة شمال شبه الجزيرة العربية على ان يحل محل اتون (أو ادوناي) ، وان يكون ربا عالميا مثل اتون . وكان موسى ــ كما يدعي فرويد ــ قد مات ويرجح قتل اليهود غير المصريين له قبل مؤتمر قادس باكثر من مائة عام . وسعى المجتمعون لاستئصال كل شيء يربطهم بمصر . فكان ان ربطوا بين موسى وذلك الكاهن الذي انشأ ديانة ياهوى فاطلقوا عليه اسم السامري . الا انهم ــ تحت تأثير اليهود المصريين ــ قد احتفظوا بفريضة الختان وان انكروا أصلها المصري وارجع مؤلفو التوراة ــ كما ذكرنا ــ اصلها الى عهد بين ابراهيم وربه تمييزا لنسله عن بقية اقوام العالم بحسبانه شعب الله المختار .

ويضيف فرويد ادعاء اليهود انهم شعب الله المختار بانه خرافة مطبقة . ويقرر ان تلك حالة لا نظير لها على الاطلاق في تاريخ العقائد الدينية .

ففي الحالات الاخرى يندمج الشعب ومعبوده اندماجا تاما منذ البداية ، في حالات اخرى يتحول شعب الى عبادة معبوده : اي يختار الناس معبودهم. ولم يحدث قط ــ كما في الحالة هذه ــ ان اختار الله عابديه . فالمنطق يفرض علينا ان نقرر ان موسى قد جعل من اليهود شعبه ، اي شعبه ، المختار بعد ما تبين له عزوف المصريين عن الوحدانية .

لكن ما الذي فعله اليهود بموسى ؟

يجيب فرويد عن هذا السؤال بنظرية خطيرة استقاها هو وغيره من الباحثين الغربيين من دراسة الكتب المقدسة اليهودية ومن استقصاء التاريخ الديني . ومدار النظرية ان موسى لاقى مصير اخناتون . فلقد عجز شعب موسى اليهودي عن احتمال فكرة دينية ذات طابع روحاني رفيع مثلما عجز شعب الاسرة الثامنة عشرة المصري عن احتمالها . وكانت النتيجة واضحة في الحالين : تمرد الناس على العقيدة الدينية التي فرضت عليهم رغم ارادتهم ولكن بينما صبر الشعب المصري المتحضر على حكم فرعون لتقديسهم لشخصه الى آن مات ، ثار اليهود المتوحشون ــ وفقا لتعبير فرويد ــ على موسى وقتلوه . ويبني حكمه هذا على قصة التيه في سيناء اذ ترمز في نظره الى سلسلة من تمرد اليهود على حكم موسى . وبلغ التمرد ذروته بعبادتهم العجل الذهبي وبغضب موسى وتحطيمه الواح الشريعة .

واتى على اليهود بعد ذلك حين من الدهر ندموا على فعلتهم الوحشية وحاولوا نسيانها . وحدث ذلك ــ كما يقول فرويد ــ عند اجتماع اليهود في قادس في تاريخ يقع قبل عام ١٢١٥ قبل الميلاد « اي في اواخر عصر الفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثاني » وقبل استقرار احوال مصر في عصر حورمحب اخر ملوك الاسرة الثامنة عشرة ، أي في تاريخ قريب من عام ١٣٥٠ ق.م .

ذلك لانه عوضا عن « اتون » ذي الصفات الوديعة والخلق الكريم الذي ينفر من العنف في شتى صوره وينشد السلام ، حل مكانه آله يصفه فرويد بانه عنيف ، غضوب ضيق الافق العقلي ، محب لسفك الدماء ، وعد اتباعه بأن يمنحهم ارضا تفيض لبنا وعسلا باغتصابها من سكانها الاصليين بحد السيف . ولم تكن ديانة « ياهوى » في بداية امرها ديانة توحيد كاملة. فلقد اعترف ياهوى بالالهة الاخرى ولكن على اساس انه اقواهم . وهذه فكرة تجافي فكرة موسى ذات الطابع الروحاني السامي عن الاله . فهو اله

واحد يشمل سلطانه الكون بأسره . قوي رحيم ، يطالب عابديه بأن ينشدوا الحق والصدق وينبذوا السحر والاساطير والكهانة .

ولقد جهد اللاويون — اتباع موسى ومواطنوه من المصريين — في العمل على انتصار رب موسى واحلاله محل ياهوى الاله البركاني الاصل . ففي غضون السنوات الطوال التي تلت مؤتمر قادس ، عملوا على استعادة شريعة موسى وتطويرها والحفاظ على المتون المقدسة الزام الشعب اليهودي بمراعاة طقوس العبارة المأثورة عن موسى ولقد تأثرت بتعاليمهم واخلاقهم جمهرة من مثقفي اليهود (من غير اللاويين) ثابروا بدورهم على التبشير بالمذهب الموسوي : ذلك المذهب الذي يستند على وجود اله واحد احد فرد صمد يزدري الطقوس الوثنية بما تفرضه من تضحيات بشرية ، يتطلب الاله الواحد من اتباعه الايمان الصادق به والانغمار في الحقيقة والعدالة (اي ما يعبر عنه بكلمة معات المصرية القديمة) وكللت جهود انبياء بني اسرائيل بالتوفيق في نهاية المطاف فاستعاد المعتقد القديم سلطانه واصبح المحتوى الدائم للديانة اليهودية .

ويقرر فرويد انه يتبين التأثير المصري في الديانة اليهودية من تلك المسحة الشاعرية التي تلون الفكرة الالهية سواء ما اتصل منها بـ « ياهوى » او منافسة « الوهيم » . ففي هذه المسحة تتجلى طبيعة الديانة الموسوية فما كان « ياهوى » في الاصل سوى وثن لا يفترق عن الاوثان التي كانت تتعبد لها القبائل والشعوب المجاورة لليهود ، وكان كل منها يتخذ وثنه الاثير رمزا يحارب تحت لوائه اعداءه . ولم تفترق طبيعة ياهوى في جوهرها عن طبيعة تلك الاوثان الى ان اصطبغ بالصبغةالموسويةالمصريةالاصل. وظلت القبائل اليهودية تعترف بآلهة قبائل كنعان وموآب وآماليك وغيرها من القبائل . وليس ادل على صحة نظرية ديانة اتون على التوحيد اليهودي مما اظهرته الكشوف الاثرية من وجود جالية يهودية بجزيرة الفنتين باسوان كانت تتعبد — قبل انبعاث ديانة اتون — لوثن يدعى « ياهو » كما تتعبد الى معبود مؤنث اطلقت عليه اسم « انات — ياهو » .

ويعزو فرويد ارتداد اليهود عن الوحدانية وايثارهم اعتناق عقيدة « ياهوى » الى طابع تلك العقيدة العسكرية اذ كان الها بركانيا فظا غضوبا ميالا الى التدمير . وكانوا هم مقدمين على غـزو فلسطين والفتك بسكانها الاصليين للحلول محلهم . فكان ان صدفوا عن عبادة اتون لما تتصف به — كما يتصف صاحبها اخناتون — من وداعة ورقة وايثار السلام والتبشير بالمحبة

والوئام بين الشعوب . لاسيما ان كان ظهوره ـــ اي اتون ـــ في عصر اتسم باستقرار او ضياع الامبراطورية المصرية وانتفاء الحاجة للروح العسكرية بالتالي. لكن اخذت نزعة «ياهوى» التدميرية وطابعهالعنيفالاصليبتلاشيان تدريجيا متخذا صفات رب موسى القديم محتفظا بالذات بطابعه كالهالكون بأسره يهيمن على اقطار الارض كلها وعلى كافة الشعوب . بيد ان انتقال الوحدانية من المصريين الى اليهود قد سلك ـــ كما يقرر فرويد ـــ سبيلا تجلى في فكرة جديدة مدارها ان اليهود وقد اصبحوا المؤمنين به دون بقية الشعوب ـــ شعبه المختار ـــ يتلقون وحدهم بركاته وثوابه .

وما كان ايمان اليهود بانهم شعب الله المختار ليتواءم مع ما حفل به تاريخهم من اخفاق ومكابدات . فكان ان ابتعث احبارهم من اعماق شعور الشعب عقدة الذنب ففسروا ـــ بالتالي ـــ ما يمر به الشعب اليهودي من ازدراء بانه تكفير عن ذلك الذنب وان تلك ارادته تعالى الى ان يحين الوقت الذي يحظون فيه برضائه تعالى كشعب الله المختار وساهم في الواقع كما يقول فرويد ـــ الا شعب موسى المختار . وتطور ايمانهم بعقيدة الشعب المختار للايمان بفكرة ظهور شخصية الهية اطلقوا عليها المسيح تتولى تحقيق حلمهم المرتجى : كفالة الخلاص للشعب اليهودي . ويمكنالخلاص في اخضاع العالم لسلطانهم . فالخلاص مادي الطابع وينصرف الى اليهود وحدهم دون بقية شعوب العالم . ويناهض هذا مبادىء المسيحية والاسلام بما يبشران به من الخلاص للمؤمنين جميعا . من جميع العناصر والشعوب.

القصص الديني حول شخصية موسى

حسب الروايات الدينية ، وخاصة المصادر الاسرائيلية ، فان موسى عليه السلام قد ولد وظهر في فترة الموقف المضاد العنيف ، الذي كان رد فعل قوي من قبل المصريين ، ضد طغيان وسيطرة وتسلط الاسرائيليين ، اي في الفترة التي شاع فيها ان المصريين يقتلون ابناء العبرانيين من بني اسرائيل ويستحيون نساءهم ، وتعمل الروايات الدينية هنا عملها في تصوير الظرف العام الذي ولد فيه موسى ونشأ بل وتكثر المصادر فيتصوير الملامح الخاصة بنشأة موسى وعمل المعجزة الالهية في حماية موسى ومساندته قبل ان يشتد ويصلب عوده فتقول الرواية الدينية في قصص القرآن الكريم مثلا عن الظروف غير الطبيعية التي فلت فيها موسى من ازماتها وتناقضات الجو المحيط بها ، نظرا لانه من وجهة نظر الرواية الدينية في القران الكريم مثلا كان معدا ومهيا لظرف خاص ولرسالة خاصة

في ان يحمل دين الله ، وان يوجه دعوة الى الناس ، كي يبشر بعدها بفضية العدل الاجتماعي . وسط تناقضات المجتمع الذي ولد فيه ووسط كل مظاهر التفاوت والتخلف والامتياز هذه القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في مصر ، وفي غيرها من بلاد العالم في هذه المرحلة .

فيقول القرآن الكريم في سورة طه ابتداء من الآية ٣٦ وهو يكشف جوانب هذا الموضوع كيف تيسر ان ينشأ وان يحيا موسى وسط كل الظروف التي احاطت بمولده وجعلته معدا منذ ولد لتحمل دور سيتحمل فيه كل الجهد والمشقة والعناء .

« ... ولقد مننا عليك مرة اخرى ، اذ اوحينا الى امك ما يوحى: ان اقذفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ، اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله ، فرجعناك الى امك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلبثت سنين في اهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى » .

وفي محاولة لالقاء بعض ضوء على هذه الصورة العامة ، وما يحيط بها في تصوير القرآن لها فاننا يجب ان ندرك عمل المعجزة الالهية هنا وسط الجو الرهيب وكل مظاهر التناقض التي كان عليها نظام الاجتماع المصري حينئذ خاصة حين مولد موسى جعل من القاء المحبة على موسى تأثيرا نفسيا عميقا وكبيرا في قلب كل من القت به المقادير في طريق موسى على غير الموقف الذي كان عليه القوم جميعهم ضد الاسرائيليين . ذلك ان القوم كلهم، قد هيأوا له اسباب البقاء والعيش الكريم بما امكنه به الوقوف على قدميه بل قد استطاع حين شب واصبح رجلا ، رغم انه كان ينظر اليه على انه اسرائيلي ان يبقى وأن يعيش في بيت الفرعون المصري » . نقول انه قد امكن له أن يصبح واحدا من السادة الذين خدموا الفرعون المصري ، بل انه كما يستفاد من مجموع روايات دينية وتاريخية ، يستفاد ان موسى استطاع ان يصل الى رتبة واحد من قواد الجيش المصري الذين عهد اليهم بالتوسع والاغارة وحين اصبح موسى الاسرائيلي واحدا من الكبار في المجتمع المصري (١) . كان قد اصبح مقصدا ورجاء لكل ابناء جلدته في قضاء حوائجهم

---

(١) انظر : « موسى .. مصريا » للاستاذ محمد العزب موسى - صادر عن الدار المصرية للتاليف والترجمة - القاهرة .

او محاولات التخفيف ورفع الاذى عنهم الا انه يبدو من السرد العام للرواية التي تقدمها التوراة ان حالات التعاطف التي كانت تحدث كثيرا بين موسى وبين ابناء جنسه ، جعلت الفرعون المصري لا يطمئن كثيرا لموسى الاسرائيلي، هذا التصور الذي نراه ، من التوراة ، وعدم اطمئنان موسى هو الاخر ، للفرعون المصري ، وتوجسه خيفة منه ، خاصة بعد الحادث الذي افاضت فيه التوراة ، واشار اليه القرآن الكريم صراحة من قتل موسى المصري قتلا في غير عمد مناصرة للاسرائيلي على المصري حين كان موسى في الطريق العام وقام بينهما نزاع . وتدخل بينهما لفض النزاع . فصفع المصري فمات ، وخوف القصاص الفرعوني ، كان على موسى بعدما تأكد من وشاية بعض ابناء جنسه عند الفرعون المصري ونقلهم اخبارا للفرعون توحي اليه ان قتل موسى للمصري كان لقصد وحاجة في نفسه وانه قتل الرجل متعمدا ، نصح موسى بان يخرج من مصر وبأن يتجه الى سيناء مصر ليعيش بعد ذلك في « مدين » حتى تنتهي الازمة ، ومن عجب ان الذين نصحوا موسى لم يكونوا من بني جنسه الاسرائيليين بل كانوا من المصريين ، ومن اعجب العجب ايضا انه قبل ان يذهب الى « مدين » ويلتقي بشيخ كهانها ، ويتزوج من احدى ابنتيه ان كان الرجل موسى يسير متوجها لحاله عقب هذا الحادث وقبل ان يفر الى خارج مصر فوجد في الطريق موقف نزاع بين رجلين من بني جنسه في شجار ، وأراد ان يتدخل ايضا هذه المرة خاصة وان العراك بين اثنين من جنسه ، فما كان من احد الرجلين الا ان افصح عن موقف غريب عبر عن علاقة بني اسرائيل بموسى خاصة في فترة الحرج السياسي التي وقع فيها موسى حين كان بمثابة مطرود من السلطات بانه قال له ، كما تعبر التوراة بالحرف : « من حكمك وجعلك قاضيا علينا ، ألعلك تريد قتلي كما قتلت المصري بالامس » .

ولا جدال في ان هذه الصورة التي تقدمها التوراة عن علاقة القوم بواحد كان حتى بالامس من كبار القوم بل وسيدا تدل على انعدام الصلة بهذا الشكل المفاجىء وانقطاع كل علاقات التقدير او الاحترام ، « من حكمك وجعلك قاضيا» ، هذا الموقف المفاجىء الذي يتخذه واحد من القوم ضد رجل كان بالامس سيدا من كبار القوم ، ومقصدا لهم ورجاء ، ما الذي يمكن ان تقدمه مثل هذه الصورة، او ما الذي يمكن ان يؤخذ من انطباعات، او معطيات مثل هذا النص التوراتي وهو يكشف عن موقف بني اسرائيل الاخلاقي ، الموقف الاخلاقي حتى في علاقاتهم بواحد منهم قد ألقت به الظروف في مثل المأزق ، الذي اصبح فجأة من وجهة نظر الحاكم المصري مجرما وقاتلا يطلب

للقصاص منه ، ولا يمكن ان نخرج بغير تصور واحد ، وهو ان القوم مهما تدم لهم القوي او العظيم فردا كان او جماعة سندا وحماية ، فان علاقاتهم به وارتباطهم بالتعامل او المصلحة مرتبط وقائم على مدى النفع المباشر والعلاقة الحسية المرتبطة بكل ما يمكن ان يقدمه اليهم من يرتبطون به او تكون بينهم وبينه ادنى علاقة ، هي كل شيء غير انه ما ان يطرا موقف شديد او تلعب الاقدار على غير الهوى والمصلحة على فرد او جماعة وتقع في محظور الا وتصبح العلاقة في مثل هذا المعنى المنفعي والمستغل المرتبط قديما بعواطف القوم ومشاعرهم ، والذي عبر عنه واحد منهم لموسى حين كان في موقفه الحرج ، ومع ذلك اقدم على فض النزاع بين المتشاجرين فما كان الا ان جوبه بالقول الجحود الذي عبرت عنه التوراة : « من حكمك وجعلك قاضيا علينا ، العلك تريد قتلي كما قتلت المصري بالامس » غير موجودة على الاطلاق في عواطف القوم ومشاعرهم .

والذي نود ان نلفت اليه ايضا ، وهو انه حتى في المرحلة التي كان فيها موسى ، يحظى بعلاقة الفرعون وثقته ، كان موسى مقصدا لكثير من اصحاب الحوائج ، مصريين واسرائيليين على حد سواء ... وان جزءا كبيرا من ابناء بني اسرائيل ، لم يكونوا يرون في موسى ، مظهرا لهم ولا سندا او حماية تسند ظهورهم وتحمي وجودهم في يوم من الايام ، لا في مرحلة وجود موسى بينهم في مصر ، ولا حين الفرار ، بل كانوا في علاقاتهم به على حذر وتربص وذلك انه كان يلقى في روع الكثير منهم ان موسى وان كان اسرائيليا، الا انه استطاع ان يصبح من كبار السادة المصريين ، وكانت وجهة النظر الاسرائيلية حينئذ بل الراي العام اليهودي الاسرائيلي الذي كان يعبر عن عقيدة القوم ورفضهم لكل ما يخالف ما هم عليه قد اصبح عقيدة في ضمير القوم واخلاقهم ان موسى وان كان اسرائيليا الا انه طالما هو في خدمة المصريين فهو ولا شك سيعمل مثلهم في التخلص من الاسرائيليين الذين هم ابناء جلدته ليمكن للمصريين القضاء عليهم نهائيا ، وهذا الاحساس الذي كانت تنفعل به قلوب بني اسرائيل وتمتلىء به مشاعرهم هو الذي جعلهم فيما بعد عندما قدم اليهم من بعد هجرته الطويلة التي استمرت عشر سنين في مدين، ودعاهم الى الخروج من مصر ، فملاهم احساس بالشك والريبة نحوه حتى وهم في الطريق بعد ان استجاب له بعض القوم ولما لم يكونوا قد اطمانوا تماما الى جانب موسى قالوا كما ترون الايات التوراتية عنهم : « ليتنا متنا في مصر ولم نخرج منها ان اله موسى هالكنا لا محالة » .

وتكاد تكون هذه العلاقة العامة لموسى ببني اسرائيل في مصر حسبما

تصور لنا المصادر الدينية هذه المرحلة التي نشأ فيها موسى ، من بين بني آسرائيل وكل هذه المرحلة من عمره منذ نشأ في بيت الفرعون المصري كماتقول التوراة الى ان اصبح رجلا يعهد اليه بامر الجيش وتعبئتــه ، او امــور الانخراط في سلك الجندية الى ان ظهر في ارض مدين بسيناء ، وتزوج وليس هناك بادرة منه رغم الامور غير المألوفة التي صاحبت نشأته ونموه وحياته، كما يحكى القصص الديني تدل على انّه قد دخل مرحلة الدعـوة الدينية او التصدي للقيادة السياسية لقومه او لغيرهم ، وكل ما هو بين ايدينا عـن الرجل في هذه المرحلة هو ميله الى الاعتصام بمجموعة من القيـم والاخلاق والسلوك الطيب والقلب النقي ، وهي صفات غير مألوفة ولا معهودة في القوم الذين ينتمي اليهم ولا وسط التناقضات التي نشأ فيها ويبدو ان عفتـه وخلقه وتأبيه وترفعه كل ذلك كان ارهاصا للمعاني الكبيرة التـي سيتحملها ويكلف بعبء القيام بها ، وهي الرسالة الدينية التي لم يكن له من اختيـار فيها وانما هي حيث تلقى وحيث يراد لها ويعد من أجلها الرجال لتحمل عبء النضال من اجل قيم الحق والعدل وتقديم كـل معاني البـذل والتضحية مـن اجلهـا .

ويتمثل خلق موسى العف وسلوكه النقي ، والذي كما اشرنا يختلف به تماما عن القوم الذين ينتمي اليهم ، حين التقى حسبما تقـول الروايـة الدينية بابنتي كبير الكهان في « مدين » والذي يدعى « شعيب » فان الفتاتين قد شهدتا له بانه على خلق كريم وبانه امين ، ويا لها من شهادة تقولها المراة العربية وهي التي استقامت فطرتها وطهرت ، ونمى في اعماقها ما منحته لها الصحراء من فراسة وذكاء والمحبة تستطيع في يسر بكل ما تملكه ان تعرف الرجل وان تزن قدره وخلقه من اول لقاء بل لاول وهلة فتأتي الفتاة العربية هنا وهي ابنة رجل في القيمة الاخلاقية على اقل تقدير – من شيوخ العرب – وهي في السلوك فتاة عربية فيها شيم المراة العربية وخلقها ، وتأبيها وترفعها وتقول ، كما عبر القرآن الكريم حين تمكن موسى عندما التقى بالفتاتين من ان يقضي لهما حوائجهما ويسقي ماشيتهما .

« ... (يا ابت استأجره ان خير من استأجـرت القوي الامين) ، ويقضي موسى فترة كبيرة من عمره حين تزوج في ارض مدين وسط هذه المنطقة من ارض مدين ، وما جاورها ، ولا جدال في انه كان يجوب المنطقة الممتدة حواليه كلها ، ويحاول ان يعرف اسرارها ويقف على نظام الحياة فيها ويمد بصره حول ما جاورها من اقاليم ويتمنى لو تمكن مـن صنع الحيـاة وتهيئتها لاولئك الذين في مصر من ابناء جلدته ، واولئك الذيـن نشأ فيهم

وتربى بينهم ، واوشك ان يكون واحدا منهم ويقرر العودة لمصر بعـد وفاء للرجل الذي اكرمه واستقبله واواه وزوجه من ابنته وهيأ له اسباب الحياة وفي طريق الاعداد للعودة وفي مسار رهيب تنفعل اعماق موسى وتصفو نفسه تماما ، وينتقل الموقف العف الذي لازمه الى حياة منظمة وثائرة في وجدان هذا العائد الى الارض التي نشأ فيها وحيث يوجد الاهل وحيث البيئة التي ارتبط بها وتتعلق بها مشاعره وفي الطريق الى مصر يتغير حال الرجل وتتغير كل الظروف المحيطة به بعد ان يتلقى وحي الله ورسالته ليصبح بالهجرة ذاهبا وآيبا نبيا ورسولا .

اضواء على القصص الديني الموسوي

تفيض الرواية الدينية كثيرا حول تلقي موسى الرسالة وتكليفه القيام بها ، ودعوة الاسرائيليين والمصريين اليها بفكر المؤرخين الدينيين وخيـالهم فياخذون النصوص التي بين أيديهم حول كيفية تلقي موسى الرسالة ومدى استعداده لها ويلعبون بها الشيء الكثير ، غير أنه يصبح للمصدر الديني هنا اهمية خاصة في الكلام عن حالة النبوة او الرسالة في مرحلة من عمر ظهور موسى في المجتمع المصري فتارة يأتي المنهج الديني توراتيا كان او قرآنيا ويقدم امثلة وصورا بالمثال المادي او بالتجريد ، او بتجسيد المعنى وتقريبه، وتارة اخرى يقدم ملخصا موجزا لحالة نفسية معينة ، يصبح انسان الرسالة انسانا للسماء في كل ما يصدر عنه اكثر من صلته بالارض، ومن حقائق كثيرة ومتعددة عبرت المصادر الدينية عن تقرير نهائي ، وهو ان موسى كان نبيـا رسولا يتلقى الوحي من ربه ويوجه دعوة الله الى البشر ، ويبشر بقيم العدل الاجتماعي ، وان مقومات الدعوة في مراحلها الاولـى كانت ضمـن الرسالة الدينية والتي هي من عند الله وان عليه ان يبـدأ بالاسرائيليين في مصر . وبالمصريين ايضا ، وبالفعل فان موسى ذهب الى مصر وابتدأ يوجه الدعـوة الالهية الى الاسرائيليين والى من يستجيب له من المصريين ، موضحا قيمة نقاء العقيدة الدينية في الايمان بالله حين تكون توحيدا خالصا ، غـير ان التوراة في سفر الخروج تحصر رسالة موسى الدينية في امور خاصة بالجنس الاسرائيلي ، وبالشعب الذي تتحدث عنه التـوراة دائما في انانية مقصودة ومتعمدة ، ففي الاصحاح الرابع من سفر الخروج مثلا يقول : وقال الرب لموسى في « مديان » (١) اذهب ارجع الى مصر ، لانه قد مات جميع القـوم

(١) سفر الخروج : اصحاح ٤ : ٩ ـ ٢٠ .

الذين كانوا يطلبون نفسك ، فأخذ موسى امرأته وبنيه واركبهم على الحمير ورجع بهم الى ارض مصر ، واخذ موسى عصا الله في يده ثم يقول الاصحاح السادس من نفس السفر « ... ثم كلم الرب موسى قائلا ادخل ، قل لفرعون ملك مصر ان يطلق بني اسرائيل من ارضه ، فتكلم موسى امام الرب قائلا : هوذا بنو اسرائيل لم يسمعوا الي فكيف يسمعني فرعون . وانا اغلف الشفتين » (١) .

وكما هو واضح من هذا النص التوراتي فان موسى حين وصل الى مصر وابتدأ يوجه دعوة الله الى الناس ويدعو الاسرائيليين الى قيم ومعان جديدة رفضوها ، ووقفوا منه في عناد ، وكان موسى قد ابتدأ الدعوة مع قومه من بني اسرائيل ، بجهد جهيد ، يحاول أن ينتقل بهم من سلوكهم الوثني في مظاهر العبادة وشعائرها الى العبادة التي يدعوهم اليها محذرا مما هم عليه وموجها الى آداب وتقاليد كانت تصدم بما الفه القوم وتمرسوا عليه ، فمثلا ، يوضح سفر التثنية بعد مراحل البداية التي توجه بها موسى الى بني اسرائيل انهم رفضوها كما يقول سفر الخروج في النص الذياشرنا اليه كنتيجة طبيعية للخلق الذي كان لا بد من الثورة عليه .

تقول : اذا اغواك سرا اخوك ابن امك ، او ابنك او ابنتك او امراة حضنك ، او صاحبك الذي مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد الهة اخرى لم تعرفها انت ولا اباؤك من الهة الشعوبالتي حولك القريبينمنك او البعيدين منك من اقصاء الارض الى اقصائها . فلا ترض منه ، ولا تسمع له ، ولا تشفق عينيك عليه ، ولا ترق له ، ولا تشتره بل قتلا تقتله ، يدك تكون عليه اولا لقتله ، ثم ايدي جميع الشعب اخيرا ترجمه بالحجارة حتى يموت » (٢) .

وتقول التثنية ايضا ، وهي تبرز نواحي المحذورات التي دعا موسى الى التجرد منها ، غير ان القوم قد رفضوا : اذا قام في وسطك نبي او حالم حلما واعطاك اية ، او اعجوبة . ولو حدثت الاية او الاعجوبة التي كلمكعنها، قائلا لنذهب ، وراء الهة اخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي او الحالم ، لان الرب الهة اخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي او الحالم لان الرب الهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب

---

(١) سفر الخروج : اصحاح ٦ : ١٠ ـ ١٢ .

(٢) سفر التثنية : الاصحاح الثالث عشر ٦ ـ ١٣ .

الهكم تسيرون ، واياه تتقون ، ووصاياه تحفظون ، وصوته تسمعون ، واياه تعبدون ، وبه تلتصقون ، وذلك النبي او الحالم ذلك الحلم يقتل لانه تكلم بالزيغ من وراء الرب الهكم » .

ثم فوجيء بموقف الرفض عند القوم ، غير انه شملت دعوته في اول امرها الى الاسرائيليين، قضايا محذورة دعاهم الى اجتنابها واراد ان يجنبهم الوقوع فيها ، فانه قد دعاهم ايضا الى ممارسة قيم جيدة غير انهم كما يقول « الخروج » رفضوها ايضا وظلوا على ما هم عليه « اذا بيع لك اخوك العبراني او اختك العبرانية ، وخدمك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حرا من عندك ، وحين تطلقه حرا من عندك لا تطلقه فارغا ، تزوده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك » ... فانه كما هو واضح من بعض النماذج التي سقناها كدليل على بدء توجيه موسى الدعوة بالفعل الى بني اسرائيل في مصر ودخوله معهم مرحلة حاول فيها اصلاح الاحوال العامة للقوم وهدايتهم الا انهم منذ عودته من ارض « مدين » كانوا يقفون منه ومن دعوته على طرفي نقيض ، ورغم حال العبودية الذي تدعيه التوراة وتقص عنه في مصر مما لاقاه الاسرائيليون على ايدي المصريين فان طلب موسى لبني اسرائيل الامتثال لدعوته والخروج معه من مصر كلفه مشقة ان يبذل جهدا مضنيا مع القوم بل ووعودا واشتراطات وقد اخذ على نفسه انه يؤكد لهم سلامة الرحلة وضمانها بل وتوفير رفاهية اثناء الطريق ووعودا واماني كثيرة . (١)

ومن اعجب العجب ان التوراة هي التي تقص في تفصيل ، وتنفرد دون باقي الروايات الدينية في الكشف عن مجموع هذه الحوادث والمتناقضات التي تبرز وتفضح في آن واحد عمليات التدوين والتاليف التي وقع فيها مؤلفو التوراة في بعض مراحلها وخاصة فيما يتعلق وما يساق من دعوى افكار ومعتقدات لا تتفق وكل هذا الزيف والتناقض الذي تفصح عنه ايات العهد القديم مما يدل على ان الاجزاء المرتبطة ببعضها في التوراة والتي كان يتم تدوينها وصنعها مرحلة بعد مرحلة لم يكن يتيسر للمؤلف الجديد لمرحلة جديدة او مقبلة ان يطلع على ما صنعه المؤلف السابق في سجل الحوادث والروايات المتعلقة بالقوم وتاريخهم . فجاء العمل التدويني مخلخلا ومهزوزا ، بل ومتناقضا .

---

(١) انظر : « طوالع البعثة المحمدية » للاستاذ عباس محمود العقاد ــ صادر عن دار الهلال ــ القاهرة .

وعلى ضوء الرواية التوراتية فانه لا تطول الفترة التي حل فيها موسى النبي الرسول في مصر بعد عودته من « مدين » فبعد ان ابتدأت مجموعات تؤمن بـه وتتعلق بدعوته ، بل وبعد أن انضم اليه فوق الذيـن امنوا به مـن بني اسرائيل مجموعات اخرى من المصريين الذين احال بينهم الفرعون المصري في قوة وفي مطاردة وفي حدة كما تحكي التوراة وبين ان يتقبلوا الدين الجديـد الذي دعا اليه موسى . ابتدأ موسى يعد للهجرة الى خارج مصر والى أرض كنعان « فلسطين » .

وهنا يجيء سؤال ، لماذا اتجهت النيـة عند النبي موسى حين قـرر الخروج من مصر بأن يتجه الى فلسطين ، وهنا نرى اعتبارين وكل منهما له الاهمية القصوى في توجيه حركة الهجرة التي دعا اليها موسى فـي توجيه مسار كل الذين وجهت اليهم دعوته في ان يدخلوا ارض فلسطين ، الاعتبار الاول : ان موسى الذي لم يفكر في اخراج بني اسرائيل وهو بينهم في مصر سيدا ولا يطرأ على باله ان يقودهم في يوم من الايام الى أن استطاع الهرب والفرار ، مما يمكن ان يتعرض له من ولاة الامور المصريين الذين كانوا قـد امتلأت صدورهم بغضا لموسى بسبب وشايات كثيرة مـن أبناء جنسه قد استقر به المقام في ارض « مدين » واستراح فيها فترة تكفـل له الهـدوء النفسي والتأمل ومعرفة هذه الارض ، وموقع ارض مدين بالقرب من فلسطين وايضا على الطريق المؤدية الى شبه الجزيرة العربية ـ الحجاز ـ وطـرق القوافل قديما كانت تصب هنا حيث يلتقي عند اهل مدين كل الذين يبيعون ويشترون بل ويحتكرون سلعا كثيرة ، فلما اختلط موسى بعديد من الاقوام وعرف الكثير منهم اتيح له وهو المعد للنبوة والرسالة ان يفكر في تخليص ابناء جنسه ومحاولة اخراجهم ليستقروا جميعا في رقعة مـن هـذه الارض الشاسعة التي لا يحدها بصر ، ولا تضيقها حدود .

وحيث كانت امامه ارض كنعان ، ولم يكن عليها وقتئذ ملك اوسلطان بالمعنى التقليدي للملوك في اتخاذ العروش والتيجان وعمل الحـدود الجغرافية المغلقة فكان هذا ايضا من بين العوامل المساعدة على اتجاه موسى الى فلسطين ولما لم يكن على الارض العربية « فلسطين » مـن القـوى العدوانية في شكل ملك او سلطان يمكن ان يعد حركة من المقاومة العنيفة ضد حركـة المقاومة العنيفة ضد حركة الهجرة اذا ما تمت (لعل هذا المعنـى كان) ـ في تقدير موسى ـ « عليه السلام » . وهكذا كان يفكر في خلق ملجأ يمكن ان يركن اليه قومه ، فكانت فلسطين بهذه الاعتبارات هي التي جعلت

موسى ينظر اليها على أنها من المقاصد المأمونة ثم هي موقع يمكن مناله في حركة هجرة برية سهلة من مصر ففي شمال شرق مصر تقع سيناء المصرية وهي المعبر البري الاسلم والاضمن للخروج من مصر ، ثم يصبح الدخول الى ارض فلسطين اسهل وأيسر وربما كان هذا الاعتبار وذلك التقدير الذي اعمل ذهنه وكد فيه موسى في اختيار فلسطين تلك التي قد ظل عشر سنين بجوارها يرقب الطريق منها واليها هو كل محور تفكير موسى واهتمامه فقرر ان تكون الرحلة الى فلسطين .

والاعتبار الثاني أن موسى « الاسرائيلي » الفار من ارض مصر ، تلك التي يعبر عنها الاسرائيليون بانها غربة يعقوب ، واولاده ومستقر الضيافة الطويلة التي بدأت من عصر يوسف بن يعقوب ، قد كان ولا شك في اعتباره حسبما تقول الرواية التوراتية وتقص ان فلسطين هي الارض التي تركها يعقوب ومعه اولاده حين قصدوا مصر ، فان يعقوب ، حسبما دون القوم وكتبوا عنه قد اوصى ابناءه او قد تنبأ لهم بالعودة الى هذه الارض ــ فلسطين ــ بعد طول الاقامة في مصر .

ولما كان هناك شبه ميراث يدعيه القوم ويلوكونه فيما بينهم عن هذه الدعوى او الوصية التي دونت عن ابيهم يعقوب، في انهم سيعودون الى حيث كانوا في ارض كنعان، عملت هذه الاعتبارات تأثيرها في ظروف الجماعة التي كانت حول موسى عليه السلام ولعل موسى ــ قبل الرسالة ــ في ارض مدين قد راودته هذه المعاني المتوارثة ، في انه لماذا لا تكون العودة هذه بقيادته ؟ اي ان موسى بناء على هذا الاعتبار ، كان يعمل بنفسه وجهده في خدمة تحقيق الاماني العقائدية التي توارثها القوم او كانوا يرددونها فيما بينهم ، وكان موسى قد سمعها وعاشها ايام اقامته سيدا في مصر في ذروة الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له كرد فعل من قبل الفرعون المصري ، ويقرب هذا المعنى التوراتي المفترض في تقدير اختيار موسى لارض فلسطين ان تكون مقصده في حركة الهجرة التي يفكر فيها قبل ان يتحمل عبء الرسالة الدينية وتأخذ مجراها المعد لها ، ان مجموعات غير قليلة (١) قبل ظهور موسى في المجتمع المصري اي قبل عصر رمسيس الثاني بقليل قبل عام ١٢٢٥ ق.م. كانت قد ابتدأت تأخذ طريقها الى شرق مصر ، حيث قصد بعضها سيناء ،

(١) انظر : « فلسطين والضمير الانساني » للاستاذ محمد علي علوبة ــ صادر عن كتاب الهلال ــ القاهرة .

وذهب البعض الاخر الى أرض الكنعانيين املا في ان يجدوا متنفسا لهم او مستقرا . وعلى مثل هذا المعنى ـ المقرر ـ يكون موسى حتى قبل حركة الرسالة قد نذر نفسه للعمل من اجل تحقيق ما يردده القوم من وعد الله للاباء ، ابراهيم واسحق ويعقوب وهذا تقرير توراني يميل اليه بعض شراح التوراة ، ويتمسكون بنصوص بعض آيات ويتأولون في اخرى . الا انه قد يكون الاقرب الى الروح العام للحركة الدينية داخل هذا الاعتبار ايضا ، هو المعنى الاخر الذي جاء في التوراة صراحة ، حين كلف موسى من قبل ربه بالتوجه من ارض مدين حيث كان يقيم حسب سياق التوراة مهاجرا الى ارض مصر لاخراج بني اسرائيل وتوجيههم الى ارض فلسطين ، وقد يكون هذا المعنى الصريح الذي لم يعمل موسى فيه ذهنه ، ولم يكد نفسه او يتحمل فيه مشقة التفكير والاعداد اقرب الى كمال الرسالة الدينية وطبيعة التكليف الالهي فيها خاصة ان هذا المعنى الذي يسوق امر توجه موسى الى مصر للخروج منها بعد ذلك في شكل الامر باسلوب المعجزة الالهية يجد قبولا مع ما ورد في القرآن الكريم من توجيه الدعوة الى موسى بالتنبيه الى اهمية قداسة ارض فلسطين .

تقول التوراة في الاصحاح الثالث من سفر الخروج .

« ... (٢) رايت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من اجل مسخريهم ، اني علمت اوجاعهم ، فنزلت لانقذهم ، من ايدي المصريين واصعدهم من تلك الارض الى ارض جيدة وواسعة الى ارض تفيض لبنا وعسلا الى مكان الكنعانيين والحيثيين والاموريين والاموريين والفرزيين واليبوسيين » .

وعلى هذا المعنى كان على موسى ان يستجيب وان يبدأ في خلق مجال عملي لرسالته ويأخذ من يستجيب للدعوة من القوم ويتجه الى فلسطين فهل فعل ؟ وهل نجح ؟ ، رواية التوراة لا تزال من وجهة نظرنا هي المؤشر الذي يحدد لنا كل ملامح التصور الذي نود ان نطرحه في اثبات باطل الادعاء اليهودي عن القداسة الدينية والارتباط التاريخي تنفيذا للوعود وتحقيقا للاماني في ارض فلسطين .

الخروج الاسرائيلي بقيادة موسى :

كما سبق وان اوضحنا انه امام اساليب التسلط الرهيبة التي قام

---

(١) سفر الخروج : الاصحاح الثالث عشر .

بها ابناء يعقوب على مدى الاجيال التي نشأت في مصر وتدخلهم بعد ذلك في نواح متعددة من حياة الشعب المصري ، بل وسيطرتهم على اقتصاده الى الحد الذي كادوا فيه ان يسيطروا بالفعل على الحكومة المصرية كان رد الفعل المصري من قبل الفرعون المصري ، وايضا من الشعب الذي تعرض لكثير من الالام هو حركة الاضطهاد التي وجهت الى كل الذين يقومون بأساليب الهدم والتخريب ضد الشعب وحياته ، وكان من نتيجة ذلك انه بدات حركة هجرة بالفعل قبل قيادة موسى لبني اسرائيل الذي يرجح كثرة من المؤرخين الى انها هي الاخرى كانت في عهد رمسيس الثاني ، ذلك انه قد ثبت فيما هو منقوش على لوحة «منفتاح» الشهيرة بعد حملاته العسكرية في آسيا حين تم له الانتصار الساحق على اعداء مصر ، وتأمين حدودها ، ان كتب ما سبق ان اشرنا اليه من انه :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما »

« وخربت تحينو » .

« وخربت ارض الحيثيين » .

« وانتهبت كنعان وحلت بها كل الشرور » .

وعلى هذا التسجيل الفرعوني فان الاغلب والاوثق صلة بالتاريخ ان الهجرة الاسرائيلية التي تمت في حركة الفرار الكبير الذي قام به الاسرائيليون من مصر كنتيجة لدعوة موسى ، كانت في هذه الفترة ما بين حركة الهجرات الاولى ، الفردية والفئوية ، للجماعات التي كانت تضيق بها الحياة في مصر في شدة وفي قسوة ، وفي بدء عصر رمسيس الثاني او قبله بقليل ، والهجرة الكبيرة هي التي استجاب فيها لموسى بعض القوم من بني اسرائيل وتأثر الباقي بالروح العام للدعوة وبالحركة ذاتها كمحاولة للبحث عن ارض او متنفس جديد ، هي الهجرة في المرحلة التي وردت في نقوش منفتاح ، خليفة رمسيس الثاني ، وفي عصر منفتاح وبعده بقليل كان المصريون قد تخلصوا تماما من الاسرائيليين الى الحد الذي ذهبوا فيه الى اسيا حيث اتجه بعض الاسرائيليين هناك في مناطق شاسعة يعيش فيها اعداء للمصريين ، فانطلق المصريون اليهم ، وفي حرب قوية وطاحنة تخلص المصريون من اذى الجميع وخطرهم . (١)

---

(١) انظر : « تطور الفكر والدين في مصر القديمة » للعلامة المؤرخ «جيمس هنري برستيد» ترجمة الاستاذ زكي موسى ـ صادر عن دار الكرنك ـ القاهرة ١٩٦١ .

ويبقى لنا في دراستنا عن الخروج الاسرائيلي من مصر بقيادة موسى الى فلسطين ، ما يوصف في الكتب المقدسة جميعها واوثقها كالقرآن الكريم مثلا عن ارض فلسطين بانها الارض المقدسة وما ورد ايضا في « الخروج » من التوراة عن الدعوة الموجهة الى بني اسرائيل لدخول ارض فلسطين بعد توجيه الدعوة الى النبي الرسول موسى في ان يدخل القوم الارض التي تفيض لبنا وعسلا « ارض الكنعانيين والحيثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين » ارض كل هذه المجموعات التي سكنت فلسطين واستقرت بها من الجنس العربي منذ النشأة الاولى لحركة الهجرات السامية الى هذه الرقعة من الارض . وحركة الهجرة الاسرائيلية هذه بقيادة موسى الى فلسطين تنظر اليها التوراة على ان ارض فلسطين بهذه الهجرة ارض مهجر بقيادة النبي الرسول ثم هي ارض وعد ديني للاباء الاول وبشارة لهم يلوك ابناء اسرائيل قضية ان حق الاباء ميراث طبيعي للابناء وأمام زيف هذه الدعوى ما الذي يمكن ان تقدمه الدراسة الموضوعية والجادة ، ولو حتى من وجهة نظر المصادر الدينية اسرائيلية كانت ام عربية امام هذا اللغط التاريخي ، وهذا الادعاء الديني حتى يمكن على ضوء ما يتقرر ان تكون النظرة للهجرة الاسرائيلية بقيادة موسى الى فلسطين غير مرتبطة بكل الزيف التاريخي المتصور عند جماعات اسرائيل على مدى التاريخ الطويل ولا بكل الضجيج الديني والصخب المثار حولها ، وحتى يمكن تشكيل ملامح الوقوف الموضوعي على معطيات مصدر كالتوراة ، السند المصنوع للقوى الصهيونية المعاصرة في اطماعها في الارض العربية ... ولكي نجد الحاجة المنشودة بين صفحات المصادر الدينية وخاصة التوراة فانا نضع بضعة اسئلة حول طبيعة حركة الهجرة الاسرائيلية الى فلسطين بقيادة موسى .. بضع اسئلة حول مضمونها الاجتماعي ومضمونها الديني .

هل هناك معنى خاصا تنفرد به الحركة الاجتماعية الاقتصادية السياسية التي قام بها الاسرائيليون الى فلسطين فرارا من مصر دون باقي الحركات التي تم فيها قصد نفس هذا المعنى عند شعوب متعددة وبلدان كثيرة قبل وبعد حركة الهجرة الاسرائيلية حتى تظل لهذه الحركة معان تتعلق بالحق وبالهجرة وغير ذلك مما يدعيه القوم ويرتبطون به ؟.

هل هناك حقا ، معان مقدسة ترتبط بالارض العربية فلسطين حين الهجرة اليها في هذه المرحلة بالذات من عمر اباء بني اسرائيل ؟.

ثم هل صراحة وحقا ان القوم يفضلون غيرهم ويمتازون عليهم فهم مدعوون لدخول الارض المقدسة بهذه الافضلية .

ثم ما هي هذه القداسة المرتبطة بها المعاني الكثيرة التي يجترها القوم في دعواهم ومواقفهم . هل هي قداسة الارض لذاتها : ترابها : وطينها زرعها وضرعها ام تاريخها والحوادث المرتبطة بها .

ثم هل صراحة وحقا ان موسى ذهب يقود القوم الى فلسطين وهل دخلها غازيا أم فاتحا ام لاجئا ، ثم هل حقا ان القوم كانوا في قيادة موسى النبي الرسول حين ذهبوا من مصر فارين هاربين او مستجيبين للدعوة مطيعين ، حين توجهوا الى فلسطين وارادوا دخولها والسيطرة عليها .

ثم اخيرا هل كان القوم جميعهم حين الهجرة وهم المهاجرون في قيادة نبي يؤمنون بقيمة الهجرة وبالنبي ، هل كانوا يؤمنون بالنبي الرسول موسى ؟ ، وبانه داعيهم الى الله ورسول الله اليهم . ان الاجابة ، بعض الاجابة الحقة ولو حتى من وجهة نظر التفسير التوراتي والديني غير المرتبط بالزيف والهوى والذي لا يشبع نعرة التعصب ولا يوائم مشاعره العنصرية في عصبية القوم وعواطفهم يقدم تصورات ومعطيات لكل هذه الاسئلة التي تصنع ضوءا حول طبيعة الادعاء والزيف التي تمتلىء بها ايات التوراة ، لا اقول فريدا ، الا انه في تصوير ملامحه العامة قد يوضح الرؤية وخاصة امام الفكر الاوروبي الذي لا يرى من القضية العربية في صراعها مع القوم التي تلبس في ادعاء ثوب الدين وميراثه الا جانبا مشوها وممسوخا قائما على تصور ديني دعي ومصنوع لا اساس له من الدين ولا من التاريخ ، ولا سند له غير زيف الاوهام والاماني المريضة ، لاجيال جعلت من تاليف الرواية الدينية مطمعها ومغنمها ، فذهبت على هواها تؤلف الاحلام والاماني (١) ، ثم جاء العصر الحديث بعد تطور الثورة الصناعية ، وظهور حركة التجارة العالمية في ركابها التي استتبعت ضرورة البحث عن ارض للخام وسوق للتصدير فاستغلت الاحتكارات العالمية حين ظهرت وتتأكد دورها اوهام الاحلام واماني المتعلقين بها وجعلتها اداة لها كي تصنع لها طريق الاطماع الكبرى والسيطرة الكاملة على العالم وعلى مقدراته .

واذا كان لنا ان تنظر حركة الهجرة الاسرائيلية التي قام بها بنو

---

(١) انظر كنموذج الجهود الاطماع اليهودية في الاعداد للاطماع والاماني : (النصوص الاساسية للفكرة الصهيونية) والذي صدر عام ١٩٧٠ عن سلسلة كتب فلسطينية من مركز الابحاث الفلسطينية وهو عبارة عن فكر صهيوني مجمع من مختلف انحاء العالم وقد ترجمه لطفي العابد وموسى عنز باشراف الدكتور انيس صايغ وتعريف الدكتور اسعد رزوق .

اسرائيل من مصر الى فلسطين من وجهة النظر العلمية للحركات الاجتماعية المرتبطة بظروف اقتصادية مثل تلك التي تقوم بها بعض الجماعات البشرية من بلد لاخر منذ اقدم الازمنة، طلبا للامن او العيش ، كحركات الهجرةالتي بدات منذ القرن العشرين قبل الميلاد في أقــل التقديرات من مناطق آسيا الوسطى الى بلاد كثيرة في الشرق والجنوب ، وكحركات الهجرة والغزو التي قام بها الاسيويون الساميون الذين تسموا باسم « الهيكسوس » الى مصر، وكمحاولات الفتح الاسلامي لفرنسا ، بل واستيطان العرب المسلمين لاسبانيا قرونا ، وكحركات اخرى كثيرة كحركة شعب الخــزر الذي رحل من حول بحر قزوين في القرن الاول الميلادي ليستقر حول الروسيا ويقيم عليها مملكة ويبدع فيها نظاما لتنتهي الدولة التي اقامها شعب الخزر بعد قرون في وثنية الشعب الروسي . وكحركات الهجرة الفردية والجماعية ، بل والعالمية ، وهي كثيرة جدا ، ولا يمكن حصرها ، وما لم تكن هذه الحركــات مرتبطـة باستيطان كامل وطويل ومستقر دون مقاومة من سكان الارض المتجهةاليهم حركة الهجرة ، وما لم يسبق المهاجرون الى اي رقعة مجموعة من الناس باعينهم تستقر على الارض وترتبط بها فانه لم يقبل حضاريا انــه بقيت ارتباطات تاريخية للابناء يحملونها ميراثــا ، لما قــام به الآباء منــذ الــوف السنين وانقطعت صلتهم به تماما (١) .

وكل ما يمكن ان يثار باسلوب دعوى كتلك فانما هو عصبية وعنصرية مستغلــة .

واذا ما نظر – موضوعيا – الى حركة الهجــرة الاسرائيلية التي كانت متجهة الى فلسطين بهذا المنطق . . . حركة هجرة لفئات اقلية ضئيلة كانت مهاجرة من مجتمع ضاق بها هذا المجتمع ، فلفظها ، ثم ذهبت الى بلد اخر وسواء اقامت فيه وعمرته ، او لم تقم فيه وارتحلت عنه ، تتنقل من مكان لاخر ، انما المحقق بايات الاعتقاد والتاريخ أنه انقطعت صلتهــا التاريخية والعمرانية به ، فأي ميراث تصنعــه او تضفيــه حركة الهجرة التي تمــت للاسرائيليين الى فلسطين في يوم من الايام حتى يكون هــذا الحق المدعــى ميراثا ، وعلى هذا المعنى فان قداسة حركة هجرة الاسرائيليين الى فلسطين (والمحقق كما اوضحنا وكما تنص مصادر كثيرة بعضها محفور علــى الصخر

---

(١) انظر في تقرير هذه المعاني « علم التاريخ عند المسلمين » الذي كتبه (فرانز روزنثال) وترجمه الدكتور صالح احمد العلي . صادر عن مكتبة المثنى – بغداد ١٩٦٣ .

ولا يمكن انكاره ، انه قد سكن بفلسطين الكثير من الاقوام قبل قدوم الاسرائيليين في حركة هجرتهم من مصر بما لا يقل عن الف عام) مرفوضة تماما وكل المعاني التي يمكن الادعاء بها كميراث تاريخي او حق استيطان لشعب بني اسرائيل في فلسطين باطلة ولا سند لها .

فدعوى ارتباط الحق التاريخي بحركة الهجرة لذاتها كحركة هجرة طلبا للامن او للعيش في ارض بها مجموعات من الاقوام عاشوا بها واستعمروها وحضروها قبل غيرهم بمئات السنين ، مرفوضة تماما وشأن الهجرة الاسرائيلية في ذلك الى فلسطين ، شأن كل حركة هجرة سياسية واقتصادية الى بلد لم يستقر فيه المهاجرون ، ولم يرتبطوا به ، بل لم يعمروه قبل غيرهم ، وكل دعوى من هذا القبيل مرفوضة عند مختلف الشعوب ، وفي جميع البلدان منذ عرف نظام للمجتمعات ولحقوقها وسيادتها .

ويبقى جانب ديني عن التساؤل الذي يقول : هل الارض ، ارض فلسطين مقدسة لذاتها ؟ ، ويأتي الجواب على ضوء ما تقرر المصادر الدينية ان فلسطين تلك الرقعة من ارض بادية الشام والمعروفة اليوم بالحدود الاقليمية التي صنعها العصر الاستعماري حواليها فلسطين بالحدود الاقليمية هذه اوبطبوغرافيتها ، كجزء من البادية ، وارض الساميين — ارض الشام — شأنها شأن جميع الارض التي خلقها الله قاطبة ، واذا كان لها من ميزة كارض فانما لانها قديما كانت جزءا عضويا من ارض القوافل ، اي الارض التي تمر بها او منها واليها تجارة العالم القديم بين اسيا وافريقيا ، وهي في هذا المعنى جزء من الارض الممتدة في هذه المنطقة كلها بسلسلة من الجبال والاودية والسهول المتصلة ببعضها والتي تشكل تجانسا جغرافيا واحدا ، فهل القداسة اذن ترتبط بمعان دينية متصلة بحوادث على سطح هذه الارض ؟ نعم قد يكون الامر كذلك ، وتقدم التوراة الدليل على تاريخ بداية ارتباط القداسة بالارض العربية ارض فلسطين فتؤكد وتحدد معنى القداسة المدعاة ارتباطا ادعائيا لبني اسرائيل بالارض حين اتجه اليها النبي ابراهيم عليه السلام قاصداً في مسار ديني حركة هجرة من العراق الى فلسطين ، مستجيبا لدعوة ربه في ان يذهب من ارضه ومن عشيرته ومن بيت ابيه كي يباركه الرب ويجعله امة عظيمة ، ويكثر نسله في الارض التي سيريه اياها . ارض « كنعان » .

وتأتي التوراة عند بداية حكاية القداسة هذه لتؤكد ان هناك عهدا

أبديا بين ابراهيم وذريته في ان يسكن ارض كنعان ، وان تكون له ولنسله من بعده ، ومن هنا فأرض فلسطين في دعوى القوم تكتسب معنى القداسة من اجل ذلك العهد ، خاصة وان ابراهيم حسبما تقول لهم الرواية التوراتية ابتنى بيتا للرب سماه بيت « ايل » وان الله قد صان هذا البيت وحفظه من أجل هذه الدعوى ، وتأتي الدعوى المصنوعة لتقول ان حركة الهجرة كانت هجرة مقدسة لانها مرتبطة بذات هذه الارض ، الارض المقدسة ــ فلسطين ــ واذا كان من الممكن ان نتتبع منشأ القداسة المرتبطة بالارض لعلاقة بينها وبين ابراهيم عليه السلام حين الوعد فان التوراة هي التي تقول لنا : ان ابراهيم عليه السلام حين الوعد فان التوراة هي التي لنا : ان ابراهيم نشأ بالعراق ، وظل بها حتى اصبح نبيا رسولا يدعو الى الله ثم ذهب الى « حوران » منطقة في الاردن اليوم ، ثم الى فلسطين ، ليقاطعه اهلها ويرفضوا الاستجابة له ليأتي مصر . وليعود بعد الاقامة فترة من عمره في مصر الى ارض « كنعان » مرة ثانية وليخرج منها الى وادي القرى عند مكة في الجزيرة العربية ثم يعود في مرة ثالثة الى ارض فلسطين ، فما هو سر المعنى الخاص المقدس المرتبط بارض فلسطين ــ توراتيا ــ حتى يقرر ابراهيم ان يتجه اليها ، حين بدأ الهجرة متغربا في أرضها ، بينما هو قد تغرب في ارض كثيرة ، اكرم في بعضها كما حدث له في مصر ، وما معنى عدم سريان القداسة الى كل الارض التي اتجه اليها ابراهيم كالارض الواسعة التي ترك فيها فلذة كبده ووحيده وبكره ، ولده اسماعيل بن السيدة الطيعة المستجيبة لقضاء الله ، هاجر المصرية التي تخلع عليها التوراة كل هذه المعاني دون قصد ، ولا دراية من المؤلف التوراتي ، حين قالت لابراهيم الى من تكلنا ؟ ويرد عليها ، الى الله ، فيتلقى الرد المؤمن المذعن من السيدة الممتثلة : اذن لا يضيعنا ، ما سر التصاق البركة والقداسة في ارض فلسطين بعينها منذ ابراهيم متوجها الى هذه الارض دون غيرها ، وما سر ارتباط القداسة بوعد الله لابراهيم في ان تكون الارض له ولنسله منذ تاريخ هجرة ابراهيم اليها فقط ، فلما جاءت الهجرة الاسرائيلية من مصر الى فلسطين كانت هجرة مقدسة لان القائمين بها من ابناء يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهم وحدهم في دعوى الزيف والهوى نسل ابراهيم واولاده . دون غيرهم اليس هذا زيفا ومسخا حتى للدين الذي ينتسب القوم اليه حين كانوا ينتمون اليه ؟ اليس من ابناء ابراهيم « اسماعيل » الذي اصبح ابا لقسم من العرب بذات منه وفيه النبوة والرسالة الدينية العالمية على يد محمد عليه السلام فيما بعد الا تصبح حركة كل عربي في العصر القديم او الحديث الى فلسطين هجرة مقدسة لان العرب من ابناء اسماعيل الذي هو الولد الاول لابراهيم ؟ ثم من هو الاجدر في الارتباط تاريخيا بمعنى حمل القداسة والالتصاق بارض

القداسة اهم العرب الذين كانوا على مقربة من الارض واتصال بها واعاشة فيها ؟ ام اولئك الذين انقطعوا عنها وانفصلت صلتهم بها ؟ اظن ان الجواب ليس في حاجة الى تدليل ؟ غير ان المسخ التوراتي للحقائق يحتاج دائما الى مزيد من التوضيح والتدليل .

ومن هنا فان الحاجة تصبح ضرورية الى ابراز التناقض الذي تحتويه ايات العهد القديم .

ويبقى الجزء الخاص بالتساؤل الذي اوردناه والذي يقول : هل حقا ان القوم يمتازون عن غيرهم ؟ ويفضلونهم ، ومن اجل هذا المعنى فهم مدعوون لدخول فلسطين ؟.

نقول ليس هناك من دليل يمكن ان يحسم الادعاء الذي لا سند له من العلم ولا من التاريخ ، ويقدم لنا جواب التساؤل في امن من ضجيج القوم وصخبهم اكثر من مصادر القوم في توجيههم الدعوى الزائفة والباس الغير من البشر ثوب المهانة والرفض وقبل ان تفصح آيات التوراة ، عما فيها من دعاوى عن القوم وافضليتهم ، فان راي علماء الاجناس البشرية كما سنرى مما سنفرد له مبحثا مستقلا عن دعوى الامتياز العنصري التي روج لها اليهود في كل ما قاموا به او نسبوه الى انفسهم من نبوغ وتفوق وامتياز يحسم زيف الدعوى هذه ، ونستطيع ان نقرر : انه ليس هناك من الشعوب او فئات من العناصر البشرية من يمتاز بشيء معين يحمله كميراث في التركيبة العضوية لكيانه المادي ، او كميراث عنصري او معنوي يحمله الاباء من الابناء ، فان تداخل الاجناس واختلاطها، بالزواج والرحلات والهجرة والاغارة ، قد جعل من شعوب الارض منذ القدم وحدة واحدة . ايمكن ان يمتاز شعب من الشعوب لتركيب خاص به، او لان جمجمته مستديرة او وجهه مستطيل او انفه حاد . وعلى هذا المعنى فاذا كان الاسرائيليون شأنهم في الخلقة وكل مكوناتها كباقي الناس ، فانه بقي لنا ان ننظر الى ميزة القوم في العقيدة الدينية المنزهة ومدى الايمان بها والتضحية من اجلها ، هذه العقيدة الدينية المدعاة التي ساقها القوم بانها كانت فيهم حين الهجرة من ارض مصر الى فلسطين ، لانهم اهل دعوة من الله الى الناس ، ثم هم وحدهم الابناء للاباء اصحاب الدعوات الاولى الى الله ..

واذا ما ذهبنا لنرى كيف استطاع ان يرجع القوم فيما اقاموه من دعوى

الى دينهم ، نرى عجبا ، خاصة انه حتى اليوم يستطيع الباحث في يسر ان يجد في مصادر الدين والمعتقدات الموروثة عند القوم انه لم تكن فيهم ميزة بذاتها لتلقي الرسالة او حتى للقيام بالهجرة نفسها من مصر الى ارض فلسطين في قيادة النبي موسى لهم بل اثروا حياة الهوان والمذلة عن القيام بالرحلة وتحمل اعبائها بل انا لنجد حتى من جموع الذين امنوا بقائد الهجرة وهو النبي موسى فيما ترويه التوراة على لسانهم كل ايات الرفض الصريح لحركة الهجرة . وفي تخوف وشك في سلامتها من جانب القوم جميعا بل وكما سنرى نجد نصوصا توراتية قد اكدت ولست ادري كيف صنعت حين صنعت وفي بعض اجزائها هذا المعنى ثم ظلت بمنجاة عن زيف القوم حتى اليوم اقول كيف نجت الايات التوراتية التي روت في تأكيد وصراحة — وهي تقرر كفر المهاجرين بالهجرة ، وبالداعي اليها حتى الان وكان الكفر بالهجرة والتمرد عليها بعد مراحل التكذيب للدعوة نفسها ، ثم جاءت عملية المناورة التي ترويها التوراة حين قدم موسى العهود والوعود للذين يمكن ان يستجيبوا للهجرة ، فلما كانت وقاموا بها تمردوا عليها وتنكروا لها واخذوا مواقف دينية وسياسية ضد الحركة وشعائرها الى الحد الذي اسف فيه موسى وندم من صنع القوم بل واستشعر الحرج وتألمت نفسه ان يصل الجحود والنكران ، بأولئك الذين اراد لهم الخلاص الى هذا المستوى من التنمر والتنكر والكفر والعصيان .

تقول التوراة في سفر الخروج ، من الاصحاح الرابع ، وهي تلقي اكثر من ضوء على مدى العقوق والكفر وعدم التقبل الديني حتى — منذ بدء الدعوة — من موسى عليه السلام الى الحد الذي يئس فيه وقال لربه « ها هم لا يصدقون (١) ، ولا يسمعون لقولي . بل يقولون لم يظهر لك الرب » .

وقد يأتي المتحذلقون من شراح كتب التوراة ويقولون : ان آية او بضع آيات كتابك انما هي تعبير ودلالة صدق عن موقف بعض القوم الاسرائيليين في بدء الدعوة ، وهنا يجيء ايضا نص من صنع التوراة وصلبه ليقول لنا : ان القوم جميعهم الذين امنوا وصدقوا ، او الذين غلب عليهم امرهم ، وجاروا التيار العام وذهبوا في قيادة موسى مع حركة الهجرة التي دعا اليها حين كانوا في الطريق ولما يجتازوا ارض مصر بعد في منطقة سيناء انهم اعلنوا الندم على آستجابتهم للرحلة ثم ارتابوا في شك وصل بهم الى الكفر الكامل في مقصد

---

(١) سفر الخروج — الاصحاح الرابع .

موسى ونيته بل ملأهم هذا الاحساس بالكفر نحو موسى ودعوته ، وكل ما يدعو اليه وما يبشرهم به .

تفصح التوراة صراحة عن هذه المعاني المرتبطة بالقوم تاريخيا ولا يمكن لهم التجرد منها او الانسلاخ عنها لانها بعض ايات دعواهم وزيفهم الديني.

يقول « الخروج » من الاصحاح السادس عشر :

« ثم ارتحلوا من « ايلين » واتى كل جماعة بني اسرائيل الى برية « سين » التي بين « ايلين » وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من ارض مصر ، فتذمر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهرون في البرية وقال لهما بنو اسرائيل : « ليتنا متنا بيد الرب في ارض مصر ، اذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، نأكل خبزا للشبع ، فانكما اخرجتمانا الى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع » .

ولعل في مثل هذا المعنى الذي نخرج به من بين نصوص آيات القوم ومعتقداتهم ما يفضح الزيف والهوى المصنوع حول كل ما جاء وما تعلق بحركة الهجرة الاسرائيلية من مصر الى فلسطين بقيادة موسى بانها كانت حركة مقدسة الى ارض مقدسة في عواطف القوم ومعتقداتهم فانه وكما هو واضح من النصوص التوراتية وبمنهجها ان الحركة لم تكن مقدسة ، ولا علاقة لها بالمعاني المقدسة ، وبعد ان فقدت عنصر الايمان والامتثال في قلوب الذين قاموا بحركة الهجرة ، فانها لم تكن اكثر من حركة سياسية في طبيعتها وفي مسارها وهدفها للظرف الذي اقترنت به (1) كذلك لم تكن منشأ قداسة ارض فلسطين – وهي ارض مقدسة في قلوب غير اليهود ومعتقداتهم – مقترنة منذ اتجه اليها الاسرائيليون بالهجرة ، وانما وصفت بالقداسة او حتى اذا اعتبرنا ان نبي الله ابراهيم عليه‌السلام‌اعتبرها موضعا للقداسة ، فانما ذلك للاعتبار الذي سيحل بها او ما ستكون عليه بعد ذلك من كونها ستصبح‌ارضا للانبياء يلتقون فيها واحدا بعد الآخر، حيث‌المجتمع الانساني المتحضر في عالم آسيا وافريقيا القديم ، وحيث كان يمر منها واليها كل ذاهب وآيب ، يبحث عن مطلب للهداية او يحمل قيمة من خير فلم يكن العالم الانسائي المتمدين في غير هاتين القارتين

---

(1) انظر : « اليهودية واليهود » للدكتور علي عبد الواحد وافي – صادر عن مكتبة غريب ، القاهرة عام ١٩٧٠ .

واخيرا بعد كل هذا ، هل تم فعلا قيادة موسى للقوم في التوجه الى فلسطين ثم دخلها وفتحها ، ودعا الى الله فيها وبشر بدينه منهاواقام سيادة للمجتمع الاسرائيلي في فلسطين ؟

والجواب الحق ، لا الذي زيفه اليهود طيلة تاريخ طويل من وهم المعتقد الذي يقول انهم ابناء القوم الذين ذهبوا الى فلسطين من مصر بعد دعوة من الله للنبي الرسول موسى كي يدخلهم ارض فلسطين ، لتكون لهم مستقرا وليعمروها بدلا من سكانها الاصليين من الارومات العربية ، ان النبي موسى عليه السلام لم يكن مع القوم حين دخلوا فلسطين . بل انهم اثناء الرحلة الطويلة التي ضاعف من مشقتها طول ما ترددوا وطول ما استفسروا وطول ما طلبوا وعودا واماني ، ان موسى حين ترك لهم امر انفسهم بضع ايام يتعبد فيها الى ربه بمفرده كما تقول التوراة وتقص ، انه جاءهم رغم انه استخلف عليهم اخاه « هارون » لعدم اطمئنانه تماما الى امكانية ان يمتثل القوم ، ويذعنوا ، على ما تركهم عليه في كل ما دعاهم اليه، وطالب به ، ان انساقوا في هواهم مؤملين العودة الى ما كانوا عليه من حياة التناقض الاجتماعي والصراع الفئوي واقامة علاقات التفاوت والامتياز ومحاولة العودة مرة ثانية الى اتخاذ الهة من الذهب والفضة ، رمزا لوظيفة الكهانة الدينية التي تخلق حولها مجموعات من الطبقات الاجتماعية الطفيلية التي تعيش على الامتصاص وحرق جهد الاخرين قيم اليهود المتوارثة بعد ذلك .

يقول « الخروج » في الاصحاح الثاني والثلاثين :

« انصرف (١) موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده ، لوحان مكتوبان على جانبيهما : من هنا ومن هنا كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله ، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين ، وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه ، فقال لموسى صوت قتال في المحلة فقال ليس صوت صياح النصرة، ولا صوت صياح الكسرة ، بل صوت غناء انا سامع ، وكان عندما اقترب الى المحلة انه ابصر العجل والرقص ، فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في اسفل الجبل ثم اخذ العجل الذي صنعوا واحرقه بالنار ، وطحنه حتى صار ناعما ، وذراه على وجه الماء وسقى بني اسرائيل. وقال موسى لهارون : ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية

---

(١) سفر الخروج ـ الاصحاح الثاني والثلاثون .

عظيمة ، فقال هارون لا يحم غضب سيدي : انت تعرف الشعب انه في شر فقالوا لي اصنع لنا الهة تسير امامنا الان لان هذا موسى الرجل ، الـــذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه » ؟

وكما هو واضح من هذا النص واكثر من مشهد نورد نصوصا كالتـــي سقناها من التوراة لنثبت ونؤكد ان علاقة القوم الدينية والعاطفية المتعلقة برحلة الهجرة من مصر الى فلسطين كانت مهزوزة ، بل وغير موجودة على الاطلاق وانه هناك اكثر من احساس متقلب ، ومتغير ، بل واحساس عميق بالندم على الخروج من مصر الى فلسطين ، هذا المهجر غير المرغوب فيه ، وغير المتعلقة به نفس احد من القوم الى الحال الذي كان فيه القوم جميعا في حالة تبرم من كل ما يمكن ان يكون النبي الرسول موسى عليه السلام قـــد امرهم ان يقوموا به فلقد اثبت المؤلف التوراتي فقرة في النص الذي اوردناه، تكشف عن بعض من علاقة القوم بالنبي موسى عليه السلام « ... موســـى الرجل الذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه » .

وكل هذه المعاني بلا جدال ، تجرد حركة الهجرة السياسية التـــي واصلها القوم من بني اسرائيل من مصر حتى دخلوا فلسطين من كل معانـــي القداسة الدينية التي روج لها القوم بعد طول دعوى زيف ديني حمله الابناء ميراثا مصنوعا من الاباء ، على اساس من اعتقاد واهم ، وهو ان القـــوم يحملون او يورثون معاني مقدسة ترتبط بالتاريخ اليهودي ودين الاباء القديم وحتى يكسبوا ويضفوا على هذه العلاقة التاريخية المدعاة معاني القداسة الدينية ، فان معظم المصادر الدينية عند القوم في شروحهم وتفاسيرهم للايات التوراتية تقول في غير ما دليل انهم حين الهجرة من مصر الى فلسطيـــن الهجرة المقدسة المدعاة كانوا في قيادة معلمهم العظيم ونبيهم المطاع وتحت امره واشرافه ، مستجيبين طائعين وهذا كذب وافتراء .

والمستفاد حتى من ايات كتاب العهد القديم يؤكد خلاف ذلك تماما بل ويهدم دعوى وجود النبي موسى يقود القوم حين دخلوا فلسطين وينقضها تماما ، فمن يطلع ودون عناء في البحث على ما ورد مثلا في سفر « يشوع » من الاصحاح الاول والايات الاولى يجد تسجيلا توراتيا ، يقول ان موســـى النبي الرسول لم يكن موجودا يقود القوم حين دخلوا فلسطين ، بل لم يكن حتى حيا على وجه الارض ، وانما مات والقوم الذين دعاهم لدخول الارض في شك منه وفي ارتياب من السلامة وحسن المقصد وزادهم الامر ســـوءا وعصيانا حالات التشتت والتفتت التي اصيبوا بها ، وتعرضوا بسببها في

طول الصحراء وعرضها ، لحالة اوشكت ان تكون تسيبا كاملا ما يقرب من عمر جيل كامل ، الى ان انشقت عليهم مجموعات منهم تمردت عليهم تماما وكفرت بهم وبمقصدهم وبالنوايا المتجهة اليها رحلتهم وكانوا بعد ذلك مصادر واباء للجماعات التي ظهرت بعد مراحل طويلة في القرن الثاني الميلادي تلك الجماعات « المنشقة » على الجماعات الخارجة من مصر وهي التي حملت بوادر الفكر الشيوعي الذي ندد بنظام الملكية الفردية ووجوب المساواة على اساس من شيوعية المال وكل متعلقاته ، وهذه الجماعات المعروفة فيما نقله الينا الفيلسوف « فيلون » باسم جماعة « الحسديين » الذين ارادوا ان يقيموا شيوعية المال والنساء (1) .

يقول سفر يشوع وهو يلقي اكثر من دليل على ان النبي موسى لم يكن بين القوم بل ولا حيا حين قرر الاسرائيليون بعد طول تفتت وتشتت ان يشدوا رحالهم ويتجهوا الى فلسطين ، غزاة مغيرين .

« ... وكان بعد موت موسى عبد الرب ان الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : « موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبر هذا الاردن انت وكل هذا الشعب الى الارض التي انا معطيها لهم — اي لبني اسرائيل — كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته ، كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا ، الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم ، لا يقف انسان في وجهه كل ايام حياتك . كما كنت مع موسى اكون معك لا اهملك . ولا اتركك . تشدد ، وتشجع لانك انت تقسم لهذا الشعب الارض التي خلفت لابائهم ان اعطيهم » .

وبعد ... هل يستطيع واهم توراتي أن يأتي الى هنا ليلعب بمثل هذا النص تأويلا او تفسيرا على حسب المصلحة والهوى ، ويدعي ان موسى النبي الرسول قد واصل رحلته في قيادة بني اسرائيل وهم المستجيبون الطيعون او المؤمنون المتمثلون ، اعتقد من الواضح بعد نص كهذا ، انه لا يقدر ، ولا يستطيع ، وعليها فانه من الزيف الصارخ ، والادعاء الذي لا سند له من دين او تاريخ ، دعوى التعلق بميراث ارض المهجر التي كانت مستقرا للجماعات

---

(1) انظر : « قصة الملكية في العالم » ، ص ٦٤ للاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي والدكتور حسن شحاته سعفان — صادر عن مكتبة نهضة مصر — القاهرة .

الاسرائيلية والتي تلوك في ادعاء اثم : قضية ان هذه الارض كانت ميراثا لهجرة نبيهم ورسولهم .

واضح ان ما جاء في النص الذي اوردناه ، يشجب الموقف المدعى ، ويرفض اللغط في القوم المدعي ، ويؤكد ان موسى عليه السلام قد مات في رواية التوراة غير مرتبط به القوم جميعا ، ومات مستجيبا لارادة الله التي اذعن لها موسى من قبل ربه بعد الامر بالتوجه الى فلسطين بانه لن يدخلها، ولا تطأ قدمه ترابها كما هو مسجل ومكتوب في سجل القوم وتوراتهم . غير انه في مقام دراسة كتلك فانه من الانصاف للتاريخ ان تقرر ان القوم بعد طول معاناة وتشتت وتفتت وبعد وفاة موسى عقدوا العزم ــ حسبما تقص التوراة ايضا ــ على دخول ارض فلسطين مهما فرض الموقف عليهم من استعمال شتى الاساليب ، واعنف سلوك الفتك والاغارة ، بل والابادة والتدمير ، حتى يمكن لهم دخول فلسطين واستيطانها ، ولو بالدمار ، وقد فعلوا .

« الاطماع الاسرائيلية القديمة في الارض العربية »

لئن كانت الامة العربية تعاني اليوم كثيرا من اعباء المواجهة مع اعدائها فان الجهد المبذول والدم الشريف الذي بذل ، كل اولئك ضرورة حياة يقوم بها العربي المعاصر ، ذلك لان الاطماع العدوانية التي شنتها القوى المتربصة بالامة العربية غدرا وغيلة لا تمثل موجة من موجات الغزو الاجنبي ضد شعب بعينه او جيل بذاته ، لكنه عدوان معتقد املته غرائز شريرة وطبائع عدوانية التركيب ، عنفوانية المزاج النفسي والتراث التاريخي .

والقاء نظرة على الاطماع النازية التي قامت بها الاجيال الاولى في فلسطين القديمة يكشف لنا عن مدى العلاقة بين عدوان الامس واطماع اليوم من جانب القوى التي تتوارث عقيدة الشعب المختار عنصرية المعتقد اليهودي ضد الامة العربية بأسرها .

وكانت البداية المتقدمة في العداء ، هذا العداء الاسرائيلي ضد الامة العربية الذي فرض على الاجيال اليهودية تحريف وتزييف معظم ما في ايديهم من تراث وما هم عليه من عقيدة انه في المنطقة الواقعة في ارض مدين والتي تقع في جنوب سيناء الى الشرق منها ظل الحال عند بني اسرائيل في كل هذه المنطقة فترة طويلة ، حتى بعد وفاة موسى عليه السلام ، والقوم جميعا ، من بني اسرائيل في ضياع ، ولما لم يستشعروا ادنى حال من الامان نظروا الى ارض الشمال ، وقرروا انه لا بد لهم بما لديهم من رجال ، وما يحيط

بهم من ظروفهم الخاصة حيث اوشكوا على الضياع تماما انيدخلوا الارض. ومن عجب ان هذه الظروف التي كانت تحيط بهم جعلت منهم قـوة قادرة على تنفيذ ما تطمح فيه نفوسهم وتتطلع اليه أمانيهم بعد طول ضياع وتشرد في صحراء مقفرة ، وما ان علموا عن خصب الارض وخيرها ، حتى تأججت مشاعر الاستغلال والحسد والطمع في نفوسهم وملأت قلوبهم ، وثـارت اطماعهم وحواسهم في ضرورة الاستيلاء على كل هذه الارض ، مبتدئينبأرض « كنعان » الواقعة غرب نهر الاردن ، وهنا يعمل التدوين الديني المصنـوع في آيـات القـوم وعقائدهم كل عملـه في تسويـغ عمـل الغـزو المسلـح للمهاجرين الاسرائيليين مـن مصر لفلسطين ، بعـد ان فقـدت الحركـة كل معاني القداسة التي كانت ستناط بها ، او كان من الممكن ان تحـل بالجماعات المهاجرة ، خاصة بعد ان مات بعد طول عناد وتمرد من القـوم قائد الحركة المهاجرة ورسول الدعوة الى فلسطين ، موسى عليه السـلام فيجيء التدوين التوراتي ويحاول قدر ما وسعته حيل التأليف وزيـف التصنيف ، ليخلع على ما قام به القوم بعد موت موسى معاني القداسـة والتزام امور الدين ، والباس حركة الغزو المسلح لفلسطين طابع الامـور المقدسة المحاطة بشعائر بأمور العبادة وقداسة الدين .

تحاول التوراة في محاورات عديدة في اكثر من موضوع ان تضفي حول شخصية « يشوع بن نون » الرجل الذي خلف موسى على بني اسرائيل وظل معهم حتى الغزو المسلح لفلسطين معاني النبوة والرسالة بل وخلافة موسى في كل ما اوكل اليه ربه وما كلفه القيام به ، مع انها التوراة التي تجيء في بعض الموضوعات حين لم يوفق المؤلف التوراتي الى ابراز معاني القداسـة او النبوة التي يريد ان يلصقها بيشوع ، وتقدم في غير قصد بل عن غبـاء من المؤلف التوراتي ملامح ليشوع ، اخلاقية ، واجتماعية ، ودينية في غاية القلق والزيف فيخرجمنها الدارسلتوراةالقوم للوهلة الاولى بأن الرجل على غير خلق قويم ، بل وعلى غير سجية طيبة وفطرة سليمة ، ولا يقر عرفا ولا ادبا ، وانما هو رجل مستبد وطاغية في كلامور الحياة ، سياسيةواجتماعية ينفرد بجبروته ويرضخ الجميع لمشيئته ، وفي دائرة الدين ان كان قد أخذ من النبي موسى شيئا من العقيدة ، فهو قد اصبح على ضوء ايات التوراة ، مرتدا وعاصيا ، بل وكافرا بكل ما يمكن ان يقرره الدين او تدعو اليه شريعة لها ادنى ارتباط بتعاليمالسماء . وعليها فانه منالمستحيل ان تتقبلالدعوى التي تقول : ان الرجل يحمل ميراث نبي ويسير على نفس طريق النبـي الرسول موسى عليه السلام .

توضح التوراة ان يشوع بعد ان قرر تعبئة القوم لاحتلال فلسطين ان قال كما يقول عنه سفر يشوع من الاصحاح الاول :

« هيئوا لانفسكم زادا لانكم بعد ثلاثة ايام تعبرون الاردن هذا لكي تدخلوا فتمتلكوا الارض التي يعطيكم الرب الهكم لتمتلكوها (١) .

وليس من العجيب في خلق القوم ومعتقداتهم واداب سلوكهم ، رغم انه مثير للدهشة جدا تناقضات التاريخ الديني للقوم ، فان يشوع بن نون هذا ، هو الرجل الذي اضفى عليه الفكر الديني اليهودي في كثير مما كتب المفكرون اليهود بعد اشباع رجال الدين اليهودي لهذه الدعوى التي تقول – ان الرجل خليفة النبي موسى – الكثير من امور القداسة المدعاة ، فهم يرونه انه هو ايضا كليم الله ورسوله وحين اراد أن يبدأ دخول الارض فانه كان يقود مرحلة دينية ويعيش ظرفا مقدسا . وتقول على ضوء ما يستفاد من التوراة انه حين اراد ان يبدأ دخول ارض فلسطين ، بعد وفاة موسى فانه قد اقدم باديء ذي بدء على سلوك اخلاقي وديني وسياسي قد جرد حركة الهجرة حتى فيما تبقى لها من ابسط المعاني الدينية المدعاة والبسها ثوب الغازي الطامع والمستغل والمريق للدماء ، ذلك انه كما عبر الاصحاح الثاني من سفر يشوع ، قد ارسل من رجاله دفعة من الجواسيس عرفت اخبار الارض ووقفت على عوراتها وتلصصت احوال الناس ثم عادت لتشجعه على القيام بالغزو والاغارة . وليت الخزي التاريخي في دين القوم وعقيدتهم قد وقف عند هذا الحد فان الجاسوسين اللذين قد كلفهما يشوع بالتوجه الى ارض اريحا قد استغلا حين قيامهما بالمهمة التي وكل اليهما أمر القيام بها التحلل والتحرر من كل سلوك يمثل عقيدة دينية عفة يمكن ان يدعيها القوم اسلوب حياة لهم . فان صاحب الهالة الكبيرة من الدعاوى الفارغة : قداسة وتدينا كان قد اعطى ضمن اوامره وتوجيهاته للرجلين اللذين قاما بمهمة الجاسوسية ما يسمح لهما بأن يلتقيا بامراة زانية ، وبانحراف الرجلين امكن بالفعل اقامة علاقة خيانة جنسية بأساليب غير عفة ، وغير ظاهرة وغير اخلاقية على الاطلاق ، ثم دفعا لها الثمن ، ثم الفاحشة التي استمتعا بها ثم الحصول على المعلومات والاسرار التي قامت بها خائنة في حق الارض العربية ثم تعهدا لها بتقديم الامان والائتمان حين يأتي ميعاد الغزو ، ويحل وجود الاحتلال الاسرائيلي .

---

(١) انظر : سفر يشوع – الاصحاح الاول .

اقول ليس من عجب ان تكون البداية للاستغلال والغزو الاسرائيلـــي عقب وفاة موسى، وظهور القائد يشوع أن يستعمل الاسرائيليون الجاسوسية والنساء ، الاساليب التي برعت فيها اجيال بعد ذلك ألتسبت في دعـــوى ارتباط لليهود ولابائهم بعد ان تفتتوا وتشردوا وتميعوا واصبحوا في ظـل تناقضات العصر الحديث . خدما ووشاة ، وجواسيس في كل بلاد العالم ضد كل ما هو خير ومقدس ، وضد كل ما هو عف وطاهر وكريم :

يقول سفر يشوع من الاصحاح الثاني .

« ... فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سرا قائلا : اذهبا انظرا الارض واريحا فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها « راحاب » واضطجعا هناك . فقيل لملك اريحا هو ذا قد دخل الى هنا الليلة رجلان من بني آسرائيل لكي يتجسسا الارض ، فأرسل ملك اريحـا الى « راحـاب » يقول : اخرجي الرجلين اللذين اتيا اليك ودخلا بيتك ، لانهما قد اتيا لكي يتجسسا الارض كلها » .

واذا كان لاحد ان يقف عند هذا النص لينظر ، فانه قد يجد نفسه امام سؤال ؟ هل اراد المؤلف التوراتي ان يغفل او يتجاوز في اهمال تام ما يمكـن ان يعبر عنه النص الذي بين ايدينا من هزال هذا التدوين الصريح الذي وقع فيه حين افصح في غير قصد منه عن جوانب الخطيئة والوشاية والجاسوسية في تاريخ بني اسرائيل ؟ ومن مثل هذه الايات بانه كان كذلك الكبار منهم تملأ الخطيئة قلوبهم وجوارحهم فان في النص التوراتي معاني غريبة عجيبـــة سجلتها التوراة دون قصد من المؤلف التوراتي ، بل وفي سهو كامل منـه ، ذلك ان النص قد افاد ان شعب الارض العربية في فلسطين وما جاورهـا قد ادرك خطر الغزو الاسرائيلي والنيات المبيتة والدعاوى المضللة منذ تحـرش بهم الاسرائيليون على مشارف الارض وابتداوا الاعداد للغزو من المنطقـــة الواقعة من الارض التي تقع في جنوب سيناء الى الشرق منها ، فما ان علم الرجل العربي الذي وكل اليه امر قيادة القبائل العربية في مواجهة هـــذا الخطر الرابض على الحدود بان هناك من الجواسيس الاسرائيليين مجموعة عند امراة خاطئة ومنحرفة ومأجورة ، الا وابلغها كما عبرت التوراة فيمـا اوردته في النص الذي سقناه ، كلمة تبين تاريخيا على لسان التوراة ان العرب منذ عصر حركات الغزو الاسرائيلي الاولى والتي روج لها القوم قديما على اساس المعاني التي كان يمكن ان تكون تحذيرا لمن يقف عقبة امام نيات بني آسرائيل ومقاصدهم ، لم يستسلموا لحركة الغزو واستعدوا للمواجهة

تماما ، واعتبروا وحدة تراب الارض العربية مسألة بالنسبة لهم ـ كما تعبر اليوم في القضايا الدقيقة ـ مسألة حياة او موت والنص التوراتي الذي اوردناه هنا فيما نورده عن الرجل العربي الذي «سمته التوراة «ملك اريحا» يقول حسبما تسوق الرواية التوراتية عن المرأة الخاطئة التي اوت الرجلين الجاسوسين : « اخرجي الجاسوسين اللذين آتيا اليك ودخلا بيتك ، لانهما قد اتيا لكي يتجسسا الارض كلها » . « الارض كلها » حقيقة عربية ووحدة تراب الارض كلها ، حقيقة عربية رغم زيف الصنعة التوراتية لم يستطع المؤلف التوراتي ان يشجب هذا المعنى العربي المرتبط بتاريخ القوم منذ سكنوا الارض العربية قبل غيرهم ، واستوطنوها ودافعوا عنها وارتبطوا بها ، ولم يستجيبوا للتيارات الدخيلة عليها .

واخيرا ، يعرف يشوع اخبار الارض ، ويستطيع الوقوف بالجاسوسية على اسرار المدينة العربية ابتداء من اريحا وكل غرب الاردن ، ثم يوجه اثناء زحفه اوامر لرجاله ، جعل ادوات تنفيذها صورا من فحش القتال وبشاعته ومن يطلع على اوامر يشوع في القتال يرى صورا من اعجب العجب بل يستحيل انسانيا تقبلها او الوقوف على تفاصيلها ذلك انها تفوق في هولها واساليب التخريب والتدمير المرتبطة بها كل ما هو مألوف ، حتى في عنف الاساليب الاستعمارية في القرن العشرين .

ومن عجب ان القوم الذين كانوا منذ عهد قريب يلوكون دعوى النبوة والقداسة ودخول الارض المقدسة ، بدعوى ان كل ما هو امامهم يفيض خيرا وسلاما ولبنا وعسلا على حد تعبير التوراة وهؤلاء هم القوم الذين ارادوا بالامس بعد وفاة النبي والضياع والتفتت غزو الارض والاستيلاء عليها ومن اجل هذا قد ارسلوا جواسيسهم ، لتكون الخطيئة والفاحشة اداة لهم في تحقيق مقصدهم ، ثم يعودون لتنفيذ خطة الغزو . ومن عجب فان المعنى الذي يخرج من بين ما ساقه يشوع من اوامر وتوجيهات القوم المتحفزين للغزو والاغارة وسجلته التوراة على لسان قائد عملية الغزو وهو ان الرب الاله ليس اكثر من سيف بقبضة قوية او درع حديدي في ايدي القوم وتحت قيادتهم لان الله لهم وحدهم فان مثل هذا التصور لا يكفي بل ان المعنى المباشر فيما القاه يشوع الى القوم من اوامر هي : ان الرب غدا يحمل سيفا بتارا ليقطع رقاب سكان الارض واصحابها من اجل دخولهم الارض وسيطرتهم عليها .

ولا ندري ونحن امام كل هذا الخلط من الدعاوى الفارغة في دين القوم ومعتقداتهم ، لم كانت الجاسوسية اذن في محاولة الوقوف على آسرار

الارض وحالها لتتيسر عملية الغزو طالما الرب الاله غدا حين المعركة في القتال قائدا مع بعض من عباده ضد البعض الاخر ؟؟؟

يقول سفر يشوع من الاصحاح الثالث :

« وقال يشوع للشعب تقدموا لان الرب يعمـــل غدا في وسطكـم عجائب » .

ومن العجائب هذه انه في ظروف الاستعداد للمعركة وعملية الغـزو ان تصبح العلاقة بين هذا اليشوع وبين الله كأنها علاقة من اجل المعركة فقط بين القائد العام واحد قواد جنده .

يقول نفس الاصحاح المذكور (١) .

« ... فقال الرب ليشوع ، اليوم ابتدىء اعظمك في اعين جميع اسرائيل لكي يعلموا اني كما كنت مع موسى اكون معك » .

كما كنت مع موسى اكون معك : هكذا في دين بني اسرائيل تتساوى العلاقة الدينية فيما ترويه التوراة بين النبي الرسول موسى وبين واحد من اتباعه انحرف عن تعاليمه وشوهها ثم مارس في قيادة القوم اساليب الدعارة والجاسوسية والوشاية والقتل ، وفي النهاية فمنزلته ومكانته عند الرب مثلما يكون النبي الرسول العف .. نقول ونؤكد انها الصنعة الدينية في مراحل التصنيف عند القوم حين كان يكتب كل مسجل وقصاص على هواه وفي خدمة المصلحة التي يعمل من اجلها ، وابتغاء تحقيقها .

واخيرا في عملية الغزو المسلح لاحتلال فلسطين بقيادة يشوع بن نون يعبىء يشوع مشاعر جنده بكل معاني القتل والسفك والتدمير والابادة قبل الدخول في المعركة ليضمن نتائجها امام سكان الارض الامنين .

يقول نفس الاصحاح :

« تعلمون ان الله الحي في وسطكم وطردا يطرد من امامكم الكنعانيين والحيثيين والحويين والفـرزيين والجرجاشيين والاموريين واليبوسيين » .

لماذا ؟ لست ادري واظن انه كذلك انه ليس يدري مؤلـــف التوراة ومسجلها ، لماذا يطـرد الــرب ــ وهو رب الجميــع ــ كل هذه الطوائــف والشعوب من الارض التي استقرت بها وارتبطت بها دون سابق عليهم من اجل بني اسرائيل وهم الذين القوا الغربة والارتكان الى عديد المواقع والبلدان

---

(١) سفر يشوع ــ الاصحاح الثالث .

منذ عصر الجد الاعلى ابيهم ابراهيم والاب المباشر ، يعقوب عليهما السلام حتى لما تكاثروا في مصر واضطروا للفرار منها قالوا « ليتنا بيد الرب في ارض مصر .

لماذا يطرد الرب كل هذه الطوائف من سكان الارض من اجل بني اسرائيل وهم الذين لما انصرف عنهم نبيهم لبعض شئون دينه استراحوا منه وتمنوا عدم عودته ، وقالوا : « انصرف الرجل موسى عنا » لماذا وهم الذين رفضوا ايات الدعوة التي وجهها اليهم موسى في مصر ثم رفضوها ايضا في كل مراحل الهجرة ، وتنكروا لها وتمردوا عليها وقالوا صراحة وفي سخط : « ... الرب بسبب بغضته لنا اخرجنا من مصر لكي يهلكنا على ايدي الاموريين » .

لسنا ندري السر في كل هذا الاختصاص المدعى ، قوم يقولون على ربهم ، انه هالكنا لا محالة ، ثم ينزل الرب ببركته او بنفسه حسب الرواية التوراتية جنديا وسط القوم ليضرب من امامهم البشر ويسوقهم الى الهلوية كأنه يسترضيهم حتى لا يبقى شعب اسرائيل يردد ويكو « ... الرب بسبب بغضته لنا ، اخرجنا من مصر لكي يهلكنا على ايدي الاموريين » ؟؟

ومن عجب ان هذا النمط من التسجيل الديني يجد له في بعض جوانب المعتقد الديني عند بعض مصادر التاريخ الديني على ضوء فهم البعض له استجابة وتفهما ، وهو كما هو واضح صنعة تدوينية يعوزها وحدة الموضوع فضلا عن مثالية التعقد .

ان قصة زحف بني اسرائيل على غرب الاردن الذي هو ارض كنعان على ما تفيده عبارة الاسفار وسيرتهم فيه بقيادة يشوع وفي ظل وتوجيه الخطة الرهيبة العدرانية التي ذكرناها مذكورتان في سفر يشوع الذي يأتي في الترتيب بعد سفر الثنية .

وهو اربعة وعشرون اصحاحا في ثلاث واربعين صفحة . وفيه هو الاخر كثير من المبالغة والخيال بل والتناقض ولكن فيه شيئا كثيرا من الحقيقه فيما نرجح وعبارته تدل على أنه كتب بعد يوشع بمدة ما قد تكون طويلة ، فيثبت الروايات المتداولة بالخيال والمبالغة والتناقض نتيجة لذلك .

ويحكي اصحاحه الاول خطاب الرب ليشوع وامره بعبور الاردن الى

الارض التي اعطاها لبني اسرائيل ووعده له بالتأييد وحثه اياه على الشجاعة والتمسك بالشريعة . ومما قاله له الرب كما جاء فيه ، « كل ما كان تطؤه اخامص ارجلكم اعطيته لكم كما قلت لموسى من البرية ولبنان ، هذا الى النهر الكبير نهر الفرات والى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس تكون تخومكم » في حين ان الموقف كان عبور الاردن الى ضفته الغربية بحيث يمكن ان يقال ان هذا التوسع في التحديد متأثر بما كان من وقائع متأخرة .

وقد حكى الاصحاح ان يوشع طلب من اسباط جاد وراؤبين ومنسى الذين ورثوا الاراضي المفتوحة في شرق الاردن الاستعداد لمساعدة اخوانهم في العبور الى غرب الاردن واحتلاله حسب الاتفاق بينهم وبين موسى فلبوا الطلب .

وكانت اولى حركات يوشع نحو مدينة اريحا التي هي اولى مدن الضفة الغربية . وقد حكت الاصحاحات من الثاني الى السادس من السفر تفصيل هذه الحركات الذي شابه كثير من الخيال وخلاصته ان يوشع ارسل جاسوسين الى المدينة فنزلا في بيت بغي اسمها راحاب وبيتها ملاصق للسور فعلما منها ان الذعر استولى على الناس من اخبار بني اسرائيل ثم سهلت لهما الفرار فعادا واعلما يوشع بما علما فتشجع وامر بعبور النهر في موكب ديني خاشع فجمد الماء تحت أقدامهم ثم وقف الموكب امام الاسوار المقفلة ، وطاف حولها بأمر الرب سبعة ايام وفي كل يوم سبعة اطواف وهو يهتف بالرب وينفخ بالابواق وفي اليوم السابع سقطت الاسوار بمعجزة ربانية فدخل بنو اسرائيل المدينة واستولوا عليها . وقد نذر يشوع أن تكون المدينة وما فيها مبسلة للرب اي مبادة مدمرة لوجه الله سبحانه وتعالى باستثناء الذهب والفضة والنحاس والحديد لخزانة الرب ، والبغي واهلها ومالها لان الجاسوسين وعداها بالنجاة وحلفا لها . وحظر اخذ شيء منها غنيمة . فلما دخلوها قتلوا جميع من فيها من رجال ونساء واطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير واحرقوها كما امر يشوع باستثناء المعادن والبغي واهلها . ثم دعا يشوع بعد ذلك قائلا ملعون لدى الرب الرجل الذي ينهض ويبني هذه المدينة .

وكانت حركة يوشع الثانية نحو مدينة العي التي كانت من منازل ابراهيم على ما ذكره الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين والتي هي في طريق نابلس ــ القدس من ناحية الشرق الموالية لغور اريحا .

وقد قص الاصحاحان السابع والثامن قصة استيلاء بني اسرائيل على هذه المدينة بما خلاصته ان يوشع ارسل من تجسسوا عليها فرجعوا وهونوا من شانها وارتأوا ان يصعد اليها عدد قليل فصعد ثلاثة الاف فخرج عليهم اهل المدينة وهزموهم وقتلوا منهم فذاب قلب الشعب ــ بنو اسرائيل

ـ وصار كالماء وحثا شيوخهم التراب على رؤوسهم ومزق يوشع ثيابه وسقط على وجهه وخاطب الرب قائلا : « لماذا اجزت هذا الشعب الاردن لتسلمنا الى ايدي الاموريين حتى يبيدونا . ياليتنا ارتضينا واقمنا بعبر الاردن . واذا سمع الكنعانيون وسكان الارض بما صار احاطوا بنا ومحوا اسمنا من الارض » وهذا موقف تكرر كثيرا من بني اسرائيل ازاء ما كان يقف امامهم من عقبات او يلقونه من عنت ومقاومة كما كان شأنهم في حياة موسى . وقد ذكر الاصحاح السابع ان الرب اخبر يشوع بانه انما خذلهم لان احدهم سرق من غنائم اريحا بعض سبائك من الذهب والفضة فامر برجمه . وحينئذ وعده بالنصر فارسل جيشا عظيما مع ذلك من ثلاثين الف محارب . وخرج ملك العي بجيشه لصدهم فوقع في كمين ودارت عليه الدائرة بمعجزة ربانية فانهزم فطارده بنو اسرائيل وقتلوا جميع رجاله واسروه وصلبوه على باب المدينة ثم دخلوها وضربوها بحد السيف ، وكان عدد القتلى من رجال ونساء ١٢٠٠٠ ثم امر يشوع باحراق المدينة بعد ان استولى على جميع ما فيها من اموال ومواش حسب امر الرب كذلك .

وقد ذكر الاصحاح التاسع بعد ذلك حادثا عجيبا خلاصته ان اهل مدن جبعون وكفره وبثروت وقرية بعاريم ــ وهذه في منطقة نابلس على ما تدل عليه اسماء القرى التي تقوم مكانها اليوم ــ لما سمعوا بما حل باريحا والعي ارسلوا وفدا الى يوشع يعرضون ولاءهم ويطلبون عهد امان ، وادعى الوفد انه يتكلم باسم مدن بعيدة جدا ولبس ثيابا بالية ونعالا مرقعة وحمل زادا يابسا للتدليل على ذلك فأجابهم يوشع الى ما طلبوا لان من مقتضى الخطة ان يقبلوا مسالمة المدن البعيدة جدا وحلف لهم رؤساء الجماعة . غير انهم لم يلبثوا ان عرفوا ان هذه المدن قريبة جدا منهم وان الوفد خدعهم ولما كانوا قد حلفوا لهم فاكتفوا بان قرروا ان يكون اهلها محتطبي حطب ومستقي ماء للجماعة ولمذبح الرب في الموضع الذي يختارونه .

وحكى الاصحاح العاشر ان ملك اورشليم اموني صادق لما راى ما فعل بنو اسرائيل في اريحا والعي وراى ما كان من خوف اهل جبعون ورفاقهم مع ان مدينتهم كانت عظيمة ورجالهم جبابرة خشي من عاقبة روح الهزيمة فاستدعى هوهام ملك حبرون وفرام ملك يرموث ويافيع ملك لاكيش ودبير ملك عجلون ــ والملوك الخمسة ، اموريون كما وصفهم الاصحاح ــ وعرض عليهم التحالف ضد جبعون فوافقوا وزحفوا عليها فارسل اهلها يستنجدون ببني اسرائيل فزحف يشوع على راس المحاربين واشتبك مع الملوك وهزم

قواتهم بعد ان قتل منها عددا كبيرا واسر الملوك الخمسة وشنقهم . وهذه الواقعة هي التي زعم الاصحاح المذكور ان الشمس وقفت بدعوة يشوع حتى تم له النصر . ثم ذكر الاصحاح ان يشوع ، فتح مدينة مقيدة في هذه المحلة وقتل ملكها وجميع سكانها حتى لم يبق منهم باقية ، وفعل مثل ذلك بلبنة ثم بلاكيش . وصعد هورام ملك جازر لنصرتها فضربه يشوع هو وقومه حتى لم يبق منهم باقية ثم فعل مثل ذلك بعجلون وحبرون ودبير واستولى على مدنهم وقراهم . وقد قال الاصحاح بعد ذلك وفي نهايته : ان يشوع ضرب جميع ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وابسل - اهلك - كل نسمة كما امر الرب ولم يبق باقية منهم فضربهم من قادش برنيع الى غزة وانتصر عليهم لان الرب كان يحارب مع اسرائيل .

وذكر الاصحاح الحادي عشر ، ان يابين ملك حاصور لما سمع بما وقع ارسل الى يوباب ملك مادون والى ملك شمرون وملك اكشاف والملوك الذين الى الشمال في الجبل وفي الغور وفي السهل وفي بقاع دور غربا والى الكنعانيين شرقا وغربا والى الاموريين والجبليين والفرزيين واليبوسيين في الجبل والحويين تحت حرمون في ارض المصفاة . فخرجوا بكل جيوشهم في خلق كثير مثل الرمل الذي على البحر كثيرة وخيل ومراكب كثيرة جدا ونزلوا على مياه ميروم لمحاربة اسرائيل . وشجع الرب يشوع وقال له غدا اجعلهم صرعى امام اسرائيل . فخرج يشوع بناء على ذلك فاسلمهم الرب الى ايديهم فضربوهم وتعقبوهم حتى لم يبق منهم باقية . وقد عرقب يشوع خيلهم واحرق مراكبهم بالنار بناء على امر الرب . ثم عاد وافتتح حاصور وقتل ملكها وكانت قديما راس جميع تلك الممالك . وقتل كل نفس فيها واحرقها بالنار . واخذ كل مدائن اولئك الملوك مع ملوكها وضربهم وأبادهم كما أمر موسى . وقد اخذ بنو اسرائيل جميع غنائم هذه المدن وبهائمها .

وهكذا ملك يشوع تلك الاراضي كلها الجبل وكل الجنوب وجميع ارض جوشن والسهل والغور وجبل اسرائيل وسهلهم من الجبل الاملس الممتد جهة سعير الى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون ولم تسالم اسرائيل الا جبعون وقد قسى الرب قلوب الباقين حتى يبسلهم بنو اسرائيل ويستاصلوهم . وجاء يشوع في ذلك الوقت وقرض العناقيين من الجبل من حبرون ودبير وعناب ومن سائر جبل يهوذا وجميع جبل اسرائيل ولم يبق عناقي الا في غزة وجت واشدود .

والمبالغة بادية في ما ذكرته الاصحاحات . وفي سفر القضاة نصوص تنقض كثيرا من ذلك حيث ذكرت حوادث حرب ونضال وقعت بعد يشوع بين بني اسرائيل وغير واحد من الملوك والمدن والشعوب التي قالت الاصحاحات ، ان يشنوع ابادها واحرقها ولم يبق منها بقية .

والمتبادر ان السفر قد دون بعد يشوع بمدة غير قصيرة خلط كاتبه الحقائق بالخيال والمبالغة ويلحظ ان الاصحاحات سمت بعض المواقع باسم جبل اسرائيل وسهلهم وباسم جبل يهوذا مع ان هذه المواقع لم تكن تسمى بهذه الاسماء حتما حين الاستيلاء عليها حيث يؤيد هذا أن السفر قد دون كما قلنا بعد يشوع بمدة غير قصيرة وحينما صارت هذه المواقع تعرف بهذه الاسماء ...

وقد ذكر الاصحاح الثالث عشر ان يوشع هتف لربه قائلا : انه شاخ وانه بقي ارض كثيرة جدا للامتلاك وهي كل بقاع الفلسطينيين وكل ارض الجشوريين من الشيحور الجاري في مصر الى تخم عقرون شمالا وهي ارض الكنعانيين وارض اقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزي والاشدودي ــ اسدود اليوم ــ ولا شقلوني ــ عسقلان اليوم ــ والحبتي والعقروني وارض العويين ومن الجنوب كل ارض الكنعانيين ومعارة التي للعيدونيين الى افيق تخم الاموريين وارض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد تحت حرمون الى مدخل حماة وان الرب وعده بانه سيطردهم من وجه بني اسرائيل ثم امره بقسمة الارض على الاسباط التسعة والنصف .

والعبارة تفيد ان في ذلك الاجمال الذي ورد في الاصحاح الحادي عشر شيئا من المبالغة والتزيد لان مواقع عديدة من التي ذكر الاجمال انها دخلت في حيازة اسرائيل بقيادة يشوع قد ذكرت ضمن هذه المواقع على ما يظهر من المقابلة . وهذا بالاضافة الى ما كان من واقع بقاء كثير من الاقوام والممالك والمدن التي ظلت ممتنعة عليهم ، في غرب فلسطين وشمالها وجنوبها وما كان من واقع التصاول بينهم وبين بني اسرائيل في عهد القضاة ومن جملة ذلك ممالك وملوك ودول ذكر سفر يشوع انها مما استولى عليه بنو اسرائيل وابادوه ، وما كان من تقريرات سفر القضاة كذلك ببقاء كثير من الامم بين ظهراني بني اسرائيل في المناطق والمدن التي استولوا عليها على ما سوف نذكره بعد .

وقد قسم يشوع المدن والقرى على الاسباط التسعة والنصف بالقرعة . واحتوت الاصحاحات من الثالث عشر الى التاسع عشر اسماء المدن والحدود التي كانت من نصيب كل سبط .

والمدن كثيرة جدا وقد ذكر انه كان لكل مدينة قرى كثيرة تابعة لها حيث يدل هذا على ما كان من ضخامة العمران في غرب الاردن وازدهاره وعلى ان بني اسرائيل انما عاشوا عليه . واليك ثبتا باسماء المدن مصداقا لذلك : قبصئيل ـ عبدر ـ ياجور ـ فينة ـ ديمونة ـ عدعده ـ قادش ـ حاصور ـ ثينان ـ زيف ـ طالم ـ بعلوت ـ حاصور ـ الحديثة ـ قريوت ـ حصرون ـ امام ـ شماع ـ مولاده ـ حصر ـ جده ـ حشمون ـ بيت فالط ـ حصر شوعال ـ بئر سبع ـ بزبوتيه ـ لباؤوت ـ شلحيم ـ عين ـ رمون ـ اشتاؤل ـ صرعة ـ اشته ـ زانوح ـ عين جنيم ـ تفوح ـ عينام ـ يرموث ـ عدلام ـ سوكو ـ عزيقة ـ شعرائيم ـ عدتيائيم ـ جديرة ـ جدير ـ نائيم ـ صنان ـ حداشة ـ مجدل جاد ـ دلعان ـ المصفاة ـ يقتبيل ـ لاكيش ـ بصقه ـ عجلون ـ كبون ـ لحمام ـ كتليش ـ جديروت ـ بيت داجون ـ نعمه ـ مقيده ـ لبنه ـ عاتر ـ عاشان ـ يفتاح ـ اشنه ـ نصيب ـ قعيلة ـ اكزيب ـ مريشة ـ عقرون ـ اشدود ـ غزة ـ شامير ـ يتير ـ سوكو ـ دنه ـ سنة ـ عناب ـ اشتمو ـ عانيم ـ جوشن ـ حولون ـ جيلو ـ أراب ـ دوته ـ اشعان ـ ينوم ـ بيت تفوح ـ افيته ـ حمطه ـ اربع ـ سيعور ـ معون ـ كرمل ـ زيف ـ يوطه ـ يزرعيل ـ يقدعام ـ زانوح ـ القاين ـ جبعه ـ ثمنه ـ حلحول ـ بيت صور ـ جدور ـ معرات ـ بيت عوت ـ تقون ـ بعل ـ اديماريم ـ الربه ـ بيت العربة ـ مدين ـ سكاكه ـ نبشاه ـ مدينة الملح ـ عين جدي ـ اريحا ـ لوز ـ عطاروت ـ بيت حرورون ـ وجملتها نيف ومائة وعشرون مدينة وربما كان عدد القرى التابعة لها الفا او نحو ذلك . وكثير من اسماء المدن باق اليوم بشيء من التعديل ومطلق على قرى وخرائب في مختلف انحاء فلسطين . واللمحة العربية القديمة بادية على الاسماء ، مما يؤكد ان منشئيها الاولين هم من الارومات العربية على اختلاف اسمائها .

على ان عبارة الاصحاحات تفيد ان مناطق ومدنا كثيرة مما وقع في انصبة الاسباط التسعة والنصف لم تكن كلها مما استولى عليه بنو اسرائيل بقيادة يشوع حيث كان منها ما استولوا عليه وكان منها ما ظل في حوزة أهله في حياة يشوع ولم يستول عليه بنو اسرائيل الا بعده ، بل ومنها ما لم يستول عليه بنو اسرائيل ويصبح لهم موطنا مستقرا قط كبلاد الفلسطينيين في الجنوب .

ومما ذكره الاصحاح الثامن عشر ان جماعة اسرائيل التأمت في شيلو التي يخمن مفسرو الاسفار انها مكان الخربة المسماة اليوم باسم سيلون او سلوان الواقعة على اثني عشر ميلا من جنوب نابلس ، ونصبوا خباء المحضر فيها حيث اصبح هذا الموقع كما يبدو من العبارة عاصمتهم الدينية والمدنية في حقبتهم الاولى .

ثم ذكر الاصحاح العشرون ان بني اسرائيل قدسوا ست مدن لتكون مدن ملجأ حسب الشريعة يهرب اليها القاتل الى ان يحاكم او الى ان يموت الكاهن الاعظم الذي وقع القتل في حياته اذا كان القتل خطأ ، بأمر يشوع استنادا الى امر الرب ، وهي قادش في الجليل في جبل نفتالي وشكيم في جبل افرائيم وقرية اربع وهي حبرون في جبل يهوذا في غرب الاردن وباصر في البرية وراموت في جليعات وباشان في شرق الاردن . وعبارة الاسماء تدل على ان السفر كتب بعد يوشع بمدة ما لان بعضها سمي بأسماء اسرائيلية نتيجة للقسمة .

ثم ذكر الاصحاح الحادي والعشرون خبر طلب اللاويين تخصيص مدن لهم يسكنونها مع محاجرها لبهائمهم حسب امر ورد في الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر العدد فتخلى كل سبط من الاسباط عن بعض المدن التي كانت من نصيبه فوزعها يوشع بالقرعة على عشائر اللاويين وكانت ثماني واربعين مدينة موزعة في مختلف انحاء الارض .

ثم صرف يوشع اسباط راؤبين وجاد ونصف منسى الى املاكهم في شرق الاردن بعد ان تمت الحركات التي امكن القيام بها في ارض كنعان وتمكن الاسباط من امتلاك ما امتلكوه منها بعدما باركهم ووصاهم وتمنى لهم النمو والكثرة على ما ذكره الاصحاح الثاني والعشرون . وقد اخذوا معهم نصيبهم من غنائم ارض كنعان وكان مقادير كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والنبات .

ومما ذكره هذا الاصحاح ان الاسباط الثلاثة المذكورة انشأت بعد عودتها مذبحا عظيم المنظر على الاردن قبالة ارض كنعان فاستاء بقية الاسباط في هذه الارض من ذلك واجتمعوا في شيلو ليصعدوا ويقاتلوهم لانهم اعتبروا عملهم زيغا وتمردا على ذلك وانقساما دينيا . ثم ارسلوا اليهم وفدا ينذرهم ويحذرهم ، وقد اكد الاسباط الثلاثة للوفد حسن نيتهم وتنصلوا من الزيغ والتمرد وقالوا انهم انما اقاموا المذبح ليكون

شاهدا بين الفريقين على وحدة التقاليد والعقائد لئلا ينكر احفاد بني اسرائيل في ارض كنعان على احفادهم نصيبهم من الرب ويقولوا ما لكم وللرب وهو اله اسرائيل وقد جعل الرب فاصلا الاردن بيننا وبينكم فاقتنع الوفد بحسن نيتهم ويدل هذا الحادث على ان فكرة الاختصاص قد خوفت بدورها اقلية بني اسرائيل انفسهم من اكثريتهم .

وفي الاصحاحين الثالث والعشرين والرابع والعشرين ان يوشع جمع شيوخ بني اسرائيل ورؤساءهم وقضاتهم وعرفاءهم وذكرهم بما كان من عناية الرب بهم وقرضه لاعدائهم واسكانهم في ارضهم مع ما هم عليه من قوة وكثرة لان الرب هو الذي كان يحاسب عنهم ، ووصاهم بالتمسك الشديد بكل ما في توراة موسى ومن ذلك عدم الاختلاط بالامم الباقية معهم وذكر الهتها والسجود لها ، وانذرهم بوخيم العواقب ونكال الرب اذا هم فعلوا ، وان الشعب وعده بذلك فاشهدهم على انفسهم وسجل عهدهم في سفر التوراة واخذ حجرا كبيرا فاقامه تحت البلوطة التي عند مقدس الرب ليكون شاهدا عليهم . ثم ذكر الاصحاح الرابع والعشرون بعد ذلك خبر موت يوشع بعد ان بلغ مائة وعشر سنين ودفنه في ارض ميراثه في ثمنة سارح التي في جبل افرائيم — قرب نابلس اليوم — ثم خبر دفن عظام يوسف في شكيم — نابلس ايضا .

طبيعة العدوان في العلاقات اليهودية

واضح من المصدر العلمي الذي استشهدنا بما جاء فيه للتدليل على طبيعة الصنعة التدوينية وتأثير عمليات الغزو العدواني في روح النص الذي تعرض له المؤرخ العربي محمد عزة دروزة في الكشف عن منشأ العلاقة التاريخية الغازية عند بني اسرائيل والتي قادها يوشع بن نون كما تصوره التوراة لا تعبر هذه النشأة عن شكل من اشكال الدعوة الدينية او الارتباط بقداسة عقيدة واصطفاء ارض دون غيرها . وانما الطبيعة العدوائية في التكوين الغرائزي المتوارث عند بني اسرائيل والرغبة في السيطرة والسيادة العنصرية هي التي كانت تقود عمليات الغزو الاسرائيلي القديم لفلسطين .

وتبدأ العلاقة التاريخية الغازية لبني اسرائيل في فلسطين بعد المرحلة الحرجة التي تعرض فيها شعب فلسطين لعملية الغزو التي قاد فيها يشوع بن نون ارذل عملية همجية في تاريخ الحروب ، ويكفي فوق كل ما يمكن ان يقال حول شخصية الرجل آيات التوراة كسجل في التعبير عن

تاريخ القوم ومعتقداتهم فانها هي التي تقول : انه هو الـذي كان يقـول لجنوده حين الغزو لفلسطين امرا وموجها : احرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها ، اقتلوا كل رجل وامراة وكل طفل وشيخ حتى البقـر والغنم بحـد السيف ، احرقوا المدينة بالنار على كل منها .

وامام هذا التحـدي العنيف وهذه الاندفاعة العميـاء بهذا الاسلوب الغازي القائم على زيف دعوى الدين وبهيمية الطبع فان أباء الشعب العربي ونخوته ، قد جعلت كل الطوائف العربية تهب تواجه الغزو في وحدة قومية حتى امكن لهم صده بالفعل ومحـاصرة الخطر مرحلـة طويلـة في منطقـة « اريحا » الى الحد الذي يئس فيه الاسرائيليون ، واوشكوا على الافـلاس نهائيا وظهرت بين صفوف القوم حالات الخيانة والجبن والهرب من القتال وعدم القدرة على المواصلة وتجيء التوراة وتقص في غباء روائي ، كي تلقـي في روع المتتبع لمنهجها تقبل السر المتصور وراء حـالات التبلد بل والشلل الذي اصاب الغزاة عقب المراحل الاولى من عمليات الغزو بانه بسبب المعصية وارتكابهم اخطاء نهى عنها الرب .

ومهما يكن من التعليل التوراتي في محاولة تبرير سر عـدم مواصلـة الزحف الاسرائيلي مباشرة على بقية الارض ، بأن سببه المعصية التي وقع فيها القوم فتخلى عنهم الرب ، فانه جدلا لو تقبل اثبات هذه الفرية بالذات من التعليل الواهم حول اسباب الهزيمة ومواقف الجبن الاسرائيلي لكـان ما في التوراة عن مرحلة التكريم المدعى ووجود الرب وسط القوم يحـارب عنهم هو ما يمكن به القول في دلالة واضحة ، بعد ذلك ، وهو ان القوم لـم يفضلوا غيرهم في علاقاتهم بربهم وفي تقبلهم واستجابتهم لدعوته ، ويصبح من الواضح والبدهي انه لا معنى ابدا للاختصـاص والافضليـة التي تروي ودائما ابدا كثيرا في آيات التوراة حول علاقة بنى اسرائيل بربهم دون غيرهم من الناس جميعا .

تقول التوراة في سفر يشوع من الاصحاح السابع :

« وخان بنو اسرائيل خيانة في الحرام » (١) .

يقول نفس الاصحاح من آية اخرى :

« فقال الرب ليشوع قم (٢) ، لماذا انت ساقط على وجهك قد اخطا

---

(١) سفر يشوع : الاصحاح السابع ١ ـ ٢ .

(٢) سفر يشوع : الاصحاح السابع ـ آيات ١٠ ـ ١٤ .

اسرائيل بل تعدوا عهدي الذي أمرتهم به ، بل اخذوا من الحرام بل سرقوا بل انكروا ، بل وضعوا في امتعتهم ، فلم يتمكن بنو اسرائيل للثبوت امام اعدائهم ، يديرون قفاهم امام أعدائهم لانهم محرومون ولا أعود اكون معكم ان لم تبعدوا الحرام من وسطكم » .

سبحان الله ، حتى في التوراة آيات المعتقدات عند القوم وسجل تاريخهم فيها بالنص الذي لا ندري لمَ لم يسرقوه ؟ ولمَ لم يزيفوه ؟ وهو الذي يثبت ان الآباء قبل الابناء لصوصا ومنكرين ومكذبين بل سرقوا بالفعل ، بل انكروا ، بل وضعوا في أمتعتهم ؟؟

أكرر مرة ثانية سؤالي ، كيف تيسر للمؤلف التوراتي وهو المدعي ابدا ، وهو المتقول ابدا ، وهو صاحب الاوهام في دعوى العنصرية والسيادة والقربان والتطهر والقداسة للذين يتحدث عنهم من بني اسرائيل ، وكيف تيسر للمؤلف التوراتي بعد ذلك ان يجيء ويتكلم عن علاقة الله الخاصة ببني اسرائيل ، وكأن الله لهم وحدهم ، ولهم المشيئة وحدهم في تحديد علاقاتهم بربهم ، فان شاءوا ان يتمنوا او يغضبوا فلهم كامل الحرية ومنتهى الارادة ثم ان طالبوه يجيء في وسطهم جنديا يضرب بالسيف مثلهم، وان تركوه دون عبادة ، بل عبدوا المصلحة والهوى ، فيأتي هو اليهم ، يتقدم بالرجاء في ان يتوب القوم الممتازون ، ويرجعون اليه لانهم أفضل الناس واكرم ما خلق ومن خلق ، بل لانهم وحدهم الناس ، مثلما يقول الحاخام اليهودي « باربانيل » الذي حمل هذا الميراث المدعي زيفا وبهتانا وردد كما ادعى القوم من قبل : « الشعب المختار فقط يستحق الحياة الابدية واما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير » . و « باربانيل » هذا الحاخام اليهودي لم يكن فيما قاله مجتهدا او ممجدا لبني جنسه او يسرق دعوى تساعد على العمل فيها الظروف والمناسبات انما كان تلميذا لاولئك الذين ذهبوا منذ عصر مبكر جدا حين كانوا يشرحون ما دون في كتاب التوراة ، كي تكون الآيات الجديدة كفكر في التوراة تسجل في التلمود ، دعوى العنصرية والامتياز ، كعقيدة جديدة من اجل العمل للسيطرة اليهودية على الحضارة الانسانية بأسلوب العنصرية المدعاة .

وكي تكون هذه الآيات تأويلا وتفسيرا لما جاء في هذه التوراة . وكان من بين ما سجل القوم من آيات المعتقد القديم في تفسيرهم له انه « ... اذا ضرب أممي اسرائيلي فالاممي يستحق الموت » .

بل يعمل الخيال المتعصب والمعتمد في ذلك على الاله الرب المرتبط به القوم على اساس من المصلحة والهوى كي يدون للقوم ما يريدون انه : « لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من على الارض ولما خلقت الامطار والشمس ولما امكن لباقي المخلوقات ان تعيش والفرق بين درجة الانسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وباقي الاميين » (١) .

وعلى هذا الطريق كانت البداية المتعصبة للقوم منذ بدأوا يقيمون دعوى العنصرية حتى مراحل الغزو الاولى التي قاومها سكان الارض ورفضوها في اباء وشجاعة .

ومع كل ما يمكن ان يضيفه التعصب في محاولة جمع شمل القوم واستنفار هممهم وتعبئة مشاعرهم في ان يتمكنوا من السيطرة حين الهجرة من مصر الى فلسطين ، فلم يتح لهم ابدا السيطرة او الاستقرار الا بعد فترات طويلة جدا منذ تاريخ الهجرة العامة التي كم تمنى موسى لو تتم ويدخل بالقوم الى فلسطين منذ عام ١٢٢٥ ق.م. الى ان ظهر بينهم بعض الرجال الاقوياء الذين بعد طول ضياع وتفتت جمعوا شملهم واستعملوا مزيدا من اساليب الدس والخداع تمكنوا بهما قبل غيرهما من ان ينالوا بالسطو والاغارة والحرب والتدمير وشن الغارات التوسعية ان يحتلوا ويغزوا بعض الارض في فلسطين ويوسعوها ، ولكن ذلك لم يدم طويلا كشأن كل وجود غريب في حالة من عدم المواءمة مع الطبيعة ومع منطق الحق والحياة .

« التوسع الاسرائيلي القديم في فلسطين » :

بعد معارك وحشية قادها يشوع بن نون الاسرائيلي ، المنعوت عند اكثر القوم فيما كتبوه قديما وحديثا بانه خليفة النبي موسى وفي منهج التوراة خليفة النبي وكليم الله ايضا بعد معارك طويلة ومريرة كان فيها يشوع يعطي أوامره دائما بالقتل والابادة : « احرقوا المدينة بالنار على كل من فيها حتى البقر والغنم والنساء والاطفال والبهائم » . لم يستسلم العرب سكان فلسطين بل انهم اندفعوا كما تقول التوراة في الاصحاح التاسع من سفر يشوع سكان المنطقة العربية كلها وما يحيط بها من عند ساحل البحر الكبير على حد تعبير التوراة من عند لبنان حيث توجد « الجماعات

---

(١) من التلمود في الجزء الخاص بالحديث عن فلسطين والمسمى باسم (المشنا) وقد عثر عليه عام ٢٣٠ م.

الفينيقية والكنعانية والفرزية والحوبيـة واليبوسية ، وجميعهـم عـرب اجتمعوا جميعا معا لمحاربة يشوع واسرائيل بصوت واحد .

وفي الحرب الطويلة التي كانت بين العرب والاسرائيليين تأتي التوراة عند حادثة عملت فيها الخيانة من قبيلة عربية او اسرة ضعيفة لم تستطع مواصلة الصمود امام شرآسة الغازي الاسرائيلي فتمكن من الغزو ، تجعـل سر التقهقر او التقاعس العربي ، هو افضلية القـوم من بني اسرائيـل ، قديما ، وارتباطهم بأفضلية عند الله منذ اختارهم كي يجترّوا على المـدى الطويل دعوى العنصريـة ونقـاء الجنس الاسرائيلي . وامتيـازه بالعنصر والسلالة ، وكي يروجوا للدعوات الخاصة المدعاة ، فمثلا حين كانت عمليات الغزو الاسرائيلي بقيادة « يشوع بن نون » دائرة استسلم ، سكان منطقـة « جيعون » وقابل وفد منهم يشوع ـ هذا على فرض صدق وسلامة رواية العهد القديم ـ وقالوا انا نؤثر السلامة على القتال .

وتجيء التوراة وتجعل من مثـل هذا الحـادث نغمـة دين وتاريـخ دعوى تدق عليهما بعد ذلك كدليل لاستسلام الشعـوب والافراد العـرب لاولئك القدماء من بني اسرائيل الذين كانوا فيما تدعيه التوراة على دينهـا في ترديد نغمة العنصرية التي يتمتع بها الاسرائيليون وحدهم ، سلام الارض وخيرها وايضا وقوتها وبأسها ، مع انها الصنعة التدوينية لتاريخ التصـق التصاقا بقوم لم يكن بينهم وبين ما صنع حواليهم من نعوت الخير والسلام او القوة والبأس أدنى علاقة بل دائما وابدا لا يعمل الواحد فيهم او تتحرك الجماعة منهم الا بالدس والخديعة والتآمر والوشايـة ، صفـات الطبـع والخلق الملتوي ، المرتبطة ابدا بتاريخ القـوم ومعتقداتهم منذ عصر الآبـاء الاول : تقول التوراة من الاصحاح الذي اشرنا اليه .

« واما سكان « جيعون » (١) لما سمعوا بما عمله يشوع بأريحا وعـاي فهم عملوا بغدر ، ومضوا ، وداروا ، واخذوا جوالـق باليـة لحميرهـم ، وزقاق خمر بالية مشققة ومربوطة ، ونعالا بالية ومرقعة في أرجلهم وثيابهم رثة عليهم وكل خبز زادهم يابس قد صار فتاتـا ، وساروا الى المحلـة في الجلجال ، وقالوا له ولرجال اسرائيل من ارض بعيدة جئنا والآن اقطعوا لنا عهدا فقال رجال اسرائيل للحويين لعلك ساكن في وسطي فكيف اقطـع

---

(١) سفر يشوع ـ الاصحاح التاسع : ١ ـ ١٠ .

لك عهدا فقالوا ليشوع عبيدك نحن ، فقال لهم يشوع من انتم ، ومن ايـن جئتم ، فقالوا له من ارض بعيدة جدا جاء عبيدك على اسم الـرب الهـك لاننا سمعنا خبره وكل ما عمل بمصر » .

وحتى على منهج التوراة فيما تقص نرى ان القوم لم يتمكنوا في فترة حياة يشوع بن نون من احتلال فلسطين التي لم تكن تعرف بهذه الحـدود التي صنعها الاستعمار في العصر الحديث ولم يتمكنوا الا مـن جـزء يسير منها منحصر في منطقة « اريحا » ومات يشوع ولم تكن الجملماتالاسرائيلية قد انتشرت في فلسطين .

وواضح مما تصوره التوراة انه رغم الجهود الجبارة التي قام بهـا يشوع والاساليب التي لجأ اليها ، في محـاولات تعبئـة عامـة ليتيسر له امكانية احتلال فلسطين انه اخفق فلم يستطع ولم يتمكن مـن السيطـرة على الارض كلها ولم يغلق القوم جميعهم الا انه بعد وفاة يشوع والاطمـاع عند اولئكالقوم من بني اسرائيلوخاصة عند الذين تولوا قيادتهم لا تقفعند حد ، ولقد كانت هناك محاولات دائمة لتطويق ارض فلسطين وللسيطـرة عليها ، فظلت كنتيجة لهذه المطامع حدة الصراعبين شعب فلسطينبالاضافة الى ما جاورهم من قبائل العرب وبين اليهود قائمة ومستمرة على المـدى الطويل .

وما في سفر القضاة عن هذه الحقبة هـو ما يستفاد منه حتى مـن وجهة النظر التوراتية من ان بني اسرائيل حاربوا أهل تلك الديار من الذين كانت لهم قوة في مناطقهم ومدنهم في غرب الاردن ونجحوا في بعض حروبهم، الا انهم لم يستقروا ابداً فقد كانوا يتعرضون لغارات كثيرة لا تخمد عنـد سكان تلك البلاد ، بسبب انحرافات بني اسرائيل الخلقيـة والاجتماعيـة والدينية (١) . والتي كانت سببا في ان سلط الـرب عليهـم المغيرين مـن اراميين ومؤابيين ومديانيين وعمالقة وبني المشرق . فضلا عن الفلسطينيين الذين استطاعوا في بعض الاجيال قبل ان تدخـل الجماعـات الاسرائيلية الفترة التي انقذتهم فيها حالات النبوة التي ظهرت في تاريخ القوم وهيـأت لعصر الملوك والانبياء ان يستعبدوا بني اسرائيل اربعين سنة ولم يستطيعوا

---

(١) انظر في تفصيل لما كان عليه الحال الديني لبني اسرائيل في عصر القضاة : « تاريخ الامة العربية قبل الاسلام » الجزء الاول للدكتور عبد الفتاح شحاته . الطبعة الاولى عام ١٩٥٧ م. القاهرة .

الخلاص من محاصرة الفلسطينيين لهم ولم يمارسوا حريتهم ويطمئنوا الى تحقيق بعض مطامعهم، كما تملي عليهم امانيهم بالمصلحة والهوى الا حين ظهر بينهم القائد الجماهيري الذي حرفوا سيرته وأضفوا عليه مزيجا من الخرافة والاسطورة حتى تردد كثير من الباحثين في الاطمئنان الى وجود شخصيته التاريخية وهو : « شمشون » .

وحتى في هذه الفترة التي ظهر فيها « شمشون » وهو كما قلنا ، بعض المؤرخين يرفض رواية وجوده التاريخي ، ويميل جمهور كثير من الباحثين الى أن كل ما اثير حوله نسج خيال وأوهام الصنعة الدينية التي تمتلىء بها آيات التوراة ، ولم يستطع الاسرائيليون مواصلة العمل ضد محو الشخصية العربية في فلسطين ، ذلك ان الطوائف العربية من فلسطينيين وادوميين واموريين وكنعانيين ومؤابيين وعمونيين رغم كل ما تعرضوا له من جميع محاولات الحرب والمؤامرات من الاسرائيليين كانوا مستقرين في بلادهم لم يخرجوا منها قسرا او رهبة ولم يهربوا من وجه الغزاة بل كان لهم امام الغزاة وضدهم كل مميزاتهم الشخصية ، الاجتماعية منها والدينية والاخلاق المحلية التي كانوا عليها ، بل لقد كان الفلسطينيون بوجه خاص لهم في جنوب الاردن منعة وسطوة اصحاب قبضة وسيادة (1) .

ويقول سفر القضاة : ان كثرة الغارات التي كان يقوم بها العرب على بني اسرائيل كانت تجعلهم في حال من الفوضى والتخبط يصل بهم احيانا الى درجة انعدام التفكير في مواجهة الفلسطينيين او التعرض لهم .

ورغم الادعاءات التوراتية باعتبارها كما قلنا تدوينا للقوم وسجلا لهم في ان الاسرائيليين قد وسعوا من احتلالهم لارض فلسطين واستولوا على ما جاورها من الاقاليم الا انها التوراة مصدر الاهواء التاريخية في دعوى القوم وزيفهم، فعند تاريخ بني اسرائيل وحوادثهم، تجيء وتتحدث عن الفترة التي توسع فيها الاسرائيليون وامتدت اطماعهم الى مساحات شاسعة فتكشف لنا بعدا جديدا عن غموض وتناقضات الجوانب المظلمة في هذا التاريخ العجيب. وايضا تجيء اللعبة التقليدية بين الشعب الاسرائيلي عند موت يشوع ، فيسأل الشعب جميعه . البار منهم والفاجر الرب الاله : من يتولى قيادة هذا الشعب ويخرج بهم الى الحرب ؟؟

---

(1) انظر : « تاريخ الامة العربية قبل الاسلام » للاستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاته ، الطبعة الاولى عام ١٩٥٧ م. القاهرة .

وفي كل هذه المرحلة لم يستطع الاسرائيليون ان يوفروا لانفسهم استقرارا او امنا في الارض العربية امام مقاومة شعبها لعمليات الغزو ومحاولات الاستيطان فالقوم حتى بعد موت يشوع بن نون وحين الحديث مع الرب للوقوف على معرفة من يتولى امر القوم ليطمئنوا الى شيء واحد وهو الحرب وامكانيات ان يحرزوا فيها نصرا ، لا حديث بينهم وبين ربهم الا عن الحرب ، ومن الحيرة التي تفجع كل دارس يستطلع اخبار القوم في التوراة انه اذا استقامت الامور لهم بالغلبة والنصر فلا رب ولا اله ولا حديث بينهم وبينه ولا دلال يتحدثون عنه ولا وعود ولا اماني وانما انصراف الى الحياة العامة حيث الهوى والمصالح الذاتية أو التقاتل فيما بينهم ، نفاقا وسمرة وعبادة الحس وشغفا بالملذات والارتباط بكل مظاهر التناقض ، وممارسة قيم واساليب الاستغلال الاجتماعي والديني .

يقول سفر القضاة من الاصحاح الاول .

« .. وكان بعد موت يشوع ان بني اسرائيل سالوا الرب قائلين : من منا يصعد الى الكنعانيين اولا لمحاربتهم فقال الرب « يهوذا » يصعد ــ غير ابن يعقوب كما هو واضح ــ قد دفعت الارض ليده فقال يهوذا لشمعون اخيه اصعد معي في قرعتي لكي تحارب الكنعانيين فأصعد انا ايضا في قرعتك فذهب شمعون معه ، فصعد يهوذا ، ودفع الرب الكنعانيين والفرزيين بيدهم فضربوا منهم في بازق عشرة الاف رجل » .

ولم يتيسر للقوم الغزاة رغم كل ما فعلوا خلال فترات طويلة احتلال مدينة « القدس » (١) وهي التي كان يدافع عنها بقية اجيال ابنائها من اليبوسيين وحشود من الطوائف العربية الا بعد ان دخلوا في معارك وحشية من جانب جماعات اسرائيل استعملوا فيها كل سلاح القتل والابادة حتى استغلال النساء في اثارة المحاربين وتعبئة مشاعرهم من جند القوم قد استعمله الاسرائيليون ولقد بلغ بهم الحال في حرب الفلسطينيين ان قادة يهود لم يكونوا بالذي يحافظ حتى على عرضه وشرفه وكل ما يتعلق بالقداسة في سبيل ان تكون حروبهم للعرب الفلسطينيين حرب ابادة وتدمير ، وفيما ترويه التوراة ، انه حين الحرب مع الفلسطينيين هب واحد من قواد الجند،

---

(١) من بين المصادر التي تكشف عن عروبة القدس وفشل كل مراحل الغزو الاسرائيلي القديم لها البحث العلمي الممتاز الذي كتبه فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد السايح في الفصل المعنون : « القدس قبل الاسلام » من الكتاب الذي اصدره مجمع البحوث الاسلامية لسيادته عام ١٩٦٩ بعنوان : « مكانة القدس في الاسلام » ، ص ١٢ـ١٦ .

يطلب الى رجل ان يواصل ضراوة حدة القتال وعنفه ، ليمكن لهم محاصرة احدى القرى وليكون له بعد ذلك ثمن النصر ابنته يتمتع بها كيفما يشاء .

وقد لا يعجب المرء اذا علم انه خلق القوم حتى في ميدان القتال .

تقول التوراة في هذا المعنى صراحة :

« ... وحارب بنو يهوذا اورشليم وضربوها بحد السيف واشعلوا المدينة بالنار ، وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والجنوب والسهل » .

ويمضي سفر القضاة الى أن يقول في غير ما قصد ، مبرزا لجوانب الخطيئة والانحراف وتبرير الفاحشة في خلق القوم وعقيدتهم « .. قال كالب الذي يضرب قرية « سفر » ويأخذها اعطيه « عكسة » ابنتي امرأة » .

اقول ومع كل ذلك فانه امام الغزو الاسرائيلي لفلسطين منذ عصر يشوع لم يستسلم العرب القدامى امام عمليات الغزو أقول لم يستسلم العرب بل هبوا وحاصروا الاسرائيليين في حصونهم وجبالهم وسهولهم وأوديتهم وكل المواقع التي استولوا عليها بالغدر والاغارة وأشبعوهم مقاومة ومطاردة حتى تيسر للعرب امكانية اجلاء ابناء اسرائيل ، الغزاة عن اجزاء كثيرة من الارض العربية (١) ولم تقم لهم بعدها قائمة الا في ظل عهود جديدة كانت للملوك انبياء خدمت الرسالة الدينية في طبيعة انفتاحها واتساع ارجائها ورفضها للافكار العنصرية التعصبية التي يتشدق بها الاسرائيليون اولئك الذين كانوا امام النخوة العربية واباء الشعب العربي ، ورفضه للاحتلال ، قد اوشكوا على الضياع في طول الارض العربية وعرضها لولا قضية الرسالة الدينية قبل اي اعتبار اخر .

سفر القضاء وهو يلقي بعض ضوء على هذه المرحلة يعزو ضياع القوم الاسرائيليين وانفلات الموقف من أيديهم ، بسبب « الحدوتة » التقليدية

---

(١) يغلب على حديثنا فيما يتعلق بفلسطين لفظ الارض العربية على اساس مما هو معروف ومتفق عليه ان فلسطين كوحدة اقليمية لم تكن كموقع سياسي واقليم منفصل له ادارته وشئونه الخاصة ولم يكن لها هذا المعنى اكثر من اربعة آلاف عام وحتى الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ وعلى مدى كل هذا التاريخ وفلسطين جزء من سورية او بادية الشام وهي المنطقة التي تحددها مصادر التاريخ العربي بشرقي وادي النيل . ومن الممكن الرجوع لزيادة التفصيل الى كتاب الدكتور عز الدين فودة ، قضية القدس السابق الاشارة اليه .

حين تحل بالقوم نائبة او تقف في طريقهم عوائق وعراقيل ، او ترفضهم جماعة وتقاومهم امة ، كرد فعل للطبع الملتوي والخلق النهاز : ان الرب غضب بسبب المعصية ، وتدق التوراة دقاتها التقليدية في مسار طويل حول هذا المعنى فما ان يحل الغضب نتيجة المعصية ، الا ويأتي اليه القوم مهرولين ، ليسترضوه من جديد كي يخرجوا بقوة جديدة ، ومن اعجب العجب في الرواية التوراتية ان القوم يعودون الى ربهم بعد المعصية كي يخرجوا بقوة جديدة ضاحكين على ربهم مستغلين علاقاتهم به لانهم كما استقر في نفوسهم وكما الفوا واطمأنوا اليه سيعودون الى ما كانوا عليه دون خوف من انقطاع العلاقة بينهم وبينه ، لأنهم كثيرا ما فعلوا المعصية ، ثم توجهوا للرب حين الحاجة الضرورية ، فنزل بينهم ، واحدا بينهم ومنهم ، وجنديا بسيفه ، وسط القوم حتى يحقق لهم مطلبهم ويرضي رغباتهم ؟

وتفيض كلمات التوراة كثيرا بمثل هذه المعاني وهي تقص ما تحتويه العقائد الاسرائيلية من زيف وبهتان في تحديد علاقات الاسرائيليين بربهم .

والمتتبع لتاريخ الاساطير الشعبية عند الامم والشعوب في مراحل قهرها واندحارها يرى كيف يكون مثل هذا الاسلوب اداة في يد السلطة او الكهانة المغلوبة كل منها على امرها تحاول به استرضاء العامة وتضليلها معا وعلى حد سواء .

« اوضاع القدس في خضم الصراع »

مدينة القدس وما يتصل بها وما يتعلق بموضوعها . لعله لم تحظ مدينة في العالم القديم باهتمامات دراسية مثلها ، ذلك لانها بحكم موقعها الجغرافي كمنطقة قلب وسط المسرح الجغرافي الذي كانت تجري عليه معارك الاطماع السياسية والعقائدية عند بني اسرائيل في القديم قد نالت من الاهتمام الدراسي ما يتفق ومكانتها .

غير ان المشكل الذي يجابه الباحث في التاريخ اليهودي القديم هو لغة التوراة عندما تتحدث عن « القدس » فتجعلها التوراة في مختلف اسفارها مسرح الحركة السياسية والاجتماعية ومقر الاستيطان التاريخي لابناء يعقوب ثم تخلع عليها بعد ذلك اهمية خاصة تنطلق من تصور معتقد يقول ان المدينة عاصمة لمملكة قديمة اقامها نبي الله داود لبني اسرائيل في المنطقة كلها .

مع ان البحث العلمي حول المدينة وتاريخها يؤكد لنا أن المدينة قبل نبي الله داود وبعده بزمان سحيق قبل المملكة المدعاة ، وبعد هذه المملكة المتصورة كانت عربية خالصة .

هذا وقد كان للمدينة تاريخ طويل في تتابع موجات بشرية عليها تحمل معتقدات كثيرة ومتعددة حتى جاء الاسلام فحرر المدينة من الاسر الروماني وظهر وجدان اهلها من العقائد الوثنية المختلفة ، ومنذ الفتح الاسلامي وعروبة المدينة في ظل سماحة الاسلام من الحقائق التي صمدت طوال كل هذه المرحلة من التاريخ ـ منذ الفتح الاسلامي أمام كل موجات الغزو التي حاولت بالعدوان ان تنال من عروبة القدس وقد اهتم الباحثون العرب في الاونة الاخيرة بشأن القدس منذ احتلتها اسرائيل بعد عدوانها على الامة العربية في يونيو عام ١٩٦٧ م .

ومن هؤلاء الباحثين الاستاذ الكبير محمد اديب العامري في كتاب « القدس العربية » ـ الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية ـ الصادر عن دار الطباعة والنشر ـ عمان ـ عام ١٩٧١ م فقد كتب يقول : (١)

دلت الحفريات الاثرية في القدس اليبوسية على وجود معابد خاصة لعبادة وثنية قديمة . ووجدت معابد وثنية تشبه المعابد التي كان يقيمها الكنعانيون لالههم بعل ، وأقام اليبوسيون لآلهتهم معابد مثلها .

وقد بنى اليبوسيون في القدس هيكلا لالههم الاعلى « شالم » على مرتفع الضهور نفسه ، ولهذا اعتبروا المدينة مقدسة ، وسموها ايضا « اورشالم » اي مدينة الاله شالم . وعندما مر ابراهيم بالمدينة في نحو سنة ١٩٠٠ ق.م. أو بعد ذلك ، كانت مقدسة في نظر اهلها . وتشير التوراة الى أن ابراهيم في زيارته تلك للقدس دفع لملكها ، وهو ملكي صادق قيمة العشر من كل ما يملك وبارك ملكي صادق ابراهيم ودعا له قائلا « مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والارض » مما يشير الى ان اليبوسيين كانوا قد ارتفعوا عن دور الوثنية الاولى . وكان ملوك القدس ، شأن اكثر رؤساء ممالك المدن الكنعانية يجمعون وظيفة الكاهن الى عمل الملك ، ولذا كان ملكي صادق يدعى « كاهن الله العلي » . وتشير التوراة ايضا الى قدسية المدينة قبل دخول ابراهيم اليها .

---

(١) صفحات ٢٥ ـ ٢٨ من هذا الكتاب الذي يعتبر واحدا من امهات البحوث الدراسية الدقيقة التي كتبت في هذا الموضوع .

وقدس اليهود المدينة اول الامر على طريقة اليبوسيين وديانتهم . ثم نجد منهم زمن سليمان وبعده من يصبأ عن عبادة يهوه الى عبادة بعل والهة اليبوسيين والكنعانيين الاخرى . والتوراة تشير الى هذا الصبوء (ارميا ٣٢ / ٣٥) . وقد بنى سليمان هيكله على طراز هياكل اليبوسيين والكنعانيين وهذا كله طبيعي لجماعات بدوية اتت من القفر لم تر بعد دينا او حضارة، ولكن مشكلتنا هي الدعاية الصهيونية التي تقلب الحقائق ، وكأن ارض كنعان العربية هي « ارض اسرائيل » منذ الازل ، وكأن الديانة اليهودية هي الاولى والاخيرة .

اما اسماء القدس التاريخية المختلفة ، فقد ورد منها في التوراة اسم « يبوس » ، كما وردت نسبتها الى اليبوسيين ، الذين روت عنهم انهم كانوا يسكنون « اورشليم » وان اليهود لم يقدروا على طردهم ، ولذلك استمر اليبوسيون في سكنى المدينة على الرغم من الغزوة العبرانية .

وسمى اليبوسيون ايضا المدينة « ارسالم » اي مدينة السلام . وقيل ان النسبة هي الى سالم احد شيوخ اليبوسيين . و « اور » تعني المدينة او القاعدة . وفي رواية ان اسم «سالم» او «ساليم» اطلق على المدينة قبل اسم يبوس .

ووردت « اورسالم » في رسائل تل العمارنة ، وهي رسائل كتبت على الواح من الطين بعث بها حاكم القدس العربي عبد حيبا ، وحكام غيره من المدن الفلسطينية والسورية ، يستنجدون بفرعون مصر من هجمات « العبيرو » (العبرانيين) الذين كانوا قد بدأوا يدقون ابواب فلسطين سعيا وراء الرزق والارض ، وذلك خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وورد الاسم « يوري سليموا » في سجلات الملك سنحاريب الاشوري (القرن السابع قبل الميلاد) .

وقد ورد اسم « اورشالم » في التوراة التي كثيرا ما تورده مختصرا «شالم» فقط . ودعاها اليبوسيون والكنعانيون «اورشليم» و «يورشاليم» وقد ورد الاسم على هذا النحو في « نصوص الطهارة » وهي الواح مصرية ترجع الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، اي القرن الذي يظن ان ابراهيم مر اثناءه بالقدس . « ويور » تعني مدينة كذلك . وشالم وشاليم اسم واحد .

واقرب شكل لاسم القدس كما يلفظه اليهود اليوم هو « يروشلايم »

ان هذا هو الاسم الذي عرف عند الاراميين العرب ، الذين كانوا في البلاد قبل ظهور اليهود ، والذين اشتق اليهود منهم ومن الكنعانيين لغتهم العربية. ولما استولى داود على القدس سمى المدينة باسمه ، فأخذوا يدعونها « مدينة داود » وبدأ اسم يبوس يختفي تدريجيا ، ثم اختفى فيما بعد اسم مدينة داود ، وعاد الاسم اورشالم الى المدينة .

وقد وردت معظم هذه الاسماء في التوراة . ويظن الاسم « بازق » الوارد في مطلع سفر القضاة يعني القدس ، نسبة الى ادوني بازق اليبوسي احد ملوك المدينة . وجاء هذا الملك بعد ادوني صادق الذي قيل انه كان ملك القدس حين حاول يشوع فتحها .

وفي اوائل القرن الثاني للميلاد سماها الامبراطور الروماني ادريان « ايليا كابيتولينا » أي « ايليا الحبري » . واليا من ايليوس اسم عائلة الامبراطور وظل الناس يستعملون هذا الاسم مرة ، واسم «اورشليم» مرة وخاصة منذ منتصف القرن الرابع للميلاد . واسم « ايليا » هو الاسم الذي تضمنته العهدة العمرية التي حررها عمر بن الخطاب لاهل القدس عندما دخل اليها سنة ٦٣٨ م .

وبعد الفتح الاسلامي شاعت اسماء « القدس » و « بيت المقدس » و « دار السلام » و « قرية السلام » و « مدينة السلام » .

اما « القدس » فتعني في اللغة العربية الاولى (القديمة) ــ الطهارة كما تعني « المكان المرتفع الذي يصلح للزراعة » . و « بيت المقدس » هي البيت المطهر « اي المكان الذي يتطهر به من الذنوب » . وفي القرآن الكريم « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

واما اسماء « دار السلام » و « قرية السلام » و « مدينة السلام » فانها ترجمات لكلمتي « اورسالم » . و « اور » تعني قاعدة او مدينة . والقاعدة والدار متقاربتان ، وكذلك المدينة والقرية . وسالم بمعنى السلام ايضا .

وكما ادعى اليهود ادعاءات كثيرة تتعلق بانسابهم واعدادهم واعمالهم مما كشف التاريخ ويكشف باستمرار كذبه ، فان لهم ادعاء في تسمية القدس باسم « يراه ــ شلم » . وهم يقولون « ان سام بن نوح قد سماها (شلم)

اي السلام ، وابراهيم سماها (يراه) بمعنى الخوف ، فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعا ، اي (يراة ـ شلم) اي (اورشليم) » والادعاء اسطوري من اساسه كما ترى .

من ذلك نلاحظ ان اسماء القدس كلها عربية الاصول ، يبوسية او كنعانية ، الا حين سماها داود وادريان باسميهما اللذين ذهبا مع الايام . الاسم « اورشليم » اسم كنعاني و «يبروشلايم » تعبير ارامي ، عربي .

كما نلاحظ ان قدسية المدينة عربية الاساس ، فقد دشن اليبوسيون العرب هذه القدسية قبل مرور ابراهيم بالقدس بالف سنة على الاقل ، وهي مقدسة عربية قبل ان يفتحها داود بأكثر من الفي سنة .

أما قدسيتها في نظر العرب المسيحيين منذ اكثر من الفي سنة وفي نظر المسلمين منذ اكثر من الف وثلاثمئة سنة ثم انتشار هذه القدسية في العالمين المسيحي والاسلامي فأمره معروف .

« القدس بين التراث العربي والتزييف الاسرائيلي »

نظرا للقيمة التاريخية والعقائدية « للقدس » ولشدة الصدام التاريخي حولها فان البحث العلمي العربي حين يكون في اصالته قد راح يسجل بجملة شواهد واضحة ، وقرائن قوية دلالات الانتماء العربي القديم لهذه المدينة حتى قبل ان يكرمها نبي الله (ص) حين اجاب عن ميمونة بنت سعد فيما اخرجه الامام احمد حين قالت له يا نبي الله افتنا في بيت المقدس ؟ فقال لها : فارض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه ، فان صلاتكم فيه كألف صلاة .

ومن هنا راحت الاقلام العربية تستنطق التاريخ ليبين عن العلاقة العربية لهذه المدينة حتى قبل ظهور العبريين على المسرح السياسي والصاقهم بهذه المدينة مفترياتهم وادعاءهم .

وفي هذا يقول العالم المصري العظيم دكتور حسن ظاظا في « كراسة » علمية من مطبوعات كلية الاداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٠ م بعنوان « القدس مدينة الله ام مدينة داود » .

اورشليم « القدس » قبل العبريين

اقدم النقوش التي ورد فيها ذكر هذه المدينة موجودة عندنا في المتحف المصري بالقاهرة . في مجموعة اللوحات المكتوبة بالخط المسماري واللغة البابلية (لغة العراق القديم) تتخللها شروح باللغة الكنعانية (لغة فلسطين

القديمة) . وهذه النقوش تسمى « لوحات تل العمارنة » وقد عثر عليها في اوائل القرن العشرين في هذه المنطقة من محافظة اسيوط ، وهي وثائق دبلوماسية ترجع الى عهد الفرعون امنوفيس الثالث (من ١٤١١ الى ١٣٧٥ قبل الميلاد) وابنه اخناتون (١٣٧٥ ـ ١٣٥٠ ق.م.) .

تسمى اورشليم (القدس) في هذه النقوش « اوروسالم » . ففي رسالة كتبها « عبد يحيبا » الى امينوفيس الثالث نجد ان الاول هو حاكم القدس « اوروسالم » من قبل فرعون . وانه يستنجده بمدد عسكري لصد غارات شراذم من الغجر الرحل اسمهم « حبيرو » اتفق الباحثون على انهم « العبريون » كما ذكر ذلك الاثري «بندلبوري» الذي اشرف زمنا طويلا على الحفائر في هذه المنطقة والف فيها كتابه المشهور « حفائر تل العمارنة » ويقول المؤلف نفسه ان معبد « اتون » في تل العمارنة بخطته المعمارية المتميزة ، وبالخلفية الدينية التي جعلته قبلة الناس كافة هو الذي الهم بناة المعابد في بلاد النوبة والاسيويين في اورشليم فكرة « المعبد المركزي » او « المعبد القبلة » الذي يتجه اليه الناس جميعا في صلاتهم ويأتون اليه في حجهم .

نجد اسم اورشليم بعد هذا التاريخ يتكرر في لغات اخرى ، ففي نقوش الامبراطور الاشوري سنحاريب (حوالى ٧٠٠ ق.م) يرد اسمها هكذا « اورسليمو » وفي العبرية « يروشالايم » وفي النقوش اليونانية من عهد الاسكندر الاكبر (حوالى ٣٣٠ ق.م) . وردت بلفظ « هيروسوليما » أو « سوليما » باختصار ، وانتشر اسمها من الكتاب المقدس في جميع لغات العالم تقريبا .

اما اسم « القدس » فلا بد انه رافق المدينة منذ بداية تاريخها أي منذ ما قبل العبريين عندما اقيمت فيها لاول مرة أماكن مقدسة خاصة العبادات القديمة ، وعلى اية حال فان المؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق.م) لم يذكر في تاريخهالمشهور اسم اورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء « الفلسطيني » من الشام وسماها (قديتس) مرتين في الجزء الثانيوالثالث من تاريخه ، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي « سالومون مونك » في كتابه « فلسطين » ان هذا الاسم على الارجح هو « القدس » محرفا في اليونانية عن النطق الارامي « قديشتا » . وحتى اليهود في الكتاب المقدس قد اطلقوا عليها احيانا اسم « مدينة القدس » (اشعيا ٢/٤٨ ، نحميا ١/١١) و « جبل القدس » (اشعيا ١٣/٢٧) كما سميت « مدينة الله » (المزامير ١/٤٨) « مدينة الحق » (زكريا ٣/٨) .

واسم « اورشليم » ليس عبريا اصيلا ، فقد كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول العبريين اليها بشهادة نص تل العمارنة ، وبدليل أن اليهود وجدوا صعوبة في كتابة اسمها باللغة العبرية «يروشالايم» فهذه الياء الواقعة قبل الميم الاخيرة لم تكن تثبت في الكتابة العبرية وقد كتبت بدونها في أسفار العهد القديم ٦٥٦ مرة وكتبت بها ست مرات فقط ، ولذلك نص علماء التلمود على وجوب كتابتها بلا ياء (التوسفتا . كتاب الصوم (تعنيت) ٥/١٦) .

اما معنى « اورشليم » فمختلف فيه ايضا ، وارجح الاراء من الناحية العلمية انها مركبة من « أور » بمعنى موضع او مدينة و « شالم » وهو اسم اله وثني لسكان فلسطين الاصليين هو « اله السلام » — يا لسخرية التاريخ. فالمدينة اذن كانت مكرسة لاله السلام حتى وصل العبريون . وهناك من يقول ان كلمة «اور» معناها الميراث ، فيكون « آورشليم » بمعنى ميراث السلام اما احبار اليهود فيدعون ان سام بن نوح قد سماها « شلم » اي السلام وان — ابراهيم الخليل قد سماها « يراه » وهي بمعنى الخوف باللغة العبرية فقرر الله ان يسميها بالاسمين جميعا «يراه — شلم» اي«اورشليم» بمعنى الخوف والسلام (المدراش — الشرح الكبير على سفر التكوين « بريشيت ربا — ٥٧ ») وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائديات رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب . وقيل ايضا ان « يرو » يمكن ان تكون في اللغات السامية بمعنى « اله » ويكون اسم المدينة بكل بساطة « اله السلام » .

ولو توفرت الادلة على أن سام بن نوح هو الذي سمى المدينة باسمها لوافقنا احبار اليهود على ان المدينة نفسها ترجع الى عهد سيدنا نوح ، ولكن لم يقل احد غيرهم بذلك ، حتى التوراة نفسها ، فانها تتحدث عن«اورشليم» لاول مرة في زمن ابراهيم (حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م) وكان اسمها «شاليم» فقط ، وكان ملكها من سكان فلسطين الاصليين ، ويبدو من السياق انه كان يحكم حكما دينيا ، تقول التوراة (سفر التكوين ١٨/١٤) « وملكيصدق ملك شاليم اخرج خبزا ونبيذا ، وكان كاهنا لله العلي . وباركه وقال : مبارك ابرام من الله العلي مالك السماوات والارض » . فأورشليم « القدس » كانت مدينة مباركة لله العلي من قبل داود بل من قبل ابراهيم ايضا .

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالى ١٤٥٠ ق.م) كان العبريون قد اصبحوا بعشائرهم التي تهدد أمن المدن الفلسطينية خطرا يحسب حسابه ، ويؤكد ذلك نص تل العمارنة الذي أشرنا اليه . لذلك

نجد تحالفا يعقد بين امراء الفلسطينيين على اثر انتصار يوشع بن نون في اريحا وعاي وجبعون ، (يوشع ١٠/٣ ـ ٤) « فأرسل ادونيصدق ملك اورشليم الى هو هام ملك حبرون (الخليل) وفرآم ملك يرموت ، ويافع ملك لكيش ، ودبير ملك عجلون » . ولكن يوشع بن نون ينشر الرهبة في كل فلسطين فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الاخر ، ويصالحه فريق من « الخائفين » على امتيازات معينة بتنازلون عنها للعبريين . وكانت « اورشليم » من المدن الفلسطينية التي قاومت الغزو قرونا طويلة . فمثلا نجد يوشع بن نون نفسه يجعلها في نصيب قبيلتي بنيامين ويهوذا من اسباط بني اسرائيل ، ولكنهما لم يستطيعا ـ ولمدة طويلة جدا ـ طرد سكانها الاصليين « اليبوسيين » وهم احدى القبائل الفلسطينية القديمة ، (يوشع ١٥/٦٣) : « واما اليبوسيون الساكنون في اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في اورشليم الى هذا اليوم » . والمقصود اليوم الذي يروي فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدة علمها عند الله . وبعد موت يوشع بن نون اعاد سبط يهوذا الكرة على اورشليم، « وحارب بنو يهوذا اورشليم واخذوها وضربوها بحد السيف واشعلوا المدينة بالنار » . (سفر القضاة ١/٨) . اما سبط بنيامين فانهم فشلوا كذلك في طرد اليبوسيين وسكنوا معهم « الى هذا اليوم » (قضاة ١/٢١) .

لذلك بقيت اورشليم تسمى (يبوس) او (مدينة اليبوسيين) كما جاء في سفر القضاة ، وفي هذا الموضع نجد نصا يستحق الانتباه ، حين يقول في سياق القصة التي يرويها : ... « وفيما هم عند يبوس ، وقد انحدر النهار جدا ، قال الغلام لسيده : تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيده : لا نميل الى مدينة غريبة حيث لا احد من بني اسرائيل هنا » .

وسنرى ان المدينة المقدسة ظلت الى عهد داود لليبوسيين ، سكانها الاصليين من شعب فلسطين . ومعروف ان داود عاش حوالى سنة الف قبل الميلاد ، وبالتالي ظلت مدينة « السلام » من اول ما لقيناها في التوراة على ايام ابراهيم الى تلك الفترة ـ نحو الف سنة ـ تقاوم التسلل العبري ، والمطامع اليهودية فلا ينال الاسرائيليون منها الا بالتخريب والاحراق حينا أو بالمساكنة والتعايش السلمي احيانا .

ومع داود فقط تبدأ « عقدة اورشليم » مدينة الله ومدينة السلام ومدينة

اليبوسيين الفلسطينيين منذ ... منذ ما قبل التاريخ كما اثبتت ذلـــك احـــدث الحفائر التي اجريت في المنطقة . ومن المستحسن قبل ان نخطـو الخطوات الاولى نحو « اورشليم اليهود » ان نتصور بما يمكن مـــن ايجـــاز ووضوح طبيعة اقليم القدس وموقعها .

تقع القدس على خط عرض ٣١ ٤٦ ٤٥ شمال خط الاستـــــواء وعلى خط طول ٣٥ ١٣ ٢٥ شرق جرينتش ، وهي هضبة غير مستوية تماما يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ ، ٢٤٦٩ قدما . وجوها قاري صحـــراوي الى حد كبير ، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠ صيفا وقد تنزل الى خمـــس درجات تحت الصفر شتاء ، كما ان التفاوت في الحرارة كبير بين النهـــــار والليل ، ومطرها شتوي متوسط ، ورطوبتها متوسطة ايضا ، ويندر بهـــا الثلج وليس بها انهار ، وانما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة المـــــاء وصلاحيته للشرب ، وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة بهطـــول الامطار وكانت المدينة الى عهد ليس بالبعيد تعتمد اساسا على تجميع ميـــاه الامطار في صهاريج وابار اعدت لهذا الغرض ، واعلى مرتفعاتها يوجد علـــى حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ، ولذلك اعتبرت منذ القدم موقعا استراتيجيا قويا جدا واشتهرت بانها لا تظهر عند الزحف عليها مـــن بعد ، بينمـــا تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات الهاجمين لهـــا وهم مـــا يزالون على مسافة طويلة .

الباب الثالث

- داود ... ومدينته .
- مدينة داود ... بعد داود .
- الخراب الاول ، الهيكل الثاني .
- اورشليم وروما .
- الخراب الثاني ـ والاخير ـ لاورشليم .
- ايليا كابيتولينا ... لا اورشليم .
- القيمة العقائدية للقدس في الاسلام .
- المسجد الاقصى .

داود ... ومدينته

قلنا ان القدس ظلت فلسطينية في ايدي اليبوسيين الى السنة الثامنة من حكم داود ، كان داود من الجنوب ، من صحراء النقب ، حيث اختارت قبيلة ـ سبط يهوذا ـ تلك الجهة مسرحا لحياتها البدوية الرعوية . ثم انه انتقل الى الشمال حيث كان نبي بني اسرائيل « صموئيل » قد توج اول ملك على كل الشعب وهو « شاءول » ، وكان داود قد الحق ببلاط شاءول، وفي هذه الاونة كان سكان البلاد الاصليين « الفلسطينيين » يريدون التخلص من الوجود « العبري » في بلادهم . وكانت الحرب سجالا بينهم وبين الاسرائيليين وبرز من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو « جالوت » استطاع داود ان يقتله بحجر اطلقه من مقلاع ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ، واخذها ليفخر بانتصاره في الجنوب ، ومر بها على اورشليم . ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود في الاتساع حتى بات الملك شاءول يحقد عليه ويدبر الامر لاغتياله دون جدوى واخيرا تعرض شاءول لهزائم ساحقة ومتعددة من « الفلسطينيين » انتهت بأن انتحر على احد الجبال على اثر معركة فاشلة . واصبح داود بعده ملكا . فأراد ان يترك الشمال الى نقطة حصينة اكثر توسطا من حيث الموقع ، فوجد مطلبه هذا في « مدينة اليبوسيين » اورشليم . فهي قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود ، وهي وعرة المسالك للقادم من الاردن او من البحر او من الشمال على السواء ، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة ، ثم انها بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو انهم كانوا اكثر ميلا الى المسالمة من اهل الشمال .

بدا داود بالاستيلاء على جبل صهيون ، وكانت فيه قلعة امامية لليبوسيين يدافعون منها عن القدس ، وكانوا يسمون جبل صهيون بالمنشآت القائمة عليه « المدينة الفوقانية » . بالنسبة لهضبة الحرم (جبل موريا) التي كانوا يسمونها « المدينة التحتانية » استولى داود اذن على « المدينة الفوقانية » وحصنها وجعلها قاعدة لحكمه . ولما كانت اسرته هي سبط يهوذا ، فمنذ هذا الوقت بدأ العبريون او الاسرائيليون يسمون باليهود ايضا ، ولما كان داود ، على طريقة امراء بني اسرائيل ورؤسائهم في العصور

ألقديمة ، وعلى طريقة الكثير من الحكام القدماء ، يستمدون سلطتهم من « الله » فقد جعل من صهيون مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعا . ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود في العصر الحديث تسميه اكثر سحرا في اذان فقراء اليهود وبسطائهم من « الصهيونية » وما تقترن به من قوة داود وشدة شكيمته وابهة سليمان وبهاء عظمته وفخامته على عرشه الاسطوري العجيب ، فاختاروها اسما وشعارا .

ظل داود يضغط على اليبوسيين ، ويضايقهم في جبلهم « موريا » ويريهم صنوف الاذلال ، وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتى لم يبق الا مسح القمة ، فكان المسجد الاقصى وقبة الصخرة ، ملكا لليبوسي « ارونا » يتخذه جرنا ومربضا لماشيته ، فاشتراه منه داود بما فيه من المواشي ، فقالوا في عنعنات شفوية يهودية لا يقوم عليها اي دليل ، ان داود جعل من الصخرة التي على الهضبة مذبحا للرب . وصاغوا حول ذلك اساطير لا تكاد تنتهي حتى قالت بعض نصوص التلمود (توسفتا ــ يوما / ٨٤ ، ٨) ان الله تعالى خلق الارض ابتداء من هذه الصخرة « وقال احد احبارهم وهو اليعازر البابلي ان الصخرة هي اصل خلق الارض ، وان صهيون هو سرة العالم ، وهو كامل الجمال والبهاء » (التلمود البابلي ــ يوما / ٥٤) . وجاء في كتاب « زوهر » وهو من كتب التصوف اليهودي المشهورة « ان يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت ابيه اسحق » بينما المعروف انه نام في « بيت ايل » قرب نابلس . ولكن هذا التحريف يهدف الى نقل قدسية « بيت ايل » المجاورة لنابلس . والتي ظل اليهود السامريون على وفائهم لها كقبلة ليعقوب ، الى اورشليم .

والحق اننا لا ندري اية صخرة يعني اليهود ، فالتلمود يذكر ان الصخرة التي يقدسونها ترتفع عن مستوى سطح الارض ثلاثة اصابع (التلمود ــ يوما / ٨٥ ــ ٣ ، ٤ ، توسفتا ٨٣ / ٦ وموسى بن ميمون في كتابه « طقوس يوم الغفران ») بينما الصخرة الموجودة حاليا ترتفع عن مستوى سطح الارض بنحو متر كامل ، ومحيطها يناهز العشرة امتار ، وتحتها فجوة هي بقية مغارة قديمة عمقها اكثر من متر ونصف ، تبدو الصخرة فوقها وكأنها معلقة بين السماء والارض ، وبين الصخرة ، وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار .

ومن الذين شكوا في ان تكون الصخرة الشريفة هي الصخرة المعنية في التلمود ، الباحث الالماني « شيك » في أوائل هذا القرن ، فهو يقول ان

الصخرة الحالية ربما كانت على اكثر تقدير احدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط . ولم تكن في يوم ما داخلة ضمن « قدس الاقداس » . اما صخرة اليهود التي يسمونها بعد اساطير التلمود التي أشرنا اليها « أيبن هاشتيا » اي حجر الاساس ـ فالله اعلمماذا صنع بها بختنصروانطيوخوس ابيفانوس وتيتوس وفسبازيان وهدريان والصليبيون وغيرهم ممن دمروا اورشليم مراراً وتكرارا تدميرا كاملا .

والعجيب في امر الباحثين اليهود، وفي مقدمتهم دوائر المعارفالعبرية المختلفة وما كتبوه من المؤلفات عن القدس ، انهم اذ يؤكدون بدون اية حجة ان الصخرة الشريفة هي « حجر الاساس » المذكور في التلمود ، ينفون نفيا باتا ان تكون كنيسة القيامة بالقدس ذات علاقة أيا كانت بجسد المسيح عليه السلام ، فدائرة المعارف الاسرائيلية العبرية المنشورة في نيويورك سنة ١٩١١ تقول في هذا الصدد ان دفن الموتى داخل اسوار القدس كان لا وجود له اطلاقا ، وان اقرب المقابر الى اسوار القدس هي مقابر « ساميوسكي » عند قدم جبل صهيون من الطرف الجنوبي الشرقي خارج السور مباشرة ؛ والمقابر المذكورة تحمل اسم العائلة التي بنت فيها مدفنا كبيرا في العصر الحديث وقد عثر فيها على مقابر قديمة ايضا ، واضاف كاتب البحث الى ذلك انه طيلة عهد الهيكل الثاني (أي من القرن الخامس قبل الميلاد الى سنة سبعين ميلادية) لم يدفن احد داخل اسوار المدينة المقدسة ، وبناء على ما ذكر يكون مستحيلا في رايه ان يكون الجسد المصلوب قد دفن في هذه البقعة التي هي من صميم اورشليم وفي داخل اسوارها .

ولا نريد ان نناقش الامر ، « بيزنطيا » وانما نشير الى أن المسيح واتباعه لم يتمسكوا من الشريعة القديمة الا بالناموس الموسوي والاوامر والنواهي التي ابلغها الانبياء ، اما « التلموديات » التي لا تعد ولا تحصى فقد كانت رسالة المسيح في جوهرها ومنطوقها تنادي وتجاهر بابطالها وتطهير العقول منها ، حتى لا يخضع الشعب اليهودي خضوعا اعمى لكلامها المطبق ، الذي تفرضه السلطة الكهنوتية اليهودية على الشعب البسيط المخدوع المحروم من النور الحق وما دام الامر كذلك ، فما الذي يفرض على اتباع المسيح في عشية الصلب ، وايدي كهنة التلمود ما تزال مخضبة بدمائه ، ان يحترموا عرفا لا يستند الى امر او نهي من الله ؟ ثم ان الحفائر المختلفة ما تزال كل يوم تكشف عن موتى لا يحصى عددهم وجدت عظامهم داخل الاسوار .

ورث سليمان داود ، وكان ملكا يحب الفخامة ويميل الى حل مشاكل السياسة والاقتصاد حلولا دبلوماسية لا يلجأ فيها الى قوة السلاح، فصاهر جيرانه مبتدئا بالقصر الفرعوني في مصر اذ تزوج ابنة فرعون ، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة ، وحاول ان يجعل عاصمة ملكه ــ اورشليم ــ لا تقل عظمة وعمرانا عن العواصم الكبرى في الشرق في زمانه ، فبدأ بتشييد سور فاخر حول المدينة ، ثم اخذ في بناء المعبد الكبير ــ الهيكل ــ الذي كان ابوه داود قد بداه قبل موته ، ومع ذلك فان الاخبار الاسطورية عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن ان تكون قد نجت من شطحات الخيال اليهودي الحالم فجاءتنا مبالغا فيها أشد المبالغة . وهكذا يقول الكاتب اليهودي الامريكي لويس براون في كتابه المسمى « حياة اليهود » ان انجازات سليمان في اورشليم ، وفي مقدمتها قصره الملكي كانت تبدو في عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور مع انها لو قورنت بالقصور الهائلة في مصر او بابل او الهند لبدت ضئيلة سمجة الذوق .. كان القصر مكونا من عدة ابنية منفصلة : بناء للصناع ، وقاعة للاجتماعات ، وبهو للعرض ، والمحكمة العليا ، و « حرملك » كبير يكفي لسكنى المئات من نسائه . وكان هناك ايضا معبد ، وهو بناء صغير طوله مائة قدم ، وعرضه ثلاثون قدما ، موضوع فيه « تابوت العهد » ــ هذا الصندوق الذي تحفظ فيه التوراة ولا شك ان المعبد كان بالنسبة لسليمان مشروعا اقل اهمية من القصر ، كان مقصورة دينية في بلاط الملك ، ولذا لم يستغرق بناؤه أكثر من نصف الوقت الذي استغرقه بناء القصر ، ولكنه مع مرور الزمن وبعد الكهنة والابناء الذين وفدوا عليه على طول حكم أسرة داود ، كان يتخذ في خواطر اليهود مكانة ، وكانت له من بعد ذكريات ، ربما لم يستطع شيء آخر على هذه الارض ان يضمن مثل ما استطاع هو بقاء اسرائيل عليها . مع انه كان في حد ذاته أصغر من أي معبد يهودي في امريكا الآن، ومن كثير من الكنائس في الارياف المنتشرة في انحاء العالم. بالرغم من هذا فانه أقوى بناء شيدته يد الانسان من حيث عمق أثره وقوته . وما يقوله لويس براون صحيح ، بل ربما كان دون الابعاد الحقيقية لسيطرة هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم ، بعد تدميره واندثاره . وحتى الآن اقترنت اورشليم به ، وتقدس لدى اليهود من أجله واذا ذكر اسمها فالمراد هو أولا وقبل كل شيء ، وما كتبه الكتاب

والاحبار من شطحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلدات ، بحيث كان كل اليهود في حاراتهم القذرة واسمالهم البالية على الثلج ، وفي الوحل ، يعيشون في هيكل اورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الاحبار، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على السنتهم – وبخاصة في عيد الفصح – هي « السنة القادمة في اورشليم » وهو شعار استغلته الصهيونية ، وكهربت به أعصابهم ، واعطته كل المعاني الحربية والعسكرية الممكنة . ولنذكر نموذجا واحدا من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناه من كتاب التصوف اليهودي « زوهر » ٢/٢٢٢ : « عند خلق العالم ، ألقى الله حجرا كريما من عرشه العظيم في الفضاء المظلم ، فغطس فيه جزء من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم ، وهذه البقية البارزة كنقطة في هذا الفضاء اللانهائي بدأت تمتد في كل الاتجاهات عن يمين وشمال ، وارسيت الدنيا عليها ، ولذلك يسمى هذا الحجر « حجر الاساس » ، وكان تكوين الارض حوله على ثلاث مراحل : المرحلة الاولى عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر ، نورانية شفافة ، والثانية من حولها مصنوعة من مادة اقل شفافية ولكنها اكثر رقة من الارض ، والثالثة ارض معتمدة ، يطوقها المحيط الذي يدور حول العالم . وهذه المناطق الثلاث ممثلة في الهيكل الذي في اورشليم : فالمنطقة التوراتية ، وهي النقطة العظمى ، عبارة عن الهيكل ومدينة اورشليم ، والثانية ، الاقل شفافية هي الارض المقدسة « فلسطين » ، والثالثة المتعتمة هي بقية العالم حيث تسكن الامم غير اليهودية من الكفار . اما المحيط الذي يدور ، بكل شيء فهو مملكة الجن التي تحيط بالعالم . ولم تر الدنيا قط شيئا اجمل من ستائر تابوت العهد . وعندما ادخل تابوت العهد الى الهيكل صاح باية المزامير ١٣٢/١٤ : هذا مستقري الى الابد وهنا سوف اقيم . وكان صوت الروح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع اسرائيل » . ولولا الهيبة التي يجب اصطناعها امام مقدسات الناس جميعا تأدبا واحتراما لمشاعرهم لعبرنا عن رأينا بصراحة في مثل هذه الشطحات ، وان كان لا يغيب عن البال ما يهدف اليه الراوية لهذا اللون من الادب الشعبي من تأكيد العنصرية البغيضة التي اخترعها « شعب الله المختار » وكان اول من اصطلى بنارها ايضا ، ومن تأكيد البقاء الابدي في « اورشليم » ، بينما المسكين قد عاش تائها غارقا في « المنطقة المعتمة » القريبة من « مملكة الجن » المحيطة بالارض ... رحمه الله ...

وما كاد سليمان يلقى ربه حتى حدثت حرب اهلية بين الاسباط وانقسمت المملكة شطرين ، واصبح الهيكل واورشليم قبلة لنصف العبريين فقط

ثم تعرضت القدس مباشرة لهجوم الجيش المصري الفرعوني (حوالي سنة ٩٧٠ ق.م) . وهي تحت حكم « رحبعام بن سليمان » . وتوالت عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحقة : من الادوميين في الاردن الى العرب الى الاراميين الى الاسرائيليين في مملكة الشمال ، عندما هاجم يهوآش ملك اسرائيل امصيا ملك اورشليم ويهوذا وهدم اسوارها واخذ ما في الهيكل من الذهب والفضة والاواني ، ونهب القصر واخذ بعض الرهائن وعاد الى السامرة (الملوك الثاني ١٤/١٤) .

وتكرر الزحف المصري على أورشليم في حكم الفرعون نخاو ، وكان ملك يهوذا يهواحاز (حوالي ٦١٠ ق.م) .

ثم انتعشت اورشليم في عهد الملك عزيا هو الذي حكم اكثر من نصف قرن من الزمان . وكان مهتما بتحصينها فبنى حولها ابراجا وحفر آبارا وانشأ البساتين والحدائق (اخبار الايام الثاني ٢٦) . واستمر انشاء البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوشام .

وتبلور الخطر الاشوري على القدس في عهد سنحاريب الذي كان معاصرا لحزقيا ملك يهوذا ، فاخذ هذا الاخير فيزيادة التحصينات بالقدس وقام بردم آبار الماء التي في خارجها حتى لا ينتفع العدو بها وكذلك الجداول الجارية منها ، ودعم السور في المواضع المتهدمة منه وحصن قلعة داود على جبل صهيون ، وقام بمشروع هندسي ناجح اجرى به مياه نهر جيحون الذي يجري جنوبا خارج القدس تحت ارض الى داخل المدينة . .وانشأ صهاريج للماء ، وهكذا استطاع ان يواجه الحصار الاشوري دون ان يضطر الى الاذعان .

الخراب الاول ، الهيكل الثاني

كان بختنصر ملك بابل يحاول أن يسوي حسابا قديما مع فراعنة مصر ولكنه في كل مرة يجد عقبة ما في فلسطين تظهر له فجاة من قبل اليهود فيبوء بالفشل ، واخيرا (سنة ٥٨٨ ق.م) هاجم القدس بعد ان كان استولى على اهم اجزاء فلسطين ، ومنها غزة في اقصى الجنوب، وكان ملك يهوذا في ذاك الوقت « صدقياهو » ، ولما سقطت القدس بعد مقاومة رهيبة احرقها الجيش البابلي وخربها ونهبها ، واخذ معظم اهلها اسرى الىالعراق حيث بقوا سبعين عاما ، الى ما بعد نجاح الامبراطور كورش ملك الفرس في احتلال العراق واسقاط الامبراطورية البابلية ، وقد لقي جيشه بطبيعة

الحال ، كل التسهيلات اللازمة لمهمته من قبل اليهود الموتورين المحتجزين في العراق ، فسمح على الفور بعودتهم الى فلسطين وتأسيس «وطن قومي» تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه ، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع ابن يوصدق وزروبابل بن شلتئيل وبعدهما بثمانية عشر عاما جاء عزرا ونحميا ، الذي اخذ في اعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة : بصورة اقل فخامة ، ولعل ذلك من فرط اعجابهم الخيالي بهيكل سليمان فقط) .

وفي سنة ٣٣٢ ق.م. احتل الاسكندر فلسطين وادخلت تحت الحكم اليوناني ، ولكن احد احبار اليهود وهو « شمعون بن حونيو » استطاع بدبلوماسيته ان يحوز رضا الاسكندر وان يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التلمود ، يوما) وبعد موت الاسكندر استولى بطليموس الاول « سوتير » على أورشليم حوالي سنة ٣١٠ ق.م. واخذ كثيرا من اهلها اسرى الى الاسكندرية .

ثم زحف عليها ملك سوريا انطيوخوس السلوقي اليوناني سنة ٢٠٣ . وعاد فاستردها منه القائد البطامي « سكوباس » المصري سنة ١٩٩ . والظاهر ان اليهود في المدينة كانوا اميل الى حكم السلوقيين . وقد ساعدوا انطيوخوس على دخول القلعة ، كما يقول يوسفوس ، ومباغتة المصريين فيها . وبسبب ذلك خفف انطيوخوس الضرائب عن يهود القدس. واهتم بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود . ويصف اليوناني ارسطياس ، المعاصر لهذه الاحداث ، فخامة القدس بما يبين انها كانت مدينة كبيرة لها اسوار وعليها ابراج ، والخدمة الدينية في الهيكل كانت على ارفع نظام ، وكان عدد السكان مائة وعشرين الفا . وتعود اليهود بعادات اليونان ، وتركوا الرب ، وظهرت فرقة « ياسون » واخيه « منيلاوس » . وقالا بأن منصب الحاخام الاكبر يجب ان يكون بالوراثة لا بالانتخاب وحدثت فتنة كبيرة ، انتهزها الحاكم السوري انطيوخوس ابيفانوس فزحف على أورشليم سنة ١٧٠ ق.م. ونهبها وذبح كثيرا من يهودها .

وبعد ذلك بعامين هجم قائده ابو لونيوس على المدينة مرة اخرى فاكثر فيها من القتل والتخريب واقتحم الهيكل واقام فيه تمثال انطيوخوس ، وبنى بجواره مسرحا للتمثيل واخذ معه رهائن من يهود القدس . فقام من امراء امكابيين اليهود الحشمونيين « متتياهو » ثائرا ضد اليونان هو واولاده الخمسة ثم اتم يهودا المكابي هذه الثورة بطرد

اليونان من الهيكل ، ومن جزء كبير من المدينة سنة ١٦٥ ق.م. وواصل هذا الكفاح شمعون المكابي ، ففي سنة ١٤٣ طرد الحامية اليونانية من قلعة داود « صهيون » .

وعاد اليونان بقيادة انطيوخوس السابع (سيديتاس) في عهد يوحنا هيرقانوس المكابي فاتقى هذا الاخير شره بتقديم قوالب من الذهب استخرجها من قبر داود ، يقول يوسفوس ان وزنها كان ٧٥ طنا ، ثم حدث نزاع على العرش بين هيرقانوس واخيه ارسطو بولوس في داخل القدس .

اورشليم وروما

اثناء هذه الفتنة زحف القيصر الروماني « بومبي » على فلسطين واحتلها سنة ٦٦ ق.م. وقتل من اليهود في القدس وحدها ١٢٫٠٠٠ ، بينما كان اليهود يخربون كل شيء بأيديهم ويحرقون المدينة كلها بالنيران حتى لا ينتفع بها العدو .

وبعد مدة وجيزة كثرت الاضطرابات فيأورشليم ، فزحف عليها حاكم سوريا الروماني « لوقيانوس كراسوس » ، ودخل الهيكل ونهبه ، وكان ما فيه من الذهب والفضة والانية الثمينة يقدر بنحو خمسين طنا .

وزار يوليوس قيصر فلسطين ، فأذن لليهود في بناء الاسوار التي كان بعضها قد تهدم .

وفي هذه الاثناء كان هؤلاء « الامراء » من اواخر المكابيين ما يزالون يتنازعون على السلطة ، او ما بقي لهم منها ، في اورشليم ، وهي سلطة اخذ الزكاة من اليهود ، وادارة القضاء بينهم ، وتنفيذ الاحكام الشرعية فيهم.. امارة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الاخرى .

وانتهز هيرودس الادومي فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ ق.م. يساعده القائد الروماني سوسيوس . فحاصراها وصبا عليها قذائف المنجنيق واقتحماها وقاما فيها بمذبحة رهيبة .

وافق القيصر الروماني اغسطس على تعيين هيرودس على القدس « وكل بلاد اليهودية » اي النصف الجنوبي من فلسطين . فاهتم باعادة تخطيط المدينة وتدعيم اسوارها ، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة . ولاسيما في النقطة الضعيفة استراتيجيا من المدينة وهي الغرب والشمال الغربي حيث احياء القدس الحديثة الان . فاقام في هذه الجهة برجا سماه برج « هيبيكوس » باسم واحد من اصدقائه قتل وهو يحارب في صفوفه

في احدى المعارك ، وهذا البرج هو الذي يسمى خطأ الان « برج داود » . وفي اقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصنا في موضع حصن « البيرة » الذي أقيم بعد عودة اليهود من السبي ، وكان قائما في عهد المكابيين ثم تهدم ، وسماه هيرودس حصن « انطونيا » على اسم صديقه وحاميه انطونيو « صاحب كليوباترا » ـ اما تسمية « البيرة » فهي فارسية معناها القلعة . ولم تعرفها اللغة العبرية الا تحت حكم الفرس ، وكان هذا الحصن مربعا طول ضلعه نحو تسعين مترا ، وفي داخله قصر عليه سور مربع اخر ، تقوم عليه اربعة أبراج ، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعا . والرابع ارتفاعه سبعون ذراعا ، وهو البرج الشمالي الشرقي أقرب هذه الابراج الى الهيكل ، ومن اعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الروماني يراقبون ما يجري داخل معبد اليهود ، الذي حظي من هيرودس ايضا بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته . وفي الجهة الجنوبية الشرقية استقر الملك المتهود « مونوباز » وامه المتهودة ايضا « هيلانه » ، وكانا يحكمان قبل تهودهما مقاطعة اديابين في بلاد الاكراد ، شمال شرقي سوريا ثم تهودا ولجآ الى أورشليم فبنيا الى الجنوب من جبل صهيون قصورا ومقابر في غاية الاتقان .

كان اليهود في أورشليم لا يكفون عن مناوشة الحامية الرومانية المعسكرة في قلعة انطونيا . فامر « اجريبا الاول » الموظفين الرومان بأحكام الرقابة على اليهود والتشدد في معاملتهم ، ووصل الحقد الى اقصاه بين الطرفين ، اثناء دعوة السيد المسيح، والفتنة التي احدثها الكهنوتاليهودي حينئذ ، وكان القيصر كليوديوس قد امر ـ نكاية في اليهود ـ بوضع تمثال لنفسه في الهيكل ، بقي في مكانه الى ان مات هذا القيصر مسموما سنة ٥٤ بعد ميلاد المسيح .

الخراب الثاني ـ والاخير لاورشليم :

داب اليهود على خلق المشاكل للرومان ، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة ، فقرر الامبراطور الروماني فسبازيان القضاء عليهم ، وحل المشكلة كلها هذا الحل الجذري الدامي ، فأرسل ابنه تيتوس على راس جيش كبير للقيام بهذه المهمة، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود واستعملوا فيها كل شيء ، حتى النساء ؛ في تليين عريكة تيتوس دون جدوى ، تم تخريب اورشليم في ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية واجلاء جميع اليهود عنها وهو « السبي الثاني » الذي ظلوا فيه من هذا التاريخ الى سنة ١٩٤٨ عندما اعلن حاييم وايزمان قيام « اسرائيل » .

ولكن بالرغم من ان تيتوس قد بذل اقصى الجهد في جعل عودة اليهود الى سكنى القدس امرا مستحيلا ، فان من بقي منهم في فلسطين لم يكف عن التآمر ضد الرومان .

ايليا كابيتولينا ..... لا أورشليم

وفي القرن الثاني الميلادي ، سنة ١٣٦ ، قام « بركوكبا » احد نماذج الصهيونية القديمة ، بثورة مسلحة ضد الرومان ، وسجل عليهم ، رغم جيشهم الامبراطوري الجرار ـ انتصارات براقة في البداية ، ولكن الامبراطور الروماني ايليوس هدريان قام آخر الامر باتمام ما بداه تيتوس ، فحاصر ما كان بقي من القدس ، وهدم كل شيء في المدينة ، ولم يترك فيها يهوديا واحدا وجاء الى مكان الهيكل فأقام عليه معبدا لجوبيتر كبير آلهة الرومان . ووضع فيه تمثالا لهذا الاله كالتمثال القائم في معبد الكابيتول ، وقرر تغيير كل شيء في هذه المدينة ، حتى اسمها ، الذي أصبح مكونا من اسمه هو واسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير ، فسماها «ايليا كابيتولينا» ومنع اليهود من دخولها ، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك ، ثم سمح لهم بالمجيء اليها يوما واحدا في السنة ، الوقوف على جدار ، بقي قائما من السور في الجزء الغربي من المدينة ، وهو الذي يسمى « حائط المبكى » ويسميه اليهود « الجدار الغربي » وظل حظر السكنى بالقدس قائما على اليهود قرونا طوالا ، فقد ذكر ذلك يوزيبوس ، المؤرخ المسيحي الذي زار « أيليا » القدس ـ سنة ١٣٢ ميلادية ، كما ذكره اليهود انفسهم في تفاسيرهم القديمة « المدراش » (سفر الجامعة ـ فوهيلت ربا) .

« القيمة العقائدية للقدس في الاسلام »

من الحقائق المسلم بها تماما ان فتح المسلمين العرب للقدس فيالنصف الاول من القرن السابع الميلادي لا يتعدى كونه تحريرا عربيا لارض عربية كانت تقع تحت اسر الاحتلال الاجنبي ضمن ارض عربية اخرى كانت تعاني من نفس هذا الاحتلال الذي كان ضمن موجاتالغزو الاجنبي الطويل للارض العربية .

فلما صحا العرب بدعوة الاسلام واستجمعوا امر انفسهم بأنفسهم بلا وصاية ولا ضغوط ، وكان قوام وجودهم قضية تحرير انفسهم من تلخفها وتمزقها وفرقتها ثم تحرير الشعوب المغلوبة على امرها كان منطقيا جدا ان يقوم العرب بحرب تحريرية ضد الغزو الروماني لارض العرب في القدس وهذا ما قام به الانسان العربي المسلم بالفعل .

هذا عن حقائق التاريخ اما من قداسة الدين وفضل المدينة المقدسة مدينة المسجد المبارك حوله «فتعالوا بنا نسمع فضيلة الامام سماحة الشيخ عبد الحميد السايح وزير الاوقاف الاردني الاسبق وهو يقول من البحث العلمي الذي طبعه مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف بعنوان «مكانة القدس في الاسلام» الصادر عام ١٩٦٩ م. وتحت عنوان : « بيت المقدس وفضل الصلاة في مسجده » .

لقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، احاديث كثيرة في فضل بيت المقدس والصلاة في مسجدها ، من ذلك ما اخرجه الامام احمد عن ذي الاصابع قال : قلنا : يا رسول الله ابتلينا بعدك بالبناء اين تأمرنا ؟ قال عليك بيت المقدس فلعل ان ينشأ لك ذرية تغدو المسجد وتروح .

وما اخرجه الامام احمد ايضا عن ميمونة بنت سعد ، قالت : يا نبي الله افتنا في بيت المقدس ؟ فقال لها : فأرض المنشر والمحشر ، ائتوه فصلوا فيه ، صلاتكم فيه كألف صلاة ، قالت : ارايت من لم يطق ان يتحمل اليه او يأتيه ؟ قال فليهد اليه زيتا يسرح فيه ، فانه من اهدى كان كمن صلى . (١)

وما اخرجه البخاري ومسلم عن ابي هريرة رضي اللهعنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، ومسجد الحرام ، ومسجد الاقصى .

وفي لفظ آخر : انما يسافر الى ثلاثة مساجد : مسجد الكعبة ، ومسجدي ومسجد ايلياء .

وما اخرجه الشيخان ايضا عن ابي ذر رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله اي مسجد وضع في الارض اول ؟ قال : المسجد الحرام. قلت: ثم اي ؟ قال : المسجد الاقصى (٢) .

وما اخرجه ابن ماجه عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الرجل في المسجد الاقصى بخمسين الف صلاة، وصلاته في مسجدي بخمسين الف صلاة ، وصلاته فيالمسجد الحرام بمائة الف صلاة (٣) .

---

(١) القرى لقاصد ام القرى ، ص ٦٤١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٠٦ .
(٣) القرى لقاصد ام القرى ، ص ٦٧ .

وما اخرجه الامام احمد عن ابي هريرة وعائشة ، رضي الله عنهما ، قالا قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : صلاة في مسجدي خير من الـف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الاقصى (١) وعند الطبراني باسناد صحيح : الصلاة في المسجد الحرام بمائة الف صلاة والصلاة في مسجدي بالف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة (٢) .

وروى البيهقي عن ابي ذر رضي الله عنه انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في بيت المقدس : افضل او في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : صلاة في مسجدي هذا افضل من اربع صلـوات فيه ، والنعم المصلي ارض المحشر والمنشر ، وليأتين على الناس زمان ولقيد سوط ، او قال : قوس الرجل حيث يرى منه بيت المقدس خير له او احب اليه من الدنيا جميعا (٣) .

وفي كتاب المدخل ، لابن الحاج ، في فضل زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ما نصه : وينبغي له حين خروجه من المدينة الشريفة على ساكنهـا افضل الصلاة والسلام، ان ينوي السفر الى المسجد الاقصى بنية الصلاة فيه، وزيارة الخليل عليه الصلاة والسلام .. الخ » (٤) .

وروى الامام احمد في مسنده ، عن ابي امامة الباهلي : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لا تزال طائفة من امتي ظاهريـن على الحـق لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم : حتى يأتيهم امر الله عز وجل وهم كذلك قالوا : يا رسول الله واين هم ؟ قال : ببيت المقدس ، واكناف بيت المقدس (٥) وعن عطاء قال : لا تقوم الساعة حتى يسوق الله عز وجل خيـار عباده الى بيت المقدس والى الارض المقدسة فيسكنهم اياها (٦) .

ولهذه الاحاديث والآثار وغيرها تعلق المسلمون بالقدس وقصدوا مسجدها للصلاة فيه ، وتنافس الموسرون في اعماره او بانشاء اية ابنية في ساحته ، ليتقربوا بها الى الله سبحانه وبخاصة ان القدس هي وطن الاسراء والمعراج.
والخلاف الواقع بين الروايات في مقدار فضل الصلاة في المسجد الاقصى لا يؤثر في جوهر الموضوع . خصوصا ان العدد لا مفهوم له كما هو مقـرر

(١) الترغيب والترهيب ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .
(٢) حاشية بن سودة على صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٣١٨ والترغيب والترهيب .
(٣) الترغيب والترهيب ، ص ١٣٨ .
(٤) زاد المسلم ، ج ٢ ، ص ٤ .
(٥) ، (٦) ابن ابي جمرة ، وكتاب بلادنا فلسطين .

في الاصول ، وليس من الضروري ان يعرف المسلم مقدار الثواب الذي يناله بسبب الصلاة فيه ، فان مرده الى الله سبحانه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والواقع ان المسلمين يتسابقون الى الصلاة فيه طمعا في رضا الله ومثوبته ، دون أن يضع الواحد منهم نصب عينيه رقما معينا يسعى اليه .

المسجد الاقصى

حينما نزلت آية الاسراء : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى .. الخ » كان المكان الموجود الان بين اسوار الحرم الشريف بالقدس ، مخصصا لعبادة الله سبحانه ، وهو المكان الذي وقع الاسراء اليه ليلا بسيدنا محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وحصل معراجه منه الى السموات العلى ، الى حيث علم الله وفي تلك الليلة المباركة تمت فرضية الصلاة على الرسول والمسلمين كما ذكرنا من قبل .

وحينئذ لم يكن في ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الاقصى ، ولا بناء آخر معروف بمسجد الصخرة المشرفة ، ولا سائر الابنية المنتشرة في ساحة المسجد الاقصى ، وانما سمي في الآية المسجد ، لانه مكان العبادة (١) .

ولذلك : فان امير المؤمنين ، عمر بن الخطاب لما جاء القدس عام الفتح سنة ١٥ هـ فاستشار كعب الاحبار : اين يقع المسجد ؟ فقال له كعب : اجعله وراء الصخرة ، فقال له : ضاهيت اليهودية يا كعب ، بل نجعله صدر المسجد ، وهو العمري اليوم ، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه ، ونقل المسلمون معه في ذلك ، وسخر اهل الاردن في نقل بقيتها ، وكان الروم قد جعلوا الصخرة مزبلة لانها قبلة اليهود (٢) .

ثم بنى عبد الملك بن مروان المسجدين المعروفين بمسجد الصخرة والمسجد الاقصى ، وبذلك ، فان اطلاق اسم المسجد الاقصى على المسجد المعروف الان هو اصطلاح حادث وان جميع المؤرخين والعلماء اطلقوا المسجد الاقصى

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٣ ، ص ١٠٦ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٥٦ .

على ما دار عليه السور وفيه الابواب ، وهو الذي كان معروفا عند الاسراء والمعراج (١) .

وقد جاء في كتاب « بلدانية فلسطين العربية » للاب « أ.س. مرمرجي الدمنكي » احد اساتذة المعهد الكتابي والاثاري في القدس الشريفة ، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ما نصه :

«تنبيه» قد تقدم عند ابتداء ذكر صفة المسجد الاقصى، ان المتعارف عند الناس ان الاقصى من جهة القبلة الجامع المبني في صدر المسجد الذي فيه المنبر والمحراب الكبير ، وحقيقة الحال ان الاقصى لجميع المسجد مما دار عليه السور ، وذكر قياسه هنا طولا وعرضا .

فان هذا البناء الموجود في صدر المسجد وغيره من قبة الصخرة ، والاروقة وغيرها محدثة ... الخ (٢) ولهذا ، فان اقدام ، شلومو غورين « حاخام جيش الدفاع الاسرائيلي » على الصلاة في ساحة المسجد بحجة انه بعيد عن المسجد الاقصى فيه اعتداء صارخ على التاريخ ، وعلى حرمة المسجد الاقصى المبارك ، وانتهاك مقدسات المسلمين ، والمقارن بين ما يفعل اليهود الصهاينة باعتداء على مقدسات المسلمين وبين ما فعله امير المؤمنين « عمر بن الخطاب » حين الفتح ، حيث ادركته الصلاة وهو في « كنيسة القيامة » ، مع ان رئيس المسيحيين اذ ذاك « صفرونيوس » سمح له بالصلاة في ذلك المكان ، الا انه امتنع خشية ان يدعي المسلمون بعد ذلك ان لهم حقا في ذلك المكان بسبب صلاة عمر فيه .

---

(١) فتوى علماء المسلمين بالقدس وسائر الضفة الغربية من الاردن .
(٢) ص ٢٩٦ .

الباب الرابع

- القدس في عهد الاحتلال الصهيوني .
- التحرير العربي القديم للغزو الاسرائيلي القديم .
- اليهود في عصر المماليك القديمة .
- منهاجية التوراة ككتاب في التاريخ .
- اصل النبي داود وعلاقته ببني اسرائيل .
- النبي داود يقود في المعركة .
- دور النبي داود في اسرائيل .
- النبوة والرسالة على يد داود .
- نماذج من الخطيئة في المعتقد اليهودي .

مفروض في اليهود ، وهم من اهل الكتاب ان يحترموا مدينة القدس وما فيها من مساجد ومعابد ، ليذكر فيها اسم الله ، لكنهم فقدوا كل شعور انسائي فضربوا المدينة من الجو ، وبالمدفعية ، فأحرقوا كثيرا من المخازن التجارية ، بما فيها من بضائع وسلع ، ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم ، وضربوا المسجد الاقصى المبارك ، فاصابوا ابوابه الوسطى بمدفعيتهم ، حتى حطموه اربا اربا ، واصابوا احدى مآذنه اصابة مباشرة وهي مئذنة بساب الاسباط ، واصابوا فيه الاقصى نفسه ، وقبة المسجد الاقصى المكرمة اصابات مختلفة ، كما اصابوا عددا من الكنائس المسيحية مثل كنيسة يوحنا ؛ وهي المعروفة بالصلاحية ، وهدموا بعض الاديرة والكنائس ، كما هدموا المسجدين الموجودين في ساحة المبكى ، واحدهما : مسجد البراق الشريف . فضلا عن هدمهم لجميع الابنية في المكان المعروف في حارة المغاربة ، من اوقاف ، ابي مدين الغوص ، والمحسنين من المغاربة ، وهدمهم لعدد اخر من الدور والمساكن وكانوا يمهلون السكان نصف ساعة ليخرجوهم وافراد اسرهم ، وحمل امتعتهم هذا عدا نسف البيوت والمتلكات لأوهى الاسباب .

وقد انتهكوا حرمة جميع المقدسات بالدخول اليها في حالات منافية لابسط قواعد الاداب مما أثار السكان من مسلمين ومسيحيين ، ودفعهم لتقديم مذكرات الاستنكار والاحتجاج واعطاء صور عنها لقناصل الدول الموجودين بالقدس العربية .

وقد قرروا ايضا ضم القدس العربية بما فيها من مقدسات الى القسم الاخر المحتل سابقا من القدس وبذلك خالفوا قواعد القانون الدولي ، وميثاق الامم المتحدة التي تمنع المحتل من أن يضم اليه اية أرض احتلها ، ولو فعل ذلك لا يترتب على عمله اي اثر قانوني .

واخيرا لجأوا الى اعلان استملاكهم مساحة من الارض العربية تبلغ ٣٣٤٥ (دونما) (١) وهذه الارض هي الوحيدة التي بقيت للعرب في القدس

---

(١) الدونم : ١٠٠٠ متر مربع .

وتصلح لاقامة ابنية عليها ، وقد استملكوها لاسكان الاف المهاجرين اليهود فيما ينشئون عليها من عمارات ، مما يدل دلالة واضحة على استخفافهم بجميع مقررات الامم المتحدة واتفاقيات (جنيف) التي تقضي بالمحافظة على السكان وممتلكاتهم ، ومما يشهد بنواياهم التوسعية عدم رغبتهم بأي معنى من معاني السلام بينهم وبين العرب ــ حسب زعمهم ــ .

وقد لجأوا ايضا الى اخراج عدد من السكان الذين يرون في وجودهم في المنطقة المحتلة ازعاجا لهم وخطرا يهدد سلامتهم وامنهم ، لعدم انصياعهم لارادتهم ؛ ولاستمرارهم في الدعوة للمقاومة بشتى اساليبها ، مع ان مقاومة المحتل حق مشروع اقرته الدول المتمدينة ، واعترفت به الاوساط الدولية. خصوصا ان في المقاومة معاونة على تطبيق ميثاق هيئة الامم وقراراتها المتعددة التي تمنع من ضم القدس العربية ، والسير في تغيير معالمها والاعتداء على السكان وحقوقهم المختلفة .

ولا تزال سلطات الاحتلال ممعنة في خططها الجهنمية التي تقضي على مظاهر الاسلام والعروبة في المدينة واظهارها المدينة اليهودية ، ولا يزالون يفكرون في هدم مسجد الصخرة المشرفة لاقامة بناء الهيكل مقامه ولذلك فانهم بواسطة سلطات الجيش الاسرائيلي اخذوا مفتاح احد ابواب المسجد الاقصى وهو الباب المسمى بباب المغاربة (1) ووضعوا ايديهم عليه ، فصاروا يسمحون لمن يشاؤون بالدخول الى ساحات المسجد والى المسجد نفسه في كل وقت دون أذن او مراقبة من قبل (دائرة الاوقاف الاسلامية) وهذا وحده يكون منطلقا خطرا على المسجد الاقصى، وعلى مسجد الصخرة، وهم المعروفون بجميع أساليب الخداع والكذب والافتراء .

لذلك كله فان الواجب الاسلامي يقضي على جميع المسلمين في المشارق والمغارب أن يهبوا للعمل يدا واحدة ، وفي اسرع وقت ممكن ، لانقاذ القدس والمسجد الاقصى وسائر المقدسات والا فان السكوت على هذه الحالة ، والتجاهل للقيام بواجبه يكون قد اسهم في بقاء حالة لا تقرها شريعة الله ، ولا يقبلها الاسلام من اتباعه ومؤيديه .

---

(1) وكان الناس قديما يسمونه باب النبي وباب البراق ولعله الباب الذي دخل منه الرسول عليه السلام ، واما سيدنا عمر فقد دخل من باب شرف الانبياء الذي يسمى الآن باب فيصل كما اشار الى ذلك « منجي الدين بن الحنبلي » ، تاريخ قبة الصخرة صفحة : ٢١٦ ــ ٢١٨ .

حوادث التاريخ المسجلة في العهد القديم لا يستقيم سياقها ابدا ولا تقدم وحدة موضوعية للجوانب المتعددة لمجريات الحوادث ولا يستطيع الباحث ان يطمئن الى الكثير مما جاء بها ، ومع ذلك فان هناك من بين جوانب التناقض الحاد الذي تقوم عليه المراحل التاريخية التي قص اخبارها العهد القديم بعض الشواهد التي تقوم دليلا في بعض الاحيان على ان بعض الحقائق التاريخية لا تزال تقبل بين مقوماتها دلائلها ومناهجها اخبار العهد القديم .

ومن بين هذه الشواهد حديث العهد القديم في غير ما قصد من السجل التوراتي بالطبع عن التحرير العربي القديم للغزو الاسرائيلي القديم لفلسطين كان ذلك في الفترة ما بين عصري القضاة والملوك والتي حاول فيها الاسرائيليون ان يشددوا قبضتهم على العرب مكان الارض فلم تتمكن الجماعات الاسرائيلية من محو الشخصية العربية في المرحلة التي كانت عقب توسيع الاسرائيليين لمناطق احتلالهم لفلسطين ولم تستسلم القوة العربية امام خطر عنصر غريب عليها بل قاومته في جميع الوسائل التي حاول بها ان ينفذ الى الشخصية العربية ، فالعادات والتقاليد والازياء والمعمار (١) ، وكل مظاهر الحياة العامة حرص الشعب العربي على ان تظل كما هي بالخلق العربي والطبع العربي مرتبطة بفطرية الرؤية العربية ونقائها خوفا من ان تتأثر على مدى مواصلة المضايقة الاسرائيلية والمطاردة والغزو الاجنبي على الارض بأن يغير من بعض ما عليه الشعب العربي كي يجد مجالا للنفاذ منه اليهم الى ان هبت المقاومة العربية وامكن لها ان تقف على قدميها تماما وتستطيع المجابهة في عملية تحرير وطرد للغزو الاجنبي وبالفعل فان انتفاضة عربية ودفعة قوية هبت في اعماق الرجال فقاموا لحرب الاسرائيليين ومقاومتهم حيث هم في الارض التي احتلوها وطالت المعارك بين العرب والاسرائيليين قوية وعنيفة حتى امكن للعرب ان يحولوا القوة الاسرائيلية التي كانت مصدر خطر وبلاء الى افراد وجماعات تعيش على هامش المجتمع العربي ، وفئات قليلة او جاليات محددة واصلت المقاومة العربية بكل ما تملك من الضغط والمطاردة جهدها حتى تحلل الاسرائيليون من دينهم ونبذوا معتقداتهم واوشكوا ان يكونوا وثنيين ومتجردين من كل المعاني التي صنعوها وخلعوها على انفسهم زيفا وهوى على انها عبادة واسلوب دين .

---

(١) انظر : محمد عزة دروزة في كتابه تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم الصادر عن مكتبة نهضة مصر وعند الحديث عن تفسيم بشوع للمدن العربية .

ومن عجب انه رغم قلة المصادر الهادية الى هذه التفاصيل فى الوقوف على مدى الزيف الادعائي كأثر من صنع الحجج الباطلة على حسب الرغبة والحاجة عند القوم الاسرائيليين فان التوراة حين يبدأ المؤلف التوراتي يقص لمرحلة أو يحكي عن مجموعة حوادث او يسجل لعصر نجد من بين ما يصنع هزالا أو فلتات او هفوات او عدم الملم أو عدم استيعاب لما سجله الغير يجعل من المتيسر جدا للباحثين في موضوعية ضبط حالات كثيرة ومتعددة من التناقضات الصارخة والكذب المفضوح والزيف المدعى ، ويمكن بها وعلى ضوئها ، تصوير الملامح العامة لكثير من التفاصيل المرتبطة بتاريخ الوجود الاسرائيلي الغريب .

فمثلا حين تجيء التوراة تؤرخ في سفر القضاة عن المرحلة التي انتهى فيها الوجود العسكري وايضا الوجود الاجتماعي لليهود والاسرائيليين قبل عصر الملوك لا تستطيع ان تبرز أو تكشف عن ابطال الحوادث لهذه المرحلة حقيقة وصراحة ، فمرحلة الضياع هذه التي تعرضوا لها والتياضطروا فيها الى اخلاء معظم الارض التي استولوا عليها وتحصنوا بداخلها بل والىالتخلي عن دينهم ترجعها التوراة الى السبب التقليدي بين الاسرائيليين وربهم وهو « المعصية » ولا ندري اي غفلة دينية في كل تاريخ القوم وهم في حالة ادعاء بتنزيه انفسهم عنها حتى يكرروها في كل مناسبة وفي جميعالاحوال هكذا : « المعصية » كجزء من الطبع وحال من السلوك وطبيعة في الدين ، وعادة يومية ، اي رب في تصورهم يرونه هكذا على استعداد لان يقدم كبديل للمعصية اليومية ، نعمته ، وبركته ، وخيره ، وفضله ، بل وسيفه ، واذا اقتضى المقام ينزل الى الارض بنفسه ليقاتل وسط القوم وفي قيادة واحد منهم ، ما اتفه المعتقد الوثني عند اليهود وما احطها من اساليب عبادة في دين القوم ومعتقداتهم ، ويا له من سخف يحيط بالمؤلف التوراتي ، وهو يدون لهذا الهراء ، في دين القوم وتاريخهم .

يقول سفر القضاة من الاصحاح الثاني :

« ... وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعلم وتركوا الرب اله آبائهم الذي اخرجهم من ارض مصر ، وساروا وراء آلهة اخرى من الهة الشعوب الذين حولهم ، وسجدوا لها واغاظوا الرب ، وتركوا الرب وعبدوا البعلم وعشتاروت فحمي غضب الرب على اسرائيل، فدفعهم بايدي ناهبين نهبوهم ، وباعهم بيد اعدائهم ، ولم يقدروا بعد على الوقوف امام اعدائهم ، حينما خرجوا كانت الحرب عليها للشر ، كما تكلم الرب ، وكما اقسم لهم ، فضاق بهم الامر جدا » .

وهكذا ، كما تقول التوراة فان مرحلة طويلة قد حلت بالقوم بعد ضربات ضاعوا فيها على يد سكان الارض واهلها جعلتهم يتخلون حتى عن معتقداتهم، وطريقة عباداتهم ، والاله الذي ادعوا وجود علاقة خاصة بينهم وبينه ، قد انسلخوا عنه ، بل مما تفصح عنه ايات « القضاة » التي اوردناها فان الاسرائيليين في حروبهم مع العرب قد فرضت عليهم العبادة المحلية التي كان عليها العرب والامتثال لها والاذعان لاربابهم .

تقول التوراة عن القوم الاسرائيليين ، حين تخلوا عن عقيدتهم :

« ... وساروا وراء الهة اخرى من الهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاظوا الرب » .

ويستمر حال القوم هكذا بين ضياع وتشرد في هذه المرحلة الدقيقة من عمر زيف الدعوى التي ضللوا بها التاريخ وخدعوه ، بينما يعج كتاب اليهود بمجموعات من التناقضات وكثير من الاضطراب كدليل على زيف الدعوى ، وباطل التدوين ، ولم يفكر واحد منهم ان ينصف الحقيقة فيكشف للقوم عن الضجيج والصخب الذي يلوكونه فيما بينهم ، بينما الحقيقة وكما قررنا ان كتابهم المسمى « العهد القديم » وفيما بين أيدينا منه هو الذي يقول انه بلغ بهم سوء الموقف حالا ، كان الفلسطينيون فيه يبيعونهم في اسواق النخاسة كقنية من المقتنيات ، دون ما تقدير عربي لدعوى الاسرائيليين العنصرية التعصبية وما يلغطون به ، وما يتشدقون به من مبررات ومستندات دونها القوم فيما بينهم حسب المصلحة والهوى بانهم الشعب المختار ، الذين ، لهم كل شيء ، وليس عليهم من شيء (1) .

اقول ورغم كل الزيف الذي كان يواجه به العرب من الاسرائيليين فانهم واصلوا نضالهم حتى تمكنوا بعد المرحلة التي سبقت عصر الملوك أن يحرروا الكثير من الارض وان يبيعوا اليهود ويسترقوهم، واصبحت حالة بني اسرائيل في هذه المرحلة تسيبا وتفتيتا وتمزقا واصبحوا فيما بينهم يمثلون سبة عار ومواقف خزي في تاريخ بني اسرائيل .

يقول الاصحاح الرابع من سفر القضاة :

« ... وعاد بنو اسرائيل يعملون من الشر في عيني الرب بعد موت

---

(1) انظر الدراسة التي اعدها الدكتور عبد الفتاح عفيفي مدير البحوث والنشر بمجمع البحوث الاسلامية عن كتابنا : الصهيونية في التاريخ ، في مجلة الازهر ـ الصادرة في سبتمبر عام ١٩٦٧ م ، صفحات ٣٤٩ ـ ٣٥١ .

« اهود » فباعهم الرب بيد « يابين » ملك كنعان الذيملك فيحاصور ورئيس « سيسرا » .

وهكذا كما نرى فانه حتى بعد الفترة الطويلة التي بدات بالغزو المسلح في عهد يشوع بن نون ، ثم ظهور عصر القضاة الىعهد الملوكالانبياء في جماعات اسرائيل فان الفلسطينيين ، كما تعبر التوراة كانوا يستطيعون ان يقيموا لهم على ارضهم سلطانا ، واذا ما سلمنا بالمبالغات التاريخية التي تروي اخبار التوراة عن مرحلة مثل مرحلة القضاة فان دلالة هذه المبالغات تصبح في جانب الحق العربي وتاريخ الجماعات العربية على ارضها في فلسطين .

فسفر القضاة هو الذي يذكر لنا بين اصحاحاته ، ان ملك « آرام » غزا بني اسرائيل فاستعبدهم ثماني سنين ، ثم لما خلصوا منه بعد ان ضعفت عنهم القضية العربية استراحوا اربعين سنة ، ثم استعبدهم ملك عجلون ثماني عشرة سنة ، ثم لما خلصوا منه استعبدهم ايضا ملك حاصور ثماني عشرة سنة ، ثم اهل مدين والشرق سبع سنين ولقد طال عليهم حكم « جدعون » آلذي خلصهم من المدينيين اربعين سنة ، وابنه ابيمالك ثلاث سنوات ثم قضى لهم توقع الثاني ثلاثا وعشرين سنة ، و « بائين » القاضي اثنينوعشرين سنةبعد جدعون وابنهواستعبدهم بعدهما، العمونيون، ثماني عشرة سنة وقضى لهم « يفتاح » الذي خلصهم ست سنوات ثم قضى لهم بعد ــ ايضان سبع سنوات ، وايلون عشر سنوات . وجدون ثماني سنوات ثم استعبدهم الفلسطينيون اربعين سنة .

وكل هذه الاخبار التي ترد بين اصحاحات سفر القضاة تؤكد لنا ان الجماعات الاسرائيلية لم تستطع عبر كل مراحل تاريخها ان تحظى باستيطان تاريخي مستقر في الارض التي توجهت اليها بالغزو « والعدوان » بل ان الفلسطينيين ، كما تعبر التوراة كانوا يستطيعون ان يقيموا لهم على ارضهم سلطانا ، مثل « يابين » الذي ملك في كنعان (١) .

وكنعان، هنا هي الارض العربية منذ سماها العرب الذين استوطنوها واستقروا فيها ، وسموها بهذا الاسم ، ودافعوا عنها ، والكنعانيون هم من العرب كما سبق وان اوضحنا والفلسطينيون هم من العرب اي سكانالارض العربية التي تسمت بهذا الاسم « فلسطين » كما سبق وان اشرنا الى منشأ التسمية ، والكنعانيون اولئك الذين ورد ذكرهم في التوراة من انهم اقاموا لهم سلطانا وملكا ، هم الذين اقاموا لهم ممالك في فلسطين وكانالاسرائيليون مغلوبين على امرهم قبل قيام الفترةالتي كانفيها الملوكالانبياء فيبنياسرائيل

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح الرابع : ١ ــ ٧ .

قد نشأوا في فلسطين وظهروا على هذه الارض العربية ومارسوا فيها شيئا من السلوك الديني او السياسي لم يكن يعبر عن مصلحة الاسرائيليين وعقيدتهم وعنصريتهم ، هذه المصلحة الاسرائيلية المدعاة والتي زيف التاريخ اليهودي كل جوانب الحق او الهداية التي يمكن ان تفترض فيما تركه الملوك الانبياء من تأثير في تاريخ الطبع الملتوي والخلق النهاز في بني اسرائيل ولم تكن هناك مرحلة من الاستيطان الحضاري العريق في هذه الارض العربية للملوك الانبياء كما صور القوم كتبهم ونبوءاتهم ، ولم يعبر عن هذه المصلحة المدعاة واحد من ملوك بني اسرائيل الذين ورد ذكرهم في التوراة من الذين نصبوا انفسهم على بني اسرائيل ، في عصر الملوك الذين لم يستطع واحد منهم باستثناء قلة قليلة من الملوك الانبياء كداود وسليمان مثلا كما سيأتي ان يتخلصوا من مجابهة المقاومة الفلسطينية ، بل وبسطت السيادة العربية يدها عليهم انفسهم وكانت الوشاية والصراح بالدم وركوب الخطيئة وكل صنوف الفاحشة وتبريرها والدعوة اليها ، كانت ادوات الرجال الذين هيأتهم ظروف التناقض الاجتماعي اليهودي منذ استطاعوا بعد عصر « شاءول » (١) بفترة طويلة ان يوسعوا رقعة الارض التي يتنقلون فيها ويحيون في ربوعها قهرا وقسر ان يثبوا على قيادة القوم ويتولوا امرهم .

ومع كل ذلك الميراث المدعى ، فان نضع آيات لما سجلت التوراة دون تأويل لما فيها ، او لغط تفسيرها ، ما يكفي في القاء نظرة من بين مصادر القوم تؤكد انه حتى في عهد الملوك فضلا عن المراحل التي قبله وبعده ، لم يستطع الرجال الاسرائيليون الذين اعملوا السيف وزيفوا المقصد ان يميعوا شخصية الشعب العربي في فلسطين أو ان يتغلبوا عليه ويفرضوا عليه واقع الاطماع وزيف العنصرية البغيضة المدعاة ، ولم يقبلهم الشعب العربي ويرضى بهم في جواره وعلى ارضه الا في الفترة التي انتقلت بهم الرسالة الدينية على غير مشيئة منهم في محاولة جادة من الدعاة المرسلين ومرحلة كانت مقدماتها تدل على انها الاخيرة ، مرحلة الملوك الانبياء المرسلين . ولو لم تقترن هذه المرحلة من تاريخ بني اسرائيل والتي سنعرض لها ببعض التفصيل بعمل الرسالة الدينية القائمة على معجزة الوحي الالهي والتي بدات في طبيعتها

---

(١) انظر : دكتور مراد كامل في كتابه « الكتب التاريخية في العهد القديم » المحاضرات التي القاها على طلبة قسم الدراسات الفلسطينية عام ١٩٦٨ م بمعهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية .

مفتوحة سمحة تسع الاجناس جميعهم وتشبع في القوم جميعا احتياجات الامن بغض النظر عن اجناسهم والوانهم ، لما كانت هذه المرحلة الصغيرة في تاريخ القوم التي لم يعمل فيها العرب مقاومتهم ولم يشهروا سلاحهم نظرا لاحترامهم قداسة الدين الالهي وتقبلهم بعض تعاليمه ، كما كان في عصر النبي سليمان مثلا حين كانت اليمن العربية بكل قيم المجتمع وتقاليده وحضارته قد قبلت دعوة سليمان لو لم تكن دعوة الدين لما كانت هذه المرحلة في تاريخ اسرائيل ، ولما استطاع الذين قادوا هذه المرحلة انفسهم ولو كانوا مجردين عن دعوة الدين والارتكان اليه ان يقفوا على ارجلهم ، ولا ان يذكر لهم التاريخ ادنى توجيه من تأثير في التاريخ وتوجيه مسار الحوادث .

واذا ما القينا نظرة سريعة على ما هو مدون في سفر صموئيل الاول من الاصحاح الرابع ، نرى كيف قاوم العرب الفلسطينيون « صموئيل » بل وحاربوه ، وهزموه رغم الحرب النفسية الرهيبة التي وجهت ضدهم حين اشاع الاسرائيليون اوهام العقيدة المدعاة عن قتال الرب معهم ، وحملهم امانة التابوت وعهد الرب اليهم ، ومع ذلك فقد استمر نضال الفلسطينيين حتى جاء المسجل التوراتي ، ولم يجد مفرا من ان يدون بعضما راى او سمع وسجل دون ان يدري انه بما يقصه قد شكل تناقضا توراتيا مع من سبقه من الذين دونوا الاوهام واساطير النصر وقتال الرب مع جند اسرائيل ، ولم يتح له ان يطلع على ما فعلوا من كذب في التدوين وسخرية في الادعاء .

يقول الاصحاح الرابع من سفر صموئيل الاول (١) :

« وخرج اسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة واما الفلسطينيون فنزلوا في « افيق » واصطف الفلسطينيون للقاء اسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر اسرائيل امام الفلسطينيين ، وضربوا من الصف في الحقل نحو اربعة آلاف رجل ، فجاء الشعب الى المحلة وقال شيوخ اسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب امامالفلسطينيين ، لنأخذ لانفسنا منشيلوه، تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ، ويخلصنا من يد اعدائنا فارسلالشعب الى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عبد رب الجنود الجالس على الكروبيم ، وكان هناك ابنا عالي « حفني وفينحاس » مع تابوت عبدالله وكان عند دخول تابوت عهد الرب الى المحلة ، ان جميع اسرائيل ، هتفوا هتافا عظيما حتى ارتجت الارض فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف ، فقالوا ما هو صوت هذا

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح الرابع : ١ ـ ٧ .

الهتاف العظيم في محلة العبرانيين ، وعلموا ان تابوت الرب جاء الى المحلة».

وواضح هنا حتى من هذا النص الذي أتينا عليه ان العرب الفلسطينيين ظلوا على الموقف السياسي والديني الذي كانوا ينظرون منه الى جماعات الاسرائيليين فرغم كثرة ترديد بل واشاعة التسمية التي اصبحت اصطلاحا على أن تتسمى المجموعات التي خرجت من مصر من الخليط المتكاثر من جيال ابناء يعقوب باسم : « اليهود » و « الاسرائيليين » فان العرب كانوا حين يتحدثون عنهم او ينادونهم فانما بالوصف الذي لازمهم منذ كانوا حين مجيئهم غزاة مغيرين ــ العبريون ــ (١) وهذا دليل على ان مشاعر الفلسطينيين سكان الارض نحو جماعات اليهود والاسرائيليين كانت دائما تتوجه ، على أنهم قوم غرباء عنهم ، ويريدون احتلال وطنهم واستيطانه.

وفي هذه الحرب التي ورد الحديث عنها في سفر صموئيل كانت التعبئة الفلسطينية قد بلغت مداها الى الحد الذي ارادوا فيه التخلص تماما من الاسرائيليين وابتدا كل فلسطيني يقول لاخيه كما يعبر صموئيل ، في الاصحاح الرابع « ... تشددوا وكونوا رجالا ايها الفلسطينيين لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوهم لكم لكن فكونوا رجالا وحاربوا. وانكسر اسرائيل وهربوا كل واحد الى خيمته ، وكانت الضربة عظيمة جدا وسقط من اسرائيل ثلاثون الف رجل واخذ تابوت الله ومات ابنا عالي حفني وفينحاس » .



ومن عجب انه يكاد ان يكون هناك شبه اغفال متعمد عن جانب في الصراع الذي تقصه التوراة بين العرب وجماعات اسرائيل ، لانه في صالح العرب وتاكيد سلامة وعظمة مواقفهم ، وهو ان العرب عقب هزيمة الاسرائيليين امامهم قد استولوا على تابوت العهد الذي كان المظهر المادي دينيا وتاريخيا عند اليهود والاسرائيليين ، ومن عجب ايضا ان الفلسطينيين حين كان في يدهم تابوت عهد الرب الخاص ببني اسرائيل لشعورهم بالواجب والمسئولية ولعلمهم ان هذا التابوت محل قداسة وانه موضع تقدير قوم

---

(١) العبرية : عبري « عبراني » المفرد عبري والجمع عبرايم ولقد كان هذا اللفظ دلالة على عبريم القديمة .

يرمزون به الى الههم (رغم انهم يخالفونهم في العقيدة) الا انهم صانوه وأكرموه وطلبوا من الكهنة والعرافين وكل من لهم علاقة بأمور شعائر المعتقدات الاسرائيلية ان يعاونوهم في تدبير مصير هذا التابوت الذي فنيت شخصية اصحابه السياسية والاجتماعية والدينية وتخلوا عنه ، ولم يصبح في مقدورهم الحرب من أجله او الدفاع في سبيله ، أو الادعاء من اجله .

يقول سفر صموئيل الاول من الاصحاح الخامس :

« فأخذ الفلسطينيون تابوت الله واتوا به من حجر المعونة الى اشدود واخذ الفلسطينيون تابوت الله وادخلوه الى بيت داجون . واقاموه بقرب داجون . .

ثم يقول الاصحاح السادس من نفس السفر :

وكان تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة اشهر، فدعا الفلسطينيون الكهنة والعرافين قائلين ماذا نعمل بتابوت الرب ، اخبرونا بماذا نرسله الى مكانه » .

وحتى على ضوء رواية التوراة في كل ما تقصه من دعواها الفارغة عن التاريخ اليهودي ومسيرته فان من بين ثنايا ما كتب مؤلفو التوراة والذين كانوا من غير جدال في كل مرحلة جمعا من المسجلين الذين يقومون بعملية التدوين لعقيدة القوم وتاريخهم . ومن بين ما كتب هذا الجمع الكبير يلمح الانسان الشخصية العربية الفلسطينية بوجه خاص حين رفضت الغزو المسلح وحين قاومته ، وبل حين تغلبت عليه وحاصرته ثم استولت على مظاهر معتقدات القوم وشعائرهم وجردتهم منها ، واصبح الحال في ظل القوة العربية الفلسطينية انه لا مجتمع لهم يلتقون فيه ، ولا حتى بقية من دين لهم يدعونه ، ولا شعائر لهم يتلمسونها ، وغاشوا مرحلة ضياع محقق الى ان دخلوا مرحلة جديدة لم تكن تاريخا لهم ، ولا سلوكا خاصا بهم ، ولا مجالا لاحبائهم ولا تربط بهم قدر انتمائهم الاسمي الى هذه المرحلة وما ان انتهت هذه المرحلة حتى زيفوا تاريخها فيما دونوه في اسفارهم . واعني بهذه المرحلة عصر ظهور الملوك في بني اسرائيل على اساس انها في معتقدهم مرحلة ميراث حضاري وتاريخي للقوم في ارض فلسطين ، وما جاورها . ورغم ان المعتقدات الدينية وميراث أديان وأقوام من غير اليهود يرون ويعتقدون في هذه المرحلة المقترنة بدور الملوك الانبياء اشياء مخالفة تماما

لما يؤمن به الاسرائيليون زيفا وبهتانا ، فان بضع آيات من تناقضات الرواية التوراتية تلقي ضوءا على هذه المرحلة من عمر الملوك الانبياء ، وتدلل على انهم لم يكونوا يمثلون وجودا عنصريا بحكم الرسالة الدينية ولم يتركوا ميراثا لبني اسرائيل بل كانوا في حالة رفض للوجود الاسرائيلي بفكره العنصري وعقيدته المدعاة (١) .

اليهود في عصر الممالك القديمة :

تقول اليهود في عصر الممالك القديمة تجوزا او مجازاة لبعض المصادر القديمة التي تعرضت بالدراسة لهذا الموضوع ، وايضا على نهجنا في النظر الى ما تصوره التوراة للمسيرة التاريخية التي قطعها اليهود منذ عصر الاباء الاول ، والا فليست هناك من وجهة نظر الدراسة الموضوعية بالمفهوم الحضاري ، الاجتماعي والسياسي ، لحركة تاريخ المنطقة العربية ممالك بمضمونها ، المرتبط بخط مستقر من الدين والسياسة ونظام الاجتماع لليهود في العصور القديمة ولا في غيرها وكل ما ادعاه التاريخ اليهودي عن المراحل القليلة التي عملت فيها النبوة بعض ما تهدف اليه في الهداية والتوجيه حين اتخذت لنفسها مظاهر من الاستقرار المرحلي ، وأسلوب حياة لا تقوم على العنف والاكراه فاعتبر القوم هذه المراحل « عصر ممالك » وابتداوا التدوين له والتصنيف حواليه مرفوض من وجهة نظر الدراسة المتكاملة التي يمكن ان تقف على جوانب صورة حضارية عملت فيها السياسة والدين ونظام التحضر والعلاقات الاجتماعية في سلوكها وآمالها وكل متعلقات هذه النواحي العامة بأسلوب الحياة في المجتمع حين تحدد علاقته بغيره في المجتمعات او حين تنفتح جوانبه على غيره من المجتمعات فيأخذ منها ويقدم لها كل عمله في التحضر والاستقرار ، ان الدراسة بهذا التصور لنظام او لاسلوب حياة قديمة او حديثة عند الجماعات اليهودية يمكن ان يعثر عليه الباحث في العصر الذي ادعى فيه التاريخ اليهودي ان عصر الممالك القديمة والذي يرتبط بالفترة التي بدات عقب المرحلة المسماة بعهد القضاة والتي كان فيها الزعماء والقواد الذين يتصارعون في المجتمع الاسرائيلي ويتصدرون قيادته يسمون انفسهم « بالقضاة » .

---

(١) سفر صموئيل الاول ــ الاصحاح الخامس : ١ ــ ٣ .

وقد بدات هذه المرحلة في تقدير كثير من المؤرخين الذين كتبوا لهذه الحقبة حوالي عام ١٠٣٠ ق.م. اي انه يكون قد انقضى على العهد الذي كانت فيه الزعامة للنبي موسى حين بدا حوالي عام ١٢٢٥ ق.م. ما يقرب من ١٩٥ سنة على تقدير المنهج التوراتي بعد ان خلفه يشوع بن نون حين دخل الارض غازيا بعد الجيل الذي تعرض للضياع ، الى ان جاءت مجموعة القواد الذين خلفوه ودخلوا في حرب مع القبائل العربية من مديانيين ومؤابيين وعموتيين وعمالقة وبني المشرق حتى جاء العصر الذي انقضى سريعا خلافا لما تزعمه اصحاحات سفر القضاة من ان فترتهم كانت تمتد حوالي اربعمائة عام ولم يتميز بشيء معين سوى ان القائمين على امر الجماعات الاسرائيلية كانت تسمي نفسها «قضاة» واعني به عصر «القضاة» السابق الاشارة اليه .

والمرحلة التي بدات عام ١٠٣٠ ق. م. وهي كما قلنا في تقدير كثير من المؤرخين البداية للعصر الذي تسمى بعد ذلك بعصر الممالك القديمة وكانت البداية لهذه المرحلة على يد الاسرائيلي المدعو في التوراة وفي كثير من المصادر القديمة التي كتبت في هذا الموضوع باسم « شاءول » ، وقد اعتبر هذا الاسرائيلي اول مؤسس واقوى مؤسس لعصر الممالك المدعاة في التوراة لانه في تقديرهم حارب الفلسطينيين وهزمهم ووسع ارض الاحتلال التي كانت تتعرض للمقاومة ، منذ عصر « يشوع بن نون » القائد الذي قاد عملية الغزو الاسرائيلي لفلسطين بعد وفاة موسى . حتى عصر « القضاة » الذي لم يخل من كثير من الثورات وحالات الاضطراب والقلاقل التي كانت تقوم في وجه الاسرائيليين من العرب اصحاب الارض ، والارض الفلسطينية في ايدي وسيطرة ابنائها العرب لم تتمكن منها جماعات يهود بالاحتلال التام أبدا .

والذين اعتبروا « شاءول » من اول مؤسسي عصر الممالك او على حد التعبير التاريخي عند بعض الباحثين لهذه المرحلة من اول مؤسسي : « كل ما يمكن ان يستفيده الهوى من هذه المصادر في خدمة هذه الدعوى الفارغة وايضا من كتبوا لهذه المرحلة ولم يكونوا يهودا كان « شاءول » من وجهة نظرهم اول مؤسس الدور الاول من ملوك اسرائيل لانه هزم الفلسطينيين وتخلص منهم ، واولئك الذين كانت التوراة دون منهاجية تحليلية تقييمية فيما درسوا أهم مصادرهم ، فقرروا من بين زيف الدعوى التوراتية حول دور شاءول في التمهيد والتأسيس ، لمرحلة اسمها « دور الملوك » تصورا ، عن المملكة الاسرائيلية ، ووجودها ، رغم ان تناقضات

التوراة نفسها ترفض هذا التصور والذي يمكن ان يستفاد من سيرة شاءول رغم كل الضجيج والزيف المصنوع حوله في التوراة انه امام الخطر الفلسطيني الذي كان يتهدد الاسرائيليين كان عائدا في يوم من الحقل ، والحمل هنا ايضا صنعة توراتية مقصودة فلم يكن من المعهود ولا من الشائع وخاصة في فترات العنف وحدة الصراع بين العرب والاسرائيليين ان يطمئن الاسرائيليون الى العمل بالزراعة واجادتها الا ان كانوا في خدمة الفلسطينيين وتحت سيادتهم ، وعند عودة شاءول من الحقل حل روح الله عليه في الوقت الذي كان الشعب الاسرائيلي فيه يتألم ويبدو من قصص التوراة في هذا الموضوع ــ بالصور الادعائي في فكر التوراة دائما وابدا ــ ان شاءول هو الآخر كان على صلة بالسماء وان العلاقة بينهم وبين الله كانت سهلة وميسرة ، وعليها فدونت التوراة صورا من الخيال والغلو المفرط حول نعبئة « شاءول » للاسرائيليين ثم قيادته لهم الى ان تيسر له ان يبسط سلطانه على الارض العربية بعد حرب طاحنة اباد فيها الفلسطينيين وتجيء التوراة في سفر صموئيل الاول وتتحدث عن الحرب التي قامت بين شاءول والعرب وآباد فيها الفلسطينيين فان الفلسطينيين قد عبأوا كل قواهم حتى بلغت كما يقول الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل اكثر من ثلاثة الف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة ، ومع ذلك تمكن منه وغلبه شاءول واستطاع بالجماعات الصغيرة من بني اسرائيل ان يقضي على شعب فلسطين ، ومع ان هذا الادعاء التوراتي من بني اسرائيل ان يقضى على شعب فلسطين ومع ان هذا الادعاء التوراتي يختلف تماما ، مع كل سيرة الاسرائيليين في حروب ما بعد عمليات الغزو الاولى فان السفر نفسه الذي يقص علينا هذه الرواية حين يجيء ليكشف عن ارض المعركة وكيفية بدئها ، يقدم صورة عن حال الاسرائيليين يتعذر معها تماما على ضوء ما تعطيه هذه الصورة قصصا ، فضلا عن الانطباع النفسي ، حين بدات المعركة وعلى ضوء ما تعطيه الصورة ايضا ماديا من انعدام القدرة على الحركة العسكرية وامكانية المواجهة العسكرية البشرية عند الاسرائيليين ما يخالف ادعاءات الرواية التوراتية .

وهذه الصورة هي التي كان فيها القوم حين المواجهة قد دخلوا المخابىء بعد ان ارتاعوا وعمل الخوف فيهم كل عمله ان يتقبل الانسان السوي الغلل واللفظ المملوءة به كل روايات التوراة حول شاءول للفلسطينيين ، ولقد بلغ الاغراق في الخيال الى الحد الذي يدعي فيه الاصحاح الرابع عشر من سفر صموئيل اول من ان ابن شاءول «يوناثان» وخادمه قد هجما على معسكر للفلسطينيين قبل بدء المعارك واستطاعا

بضربة واحدة ان يقتلا عشرين من المقاتلين ، بينما تفصح التوراة نفسها عن الحال الاسرائيلي حين بدات المعارك وظهرت مجموعة من الاسرائيليين للقاء الفلسطينيين ان قال الفلسطينيون قولا أوردته التوراة وغفل عن دلالته الموضوعية مؤلفها المظيم ... « ... فقال الفلسطينيون قولا هو ذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها » . فالقوم على مثل هذه الرواية ، لم يكن فيهم نماذج للعمل الفدائي البطل حتى تجيء التوراة وتخلع على ابن « شاءول » وخادمه ، هذا الادعاء الذي يضفي على الرجلين صفات الرجال الشجعان الذين يقتحمون على عدوهم موقعه بينما القوم اثناء الحرب على حد ما تسوقه الآية التوراتية « ... خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها » .

والمعنى البدهي ، كيف ، تيسر لقوم بلغ بهم الخوف ، انهم دخلوا الجحور والثقوب ان يقاوموا ، عددا من الرجال الذين ذكرتهم التوراة عن تجمع الفلسطينيين كما هو في سفر صموئيل الاول من الاصحاح الثالث عشر « ... ثلاثون الف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كرمل البحر في الكثرة » ، بل انه قد وصل الحال ببني اسرائيل قبل ان يبدا تاريخ شاءول بالمعارك والانتصارات المدعاة انهم ارادوا ان يتركوا الارض وان يستسلموا تماما للمقاومة والتعبئة العربية ، وتقول التوراة في هذا وهي فيما ترويه حين يختلط عليها الامر وتتباين الصورة وتتناقض تصبح سندا على الاسرائيليين للغير وليست لهم .

« ... وتجمع الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل ثلاثون الف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة وصعدوا ونزلوا في مخماس شرقي بيت آون ــ منطقة رام الله اليوم في الاردن ــ ولما رأى انهم في ضنك لان الشعب اختبأ في المغاير والغياض والصخور والآبار وبعض العبرانيين عبروا الاردن الى ارض جاد وجلفاد ، وكان شاءول بعد في الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه » . ومن الاخطاء التي تقع فيها التوراة فانه يطرح سؤال وهو : كيف تيسر لقائد كل الشعب ارتعد وراءه ؟؟ ان يحرز نصرا او يقاوم عدوه ، واضح جدا من بين صور التناقض التوراتي عن قصص حادثة بعينها او مواقف بذاتها حين تخلع عليها صور البطولة والشجاعة الخارقة ان الصنعة الدينية هي التي اضفت على المدعو شاءول انه بدا عصر الملوك بالحرب ضد الفلسطينيين وبالنصر عليهم . ولا يبقى لنا الا ان نقرر حتى على ضوء آيات التوراة من مجموع تناقضاتها

ان عصر الملوك الذي يمكن للفكر الديني اليهودي ان يتشدق به والذي بدا عام ١٠٣٠ ق.م. بشاءول لم يقم على امكانية النصر والغلبة من اسرائيل ضد العرب وانما كان فقط بداية للصراع السياسي بعد ان استطاع العرب محاصرة القوم ومقاومتهم عقب مراحل الغزو الكامل التي بدات بعد وفاة موسى وبعد ان تولى يشوع بن نون قيادة القوم ، ولا يستطيع باحث ان يرى حتى من وجهة نظر المعطيات التوراتية ان العمل السياسي والصراع الاجتماعي حين حاول الاسرائيليون ان يفرضوا ويروجوا لعاداتهم المرفوضة في ادب العرب وتقاليده قد مكن للجماعات الغازية والتي كانت تحمل خلق جدب الصحراء املا في الحصول على مرعى للحيوان او حيث يوجد البشر لتبيع وتشتري ان تقيم عصرا . تبدأ به نظام « المملكة » وتمارس من داخله الحياة في امن وسلام وانما كانت بعد ذلك ، بعد مراحل الصراع العربي والاسرائيلي ، الدعوة الدينية والتي لم يكن لبني اسرائيل من رغبة فيها وتاثيرها حين كانت على يد الملوك والانبياء ، وكانت عاملا تدخل في طبيعة الصراع ليؤدي دوره المرحلي وينتهي وكان ذلك على يد النبي الرسول داود بعد ان مر شاءول بمرحلة قلق وعناء لم يتمكن فيها من تحقيق ابسط نصر يؤسس به موقفا تاريخيا عملت فيه جهود القوم وتضحياتهم شيئا يمكن ذكره ولو حتى في مجال الغزو وسياسة الاطماع التي بدات منذ عصر يشوع بن نون ، ومن عجب ان هذا المعنى يمكن تقريره حتى من آيات التوراة نفسها التي تقول صراحة فيما ورد في الاصحاح الاخير من سفر صموئيل الاول حين تورد نصا يستطيع به الباحث ان يقول بعد ذلك على ضوء هذه الآيات ان الفلسطينيين في مقاومتهم لكل محاولات السيطرة على بلادهم قد تمكنوا حتى في بداية العصر المسمى بعصر « الملوك الاول لبني اسرائيل » من ان تكون لهم سيطرة كاملة على ارضهم ، وسيادة لهم ترفض كل محاولات الاجنبي من ان يستقر وان يسود .

وبعد حروب تحرير وبطولة على ساحة الارض الفلسطينية تمتد من التخوم الجنوبية الى تخوم الجليل ، اغتنم الفلسطينيون فيها فرصة انهيار الروح العامة عند الاسرائيليين اثناء المعارك وقيام جبهات متصارعة كان ابرزها الصراع الذي وقع بين شاءول نفسه وواحد من صغار القوم استطاع ان يلبس ثياب البطولة من وجهة نظر شاءول في بعض المواقف وان يكسب سمعة حتى بين الفلسطينيين حين اختلف مع شاءول واصبح يشكل خطرا عليه ، وكان هذا الشاب فيما بعد النبي داود عليه السلام . وارادوا ان يتخلصوا نهائيا من الوجود الاسرائيلي الدخيل ، وبعد تعميق حدة

الصراع بين الاسرائيليين بعضهم والبعض الآخر ، شدد الفلسطينيون قبضتهم على الاسرائيليين ودارت المعارك في وادي «بزرعيل» وفيها أنكسر الاسرائيليون وقتل منهم مقتلة كبيرة ، وكان بين القتلى على حد رواية التوراة لهذه المعركة اكثر من ولد لشاءول واصيب هو نفسه اصابة بالغة ادرك معها انه لا يمكن له ان يعيش بها ، فضلا عن ان يواجه عدوه او ان يكون قائدا لجيش ، فأمر حامل سلاحه ان يجهز عليه لئلا يجهز عليه الفلسطينيون انفسهم ويتشفوا منه بتشنيعهم فيه وعليه ، فلما ابى حامل سلاحه اخذ شاءول بنفسه سيفه واتكأ عليه فكان في ذلك نهايته .

بهذه الطريقة التي تتحدث عنها التوراة ، والتي تنعدم فيها كل معاني الشجاعة او البطولة ، كانت الهزيمة المرة التي انكسر فيها الاسرائيليون ، وسقط فيها شاءول في مكان يسمى « جبل الجلبوع » ، الذي قد يكون هو اليوم مكان القرية التي تسمى « جلبون » في مرج ابن عامر (١) والذي كان وما يزال يسمى ايضا «بزرعيل» وقد جاء الفلسطينيون وعلقوا راسه على سور « بيت شان » منطقة بيسان اليوم ، ثم جاء قوم من منطقة شرق الاردن فاخذوا جثته ودفنوها عندهم .

وتفصح التوراة في آياتها وكما سبق وان وجهنا اليه كثيرا دون قصد من المؤلف التوراتي ، الى ما يمكن تصوره لهذه المرحلة التي قادها شاءول ثم انتهت تماما في يد الفلسطينيين بقتل وهزيمة الاسرائيليين ومصرع شاءول نفسه بالنهاية الاثيمة التي تصورها التوراة .

يقول الاصحاح الحادي والثلاثون من سفر صموئيل الاول :

« ... وحارب الفلسطينيون اسرائيل فهرب رجال اسرائيل من امام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع ، فشد الفلسطينيون وراء شاءول وبنيه ، وضع الفلسطينيون يوناثان ، وابيناداب ، وملكيشوع ابناء شاءول ، واشتدت الحرب على شاءول ، فأصابه الرماة ، رجال القسي فانجرح جدا من الرماة فقال شاءول لحامل سلاحه ، استل سيفك واطعني به ، لئلا ياتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني ، فلم يشأ حامل سلاحه لانه خاف جدا فاخذ شاءول السيف وسقط عليه ، ولما راى حامل سلاحه

---

(١) انظر : محمد عزة دروزة في «تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم» السابق الاشارة اليه .

انه قد مات شاءول سقط هو ايضا على سيفه ومات معه ، فمات شاءول وبنوه الثلاثة ، وحامل سلاحه ، وجميع رجاله في ذلك اليوم معا ولما راى رجال اسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الاردن ان رجال آسرائيل قد هربوا ، وان شاءول وبنيه قد ماتوا ، تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها .

وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعدوا القتلى ، وجدوا شاءول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع . فقطعوا راسه ونزعوا سلاحه وارسلوا الى ارض الفلسطينيين في كل جهة لاجل التبشير في بيت اصنامهم وفي الشعب ووضعوا سلاحه في بيت عشتاروث وسمروا جسده على سور بيت شان » .



وبهذه النهاية لحياة الرجل الذي يعتبره كثير من الدينيين اليهود وخاصة الجماعات الغلاة في التطرف الديني انه واحد من ملوك الدور الاول من ملوك بني اسرائيل شاءول واشبوشت ، وداود ، وابشالوم بن داود ، وسليمان بن داود ، بهذه النهاية ايضا كانت مقدمات العصر المنصور عند اليهود بأنه بداية مرحلة « الملوك الاول » في التاريخ الاسرائيلي ولم يصبح القوم ولا تاريخهم موضع اهتمام الا حين لعب الدين وعملت المعجزة الدينية عملها على أيدي رجال مخلصين طاهرين وانسانيين يرفضون العنصرية والتعصب وكل مظاهر الاستغلال والسيطرة او الاستعباد ، بل خيرين وافكارهم ومعتقداتهم واساليب هدايتهم ادوات ومجالات مفتوحة لكل القيم الانسانية ولكل معاني الخير التي تفيض بها دائما الرسالات السماوية ، وما ان تقوم مثل هذه الدعوات لكي تنتقل بمرحلة من عمر الصراع الاسرائيلي وتطاحنه مع بعضه ، ومع الشعب الذي يحارب في ارضه الى حالة من السلام الا وتواجه بالمواقف التقليدية من رفض الاسرائيليين وتنكرهم لكل القيم الدينية وما تمثله من دعوة للخير والحب والسلام .

غير انه في مجال العرض التاريخي على ضوء ما تقدم الآيات الدينية فان الباحث تقتضيه الامانة العلمية ، أن يقف وينظر تاريخ الاسرائيليين في عصر داود ، « النبي » (عليه السلام) وهو يؤدي دوره في المسيرة التاريخية

المدعاة والمصنوعة زيفا وبهتانا عند بني اسرائيل ، بأن التاريـخ اليهـودي شيد صروحا من الحضارة واقام نظاما وأسس مملكة ، مثلت حق الديـن وحق التاريخ لابناء اسرائيل في دعواهم وعلى ضوء ما في دين القوم، فلننظر مكان داود في معتقد القوم وتاريخهم (١) وان كانت طبيعـة النظر في هـذه المرحلة تقتضي منا ان نسمع راي البحث العلمي في منهاجية مصادر هـذا التاريـخ .

« منهاجية التوراة ككتاب في التاريخ » :

قاريء العهد القديم اذا ما لزمه منهج التكامل الموضوعـي في النظـر فانه سيجد نفسه امام انعدام تام لفكرة التكامل الموضوعـي او العقائـدي في العهد القديم . ذلك لان معظم القصص الديني او التاريخي فيه لا يستقيم ابدا وطبائع الاشياء فضلا عن قداسة الوحي الالهي حين يقص او يسجـل او يوجه .

والدارس للعهد القديم لا يطمئن تماما الى الفكرة القائلـة بعصمـة الكتاب المقدس بعهديه ، فلئن جاز رؤية العهد الجديد وكل متعلقاته بمنظار الاخلاق وعمل الضمير فان ذلك لا يصدق او يتوافق مـع روح العـدوان والشر والخطيئة المسجلة في معظم آيات العهد القديم وما لحق بأسفاره .

وليس هناك من منهاج متعلق بعمل الوحي او عمل القداسة الدينيـة في مجمل آيات التوراة سوى ما في القصص الروائي من اجترار او ادعـاء او معالجة لمرحلة معينة لقطاع من الناس في ظروف من القهـر والعـدوان او المذلة والتشريد . وليس قولنا هذا بالادعاء العـدواني او هو طـرح للموقف التعصبي ، فلو رحنا نتابع في واحد من امهات كتب البحث العلمي الجاد في قضية التوراة كتراث لمتعلقات يهودية كبرى في التاريـخ لطالعنـا

---

(١) عن الادعاءات الدينية في ذروة مراحلها عند بني اسرائيل من الممكن الرجوع الى مـا كتبه د. ج. وفي فيربلوفسكي بعنوان : « بنـو اسرائيل وارض اسرائيـل » ونشره مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية رقم ١١ ضمن مجموعـة المقـالات التي صدرت في الكتاب المعنون بعنوان : « من الفكر الصهيوني المعاصر » .

الاستاذ الدكتور صبري جرجس الذي يقول في كتابه (التراث اليهـودي الصهيوني والفكر الفرويدي) الصادر في القاهرة عام ١٩٧٠ م. عـن دار « عالم الكتب » ما بين صفحات ٥١ ـ ٦١ وتحت عنوان « التوراة » ككتاب في التاريـخ .

الانطباع العام الاول الذي يبقى في نفس قارىء التوراة ككتاب تاريخ انها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التي صيغت في جو اسطوري حافل بالاثارة مجاف للعقل والمنطق غاص بالمتناقضات مشبع بالسخف مفعم بمشاعر العدوان والتعطش الى الدماء . وهـذا الانطبـاع الذي يصطدم على الفور بما كان القارىء يتوقع ان يجد فيها ككتاب تاريخ يصبح مفهوما ومعقولا اذا نحى عنها هذه الصفة ونظر اليها في ضوء العصر الذي روت اخباره والحضارات التي اتصلت بها من ناحية والافراد الذين قاموا على كتابتها والاهداف التي قصدوا اليها من ذلك من ناحية اخرى ، فانها في هذا الضوء تعكس تفكيرا بشريا محضا من اللون الذي كان سائدا في الشرق الادنى القديم في ذلك الحين ومرادفـا لامثالـه مـن الاساطـير والطقوس والاتجاهات الفكرية والعقائدية والمميزة لحضارات ذلك العصر، كل ذلك في اطار سمات نفسية تغذيها نزعات الجشع والغرور والاستعـلاء وتحركها دوافع الجنس والعدوان الذي لا يهدأ حتى مع الدم المراق .

وفي مجال التاريخ لم تفتأ اليهودية تفاخر العالم متباهية بأنها هـي التي هدته الى ديانة التوحيد . وبغض النظر عما أشرنا اليه قبلا عن مفهوم التوحيد الذي نادى به اخنتـون (الاسرة الثامنـة عشرة ١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ ق.م.) فاننا نرجو ان نحاول الآن رؤية القيمة الحقيقية لمفهوم التوحيـد اليهودي كما هو مستقى من التوراة ومستمد منها .

اول ما يبادرنا بهذا الصدد ان فكرة الاله الواحد بدات في التـوراة مع ابراهيم، ولكن كيف كانت هذه البداية ؟ كانت البداية ان جعلت التوراة من «الرب الاله» ربا الها لابراهيم اول الامر (تكوين ١٢ : ١ ـ ٣٠ ، ١٣ : ١٤ ـ ١٨ ، ١٥ : ١٨ ـ ٢٠) ثم بعد ذلك وقد امره اللـه بتغيير اسمه الـى ابراهيم (تكوين ١٧ : ٧ ـ ٨ ، ٢٤ : ٣٦) . وبعد اسحق جاء ابنه يعقوب الذي قال الله له في الحلم « انا الرب اله ابيـك ابراهيـم والـه اسحـق (تكوين ٢٨ : ١٣) ثم حين قال يعقوب مخاطبا ذلك الاله بقولـه « يا الـه ابي ابراهيم واله ابي اسحق » ، (تكوين ٣٢ : ٩) ، ثم حين امره الله بالنزول الى مصر قائلا له : « انا الله اله ابيك » (تكوين ٣٦ : ٤) .

وتنتقل التوراة بنا بعد ذلك الى موسى فتروي لنا ان الله قال له « انا اله ابيك اله ابراهيم واله اسحق وآله يعقوب » (خروج ٣ : ٦) ثم قول « الله » لموسى حين سأله بم يجيب قومه اذا سألوه عمن ارسله اليهم « وهكذا تقول لبني اسرائيل اهيه ارسلني اليكم » (خروج ٣ : ١٤) ، ثم تابع قوله لموسى « هكذا تقول لبني اسرائيل يهوه اله ابائكم اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب ارسلني اليكم . هذا اسمي الى الابد ... » (خروج ٣ : ١٥) ثم احدث على يده بعد ذلك معجزة تحول الافعى الى عصى لكي يصدق بنو اسرائيل « انه قد ظهر لك الرب اله آبائهم واله ابراهيم واله اسحق ويعقوب » (خروج ٤ : ٥) .

وتنتقل التوراة خطوة اخرى في مفهوم (الله) بعد ذلك فتصوره الها لبني اسرائيل كلهم . وقد بدات ذلك بحديث دار بين الرب وبين موسى طلب فيه الرب ان يقول لبني اسرائيل انه سيخرجهم من تحت اثقال المصريين ليعلموا انه هو الرب الههم (خروج ٦ : ٦ ـ ٧) ويتعذر علينا ان نتعقب أو نحصي عدد المرات التي تحدثت فيها التوراة صراحة بعد ذلك عن الرب بأنه اله اسرائيل ، فانها تتجاوز عشرات المرات . وحتى الاسفار الاخيرة في التوراة التي خرجت بمفهوم الله من اسرائيل الى غيرها من الشعوب ظل المعنى المتضمن مفهوم الله انه في المقام الاول اله اسرائيل.

ما هو المعنى المستخلص مما ورد بالتوراة في صدد هذا المفهوم المحدد عن الله ؟. يتلخص هذا المعنى في ان « اله » اسرائيل لم يكن « الله » كما تفهمه البشرية في ديانات التوحيد اليوم ، ولكنه كان مجرد اله قبلي خاص ببني اسرائيل ، على غرار الآلهة التي كانت للحضارات الاخرى المعاصرة ، ومن هنا كان من السهل ان ينتقل بنو اسرائيل من عبادة « يهوه » الههم الى عبادة غيره من الارباب المتاخمين والمعاصرين على نحو ما اشرنا في مواضع متعددة من هذا الفصل من قبل .

ولسنا نحن الذين نقول بهذا الراي وحدنا ، بل يتفق معنا فيه الكثيرون من علماء الدين المقارن . فقد ذكر فلويد وروس في كتابهما « الاديان الكبرى التي يؤمن بها البشر » ما يلي : « اوضح كثير من علماء اليهود ان هذه القصص (يعني القصص الواردة بسفري التكوين والخروج لا يمكن ان تؤخذ كتاريخ حرفي . انها اساطير كتبت بعد عدة قرون ونقلا من ذاكرة افراد من العبرانيين تناقلوها جيلا بعد جيل . وتدل هذه الاساطير على ان الله كان لدى العبرانيين في اول الامر الها قبليا : يحميهم بوصفهم

من نسل آبراهيم . وكان معروفا ان ابراهيم قد عبده ، ومن بعده ابنه اسحق ثم يعقوب الذي سمي فيما بعد اسرائيل .

« وتدريجيا اخذ الاعتقاد ينتشر بين العبرانيين اليهود ان هذا الاله القبلي هو فعلا الاله الواحد لكل الخليقة . وقد استغرق هذا الاعتقاد لكي بتكون قرونا طويلة ومر بمراحل متعددة من خلال انبيائهم وملوكهم مثل داود واشعياء حتى استقر في نفوسهم آخر الامر » .

وذكر كيليت في كتابه « موجز في تاريخ الاديان » ان اله اليهود كان الها قبليا لا يختلف كثيرا عن آلهة مواب وامون . ثم عاد وذكر ان نظرة اليهود الى الله تختلف عن نظرة الشعوب الاخرى التي تدين بالتوحيد انه عندهم اله متغير متقلب المزاج يستخدم وسائل غير مفهومة في كثير من الاحيان ، فهو مثلا قد خلع شاءول لاعفائه اسيرا من الاسر ، وهو قد كان يثور غاضبا على « شعبه المختار » اذا ارتكب ولو خطأ صغيرا ، وكان في نظر داود ذا نزوات ، كما كان بعض عباده مثل صموئيل وداود يغضبون منه احيانا . وختم كيليت بحثه مقررا ان فكرة الله عند اليهود مرت بخطوات ومراحل كثيرة قبل أن يصبح جديرا بالعبادة .

وقرر موسكاتي في كتابه « وجه الشرق القديم » ، ان اسرائيل كانت متاثرة بمعتقدات الاقوام المحيطة بها ثم تساءل « اذا كان الراي متفقا على ان عقيدة التوحيد ظلت متأرجحة حتى على عهد الانبياء وتعرضت لكثير من الازمات ايمكن القول بعد ذلك انها قبل عصر الانبياء كانت بمعناها العام المعروف الآن ، او انها ظلت لفترة طويلة نوعا من عبادة اله قومي لا يستبعد وجوده ــ وجود آلهة غيره للشعوب الاخرى » . ثم يمضي فيقرر ان لاسرائيل الفضل في انها فصلت بين ما هو الهي وما هو طبيعي او بشري وانها ارتفعت فوق مستوى الاسطورة وان كان البعض يروي ان هذا ارتفاع في الظاهر فقط ، لان لها الاسطورة الخاصة بها وهي ظهور الله لشعبها واقامته العهد معه . ويختم موسكاتي هذا الجانب من بحثه فيقرر « ان العهد القديم (التوراة) كتبه اشخاص مختلفون في عصور مختلفة وبمحتويات مختلفة » .

وبالاضافة الى الدليل المباشر المستمد من نص التوراة ومن آراء علماء الدين المقارن من ان « اله » اسرائيل كما يفهم من التوراة التي دونها اليهود

لم يكن سوى رب قبلي محلي لا يطابق مضمونه مفهوم التوحيد بمعانيه الروحية السامية التي نعرفها الآن فان هناك دليلا آخر مستمدا من وصف التوراة ذاتها لذلك الاله ، فبينما يذكر « الرب » فيها كثيرا في اطار من المهابة والجلال اذا به يوضع في احيان كثيرة اخرى في مواضع لا تليق بالانسان من البشر ذي العزة والخلق الكريم فضلا عن « الرب الاله » العظيم .

فقد صورته التوراة اولا في صورة المساوم مع احد عباده . جاء بها على لسان يعقوب انه قال « ... أن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي انا سائر فيه واعطاني خبزا لآكل وثيابا لالبس ورجعت بسلام الى بيت ابي يكون الرب لي الها » (تكوين ٢٨ : ٢٠ — ٢١) . ولا حاجة الى التعقيب بأن هذا القول يعني ضمنا ان « الرب » ان لم يقبل الصفقة فان يعقوب لن يقبله الها .

وتذكر التوراة ليعقوب مع الرب واقعة اخرى لا تقل في دلالتها على معنى الرب لدى من دونوا احداث هذه الحقبة من تاريخ اسرائيل . تقول التوراة في مجال رواية هرب يعقوب من وجه اخيه عيسو خشية البطش به لخداعه اياه « فبقى يعقوب وحده . وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ولما راى انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال اطلقني لانه قد طلع الفجر . فقال لا اطلقك أن لم تباركني . فقال له ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل . لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال اخبرني باسمك . لماذا تسأل عن اسمي . وباركه هناك » (تكوين ٣٢ : ٢٤ — ٢٩) . ولم يكن هذا « الانسان » الذي صارع يعقوب حتى الفجر وخلع حق فخذه الا « رب » يعقوب نفسه ، وهو أيضا «الرب» الذي طلب من غريمه ان يطلقه ولم يكن يعرف من يصارع حتى سأل عن اسمه ولا مجال حتى التفسير الاسطوري في هذا المقام .

ونسبت التوراة الى « الله » من الصفات ما هو من صفات العامة لا حتى الخاصة من البشر ، فعزت اليه مثلا انه اقسم حين قال لموسى « هذه هي الارض التي اقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلا لنسلك اعطيها ... » (تثنية ٣٤ : ٤) كما عزت اليه ايضا انه انطلق في سلوك اندفاعي غاضب على هارون ومريم لانهما تكلما مع موسى بسبب المراة الكوشية التي اتخذها واذا بهذا الغضب يبطش بمريم فتبدو كالبرصاء ،

وحين يتشفع موسى للرب بشأنها يجيبه الرب قائلا « ولو بصق ابوها في وجهها اما كانت تخجل سبعة ايام » (عدد ١٢ : ١٤) وكأن اللغة قد اعوزت « الرب » فلم يجد الا هذه العبارة القبيحة يعبر بها عن رأيه في عقاب مريم بدفعها الى عزلة اجبارية لمدة سبعة ايام .

ولم يفت التوراة ان تنسب لرب اسرائيل النسيان والتذكرة فقالت « ... وتنهد بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا ، فصعد صراخهم الى الله من اجل العبودية فسمع الله انينهم فتذكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب ... » (خروج ٢ : ٢٣ ـ ٢٤) .

كما لم يفتها ان تنسب « للرب » الندم ، واية ذلك ان الله حين غضب على بني اسرائيل لرجوعهم عن عبادته وعودتهم الى عبادة العجل الذهبي الذي صنعوه بأيديهم بعد ان طال غياب موسى عليهم دخل الله مع موسى في جدل ونقاش وخاطبه قائلا « اتركني ليحمى غضبي عليهم وافنيهم » (خروج ٣٢ : ١٠) . وحاول موسى استغفار ربه فلم يجد من سبيل لذلك الا هذه العبارة يوجهها اليه « ... ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك » (خروج ٣٢ : ١٢) . ثم تابع خطابه « للرب » فيما يشبه التأنيب « اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم اكثر من نسلكم كنجوم السماء واعطى نسلكم كل هذه الارض التي تكلمت فيملكونها الى الابد » (خروج ٣٢ : ١٣) وقد كان لكلام موسى هذا اثره المرجو « فندم الرب على الشر الذي قال انه يفعله بشعبه » (خروج ٣٢ : ١٤) .

بيد ان هذه لم تكن هي المناسبة الوحيدة التي ندم « الرب » فيها على ما كان موشكا ان ينزله بدافع الغضب ببني اسرائيل ، فما اكثر المناسبات ، التي فيما تروي التوراة ، انطلق فيها رب اسرائيل مندفعا في غضبه ثم تراجع منحسرا في ندمه . ومن ذلك انه في اخريات عهد داود حمي غضب « الرب » على اسرائيل كما اعتاد ان يحمى من قبل عشرات المرات « فجعل الرب وباء في اسرائيل من الصباح الى الميعاد فمات من الشعب من دان الى بئر سبع سبعون الف رجل . وبسط الملاك يده على اورشليم ليهلكها فندم الرب على الشر ... » (صموئيل الثاني ١٤ : ١٥ ـ ١٦) . وهكذا تقول التوراة ان ندم « الرب » على شره انقذ اسرائيل من الهلاك .

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد الذي دخل فيه « اله » اسرائيل في نقاش مع عباده ، فان التوراة غاصة بمناقشات لا حصر لها بين « اللـه » وبني اسرائيل . وليت الذي الف هذه المناقشات فطـن الى الاحتفـاظ لها بما ينبغي ان تكون عليه من سمو ووقار ، ولكنه اجراها على مستـوى من السخف والتفاهة لا يكون الا بين الانداد الحمقى من بني البشر . وقد وصل الاسفاف في هذه المناقشات احيانا الى الحـد الذي جعـل « اله » اسرائيل يسأل موسى ذات يوم قائلا « حتى متى يهينني هذا الشعب » (عدد ١٤ : ١١) ثم الى حد التهديد بألا يرى جميـع الذين اهانوه الارض التي حلف بها لآبائهم (عدد ١٤ : ٢٣) .

وبعد فعم تكشـف هذه الامثلة القليلـة لعشرات مثلهـا مـن قيمـة التوراة ككتاب تاريخ ؟ فانه اذا كانت صورة « اله اسرائيل » ذاتها لم تعصم من هذا التناقض والابتذال ، افي الوسع ان نقبل محتويات الكتاب الـذي يأتلفها على انها من حقائق التاريخ ، او انه حسبنا النظر اليها كمجموعـة من الاباطيل صنعها الخيال ليصل من صنعها برغم التاريخ وعلى حسابه ، الى تحقيق غرض معين ؟ واذا كان الامر كذلك فما عسى آن يكون الغرض ؟

لعلنا نجد الاجابة على هذا السؤال فيما وراء الزعم الذي جاء بسفر التثنية، السفر الاخير فيالمجموعةالمعروفةباسم «آسفار موسىالخمسة»(١) الذي تزعم فيه التوراة أن موسى هو كاتب هذه الاسفار (٢) فانه اذا كان

---

(١) « فعندما كمل موسى كتابه كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها امر موسىاللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب الهكم ليكون هناك شاهدا عليكم لاني انـا عارف تمردكـم ورقابكـم الصلبـة ... » (تثنية ٣١ : ٢٤ – ٢٧) .

(٢)المعروف ان اسماء المناطق المختلفة لهذا الجزء من العالم قد تعرضت لتغييرات متعددة على مر الزمن . ومراجعة الاسماء المختلفة التي اطلقت عليهـا بالنسبة للعصر الـذي اطلق فيه الاسم يصبح اذن من الادلة الحاسمة الى صحة او زيف ما يقال من ان هذه الاسفار كتبها موسى . وقد ناقشت ابكار السقاف هذه الحجة مناقشة مطولة فـي كتابها « اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة » ولكن حسبنا منها هنا بعض الامثلة .
١ – جاءسفر التكوين (٢٦ : ٧ – ١١) حديث عن ابيمالـك « ملك الفلسطينيين » فيما جرى له مع اسحق بصدد زوجته رفقه ، وكان العصر الـذي جـرت فيه هذه الواقعة هو القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكانت الارض هي ارض جرار ، ولم تعرف هذه البلاد باسم « فلسطين » الا منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد بعد ان غزتهـا

موسى هو كاتبها فكيف تسنى له ان يذكر قصة موته بتفصيلاتها فيما كتب قبل ان يموت ويدفن ، ثم كيف تسنى له أن « يتنبأ » بعدم الاهتداء

قبائل فلستنيا الكريتية فنسبت اليها ، اي انها في عهد موسى كانت لا تزال معروفة باسم « كنعان » وقد تكررت هذه العثرة مرة اخرى،حين ترنم موسى ومعه بنو اسرائيل للرب بمناسبة خلاصهم من يد المصريين ، وجاء بالترنيمة « ... تاخذ الرعدة سكان فلسطين » (خروج ١٥ : ١٤) .

٢ ــ جاء بسفر التكوين (٣٦ : ١) ان عيسو الابن الاكبر لاسحق قد اصبح اسمه ادوم ، ثم عدد نفس السفر نسل عيسو ابو الادوميين (٩ ــ ٢٩) وبعد ان فرغ من ذلك ذكر ان « هؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في ارض ادوم قبلما ملك ملك لبني اسرائيل » (تكوين ٣٦ : ٣١) ومعروف ان عيسو عاش في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، بينما بدات الملكية في اسرائيل بشاءول عام ١٠٠٧ ق.م. ومعنى هذا ايضا ان الملكية لم يكن لها وجود او احتمال وجود على ايام موسى ، فكيف اتيح له الكتابة عنها اذا صحت نسبة هذه الاسفار اليه ؟

٣ ــ قضى بنو اسرائيل اربعين سنة في التيه بالبرية ولكن نسب اليهم برغم ذلك القيام بصناعات معقدة لا تتوافر القدرة على تخيلها كما لا تتوافر خاماتها من اخشاب ومعادن وحجارة كريمة او تتوافر المهارة الفنية اللازمة لادائها الا في المدنيات المزدهرة المستقرة (خروج ٢٧) .

ثم نسب اليهم ايضا التنعم بطعام فيه ألوان من الخراف والكباش والبقر والطيور (خروج ٢٨) لا يعرف الا من الحياة الحضرية المتقدمة وهم الذين كان قصاراهم وقتئذ ان يمطر الله لهم خبزا من السماء فيخرج الشعب لالتقاط حاجة اليوم بيومها (خروج ١٦ : ٤) وهم ايضا الذين كثيرا ما ثاروا على موسى متذمرين ومؤنبين بل ومهددين متآمرين لانه اصعدهم من مصر ليميتهم بالجوع والعطش ، وتمنوا باكين من يطعمهم بمثل ما نعموا به من ألوان الطعام بمصر (خروج ١٧ : ٣) عدد ١١ : ٤ــ٥ ، ١٤ : ٢ ــ ٣ ، ١٦ : ١٣ ــ ١٤ ، ٢٠ : ٣ ــ ٥ ، ٢١ : ٥) .

٤ ــ جاء بسفر اللاويين في معرض التكفير عن الخطأ في اقداس الرب ان « ياتي للرب بذبيحة لاثمه كبشا صحيحا من الغنم بتقويمك من شواقل الفضة على شاقل القدس ذبيحة اثم » (اللاويين ٥ : ١٥) ومعروف ان اليهود لم يكونوا قد دخلوا القدس على عهد موسى ، ولا ان عمله ضربت فيها الا بعد الاحتلال اليهودي . ومن ثم تصبح هذه الرواية دليلا على تدوينها بعد عهد موسى .

وحسبنا هذا القدر من التدليل على المناقضات الواردة باسفار موسى الخمسة لكي نتبين ان نسبتها الى موسى بوصفه كاتبها ليست الا زعما يناهضه الدليل وينقضه. اما الذي تشير الشواهد اليه ، شواهد الدراسة لهذه الاسفار في خلفية التاريخ اليهودي وشواهد الاحداث التي تتابعت في هذا التاريخ على حد سواء فهو ان هذه الاسفار كتبت بعد عهد موسى بعدة قرون ، وانها كتبت بمعرفة عدة اشخاص ، ثم هي فوق ذلك كتبت وثمة هدف معين امام اعين كاتبيها رجوا ان يتحقق من كتابتها . اما الحقيقة وموضوعية التاريخ فلا شان لهما بهذه الاسفار من قريب او بعيد .

الى قبره ؟ اما الواقع فيقرر لله لا يكاد يوجد اليوم من لا يزال يؤمن بصحة هذا الكلام ، فان اجماع الراي الآن بين المؤرخين عموما ومؤرخي الدين على وجه الخصوص هو ان هذه الاسفار كتبت بعد عهد موسى بزمن طويل . وصحيح ان تاريخ كتابتها كان موضع خلاف كبير في الراي ولكن الذي لم يصبح موضع خلاف منذ اواخر القرن التاسع عشر فهو ان هذه الاسفار مركبة النشأة . والراي يتجه الآن الى انها مجموع اربع وثائق ادمجت بعضها في بعض بواسطة الاحبار وصيغت في صورتها الحالية في القرن الرابع قبل الميلاد ، وان كانت كتابتها قد بدات فيما يعتقد الكثيرون من الثقات ، اثناء فترة السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد .

وليس الامر في هذه الحجة انها تضع اللمسات الاخيرة في اهدار القيمة الموضوعية للتوراة ككتاب تاريخ وحسب ، بل انها تثير تساؤلا جوهريا حول مدلول الحدث الاكبر والاول الذي هز اليهود من الاعماق ، حدث تصفية الدولة ثم السبي ، في كتابة هذه الاسفار وما يلحق بها عادة من السفر الذي يليها وهو سفر يشوع .

وما يهم في هذا الصدد ان تكون التوراة بعد ذلك كتابا مقدسا او لا تكون . ذلك شأن من يريدون ان يروها في نصها الراهن على هذا النحو او ذلك ، ولكن الذي يهم الا تكون كتاب تاريخ يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل كما حاول فرضه على الماضي واذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد سندا له الا فيما يزعم لها من قداسة فالذي لا شك فيه ان هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ وقيمتها ككتاب مقدس ، ذلك انه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس تضاءلت الريبة وصدق ما ضمنته من وقائع وسهل وصول هذه الوقائع الى يقين الناس على انها من حقائق التاريخ التي لا ينبغي الشك فيها ولا مناص من التسليم بها . وقد ادركت اليهودية الصهيونية هذه الحقيقة فأحسنت استغلالها اعلاميا في الغرب المسيحي لدعم ما زعمت انه حقها في انشاء دولة اسرائيل .

ولكن اية قيمة موضوعية تتبقى لتاريخ لا يجد سندا له الا فيما يزعم لكتاب واحد من قداسة ، وهي بعد « قداسة » توجه اليها سهام الريب من اكثر من جانب وليس بالوسع القول بانها ترقى الى ما فوق مظان الشبهات ؟

فاذا نحينا قداسة التوراة جانبا فما عسى ان يكون الهدف الذي

يعنيها الوصول اليه من خلال ما يزعم لها انها كتاب تاريخ ؟

ليس اكتشاف هذا الهدف فيما نرى بالامر العسير على من يطالع التوراة مطالعة امعان وتمحيص . اذ سرعان ما يتبين انها تنطوي حتى اسفارها الاخيرة على فكرة محورية لا تفتأ تدور حولها في تكرار يصل في كثير من الاحيان الى حد الاملال . وقد بدات هذه الفكرة ببركة ذكرت ان الله قد منحها ابراهيم حين قال له « ... اذهب من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك الى الارض التي أريك فأجعلك امة عظيمة وأباركك واعظم اسمك وتكون بركة » (تكوين ١٢ : ١ — ٢) . ثم بوعد ذكرت ان الله أغدقه على ابراهيم في قوله « ... ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، لان جميع الارض التي انت ترى لك اعطيها ولنسلك الى الابد ، واجعل نسلك كتراب الارض ... » (تكوين ١٣ : ١٤ — ١٦) . ثم ارتفع الوعد الى مرتبة العهد او الميثاق فيما جاء بالتوراة « في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » (تكوين ١٥ : ١٨) ثم عادت التوراة تكرر عهد الله مع ابراهيم في قولها « فاجعل عهدي بيني وبينك واكثرك كثيرا جدا » (التكوين ١٧ : ٢) . ثم قولها « واقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في اجيالهم عهدا ابديا .. واعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك كل ارض كنعان ملكا ابديا » (تكوين ١٧ : ٧ — ٨) وحين صدع ابراهيم لامر الله بذبح ابنه ناداه ملاك الرب قائلا على لسان الرب « ... بذاتي اقسمت يقول الرب اني من اجل انك فعلت هذا الامر ولم تمسك ابنك وحيدك اباركك مباركة واكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر ويرث نسلك باب اعدائه ويتبارك في نسلك جميع امم الارض ... » (تكوين ٢٢ : ١٦–١٨) .

واعاد الرب وعده لاسحق فيما جاء بقصة التوراة « ... اسكن في الارض التي آقول لك تغرب في هذه الارض فأكون معك وأباركك . لاني لك ولنسلك اعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي اقسمت لابراهيم ابيك واكثر نسلك كنجوم السماء واعطي نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك في نسلك جميع امم الارض (تكوين ٢٦ : ٢ — ٤) .

ثم استأنفت التوراة تكرارها لذلك العهد في قول الرب مخاطبا يعقوب « ... الارض التي انت مضطجع عليها اعطها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الارض وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ويتبارك فيك وفي

نسلك جميع قبائل الارض . وها انا معك واحفظك حيثما تذهب واردك الى هذه الارض ... » (تكوين ٢٨ : ٢٣ — ١٥) وعادت التوراة الى تأكيد ذلك مرة اخرى عند تغيير اسم يعقوب الى اسرائيل فذكرت ان الله قال « ... انا الله العلي القدير . اثمر واكثر . امة وجماعة امم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والارض التي اعطيت ابراهيم واسحق لك اعطيها ولنسلك من بعدك اعطي الارض » (تكوين ٣٥ : ١١ — ١٢) .

ومن بعد اسرائيل جاء موسى وكان لا بد للتوراة ان تعيد هذا المعنى معه فقالت في مناسبة خروج بني اسرائيل من مصر ان الله خاطب موسى قائلا : « وايضا اقمت معهم عهدي ان اعطيهم ارض كنعان ارض غربتهم التي تغربوا فيها » (خروج ٦ : ٤) . ثم قوله ايضا « واتخذكم لي شعبا واكون لكم الها ... » (خروج ٦ : ٧) . وتمضي فتقول ايضا على لسان الرب مخاطبا موسى « ... اذهب اصعد من هنا انت والشعب الذي اصعدته من ارض مصر الى الارض التي حلفت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلا لنسلك اعطيها » (خروج ٣٣ : ١) .

وفي اواخر حياة موسى كان لا بد للتوراة ان تقرر هذا المعنى في عبارة قوية لعل قوتها تصلح ان تكون قناعا لما تنطوي عليه من زيف فتقول في وصف بني اسرائيل « وانتم اولاد الرب الهكم ... لانك شعب مقدس للرب الهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الارض » (تثنيه ١٤ : ١ — ٢) (١) .

وهكذا وصل الامر بالله ، فيما شاءت التوراة ان تزعم الى انه بالرغم من كل المعاصي والآثام التي حفل بها تاريخ بني اسرائيل ، وبرغم ما كان يغضبه منهم بين الحين والحين ، فانه كان غضبا اقرب الى المعابثة والتدليل وكان ما يثور حتى يعقبه العفو والغفران لانهم ابناؤه المقربون . وهكذا اوقعت التوراة « الله » في وزر لا يقع فيه الا الجهال من الآباء الذين يؤثرون بعض ابنائهم على بعضهم الآخر والذين بما لا يفتأون

---

(١) لم يكن وصف فلسطين بـ « ارض الميعاد » هو الوصف الوحيد الذي شاء احبار التوراة ، ان يكون لها ، فجاءوا باوصاف اخرى نذكر منها على سبيل المثال ارض « عمانوئيل » (اشعياء ٨ : ٨) ، ارض « الرب » (هوشع ٩ : ٣ ، اشعياء ١٤ : ٢) الارض « البهية » (دانيال ١١ : ١٦) الارض « المقدسة » (زكريا ٢ : ١٢) .

يغتفرون لابنائهم المقربين من ذنوب يسيئون اليهم بأكثر مما يحسنون ويعوقون بالتدليل والافساد وصولهم الى ما كان خليقا بهم ان يصلوا اليه من مستوى المسئولية والنضج .

وبعد ان تولى يشوع بن نون قيادة اسرائيل بعد موت موسى ودخل بهم ارض كنعان كانت المهمة قد تمت اذ « اعطى الرب اسرائيل جميع الارض التي اقسم ان يعطيها لآبائهم فامتلكوها وسكنوا بها » (يشوع ٢١ — ٤٣).

وبنهاية سفر يشوع يكون الوعد قد أعطي والعهد قد وفي واستقر الامر ببني اسرائيل « شعب الله المختار » في « الارض الموعودة » اي تكون هذه الاسفار قد حققت الغاية منها وأتمت المهمة التي كتبت من أجلها ، هذه المهمة التي فجرها في نفوس بني اسرائيل هو ان واقعا عاشوا من خلاله في مذلة الاسر والسبي بعد أوهام المجد التي نعموا بالحياة في ظلالها على ايام داود وسليمان . ايكون عجيبا بعد ذلك أن يولي احبارهم وجوههم شطر صهيون وان يجمعوا آمال شعبهم في مستقبل يعيد اليهم مجد الماضي ، وان يحيكوا ذلك كله في قصة اسطورية تنفخ فيهم وهم الاختيار من الله دون شعوب العالم اجمع وتقطعهم رقعة من الارض وعدا من الله لهم ولنسلهم من بعدهم .

وهكذا صنع احبار بني اسرائيل تاريخهم للماضي وللمستقبل معا . وهكذا عملوا على ان يضمنوا له الحياة والبقاء مصونا ككتاب تاريخ بما احاطوه من هالة القداسة فخالوا انهم يحفظونه بذلك منزها بعيدا عن بواعث الشك وهواتف الريبة والنقد .

اصل النبي داود وعلاقته ببني اسرائيل :

قبل ان نتحدث عن النبي داود ودوره في قيادة المعارك الاسرائيلية ضد العرب كواحد من جند شاءول انقلب عليه — حسبما تقص اخبار التوراة — برز من قلب القواعد الدنيا في جمهور اسرائيل ، فانا نود ان نعرض لنسب النبي داود وأصله من بني اسرائيل وفي بني اسرائيل ، ذلك ان التاريخ الديني عامة والاسرائيلي على وجه الخصوص هو الذي قال الكثير حول شخصية هذا الرجل « عليه السلام » ومع ذلك فان تاريخ الدين

الاسرائيلي الذي تحدث في مراحل كثيرة في تفصيل حول هـذا الرجل لـم يعرض لجملة قضايا تتعلق بشخصية داود فضلا عن سيرتـه التاريخيـة وعلاقته العضوية ببني اسرائيل . وفي مواجهة الغموض حول هذه القضايا ارى انه حين يتيسر القاء نظرة عليها انه يصبح من الـواجب الديني بـل والضرورة الدراسية حين الكلام عن المسرة التاريخية لليهود والاسرائيليين بما تفرضه النصوص الدينية وكثير من المراجـع ان يقف الباحث عنـد مجموعة الرجال الذين لهم علاقة بالتاريخ اليهودي المدعى ، وسواء صنعوه عدوانا ام شوهوه زيفا لا بد من وقفة امام تاريخهـم وان الباحث ليجـد نفسه امام تاريخ داود في حيرة من امر النصوص الدينية التوراتية وزيف الادعاء وتناقض الرواية التاريخية ، عند القوم غير انه لا بد من كلمة حول كل هذا الغموض ، ولو بالمنهج التوراتي .

واقول انه حين الكلام عن المسيرة التاريخية فيما يتعلـق بالنبي داود فان هناك بضع اشياء تتعلق بشخصيته لو امكـن اشاعتهـا كحقيقـة غير متداولة لم يهتم بها غير قلة من الباحثين لتغيرت الصورة العامة لكثير مـن الامور المسلم بها عقيدة زيف وخطأ تاريخ ، عند اليهود عبر كل التاريخ .

ومن هذه القضايا الاساسية بمنهج الدراسة التحليلية للتوراة بادىء ذي بدء قبل الكلام عن دور النبي داود ، ان النبـي داود ليس من بنـي اسرائيل خالصا وكذلك ابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ وعلى فـرض انهمـا اسرائيليين فانهمـا ليسـا اسرائيليين خالصين او نقيين (بالمفهـوم العنصري عند بني اسرائيل) وعليها فانه يصبح من الضرورة على ضوء ايات سجلات العهد القديم ان ينظر الى مكان النبي داود وكذلك ابنه سليمـان في التاريخ الاسرائيلي لا على انهما كانا نبيين رسولين او رجلين مـن كبـار بني اسرائيل وعظمائهم قدر النظر الى دورهما الذي رسمته التـوراة في الحركة الدينية التي دعا اليها كل منهما وخدم بها البيئة التي نشأ فيها ، وبالحوار العلمي الذي تحملنا مشقته في ظـل تناقضات التـوراة ، فان الصورة عن الرجلين العظيمين غريبة للغاية .

فمن يطلع على سفر « راعوث » والذي هو عبارة عن سجل خـاص لنسب النبي داود ، يجد فيه على طول اصحاحاته الاربعة ما يستفاد منه، ان رجلا اسرائيليا من اهل « بيت لحم » ومـن سبط « يهوذا » نزح مـع زوجته وولديه الى « موآب » ــ الرواية التعليلية للقصة ــ في مرحلة مـن الزمن كان الرجال منها يتسمون باسم « القضاة » فتزوج آحد الولدين واسمه « كليون » بامراة « مؤابية » اسمها « راعوث » .

ومن عجب ان تسمى السفر الذي تحدث عن نسب داود باسمهـا « راعوث » ثم بعد فترة مات « كليون » تاركـا راعـوث في ارض مـوآب العربية وكان قد زال الجوع عن ارض كنعان ، فعادت الحماة ومعها كنتها الى « بيت لحم » .

وهنالك تزوجت راعوث برجل من اقارب الحمـاة اسمـه « بوعز » فولـدت لـه ولـدا ، سمي عوبيـد وكبـر هذا الولـد وتزوج لينجب هذا ال « عوبيد » حين يكبر ولدا ، ويسميه « يسى » وهو والد النبـي داود « عليه السلام » فيما بعد .

وعلى ضوء هذه السلسلة من سجلات العهد القديم والتي تستفـاد في ايجاز ممـا في سفر راعوث ، فانه يتضح ان الآباء الاول لـداود ليسوا اسرائيليين بميراث نقي وانما يجري في دمه مزيج آخر من دم غير اسرائيلي، يجري دم من قبيلة موآب العربية في أعماقه ، ومن هنا تتضح خرافةدعوى العصر الحديث عن نقاء الجنس اليهودي وعدم اختلاطه بغيره منالاجناس منذ عصر الآباء الاول فان تعذر قيام هذه الدعوى التي سنفرد لها مبحثـا مستقلا واضحة فيها الاسطورة المدعاة عن نقاء الجنس اليهـودي فمنـذ عصر الآباء الاول بل حتى منذ عصر الانبياء ، وزيف دعوى الجنس ونقائه غير مقبولة حتى من آيات التوراة ومن بين نصوصه .

وعليها فنحن رغم اطمئناننا وتأكدنا من ان القول بتجريد داود عـن اسرائيليته او التقرير العلمي بأن نسبه واصله ليس خالصا في بني اسرائيل ولا لبني اسرائيل ، سيثير كثيرا من اللغط في التفسير الكهنوتي والديني ــ

الدهشة في التقبل عند العامة بل وسيكون هناك العديد من الاسئلة حول قيمة تأكيد مثل هذا المعنى الذي يقف امام معتقدات ما يرويه الخبر الديني والقصصي حول شخصية النبي داود ، ونحن نبادر فنقول ، اننا بادىء ذي بدء لم نتخل عن منهجنا في ان نبحث عن جوانب مثل هذا المعنى من مصدر غير ما يرجع اليه الاسرائيليون ويؤمنون به ، بل وما يجعلونه صلب كل دعوى واساس كل زيف ، وانها التوراة التي تقدم لنا هذا النسب وعلى ضوء هذا التقرير فانه اذا لم يكن منهجا جديدا يمكن ان يرد به على تاريخ بني اسرائيل في كل ما يتعلق باستغلالهم للقضايا الدينية فاننا سنكون في النهاية امام جملة نتائج من خلال تقديم انعدام التكامل الموضوعي في آيات التوراة . وبهذه النتائج فاننا نستطيع ان نقرر : بانه لا يوجد ميراث ديني او تاريخي تحمله الاجيال الاسرائيلية عقب النبي داود على اساس الاعتقاد التقليدي بان النبي داود اسرائيلي المولد والنشأة والاصل وانه بما صنع قد ترك ميراثه الديني للاجيال الاسرائيلية من بني جنسه فان على الاقل يصبح هذا المعنى الذي نقرره وهو ديني وتاريخي حول نسب رجل عظيم في مرحلة الاباء الاول لاسرائيل سندا لكل ما قرره العلم عن زيف دعوى الجنس النقي وخصائص النوع الممتاز واللغط الاسرائيلي اليهودي حول مثل هذه الدعاوى العنصرية المتعصبة التي لا يسندها علم ، بل ولا يرتضيها نظام حياة ولا يدعيها دين حتى من بين زيف الدين التوراتي وادعاءاته الكاذبة التي تبرز من بين الاخطاء الدينية والتاريخية في العهد القديم . (١)

النبي داود يقود في المعركة :

حسبما تقرر التوراة فان عصر الملوك المدعى ، يبدأ بسلسلة ملوك الدور الاول في اسرائيل ، وهم ، شاؤول ، واشبوشت ابنه ، وداود

---

(١) انظر مثلا : بنيامين جرين ، الذي كتب تلخيصا تاريخيا للعهد القديم .

وأبشالوم ابن داود ثائرا في حياة ابيه ، وسليمان بن داود بعد ابيه ، ومن التتبع الذي قصدناه لما في التوراة عن داود وكيفية نشأته ، فانه قد اتضح لنا جوانب من الغلو ، والخيال اليهودي الذي زيف معائي كثيرة لهذهالمرحلة المدعاة والمسماة بـ « عصر الملوك » ذلك ان التوراة في كثير مما قصته عن داود مما سنعرض لبعضه بالاتيان عليه بالنص ، قد صورت لنا نشأة داود الاجتماعية والعسكرية بأنه كان واحدا من الجماهير البسيطة والمضيعةوسط مظاهر التناقض الذي كان عليه القوم فلم يعد اعدادا خاصا ولم يكن يرجع في بيته الى حال من سعة العيش أو ينتمي الى جماعات المتسلطين والمسيطرين من رجال اسرائيل ، وجميع ما نسب اليه لا يتصور ولا يمكن قبوله علىما هو عليه لانعدام اعتباراتكثيرة اجتماعية وسياسيةوعسكرية، كان يفتقدها القوم جميعا . وجاء هو ، ودون ما سند او حافز او حماية ومارس انواعا من السلوك غير المعهود ولا المألوف في تاريخ بني اسرائيل ، ولا يمكن قبول المعاني التوراتية التي اقترنت بشخصية داود من شجاعة وتضحية ومحاولة لخلق النظام ثم تغلبه وسيطرته على صور التناقض المحيطة به ودعوته الى قضية العدل الاجتماعي آلا اذا كان في الاعتبار والاطمئنان رجوع الامر كله الى الدعوة الدينية وعمل المعجزة الالهية فيها، ويصبح بهذا المعنى المرتبط بالدعوة الدينية وعمل المعجزة الالهية فيها كل ممارسة للنبي أي نبي وكل جهد في التوجيه والهداية بل وكل موقف يقوده او مبادىء يقعد لها ويؤصل الدعوة لها ، غير مرتبطة بجهد القوم وتأثيرهم او غير مقترنة بتاريخهم وحوادثهم على الاطلاق ، بلى ان النبي هنا هو الذي يصنع التأثير وهو الذي يصنع الحوادث على غير ما تألف اخلاق الطبع الملتوي والخلق النهاز فاذا ما نجح فانما هي قيمة الدعوة الدينية وتأثيرها وعملها ، واذا رفضت الدعوة او لم تقبل تماما ثم استطاعت ان تترك بعض توجيه ، او ان تغرس بعض اداب وتقاليد أو تصنع حوادث وتقود مواقف، فانها فيما صنعته او تركته تصبح غريبة عن المناخ الذي لفظ الغرس ولم يكن له جهد في تكوينه ونموه ولا تصبح كل تأثيرات الدعوة الدينية وقيمتها حتى وان استمرت ميراثا دينيا او اجتماعيا للذين رفضوا الدعوة ، ولم يستجيبوا لها . بل قاوموها وقتلوها . وكل ما يتعلق بالارتباط بها بعد ذلك تصبح مواقف مدعاة ومصنوعة . ولا سند لها من دين او تاريخ .

واذا ما ذهبنا على ضوء من مثل هذا التقرير الذي نميل اليه نبحث الدور الذي قام به النبي داود في تاريخ بني اسرائيل او في عصر الملوك المدعى. فانا نجد اكثر من سند توراتي لما نذهب اليه . نجد مثلا فيما هو مقرر في سفر صموئيل الاول من الاصحاح السابع عشر ان : فترة نشأة داود في المجتمع الاسرائيلي . كان في الفترة التي يحارب فيها « شاؤول » الفلسطينيين وينهزم امامهم معركة بعد اخرى (١) وفي موقعة تجمع فيها الفلسطينيون يودون الاخذ بثأر واحدة من الخيانات الاسرائيلية ضدهم وكان الحشد الفلسطيني قويا ومنظما الى الحد الذي واجهوا به الاسرائيليين في صفوف متراصة ومستعدة للقتال في هذه المعركة بالذات لان الفلسطينيين على حد ما يستفاد من الرواية التاريخية للتوراة ارادوها حربا شاملة . ولذا فانهم جميعا قد قاموا للقتال . قومة رجل واحد ، فقد ارتدى جمع كبير من مقاتلي الفلسطينيين دروعا حديدية وخوذا نحاسية وكان قائد الفرسان العربي ، على حد ما تعبر التوراة وتقص ، يخرج كل يوم ولمدة اربعين يوما متتالية يستفز ويغيظ مشاعر الاسرائيليين ويهزأ بهم ويطلب منهم واليهم ان يطلوا برؤوسهم ، بل قد وصل التحدي العربي على حد رواية التوراة في السفر الذي ذكرناه ان كان من الجند العرب من يخرج ليعلي صوته للاسرائيليين ان يرسلوا اليه مقاتلا يقدر عليه ، فان قدر . فان جيشه المحتشد قد قبل ان يصير عبيدا للاسرائيليين .

ومهما تكن بعد ذلك من عمل الصنعة التوراتية فانها في هذا الموقف بالذات قد اكملت الرواية بمنهجها في التدوين بان الفلسطينيين قد انهزموا في هذه المعركة ، وهذا هو منتهى الافتراء في التدوين فان القوة التي كان يمكن ان تجابه الفلسطينيين وهم بالحال الذي وصفته التوراة كانت غير متوفرة على الاطلاق عند الاسرائيليين حتى « الحدوتة » التقليدية التي كانت دائما وابدا نغمة يلعب بها المؤلف التوراتي : من أن الرب كان ينزل يقاتل مع بني اسرائيل فقط دون غيرهم . قد انتهت في هذه المعركة لانها هي التوراة التي تقول ان ايام شاؤول قد غضب فيها الرب وتخلى عن الاسرائيليين .

وعلى طول رواية التوراة في اسفارها العديدة ، فانه لم يرد اي ذكر

---

(١) من الممكن الرجوع الى كتاب « حول تاريخ الانبياء عند بني اسرائيل » تاليف « م.ص. سيجال » وقد ترجمه من العبرية وناقشه وعلق عليه الاستاذ العالم والمؤرخ دكتور « حسن ظاظا » ـ صادر عن منشورات جامعة بيروت العربية ـ عام ١٩٦٧ م .

لداود قبل ان يظهر في الموقف الفجائي وهو لما يزل من الصبية الصغار، وفي هذه المواجهة التي تقصها التوراة أراد ان يدخل في قتال مع القائد الفلسطيني الذي تعرض بالطاردة للمجتمع الاسرائيلي المنزوي ، وفرض عليهم حالة من المذلة والهوان .

وتقول التوراة ان الاسرائيليين جميعا سخروا من داود كيف يتيسر له وهو صبي ان يبرز لهذا القائد العملاق الذي تسميه التوراة « جليات » وتقول عنه اسطوريا كان طوله ستة اذرع خرشفى ووزنه خمسة الاف شاقل وجوموق نحاس بين كتفيه ، ويحمل ستمائة شاقل حديد ، وامام اصرار الفتى ــ داود ــ ابن الرجل الفقير الذي اسمه « يسى » والذي يعول ثمانية اولاد علم شاؤول برجاء الفتى واصراره على ان يتيحوا له لقاء القائد الفلسطيني فطلب مجيئه اليه ، وحاول ان يثنيه عن عزمه اشفاقا عليه . ولكن الصبي في الحاح غير عادي أراد أن يغير طبيعة الموقف ، فأمر له القائد الاسرائيلي شاؤول بلباس حربي من الخوذ والنحاس ، ولكنه بعد تسلمها لم يعرف استعمالها وفضل لقاء الحرب والمحارب الفلسطيني مجردا من ادوات الحرب .

والذي نود ان نقرره هنا ، ان بني اسرائيل على حد رواية التوراة رغم الاستعداد للحرب ، بل ورغم حروبهم للفلسطينيين كثيرا فانهم لم يكونوا من الشجاعة ان يظهروا لهم ويخاطروا بلقائهم ، وهذا المعنى طبع وتاريخ عند بني اسرائيل لمواقف كثيرة تحدثت عنها التوراة ، وفي هذه الوقعة بالذات التي برز فيها نجم الفتى داود (في رواية التوراة) فانه لمن الواضح جدا حتى بمنهج التوراة انه لا القوة الاسرائيلية ولا الرجال ، ولا سيف الرب ــ المدعى ــ مع الجند ولا قيادته لهم هي التي واجهت الفلسطينيين وان صدقت هذه الرواية ، وهي غير مقبولة عقلا ومنطقا في تاريخ الجماعات اليهودية فانما هي الدعوة الدينية وبادوات المعجزة الالهية في صنع البطل الفرد الانسان كمقدمات للنبوة والرسالة وارهاصات لها هي التي ابتدات تلعب دورها في التاريخ المحيط ــ بداود ــ داخل مجتمع اسرائيل المملوء جرائم وعدوانا .

والا فما معنى ان يحجم المجمع اليهودي جميعه بقيادة شاؤول ويجبن عن مهاجمة او لقاء الفلسطينيين في المعارك الاخيرة لشاؤول ثم يقدم الفتى الصغير بغير ما سلاح سوى بضعة من حجارة ملس اخذها من الوادي ووضعها في جراب وظهر للقائد الفلسطيني ، فتخلص منه بقطعة حجر ، ثم

اخذ سيفه وقتله ، لتنتهي المعركة بهزيمة الفلسطينيين امام هــذا العمل المرتبط بالفتى وحده . ونحن امام سؤال : أهو عمل المعجزة الالهية لتبدأ مرحلة جديدة لم يعمل فيها الشعب الاسرائيلي ادنــى جهـد مــن تأثـير او تأهيل لها حتى تقوم، واعني بهذه المرحلة عصر النبوة الذي تتحدث عنه، باختيار نموذجين تقليديين ومشهورين ، جرى حولهما الكثير من الزيف والادعاء ، ونصبت حولهما الخيالات واقاصيص أوهام على طول امتــداد تاريخ بني اسرائيل وادعيائهم ، واعني بهما النبي داود وابنــه سليمان عليهما السلام .

غير اني اريد في هذا الموضوع بالذات ان ابعد عن التصور ، ما يتعلق بمفهوم المعجزة الدينية في ارتباطه بمعتقدات غير يهودية ، كالاسلام مثـلا وقواعد نظرته الى عمل المعجزة الالهية . ودور العمل الخــارق للانبياء والرسل في بعض مراحل حياتهم ودعواتهم ، كما اني اريد أن ابعد جوانب القداسة الدينية ــ المعتقدة ــ عن الرجلين وفيهما باعتبارهما نبيين رسولين عنـد طوائف ومعتقـدات غير يهودية ، وعلى ضوء معطيـات مقدسة غـير يهودية ايضا وانما أريد ان يظل التناول التاريخي للمسار اليهـودي حتـى عند مرحلة الرجلين العظيمين ــ داود وسليمان ــ «عليهما السلام» يستمد كل تصوره على ضوء ما تقرر ايات التوراة وكل سجلات العهــد القديم وشروحه بأمل تقديم صورة متكاملة عن عناصر التناقض في الرواية الدينية والتاريخية في التوراة .

وقبل أن نتحدث عن دور النبوة في بني اسرائيل منحصرة في الرجلين المشهورين داود وسليمان عليهما السلام فانا نأتي على بعض ايات قصتها التوراة فيما اوردناه . وهذه الايات من سفر صموئيل الاول وابتــداء من الاصحــاح السابــع عشر نقتطف بضع آيات منهــا : وهي التي تقــول بالنص .. (١) وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب فاجتمعوا فــي « سوكوه » التي ليهوذا ونزلوا بين سوكوه وعزيقفة في افس دميم، واجتمع شاؤول ورجال اسرائيل ، ونزلوا في وادي البطم واصطفوا للحرب للقــاء الفلسطينيين ، وكان الفلسطينيون وقوفا على جبل من هنا ، واسرائيل وقوفا على جبل من هناك والوادي بينهم ، فخرج رجل مبارز مــن جيوش الفلسطينيين اسمه « جليات » من « جت » طوله ست اذرع وشبر ، وعلى

---

(١) صموئيل الاول : الاصحاح السابع عشر آيات١ ــ ١١ .

راسه خوذة من نحاس ، وكان لابسا درعا حرشفيا ويزن الدرع خمسةالاف شاقل نحاس وجرموقا نحاس على رجليه ومزارق نحاس بين كتفيه، وقناة رمحه كنول النساجين ، وسنان رمحه ستمائة شاقل حديد وحامل الترس كان يمشي قدامه ، فوقف ونادى صفوف اسرائيل وقال لهم لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب؟ اما انا الفلسطيني وانتم عبيد لشاؤول، اختاروا لانفسكم رجلا ولينزل الي ، فان قدر يحاربني ويقتلني ، نصير لكم عبيداً ، وان قدرت انا عليه وقتلته تصيرون انتم لنا عبيداً وتخدموننا وقال الفلسطيني انا عيرت صفوف اسرائيل هذا اليوم ، اعطوني رجلا فنحارب معا ، ولما سمع شاؤول وجميع اسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جدا..

وكان الفلسطيني (١) يتقدم ويقف صباحا ومساء اربعين يوما، فقال « يسى » لداود ابنه خذ لاخوتك ايفة ، من هذا الفريك ، وهذه العشر الخبزات ، واركض الى المحلة الى اخوتك، وهذه العشر القطعات من الجبن قدمها لرئيس الالف وافتقد سلامة اخوتك وخذ منهم عربونا ، وكان شاؤول وهم وجميع رجال اسرائيل في وادي البطم يحاربون الفلسطينيين .

فبكر داود صباحا وترك الغنم مع حارس وحمل وذهب كما امره يسى . واتى الى المتراس والجيش خارج للاصطفاف وهتفوا للحرب ، واصطف اسرائيل والفلسطينيون صفا مقابل صف ، فترك داود الامتعة التي معه بيد حافظ الامتعة ، وركض الى الصف ، واتى وسأل عن سلامة اخوته وفيما هو يكلمهم اذا برجل مبارز اسمه « جليات » الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين ، وتكلم بمثل هذا الكلام ، فسمع داود ، وجميع رجال اسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا. فقال رجال اسرائيل أرايتم هذا الرجل الصاعد ، ليعير اسرائيل ، هو صاعد فيكون الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيلا ويعطيه بنته ويجعل بيت ابيه حرا في اسرائيل ، فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلا : ماذا يفعل الرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني ، ويزيل العار عن اسرائيل ..

وسمع الكلام الذي تكلم به داود واخبروا به امام شاؤول فاستحضره فقال داود لشاؤول لا يسقط قلب احد بسببه ، عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني ، فقال شاؤول لداود لا تستطيع ان تذهب الى هذا

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح السابع عشر : الآيات ١٦ – ٥٢ .

الفلسطيني تحاربه لانك غلام ، وهو رجل حرب منذ صباه ، فقال داود لشاؤول كان عبدك يرعى لابيه غنما فجاء اسد مع دب واخذ شاة من القطيع فخرجت وراءه وقتلته ، وانقذتها من فيه ، ولما قام علي امسكته من ذقنه وضربته فقتلته قتل عبدك الاسد والدب جميعا وهذا الفلسطيني الاغلف يكون كواحد منهما لانه قد عير صفوف الله الحي ، وقال داود ـ الرب الذي انقذني من يد الاسد ومن الدب هو ينقذني من يد هذا الفلسطيني ، فقال شاؤول لداود اذهب وليكن الرب معك ، والبس شاؤول داود ثيابه وجعل خوذة من نحاس على راسه والبسه درعا ، فتقلد داود بسيفه فوق ثيابه وعزم ان يمشي لانه لم يكن قد جرب ، فقال داود لشاؤول ، لا اقدر ان امشي بهذه لاني لم اجربها ، ونزعها داود عنه واخذ عصاه بيده ، وانتخب له خمسة حجارة ماس من الوادي وجعلها في كتف الرعاة الذي له ، اي في الجراب ومقلاعه بيده ، وتقدم نحو الفلسطيني ، وذهب الفلسطيني ذاهبا، واقترب الى داود والرجل حامل الترس امامه ، ولما نظر الفلسطيني، وراى داود استحقره ، لانه كان غلاما واستقر جميع المنظر ، فقال الفلسطيني لداود العلي انا كلب حتى تأتي الي بعض ؟ ، ولعن الفلسطيني داود بالهته وقال الفلسطيني لداود تعال الي فاعطي لحمك لطيور السماء ، ووحوش البرية فقال داود للفلسطيني أنت تأتي الي بسيف وبرمح وبترس، وانا آتي اليك باسم رب الجنود ــ ومد داود يده الى الكتف ، واخذ منه حجرا ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته ، فارتد الحجر في جبهته وسقط وجهه على الارض ، فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر ، وضرب الفلسطيني وقتله ، ولم يكن سيف بيد داود فركض داود ووقف على الفلسطيني واخذ سيفه واخترطه من غمده وقطع به راسه فلما راى الفلسطينيون ان جبارهم قد مات هربوا .



وعلى هذا النهج التوراتي ايا كانت الحقيقة الضائعة عند القوم ونسبة الخطأ والصواب فيما صورته التوراة بروايتها هذه عن بدء ظهور داود في المجتمع الاسرائيلي ، فانه لا مانع عند جمهور الذين يؤمنون بعمل المعجزة الدينية في أن تكون مثل هذه البداية هي الاسلوب الذي اقتضته الظروف المحيطة بنشأة داود كواحد من عامة الجماهير الاسرائيلية بل كرجل من سواد المجتمع وفقرائه ، اعد من قبل ربه لحمل الرسالة الدينية ، لعل هذه الجماعات من البشر والمسماة ببني اسرائيل تكف عما تمثله من خطر الغزو والسيطرة ودعاوى الاستعلاء والعنصرية التي تود ان تفرضها على سكان الارض التي قدمت اليها تبغي احتلالها والسيطرة عليها .

غير انه ما ان كانت هذه المقدمات وهذه البداية المعجزة علـــى حد ــ رواية التوراة ــ تقترن بالنشأة الاولى لداود حتى جوبه بما يسمى اليوم في لغة السياسة ، الصراع على مراكز القوى، وكاد من المطاردة التي هبت في وجهه مبكرة ان ينتهي سريعا لولا انه يعد لمرحلة من البداية والتوجيه .

وتكشف التوراة عن معنى اخلاقي يرتبط دائما وابدا بالخلق اليهودي وهو دور العلاقات النسائية او الارتباطات النسائية في تاريخ بني اسرائيل بالقضايا الدقيقة وخاصة حول شخصيات الكبار منهم ، فعند عودة داود على حد تعبير التوراة من المعركة التي قتـل فيها القائـد الفلسطينـي ان الجماهير كانت قد خرجت لتحية شاؤول واستقباله وكانت النساء تغني وترقص وتضرب على الدفوف ، فما ان لمحت النساء داود حتـى هتفن باسمه ، والنساء هنا في التوراة لسن نساء الجماهير في فرحها او في تعبيرها عن معنى من المعاني التي تشغل حياة الناس وتمثـل ابتهاجها وسعادتها ، وانما النساء هنا الساقطات واللاعبات بالحب وبالهوى وبعقول الرجال من بني اسرائيل . حتى الكبار منهم ، وما ان هتفت النساء اللاعبات لداود الا وقد قتلت الغيرة قلب شاؤول فافقدته صوابه وكانت بداية الغيرة هذه من شاؤول هي بداية الصراع الطويل الذي لم يخمد او ينتهي الا حين استقرت نبوة داود وتأكدت بعد أن تم التخلص من شاؤول ؟.

وتقول التوراة في هذا المعنى من سفر صموئيل الاول الاصحاح الثاني عشـر :

« . . . (١) وكان عند مجيئهم حين رجع داود من قتل الفلسطيني ان النساء خرجت من جميع مدن اسرائيل بالغناء والرقص ، للقـاء شاؤول الملك بدفوف وبفرح وبمثلثات ، فاجابت النساء اللاعبات وقلن ضرب شاؤول الوفه وداود ربواته ، فاحتمى شاؤول جدا وساء هذا الكلام في عينه، وقال اعطين داود ربوات واما انا فاعطينني الالوف . وبعد فقط تبقى له المملكة فكان شاؤول يعاين داود من ذلك اليوم فصاعدا ، وكان في الغد ان الروح الردي من قبل الله اقتحـم شاؤول وحش في وسط البيت ، وكان داود يضرب بيده ، كما في يوم فيوم وكان الرمح بيد شاؤول فاشرع شاؤول الرمح وقال اضرب داود حتى الى الحائط . وكان شاول يخاف داود لان الرب

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح الثامن عشر ٦ ــ ١٨ .

كان معه وقد فارق شاول ، فأبعده شاول عنه وجعله له رئيس الف فكان يخرج ويدخل امام الشعب ، وكان داود مفلحا في جميع طرقه والرب معه فلما رأى شاول انه مفلح جدا فزع منه ، وكان جميع اسرائيل ويهوذا يحبون داود لانه كان يخرج امامهم .

وقال شاؤول لداود هوذا ابنتي الكبيرة « ميرب » اعطيك اياها امراة انما كن لي ذا بأس وحارب حروب الرب .



واذا كنا في تتبعنا لمراحل التاريخ اليهودي ، وعند دراستنا لاشخاص باعينهم تختلف النظرة الدينية اليهم والى طبيعة الدور الذي قاموا به من دين لآخر نؤثر ان نرجع الى التوراة نسمع ما تقصه وما ترويه ، فانما هو المنهج الذي آثرناه ، كما سبق اليه القول في دراسة التاريخ اليهودي من وجهة نظر اهم المصادر الاسرائيلية في التاريخ وهو التوراة (١) وليس هذا بالطبع هو كل ما نعول عليه نظراً لعدم اطمئناننا الى ما جاء بها حتى فيما يتعلق بالتاريخ فضلا عن امور الدين وذلك لما هو في طبيعة تدوينها وتركيبها من انواع التناقض والخلط العجيب وكل ما نعنيه فيما نجهد انفسنا به من المعاناة والصبر على دراسة تاريخ القوم الاسرائيليين منخلال كتاب التوراة وما يتعلق به اننا نود ان نقدم هذه الدراسة لادعياء بني اسرائيل الذين التصقوا بهذا التاريخ وفي علاقة زيف به وارتبطوا بهذا الجنس وهمليسوا منه ونقول لهم ها هو التاريخ اليهودي يحمل صورا من الكذب والافتراء ونماذج من الاستغلال والتفاوت والصراع ومراحل من التخلف والتناقض، ورجالا مثالا للخطيئة والانحراف بل وتدينا مدعى كله نماذج من الوثنية وجمود العقل وتفاهة الادراك ، وحول ابسط مظاهر التناقض لو اردنا الوقوف عليها فاننا نجدها في نص كالذي اوردناه من سفر صموئيل الاول من الاصحاح الثامن عشر : قضايا كثيرة متناقضة والخلل يشيع فيها .

---

(١) في عام ١٩٣٩ حين اصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الابيض، وهو الذي كان مناورة بريطانية تقول فيه بالحد الوقت من هجرة اليهود الى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني قامت المظاهرات الصهيونية تحمل لافتاتتقول في عناد « التوراة لا الانتداب البريطاني تعطينا حقنا في هذه الارض » انظر د. زكي فيربالوفسكي في مقالة بنو اسرائيل وارض اسرائيل .

فان ايات الاصحاح تقص انه عقب عودة داود من قتله للفلسطيني خرجت الجموع لاستقبال شاول ثم لما جاء داود هتفت باسمه وحيته النساء اللاعبات ، فان المؤلف التوراتي قد نسي ان داود عقب قتله للفلسطيني مباشرة كان فتى بسيطا من سواد الشعب ولم يكن معروفا لا هو ولا اله على الاطلاق ، بل ان شاول نفسه وقائد جيشه على حد رواية التوراة من الاصحاح السابع عشر هي التي تقول على لسان شاول « ... ولما رأى شاول داود خارجا للقاء الفلسطيني قال « لابنير » رئيس الجيش (١) ، ابن من هذا الغلام يا ابنير ، فقال ابنير : وحياتك ايها الملك لست اعلم ، فقال الملك اسأل ابن من هذا الغلام ، ولما رجع داود من قتل الفلسطيني اخذه ابنير واحضره امام شاول ورأس الفلسطيني بيده ، فقال له شاول ابن من انت يا غلام فقال له داود ابن عبدك « يسى البيتلحمي » .

فكيف اذن اصبح الغلام فجأة في اليوم التالي بل حين قتل الفلسطيني على حد تعبير التوراة بطلا شعبيا تهتف باسمه نساء الحب والهوى والاسرائيليات وهو غلام توضع اليد على راسه وتربت عليه ولما ينتهي من مخاطرة كان قد اقدم عليها ، ولو انها ليست مخاطرة في دعوى القوم وزيف ما يعتقدون ، فالامور الخارقة للعادة ، لكل قوانين الحياة نفسها من الاشياء المألوفة التي يمكن ان يقوم بها البار والفاجر والكبير والصغير . وعليها ، فان المخاطرات التي قام بها الفتى داود ليست عندهم سببا لكل هذه الشهرة وخاصة لغلام مغمور وغير معروف . فكيف تحولت مغامرة كهذه في موقف سريع في أن يكون الفتى بطلا ، تستقبله الجموع ، وتحييه نساء الحب والهوى بينما كما تقول التوراة عن الغلام انه لم يكن هناك من الشعب الاسرائيلي من يعرفه او يعرف والده ، ولا نتصور كيف اصبح هذا الغلام فجأة ، وبلا مقدمات بطلا اسطوريا يشكل خطرا على القائد الملك ، ويدخل معه قائد الشعب الاسرائيلي في معارك . ويقول على حد ما تسجله التوراة ضمن تناقضاتها عن الموقف الذي ظهر فيه داود على المسرح ، وبعد فقد تبقى له المملكة وعند هذه العبارة ايضا تبرز الصنعة التدوينية في التوراة بكل ادعائها وزيف ما تدور حوله ومن اجله . فأي مملكة هذه قصدها المؤلف التوراتي الذي جاء بالقطع بعد مئات السنين وابتدأ يدون دون ان تتاح له مثلا فرصة الاطلاع على ما كتبه مؤلف سابق سجل دون ما

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح السابع عشر ٥٥ ــ ٥٨ .

قصد منه ، اشياء اخرى غير ما ذهب اليها صاحبنا مؤلف هذه المرحلة التي سجل فيها في ادعاء وحوار مكشوف موقف شاؤول مع داود « ... وبعد فقط تبقى له المملكة فما هي هذه المملكة اهي المملكة التي كان فيها الفلسطينيون يقومون فيها على كل ارض كنعان باعتبارها تاريخهم بينما الاسرائيليون على حد تعبير التوراة « في ثقوبهم » أم هي المملكة التي لا توجد فيها ادنى علاقة ولاء بين شعبها وملكها الى الحد الذي تذهب اليه التوراة مدعية انه عندما ظهر غلام بجانب الملك استحق تقدير النساء اللاعبات وثناءهن دون الملك ، الى الحد الذي احتمى الكلام في عينه على حد تعبير التوراة واحس بالمنافسة .. ام هي المملكة التي لم يكن فيها من رجل اي رجل لا بل وكل رجالهم مجتمعين ليس عندهم القدرة او الشجاعة التي تمكنهم من مواجهة رجل فلسطيني واحد يتصدر قيادة المواجهة لهم الى الحد الذي تقول فيه التوراة صراحة « .. وجميع رجال اسرائيل لما راوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا » (١) واضح تماما وبلا مزيد من التحقيق زيف الصنعة التوراتية حين التدوين المتأخر جدا الى ما بعد مراحل التبعثر والتفتت الى حين جلس كل مؤلف يكتب على هواه وحسبما تحمل الاماني، او تتعلق الاوهام ، او تدعيه العصبية والعنصرية ، فكان هذا الغلط وهذا التناقض العجيب الذي لا يخدم فكرة دين او دعوى تاريخ .

غير انه كما التزمنا . وكما اخذناه على عاتقنا سنواصل منهجنا النقدي ندرس التاريخ اليهودي والدعوى اليهودية من وجهة نظر المصادر الرئيسية الاسرائيلية فيما شرحت وفيما علقت ، وسنخصص الكثير من التحقيق كما قلنا حول التوراة خاصة . ولننظر بعد ذلك دور النبي داود . ونرجو ان نكون بمنهجنا هذا في التناول التاريخي لكل ما يتعلق باليهود حسب معطيات كتبهم وعقائدهم بعيدين تماما ، بل وفي سلامة من كل حساسية دينية او عاطفية تتعلق باشخاص بذاتهم يدور حولهم الحديث بالمنهج التوراتي بالتجريح تارة او بالهدم تارة اخرى في محاولة كشف لرفض كل الادعاءات المنسوبة اليهم وتعرية حجج الذين كانوا في المسار اليهودي على ضوء من هذه الادعاءات يتعلقون بجملة من المفتريات عبر كل هذا التاريخ .

ونحن فيما اثرناه ، واخذناه على عاتقنا بهذا المنهج في التناول التاريخي لليهود من مصادر المعتقد اليهودي اليوم انما هو محاولة منا لتقديم الفكرة

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح السابع عشر : ٢٤ .

اليهودية الوثنية والتاريخ اليهودي المدعى كي يرى العالـم الانساني كيف زيف اليهود حقائق التاريخ ، وكيف شوهوا ومسخوا أنبياء الله ورسله ، وسجلوا عليهم الاثم والبغي والعدوان وهم ابعد الناس عن بغي او عدوان، بل هم النماذج العليا لكل معاني الطهر والعفة والحب والسلام من اجـل هداية البشر جميعا وتأكيد مبادىء الخير والحق والسلام .

« دور النبي داود في اسرائيل »

قلنا انه حين ظهر (داود) « عليه السلام » بين الجماعات الاسرائيلية ظهر كواحد من سواد الناس وعامـة الجماهير البسيطـة ، وأن الظـروف التي ابتدأ نجمه يلمع فيها كان المناخ غير الطبيعـي اجتماعيـا واقتصاديـا وانسانيا عند بني اسرائيل يجعل من عمل المعجزة الالهية على يد الافـراد الذين تقترن اعمالهم الخارقة للمالوف والمتوقع بمقدمات الرسالة الدينيـة ومظاهر النبوة والهداية ضرورة حياة في خدمة الرسالة الدينية .

غير ان « داود بن يسى » الذي شاع امره على انه واحـــد من بني اسرائيل خالص الدم والنسب الامر في حقيقته على غير ما هو شائع ، فعلى ضوء معطيات آيات التوراة وبمنهجنا في دراستنا لها ، انه ما ان ابتدأ يقف على قدميه وترتبط به الجماهير الاسرائيلية وترى فيه أداة لها يمكن بها ان تتخلص من القوى الشريرة التي تعمل لنفسها بالمصلحة والهوى ، الا وكانت الجماعات الاسرائيلية دائما في حروب صراع وتقاتل حتى اصبح القتـــل والاغارة والسطو شيمة كل فرد اسرائيلي ، وسلوك عام للافراد والجماعات وقد فرض على « داود » ايضا على حد رواية التوراة ان يدخـــل معارك ومطاردات يؤكد فيها ذاته أولا ، ثم يتخلص من القوى المناوئة التي استشعرت خطر النبوة عليها وهي لم تدر من أمرها شيئا حين ظهرت على يد الفتـى داود مبكرا يوم تمكن من مواجهة القائد الفلسطيني وقتله .

ولقد تعرض داود لمرحلة سنعرض لها الان قبل ان نتحدث عن دوره في حركة التاريخ الاسرائيلي . هذه المرحلة هي التي ستكشف لنا الجو العام الذي ابتدأ يعمل فيه بعد ذلك داود حين استتب له الامر واستقر ليؤدي دور النبوة والرسالة في تاريخ اسرائيل وعلى ضوء ما تصوره التوراة عـن البداية التاريخية التي سبقت الدور الذي قام به النبي داود بين الجماعات الاسرائيلية فانه يتضح جملة قضايا كثيرة منها :

انه ما ان ابتدأ نجم داود يلمع بين الجماعات الاسرائيلية ويعاود الكرة بعد الاخرى في امكانية تجميع الجماعات الاسرائيلية اخلاقيا اولا حتى دخلت معه القوى السياسية والدينية التي كانت تعبر عن مصلحة السادة والمتسلطين على المجتمع الاسرائيلي في معارك وكانت تتمثل هذه القوى في (شاؤول) القائد الاسرائيلي الذي تتحدث عنه التوراة كثيراً : بأن الرب كان يكلمه ويباركه احيانا وبأنه ايضا كان يطارده ويحل به روحا شريرة احيانا اخرى ، وهذا القائد الملك الذي تتحدث عنه التوراة بأن الاله كان يحل به تارة والشيطان تارة اخرى ، كان يحيط به مجموعة من القوى المستغلة والمسيطرة في اسرائيل .

وكانت بداية الصراع ، الموقف الذي اتخذه شاول ، من داود حين كان داود في بيت شاول فاستغلها فرصة كي يتخلص مبكرا من داود فقام بالفعل والتمس ان يسدد رمحه الى قلب داود ليقتله ، وفيما تقصه التوراة من قصص لبداية هذا الصراع ، هو ان شاول حلت به الروح الشريرة . وغضب عليه الرب وتخلى عنه ، فحين هرب من وجه داود ساعة ان سدد اليه رمحه ارسل اليه مجموعة من رجاله ليطاردوه ، ويتعقبوه في بيته الى ان يقتلوه في صباح تلك الليلة نفسها التي سدد فيها شاول رمحه الى قلب داود ونجا منها بالهرب والفرار الذي تقصه التوراة .

ولقد ادرك داود الخطر المحدق به بعد ان علم من امراته على حد رواية التوراة ان البيت يحاصره « رجال شاؤول » وانه ميت الليلة لا محالة ان لم يبحث عن مخرج له فقرر ان يخرج من « الكوة » التي بالبيت وان يذهب في الظلام الى بعيد عن اعين رجال شاؤول .

وتقص التوراة خبر مرض شاول عقب هرب داود ، الحال الذي جعله يطلب من رجاله حين علم انه هرب ان يتبعوه ويحضروه اليه لكي يقتله بنفسه وهو على الفراش ، الا ان داود كان قد نجا وجاء الى صموئيل في (الرامة) واخبره بكل ما يحيكه ضده شاؤول ، ولما يبدأ صموئيل يتدبر الموقف بعد واذا بشاول يرسل مجموعات تجيء بعد الاخرى تستطلع اخبار داود حتى جاء شاؤول بنفسه الى « الرامة » واضطر داود ان يهرب مرة ثانية ليقابل « يوناثان » ابن شاول الذي كان قد تعلق بحب داود وعاهده على المحبة والاخاء منذ يوم لقاء القائد الفلسطيني ، ويظهر التتابع التاريخي لهذه المرحلة دور « يوناثان » ابن شاول في انه سيتعهد باتخاذ تدبير لهذا الحال من العداء الذي استحكم بين ابيه شاول وبين « داود » ، ويقول له

على حد رواية صموئيل الاولى في الاصحاح العشرين : (١) ... « هوذا ابي لا يعمل امرا كبيرا ولا صغيرا الا ويخبرني به » ... وبالفعل يتدخل ابن شاؤول في تهدئة نفس ابيه في حقده وثورته على داود الى ان اصبح شاؤول يفتقد داود على الطعام ويسأل عنه ابنه « يوناثان » الا ان الصراع على السلطة وعلاقات التقاتل والتنافس والطبع الملتوي والغرائز والسلوك الدموي العنيف الصفات التي جبل عليها الاسرائيليون منذ الاباء الاول ، جعلت شاؤول يجن جنونه ويمتلىء غيظا وحنقا على داود حين اقتضى ظرف طارىء ان يحمل داود السلاح ويعبىء بعض الاسرائيليين ويواجه بهم هجوما فلسطينيا اراد به الفلسطينيون كسر محاولات التجمع التي كان يحاولها كل من شاول بما يمثله من سطو وسيطرة وداود بما يهدف اليه من خلع شاول وعزله عن القوى التي تمكنه من السطو والسيطرة .

وقد يعجب الانسان اذا علم ان روح الشر والعداء والصراع على السلطة قد عملت في نفس شاول كل عملها الى الحد الذي ذهب فيه الى القبيلة التي اوت داود حين كان في بعض مراحل هروبه عندها ثم اعطته السلاح والرجال لمحاربة الفلسطينيين وقتل منها على حد رواية الاصحاح الثاني والعشرين من سفر صموئيل خمسة وثمانين كاهنا ، وكانت هذه المعركة التي خاضها داود دون قيادة شاول بل ولا علمه ضد الفلسطينيين سببا في ان يشيع اسم « داود » وينتشر في الجماعات الاسرائيلية كلها ويتردد ذكره على كل لسان الامر الذي ضايق شاؤول كثيرا جدا ، واضطر فيه لان يجاهر الاسرائيليين بقوله : « واسمعوا يا بنياميثيون ، هل يعطيكم جميعكم ابن يسى حقولا وكروما وهل يجعلكم جميعا رؤساء الوف ورؤساء مئات حتى يفتنكم كلكم علي وليس منكم من يخبرني بعهد ابني مع ابن يسى وليس منكم من يحزن علي او يخبرني بان ابني قد اقام عبدي علي كمينا لهذا اليوم » (٢) .

وواضح من هذه الآيات ان التيار العام كله بل حتى خاصة شاؤول وأهله قد تخلوا عنه ، ولم تكن هناك علاقة ولاء بين هذا القائد الملك الذي قالت فيه التوراة وعنه الكثير ، ومن الكثير زيفا وادعاء تأسيس قواعد المملكة (المصورة) عند اليهود فكان عليه على حد رواية التوراة ان يدخل مرحلة

---

(١) صموئيل الاول : الاصحاح العشرون : ٣ ــ ٤ .
(٢) سفر صموئيل الاول : الاصحاح الثاني والعشرون : ٧ ــ ٩ .

المساومة مع الجماعات الاسرائيلية بعد ان ظهر على المسرح داود بما يمثله من خطر عليه يعدهم ويمنيهم .. « هل يعطيكم جميعكم ابن يسى حقولا وكروما ... » واخيرا انتهت الجهود والمطاردات التي كان يقوم بها شاؤول ضد داود بمرحلة مسالمة بين الطرفين عقب اللقاء الذي تحدث عنه الاصحاح الرابع والعشرون من سفر صموئيل حين عبأ شاؤول ثلاثة آلاف رجل لكي يتخلص من داود ورجاله على صخور الوعول التي كانوا يقيمون فيها ، ثم علم بخبر تجمع الفلسطيتيين فآثر ان يلتقي اولا بالفلسطينيين ، وبعد انتهاء المعركة وقع في الكهف او في كمين كان قد اعده له داود ، وفي هذا اللقاء ، تمكن داود ان يكشف عن نياته وتسامحه لشاول وايضا بلغة التوراة ليبدأ مرحلة سلام بينهما ، وكان من المتيسر له على حد رواية التوراة ان يفعل بشاول كل ما يشاء ولكنه آثر ان تكون بينهما حالة من التسامح والسلام فالتوراة هي التي تقول : « .. فقال رجال داود له ذا اليوم الذي قال لك عنه الرب ها أنذا ادفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن في عينيك . فقام داود وقطع طرف جبة شاول سرا ، وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه على قطعة طرف جبة شاول ، فقال لرجاله حاشا لي من قبل الرب ان اعمل هذا الامر بسيدي بمسيح الرب ، فأمد يدي اليه لانه مسيح الرب ، هو ، فوبخ داود رجاله بالكلام ولم يدعهم يقومون على شاول » (١) .



وبالقصص التاريخية في التوراة . كان هذا الموقف بداية لمرحلة مسالمة ثانية بين داود الذي كبر ونمت شخصيته بل اصبح على علاقة بالرب على حد رواية التوراة ، وبين شاول وكانت هذه المرحلة الثانية غير تلك التي قام فيها بدور الوسيط ابن شاول « يوناثان » واستطاع فيها تهدئة ثائرة ابيه ضد نجم داود الذي ابتدأ يسطع . غير ان الذي نود ان نلفت اليه في وضوح هو مدى عقم الرواية في التوراة وعدم انسجام التركيبة الاخبارية في النص التوراتي دائما وابدا في كل ما يسوقه وما يتحدث عنه فمثلا ، هنا وعلى حد هذه الرواية . كيف يكون عبدان لله بل رسولان له احدهما يكلم الرب او يهمس له الرب ، والثاني مسيح لهذا الرب ، أي انهما الاثنان يلتقيان في الهدف والسلوك والاعتقاد عند الرب ، ثم يكون في نفس الوقت

---

(١) سفر صموئيل الاول : الاصحاح الرابع والعشرون : ٤ ـ ٧ .

كل منهما عدوا للاخر ، يرضى الرب على احدهما ويغضب على الاخر فتسوء عاقبة هذا الذي لم يتحالف معه الرب ، ومن عجب ان هذا الحال في التوراة لا يدوم فقد تنقلب هذه العلاقة الى النقيض مرة بعد الاخرى وهكذا ، فالنص الذي في الاصحاح الرابع والعشرين من صموئيل يقول : « فقال رجال داود له هوذا اليوم الذي قال لك عنه الرب ها انذا ادفع عدوك ليدك فتفعل بـه ما يحسن في عينيك » . يتعارض تماما مع الفكر المستقر والمتداول والشائع في التوراة عن شاول . انه كانت تنزل عليه روح الرب حتى وهو ايضا عند داود على حد عبارة التوراة كان مرتبطا بالرب وبمسيح الرب ، وحاشا له ان يعمل بسيده مسيح الرب شيئا منكرا .

ومهما يكن أمر هذا اللغط الديني والعقائدي والذي يشنوه الفكرة الدينية كلها من اساسها فنحن هنا لا نريد أن تتعرض كثيرا للبناء الفني أو التركيبة الصحيحة أو الباطلة او غير ذلك لايات التوراة وانما نحن في هذه المحاولة من الدراسة نشير الى بعض جوانب التناقض وكفى ، فالذي حدث في رواية التوراة ان داود عقب لقائه بشاول في الكهف او الكمين الذي اعد له ووقع فيه شاول وجنده ، عقب فراغ داود من كلامه ان شاول قال له اهــذا صوتك يا ابني داود ورفع شاول صوته وبكى ، ثم قال داود انت ابر مني لانك جازيتني خيرا وانا جازيتك شرا ، وقد اظهرت اليوم انك عملت بي خيرا ، لان الرب قد دفعني اليك ولم تقتلني فاذا وجد رجل عدوه فهــل يطلقه في خير ؟ فالرب يجازيك خيرا ، عما فعلته لي اليوم هذا ، والان علمت انك تكون ملكا وتثبت بيدك مملكة اسرائيل .

مرة ثانية مؤلف هذه المرحلة في التوراة يحرص من بين الحوار الذي تصوره بين داود وشاول ان يسجل دعوى المملكة وذلك بأن اورد لها ذكرا .

واخيرا ينتهي شاول من على مسرح الاحداث ليخلو الجو لداود ليقيم مرحلة اخرى تختلف تماما عن كل الاساليب الاسرائيلية في العلاقــات او الحروب او الاغارة . وكانت هذه النهاية التي انتهى اليها شاول عقب التجمع العربي الذي كان بقيادة العمالقة من بني المشرق والذين غـزوا الجنـوب وضربوا « صقلغ » واحرقوها بالنار على حد رواية التوراة ، واما هذا الخطر المحقق الذي احدق بالاسرائيليين الى الحد الذي تقول فيه التوراة : فدخل داود ورجاله المدينة ، واذا هي محرقة بالنار ونساؤهم وبنوهم وبناتـهم قد سبوا ، فرفع داود والشعب الذين معه اصواتهم ، وبكوا حتى لم تبق

لهم قوة للبكاء ، وسبيت امراتـــا داود ، « اخيثو عمم اليرزعيليـــة » و « ابيجايل » امرأة نابال الكرملي .

وفي هذه الحرب التي هرب فيها الاسرائيليون من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع على حد رواية الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر صموئيل تعمد الفلسطينيون ان يتصيدوا شاول والقوى التي تحيط به والتي تمثل السيطرة على جماعات اسرائيل ، وتمثل العداء ضد الشعب العربي وقد تمكن الفلسطينيون بالفعل من قتل « يوناثان » و «آبيناداب » و « ملكيشوع » ابنا شاؤول . واشتدت الحـرب على شاؤول حتى أصيب وادرك انه قد انتهى وانتهت معه احلامه ، في ان يقيم دولة وسلطانا وان يطارد داود وما يمثله من دين وقيم ابتدأ داود يوجه اليها جماعات اسرائيل، فحين اصابه الرماة ورجال القسي العرب قال لحامل سلاحه استل سيفك واطعني به لئلا يأتي الفلسطينيون ويمثلوا بي ، ولما لم يفعل حامل سلاحه ما امره به شاول اتكفا على سيفه وسقط عليه منتحرا لينتهي ولينتهي بهـذه الصورة دور واحد من كبار بني آسرائيل في مرحلة التاريخ المدعاة بانهاكانت بداية لعصر الملوك ، وانتهى شاول لكي تلعب التوراة فيما تقصه عن داود في انه قام على نفس المسرح ، وواصل دوره المدعي في تاريخ بني اسرائيـل كي يؤسس مجدا ، ويوسع سلطانا ويقعد لميراث ديني وتاريخـي لليهـود وجماعات اسرائيل وكي يلوك الادعياء من بني اسرائيل عبر التاريخ ، زيف هذه الدعوى التي تتعلق بالميراث الديني المرتبط بالارض ، والدينوالرجال، ومهما تكن زيف الدعوى ، فانه بالمنظار التوراتي الاثم من الضرورة ان نرى ملامح داود .

بعد المعركة التي قتل فيها شاول وانتهى امره وانتهى معه اولاده ، ايضا بالقتل في هذه المعركة ، كان قد استطاع داود انيرجع منقتالالعمالقة بمجموعات من قومه ليقيم في بعض مناطق الجبال تسميها التوراة «صقلغ» بينما هي الارض التي ورد ذكرها بانها احتلت على يد الفلسطينيين داخـل اقليم فلسطين في المعركة التي قتل فيها شاول ، وبعد ان تأكد لداود ان شاول قد قتل جينما جاءه رجل ثيابه ممزقة وعلي راسه تراب ، وقاللداود اني اتيت ومن محلة اسرائيل نجوت ، بعد ان هرب الشعب من القتـــال وسقط الكثير منه وضاعوا بالموت بعد ان انتحر شاول وفر من مواجهـة الفلسطينيين ومجابهتهم سأل داود الرب ماذا يصنع ، والى اي المواقـــع يتجه فقال الرب لداود اصعد الى « حبرون » فصعد داود الى هناك هـو

ونساءه ، واصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا في مدن حبرون ، واتى رجال يهودا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا .

★ ★ ★

وهنا حتى بالمنهج التوراتي فان البداية الجادة والايجابية التي ابتدأ فيها داود يمارس دوره في تاريخ اسرائيل كانت على هذه الصورة التي نستفاد مما تصورها التوراة بعد صراع طويل ومرير بين شاول وداود ينتهي شاول بالانتحار ثم تنهزم الجماعات الاسرائيلية في حرب تكاد ان تكون فاصلة قبل ان تلعب النبوة والرسالة الدينية عملها ، هذه الحرب فرضت على قائد احد الطرفين الانتحار رغم وجود داود نفسه بين جند المعركة ، ثم ضياع محقق فلا يدري احد من الاسرائيليين ماذا يعمل ، وتفيض التوراة عند الكلام على بداية عصر داود من ان الشعب قد أكثر من الابتهالات وتضرعه للرب على لسان داود ماذا يفعل ، ولما امكن لهم ان يضمدوا جراحهم نصبوا داود عليهم . واضح هنا تماما من رواية التوراة عن هذا الحال الذي كان عليه القوم في نهاية شاول وبدء حياة داود ، انه لم تكن هناك مملكة ولم يكن هناك ميراث بل ضياع محقق ومقاومة عنيفة من قبل العرب سكان الارض لكل سلوك القوم وادعاءاتهم منذ بدات الجماعات الاولى تتجه الى فلسطين عام ١٢٢٥ ق.م. حتى الفترة التي اعقبت موت شاول والتي بداها شاول ممارسة في تقدير كثير من المؤرخين عام ١٠١٠ ق.م. الى ٩٧٠ ق.م. ثم بدأ ، داود النبي منذ هذا التاريخ يلعب دوره في التاريخ هذا الدور الذي زيفه بعد ذلك الفكر اليهودي والتاريخ اليهودي ونصب اليهود حواليه الكثير من المبالغات وصور الخيال ، وعمل التعصب والهوى . فماذا فعل داود في التاريخ اليهودي حتى على ضوء ما يستفاد من التوراة بمنهجنا في النظرة العامة لاياتها ؟

اول شيء فكر فيه داود هو ان يتخلص من جو التناقضات والصراع الذي مكن للفلسطينيين ان يهزموا الجماعات الاسرائيلية وان يتمكنوا منها ، فأعمل نفسه وكل رجاله في ان يسيطر على حال التمرد والانقسام الذي كان عليه كل جماعة من بني اسرائيل عقب موت شاول وتنصيب داود عليهم ذلك انه قد حدث على حد رواية التوراة ان احد قواد جيش شاول واسمه « ابنير بن نير » حين مات شاول كان قد نجا من ابنائه الولد الذي تسميه التوراة : « اشبوشت » وكان في حوالي الاربعين من عمره ، فأخذه ابنير واتجه به الى « محنايم » ونصبه ملكا على « جلعاد » وعلى « الاشوريين »

وهذا تصور خرافي عجيب ، فأين كان سلطان الاشوريين حين نصب عليهم هذا اليهودي رغم بعد المسافة الرهيبة بين الارض التي يلوك الاسرائيليون دعواها وبين ارض الاشوريين، وايضا نصبه على يزرعيل وعلى افرايم، وعلى بنيامين وعلى كل اسرائيل ، وعلى حد هذه الرواية فانه عقب موت شاول كان على بني اسرائيل في موقع الحكم والسلطة رجلان كل منهما يلعب دورا ، الا ان المجموعات التي كانت تحيط بداود استطاعت ان توقع بجماعات اشبوشت اكثر من مرة حتى تيسر لهم قتله والتخلص منه وهو على فراشه وذهبوا يخبرون داود ان الموقف قد اصبح خالصا له وحده .

ولما ينته داود من مرحلة اشبه ما تكون بانعدام الوزن لا يدري فيها احقا قد تخلص من القوى المناوئة له ، ام ان هناك مفاجآت ستبرز له وتشغل باله وتبعده عما ينفعل به من امور الدين والدنيا التي يود لو ساهم في اصلاح احوالهما ببعض الجهد ، الا وقد فوجيء بتجمعات الفلسطينيين مرة اخرى ضده بعد أن علموا انه قد نصب ملكا على اسرائيل .

وفي هذه المعركة التي واجهها داود لاول مرة منذ اصبح وحده المسئول عن بني اسرائيل ، يلعب النغم التوراتي بدقاته التقليدية عن الحروب التي ينزل فيها الرب يحارب مع اسرائيل ، فالتوراة في هذا الموضع من الاصحاح الخامس من سفر « صموئيل الثاني » تقول :

« ... (١) وسمع الفلسطينيون انهم قد مسحوا داود ملكا على اسرائيل فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود ، ولما سمع داود نزل الى الحصن وجاء الفلسطينيون فانتشروا في وادي الرفائيين ، وسأل داود من الرب قائلا أصعد الى الفلسطينيين ؟ أتدفعهم ليدي ، فقال الرب لداود اصعد لاني دفعا ادفع الفلسطينيين ليدك ، فجاء داود الى بعل فراصيم وضربهم داود هناك وقال قد اقتحم الرب اعدائي امامي كاقتحام المياه » .

ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا ايضا ، وانتشروا في وادي الرفائيين فسأل داود من الرب فقال لا تصعد ، بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل اشجار البكاء ، وعندما تسمع صوت خطوات في رؤوس أشجار البكاء حينئذ احترس لانه اذ ذاك يخرج الرب امامك لضرب محلة الفلسطينيين ففعل داود كذلك كما امره الرب وضرب الفلسطينيين من « جبع » الى مدخل « جازر » .

---

(٢) سفر صموئيل الثاني : الاصحاح الخامس : ٧ — ٢١ .

لماذا يخرج الرب لضرب محلة الفلسطينيين ، انا لست أجد لهــــذا الاسلوب تفسيرا وربما لا يدري مؤلف التوراة العظيم ؟

غير انه على هذا التقرير الذي تقصه التوراة عن بدء عهد داود فــي اسرائيل حين دخل الحرب مع الفلسطينيين فان المنهج العقلي الذي يحكم الباحث العلمي في نظرته للسياق العام لرواية تاريخية كرواية التوراةيجعله ينظر الى مثل هذه الايات كسابقتها من الايات التي تتحدث عن نصرة اللــه لمجموعات العصابات الشريرة والمحتالين والذين يجعلون من زيف أدعاءاتهم علاقة خاصة بربهم ينزل اليهم يحارب مع صفوفهم حين يريدون ويبتعدون عنه حين لا تصبح حاجة عندهم اليه ، الا ان المسلمات الدينية التي يعتقدها المتدينون ويجعلونها معيارا في نظرتهم الى الرجال الكبار في تاريخ الدعوة الدينية اولئك الرجال الذين كان كل همهم ، وكل ما يشغل بالهم هو تحقيق الرسالة الدينية تجعل دور المعجزة الالهية على يد اولئك الرجال الانبيــاء سلوكا يقترن بخطوات الواحد منهم ويلازمه وذلك ليكون عاملا مساعدا في تهيئة مناخ نفسي لتخفيف حدة العداء امام النبي او الرسول صاحب الدعوة، ان لم تكن اداة لتقبل الرسالة والايمان بها ، وعلى هذا المعنى ، فانه لا مانع ابدا ان يكون قد دخل «داود» عليه السلام حربا أو حروبا ضد الفلسطينيين وهزمهم في بعضها ولم تكن لديه اسباب القوة او النصر غير الصورة التــي ترسمها التوراة عن مثل هذه الحوادث المقترنة بثوب وثني يعتمد علــى التجسيد والتشويه ولا يعرف المثالية او النقاء في علاقة الله بعبادة المعاني القائمة على التنزيه في انه سبحانه لا تليق به الصفات التي يخلعها القــوم عليه في علاقاتهم به نقول لا مانع ابدا ان يكون داود دخل في حــــرب مــع الفلسطينيين وهزمهم بسلوك وبخلق على غير ما تصوره التــوراة وذلــك لانه كنبي رسول كان كل ما يشغل باله ان يفسح المجال امام تقبل قضية العدل الاجتماعي التي هي من جوهر كل رسالة دينية .

ومع ان آيات التوراة تواصل دعواها حين الحديث عن دور النبي في بني اسرائيل ويصل بها الغلو والشطط الى الحد الذي تقول فيه انه حيــن استجمع الفلسطينيون امر انفسهم مرة ثانية ليلاقوا القوم من بني اسرائيل بقيادة داود ان هزمهم داود في المرة الثانية وضربهم من « جبع » الى مدخل « جازر » وانطلق الاسرائيليون كما يصف الاصحاح السادس من سفــر صموئيل الاول ، بقيادة داود يقيمون احتفالات دينية ويضربون في فرح على الات من عيدان ورباب ودفوف وجنوك وصنوج وكان داود معهم يرقص بكل قوة وحماسة بل ان المصنف التوراتي للمرحلة الخاصة بتاريخ داود يلعب

الخيال برأسه الى حد تضرب التوراة فيه بعضها البعض الاخر ، وتصبح روايتها عن كل ما يتعلق بداود موضع شك بل ورفض كبير .

فيدعي الاصحاح الثامن من سفر صموئيل الثاني مثلا أن داود ضرب الفلسطينيين جميعهم واذلهم واخذ زمام العاصمة من أيديهم وضرب المؤابيين ، وهم اقوى القبائل العربية وقاسمهم الجبل ثم اتجه الى الشرق والشمال فذهب الى نهر الفرات ودخل معركة مع قوى جبارة حول نهر الفرات تصورها التوراة بانها كانت ألفا وسبعمائة فارس وعشرين الف رجل ، في الوقت الذي كانت فيه قوات داود تحارب الاراميين العرب في دمشق لتقتل منهم اكثر من اثنين وعشرين الف رجل ، وعلى هذا النهج تمضي التوراة تصور البطولة غير المألوفة وعمليات الغزو والتوسع التي قام بها داود الى ان تقف بنا فجأة عند حادثة اثناء عمليات القتال وهذه الحادثة في طبيعتها ودلالتها لا تتصور من رجل يقود المعارك على امتداد ارض شاسعة لا تقدر عليها امكانياته المادية ولا كل رجاله ، فضلا عن رجل الاصل فيه انه يقود دوره في التاريخ وفي الحرب وفي كل السلوك العام على هدى من عمل النبوة والرسالة الدينية ، وهذه الحادثة التي روتها التوراة في توسع واستفاضة ، هي انه في المساء وقبل الغروب قام داود الذي كان يقيم بالعاصمة « أورشليم » ولم يخرج للحرب حين وجه جيشا لمحاصرة بني عمون ، والتي هي « عمان » اليوم عاصمة الاردن وغادر سريره واخذ يتنزه من على سطح منزله ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جدا ، فارسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد ، اليست هذه « بتشبع » بنت اليعام امرأة « اوريا الحثي » فأرسل داود رجلا واخذها فدخلت اليه ، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة ، فأرسلت واخبرت داود وقالت، اني حبلى ، فأرسل داود الى يوآب الذي كان يقود المعارك ضد بني عمون وقال له ارسل الي اوريا الحثي فأرسل يوآب اوريا الى داود . فأتى اوريا اليه فسأل داود عن يوآب وسلامة الشعب . ونجاح الحرب وقال داود لاوريا انزل الى بيتك واغسل رجليك فخرج اوريا من عند داود وخرجت وراءه مجموعة في حراسته من عند داود غير آن اوريا لم يذهب الى بيته ولم تطلب له بالنزول في فراشه على حد رواية التوراة . فنام على باب بيت داود مع جميع الذين برفقته . وفي الصباح اخبروا داود قائلين اوريا لم ينزل الى بيته ونام على الارض ، فقال داود لاوريا أما جئت من السفر ؟ فلماذا لم تنزل الى بيتك فقال اوريا لداود ان التابوت واسرائيل ويهوذا يسكنون في الخيام ، وسيدي يوآب وعبيد سيدي يناموں على وجه

الصحراء ، وانا آتي الى بيتي لآكل واشرب واضطجع مع امراتي ؟ وحياتك وحياة نفسك لا افعل هذا الامر ، فقال داود لاوريا أقم هنا اليوم ايضا ، وغدا اطلقك فأقام اوريا في اورشليم ذلك اليوم وغده ودعاه ، فأكل امامه وشرب واسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده ، والى بيته لم ينزل ، وفي الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد اوريا وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ، وبالفعل فان يوآب دون آن يتحرى السبب الذي من اجله كانت أوامر قتل اووريا مرسلة منه وعمل بأوامر داود وحدث انه في محاصرته للمدينة وفي احد المواقع الشديدة جعل اوريا في مقدمة هزيلة امام رجال من العرب اولي بأس ، وما ان بدات الحرب حين خرج للقاء جيش يوآب بعض من رجال العرب وحاربوا جيش يوآب ، الا وقد سقط بعض الرجال الاسرائيليين وبينهم آوريا الحثي الذي وقع قتيلا بهذه المؤامرة التي تقصها التوراة وتنفرد بها .



ومن عجب ان التوراة التي تنفرد بهذه الرواية في الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني ، لا يدري مؤلفها انه بما قصه وسجله فانه قد مسخ الصورة الدينية والتاريخية للنبي داود ـ وحاشا لنبي الله ان يكون كذلك ـ ذلك انه حسبما يستفاد من هذه الرواية ، فان داود لم يكن رجلا على خلق الرجال كريما في نفسه ولم يكن عفا طاهرا ولم يكن نظيف السلوك بل كان شهوانيا يحب النساء ويتصيدهن ، ما ان لمح امراة تستحم الا وثارت حواسه لها فأحضرها مستغلا موقف السيادة الذي يمثله ثم اتاها في غير ما خلق او ضمير ، فزوجها الرجل يقاتل جنديا في المعركة التي ساقه اليها داود نفسه اقول وحاشا لداود النبي العظيم ان يكون كذلك ـ بل ايات الرواية تفصح عن خلق لداود لا يمكن ان يتصور معه امكانية قيادته لعديد من المعارك في الشرق حتى نهر الفرات وفي الشمال الى دمشق كما تدعي ايات التوراة في غباء مخجل بجغرافية الارض التي تتحدث عنها .

فمثلا كيف يتصور منه ذلك وهو جالس حين معركة يواب ضد بني عمون في اورشليم يتصيد النساء ، ويوقع بهن ان يدعى النبوة ـ ثم تدعي عليه التوراة فيما ترويه انه لجأ الى هذا السلوك الخائن حين اراد ان يخلق

شرعية مصنوعة وباطلة لنتاج لقائه واتيانه الزوجة التي تستحم من الطمث ثم حبلت بأن ارسل الى زوجها يطلب اليه ان ينام في بيته والحرب قائمة ليضاجع زوجته فيستر الموقف ولا يدري احد بعد ذلك ان المراة قد زنت مع ذلك الذي نصبه القوم جميعا ملكا عليهم لان الرب باركه وخلصه من ايدي اعدائه ومطارديه . ثم تسوق التوراة خبر مجيء الرجل « اوريا » من المعركة بناء على طلب الملك النبي ويرفض بعد اللقاء الذي بينه وبين الملك ان يعود الى بيته او ينام على فراشه ويضطجع مع امراته والحرب قائمة لا : بل والتابوت واسرائيل ويهوذا يسكنون الخيام ، وسيده يواب على وجه الصحراء ، الا تقول التوراة صراحة بهذه الرواية ودون ان يدري المؤلف الكاذب الذي جاء بعد مئات السنين وابتدأ يقص الاساطير والخرافة وكل ما تناهى الى سمعه دون عمل او روية او تدبر وسجلها (١) ان هذا الرجل اوريا الحثي . زوج المراة التي تغلب عليها داود وضاجعها في غيابه اثناء الحرب اعظم خلقا وامانة بل واكثر التصاقا واهتماما بحوادث الشعب الاسرائيلي ومصيره حين المعركة، من داود نفسه وهل يمكن ان ينظر الى الرجلين « الملك النبي » الذي لوثت صورته التوراة فيما ترويه والرجل المقاتل البسيط الشريف بمنظار واحد ، اظن انه على ضوء ما تقرر التوراة من الباس الرجل داود ثوب التستر على الخطيئة والقيام بها ومحاولة اخفاء الخيانة وخلق شرعية باطلة للسفاح حين طلب الرجل واراد ان يمكنه من فرصة لقاء زوجته واتيانها فلم يفعل بينما تتحدث عن الرجل « اوريا » انه قد بلغت به الامانة وحفظ اسرار سيده الملك النبي الى الحد الذي لم يحاول فيه أن يعرف طبيعة السر المكتوب الذي حمله الى يواب من داود وهو الامر الخائن بوضعه في موقع من المعركة يقتل منه ، كي تتاح لداود فرصة اخذ الزوجة التي فرض هو عليها الخطيئة ضمن نسائه ، اظن انه لا يمكن النظر اليهما بمنظار واحد ، فواحد منهما في لغة الاثم التوراتي يمثل الظلام والانحراف والخطيئة والثاني يمثل فدائية العمل الذي كان بصدده وبطولة التضحية المنوطة به ، غير انها التوراة واسفارها في قصص الافتراء الذي تنسبه الى انبياء الله فتلوث قداسة رسالة السماء (تنزه انبياء الله عما يلصقه بهم التاريخ الاسرائيلي الاثم) .

---

(١) انظر هذه الدراسة المتعلقة بالعهد القديم .

ومن مثل هذه التراكيب المتناقضة من بين اساطير العالم وتراثه (١) فان روايات التوراة تعتبر تشويها كاملا بل ومسخا لكل ما يمكن الوقوف عليه صراحة وفي موضوعية حول امور القداسة او موضوع الدين ، فالعظماء من الانبياء والذين كان داود حلقة منهم حين يحاول باحث ان يقف على ملامحه وسيرته من عند المصادر التي دائما تتشدق بالارتباط التاريخي به والتي يلوح اصحابها دعوى حقه وميراثه ودينه ، فانه يجد هذه الصور المهزوزة بل والمخزية والتي لا تتفق مع خلق أو ضمير فضلا عن قداسة وعظمة نبي كداود ينظر اليه المتدينون والمعتقدون بالوحدانية الخالصة من غير اليهود على انه واحد من انبياء الله ورسله الذين ارتبطت سيرتهم وتاريخهم بقيم الخلق العف والضمير الحي ودعوة الحب والسلام واشاعة روح التعاون والتفاهم عن طريق الارتباط بالله والايمان به .

ومهما يكن من الالم النفسي الذي نتعرض له في دراستنا للتوراة حين الوقوف على كثير من الآيات التوراتية التي تقدم معطيات ومفاهيم لا تتفق والعاطفة الدينية القائمة على احترام وتقدير انبياء الله والباسهم ثوب القداسة والتطهر ، وتنزههم عن السلوك الدنس واساليب الانحراف والغواية فاننا سنواصل منهجنا في هذه الدراسة حين نأتي على آيات من التوراة ندرس منها زيف التاريخ عند بني اسرائيل لننقد لهم دينهم من مصادرهم التي بين ايدينا اليوم عقيدة همجية لا خلق فيها ولا نقاء ولا ضمير ، ولنقدم لهم تاريخهم من مصادرهم ، دعوى نصب وتزوير لم يعرف مثلها في التاريخ الانساني حتى اليوم ، وحتى تتأكد القيمة الدينية المتفق . بانه اذا اريد الوقوف على قضية من القضايا الدينية التي تتعلق بالتاريخ اليهودي وجوهر الديانة اليهودية فانه بالضرورة لكي يقف الباحث على تكامل في العرض التاريخي في الحديث عن الدين اليهودي وطبيعته ودوره في مرحلة الدعوة الى الله وعلاقة اصحابه به ان يسمع ويتدبر في آيات مصادر دينية أخرى غير التوراة اعني اننا اذا اردنا دراسة يطمئن اليها القلب والعقل للحكم على اليهودية فيما ترويه فان علينا ان نبحث في مصادر أخرى غير التي بأيدينا عن اليهود وخاصة بهم وبرسلهم . ولنا بعون الله وتوفيقه عودة لهذه الدراسة بهذا المنهج الذي يدرس تاريخ اليهود من غير مصادرهم ، اعني من القرآن الكريم .

---

(١) من المفيد في مجال البحث العلمي حول التناقض الذي ورد في آيات العهد القديم الرجوع الى المصادر الاتية .

النبوة والرسالة على يد داود :

اذا شئنا ان نذهب نبحث عن النبوة والرسالة الدينية بما تمثله النبوة والرسالة من تطهر وعفة وحب وسلام وتعاون وتراحم ومساواة للذين يؤمنون بها ويحافظون عليها فضلا عن تعميق عقيدة التقرب الى الاله الواحد دون الالتجاء الى مظاهر الوثنية والتوصل اليها عن طريق الحس واللذة والمتعة وسائر شهوات البدن فاننا لا نجد هذه المعاني ابدا قد ارتبطت او عرفت في تاريخ النبوة المدعاة في اسرائيل حتى حسبما تصور لنا مصادرهم الدينية والتاريخية وخاصة كتاب كالتوراة ، ومن العجب الذي يملأ الانسان بالحيرة والدهشة معا ، انه لم تعف التوراة واحدا حتى من الذين تحدثت عنهم على انهم أنبياء ، او انهم اصحاب رسالة دينية ، حتى الكبار منهم كالنبي « داود ، وسليمان » « عليهما السلام ».
فاذا نظرنا الى التوراة نحاول منها معرفة كيف كانت النبوة والرسالة الدينية على يد النبي داود ؟ وهل ادى دورا في تاريخ الرسالة الدينية في مجتمع اسرائيل ، وهل ساهم في تاريخ التطور الانساني داخل دائرة الاعتقاد الديني ونتائجه ، بتطهير الفكرة الدينية المرتبط بها ضمير الانسان ووجدانه مما علق بها من شوائب الوثنية ومظاهر الحس ، وباختصار هل روث التوراة عن عقيدة الاله التي قررتها مصادر دينية اخرى لغير اليهود واضفت فيما تحدثت اسلوب نقاء على الفكرة الدينية وما علق بها ، وباختصار مرة ثانية ، هل روت التوراة فيما تحدثت اخبارا عن جهاد ديني قام به النبي « داود » في تاريخ الدعوة الدينية ؟؟

ان التوراة فيما دون فيها بعيدة تماما عن طهر الدعوة الدينية ، وفي الكتاب المسمى بسفر صموئيل الثاني ، ومن الاصحاح الثالث عشر ، ذهبت آيات العهد القديم تحدثنا عن نموذج من الحال الخلقي الغريب جدا عند داود واله ، وخاصة حين كبر وولى ملكا دينيا – حسب دعوى التوراة – وحين ذهب يوسع الارض التي يمتد عليها سلطانه – وايضا هنا حسب دعوة التوراة ليقيم دولته وعدوانه .

ومن أعجب العجب انه لم يكن النموذج الذي تحدثت عنه التوراة سوى صور غير دينية وغير مقدسة على الاطلاق ، بل انها نموذج للقبح الاخلاقي والخلخلة الاجتماعية وانعدام القيم الدينية كلها ، ولم يفطن الكاهن او المؤلف لآيات هذا السفر انه قدم الدليل المباشر على ان «داود» لم يكن يشغل باله بالدعوة الدينية ولا يتأصل مبادئها وتقرير قواعدها

والدعوة اليها ، بل ولم تكن هناك دعوة دينية على الاطلاق ولم يكن فيما ينسب الى « داود » على حد رواية التوراة ادنى اثر تركه في توجيه او تقديم او محاولة خلق قيم جديدة وربط الناس بها او محاولة لمقاومة انحراف او خطيئة .

فمثلا الولد « امنون » بن داود لم تؤثر فيه الدعوة المدعاة في التوراة ادنى تأثير من هداية او تقويم فلم يكن هناك في نفسه من رباط خلقي او عاصم من ضمير الدعوة التي كان يفترض ان تأثيرها يخرج من بيت ابيه الى الناس جميعا يقوم من انحرافهم ويدعوهم الى قيم التطهر والسلوك العف النفسي الذي يتأبى عن الخطيئة ويترفع عن اتيان الفاحشة والاعتداء على الناس في أعراضهم والايقاع بهم « أمنون » بن داود بما فعله فيما تحدثت عنه التوراة بل وفيما أقره له الوالد النبي داود وايضا كما في رواية التوراة ، لم يكفه ان يكون كأهل بني جنسه يتصيدون أعراض الناس ويقتلون ويكذبون ويسرقون . بل أراد ان يقتل عرض ابيه ويقتله هو نفسه ويسطو عليه ، لا بل قتل الولد عرض نفسه وقتل فيما فعله ذاته وبالتالي قيم الدين المتصور كلها ، ومن اعجب العجب داخل دائرة الدين المروي في التوراة ان يرضى بعد ذلك عن خطيئة كتلك التي قام بها «أمنون» صاحب دعوة دينية . فماذا فعل ابن داود المفترض فيه انه أقرب الآل الى صاحب الدعوة التي طال امدها وتوسع صاحبها وكثر اتباعه وتخلص من اعدائه على حد رواية التوراة .

نماذج من الخطيئة في المعتقد اليهودي

كان لابشالوم بن داود أخت اسمها « ثامار » فأحبها « أمنون » بن داود ، واحصر « امنون » للقمقم من اجل « ثامار » لانها كانت عذراء ، وعسر في عيني « امنون » ان يفعل لها شيئا وكان لامنون صاحب اسمه « ياناداب ابن شمعي » اخي داود ، وكان « يوناداب » رجلا حكيما جدا ، فقال له لماذا يا ابن الملك انت ضعيف هكذا من صباح الى صباح اما تخبرني ، فقال له «امنون» اني احب « ثامار » اخت « ابشالوم » أخي فقال « يوناداب » اضطجع على سريرك وتمارض واذا جاء ابوك ليراك فقل له دع ثامار اختي فتأتي وتطعمني خبزا ، وتعمل امامي الطعام لارى فآكل من يدها ، واضطجع امنون وتمارض فجاء الملك ــ داود ــ ليراه ، فقال امنون للملك دع ثامار اختي فتأتي وتصنع امامي كعكتين فآكل من يدها ، فارسل داود الى ثامار في البيت قائلا اذهبي الى بيت امنون اخيك واعملي له طعاما ، فذهبت ثامار

الى بيت امنون اخيها وهو مضطجع واخذت العجين وعجنت وعملت كعكا امامه وخبزت الكعك . واخذت المقلاة وسكبت امامه ، فابى أن يأكل وقال امنون اخرجوا كل انسان عني ، فخرج كل انسان عنه ثم قال امنون لثامار ايتي بالطعام الى المخدع فآكل من يدك فأخذت ثامار الكعك الذي عملته واتت به الى امنون اخاها الى المخدع ، وقدمت له ليأكل فأمسكها . وقال لها تعالي اضطجع معك يا اختي ، فقالت له يا اخي لا تذلني لانه لا يفعل هكذا في اسرائيل . لا تعمل هذه القباحة ، اما انا فأين اذهب لعاري ، واما انت فتكون كواحد من السفهاء في اسرائيل، والآن كلم الملك لانه لا يمنعني منك، فلم يشأ ان يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها (١) .

وعلى ضوء بل وهدى ما تصوره التوراة التي بين ايدينا اليوم ، فهذا هو الخلق الاجتماعي والديني في تاريخ بني اسرائيل ، حتى في عصر المملكة واي مملكة ؟ عصر مملكة النبي الرسول الذي بلغ حال السيطرة الحسية ومشاعر الانفعال الشهواني البهيمي بالقوم جميعا في عصره حسب دعوى التوراة ان ابن الرجل النبي اصبح بما فعله واحدا من سفهاء اسرائيل ، بل واصبح مثلا للانحراف والخطيئة ، ويا ليت الامر كان يقف بالقوم جميعهم عند حد من امكانية تحديد معالم السلوك المنحرف من السلوك السوي ، فان الخطيئة ، بالقتل ، وبالرشوة ، بالسرقة ، بالزنا ، بالتزوير ، بالتحايل ، بالتضليل ، بالكذب ، بكل هذه المعاني هي القيم السائدة والمنتشرة والتي تغلب على كل سلوك القوم في كل مراحل حياتهم وعصورهم ، ذلك انه رغم قبح هذه الصورة التي ترتبط بالابن المباشر والملاحق للنبي الرسول داود والذي يفترض فيه انه على هدى من تأثير الدعوة الدينية وعملها كان مثلا للطهر والنقاء فان التوراة على ديدنها في تصوير ملامح الجميع والباسهم ثوب الخطيئة حتى في سلوك الكبار والعظماء والانبياء والمرسلين عند بني اسرائيل ، وفي منطق تاريخهم ودينهم وربايات معتقداتهم نجد الخطيئة من الانبياء المألوفة والمقبولة ، والمستحبة في تاريخ القوم وعقيدتهم (٢) .

فلا تنتهي الرواية التوراتية في تقديم النماذج الدينية في اسرائيل حتى داخل بيت النبوة الذي تتصوره التوراة عند هذا الحد وتكتفي بهذا الاثم المدعى .

---

(١) سفر صموئيل الثاني : الاصحاح الثالث عشر ـ آيات ١ ـ ١٤ .

(٢) انظر : « التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي » للاستاذ الدكتور صبري جرجس ـ صادر عن « عالم الكتب » القاهرة ١٩٧٠ م.

بل تذهب تعيد الكرة حول صاحب الدعوة نفسه حول داود فتقول : عليه كما في سفر الملوك الاول من الاصحاح الاول ان الرجل بعد ان كبرت به السن وشاخ واصبح لا يقدر على الحركة وعجز الجميع عن علاجه . ولماذا يا توراة ؟ لانه لا علاج للداء الا بأسبابه . واي داء هذا الذي سيصبح دواء ويخلص العجوز من مرضه وشيخوخته . لا شيء في رواية التوراة وفي علم القوم وخلقهم الا ان يأتوا للمريض العجوز المسن الراقد على السرير بدعوته ودينه المفترى عليهما فيما دون القوم وأرخوا ، بفتاة عذراء شرط ان تكون حلوة ومليحة لا بل ضرورة ان تكون فاتنة لا مثيل لها في جمال بني جنسها وندرة ملامحها في جميع اسرائيل . ولماذا يا توراة والرجل مريض يموت ؟ يفصح الخلق الديني والاجتماعي عند القوم من ايات معتقداتهم كي تكون حاضنة الملك وتضطجع معه في حضنه فيدفأ جسده وتدب في اوصاله الحياة ؟

وفيما ترويه التوراة من سفر الملوك الاول ومن الاصحاح الاول تقول الايات المعتقد فيها والمتعبد بها عند القوم جميعهم حتى اليوم .

« وشاخ الملك داود . تقدم في الايام وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ فقال عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء . فلتقف امام الملك ولتكن له حاضنته ولتضطجع في حضنك ، فيدفأ سيدنا الملك ، ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم اسرائيل فوجدوا « ابيشج الشونمية » فجاءوا بها الى الملك ، وكانت الفتاة جميلة جدا فكانت حاضنة الملك ، وكانت تخدمه ولكنه لم يكن يعرفها » (١) .

او هكذا يا توراة يكون دعاة الرسالة الدينية ؟ او هكذا يكون عمل الدعاة اصحاب الرسالة الدينية ، او هكذا يكون خلقهم في دين بني اسرائيل نقول نحن من واقع تفهمنا لما يمكن ان يكون عليه خلق النبي وصاحب الدعوة الدينية او الرسالة الالهية ومن واقع مصادر دينية اخرى ، لا يعرف الهوى او التناقض اليها سبيلا ، تنزهت رسالة الله ورسله عن هذا الاثم .

واذا ما واصلنا مشقة الطريق في البحث عن القيم الدينية التي اسس لها داود ودعا اليها واذا ما اجهدنا النفس ايضا في تتبع ما في ايات التوراة

---

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح الاول ١ ــ ٤ .

عن معاني الخير والحب والسلام وعن صفات الاله وعلاقته بعباده وطريق عباده اليه ، وباختصار اذا ما اردنا الوقوف على ملامح الدعوة الدينية كعقيدة وسلوك يدعو اليهما النبي الرسول ، ويضرب المثل فيهما بالممارسة في مجالات التطبيق والواقع ، فانا لن نجد شيئا من هذا القبيل على طول امتداد ايات التوراة وكل ما ورد في المزامير التي نسبت ايات كثيرة منها الى داود حين تراكمت عليه الخطايا (حسبما تدعي عليه التوراة) ودخل مرحلة المناجاة والتطهر فان هذه المزامير ، والتي هي ضرب من الشعر والنثر والترانيم ، وبعض الحكم والامثال لم تكن في الجزء المتعلق بداود ولا هي حتى في مجموعها تمثل انتقالا دينيا او سلوكا متعبدا الى الله ، ولم يكن داود او القوم جميعهم من بني اسرائيل عموما روادا فيما هو بين ايدينا اليوم من ايات المزامير البالغ عددها مائة وخمسون فان امثال البابليين وحكمهم، وديانية المصريين وفنونهم كانت في التاريخ ميراثا يمثل ذخيرة كبيرة جدا في امثال هذه الادعية والترانيم وما تركه البابليون من تاثير في التعلق بهذه الترانيم كان قد سرى الى فلسطين قبل مراحل الضياع الاسرائيلي والذي بدأ في بابل حين الاسر الشهير والاغلب الراجح ان الجزء الكبير من هذه الترانيم قد بدأ يؤلفه الحاخامات والكهنة من رجال اسرائيل في الفترة التي بدات عقب الاسر (1) وكان مقصدهم منها وما يهدفون اليه ان تكون هذه الايات عزاء وصبرا وتسلية او امتثالا وشكرا وحمدا وهذا هو السر وراء الجزء الخاص من المزامير المتعلق بالسير الشعبية وضرب الامثال والتوبة والشكر والحمد وغيرها مثل المزمور الخامس عشر ، والرابع والاربعين وهما يتفقان في كثير من هذه المعاني النقية فمثلا يقول المزمور الخامس عشر :

« ... يا رب من ينزل في سكنك . من يسكن في جبل قدسك ، السالك بالكمال والعامل بالحق والمتكلم بالصدق في قلبه ، الذي لا يشي بلسانه ولا يصنع شرا بصاحبه ، ولا يحمل تعبيرا على قريبه ، والرذيل محتقر في عينيه ، ويكرم خائفي الرب ، يحلف للضرر ولا يغير فضته لا يعطيها بالربا

---

(1) لاحظ هنري برستيد مؤلف كتاب « فجر الضمير » ان المزامير نتاج عمل جمع من المؤلفين وقد لاحظ عليهم برستيد انهم رسموا صورة تدل على الحماية الالهية المستمدة من تحت اله الشمس المصري ويقول برستيد ان مؤلفي - المزامير كانوا على علم بانشودة اختاتون وهذا معناه ان الاصل المصري لانشودة اختاتون يفيد مصدر المؤلف المزامير - وقد لفت برستيد النظر الى التقابل المدهش بين المزمور ١٠٤ وبين الانشودة الاختونية المنظومة لاله الشمس وهذا يعتبر دليل علم على الصنعة التدوينية للتوراة انظر صفحة ٣٩٣ - ٣٩٤ فجر الضمير .

ولا ياخذ الرشوة على البريء ، الذي يصنع هذا لا يتزعزع الى الدهر » .

ومثل المزمور الرابع والاربعين الذي يقول :

« اللهم بآذاننا قد سمعنا . اباؤنا اخبرونا بعمل عملته في ايامهم في ايام القدم ، انت بيدك استأصلت الامم وغرستهم ، حطمت شعوبا ومددتهم لانه ليس بسيفهم امتلكوا الارض ولا ذراعهم خلصتهم، لكن يمينك وذراعك ونور وجهك لانك رضيت عنهم .

انت هو ملكي يا الله، فأمر بخلاص يعقوب، بك ننطح مضايقينا باسمك ندوس القائمين علينا، لاني على قوسي لا اتكل وسيفي لا يخلصني لانك انت خلصتنا من مضايقينا واخزيت مبغضينا ، بك نفتخر اليوم كله واسمك نحمد الى الدهر . سلاه . . . لكنك رفضتنا واخجلتنا ولا تخرج مع جودنا، ترجعنا الى الوراء عن العدو ، ومبغضونا نهبوا لانفسهم ، جعلتنا كالضان اكلا ، ذريتنا بين الامم ، بعت شعبك بغير مال وما ربحت بثمنهم تجعلنا عارا عند جيراننا ، وهزاة وسخرة للذين حولنا ، تجعلنا مثلا بين الشعوب لانخفاض الرأس بين الامم، اليوم كله خجلي امامي وخزي وجهي قد غطاني، من صوت المعير والشاتم من وجه عدو ومنتقم » (١) .



وكما يستفاد من نص هذا المزمور الرابع والاربعين فان كل اياته تستدر رحمة وعطفا وطلب عناية افتقدها القوم وبكوا من اجلها ، وهي من المعاني التقليدية المدعاة في التوراة بانها كانت تلازمهم في يوم من الايام والنص الوارد في المزامير الذي يقول : « . . . اباؤنا اخبرونا بعمل عملته في ايامهم في أيام القدم . . . » يدل تماما على ان تدوين ايات المزامير كان بعد فترة طويلة جدا من موت داود ونهايته على اساس الادعاء التوراتي وروايته بان « داود » كان من الاباء الذين عمل الرب معهم الخير الكثير والفضل الغامر المدعى في دين التوراة ولغتها .

نقول انه مع تقبلنا النظري لا العقائدي ، لما في بعض ايات العهد القديم

---

(١) المزمور الرابع والاربعون : ١ ــ ١٦ .

وعدم الرفض الكامل لما يعتبره بعض الباحثين في العلوم السامية وما يتعلق بميراث الساميين عموما من المزامير لنظرتهم اليها على ان فيها مسحة من دين وتطهر وتوبة ، الا انه يبقى للمزامير كجزء تقديري من العهد القديم او كجزء ملحق بالعهد القديم يحمل طابع الظروف التي كان يتأثر بها الكاهن او الداعي في رحلة التاريخ من عمر جماعات اسرائيل، كما ان في المزامير نفس طابعها التقليدي في الدعوى . ولذا فان ايات كثيرة من المزامير تعبر عن بداية حالة مفاجئة حلت بالجماعات الاسرائيلية غلب عليها طابع الحزن والاسى والجزع ، ثم تعلق البعض بأثواب الندم والتضرع والخشية ونداءات الرب، ولم يلمح من صدق في كل ايات العهد القديم خلال الاسفار الخمسة في شكل لفتة حزن او تضرع للرب او سمة من هذا الاتجاه مما يربط ويعمق علاقة المزامير بالحشد الهائل من الرجال الذين وردت اسماؤهم مقترنة بآيات المزامير وافتتاحيتها وخاصة في الجزء غير المنسوب لداود الذي انتهى بالمزمور الثاني والسبعين والذي حرص فيه المؤلف للنص الذي بين ايدينا اليوم قبل ان ينتهي منه ان يقول على لسان داود في طلب لله : « .. اللهم اعط احكامك للملك يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق .. » الى ان يقول ، وهي نفس نعرة التعصب والادعاء المصنوع في كل السياق العام للتوراة حتى هنا في آيات المزامير : « ... امامه تجثو اهل البرية واعداؤه يلمسون التراب » . ويختتم المزمور بالعبارة التي يراد بها ان تدل على دعوى المزمور في نسبته لداود فيقول المزمور : « تمت صلوات داود ابن يسى » .

ويبقى لنا فيمانقرره على ضوء ايات التوراة عن دور النبوة والرسالة على يد داود ان نلقي نظرة على ما ورد في المزمور الخامس والثلاثين وهو المنسوب صراحة الى داود ، ليتأكد لنا ان آيات المزمور وعباراته التي تفيض بالرجاء لله والتوجه اليه تطلب بان يقتل الذين يسعون لقتله ، بل وان يمسك الرب سيفا ودرعا وفرسا ورمحا ليحارب بدلا منه ، كي لا يفكر احد في الاساءة اليه وليخجل وليخز الذين يطلبون نفسه ... وتمتلىء ايات المزمور بما يستفاد منه : ان العلاقة بين داود وربه كانت علاقة العبد الضعيف المسكين والبائس الفقير بربه القوي المنقذ .

ومن المسلم به لدى جمهور كبير من المفكرين الدينيين اليهود (١) وكذا

---

(١) من هؤلاء الحاخام يهودا القالي ١٧٦٨ م وكان من الزعماء الروحيين بين يهود الصرب : قضى صباه في القدس .

والحاخام : صموئيل موهليفر ١٨٢٤ - ١٨٩٨ م نشأ في وسط ثقافي بين يهود ليتوانيا . كتب رسالة حارة الى المؤتمر الصهيوني الاول ١٨٩٧ م .

رجال الدين اليهودي ايضا من الذين شرحوا التوراة وكتبوا تفسيرا لها ان داود ابتدأ يجار لربه ويصرخ ويستغيث عقب الحرج والضيق والمذلة التي تعرض لها حين أرسل له الرب حسبما تدعى التوراة في الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني (١) «ناثان» النبي فجاء اليه وقال له : « ... كان رجلان في مدينة واحدة . واحد منهما غني والاخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثير جدا ، واما الفقير ، فلم يكن له شيء ألا نعجة واحدة صغيرة ، قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعا . تاكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه ، وكانت له كابنة ، فجاء ضيف الى الرجل الغني، فعفا ان يأخذ من غنمه ومن بقره ، ليهيىء للضيف الذي جاء اليه . فأخذ نعجة الرجل الفقير ، وهيأ للرجل الذي جاء اليه ، فحمي غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان : حي هو الرب أنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ، ويرد النعجة اربعة اضعاف لانه فعل هذا الامر ولانه لم يشفق ، فقال ناثان لداود أنت هو الرجل ، هكذا قال الرب الهاسرائيل ، انا مسحتك ملكا على اسرائيل وانقذتك من يد شاول ، واعطيتك بيت سيدك ، ونساء سيدك في حضنك واعطيتك بيت اسرائيل ويهوذا ، وان كان ذلك قليلا كنت اريد لك كذا وكذا لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه، قد قتلت اوريا الحثي بالسيف واخذت امرأته ، امرأة لك واياه قتلت بسيف بني عمون » .

نقول اذا كانت بداية عهد « داود » بالتوبة وبالتطهر ، والتي ابتدأ يتلو فيها مزاميره ويغني اناشيده ، وبالتالي ابتدأ يدخل مرحلة النهاية التي شاخ فيها ومرض ومات (كما تقول المزامير) وعلى حد تعبير المزمور الحادي والسبعين : « لا ترفضني في زمن الشيخوخة » مقترنة مباشرة بالفترة التي كان فيها داود لما ينته بعد من التخلص من الفتن الداخلية والقوى التي تقاومه من امثال « ابنير بن شاءول » والحرب قائمة عند حدود نهر الفرات كما تقص التوراة وتدعي بل ويحارب عند دمشق ايضا كأنه كان في كامل قوته وانطلاقه فقد كان لا يبالي ولا يشغل فكره بقيم العبادة والرجوع الى الله ، كما تحاول ان تصفه التوراة ــ ائمة ــ في افتراء وغلو حين كان يتصيد نساء الغير ويقتل الرجال ويطلب تدمير المدن . واضح ان الجو العام المحيط بالمرحلة التي فيها اضطر « داود » امام تعيير وعتاب «ناثان» له ان يرجع الى ربه وان يقول وينشد آيات المزامير في حضن الحائط منفردا مبتهلا ، لا تفصح عنه ايات كآيات المزمور الخامس والثلاثين التي

---

(١) سفر صموئيل الثاني : الاصحاح الثاني عشر : ١ ــ ١٠ .

اتينا عليها ، والتي تقول مثلا : « خاصم يا رب مخاصمي ، قاتل مقاتلي ، امسك مجنا وترسا وانهض الى معونتي واشرع رمحا وصد تلقاء مطاردي ».

اقول كيف يتفق ان يكون نبي كداود في حالة تقرب وتطهر او دعوة الى ربه ثم يطلب منه ان يمسك السيف والترس والرمح ليقاتل الناس بدلا منه وهو يحاول ان يكون بلا خطيئة أو اثم بينما كان بالامس قبل الخطيئة المسجلة في التوراة رجلا لا يهتم بأمر الحرب وهي دائرة ، بل على اكبر الفروض يديرها من اورشليم اي من على سطح بيته وهو يتمشى حين راى المراة التي كانت تستحم كما تقص التوراة في الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني (١) .

ثم متى كان شهود الزور يقاومون داود ويجازونه على الخير شرا ، افي الفترة المدعاة بانها كانت عقب الخطيئة مباشرة ؟ وهي التي كان فيها الجيش المدعى لداود يحارب وينتصر بيد الرب وقد تخلص من جميع الاعداء على حد رواية التوراة ، حتى انهم جميعا ابناء اسرائيل الذين كانوا من جند داود واتباعه او الذين كانوا من فترة قليلة حول اعدائه كانوا يتقربون اليه ويرتبطون به كما فعل قائد جيش « ابنير بن شاول » في بدء عهد داود حين قتل قائد جيش ابنير بنفسه ابنير وجاء يسعى الى داود في بدء مرحلة الحرب التي شنها داود واستقر له الامر ولم يصبح له اعداء ولا شهود زور يقاومونه بل كانت كل اعين الشعب تسر به على حد التعبير التوراتي ؟

والعجب انه كيف يتفق ان ينقلب الموقف فجاة ليصبح تعبيرا عن حال ضد داود على اساس ان هنا تصورا ــ توراتيا ــ يقول ان بدء تلاوة المزامير كانت عقب حالة الخطيئة التي قام بها داود فكيف يصبح لداود حساد ــ وشهود زور يضيق بهم الى الحد الذي يقول فيه على حد عبارة المزمور الخامس والثلاثين : « .. شهود زور يقومون وعما لم اعلم يسالونني يجازونني عن الخير شرا » اغلب الظن والراجح انه حين دونت هذه العبارة كان المؤلف لها جماعة من بني اسرائيل وفي مرحلة الضياع التي تعرضت لها تعيش ازمة انعدام الثقة بينهم وبين الذين يعاملونهم . فكانت هذه الايات تحمل نغمة الالم هذه ومسحة استجداء الخير ، الموقف النفسي الذي لم

---

(١) سفر صموئيل الثاني : الاصحاح الحادي عشر : ١ ــ ١٢ .

يكن له مبرر يفرضه ، حين كان داود يتوب من ذنبه على فرض التسليم بأن بدء مرحلة ايات المزامير وترتيلها كان عقب الخطيئة التي تنسب الى داود في بدء عهده الذي استمر حوالي الاربعين عاما على ضوء ما سجلته التوراة .

وفي النهاية فانه لا يتيسر الوقوف في أمر عقيدة دينية منزهة لمعطيات الرسالة الدينية بقواعد التطهر واداب السلوك فيها ثم النظر في تأثيـــر عمل هذه القيم في تاريخ الدعوة الدينية على يد الانبياء والمرسلين في تاريخ بني اسرائيل على ضوء ما تقدمه عنهم ايات التوراة وملحقاتها . وعنــد الضرورة الموضوعية داخل دائرة الدين الحق والبحث عنه فانه لا بد مــن الرجوع الى مصدر اخر غير ما يعتقد اليهود الاسرائيليون ليمكن تقديــم الملامح الدينية والخلق الديني والتاريخ الديني وللوقوف على تأثير الدعوة الدينية في المجتمعات بمنهج اخلاقي يكرم الانبياء ويحفظ تاريخهم وكرامتهم ، غير اننا فيما قصدناه من هذه الدراسة كما قلنا : هو الاتيان على ما فــي مصادر القوم من فكر ومن قصص لامكانية الوقوف على زيف الادعاء وعمل المصلحة والهوى في دين القوم . وعليها فأننا نواصل البحث بمنهجنـــا . وامامنا الان دور واحد من العمالقة في التاريخ الديني الاسرائيلي على وجــه الخصوص ، وهو الذي زيف رجال الدين من جماعات اسرائيل وكهانهــا حوله الكثير والكثير وخاصة في رواية التوراة ومنهجها حين راحوا يفسرون ويقررون اسانيد وهم العقيدة المدعاة ولولا عقيدة اخرى ودين اخر غيــر زيف أوهام بني اسرائيل تنظر امر الرجال الكبار في تاريخ الدعوة الدينيــة بمنظار التقدير والاحترام بل والايمان بهم في كل ما يمكن ان يقدموه من معاني البر والخير والحب والسلام لاصبحت الصورة التي يمكن ان يراها الانسان عصرا بعد عصر ، عن انبياء الله ورسله من مصادر دين يهود وعقيدتهم تثير كوامن النفور والرفض الانساني ما يمكن ان يقال بفكر التوراة وما يتعلق بهمــا .

وهذا العملاق الديني الذي ادى دوره في تاريخ بني اسرائيل هو النبي الرسول العظيم سليمان عليه السلام ، فماذا عنه في التاريخ الاسرائيلــي وهو المحوط في عقيدة غير اليهود مثلا بسياج من الطهر والعفة والارتباط بالله باعتباره نبيا رسولا .

الباب الخامس

- دور النبي سليمان في اسرائيل
- الحوادث السياسية على يد سليمان
- النبي سليمان في المعركة السياسية
- بداية الضياع السياسي في عصر سليمان
- التفتت السياسي بعد سليمان
- اليهود في ظل السيطرة الاجنبية القديمة
- العلاقات اليهودية الرومانية في عصر الميلاد
- انبثاق المسيحية اليهودية بعصر الميلاد
- ملامح المعتقد الديني في الحياة الآخرة

دور النبي سليمان في اسرائيل :

يبدو من سياق السرد العام للبداية السياسية التي تولى بها النبي سليمان امر جماعات بني اسرائيل ان اواخر ايام ابيه داود في الحكم كانت غير مستقرة بعد ان طمع في مناوأته والظهور بجانبه مجموعات من القوى المتصارعة داخل جماعات بني اسرائيل ، ويؤكد هذا المعنى الذي لا يستفاد من غير التوراة نظر الكثرة للتناقض الذي ورد فيها ما روى في الاصحاح الاول من سفر الملوك الاول عن وجود قوى تتربص بحياة النبي داود والراقد على فراش المرض ، ما ان تأكد لديها ان الرجل لن يقوم من نومته ، الا وابتدات تنظم نفسها وتختار كهانها لتنصب رجلا يمثل مصلحتهم وامتيازاتهم كان ذلك على حد ما تقوله التوراة ، من انه في اخر ايام الملك داود ، ان « ادونيا» ابن حجيث ترفع قائلا : انا املك ، وعد لنفسه عجلات وخمسين رجلا يجرون امامه ، ولم يغضبه ابوه قط قائلا لماذا فعلت هكذا ؟ وامام هذا الانقضاض المبكر ، فان الجماعات التي تمثل مظهرية دين اسرائيل وتاريخهم ومن الذين يودون الحفاظ على مميزاتهم ومناصبهم بجوار الملك الذي خدموه قامت تسوق واحدا منهم ، ليدفع زوجة الملك الراقد وام الولد الذي كبر واصبح رجل الملك المنتظر ، الى الملك داود ، وقالوا « لبثشبع ، انه قد آن الاوآن ليدرك الملك الخطر المحدق بهم كي ينصب ابنه سليمان ملكا عليهم ، وعليها ان تأخذ زمام المبادرة وتحدث الملك في ضرورة الوفاء بعهده وعهد الرب معه وعليهم هم بعدها ان يعززوا موقفها ويلحوا في تحقيق مطلب تنصيب سليمان ملكا ، وبالفعل، فان « بثشبع » على حد رواية التوراة دخلت على الملك فخرت وسجدت له ، فقال لها الملك ما لك ، فقالت له انت يا سيدي حلفت بالرب الهك لامتك قائلا : ان سليمان ابنك يملك وهو يجلس على كرسي ، والآن هوذا « ادونيا » قد ملك وانت الان يا سيدي الملك لا تعلم ذلك ، وقد ذبح ثيرانا ، ومعلوفات وغنما بكثرة ودعا جميع بني الملك ، « ابياثار الكاهن » ، ويوآب رئيس الجيش ، ولم يدع سليمان عبدك وانت يا سيدي الملك اعين جميع اسرائيل نحوك لكي تخبرهم من يجلس على كرسي سيدي الملك بعده ، فيكون اذا اضطجع سيدي الملك مع ابائه

اني انا وسليمان نحسب مذنبين . وبينما هي متكلمة مع الملك اذا « ناثان النبي داخل ، فأخبروا الملك قائلين هوذا ناثان النبي ، فدخل الى امام الملك وسجد للملك على وجهه الى الارض ، وقال « ناثان » يا سيدي الملك أانت قلت ان ادونيا يملك بعدي وهو يجلس على كرسي ؟ لانه نزل اليوم وذبح ثيرانا ومعلوفات وغنما بكثرة ، ودعا جميع بني الملك ورؤساء الجيش و « ابياثار » الكاهن وها هم يأكلون ويشربون امامه ويقولون : ليحيا الملك « ادونيا » واما انا عبدك وصادوق الكاهن و « بناياهو بن يهوياداع » . وسليمان عبدك، فلم يدعنا ، هل من قبل سيدي الملك كان هذا الامر ولم تعلم عبدك من يجلس على كرسي سيدي الملك بعد ، فأجاب الملك داود وقال ادع لي « بتشبع » فدخلت الى امام الملك ووقفت بين يدي الملك فحلف الملك وقال : حي هو الرب الذي فدى نفسي من كل ضيقة انه كما حلفت لك بالرب اله اسرائيل قائلا ان سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسي عوضا عني كذلك افعل هذا اليوم ، فخرت « بتشبع » على وجهها الى الارض وسجدت للملك وقالت ليحيا سيدي الملك داود الى الابد . وقال الملك داود ادع لي « صادوق الكاهن » و « ناثان النبي » و « بناياهو بن » «يهوداياع». فدخلوا الى امام الملك. فقال الملك لهم خذوا معكم عبيد سيدكم. واركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وانزلوا الى « جيحون » وليمسحه هناك « صادوق الكاهن » و « ناثان النبي » ملكا على اسرائيل واضربوا بالبوق وقولوا ليحيا الملك سليمان (١) .

وعلى حد رواية التوراة هذه فانه هكذا كانت البداية السياسية التي دخل بها سليمان بن داود غمار مرحلة من تاريخ بني اسرائيل ادى فيها دوره الديني والسياسي الفذ والذي تضوه عبر التاريخ اليهودي حين ابتدات التوراة تتحدث عنه وتقصه بمنهجها في صنع الزيف والهوى دون ما تقدر او اعمال فكر .

فما الذي ابتدا يعمله سليمان في هذه المرحلة التي تولى فيها امر اسرائيل على حد رواية التوراة وابوه لما يزل بعد حي وعلى فراش المرض ؟ ادرك سليمان لاول وهلة انه تولى الامر امام قوى متناقضة وعديدة . وكل منها لا تربطه بالقوى الاخرى ادنى علاقة من ولاء او عقيدة ، فاستطاع عقب

---

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح الاول : ٥ ــ ٣٥ .

عملية استجماع الارادة التي دبت في بيت ابيه حين استثير داود بعد ان علم أن عرشنه تتطاول عليه جماعات من عبيده آن يقف علـــى قدميه ، فاستصدر ما يشبه الامر الملكي بأنه قد تنازل عن عرشه لابنه سليمان وابتدأ سليمان يوجه ضرباته بما يشبه ــ بناء على ما يستفاد من التوراة ــ اسلوب المؤامرات السياسية واحاكة الوقيعة ليتخلص من القوى التي تقاومه اولا بأول . وعقب تنفيذه قرار ابيه ، يبدو انه ابتدأ على الفور يعمل عملـــه ، فأرسل مجموعة من الذين ادوا دوراً في تهيئة الجو العام الذي جعل من داود يتعجل تنفيذ ما وعد به وذهبوا بالفعل يصنعون جوا من اشاعة الابتهاج والفرحة لدى جميع بيوت جماعات اسرائيل ، كي يخرجوا مواكب وجماعات تعلن تأييدها ، وسعادتها بتنصيب « الملك » الجديد . ثم انفذ مجموعـــة اخرى وسط المؤيدين والمتعصبين في خدمـــة « ادونيا » كي يتعلمـــوا على سحب الارض التي يقف عليها « ادونيا » حين يفرقون انصاره من حواليه ؛ وحتى يلقوا في روع الجميع ان داود حين نصب ابنه سليمان قد تشـــدد وتقوى وانه مبتهج لان عاش حتى يرى ابنه سليمان يجلس علـــى كرسي عرشه ، وبالفعل فان القوى التي احاطت بسليمان استطاعت ان تفسح له الطريق مبكرا كي يتخلص من اعدائه ، فان « ادونيا » ما ان ووجه بتحول التيار العام عنه ، الا واستسلم سريعا ودون ان يدخل مرحلة يشكل بهـــا خطرا او عوائق امام سليمان .

وتقول التوراة فيما تقصه حول هذه البداية ، ان سليمان حين ركب بغلة ابيه داود وذهب الى جيحون ، في صحبة الكاهن « صادوق » كي يمسح بالزيت ، فان الشعب جميعه قد خرج يضرب بالناي ويفرح ويغني ، ويصل الغلو التوراتي في الصياغة اللفظية وهو يعبر عن فرحة الشعب بمســـح سليمان وتنصيبه عليه ، ان الارض كانت تنشق من اصوات الجمهور الفارح المهلل وتقول التوراة بالنص في سفر الملوك الاول وفي الاصحاح الاول حول هذا التصور الذي نلمحه من بين ايات التوراة .

« ... (1) فنزل «صادوق» الكاهن و « ناثان » النبي ، و « بناياهو ابن يهوياداع » والجلادون والسعاة ، واركبوا سليمان على بغلة الملك داود وذهبوا به الى «جيحون» ، فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان ، وضربوا بالبوق ، وقال جميع الشعب ليحيا الملك سليمان

---

(1) سفر الملوك الاول ــ الاصحاح الاول : ٣٨ ــ ٥٣ .

وصعد جميع الشعب وراءه وكان الشعب يضربون بالناي ويفرحون فرحاً عظيما حتى انشقت الارض من اصواتهم فسمع « ادونيا » وجميع المدعوون الذين عنده بعدما انتهوا من الاكل وسمع يوآب صوت البوق ، فقال : لماذا صوت القرية مضطرب ، وفيما هو متكلم ، اذا « بيوناثان » الكاهن قد جاء فقال ادونيا تعال لانك ذو باس وتبشر بالخير ، فأجاب يوناثان وقال لادونيا بل سيدنا الملك داود قد ملك سليمان ، وارسل الملك معه صادوق الكاهن وناثان النبي ، و « بناياهو بن يهوياداع » والجلادين والسعاة ، وقد اركبوه على بغلة الملك ، ومسحه صادوق الكاهن وناثان النبي ملكا في جيحون ، وصعدوا من هناك فرحين حتى اضطربت القرية ، هذا هو الصوت الذي سمعتموه ، وايضا قد جلس سليمان على كرسي المملكة ، وايضا جاء عبيد الملك ليباركوا سيدنا الملك داود قائلين : يجعل الهك اسم سليمان احسن من اسمك وكرسيه اعظم من كرسيك ، فسجد الملك على سريره ، وايضا هكذا قال الملك ، مبارك الرب اله اسرائيل الذي اعطائي اليوم من يجلس على كرسي وعيناي تبصران فارتعد وقام جميع مدعوي ادونيا ، وذهبوا كل واحد في طريقه ، وخاف ادونيا من قبل سليمان وقام وانطلق وتمسك بقرون المذبح فاخبر سليمان وقيل له هوذا ادونيا خائف من الملك سليمان ، وهوذا قد تمسك بقرون المذبح قائلا ، ليحلف لي الملك سليمان انه لا يقتل عبده بالسيف ، فقال سليمان ان كان ذا فضيلة لا يسقط من شعره الى الارض ، ولكن ان وجد به شر فانه يموت ، فارسل الملك سليمان فأنزلوه عن المذبح فاتى وسجد للملك سليمان فقال له سليمان اذهب الى بيتك .

وعلى هذه الصورة التي ترسمها التوراة من ان سليمان قد استسلم امامه دون جهد او مشقة اكبر واحد ممن كان يتصور في نفسه صلاحية واحقية لتولي امر القوم وسيادتهم ، فان القوى التي ظلت تناوئه من جماعات بني اسرائيل لم تكن تشكل عليه خطرا ولم يكن لها عنده كبير اهمية ولذا فان التوراة هنا عند الحديث عن سليمان فيما ورد عنه في الاصحاحات ابتدا من الثاني الى الحادي عشر من سفر الملوك الاول في النسخة البروتستانتية والاصحاح الثالث الى الحادي عشر في النسخة الكاثوليكية وكذلك الاصحاحات ابتداء من الاول الى التاسع من سفر اخبار الايام الثاني ، لم تستغرق كلها في الحديث حول ما غرقت فيه الاسفار والاصحاحات المتعلقة بداود حين لم تظهر فيها بوضوح معاني الدعوة الدينية ومبادئها وقيمها على يديه حسبما تروي هذه الاصحاحات .

ورغم ان الايات العديدة المتعلقة بسليمان لم تخل في حالات كثيرة

من التعرض للتفاصيل الفارغة والتي تنفرد بها التوراة في ادعاء ، مثل الاخبار المتعلقة بقتل سليمان لاخيه ، « ادونيا » بحجة طلبه الزواج من سرية ابيه وايضا مثل عزله لبعض الكهان الذين نازعوه في بدء سلطانه ، وقتله للبعض الاخر ومن ذلك ايضا حين عزل مثلا على حد رواية التوراة « ابيانار » الكاهن وقتله ليوآب قائد الجيش الخائن لداود حين المرض ، عندما تآمر الاثنان معا وساندا « ادونيا » الاخ الذي قتله سليمان . الا انه على ما يبدو لم يستطع المؤلف التوراتي الذي ابتدأ يدون لسليمان وعصره ، ان يتغافل تيارا عاما وميراثا متداولا ، وهو ان الرجل كان في كل ما قام به ومثله ودعا اليه يمثل دور الرسالة الدينية بكل ابعادها ومعجزاتها في التأثير والهداية ومن هنا جاءت بعض ايات التوراة ولم تنسخ تماما صورة العقيدة الدينية على يد سليمان . ولذا يمكن ان نلمح من ايات التوراة بمنهجها تصورها لدين سليمان ومبادئه واخلاقه الدينية ، وهو تصور مهما يكن من الرفض الديني لكل تفاصيله عند المؤمنين من غير اليهود بسليمان ورسالته على اساس من معطيات دينية مقدسة غير يهودية ترى في دين الرجل النبي الرسول العظيم سليمان معاني مطهرة وتبصر دعوته وخلقه بمعيار اكرم واطهر مما تصورة ايات التوراة ، الا انه يبقى بين ايدينا نص التوراة للذين يؤمنون بها في دعواهم يمثل خطا دينيا للذين يتعلقون بالعهد القديم وينظرون من خلاله الى رجل كسليمان . والاصحاح الثاني من سفر الملوك الاول يتحدث عن الاسس العامة والمبادىء التي نمت في اعماق سليمان ووجدانه منذ غرسها في قلبه الاب النبي الرسول « داود » عليه السلام ولما جاء المسجل التوراتي فلم يستطع اغفال هذه المعاني .

« ... ولما قربت (١) ايام داود اوصى سليمان ابنه قائلا : انا ذاهب في طريق الارض كلها . فتشدد وكن رجلا . احفظ شعائر الرب الهك اذ تسير في طرقه ، وتحفظ فرائضه ووصاياه واحكامه وشهاداته ، كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل . وحيثما توجهت ، لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلا : اذا حفظ بنوك طريقهم وسلكوا امامي بالامانة من كل قلوبهم وكل انفسهم ، قال لا يعدم لك رجل عن كرسي اسرائيل » .

ثم اصبحت هذه المعاني الدينية التي روتها التوراة البداية لان يدخل

---

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح الثاني : ١ .

سليمان دائرة النبوة والهداية في ممارسة دوره من تاريخ بني اسرائيل .الى الحال الذي اصبح فيه سليمان يسلك كثيرا من امور الحياة العامة على هدى من حكمة الله كما تعبر التوراة عن الموقف الذي جاء فيه الى سليمان امراتان وكل واحدة منهما تتصارع في احقيتها لطفل رضيع بدعوى انهما معا ولدت كل منهما ولدا . وبالليل اضطجعت احداهما على ولدها فمات ، فجاءت واحدة منهما الى الثانية النائمة واخذت الولد من جانبها دون ان تحس بها ووضعت الطفل الميت بجوارها ، وعليها فابتدات كل واحدة منهما تدعي امومتها للولد الحي ، واخيرا حسبما تروي التوراة في الاصحاح الثالث من سفر الملوك الاول فان سليمان قد وضع اختبارا لمعرفة الحقيقة فقال ، ايتوني بسيف وطلب ان يشطروا الولد الحي الى نصفين ليعطوا لكل واحدة نصفه فصرخت امام هذا القرار المراة التي هي ام للولد الحي، وقالت لا تفعل يا سيدي اعطوها الولد الحي ولا تميتوه ، واما المدعية فقالت في عناد ،لا يكون لي ولا لك اشطروه فأجاب الملك ، وقال اعطوهاالولد الحي، ولا تميتوه فانها امه ، وعلى حد نص التوراة : « . . ولما سمع جميعاسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك خافوا الملك لانهم راوا حكمة الله فيه لاجراء الحكم » (١) .

وكما قلنا فانه يشتممن بين آياتالتوراة اكثر من مرة في كل ما يتعلق بسليمان رائحة من دين واصبح الدين هنا حتى بالمنهج التوراتي الذي لا يطمئن اليه المؤمن ابدا هو منهج الدعوة عند سليمان ومحرك الحوادث وموجهها على يديه . فما هي اهم الحوادث السياسية في تاريخ سليمان في بني اسرائيل ؟ . وهو النبي الرسول العظيم الذي يرى فيه المؤمنون حقا واحدا من رسل الله ومن اكرم خلق الله .

الحوادث السياسيه على يد سليمان :

ما أن استقرت الامور واطمأن سليمان الى انه يمكن ان يدخل مرحلة من العمل الديني والسياسي ، الا وقد بداها بالفعل ، وكان ذلك ابتداء من السنة الرابعة من حكمه الطويل الذي قارب الاربعين عاما . وكان اول ما فكر فيه ونزل به الى الواقع وعبأ له مشاعر الشعب الاسرائيلي واستجمع همتهم وكلفهم ضرائب واتاوات من اجله ، هو اقامة قصر كبير تمتد من

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح الثالث : ٢٦ ــ ٢٨ .

حواليه مرافق عامة وبنايات كثيرة ، وحين تم البناء اطلق على هذا القصر الكبير اسم : « بيت الرب » وعند الحديث عن هذا البيت تفيض التوراة بآيات الغلو والخيال الى الحد الذي لم يعمل فيه المؤلف التوراتي عقلــه على الاطلاق ليتصور هل امكانيات القدرة الانسانية في التحضر واستعمال الادوات المادية وغيرها يساعد على تقبل هذه الصورة الخيالية والرهيبة ام لا : فالبيت في التوراة طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وسمكــه ثلاثون ذراعا ، والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعا حسـب عرض البيت وعرضه عشر اذرع قــدام البيت . وللبيت كوى مسقوفـة مشبكة . ومبع حائط البيت طباقا حواليه مع حيطان البيت حول الهيكـل والمحراب ، وبنيت حيطان البيت من داخل باضلاع أرز من أرض البيـت الى حيطان السقف وغشاه من داخل بخشب ، وفرش ارض البيـت بأخشاب سرو ، وكذلك بني ايضا عشرون ذراعا من مؤخر البيت باضلاع ارز من الارض الى الحيطان ، وبنى داخله لاجل المحراب ، أي قدس الاقداس واربعون ذراعا كانت البيت اي الهيكل الذي امامه ، وارز البيت من داخل كان منقورا على شكل قناء وبراعم زهور الجميع أرز ، ولم يكن يرى حجر ، وجميع هذه المباني غشيت من الداخل بذهب خالص ، وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب وغشاه بذهب وجميع البيت غشاه بذهب الى تمـام كـل البيت ، وكل المذبح الذي للمحـراب غشاه بذهـب وعمـل في المحـراب كروبـين مـن خشـب الزيتـون علـو الواحـد عشر أذرع ، وخمس اذرع جناح الكروب الواحد ، وخمس اذرع جناح الكروب الاخر ، عشر اذرع من طرف جناحه الى طرف جناحه ، وعشر اذرع الكروب الاخر ... وجميع حيطان البيت في مستديرها ، رسمها نقشا بنقر كروبيم ، ونخيل وبراعم وزهور من داخل ومن خارج ، وغشى ارض البيت بذهب من داخل ومن خارج (1) .

واخيرا مهما كانت صور التوراة وتخيلات راويها حول بناء البيـت مما لا يقبل عقلا فضلا عن الرفض الطبيعي لامكانيات عصر سليمان فالمحقق والمعقول ان سليمان ابتنى بيتا ومحرابا وكانت فنون العمـــارة الشائعة تتضاءل بجانبه . فقد سخر له النبي سليمان كل ما يمكن ان تجود بـه امكانيات جماعات اسرائيل وغيرهم . هذا البيت في لغة التوراة ومعطياتها البداية العملية لظهور مرحلة العمل الديني والسياسي على يد سليمان ، وتشير التوراة الى هذا المعنى فتبرز الجانب الذي قلنا عنه سابقا انه غير موجود ، وغير متوفر في كل ما قصته التوراة عن داود وهو ابراز بعض قيم

(1) سفر الملوك الاول : الاصحاح السادس : ١٤ ــ ٣٠ .

الدعوة الدينية او ملامحها العامة ، وتلمح التوراة في حديثها عن سليمان الى اهمية العمل الديني دون الاستغناء عنه بالمظاهر الفارغة لشعائر الهيكل وترانيم العبادة الاسرائيلية التي كان يقوم بها مجموعات الكهان في وثنية كهنوتية صرفة .

تقول التوراة :

« وكان كلام الرب الى سليمان قائلا : هذا البيت الذي انت بانيه ان سلكت في فرائضي وعملت احكامي ، وحفظت كل وصاياي للسلوك بها ، فاني اقيم معك كلامي الذي تكلمت به الى داود ابيك واسكن في وسط بني اسرائيل ولا اترك شعبي اسرائيل » (١) .

وبالفعل فان التوراة لم يتيسر لمؤلفها أن يغفل ان سليمان قد التزم بان يحاول هدم تناقضات المجتمع الاسرائيلي ، وان ينادي هذا المجتمع الى الرب الاله بمنهج غير مشوب بالسلوك الوثني الذي لم يسلم منه كل الذين تحدثت عنهم التوراة . فمثلا تلمح من الاصحاح الثامن من سفر الملوك الاول ان سليمان اوقف جماعة اسرائيل امامه وبسط يديه الى السماء وقال : « ... ايها الرب اله اسرائيل ليس اله مثلك في السماء من فوق ، ولا على الارض من اسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين امامك بكل قلوبهم ... » (٢) .

وهذه الاشعاعات الخفيفة عن ملامح العقيدة الدينية المتطورة والتي تحمل سلوكا منزها على ضوء ما هو مقرر في نقاء العقيدة الدينية عند غير اليهود مما يمكن ان ينسب الى نبي او رسول . هذه الاشعاعات الخفيفة في تاريخ بني اسرائيل لم تظهر كثيرا في التوراة كما قلنا . غير ان سليمان عليه السلام كان قد اخذ على عاتقه محاولات التطهير الديني التي رفضت تماما من كل قلوب بني اسرائيل ومشاعرهم منذ دعوة موسى اليهم ليعبدوا الاله الواحد ويقيموا قضية العدل الاجتماعي بينهم ، ولذا فان المؤلف التوراتي الذي سجل ودون لمرحلة سليمان ، وسواء كان هذا المؤلف من انصار سليمان او خصومه ، لم يستطع ان يغفل تماما مسحة الملامح الدينية المقترنة

---

(١) سفر الملوك الاول ، الاصحاح السادس : ١١ ــ ١٣ .
(٢) سفر الملوك الاول ، الاصحاح الثامن : ٢٣ ــ ٢٤ .

بالسلوك الديني الذي لازم سليمان فيما عبرت عنه التوراة بعد ذلك .

غير اننا وسط السرد العام والقصص الكثير المتعلق بسليمان في ايات التوراة نعثر على بضع ايات تستوقف الباحث وتلفت نظره كثيرا ، وحقيقة ان هذه الايات في دلالتها العامة لا تمثل تناقضا صارخا او خلطا ولغوا كبيرا يمسخ شخصية سليمان ويشوهها على حد ما ذهبت التوراة مع اشخاص اخرين وخاصة النبي داود ، لانها كما الحنا لم تخل من سمة تكشف عن الملامح العامة لعقيدة الدين الذي دعا اليه سليمان الا انها تكشف عن معنى لم يفطن اليه المؤلف التوراتي الذي دون لهذه الحقبة ونسب ما قرره لسليمان ، وهذا الذي نلمحه بين سطور الايات الواردة في الاصحاح الثامن من سفر الملوك الاول فيه نغمة الرواية الدينية التقليدية في التوراة وعبء الميراث التاريخي المشحون بالمذلة والضياع منذ عصر السبي بعد تمزيق كيان الجماعات الاسرائيلية . واذا علمنا ان بداية السبي والتشريد وخاصة سبي بابل الذي ذهب فيه ضياعا كل جماعات بني اسرائيل في مذلة وتشريد الى العراق كان حوالى عام ٥٨٥ق.م. حين اغار «بوختو نصر» ملك « البابليين » بعد ان كانت دولة « اشور » قد قضت على ما يدعى بـ : « مملكة يهودا » في « اورشليم » و « اسرائيل » في « السامر » (١) وقضت بالتالي على الدعوة المتعلقة بالمملكتين اللتين انقسمتا من الدولة الواحدة التي تدعيها التوراة في عصر سليمان ؟

ومسحة الشعور بالسبي ومذلته التي تكسو بيان بعض الايات المتعلقة بادعية سليمان وحديثه للرب ، فيها ما يؤكد انها قد نسبت اليه بعد وفاته بزمن طويل فان الفرق الزمني بين نهاية دولته المدعاة ــ توراتيا ــ وبين بداية عصور السبي والتشرد اليهودي كانت لا تقل عن ٣٢٥ سنة على اقل تقدير ، هذا اذا علمنا انه يكاد يكون هناك ما يشبه الراي العلمي المتفق عليه على ان نهاية دولة سليمان كانت حوالى عام ٩١٠ ق.م او ٩٠٠ ق.م. وبداية سقوط مملكة يهوذا المدعاة في ايدي البابليين ، ونهب مدينة القدس وتدميرها تماما بايدي البابليين وقيادة « نبوخذنصر » كان حوالى عام ٥٨٥ ق.م.

---

(١) انظر : « فلسطين والضمير الانساني » للاستاذ محمد علي علوية ــ صادر عن دار الهلال عام ١٩٦٤ م ، صفحة ٥٤ .

وعلى هذا التقرير الذي تحقق له منهجنا الذي اشرنا اليه في دراسة التوراة فان الايات التي سنأتي عليها الان هي من الايات التي تعرضت لذكر السبي ومذلته وحينئذ لا يصبح لها ادنى علاقة بحياة سليمان ولا بحديثه ومناجاته لربه ، وكل ما فيها من رائحة الدين يدل على ما كان قد بقي فترة من الوقت عند بعض اليهود من ذكريات عن سيادة لهم في عصر سليمان انتهت تماما بعد التدوين ولم يتعلق بها احد .

تقول التوراة : من السفر الذي اشرنا اليه .

« ... اذا خرج (١) شعبك لمحاربة عدوه في الطريق الذي ترسلهم فيه وصلوا الى الرب نحو المدينة، التي اخترتها والبيت الذيبنيته لاسمك، فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم اذا اخطأوا اليك ، لانه ليس انسان لا يخطىء ، وغضبت عليهم ودفعتهم امام العدو وسباهم سابوهم الى ارض العدو ، بعيدة او قريبة ، فاذا ردوا الى قلوبهم فيالارض التي يسبون اليها ورجعوا وتضرعوا اليك في ارض سبيهم قائلين قد اخطانا وعوجنا واذنبنا ورجعنا اليك من كل قلوبهم ومن كل انفسهم في ارض اعدائهم الذين سبوهم وصلوا اليك نحو ارضهم التي اعطيت لابائهم نحو المدينة التي اخترت والبيت الذي بنيت لاسمك فاسمع في السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم ، واغفر لشعبك ما اخطأ به اليك وجميع ذنوبهم التي اذنبوا بها اليك واعطهم رحمة امام الذين سبوهم فيرحموهم » .

وهذه السمة المتشائمة في بعض هذه الايات والمستجدية المتسولة في تحفظ اثناء مراحل السبي في بعضها الاخر ، تؤكد ما ذهبنا اليه من انه لم يكن هناك من داع او مبرر علىالاطلاق ان تأتي عبارات السبي والمذلة والتشرد وطلب العفو والمغفرة من الذين سبوا اسرائيل دون ان تكون قد وقعت بالفعل اعمال سبي ومطاردة وتشريد . وخاصة اذا علمنا ان دعوى التوراة عن مجتمع اسرائيل ومملكة اسرائيل ترتبط دائما بالفترة التي كان فيها سليمان على بني اسرائيل ، والتي تشيع التوراة عنها ، احاديث بأنها فترة من الامن والاستقرار في مجتمع الامن والاستقرار وبأنها كانت دولة الدين وسط دعوى الرسالة ودعوى سيادة الجنس الاسرائيلي لادركنا انه

---

(١) سفر الملوك الاول ، الاصحاح الثامن : ٤٤ ـ ٥٠ .

لم يكن من المعقول وسط كل مظاهر الامن (المدعاة) وطلب التوسع والانتشار وامتداد السلطان الذي يوجد في بعض آيات اخرى وايضا في فترة سليمان نفسه اقول انه وسط كل هذه المعاني من غير المعقول ابدا ، ان يتحدث سليمان عن السبي وان يقول لربه « ... واعطهم رحمة امام الذين سبوهم » بينما لم يكن هناك سبي في عصر سليمان ولم تكن هناك مذلة حسبما تقص التوراة وتقول في روايتها عن مجد سليمان وعظمة مملكته . وعليها فيصبح من المحقق ومن المعقول انه حتى الآيات المنسوبة الى سليمان نبي الله « عليه السلام » في كل ما ورد من التوراة كلها او بعضها ليست بالطهر والصدق والنقاء الذي كان يجب ان تكون عليه ، والجزء الاعظم منه في مضمونه يمكن تفهمه على اساس من انه قال . كنبي ورسول خاطب ربه بأدعية ومناجاة لم يستطع المؤلف التوراتي يومها ان يدونها بالشكل العف الذي يتصور انها كانت عليه ثم لما ابتدأ القوم يدونون لكل ما يتعلق بسليمان كان هذا الشكل المتناقض في الرواية وسواء اكان سليمان قد اقام به وضاعت الحقيقة ام نسب اليه ام كان له بعض دور فيه فان الظروف التي كانت تبرز من بين ثنايا ما يكتب التوراتيون كما هو واضح فيما حققنا له حول الادعاء المنسوب الى سليمان في سفر الملوك الاول في الاصحاح الثامن من ظهور نغمة تفصح عن حوادث ومفاجآت تعرضت لها الجماعات الاسرائيلية ، لم تكن لها مقدمات في عصر سليمان تؤكد صحة نسبتها اليه او صدقها ، غير انه يبقى لنا ان نقول انه فوق التدليل على ان آيات التوراة فيما يتعلق بسليمان وغيره بعيدة عن سلامة القداسة الدينية وامانة التدوين المباشر فانه بالاضافة للرجوع الى مصادر اخرى دينية غير التوراة حول دور سليمان في تاريخ الدعوة الدينية والتقبل العقلي لكل ما جاء فيها من تأكيد لعظمة الرجل وطهارة دينه واهمية رسالته تتحقق صورة مثالية ونقية عن كل موقف الرجل فيما يتعلق بدينه او علاقته بربه . اما الامر في التوراة فانه لم يستطع الرجال الذين تداولوها ان يبرزوا الحقيقة الدينية عند نبي الله كما لم يستطيعوا ان يسجلوا كل ما يمكن ان يستفاد من رسالة سليمان الدينية عليه السلام الا ان تقرير الدعوة الدينية والوقوف على ملامحها ادبا ودعاء وفكرا وسلوكا يصبح من الاشياء المرتبطة بموضوع الدين في حد ذاته ، وتأثير الدعوة في مناخها وبيئتها والبشر الموجهة اليهم الدعوة ، فلم يمض وقت طويل من المرحلة التي قضاها سليمان عليه السلام في اسرائيل الا وقد ابتدأت تظهر الانحرافات الاخلاقية والدينية والسياسية التي تمثلت على حد رواية التوراة في المجموعات والرجال الذين ابتدأوا ينشقون على سيادة سليمان ويتنكروا له ويضطر هو للخروج اليهم وشن

الحرب ضدهم ومع ذلك فلم يتخلص منهم وابتدا في اخريات ايامه بطلب العفو والمغفرة للذين عصوه وتنكروا عليه ، وعلى حد ما يستفاد من التوراة التي تقول في تقرير مثل هذا المعنى الذي تذهب اليه فان الدعوة الدينية التي دعا اليها سليمان لم تحافظ عليها جماعات اسرائيل ولم تؤمن بها ، وتقول التوراة في هذا .

« ... اذا اغلقت السماء ولم يكن مطر لانهم اخطأوا اليك ثم صلوا في هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لانك ضايقتهم ، فاسمع انت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك اسرائيل » .

ومن خلال النظرة العامة لكل السياق العام لتاريخ بني اسرائيل في المرحلة التي ادى فيا سليمان دوره الديني والتاريخي فانا نجد بعد ذلك في التوراة على « ديدنها » ـ بعيدا عن المبادىء والقواعد الدينية التي تستفاد من غير آيات التوراة وانما بمنهجها حول ملامح العقيدة الدينية التي دعا اليها النبي سليمان الدور السياسي الذي قام به الرجل مرتبطا فيما تعبر عنه التوراة بعظمة سليمان ومملكته الواسعة ومجده العظيم ان هذا الدور افتري عليه كثيرا وكتبت حول الاساطير ، فما هي على ضوء مما نراه في التوراة حدود هذا الدور السياسي ولو من وجهة نظر نفس هذا المصدر الذي بين ايدينا والمتمثل في كل تركة : « العهد القديم » .

النبي سليمان في المعركة السياسية :

من الغلو واللغط معا في منهج كثير من الباحثين ، وخاصة الغربيين عند تناولهم لمسار التاريخ المتعلق ببني اسرائيل وقوفهم امام المرحلة التي كان سيلمان فيها ملكا على بني اسرائيل ، يقيم مجد الدين وسلطان الدنيا حسب دعوى التوراة ، ليقرروا في غباء علمي مصنوع انه فوق اعتبارات الدين والدعوة اليه فان الرجل قد اسس لبني اسرائيل مجدا سياسيا وتاريخيا في ارض فلسطين وكل المناطق المحيطة بها من آسيا وافريقيا ، وهذا المجد الاسرائيلي المتصور ان سليمان قد اسسه هو الميراث التاريخي الذي يحمله اليهود تعصبا وايمانا جيلا بعد جيل ، ويصل الادعاء في دعوى القوم وهم بصدد تصوير ملامح هذا المجد وحدوده انهم يصلون بغلوهم في الدعوى ، من حدود الارض التي بسط سلطانه عليها ، الى تلك المنطقة الممتدة على طول المحيط الهندي جنوبا والتي يحدها الحجاز من ناحية الشمال ، والبحر الاحمر من جهة الغرب ، وهي البلاد اليمنية التي كانت

تتمتع في عصر سليمان او على وجه التحديد منذ بدأت دولة « سبأ » التي استمرت حوالي تسعة قرون من ١٠٠٠ – ١١٥ ق.م. بالوحدة الاقليميه في ظل الدولة العربية السبئية ولم تكن هناك كما فعل الاستعمار الاوربي بالارض العربية في العصر الحديث حدود فاصلة بين شمال وجنوب .

والدعوى التي يعثر عليها الباحث في تاريخ سليمان السياسي هي التي تقول ان سليمان قد امتد حكمه في منتصف الفترة التي ادى فيها دوره في بني اسرائيل الى هذه الارض حين كانت عليها ملكة سبأ التي كانت واحدة من الذين تناوبوا الحكم في ارض اليمن بعد ان سقطت دولة «المعينيين» التي كانت تحكم اليمن ثم تطرق اليها الضعف وانتهت بالسقوط على ايدي حكام « سبأ » (١) .

وهذه الدعوى التي لعب بها خيال الذين كتبوا في خدمة اليهود والذين جرفهم الخيال في تحقيق بعض النصوص تعتمد على بضع آيات توراتية تتحدث عن الغزو والتوسع في عصر سليمان وعلى يديه .

ورغم ان جانب المعجزة الالهية المقترن دائما بالادوار العظيمة التي يقوم بها المرسلون حين تفاجئهم عقبات او تحديات او توضع في طريق الرسالة عراقيل ، فيكون دورها هو المؤثر في الحركة التي امامهم وفي مجريات كل الحوادث التي تجري على ايديهم وقد اخبر القرآن الكريم عن جوانب من المعجزة التي كانت تحيط بحركة سليمان وسلوكه باعتباره نبيا رسولا ، لكل المحيطين به وذلك حين قص اخبار الملك سليمان بن داود ولم يغفل قوته واستعداده المقترن دائما بارادة الله وقدرته ، وبأنه قد أوشك على ان يجرد حملة ويقوم بها لغزو اليمن بعد الموقف الذي عبرت فيه الملكة اليمنية « بلقيس » عن رفضها الابي العربي الشجاع لما شاع عنه من ان الملك الذي بجوارها قد يكون ممن يقيم وجوده وسلطانه على القوة والقهر والغلبة فقالت قولتها التي عبر عنها القرآن الكريم بعد ذلك

---

(١) انظر : « تاريخ الامة العربية قبل الاسلام » للاستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاته القاهرة عام ١٩٥٧ م .

« ... قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها » (١) . فكان رد سليمان وانفعاله وتأثره من اسلوب الملكة ، ومن قومها الذين تجرأوا عليه فقد كانوا بجوارها قوة ومنعة حتى جعلوها تقول فيه هذا القول عندما تناهى اليها بعض اخباره فذهبت تطمئن الى حال مجتمعها وموقفه مما يمكن ان يتهدده فما كان من القوم الا ان قالوا لها : « نحن أولوا قوة واولوا بأس شديد ، والامر اليك » (٢) .

وامام كل هذه المواجهة كان قول سليمان يعبر عن الحال الذي صاغ القرآن الكريم عبارة عنه تفصح عن حال سليمان وبانه غاية في القوة و « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون » (٣) .

ومن العجب ان هذا القصص المتعلق بسليمان والذي يورد بمنهج التوراة تارة منهج القرآن الكريم الذي لم نشأ ان ندخل في تفاصيله مرة اخرى قد جاءت الاطماع اليهودية واثر فيها منهج التحريف والتزييف الذي تم في رواية صناع التوراة الى الحد الذي مسخت فيه بعض الحقائق التي يفترض انها وردت في بعض آيات التوراة وفيها اخبار عن دور الدين وارتباطه بعمل المعجزة الالهية لنبي الله سليمان .

اقول ورغم ايماننا الذي لا حد له بان جانب المعجزة الالهية يقترن دائما بالادوار العظيمة التي تقوم بها الرسالات السماوية على يد اصحابها الداعين اليها ، فان رواية التوراة قد شوهت الحقيقة ، ورغم هذا فان ما تحدث عنه القرآن عما كان يستطيع سليمان عليه السلام القيام به فانما هو حقيقة الحقائق فيما يتعلق بأخبار سليمان التي ترد في قصص القرآن وروايته ولا شك فيها وخاصة انها لا تعطي طابعا عنصريا او ادعائيا ، الا ان التوراة دين الذين يتعلقون بدعوى انهم ابناء سليمان واحفاده وانهم وحدهم اهله واصحاب ميراثه تتقول اشياء من بين تناقضات روايتها ، وهي في جملتها لا تساعد على التصور التعصبي الذي يقيم العنصريون دعواهم على اساسه وهذا الذي يمكن ان يؤخذ من جملة آيات التوراة في حديثها عن دعوى التوسع والسيطرة والانتشار المنسوب اليهم ، لا يساعد القوم على دعواهم ، بل يقوم الدليل على انه لم يكن هناك حتى ما يشبه التمكن والسيطرة اليهودية فانه من بين التوراة ومن مجمل تناقض الرواية فيها

(١ ، ٢ ، ٣) سورة النمل الآيات : ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٧ .

نستطيع ان نرى منها انه لم تكن هناك مملكة بمعناها العنصري المتــوارث بل ولم يكن هناك ما يدعى من حدود سياسية قديمة متصوره كانت ميراثا للقوم وحتى بالفرض الجدلي ، فانه ان صدقت روايه التــوراة وهي مدعية كذب وافتراء في غير ما سند ولا منطق فان هذه المملكــة المدعــاة وهــذه الحدود (التي لم تكن ابدا) ليست ملكا للقوم وحدهم دون غيرهم ولا تعبر عن الحدود السياسية المصنوعة في اوهــام دعــاه العنصريــة التعصبيــة المغتصبة والمزيفه لقيم الحق والدين في العصر الحديث .

يقول سفر الملوك الاول من الاصحاح العاشر ، وهو يلقي بعض ضوء عن التوسع المدعى « ... وسمعت ملكة سبا بخبــر سليمان لمجد الــرب فاتت لتمتحنه بمسائل ، فأتت الى اورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة اطيابا وذهبا كثيرا جدا ، وحجارة كريمة واتت الى سليمان وكلمته بكــل ما كان بقلبها فاخبرها سليمان بكل كلامها ، لم يكن امر مخفيا عن الملك لم يخبرها به ، فلما رات ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه ، وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التــي كان يصعدها في بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك صحيحا كان الخبر الذي سمعته في ارضي عن امــورك وعن حكمتك ، ولم اصدق الاخبار حتى جئت وابصرت عيناي فهو ذا النصف لم اخبر به زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته طوبى لرجالك ، وطوبى لعبيدك هــؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك .

والتوراة دائما وابدا فيما تقصه هي حقيقة الحقائق عند جماعــات اليهود وخاصة الغلاة منهم عندما يزيفون وفيما يدعون ، وليس لمصــادر التاريخ الاخرى من قيمة او تقدير فيما تقصه عــن اليهــود ، اذا كان لا يوافق المصلحة والهوى واذا كانت لا تتحدث عن اباحة وتقرير التــوسع السياسي والسيطرة المدعاة لبني اسرائيل على ارض شاسعة تمتد وتتسع حتى تصل الى تلك المنطقة الممتدة على طول المحيط الهنــدي جنوبــا ، يحدها الحجاز من ناحية الشمال والبحر الاحمر من جهة الغرب ، هــذه الارض التي كانت تتمتع في عصر سليمان بالسيادة والاستقلال والوحــدة بين كل أجزائها على يد الملكة العربية « بلقيس » تدعي الاطمــاع اليهوديــة علاقتها بكل هذه الارض ، وكل ما يسوقه القوم الذين يتعصبون لزيف مــا ادعوا وتوهموا في التوراة وهي في مثل هذا النص الذي سقناه توضح زيف الدعوى وتكشف روح العنصرية المرتبطة بالطبع والتاريخ ، وكما قلنا فان الكثير مما يستفاد من التوراة في كشف زيف الادعاءات الاسرائيليةاليهودية

ليس مقصدا هدف اليه المؤلف التوراتي بقــدر ما هو معنى لم يفطن اليه حين ابتدأ التدوين فمثلا لا نعثر في آيات كالتي توضح لنا بدايــة العلاقــة بين النبي سليمان وبين الملكة العربية « بلقيس » علــى روح التــوسـع او الغزو او التهديد بالاستيلاء او السيطرة منسوبة الى سليمان بالرغم ممــا يفيض به التاريخ اليهودي من الزيف والادعاءات التوسعية في هذه المرحلة التي يدعي فيها القصص الديني ـ التوراتي عبر التاريخ بأن حق التاريــخ وحق الدين قد اكده وعمقاسسه وقواعده النبيسليمان وانما كان كما كانت تقول الآيات ان ملكة « سبأ » قد سمعت بأخبار سليمان وبحكمته وبالدين الذي يدعو اليه وقد سمعت به وهي في موقعها من السيادة والقوة ، ولــم يأتها التهديد ولم تقم على حدودها جيوش ضدها ، فأتت اليه لكي تقيــم بين شعبها وبين مبادىء دعوته التي تصورتها علاقة ممثلــة في شخصهــا اولا ، والتوراة تبرزها في قصصهــا عن حضــور « بلقيس » الذي كــان بداية للدعوة التي ضللت الكثيرين ممن كتبوا في القصص الديني اليهــودي وفي مجيء بلقيسمعنى يغفلهالكثيرون ممن تعرضوا للتوراة بالشرحوجعلوها مصدرا لتاريخ اسرائيل : وهو ان مجيء « بلقيس » الى اورشليم حيــث يقيم سليمان لم يكن على سبيل الود بل كانت سيادة الشخصية العربيــة قائمة وسائدة ولم يكن محاولة لاقامة علاقة طيبة بين الجيران ولم يقصــد بهذه الزيارة خلق حالة من الامان يأمن فيها الجــانب الضعيف سلطــان الجانب القوي ، ولكن التوراة تقول : « ... فأتت لتمتحنه بمسائل » . والمؤدى الواضح والبدهي ان دعوة سليمان كان قد امتد الحــديث عنهــا وعن بعض آيات المعجزة الالهية المقترنة بها الى ارض اليمن وان الرجل مع كل ذلك يواجه جحودا ونكرانــا من قومــه اولا بينمــا الشعب في مملكــة « بلقيس » يستشرف للمعرفة ويتطلع الى الوقوف على احــوال جيرانــه وللتعرف على الدعوات والنظم السائدة ، فكانت رحلة « بلقيس » بمبادرة منها كي تقف ويقف معها الشعب العربي في اليمن والذي كان قــد نصب « بلقيس » ملكة عليه لكي تقف هذه التي كانت تملكه حينئذ على حقيقــة الدعوة التي كانت قد سرت انباؤها الى ارض اليمن القديمة لذا حملــت معها على حد رواية التوراة « ... اطيابا وذهبا (١) كثيرا وحجارة كريمــة في موكب عظيم جدا » .

والتوراة هي التي تفصح عن ان الحوار الذي تم بين بلقيس وسليمان حين قدمت اليه لا يساعد على تقبل السخرية التي يلوكها القصص الديني

---

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح العاشر : ٢ ، ٧ .

اليهودي عن السيطرة الاسرائيلية في عصر سليمان على الارض العربيـة في اليمن ، بل يدل على ما كانت عليه السيادة العربية في أرض اليمن متمثلة في مظاهر السيادة التي كانت تحيط ببلقيس اثناء رحلتها الى الحد الـذي قالت فيه لسليمان حين تأكدت من سماحة وطهر ما يدعو اليه ، ما يفصح عن اطمئنانها نحوه وعدم استشعارها مظـاهر القـوة او التعـدي علـى سيادتها وسيادة شعبها . تقول التـوراة بلغتها في الرواية « ... فقـالت للملك صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك»(١)

وعلى هذا فانه لم تكن هناك بداية تحديد منجانب سليمان الى الارض المجاورة له ولم يكن منهج الرجل ودينه ان يشنالحـروب ويهدد بالغـزو والتوسع ، وفوق ذلك فانه كان بجانبه البلاد العربية ذات القـوة والمنعـة والسيادة ودعوى التوسع وتأسيس المملكة القديمـة بأساليب السياسـة الملتوية وقوة السلطان على يد سليمان « المفترى عليه » بأنه حقق للقـوم مطامعهم في احتلال الارض العربية من البرية في لبنان الى النهر نهر الفرات في ارض الحيثيين الى الغرب حيث مصر ، كل هذا الغلط وغلو خيال مريض يجتره المتطرفون من دعاة العنصرية وانصار التعصب ومحبـي السيطـرة على الشعوب ومقدراتها غير اننا بما أخذناه على انفسنا من التتبـع لمنهـج التوراة وقصصها نبحث من خلال ما ترويه عن المسيرة التاريخية المدعـاة لبني اسرائيل عن مجد الدنيا التي لم تكن وزيف الدين المصنـوع حسب المصلحة والهوى ، والمسجل كما هو اليوم في آيات الاسفار القديمة وكتب المعتقد الديني عند القوم ، عصبية وعنصرية واوهام ادعاءات .

بداية الضياع السياسي في عصر سليمان :

الآيات الكثيرة التي احتوتها التوراة وهي تتحدث وتقص بمنهجهـا عن مملكة سليمان ومجده ، وتعظيم الامراء الملـوك الذين كانوا بجانبـه في اراضي آسيا له ، وخضوعهم لسيطرته وجبروته لم تحل دون ان تظهـر من بين هزال ما الف المصنف التوراتي امكانية الوقوف على تفاصيل توراتية في منهج القوم تكشف عن ان هذه المملكة المدعاة قد تقوضت وتمزق بناؤها حتى في حياة صاحبها ، وكانت احوال المملكة سياسيا ودينيا في اضطراب وتفاقم الى ان اصبحت القلاقل الخطر الذي كان بداية للضياع المحقق حتى وصاحب المجد المدعي ــ توراتيا ــ لم يزل بين القوم يعيش حياته ، يـرى الضياع بعينه ، ومع ذلك تجيء التوراة فتقص حوله الاساطير العدوانيـة في التوسع والانتشار والسيطرة .

---

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح العاشر : ٢ ، ٧ .

وعلى حد ما تشير اليه رواية الاسفار التوراتية بل وكما هو مـدون في سفر الملوك الاول من الاصحاح الحادي عشر يستفاد منه تصور غـريب كل الغرابة لا يتفق وزيف الدعوى التي تتحدث عن المجد والمملكةوالتوسع والسيطرة ، آبان عصر الملك سليمان فالنص في الاصحـاح الحـادي عشر يقول صراحة : ان الرب تخلى عن سليمان وعن مملكته وأقـام لسليمـان خصما استقطب قوى كثيرة ارتدت عن سليمان واصبحت تشكـل عليـه خطرا وترفض وجوده عليهم وبينهم . وامام قوة هذا الخصم الذي انشق على الوحدة الوطنية المدعاة وعلى السيادة التي كان يدين لها بالولاء نفس هذا الخصم لسليمان وبقوله بالسيادة ، فان سليمان قـد عاش بدايـة التمزق السياسي ، ولم يستطع ان يفعل شيئا على حد ما تروي التـوراة وتقص .

ومن اعجب العجب ان الثائر الذي تسميه التوراة « هدد الادومي » كان في اخريات ايام داود قبل ان يتولى سليمان امور جماعات اسرائيـل يشكل خطر التمرد بل والموت لجماعات اسرائيل ويؤرق داود ويزعجهوحين استجمع له داود على حد رواية التوراة امكانية مقاومته اضطر هذا الثائر ان يذهب الى مصر هو وجماعاته الذين كان بهم وبثورتهم ، يمثـل الموقف المضاد لداود وحكمه ، ولم يلن موقفه المتحرر ويهدأ او يهادن سليمان حين اصبح سليمان سلطان القوم المنشق هو عليهم وعلى نظام حياتهم فبعد ان تقوى وأمن على نفسه بحماية المصريين له عقب أن تزوج من شقيقة زوجة الفرعون المصري تكريما له وتعضيدا لثورته ، كان قد قرر العـودة الـى سليمان ليدخل معه في معارك وبالفعل فانه حين اعلـن مواصلـة الثـورة والتمرد ضد سليمان اصبح يشكل على سليمان خطـرا تنفـرد التـوراة بابرازه الى الحد الذي تقول فيه عن « هدد الادومي » .

« ... واقام الرب خصما لسليمان « هدد » الادومي كان من نسل الملك في ادوم » (١) .

ومع ان التوراة لم تقدم تفصيلا موسعا عن مدى الصراع الذي حـل بجماعات اسرائيل ايام سليمان حين تمرد عليهم الثائر « هـدد » الا انـه من « الثابت » توراتيا ايضا حسبما تقص الآيات ان « هدد » لم يكن اول

---

(١) الملوك الاول : الاصحاح الحادي عشر : ١٤ .

ولا آخر القوى المضادة التي حملت على عاتقها ان تثير الفتن والقلاقل في مجتمع اسرائيل مؤملة في تحقيق مصالح شخصية او متمردة على ما الف القوم واستمرأوا من اسلوب حياة ، وممارسة تفاوت وتناقض طبقي او استبقاء اوضاع للسخرة وللسيطرة والاستغلال .

فقد هب ثائر آخر في وجه سليمان واثار له الكثير من الفتن والقلاقل وهو « رزون بن اليداع » وهذا الثائر كان تمرده على سليمان امتدادا لموقفه من والد سليمان نفسه من « داود » حين كان ملكا ، بل كان « رزون بن اليداع » من اتباع « هدد » ثم اصبح يمثل موقفا آخر في الثورة على جماعات اسرائيل الحاكمة وامتد نشاط « رزون » ونظم جماعات ثائرة الى الحد الذي اصبحوا فيه قوة بجانب سلطان سليمان « المتصور » في آيات التوراة ترفض مهادنة جماعات سليمان ، أو الاستجابة لهم ، او المعايشة معهم واقاموا لهم مملكة جعلوا عاصمتها « دمشق » ولم تسلم جماعات اسرائيل في ايام سليمان على ضوء رواية التوراة من احتمال انقضاض مفاجىء عليهم من القوى المتربصة بهم في دمشق حيث لم يتح لسليمان فيما تقصه التوراة ان يتمكن منهم أبدا وفي هذا يقول الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الاول « ... واقام الله له خصما آخر « رزون بن اليداع » الذي هرب من عند سيده « هدد عزر » ملك صوبة ، فجمع اليه رجالا ، فصار رئيس غزاة عند قتل داود اياهم ، فانطلقوا الى دمشق ، وكان خصما لاسرائيل كل ايام سليمان مع شر « هدد » فكرة اسرائيل وملك على ارام (١) .

وفوق المعطيات الصريحة لآيات التوراة التي تؤكد انشقاق قوى كثيرة اسرائيلية وغيرها من التي عاهدت سليمان وانفضاضها من حوله فان نصا كالذي بين أيدينا عن تمرد « رزون » « وثورته » وكان خصما لاسرائيل كل ايام سليمان مع شر « هدد » فكرة اسرائيل وملك على ارام ، يؤكد لنا ان « الاراميين » وهم من الطوائف العربية التي كانت بفلسطين ايام سليمان بل كانوا من الجماعات العربية الاولى التي هبت تصد الغزو الاسرائيلي منذ بدء ايام « يشوع » لم يكونوا قد استسلموا لسليمان ولم يكونوا قد اندمجوا في جماعات اسرائيل بل كما تشعر عبارة التوراة كانوا قد استطاعوا ان يتحرروا من سلطان سليمان بعد ان كانوا بمنجاة تماما عن

---

(١) سفر الملوك الاول : الاصحاح الحادي عشر : ٣٣ ــ ٣٥ .

تمكن داود منهم وعدم سيطرته عليهم ، ثم على حد روايات التوراة لم تكن الفتن الداخلية وقلاقل المتمردين والثائرين باعتبارها تناقضات المجتمع الاسرائيلي في عصر سليمان « عليه السلام » هي كل ما يمكن العثور عليه في رواية التوراة فان الدعاة والمجتمع قد تفتت كيانهما حين تمكن واحد من الثوار ان يشطر مجتمع سليمان الى شطرين ويؤلف فريقين يضرب كل منهما الآخر حتى عمل فيهما التناقض عمله بالذبول والضعف والتفتت والضياع ثم الزوال تماما ، وكانت بداية هذه المرحلة من الضياع في نفس المرحلة التي كان يعيش فيها سليمان الجزء المتبقي له من عمره وسط تناقضات المجتمع الاسرائيلي وصراعات تمزقه .

ذلك انه قد تعرض المجتمع الاسرائيلي لصدع قام به ثائر غير الخصمين اللذين تقول عنهما التوراة وتقص من ان الرب اقامهما على سليمان ، وكان الثائر هذه المرة من كبار بني اسرائيل ، ومن الذين يرتبطون في سلسلة عائلية تدعيها التوراة بالآباء الاول الى ان تصل بهم من ايام سليمان الى المصادر المباشرة من يعقوب بن اسحق بن ابراهيم « عليهم السلام » وهو الثائر « يربعام » بن نباط من بني افرائيم بن يوسف . وكان قد نشأ في منطقة يطلق عليها « صريدة » ولعلها هي قرية صريدة في منطقة « نابلس » اليوم (١) . وكان هذا الرجل قويا فاضطر سليمان الى ان يعبىء ضده كل امكانياته . وبعد ان ضيق سليمان عليه الخناق وادرك انه لن يستطيع ان يحقق كل مآربه في الثورة على سليمان قرر ان يعد نفسه من جديد وان ينظم صفوفه ونحى ظهره بقوى تساعده على الانشقاق وتحقيق مقصده فلجأ الى مصر . وقد كان له في مصر كل ما اراد .

من عجب ان موقع مصر على باب شمال شرقي افريقيا الرهيبة وفي ظهر آسيا الواسعة مع وجود الممر البري الآمن الواقع شمال شرق مصر على طول واتساع سيناء العظيمة جعلها دائما حيث الاستقرار والامن والارتباط بالارض حول نهر النيل مقصد كل الذين ضاقت بهم ظروف نضالهم ، أو قامت المطاردة في بلادهم ضدهم كما جعلها ايضا هذا الموقع مقصد الذين يصنعون مستقبلهم وآمالهم ، في ثورة على اوضاع الاستغلال والسيطرة أو اساليب الظلم والقهر . ومن هنا فمنذ قديم الزمان يمتلىء التاريخ بقصص الذين لجأوا الى مصر واحتموا بها وأعدوا انفسهم بين

---

(١) تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم ، السابق الاشارة اليه ، للاستاذ محمد عزة دروزة.

شعبها طالما لم يشكلوا خطرا عليها ، ويلجأ الكثيرون من المناضلين والشرفاء الى مصر وخاصة حين تكون السيادة عليها من ابنائها ، وعلى مثل هذا المعنى فقد قرر الثائر « يربعام » هو الآخر ان يجيء الى مصر ليمكن له الاعداد لمواصلة الثورة ضد جماعات اسرائيل وسلطانهم ، وبالفعل فان « يربعام » قد وجد في مصر كل العون حين أمد له الفرعون المصري « شيشنق » يد المساعدة وزوده بجيش قوي تمكن به « يربعام » من زعزعة اركان المجتمع الاسرائيلي وأعد « يربعام » بثورته وتمزيقه لكيان الجماعات الاسرائيلية وبعثرة شملها الذي تتحدث عنه التوراة امكانيات القضاء نهائيا على جماعات اسرائيل حتى اذا ما أراد هذا الفرعون المصري ان يتخلص من هذه الجماعات العنصرية المتصارعة على الحدود بجواره تيسر له ذلك في يسر وسهولة ومن يطلع على النقوش الموجودة على السور القبلي من هيكل الكرنك بالاقصر يجد فيها تسجيلا لاسماء المدن التي فتحها الفرعون المصري « شيشنق » وهذه النقوش مكتوبة في ٩٦ سطرا وعلى كل منها صور الاعداء الذين تخلص منهم الفرعون المصري ومن بين صور الاسرة صورة للملك فلسطين موثق اليدين وبالنقوش ايضا صورة لرجال من أهل فلسطين كل منهم يشير الى مدينة من المدن التي استولى عليها الفرعون المصري وهذه المدن في مختلف انحاء فلسطين الجنوبية منها والشمالية والشرقية (١) .

والذي نود ان نقرر له حتى على فرض التسليم بأن ما تقصه التوراة حول ما يتعلق بأخبار النبي سليمان يمثل الحقيقة او بعضها فان المجتمع او المملكة التي تتحدث عنها الرواية الدينية من آيات التوراة نفسها نستطيع ان نقول ان هذا المجتمع لم يسلم من القلاقل والاضطرابات وكل مظاهر الفوضى والتخريب ويكفي في عدم التأصل تاريخيا لميراث هذه المملكة انه فوق الرفض الكامل لطوائف كثيرة جدا من الشعب العربي ظلت على عنادها وابائها ورفضها لسيادة سليمان فان من بين حالات السخط والرفض والتنكر والاهتزاز السياسي ، الحالات او المراحل الثلاث التي تحدثت عنها التوراة في استفاضة ، وكل منها يمثل ثورة كاملة تستقطب جمهورا كبيرا بل ، وقوى من هذه المملكة المدعاة الامر الذي جعل المملكة تتصدع حتى في حياة صاحبها على حد رواية التوراة ايضا وما ان ينتهي امره ليتولى أمر المجتمع الرجل المفترض فيه انه من

---

(١) انظر : « تاريخ الامة العربية قبل الاسلام » للاستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاته القاهرة ١٩٥٧م.

ابناء المجتمع ومن سادته الذين يمكن ان يستجيب لهم الشعب ويرضخوا لهم وهو « رحبعام » بن سليمان الذي لم يستطع ان يقف على قدميه ولم يتيسر له جمع شمل القوى الثائرة ضد سلطان بيت داود وما ان عاد الثائر « يربعام » من مصر ليواجه « رحبعام » بن سليمان الا وتشققت المملكة وتصدعت وانقسمت الى قسمين كل منهما يعمل ضد الآخر حتى اصبحا لقمة سائغة في يد قوى اخرى لعبت دورها على مسرح التاريخ السياسي في هذه المنطقة من الارض التي زيف التاريخ اليهودي كل المراحل التي مرت بها وحتى بات الامر في حقيقته ، يختلط فيه الحق بالباطل ، ويجهد الباحث نفسه في امكانية الوقوف على ملامح الحق ، والصدق في جوانب هذا التاريخ الذي طمست فيه اخبار التوراة كل معالم الحق والصدق والنور ولا يعثر لهما على اثر .

التفتت السياسي بعد سليمان :

الظروف غير الطبيعية والمشحونة بالقلق والاضطراب في اواخر حياة سليمان على حد رواية التوراة كانت مناخا ساعد على تعميق حدة تناقض المجتمع الاسرائيلي وظهور علاقات الصراع التي كانت أقرب ما تكون الى الاقتتال الفئوي او الحزبي اذا جاز هذا التعبير فما ان تولى « رحبعام » بن سليمان امر الجماعات الاسرائيلية عقب موت ابيه الا ووجد نفسه بين تيارين متضادين كل منهما يمثل المصلحة المذهبية التي ينتمي اليها ، ومن عجب ان التوراة في الاصحاح الثاني عشر هي التي تحدد لنا الفئات التي تغلبت على امر السيد الجديد ، وجعلته طوع ارادتها وكانت فيما تمثله وفي مكوناتها لا تمثل خلقا او سلوكا نقيا بل بهيمية الطبع الملتوي والخلق المستغل النهاز وكانت هذه المرحلة بالذات هي بداية النهاية التي لم يستطع المؤلف التوراتي بعد ذلك ان يتحدث عن مجد او سيادة او توسع بعدها ولم يعد يقرر في سجل التوراة احاديث الشعب البطل المقاتل والشجاع ، الشعب الذي كان ينزل الرب يقاتل بين صفوفه ، كأنه من ابنائه وعلى حد رواية التوراة فان الانقسام الذي طرأ على جماعات اسرائيل وجعلهم يقتتلون فيما بينهم ، ثم يشنوا فيما بينهم وبين انفسهم مختلف انواع الحروب والاغارة ، حتى لم يبق فيهم من جهد او مظاهر من ترابط بينهم تجعلهم او تمكنهم من الوقوف في مواجهة القوى التي ارادت ان تتخلص من دعوى العنصرية وزيف الاوهام التى كان القوم جميعهم يتداولونها على انها الميراث الديني الخاص بهم والخصائص التي ترتبط

بهم كان نتيجة مباشرة على حد ما تقص التوراة من ان : « رحبعام » ذهب الى « شكيم » لانه جاء شكيم جميع اسرائيل ليملكوه ولما سمع يربعام بن نباط وهو بعد في مصر لانه هرب من وجه سليمان واقام يربعام في مصر ؛ وارسلوا فدعوه ، اتى يربعام وكل جماعة اسرائيل وكلموا رحبعام قائلين : ان اباك قسى نيرنا ، واما انت فخفف الآن من عبودية ابيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك ، فقال لهم اذهبوا الى ثلاثة ايام ايضا ثم ارجعوا الي ، فذهب الشعب ، فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون امام سليمان ابيه وهو حي قائلا : كيف تشيرون أن أرد جوابا الى هذا الشعب ، فكلموه قائلين ان صرت اليوم عبدا لهذا الشعب وخدمتهم واجبتهم وكلمتهم كلاما حسنا يكونون لك عبيدا كل الايام فترك مشورة الشيوخ التي اشاروا بها عليه واستشار الاحداث الذين نشأوا معه ووقفوا امامه وقال لهم بماذا تشيرون انتم فنرد جوابا على هذا الشعب الذي كلموني قائلين : خفف من النير الذي جعله علينا ابوك ، فكلمه الاحداث الذين نشأوا معه قائلين هكذا تقول لهذا الشعب الذين كلموك قائلين : ان اباك ثقل نيرنا واما انت فخفف من نيرنا ، هكذا تقول لهم : ان خنصري اغلظ من متن ابي ، والآن ابي حملكم نيرا ثقيلا ، وانا ازيد على نيركم . ابي ادبكم بالسياط وانا أؤدبكم بالعقارب فجاء يربعام وجميع الشعب الى رحبعام في اليوم الثالث كما تكلم الملك قائلا ارجعوا الي في اليوم الثالث ، فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التي اشاروا بها عليه وكلمهم حسب مشورة الاحداث قائلا : ابي ثقل نيركم وانا ازيد على نيركم ، ابي ادبكم بالسياط وانا أؤدبكم بالعقارب » (١) .

ومن هذا النص الذي ورد في الاصحاح الثاني عشر من سفر الملوك الاول يمكن ان يستفاد منه انه حين جاء يربعام الثائر على سليمان من مصر كان قويا جدا ، وكانت القوى المحيطة به تمكنه من ان يظهر للسيد الجديد ويجابهه وتنضم اليه بعض جماعات اسرائيل على حد رواية النص الذي بين ايدينا ويذهب لمقابلة رحبعام ويصبح على رأسهم ، وكما يستفاد من النص ايضا يتضح ان فئة من الاحداث او المتسلقين من القوى الجديدة التي ظهرت على المسرح قد تمكنت من سليمان الى الحد الذي انقطعت فيه صلة الرجل بالشعب واصبح يحدثه بقسوة ودون ارتباط او ولاء او رعاية من احد الطرفين للآخر ، وكان رد الفعل الذي تصوره التوراة ان القوى

(١) سفر الملوك الاول ـ الاصحاح الثاني عشر : ١٠ ـ ١١ .

التي رفضها رحبعام قد تعاونت وتلاقت واستغلت وجـود الثائر يربعـام وانضمت تحت لوائه ورضيته سيدا عليها ، واعلنوا خلع ولائهـم وكـل ارتباطهم ببيت داود وابنائه من بعده ، ومن عجب ان تكون هذه التصورات من التـوراة .

واصبح الحال كنتيجة طبيعية للبداية السيئة التـي تعرضت لهـا جماعات اسرائيل من عصر سليمان وخاصة آخريات ايامه انه عقب موتـه مباشرة لم يتمكن ولده من الاحتفاظ حتى بالتركة التي كان قد استشرى فيها داء الصراع والوشاية والاستغلال فجعلها مجموعة مـن البشر وليس بين بعضها ادنى ولاء او ارتباط بقيمة حياة او عقيدة دين وانما قطيع من البشر يساق حسب المصلحة والهوى ودون اعمال عقل او تدبر فمن يسلط نفسه عليهم كي ينصبونه اليوم يخلعونه غدا ، وعدو الامس ، سيد اليوم ، وهكذا تكون العلاقة بين القوم وبين سيدهم دائما وابدا . وبالفعل ، فـان كل جماعات اسرائيل على حد رواية التوراة وهي التي لم تنته بعـد من مبايعتها لرحبعام بن سليمان قد وصل بها الحال الى طريق مسدود . فلم يكن بينهم من يستطيع مقاومة اعوجاجه حين ضـل وحين تكالبت عليـه مجموعات المتسلقين والمتصيدين فبايعت وانضوت تحت قيـادة الرجـل الجديد « يربعام » ليصبح يربعام بالموقف الجديد معـول الهـدم الـذي تحطمت به الدولة المدعاة توراتيا ولتصبح جماعات اسرائيل بالانقسام بين فئتين متقاتلتين متصارعتين تعمل كل منهما ضد الاخرى بأمل القضاء عليها والتخلص منهـا .

وتقول آيات سفر الملوك الاول وهي تعبر عن ظهور الرجل الجديـد « يربعام » وتحت لوائه الجزء الاكبر من الشعب الذي تمرد على رحبعـام مثلما تمرد عليهم هو الآخر فتقص انه « ... فلما رأى كل اسرائيـل (١) ان الملك لم يسمع ، رد الشعب جوابا على الملك قائلين اي قسم لنا في داود ، « اي في بيت داود » ولا نصيب لنا في ابن يسى ، الى خيامك يا اسرائيل ، الآن انظر الى بيتك يا داود ، وذهب اسرائيل الى خيامهـم ، وامـا بنـو اسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ، ثـم ارسل الملـك رحبعام « ادورام » الذي على التسخير فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة فمات ، فبادر الملك رحبعام وصعد الى المركبة ليهرب الى اورشليم فعصى

---

(١) سفر الملوك الاول ـ الاصحاح الثاني عشر : ١٦ ـ ٣٠ .

اسرائيل على بيت داود الى هذا اليوم ، ولما سمع جميع اسرائيل بان يربعام قد رجع فدعوه الى الجماعة وملكوه على جميع اسرائيل لم يتبع بيت داود الا سبط يهوذا وحده » .

وهكذا فان الجزء الذي ظل على ولاته او غلب على امره ومرتبط برحبعام بن سليمان كان منحصراً في سيطرة يهوذا وحده وقابع في منطقة اورشليم « القدس » بينما كانت الجماعات التي تسمت باسم اسرائيل قد جمعت نفسها واستقرت بعض الشيء في منطقة « نابلس » وكانت تسميها « السامرة » كعاصمة لجماعات اسرائيل ، وابتدات السامرة تدخل حروبا ضد « اورشليم » واقتتلت (يهوذا) واسرائيل كما يقول سفر الملوك الاول في الاصحاح الرابع عشر ، وكانت الحرب بين رحبعام ويربعام كل الايام ، وفي السنة الخامسة من حكم رحبعام امتد سلطان مصر الى اورشليم واحتلتها وانتهى النزاع بين الفريقين ، كان ذلك على حد رواية سفر الملوك الاول في الاصحاح الرابع عشر من الآيات التي تقول : وفيالسنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر الى اورشليم . واخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك واخذ كل شيء (١) .

وظلت احوال اسرائيل ويهوذا ضائعة جيلا بعد آخر حتى آندمجت « اسرائيل » في امبراطورية « اشور » حوالي عام ٧٢١ او ٧١٥ قبل الميلاد.

ومن عجب ان آياتسفر الملوك الاولقد تحدثتعن هذه المملكة المنشقة التي تكونت بتمرد جماعات بني اسرائيل حين اصبحت ذات اتجاهات في تاريخ بني اسرائيل قد شاع فيها الفساد والانحلال وسرى الى حياة كل الافراد والجماعات روح التحلل والتمرد من كل القيم التي يمكن ان تكون بين أيدي قلة قليلة من القوم واصبح حال هذه الفئة المسماة بـ « اسرائيل » في السامرة في مواجهة « اليهود » في « اورشليم » ان سيد هذه الجماعة و « اسرائيل » وهو « يربعام » لم يكن يستطيع ان يعلن عن نفسه صراحة او ان يتراءى للذين يدعون الهداية والاستقامة الى الحد الذي نقول فيه آيات سفر الملوك الاول ان يربعام لما مرض احد ابنائه المدعو « ابيا » وكان المرض خبيثا والعلة ثقيلة على الطفل ، وتدخلت الكهانة لتقول ان العلاج

---

(١) سفر الملوك الاول ـ الاصحاح الرابع عشر : ٢٥ ـ ٢٦ .

ان يباركه النبي المدعو « اخيا » لم يكن يربعام من فرط خطيئته وانحرافه وعظم سيئاته بقادر على ان يقابل « اخيا » ليقدم له ولده المريض فكلف زوجته بأن تتخفى وتغير ملامحها حتى لا يعرفها « اخيا » فتقدم له ولدها فيعالجه (1) .

هذه الصورة القصصية المصنوعة والتي يلعب فيها الخيال حسبما كانت توحي الظروف التي املتها على المصنف التوراتي بغض النظر عن الاطمئنان اليها او تقرير صحتها او رفضها فانها حسب آيات السفر تؤكد لنا اليوم انه حتى الجماعات المنشقة وسيدها قد اصبحت على حال من السوء والتناقض الداخلي الى درجة انعدم معها كل تقدير للسيادة والاستقرار يمكن أن يتصور لجماعات منشقة استجابت لثائر متمرد على بيت توارث السيادة وادعى المتسلقون حول هذا البيت لهذا البيت كمل قيم الميراث العنصري وكل اصالة الدين الذي زيف حوله القوم اوهام الاماني الطامعة ونزعات التعصب العنصري .

وتقول آيات الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الاول انه « ... في ذلك الزمان مرض «ابيا» بن يربعام فقال يربعام لامرأته قومي غيري شكلك حتى لا يعلموا انك امراة يربعام واذهبي الى شيلوه ، هوذا هناك « اخيا » النبي الذي قال عني اني املك على هذا الشعب ، وخذي بيدك عشرة ارغفة وكعكا وجرة عسل ، وسيري اليه وهو يخبرك ماذا يكون الغلام . ففعلت امراة يربعام هكذا وقامت وذهبت الى شيلوه ودخلت بيت اخيا وكان اخيا لا يقدر ان يبصر لانه قد قامت عيناه بسبب شيخوخته ، وقال الرب لاخيا هوذا امراة يربعام آتية لتسأل منك شيئا من جهة ابنها لانه مريض ، فقل لها كذا وكذا ، فانها عند دخولها تتنكر فلما سمع « اخيا » حس رجليها وهي داخلة في الباب ، قال ادخلي يا امراة يربعام لماذا تتنكرين، وانا مرسل اليك بقول قاس ، اذهبي قولي ليربعام هكذا قال الرب اله اسرائيل من اجل اني قد رفعتك من وسط الشعب ، وجعلتك رئيسا على شعب اسرائيل ، وشققت المملكة من بيت داود واعطيتك اياها ، ولم تكن كعبدي داود الذي حفظ وصاياي والذي سار ورائي بكل قلبه ليفعل ما هو

---

(1) انظر : آيات الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الاول ، والتي تقص هذا الجانب في اسهاب : ١ – ١٦ .

مستقيم فقط (١) في عيني وقد ساء عملك اكثر من جميع الذين كانوا قبلك فسرت وعملت لنفسك الهة اخرى ومسبوكات لتغيظني وقد طرحتني وراء ظهرك . لذلك انا جالب شرا على بيت يربعام واقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزا ومطلقا في اسرائيل وانزع آخر بيت يربعام حتى يفني، من مات ليربعام في المدينة تاكله الكلاب ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء لان الرب تكلم » .

وهكذا تقص آيات سفر الملوك الاول ، ولا ندري كيف امكن لمثل هذه الاخبار التي يمكن ان تستفاد ضد زيف دعوى بني اسرائيل فيما يلوكونه عن حفاظهم لميراث الدين وحفاظهم لتاريخ سلسلة الملوك الحاكمة في الدولة الممتدة المعمرة ، لم تتناولها يد المؤلف التوراتي بالمسخ والتشويه في مثل هذا الموضع ، الا ان تناقضات الصنعة التوراتية وتباعد المؤلفين التوراتيين الذين سجلوا تاريخ بني اسرائيل في هذا السجل الذي بين ايدينا اليوم والمسمى بآيات العهد القديم لم يمكنهم من عمل فكر موضوعي واحد فأمكن من خلال التفاوت في عبارات التدوين والتسجيل ومجموعة من الايات التوراتية كالتي تأتي عليها ان تكشف لنا وتؤكد زيف الدعوى وافتراء الباطل المرتبط دائما وابدا في عقيدة القوم ودينهم . وعلى نهجنا في متابعة التوراة فيما تقصه فانه قبل ان تئول الفئة المنشقة من جماعات اسرائيل بقيادة « يربعام » الى النهاية التي حاقت بهم كنتيجة لعمل التناقضات الاجتماعية وسوء التعامل الاخلاقي وعلاقات الصراع واشاعة الخطيئة واتيان الفاحشة . فان الفئة الثانية التي تسمت باسم « يهوذا » واتخذت لنفسها « اورشليم » مقرا لها كان قد جاء دورها هي الاخرى ذلك انه في العام الخامس من بداية هذا الانقسام الذي طرأ على الحال الذي تركه سليمان ان قد جاء الفرعون المصري « شيشنق » ملك الاسرة الثانية والعشرين المصرية بعد ان سبقه في تمزيق الكيان المدعى القائم على التقاتل والصراع والقهر والغلبة الثائر الذي احتمى بارض مصر واخذ منها العتاد

---

(١) من الجدير بالذكر كتدليل على انعدام جوانب الحق والصدق الطهر في آيات التوراة ان الاصحاح الخامس عشر من نفس سفر الملوك الاول قرر خطيئة داود مع زوجة اوريا الحثي التي نسبتها التوراة اليه واعتبرت معصية ابان فترة النبوة ، بينما هو هنا في الاصحاح الرابع عشر لم يفعل الا ما هو مستقيم فقط تقول آيات الاصحاح الخامس عشر عن داود : ولم يحد عن شيء مما ـ اوصاه به (ربه) كل ايام حياته الا في قضية اوريا الحثي ـ الآية : ٥ .

والعدة وعبأ جيشه وعاد الىارض الصراع الاسرائيلي ليمزق نعرةالجماعات المسيطرة على جمهور الشعب المجهد ولكي يتيسر القضاء بعد ذلك على هذه الجماعات وعلى الكيان المدعى الذي يجتر القوم دعوى سيادته وسلطانه .

وبالفعل فانه ما ان ابتدات عمليات الغزو المصري لارض فلسطين كلها شرقا وشمالا وجنوبا حتى فر من امام المصريين كل ما تبقى من الجماعات المبعثرة والمضيعة من الانقسام والتفتت وقامت جيوش الفرعون المصري بالاستيلاء على الارض الفلسطينية كلها، وقضت على الشخصيةالاسرائيلية وبعثرت الكيان الاجتماعي الهزيل المحتضر اصلا ، وحطمت الشعائر ورموز العبادة الوثنية التي كان القوم الاسرائيليون في ــ السامرة ــ « نابلس » واليهود في ــ اورشليم ــ « القدس » قد جعلوها الدين الرسمي لهم . وتقول آيات العهد القديم فيتقرير هذه المرحلة التي تجرد فيها الاسرائيليون حتى عن شعائر دين ممثلين في سيدهم يربعام الذي خاطبه الرب الاله الذي يسجل لهم على لسان النبي « اخيا » ــ « وعملت لنفسك آلهة اخرى ومسبوكات لتغيظني وقد طرحتني وراء ظهرك » .

ثم استولى المصريون على كل ما تركه القوم جميعا من اسرائيل واليهود بعد ان انفضوا عنه في سلبية وضياع ، وفي هذا لم تستطع آيات سفر الملوك الاول من الاصحاح الرابع عشر ان تغفل او تمسخ الحقيقة المرتبطة بهذه المرحلة من الضياع التي ادرك المصنف التوراتي حين جاء ليدونها انها قد سجلت مع الزمن على آيات من حقيقة التاريخ المصري الذي لا تكذب اياته ، فاضطر هو الاخر الى ان يتحدث عن عمليات الغزو المصري التي تعرضت لها جماعات « اليهود » في « اورشليم » فقال :

« .... وفي السنة الخامسة للملك « رحبعام » صعد « شيشنق » ملك مصر الى اورشليم ، واخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، واخذ كل شيء واخذ جميع اتراس الذهب التي عملها سليمان » . (١)



---

(١) سفر الملوك الاول ــ الاصحاح الرابع عشر : ٢٥ ــ ٢٦ .

وعلى الطريق الطويل في تاريخ بني اسرائيل فانه الانقسام السياسي والديني عقب الكيان المدعى الذي تتحدث عنه التوراة في عصر سليمان فان القسم الاول من الجماعات الاسرائيلية الذي سمي « اسرائيل » في ـ السامرة ـ « نابلس » قد انتهى بالتناقضات التي حدثت عنها التوراة واشرنا اليها ، والقسم الثاني « اليهود » في اورشليم ، لم يطل به عمل التناقضات فانتهى حين امتد سلطان مصر القديمة الى اورشليم وظلت بها تسيطر عليها وتمثل السيادة المصرية على طول هذا الامتداد الذي يبدأ بسيناء من شمال شرق مصر حتى تغيرت الاوضاع العالمية حينئذ بعمليات الغزو الكبرى والتمدد الرهيب الذي بدأته امبراطورية « الاشوريين » في المدة ٢٧١ او ٧١٥ ق.م. حين مدت بصرها الى منطقة فلسطين والبادية لتقضي على البقية الباقية من زيف ودعوى واوهام بني اسرائيل خشية ان تجتر هذه الجماعات الاسرائيلية التي كانت تحاول ان تلوك دعواها العنصرية على المدى الطويل ثم تفكر ان تقوم بعمل ضد الاشوريين.

ورغم ان الفترة من ٩٠٠ ق ـ م التي انتهى فيها كل ما تركه سليمان او كل ما نسب اليه حتى عام ٧٢١ ق.م. التيتمت فيها السيطرة الاشورية على المنطقة كلها من السامرة الى اورشليم كانت ضياعا وتمزقا وصراعا وتفتتا سياسيا واجتماعيا واخلاقيا ولا يمكن للباحث المنصف ان يعتبرها في عداد تواريخ الامم وتواريخ حضارتها أو تواريخ حياة المجتمعاتالمتحضرة ذات الاداب والعرف والتقاليد القائمة على قيم مرتبطة بالارض وبالشعب، الا انه فوق كل هذه الحقائق فانه منذ عام ٧٢١ او ٧١٥ ق ـ م حين بدأ الغزو الاشوري على اقل تقدير فان التاريخ الاسرائيلي يجب ان ينظر اليه ـ في مجال النقد العلمي ـ بمنظار يختلف عن الصورة التقليدية التي يزيفها الفكر الاسرائيلي عن تاريخه القديم ، بدعوى ان التاريخ الاسرائيلي ظل ممتدا بالارض العربية ـ فلسطين ـ ومرتبطا بها حتى منذ الانقسام والتفتت السياسي والضياع المقترن بمراحل ما بعد « النبي سليمان » عليه السلام، فان هذا الادعاء يخالف الحقيقة والواقع بل وحتى مستندات القوم في تزييف الدعوى لا تساعد على هذا الخطأ وهذا الادعاء .

ومن يطلع في تسليم فرضي تتابع جدول اولئك الذين تناولوا امر الجماعات الاسرائيلية اليهودية واسمتهم التوراة « الملوك » يقف على مدى خلخلة الحال الاجتماعي وظهور جماعات « المزايدين » بالسياسة واللاعبين بالجماعات الاسرائيلية المستغلين لاوهامها واطماعها ، والذين كانوا مثالا للخطيئة والانحراف ذلك ان الذي كان يستطيع منهم ان يريق دما أكثر من

سابقه هو الذي يتمكن من القوم وتطول مدته عليهم سيدا ومسيطـــرا ، وظلت هذه السلسلة من الملوك الذين ورد ذكرهم في التوراة بالتناوب على الارض التي بدات بالمنطقة الشمالية في « نابلس » بجماعات « اسرائيـــل » وسيدهـــم « يربعام » وبالمنطقة الجنوبية في اورشليم بسبطي « يهـــوذا وبنيامين » : اي « جماعات يهوذا » سيدهم رحبعـــام ، بأن الذي تولـــى السيطرة على جماعات اسرائيل في الشمال رحبعام حكم حوالي ــ ١٧ ــ عاما تولى بعده « ابعيام » بن رحبعام ــ ٣ ــ سنوات ، ثم « اسا » بـــن رحبعام ــ ٤١ ــ سنة ثم يهو شافاط بن اسا ــ ٢٥ ــ سنة ، ثم اخزيا بن يهورام بن يهو شافاط ــ ٨ ــ سنوات ، ثم يهو اخزيا بن يهورام ــ سنة ــ واحدة ثم « عتليا ام اخزيا » التي ماتت قبله بعد ــ ٦ ــ سنوات ، ثـــم « يواش » بن اخزيا الذي مات قتيلا بعد ــ ٤٠ ــ سنة ثم « امصيا » بن يواش ، الذي مات قتيلا بعد ــ ٢٩ ــ سنة ليأتي في السلسلة التي تتحدث عنها ايات العهد القديم « عزيا » بن امصيا الذي استمر متسلطا على القوم حوالي ــ ٥٢ ــ عاما في خلالهم كما يقول الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثاني في السنة التاسعة والثلاثين لعزريا ملك منحيم بن جاد علـــى اسرائيل في السامرة عشر سنين وعمل الشر في عيني الرب لم يحد عـــن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل اسرائيل يخطىء كل ايامه فجاء « فول » ملك اشور على الارض فاعطى منحيم لفول الف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة في يده ووضع منحيم الفضة على اسرائيل على جميـــع جبابرة البأس ليدفع لملك اشور خمسين شاقل فضة على كل رجل » .

وعلى حد رواية التوراة هذه فان سليمان عليه السلام صاحب المملكة التي تدعيها التوراة ، المملكة الواسعة التي تتصورها جماعات اسرائيـــل مات حوالي عام ٩٣٥ ليبدا الصراع بين القسمين المنشقين اسرائيل ويهوذا ولا يطول بهما الانشقاق والانقسام الا وتبدا مرحلة السيطرة الاجنبية التي تقصها التوراة عن بدء سيطرة الاشوريين علـــى الارض العربية في فلسطين واذا ما اردنا ان نساير قصص ايات العهد القديم لنعرف متى بدات المراحل الاولى للسيطرة الاجنبية على الجماعات الاسرائيلية المنشقة فان ايات العهد القديم هي التي أوردت في الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثـــاني ذكر الاشوريين وبسطهم سلطانهم على اسرائيل في عهد « عزيا » .

واذا ما اعتمدنا التواريخ التي اوردتها ايات الملوك الثاني فان سليمان يكون قد توفي تقريبا حوالي عام ٩٣٥ وتولى رحبعام ١٥ سنة ثم ابعيـــام ــ ٣ ــ و « اســـا » بن رحبعام ــ ٤١ ــ ويهو شاباط بن اســـا ــ ٢٥ ــ

ويهورام بن يهو شافاط ــ ٨ ــ واخزيا بن يهورام ــ سنة ــ واحدة وعتليا ام اخزيا ــ ٦ ــ ويواش بن اخزيا ــ ٤ ــ وامصيا بن يواش ــ ٢٩ ــ وعزيا ابن « امصيا » ــ ٥٢ ــ فتكون جملة السنين التي يسلم بها الباحث في التوراة ــ افتراضا ــ على انها امتداد لمرحلة سليمان رغم انها كانت صراعا وضياعا ووشاية بين ابناء كل قسم ، الجماعة المنشقة على حدة ثم بين القسمين المنشقين على بعضهما ــ ٢٢٢ ــ سنة ، اي انه اذا ما سلمنا بوفاة النبي سليمان عليه السلام بالتاريخ الذي يستفاد من التوراة والذي اطمأن اليه كثير من الباحثين وهو عام ٩٣٥ ق.م. تكون بداية السيطرة الاجنبية الاشورية على جماعات اسرائيل حوالي عام ٧١٢ او ٧١٣ ق.م. على طول امتداد الارض من العراق حتى فلسطين كلها شمالها وشرقها وجنوبها حتى ضاعت هذه الامبراطورية الاشورية حوالي عام ٥٨٦ ق.م حين سقطت تماما على يد نبوخذ نصر « بختنصر » الملك الكلداني البابلي الشجاع الذي قاد عمليات القضاء على امبراطورية « اشور » في الفترة التي كانت فيها اشور منذ سيطرتها ٧١٢ ق ــ م حتى عام ٥٨٦ ق ــ م قد اقامت مجموعات من الرجال الاسرائيليين على الجماعات الاسرائيلية التي كانت قد ذابت شخصيتها عقب السيطرة الاشورية وكان اخر هذه المجموعة من الرجال المدعو « صدقيا يواقيم » الذي لم يكن قد مضى على القيام بما كلف به في ظل السيادة الاشورية سوى ثلاثة اشهر فقط ، الا ووقع هو والدولة صاحبة السيادة عليه وعلى جماعته والتي كانت قد نصبته في ايدي البابليين وقد قتله « نبوخذ نصر » ونهب مدينة اورشليم «القدس» ودمرها وسبى اهلها جميعا واخذهم الى « بابل » واقام على اورشليم واليا من قبل « البابليين » .

وكان هذا هو الحال الذي آلت اليه دولة الجنوب «القدس» اورشليم وكذلك آل حال دولة الشمال «السامرة» «نابلس» التي تولى امرها حسب روايات « اسفار الملوك » « واخبار الايام » تسعة عشر ملكا ، وكان طبيعة الجو العام المحيط بهم خليقا بأن يساعد على مظاهر الاقتتال والصراع التي تبدو واضحة في روايات الاسفار الخاصة بالملوك الى الحد الذي تقول فيه التوراة انه قد تقلب عرش هذه المملكة ثماني اسر متصارعة متناقضة افنيت منها ثلاث اسر افناء تاما ولم يطل بها الوقت مثلما كانت « يهوذا » في أورشليم التي ظل بها بعض افراد يتحركون في صورة للحكم هزيلةوضعيفة في ظل السيطرة الاشورية التي لم تشأ ان تقضي قضاء تاما ونهائيا وتمحو من السلوك العام كل ما يتعلق بالقوم « اليهود » فان « اسرائيل » في

« السامرة » لم تفسح لها السيطرة الاشورية فرصة من وقت او من عمل او تتيح لها امكانية الاندماج في ظل الدولة الجديدة المنتصرة وانما منذ تمكن « سرجون الثاني » ملك اشور من السيطرة الكاملة لم يترك للقوم - جماعات اسرائيل - بقية من ادعاء او عقيدة او سلوك يمكن الارتباط به او التعلق بميراثه ، وعلى حد هذا التقرير الذي نحاول استخراجه من بين ايات اسفار الملوك واخبار الايام فانه يكون لنا ان نقرر انه على فرض الدعوى المرفوضة - أصلا - بكل مناهج البحث العلمي أن جماعات اسرائيل واليهود ، قد استطاع ملوكهم وانبياؤهم ان يقيموا لهم دولة في فلسطين فان آيات اخبار القوم نفسها - فيما سجلت عليهم التوراة من بين تناقضاتها هي التي تؤكد لكل ذي نظر وبصيرة ان الدولة المدعاة والتي اصبحت بالانقسام دولتين حتى قبل ان تتكون قد انتهت تماما ، الاولى « اسرائيل » في السامرة « نابلس » ابتداء من عام ٧١٣ ق - م وقضى على الثانية « اليهود » اورشليم عام ٥٨٦ ق.م. حين سقطت على يد نبوخذ نصر الذي قتل « صدقيا بن يواقيم » اخر ملك في القائمة المدعاة .



ومنذ هذا التاريخ ٥٨٦ ق.م ودعوى العلاقة التاريخية المرتبطة بالمجتمع الاسرائيلي في شكل الدولة والدين قد فقدت كل دعاوى التصور لها تماما منذ الفترة التي كانت فيها البقية الباقية من عناصر الجماعات الاسرائيلية اليهودية التي كانت قد تحررت - بالاحتلال البابلي - تماما من اسر عقيدة العنصرية المدعاة موجودة في ارض الاسر في ظل مجتمع التهذيب العربي لا تعرف عن الارض الا كل معاني الرفض في مواجهة من يذكرها بدعواها التي بليت واصبحت تمثل بالنسبة لهم مذلة الضياع والتشرد ولم يصبح في ضمير الجماعات اليهودية التي تتوالى جيلا بعد جيل في ارض السبي ادنى احساس بالولاء او الارتباط بشيء كان يدعيه الاول من الاباء ويتعصبون له ولم تعد تربطهم به ادنى علاقة من دين او تاريخ حين كانت تاتي اجيال السبي في شكل خليط متناقض يرفض ان يحمل آلام الاجيال، بل كانت تاتي اجيال السبي ثائرة على كل ما يربطها بالاجيال السابقة ومؤملة الخلاص رافضة ما يمكن ان يشدها الى مواقع السخط من الغير او يتطلب منهم معاني البذل والأداء والتضحية وحتى عندما دار الزمن دورة صغيرة من عام ٥٨٦ بداية السيطرة البابلية الى عام ٥٣٨ ق.م حين ظهر على نفس المسرح الذي تلعب عليه وتسيطر السيادة البابلية دولة الفرس بقيادة قائد

الفرس « قورش » فان الحال الاسرائيلي اليهودي في مرحلة الاسر ظـــل محاطا بالظروف التي فرضت عليه بان يستكين ويتخلص من دعوى الزيف والعنصرية التي كان يجترها القوم عن الارض والدين ورغم اختلاف القوى المسيطرة فان مرحلة الضياع التي بدأت بالاسر البابلي ظلت كما هي قائمة تختلف من ضغط ومطاردة الى انواع من التشريد والمضايقة وحتى عندما ظهرت مجموعة من الذين نمى في اعماقهم على مدى الضياع الطويل استغلال المواقف والاساليب الطفيلية وارادوا ان يكسبوا ثمنها حين اتيح لهـم ان يستعملـوا الاساليب الخادعة عندما دخلوا في اوار المعركة القائمة بـــين البابليين والفرس ساعدوا الفرس بأدوات اللصوصية والوشاية ونقــل المعلومات وتصيد الاخبار والمواقف وعندما انتهت المعركة قدموا للسيـد الجديد ، واحدة من نسائهم كي تكون سبيلهم اليه ، الاسلوب الذي لـم ينخدع به كثير من رجال موجات الغزو والتي سيطرت على الجماعـــات اليهوديـة واحدة اثر الاخرى . وملك الفرس « قورش » عندما سمـح للجماعات المنفية والمشردة تحت سيطرة الدولة التي تغلب هو عليها بـأن يمارسوا بعض تعلقاتهم ادرك خطر فتح هذا الباب من جديد لمجموعـــات المستغلين والمتسلطين من جماعات اليهود والاسرائيليين فحرم عليهم جميعا العودة الى فلسطين ، والجزء الذي كان قد استغل العفو الذي منحه اياهم « قورش » وذهب لكي يعيش اوهام الماضي وابتدأ في اعادة بناء هيكــل سليمــان الذي كان قد تهدم ولم يبق له من اثر لم يواصل له فرصـــة مواصلة العمل التي اتيحت له خاصـة وان مجموعات الذيـن استجابـوا لبداية سماح قورش وعفوه نتيجة العلاقة التي خلقتها مجموعة المستغلين من جماعات يهود بينهم وبين قورش كانت قلة قليلة منهم عملت في البناء الذي تصوروا أمجاده وماضيه في ذلة ومهانة ويأس دون تحمـس ودون ايمان ، ولقد فضل بعضهم ان يعود ثانية ليعيش حياة السبي المضروبـة على القوم في بابل بعيدا عن ارض فلسطين وحوادثها ، ولم يعد في امكـان المؤلف التوراتي لاخبار الايام والملوك ان يتحدث ثانية بنفس المنطق الادعائي الصاخـب عن دعوى القوم وارتباطهم بالارض العربية وسيادتهم عليهـــا وتعلقهم بها دينيا فانه من بين لغط تناقضات ايات العهد القديم تتضـــح معان كثيرة جدا كدليل على الضياع والتشرد ، ذلك انه منذ الاسر البابلي والقوم يحملون تاريخ هذا السبي مسبة ومهانة ومذلة على اساس ممـــا يوجه اليهم فيما بينهم وما استشعروه في انفسهم من انهم لم يحافظوا على ما منحوا (عقيدتهم) من حق الوعد بالارض ودعوى الدين ، وبالاسر البابلي واستسلامهم تماما له بل واستجابة بعضهم للاسر وتكيفهم به لم تصبـح

الارض ولا دعواها ولا معتقد الدين وميراثه مما تتعلق به عواطفهم قضية قائمة . ومع ذلك فانه منذ الاسر البابلي عقب ضياع الدعوى المرفوضة اصلا والتي كانت متعلقة بالارض والدين ، نستطيع في يسر ان نقول لجماعات اليهود الذين يقولون فيما يهمسون به بينهم حين يجترون الذكريات انه فوق ضياع الارض وضياع الدين فانكم يا جماعات اليهود قد انتهيتم دينيا واجتماعيا وسياسيا وانقطعت صلاتهم المدعاة منذ الغزو البابلي ارضا ودينا في فلسطين ، ومنذ بابل وذكريات الجماعات اليهودية الاسرائيلية منذ كانت تلوك دعوى الارض ودعوى الدين وتجتر في غير ما نعلق او تبصر ذكريات ماض لم يكن واوهام دين تشوه وتلوث عبر التاريخ، وليس هناك من مبرر لجماعات اليهود ان تواصل زيف دعواها في الدين والارض ، ومن بابل اصبحت الجماعات اليهودية الاسرائيلية ظاهرة طفيلية مريضة في حركة التاريخ .

اليهود في ظل السيطرة الاجنبية القديمة :

مهما يكن من ضجيج اللغط اليهودي وصخبه في محاولة خلق دعوى للجماعات اليهودية يزيفون بها الحق والتاريخ حول علاقتهم دينا وتاريخا بالارض العربية في فلسطين . فان الذي لا جدال فيه عند جمهور الثقات من المؤرخين انه منذ ضربة البابليين بقيادة « نبوخذ نصر » لليهود ولمن تبقى من جماعات اسرائيل واليهود عام ٥٨٦ ق.م. وكل مراحل التاريخ التي مرت بالقوم ، انهم فئات من البشر قليلة وجماعات محدودة تذوب شخصياتهم الدينية المدعاة جيلا بعد جيل وكانوا مع ذلك حريصين على ان لا يعملوا للاندماج بالقوة التي تسيطر عليهم حتى حين تضيق بهم السبل في اكثر الاحوال ، فلما زحف الفرس من شرق الامبراطورية البابلية على الامبراطورية البابلية وقضوا عليها وحكموا منطقة فلسطين باعتبارها مفترق الطرق التي تؤمن امبراطوريتهم لم يكن حال اليهود بغير الحال التقليدي البسيط الذي سمح لهم به في الامر البابلي ، رغم محاولاتهم ان يستغلوا مراحل الغزو الفارسي حين كان في ابان الصراع ولم يسمح لهم الفرس اكثر من ان يحيوا الحياة على الهامش دون ان يتشبثوا بقديم او معتقد يتعلقون به او حتى يعدوا انفسهم لجديد يطمعون فيه وظلت جماعات يهود في ظل السيطرة الفارسية اقرب ما تكون الى انعدام الوجود السياسي والاجتماعي وظلوا الى ما يقرب من قرنين من الزمان او اكثروهم على حال من الذل في ظل سيطرة السيد الجديد المتمثل في امبراطورية الفرس التي

مدت سلطانها على منطقة القوافل على ارض فلسطين ، حتى كان ذلك الغازي العظيم الاسكندر المقدوني الكبير على راس جيش ضخم من الاغريق قاده وفي تخطيط اطماعه ان يفتح به كل البلاد المعروفة اليوم بالشرق الاوسط ويمتد بالتوسع حتى بلاد فارس كلها ، وبالقطع فانه كان من بين اماني الاطماع اقليم فلسطين بين جملة الاهداف . وبالفعل فان الحرب التي شنها على الفرس توجت بنصره وسيطرته على مناطق شاسعة بعد معارك شهيرة استولى خلالها على فلسطين حوالي عام ٣٣٠ ق.م.

ولما كان الاغريق بحكم ظروف تاريخية وجغرافية قد تطورت امكانياتهم المادية والعقلية فان الارض الجديدة التي سيطروا عليها قد شاهدت مهندسين معماريين ومثالين وعلماء رياضيين وشعراء فلاسفة ، وبالقطع فان من بين الفئات القليلة التي كانت قابعة في ارض « بابل » جماعات يهود الاسرائيلية الذين لم يكن بينهم ولم يشتهر عنهم ان وجد بينهم من يعرف فنون المعمار وهندسته او العلوم الرياضية وقواعدها او النظرة الفلسفية ومجالاتها بل قد تراكم الجدب العقلي الذي لازم القوم منذ قديم الزمان منذ عصر سليمان نفسه حين لم يكن بينهم من يساهم بالعلم والجهد في بناء قصر الرب ـ قصر سليمان ـ الى الحد الذي لم يكن يمكن فيه العثور على فنان واحد من بني اسرائيل في عصر سليمان مثلا ليساهم في نقش القصر القديم الذي بناه سليمان ، وما ورد في سفر اخبار الايام الثاني عن براعة الفنان الذي استعان به سليمان من « صور » من ارض الفينيقيين يدل على ان القوم من بني اسرائيل حين تم تشييد ـ حسب الدعوى المتصورة في عقيدتهم ـ قصر الرب كانوا « عيالا » في البناء على اعمال الفنانين الفينيقيين .

وهذا الجدب العقلي والخلو التام من كل مميزات الاستيطان المتحضر المستقر والمجتمع المرتبط بتقاليد وعادات تنبع من سلوك فاضل متميز بظروف الارض التي يحيا عليها والمستقل بمقدراتها وخيرها كانت تجعل من جماعات اسرائيل في نظر الغازي الذي يمر بتاريخ هذه المنطقة فئة غير ذات اهمية لا تستطيع ان تؤثر في اتجاهات تجري على هذه الارض ، فضلا عن ان يتأثر بها الغازي الذي يحل بالارض فحين كانت السيطرة الاغريقية بقيادة الاسكندر قائمة لم يكن لليهود ادنى وجود سياسي او اجتماعي ، بل ليس هناك ادنى التفاتة تاريخية تمكن ان يقف عندها الباحث لينظر الموجود اليهودي في ابسط مظهر من حياة في عصر الاسكندر وخلفائه . اللهم الا

محاولات ان يعمل بعضهم بالرشوة والسمسرة ، المهن التي يجيدونها دائما وابدا .

وفي المسار التاريخي الطويل تدور بنا عجلة الزمن دورة لتقف بنا من بداية السيطرة الاغريقية التي غمرت المنطقة الواسعة الممتدة من اعالي العراق حتى سواحل البحر الابيض الشمالية والشرقية لمرحلة جديدة .

وكانت البداية للمرحلة الجديدة التي استوقفت التاريخ فترة طويلة هي تلك القفزة التي قامت من هناك من بعيد من عند الارض الواقعة على شواطىء البحر الابيض والمؤسسة على ما يعرف اليوم بدولة « ايطاليا » حين هبت الامبراطورية الرومانية عملا في ذلك العهد القديم تحمل بأدوات العلم والمعرفة التي كانت لديها في اندفاعة عجيبة تصدر بها محاولة الاستيلاء على العلم الانساني كله حينئذ ، مطمعها في غزو العالم والسيطرة عليه .

وظلت هذه الانطلاقة الغازية المتوسعة تنطلق وتتمدد لتصنع الامبراطورية الرومانية الرهيبة فلم يكد ياتي عام ٦٣ قبل ميلاد السيد المسيح الا وقد شهد العالم القائد العملاق جنرال « بومبي » الروماني الشهير وقد اكتسح من امامه كل مظاهر حياة غير رومانية والبس كل ارض غزاها اداب وتقاليد الامبراطورية المتوثبة ، وكانت المرحلة التاريخية هذه التي بدات بسيطرة الرومان على جزء كبير من العالم المتحضر ، بداية كبيرة وفي ظل ضغوط كبيرة ايضا ، لان يتحلل اليهود من كل تعلق لهم بدين او سلوك خاص يدعونه ويرتبون حياتهم على ضوئه ، الا انه قبل عصر السيد المسيح بقليل امكن لبعض من يهود ان يستغلوا انحراف بعض قادة الرومان ويعملوا في خدمتهم ، خدما ووشاة . ومنذ الفترة التي بدات بسيطرة الاغريق بقيادة الاسكندر ٣٣٠ ق.م. حتى عام ٦٣ ق.م بداية الاكتساح الروماني كانت قد ظهرت خلال انشغال الغزاة وعمليات الصراع والمطاردة صور انحلال في القوى الغازية ، خاصة بين القادة والساسة ، وكان من اثار الانحلال الاخلاقي رغم قبضة الغزاة وسيطرتهم على شعوب المناطق المحتلة بعض فراغ نفسي وعاطفي عند جماعات من اليهود الذين يتعلقون بتصور ارتباطهم ببني اسرائيل . ومن الذين هيىء لهم انهم رغم الاختلاط والتزاوج بالغير والحل والترحال مع كل غاز ، ورغم عمل الحروب وما تشيعه من نتائج التحلل والكساد انهم من اجيال جماعات اسرائيل الذين

هم من ابناء يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم فذهبوا يفسرون على حسب المصلحة والهوى ما يتردد بينهم وما يجترونه عبر التاريخ ، مما صنعه وسجله المؤلف التوراتي ولم يستكمل بعضه البعض الاخر ولهم في هذه المرحلة التي كان يسيطر فيها الرومان ايات تفاسير وتأويل للتوراة ، وفي هذه الايات ومنها كانت قد ظهرت فكرة المبشر والمصلح والمخلص من بعد مراحل الضياع والتشرد التي كانت قد اضاعت واماتت فكرة المخلص عند بني اسرائيل واقترن مع الارتباط والايمان بهذه الانفعالات الدينية ما اشيع على يد الذين روجوا لهذه الدعوى من اقتراب هذا المخلص . وكنتيجة لهذا الاستسلام الخانع فان حال البقية المتبقية من جماعات اسرائيل منذ ضياع المملكة المدعاة لسليمان الى عصر انقسامها الى قسمين، ثم الى ضياعها في يد الاشوريين ثم البابليين ثم الفرس لم تكن الا لتثير عاطفة الشفقة لهذه الجماعات المضيعة في ان تتاح لهم فرص الحياة وعلى اي صورة كانت ، وبالفعل فان الدولة الجديدة لم تضن عليهم بهذا المطمح بعد جهود الوشاة منهم بان تتيح لهم فرصة حياة جديدة ، واستغلت الجماعات الاسرائيلية واليهودية ان هيأ لهم الرومان قبيل عصر السيد المسيح بعض امور الحياة العامة وابتداوا ينسجون حول أوهام الدعوى التقليدية ، وعليها فقد سمحوا لهم بان يعيشوا في ظل السيادة الرومانيه وبمكثوا في فلسطين تحت السيطرة الرومانية دون ان يتمكنوا من تكوين شخصية اجتماعية أو سياسية .

العلاقات اليهودية الرومانية في عصر الميلاد :

قبيل الميلاد مباشرة وعقب استقرار الامبراطورية الجديدة وتوسعاتها التي كانت قد بدأتها منذ العصر الملكي الذي كان في روما حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ثم العصر الجمهوري الذي يحدد كثير من المؤرخين بدايته من نهاية القرن السادس قبل الميلاد حتى بداية ظهور عصر الامبراطورية الذي استقر وقام بعمليات التوسع الكبرى في منطقة الشرق حوالى عام ٣٠ ق.م حتى سقطت الدولة الرومانية الغربية عام ٤٧٦ م.

والجديد الذي طرأ على جماعات اليهود هو ظهور بعض مذاهب دينية وسياسية لم تكن تنتظم في نفسها فكرا أو عقيدة وكل ما فيها انها كانت سلوكا جديدا عملت فيه النبوءة والكهانة التي ابتدات تظهر من جديد عقب خمول وموت كاملين لدعوى العنصرية والامتياز التي كان يلوكها اليهود والجماعات الاسرائيلية في المراحل الاولى .

واذا كان لنا ان نرى العلاقات اليهودية الرومانية قبيل عصر الميلاد اي منذ الغزو الروماني الذي سمح لليهود بأن يأتوا الى اورشليم من جديد فانه لمن الضروري أن تمتد نظرة على الروح التي كانت سمة للعالم اليهودي في فلسطين في العصر الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام حين كانت الدولة الرومانية سيدة ومسيطرة .

ذلك ان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه السيد المسيح قد استطاعت فيه الجماعات اليهودية ان تتحرك وان تبدو وكانها على شيء من التميز والحركة ، فقد كانت هناك طوائف دينية وسياسية كما قلنا مختلفة ولكل منها في امور الدين كهانة واسلوب حياة ، يعيش به على اوهام التاريخ المدعى ، ويكون به مذهبا في انتظار مسيح مخلص موعود . وهذه الطوائف التي كانت تسيطر على الجماعات اليهودية قسرا وقهرا في ظل سيادة الرومان كانت عبارة عن فئات من انعدام التجانس الاجتماعي والثقافي اشهرها خمس طوائف هي التي كانت في مكان الصدارة في توجيه اسلوب العمل اليهودي في ظل السيطرة الرومانية في عصر الميلاد . وهذه الطوائف هي عبارة عن جماعات الصدوقيين ، والفريسيين ، والاسيين والغلاة ، والسامريين . ودراسة هذه الطوائف هي التي تضع امامنا جهود الاحياء اليهودي للافكار اليهودية بعد كل مراحل الضياع التي مرت بهم . اقول دراسة هذه الطوائف مهمة جدا لانها تبين لنا على اي المناهج يرى القوم تطور افكارهم ومعتقداتهم اذا اتيح لهم أن يعملوا من اجل امانيهم واطماعهم في تصور انهم يعبرون عن دينهم وعقيدتهم .

فالصدوقيون هم في الاصل حسب دعواهم اتباع « صدوق » واسرته الذين ادعى تاريخهم بانهم كانوا منذ عصر داود وسليمان يتولون امر الكهانة الدينية ، وكانت هذه الوظيفة او الانتماء الى هذه الجماعة مهم لانهم يروجون لدعوى انهم يحافظون على دينهم ويستقرون على عقيدتهم ، ويقول عنهم التاريخ اليهودي انهم كانوا متشددين في مقاومة السلوك غير اليهودي ومتشبثين بالقديم ويؤيدون سلطان الهيكل والكهانة الدينية على يد الكهان. ومع هذا الذي يؤثر عنهم فان خلاصة ادابهم ، انهم حرفيون في مسائل الدين متوسعون في اساليب المتعة والمعيشة ولا يرفضون التوسع في الحياة بمشاركة الاجانب والاندماج فيهم ، ذلك ان اعمال الكهانة ومراكز الكهان كانت متصلة بمراكز القوى والذين يمثلون السيادة والسلطان .

والفريسيون اي « المتميزون » . والدلالة اللغوية العبرية لكلمة

« فريسي » تعني هذه السمة « المتميز » كانوا طوائف اقوى من الصدوقيين بكثرة العدد وشيوع المبادىء والاراء ، وحسن السمعة بين جميع الجماعات اليهودية . غير انهم رغم كثرة العدد وحسن السمعة لم يكن بينهم مـــن وصل الى مرتبة الرؤساء او من كان كثير الاحتكاك بذوي السلطان . ولذا فملامحهم في التاريخ اليهودي هي : الادعاء الديني وصوغ الدعاوى والتعالي في السلوك ، وظلوا محافظين على هذا السلوك الجديد المكتسب في انانيـــة واستعلاء حتى اصبحوا فيما بعد حين جاء السيد المسيح هدفا له يندد بما هم عليه وينكر عليهم شعبيتهم القائمة على الزيف والنفاق .

ومن العجب في التاريخ اليهودي أن هذه الفترة التي كانت اتيحت لهم ان يحيوا الحياة الطبيعية في ظل السيطرة الرومانية كانت بالضرورة — لو كانت النظرة عند القوم سليمة — تقضي عقب اتاحة الفرصة لهم كي يحيوا في ظل السيادة الرومانية ان يكون بينهم سلوكا من التجانس والتعاطـف المذهبي على اقل تقدير ، ولكنه الخلق اليهودي القائم على الصراع والوشاية حتى عند اولئك الذين يلبسون في زيف ثوب الاباء الاول ، فان التناقض بين الطوائف قد عمل عمله ، وشاعت علاقات الوشاية والاستغلال .

« فالفريسيون » المتميزون المتعصبـون لكثرتهم والمتحمسون ضـد غيرهم ، كانوا في سخط على السلوك القديم ، فكرا دينيا كان في الكتـب والمراجع أم هيكلا وشعائر وعبادة وكانوا ينكرون على طائفة الصدوقيـين استبدادهم بالشعائر والمراسم والتعلق بأسرار الكهانة والايمان بها .

« والاساة » الطائفة الثالثة التي كانت واحدة من طوائف الجماعات اليهودية الخمس في عصر الميلاد كانت تعتبر نفسها انها وحدها الجزء المتبقى من الضياع من صميم الامة الاسرائيلية ومعان هذه العقيدة استقلت بشعائرها وعباداتها وارائها وكل اسرار الدين والكهانة التي خلعوها على انفسهـم الا انهم داخل الارتباط بالجماعات اليهودية كانوا يشكلون تناقضا حـادا فيما بينهم ، وطائفة الاساة التي تشكل واحدة من الطوائف الخمس الشهيرة في عصر ميلاد السيد المسيح قد ظلت منطوية على نفسها في سلوكها وعباداتها الى الحد الذي كان فيه جماعات الاساة رغم علاقاتهم بالجماعات اليهوديـة قلة قليلة بجانب المجموعات البشرية اليهوديـة التي تستغلهـا وتسوقهـا طوائف الصدوقيين والفريسيين ، وبلغ الاستغلال القائم على العزلة والانطواء بجماعات الاساة الى الحد الذي لم تكن تمارس فيه شيئا من عقيدة الطوائف الاخرى او تندمج فيهم ، ولولا ان الاساة لم يرفضوا فكرة تقديم القرابين

للهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، وفي منشأ تسمية طوائف الاساة بهذا الاسم « آساة » جمع « اس » اختلف الكثير من الباحثين حول دلالة الاسم ولكن الراجح الذي يميل اليه كثير من الباحثين ، والذي يذهب اليه ايضا الاستاذ « المرحوم » عباس محمود العقاد في كتابه « عبقرية المسيح » : ان الاسم مأخوذ من كلمة « اس » بمعنى الطبيب او النطاسي في اللغة الارامية اقرب اللغات السامية اليها (١) ومن المعقول ان يتسمى اصحاب هذا المذهب المستقلون المتشددون في سلوكهم الديني : « بالاسين » لانهم كانوا يتعاطون طب الروح ، وهذا الذي ذهب اليه بعض الباحثين وعلى راسهم الاستاذ عباس محمود العقاد ، من ان مصادر الدلالة اللغوية والتاريخية لكلمة « اسي » تعني الطبيب او النطاسي تربط القوم الذين تسموا بهذا الاسم « أساة » بأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ولم نجد فيما وقع في أيدينا من مصادر يمكن ان ينهض دليلا في تفصيل موضوعي حول هذا الذي ذهب اليه كثير من الباحثين من ان جماعات « الاساة » كانوا يقومون بابراء المرضى بالصلوات والاوراد بنفس الدرجة التي بها كانوا يدعون العلم بخصائص المواد والعقاقير .



غير انه على طريق التناقض الاجتماعي الذي كان في عصر الميلاد ومظاهر انعدام وحدة التجانس في السلوك العام الاجتماعي او الديني للجمهور اليهودي ومن يمثله في ظل المناخ الذي هيأته السيطرة الرومانية للجماعات اليهودية كادت توشك مرحلة جديدة ان تبرز بتناقضات الطبع الملتوي والخلق النهاز في جماعات اسرائيل او الذين يلتصقون بهم في دعوى زيف او ادعاء عنصري .

والطائفة الرابعة « الغلاة » الذين يرجح كثير من الباحثين اعتبارهم جزءا من « الاساة » وهم متطرفون ومبالغون في السلوك المتقشف والقناعة المفرطة الزائفة الى حد الصنعة الدينية المبتذلة ، وهم يسمون من واقع سلوكهم ونظرتهم الى امور العبادة والحياة « الغلاة » او الجليليون اتباع « يهوذا » الجليلي ورغم عدم تفاقم شأنهم او كثرة عددهم فانهم قد نظموا حركة تمرد وقادوا عصابات من جماعات اسرائيل قبل ميلاد السيد المسيح

---

(١) انظر دكور حسن ظاظا في كتابه الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه .

ببضعة قرون كرد رافض وساخط لامر الاحصاء الذي أصدره «كرينياس» حاكم « سورية » كي يصبح اليهود بموجبه عبيدا للقيصر الروماني يدينون له بالسيادة الا ان هذه الثورة التي قادها « الغلاة » قد انتهت قبل ان يمتد تأثيرها حتى الى المناخ الذي ثبتت فيه ، وذلك عندما تمكن « الوالي » الروماني « كرينياس » من قتل يهوذا الجليلي قائد المجموعة المتمردة وقتل معه ابناؤه والقوى المحيطة به . ولم يكن لهذه الطائفة ادنى اثر من توجيه ديني او تأثير اخلاقي رغم المبالغة والتطرف .



والطائفة الخامسة من الطوائف التي كانت تمثل تناقضات المجتمع اليهودي قبل ميلاد السيد المسيح ، والتي كانت في نفس الوقت نماذج من اطراف التعامل اليهودي الروماني قبل السيد المسيح مباشرة «السامرية» والطائفة السامرية في مكوناتها البشرية تمثل خليطا من اليهود والاشوريين الذين كانوا يقيمون بالاختلاط والمعاشرة بين جماعات اسرائيل القدامى حين تم لاشور السيطرة على الجماعات الاسرائيلية اليهودية عام ٧١٣ م . فقد كان من الاشوريين مجموعات تسكن وتخالط بالمعاشرة وغيرها جماعات اليهود الاسرائيليين وتأثر جزء من الاشوريين باليهود ولم يعد من المتيسر التمييز بين اليهودي القديم المدعي لعنصرية الدين وعصبية الجنس وبين الاشوري حين مارس شعائر اليهودي وسلوكه ، وكانت طائفة السامرية تمثل نموذجا من انفتاح الجماعات اليهودية بتقاليدها وعاداتها على غيرها من الجماعات البشرية الاخرى المخالفة لها الى الحد الذي ذهب فيه بعض من غلاة اليهود ومتعصبيهم الى الثورة على طائفة السامرية حين اصبحت خليطا من اليهود وغيرهم من سلوك واحد وعقيدة واحدة مظاهرها التحلل من كل ارتباط بالدين اليهودي ، وكانت بداية تكون هذه الجماعات المسماة « بالسامرية » منذ زمن قديم سابق على المرحلة التي كانت قبيل عصر السيد المسيح ، كانت هذه البداية في تكوين هذه الجماعة منذ عودة بعض الجماعات اليهودية عقب سقوط دولة بابل وسقوط السبي البابلي عنهم ، ونشاط علاقاتهم بعد ذلك مع مجموعات اشورية ، وكان من اثر ذلك أن اتكرت الطوائف اليهودية من السامريين هذا الانخراط في الجنسيات المخالفة لهم الا ان « طائفة السامرية » لم تبال براي الغلاة والمتعصبين ، وبنوا لهم هيكلا خاصا بهم ومارسوا فيه شعائر هيكل بيت المقدس ، ولقد مرت فترة طويلة حوالى مائتين من السنين على الهيكل الذي بناه السامريون وهو يمثل

خطرا دينيا وسلوكيا على هيكل بيت المقدس الخاص بجماعات الفرق المتعصبة وظل هذا لهيكل في « جرزيم » « السامرة » ، حتى هدمه احد كهان بيت المقدس وجرد حملة قوية للتخلص من آثاره الا أن (السامريين) أعادوا بناءه وظل مقاما حتى الثورة الشهيرة التي قام بها « السامريون » من جماعات اسرائيل في القرن الخامس للميلاد فهدم القائد الروماني « فسباسيان » المدينة ، واقام على انقاضها مدينة جديدة ، ومن عجب انه لا تزال بقايا السامريين تحتفظ ببعض عاداتها في عدم الاعتراف بغير هيكلها الذي تهدم في « جرزيم » « مكان نابلس » ومهما كانت الاختلافات المذهبية والدينية والسياسية بين جماعات اليهود في هذه المرحلة التي نحاول ان نلمح فيها مفتاح العلاقات بين اليهود وبين السلطة الرومانية في عصر الميلاد فانه تبقى حقيقة ان مختلف المذاهب اليهودية حتى المتجرد منها او المرتد عن كل ما هو يهودي يمثل جزءا من طبيعة الوجود اليهودي ذاته في عصر الميلاد الذي وصل بنا المسار التاريخي اليه ونحاول من خلاله ان ندرس وأن نتعرف على طبيعة الوجود اليهودي من خلال التعرف على الاوضاع المذهبية والعقائدية عند اليهود في عصر الميلاد .

اضواء على الاوضاع اليهودية في عصر الميلاد :

تكشف الدراسة الموضوعية والبحوث العلمية التي تسعى وراء سر الموقف الديني والاجتماعي الذي اتخذته الجماعات اليهودية من السيد المسيح ومن تلاميذه من بعده عن انه فوق طبيعة علاقات التناقض الاجتماعي والتفاوت الطبقي التي كان عليها المجتمع الاسرائيلي في عصر الميلاد في ظل رضوخ كامل لقوى القهر الاجتماعي والسياسي التي كانت تحكمه فان التركيبة العقائدية او افكار النقد الديني مذهبيا وسلوكيا هناك عند القمة في فرق الدين ومذاهب الساسة او حتى على مستوى تأثر الجمهور اليهودي بما تمثله هذه الفرق والمذاهب كانت تمثل في جوهرها رفضا متوارثا لكل قضايا الاصلاح ، وتناقضا مع جوهر الايمان الذي تمثله الدعوى الجديدة — على يد السيد المسيح عليه السلام — ولقد كان للمزيج الوثني في تكوين اسس المعتقد الديني للفرق والطوائف اليهودية في عصر الميلاد اثره على اتجاهات الفرق والمذاهب الكثيرة التي انبثقت بعد ذلك من التطور الذي طرا على الفكر الديني عند جماعات اسرائيل .

وما اشرنا اليه في الصفحات الماضية عن طبيعة ومكونات الفرق اليهودية

التي كانت ابان بدء الدعوة المسيحية وفي ظل اسر وسيطرة الدولة الرومانية كان له اثره المباشر على كل المذاهب والفرق والاتجاهات اليهودية الدينية حتى في المذاهب التي بقي بعضها حتى الان .

وبمتابعة التراث اليهودي يتبين لنا مدى ما علق بالافكار الدينية اليهودية من افكار ومعتقدات تستحق منا الدراسة والبحث والتأمل حولها .

فمثلا الفرقة السامرية اليهودية ، والتي تنتسب الى مدينة السامرة القديمة التي كانوا يعيشون حولها والتي قامت على انقاضها مدينة نابلس ، كانت السامرة عاصمة مملكة اسرائيل المنشقة على ما ترك سليمان بعد وفاته كما سبق وان اشرنا تمثل معتقدا خاصا تتناقض به مع غيرها من الفرق والمذاهب اليهودية وتقول التوراة ان يعقوب الجد الاعلى للعبريين قد بنى معبده المكرس لله في هذا المكان وسماه « بيت ايل » اي بيت الله (١) .

وهكذا يزعم السامريون انهم البقية الباقية على الدين الصحيح . وان موسى كان يجعل قبلته نحو « بيت ايل » . اما داود وسليمان فقد غيرا من شكل المجتمع الديني بحسب هواهما ، حتى تحول الى مملكة فرعون او بختنصر وانهما غيرا القبلة القديمة، كما غير الانبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وشوهوه وحرفوه ولذلك فان عقيدة السامريين تتلخص في النقط التالية (٢) :

أ ــ الايمان باله واحد ، وبان هذا الاله روحاني بحت .
ب ــ الايمان بان موسى رسول الله ، وانه خاتم رسله .
ج ــ الايمان بتوراة موسى وتقديسها وبانها كلام الله .

د ــ الايمان بجبل جرزيم المجاور لنابلس وبانه المكان المقدس الحقيقي وهو القبلة الحقيقية الوحيدة لبني اسرائيل .

---

(١) انظر في واحد من اهم امهات البحوث والدراسات العربية في معرفة تاريخ بني اسرائيل وعقائدهم ، الكتاب الذي الفه الاستاذ الدكتور حسن ظاظا بعد ان القاه محاضرات على طلاب قسم البحوث والدراسات الفلسطينية بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية عام ١٩٧١ م بعنوان : الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه ، صفحات ٢٤٨ ــ ٢٦٤ .
(٢) السامريون : تاليف الاب مرمورة ، طبع نابلس .

وقد ترتب على اركان الايمان هذه انهم لا يؤمنون كما قلنا بنبوة الانبياء الذين جاءت اسفارهم بعد توراة موسى في العهد القديم ويعتبرون كل هذه النصوص من صنع البشر وانها من عمل قوم ضالين مضللين ولا يستثنون من ذلك الا يوشع بن نون الذي يأتي سفره بعد توراة موسى مباشرة ، لان التوراة نفسها تشير الى ان يوشع كان صاحب موسى وخادمه. وان موسى عهد اليه بالخلافة من بعده ، وانه هو الذي عبر الاردن بأول موجة من بني اسرائيل تدخل فلسطين . وبطبيعة الحال هم يرفضون بقية النصوص المقدسة اليهودية كالكشنا والتلمود والمدراش ونحوها ، يعتبرونها من الاعمال البعيدة في الفكر .

والنص المقدس الذي يتعبدون به هو توراة موسى ويضاف اليها احيانا سفر يوشع بن نون ، وبذلك يتألف كتابهم المقدس من ستة اسفار فقط وهم لا يستعملون النسخة الموجودة من ذلك عند باقي اليهود بل لهم نسخة برواية خاصة تختلف اختلافا محسوسا عن التوراة الشائعة . كما ان لهم لهجة عبرية ، وكتابة خطية ، مختلفة يزعمون انهما جاءتا اليهم صحيحتين دقيقتين من عهد موسى .

اما المعتدلون من اليهود الربانيين فانهم يقولون ان اصل هؤلاء السامريين يرجع الى من بقي من اليهود الجهلة الضعفاء في فلسطين بعد السبي آلبابلي (١) . ويبالغ غيرهم فيقول ان منشأ السامريين واضح مشروح في سفر الملوك الثاني من الاصحاح السابع عشر اذ يقول : « وجرى بنو اسرائيل على جميع خطايا يربعام التي صنعها ولم يحولوا عنها . حتى نفى الرب اسرائيل من وجهه ، كما قال الرب على ألسنة جميع عبيده الانبياء : وجلا اسرائيل عن أرضهم الى اشور الى هذا اليوم . واتى ملك اشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفر وائيم ، وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني اسرائيل ، فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها » .

والذين يعتمدون على هذا النص من اليهود يريدون ان يستشهدوا به على ان هؤلاء السامريين لا يمتون الى العبريين ، ولا الى موسى او يعقوب بصلة ، فهم جماعة من اخلاط الناس ، ومن « الجوييم » المتعاونين مع

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد العاشر ، المقال الخاص (بالسامرة) .

اعداء اليهود ، اذ احضرهم الاشوريون الى هذا المكان واحلوهم محل بني اسرائيل تنفيذا للعنة الهية حلت على بني اسرائيل لاجرامهم واغضابهم الرب . والذين يقولون بذلك لا يسمون السامريين بهذا الاسم بل يسمونهم « الكوتيين » . اي الذين جاءوا مع الاشوريين من « كوت » المذكورة بعد بابل في الايات السابقة .

فاذا استمر القارىء بعد ذلك في سياق هذه الحكاية في هذا الاصحاح فانه يجد فيه قوله : « وكان في مبدأ اقامتهم هناك انهم لم يتقوا الرب . فبعث الرب اليهم السباع تقتلهم لانهم لا يعرفون حكم اله الارض . فامر ملك اشور وقال ابعثوا اليهم واحدا من الكهنة الذين جلوتهم من هناك فيذهب ويقيم هناك ، ويعلمهم حكم اله الارض . فأتى واحد من الكهنة الذين جلاهم من السامرة واقام في « بيت ايل » واخذ يعلمهم كيف يتقون الرب فأخذت كل امة تعمل الهتها وتضعها في بيوت المشارف التي عملها السامريون كل أمة في مدنها الى سكنتها » وبتأكد عن طريق هذا النص ان السامريين الذين كانوا اخلاطا من الامم الاخرى لم ينفعهم تعليم الكاهن الذي ارسل اليهم فقد انزلقوا الى عبادة الاصنام ، وتتأكد هذه الحملة ضد السامريين وتزداد وضوحا عندمايذكر النص اسماء الاصنام التي صنعتها كل جماعة من السامريين فيقول : « فعمل اهل بابل سكوت بنوت واهل كوت عملوا ترجال ، واهل حماة عملوا اشيما ، والعويون عملوا نبحاز وترتاق ، والسفرائيميون كانوا يحرقون اولادهم بالنار لادرملك وعنملك الهي سفروائيم ، فكانوا يتقون الرب ويقيمون له من قومهم كهنة مشارف يقربون لهم في بيوت المشارف . وكانوا يتقون الرب ويعبدونآلهتهم كعادة الامم الذين جلوهم من بينهم . وهم الى هذا اليوم يعملون كعادتهم الاولى : لا يتقون الرب ، ولا يعملون بحسب سننهم وعوائدهم ولا بحسب الشريعة والوصية التي امر الرب بها بني يعقوب الذي سماه اسرائيل .

وخلاصة القول ان كثيرا من اليهود ينفون عن السامريين الانتساب الى اسرائيل او الايمان باله اسرائيل وقد وصل ذلك الى حد ان احبار اليهود كانوا اعتمادا على النص السابق يسمونهم « جيران السباع » (١) .

اما السامريون انفسهم فانهم ينتسبون الى هارون اخي موسى وينتخبون كاهنا اعظم يسمونه « الكاهن اللاوي » اي المنحدر من سبط لاوي

---

(١) دائرة المعارف العبرية .

او ليفي الذي انحدر منه موسى وهارون ، وكثيرا ما يكتفون في تسميته بلقب « الحبر الكبير » .

ونظرا للعزلة التي عاشوا فيها فقد انتشر فيهم الجهل بحيث قل عدد من يعرفون القراءة والكتابة بينهم ، واكثرهم الان يحفظون صلواتهم بعبريتهم بدون فهم لانهم يتخاطبون في الاغلب باللغة العربية .

وكان اخر كهنتهم الذين يدعون الانتساب الى هارون يعيش في اوائل القرن السابع عشر الميلادي ، وبعد وفاته عام ١٦٢٣ أصبح كهنتهم حتى الان ينتسبون الى فرع من اللاويين اسمهم بنو « عزيئيل بن لهات » وهم يعظمون كاهنهم تعظيما كبيرا .

والسامريون — كاليهود الربانيين — يؤمنون بيوم القيامة ، ويسمونه يوم البعث ، او يوم الموقف العظيم . كما يؤمنون بمجيء المسيح المخلص .

وكما تسمي هذه الطائفة نفسها « السامرة » تتخذ لنفسها اسماء اخرى اشهرها « بنو اسرائيل » وكذلك « بنو يوسف » .

وايضا بين الفرق والطوائف التي كانت تمثل اوضاع التناقض في المجتمع اليهودي في عصر الميلاد ووصل تأثيرها الى الفرق اليهودية الى العصر الحديث طائفة شهيرة وقد سبق ان أشرنا اليها في ايجاز وكانت تسمى باسم « الفريسيين » . وهم طائفة علماء الشريعة من الربانيين ، وكانت لهم الكلمة العليا في توجيه المجتمع اليهودي على عهد السيد المسيح . كما كانوا من اشد خصوم المسيح واخطرهم عليه ، لتبحرهم في العلم ، وزعامتهم بين الناس ومنزلتهم عند الولاة الرومان التي اكتسبوها من تعاونهم مع أدوات الظلم والطغيان الروماني ، ربما لتحقيق مخطط ازلي مرسوم لتدعيم الكيان اليهودي ، مهما كانت وسائل ذلك منافية للدين والاخلاق .

وبعض الذين ترجموا الانجيل ، او الذين يكتبون عن علاقة المسيحية باليهودية يسمون هذه الجماعة « الفريسيين » واسمهم بالعبرية « فروشيم » يعني « المفروزين » اي الذين امتازوا عن الجمهور ، وعزلوا عنه ، واصبحوا لما اشيع عنهم لعلمهم وورعهم من العلم والاتصال بأسرار الشريعة من الصفوة المختارة . فالعامة من اليهود الربانيين كانوا يوصفون على السنة زعمائهم الروحيين بالصفة العبرية « عام ها ارض » اي عوام الارض ، وهي صفة

ذم ، تتضمن الجهل والبهيمية والحاجة المستمرة الى رقابة المتشددين والمتزمتين من رجال الدين وهم « الفرزيون » .

وكانوا يلقبون انفسهم فيما بينهم بلقب « حسيديم » اي الانقياء ، وكذلك «حبيريم» اي الرفاق والزملاء ، ولعلها أصل استعمال العرب لكلمة الاحبار « اي علماء اليهود » ومفردها في اللغة العربية « حبر » بفتح الحاء .

ونحن نرى من ذلك انهم لم يكونوا « طائفة » او فرقة دينية منفصلة بل كما يقول الباحث الفرنسي شارل جنيبير متفقا في ذلك مع الاب لاحرانج انهم جمعية تدعي لنفسها معرفة ادق من اي انسان اخر بشريعة الله في نصوصها المقدسة ومأثوراتها . وهي بهذه الصفة تنظم نفسها بما يتفق مع تطبيق في منتهى الدقة للاحكام الشرعية يسمح لها بأن تفرض كلمتها في ذلك على الاخرين .

والفريزيون بمسلكهم هذا يعتبرون الشريعة اليهودية المنبع الذي لا ينضب للسعادة في الدنيا والاخرة ، ويقولون ان التوراة هي التعبير الكامل عما كان يمكن للانسان ان يختاره لنفسه لو انه اوتي علما كاملا . أما نظرتهم الى ما يكمل — في رايهم — التوراة من شرائع وحكايات واساطير وامثال في المشنا والتلمود والمدراش بكل ما تحتوي من « هلاخا » ، اي تشريع و « هجادا » اي قصص ، فنظرة خاصة يعتبرون بها كل ذلك مندمجا اندماجا عضويا في التوراة بحيث لا يمكن الايمان بهذه التوراة مع الشك في مكملاتها السالفة الذكر .

وتاريخ الفريزيين في شكله الذي نعرفه من المراجع الاوروبية يميل الى كثير من التنديد بهؤلاء الناس ، والتشنيع عليهم ، بسبب الاوصاف التي وصفوا بها في الانجيل ، نتيجة لما اشرنا اليه من مناهضتهم للمسيح ووقوفهم في وجهه بصلابة وعناد ، لقد وصفوا بأنهم متزمتون عن جهل وتنطع في الدين ، وبأنهم يغرقون من النصوص في تفاصيل تافهة ويخرجون منها نتائج جافة وتافهة ايضا ، وبأنهم حرفيون شكليون ، وبأنهم جدليون كذابون منافقون ، وبأنهم يمثلون انحطاطا بالنسبة لاسلافهم ومسخا وتشويها لما كان لهؤلاء الاسلاف من فضائل .

ومثل هذا الصراع يكاد يكون ظاهرة شائعة في التطور التاريخي فبمجرد

ظهور نزعة ترتكز على الروحانية ، وتعتني بجوهر الدعوة دون شكلهاوتتصل وجدانيا بالله غير حافلة تماما بما يقوله الكهنة وما يأمرون به من شعائر وطقوس ، يبدا اولئك الكهنة بالتصدي للدعاة الروحيين الجدد ، وهكذا ينشب الصراع بكل حدته وحرارته بين المعسكر الديني التقليدي المحافظ ممثلا في الفقهاء والكهنة ورجال الشريعة ، والمعسكر الوجداني الروحاني الثائر ممثلا في الزهاد والنساك والقديسين والمتصوفين . ونحن نعرف أن الفقهاء من رجال الشريعة الاسلامية حكموا على متصوفين من امثال الحلاج بالكفر والاعدام في جولة من الصراع بين الفقه والتصوف كما نعلم ان الكنيسة الكاثوليكية قد حكمت على قديسة مثل جان دارك بالكفر والاعدام عندما نشب مثل هذا الصراع ، ومن ورائه صراع سياسي هو ليس عنه بغريب ، كان موجودا ايضا في الاعماق الخلفية لما وقع للحلاج من فقهاء المسلمين وما وقع للمسيح من الفريزيين ومهما يكن من شيء فنحن لا نريد هنا ان ندافع عن الفريزيين بقدر ما نريد ان نشير الى ضرورة التدقيق فيما يقع تحت ايدينا عنهم من اخبار ومعلومات .

وهناك ملاحظة قيمة يلاحظها شارل جنيبير (١) عندما يقول ان الفريزيين الذين امنوا بالتوراة ثم بكل الانبياء الذين جاءوا بعد موسى ، وبجميع الاسفار اليهودية المقدسة ثم بالمشنا والتلمود والمدراش ، كانوا عن غير عمد وربما عن غير معرفة ايضا يؤكدون بمسلكهم هذا يقينا عفويا عميقا بضرورة الاستمرار مع التطور ، اذ بذلك ، وبذلك فقط تستطيع الاديان أن تعيش وان تستمر .

لكن يبدو من جهة اخرى ان هذه التطورية التي يؤمن بها الفريزيون كانت في حسبانهم ايضا محدودة بسياج من التقاليد والمقدسات التي لا يسمحون باقتحامها لاحد ، حتى ولو كان السيد المسيح نفسه فمن مظاهر تطور الفكر الديني عندهم بروز فكرة الايمان بالله مع الاعتقاد الواضح في وجود الشيطان ، وهي عقيدة لم يكن العبريون القدماء قد ادخلوها في نصوص التوراة . وتبعا لذلك توسع الفريزيون في الكلام عن الملائكة على انهم المؤتمرون بأمر الله القائمون في خدمته ، كما توسعوا في الكلام عن الابالسة والجن والعفاريت على انهم المؤتمرون بأمر الشيطان القائمون في خدمته . وكان هذا امرا جديدا يضاف الى الوضوح والبروز في الاعتقاد في مجيء المسيح واقامته مملكة الله على الارض ، وفي اليوم الاخر .

---

(١) المرجع السابق ـ نفس المرجع .

وبحكم القيادة الدينية التي حرص الفريزيون على ان تبقى في ايديهم فانهم تعرضوا لكثير من المواقف التي اختلفت فيها تصرفاتهم بحسب الظروف فهم مثلا كانوا دائما حريصين على غرس بذور الصهيونية في نفوس عوام الارض ، وتوجيههم الى احتقار الامم والاجناس والاديان الاخرى . وحضهم جهارا احيانا وسرا احيانا ، على رفض اية حكومة اجنبية غير يهودية تهيمن عليهم ومن هنا كانوا دائما وراء القلاقل والاضطرابات والثورات واعمال التخريب ، والمؤامرات التي ظل اليهود يقومون بها في منطقة الشرق الاوسط ، وكانوا اذ ذاك قلة قليلة جدا وسط ملايين كثيرة من السكان الاخرين ، في كل هذه المنطقة بما فيها فلسطين ، طوال العهدين اليونانــي والروماني حتى انتهت بتشريدهم نهائيا على يد تيتوس ثم هدريان .

فالفريزيون بتعصبهم وتشددهم مسئولون عن « الدياسبورا » ، وهي التشريد الروماني لليهود الذي استمر الى ما بعد وعد بلفور ، وهم ايضا مسئولون ايضا امام الراي العام العالمي عن كل التفاسير التي وجهـوا بها النصوص المقدسة وجهة الصهيونية السياسية في العصر الحديث ، ولعلهم في ذلك لم يكونوا اقل خطرا على الانسانية من تآمرهم لصلب المسيح عليه السلام ، وهذه المسئولية القيادية التي آلت الى الفريزيين فوضعتهم في مواقف معينة من البسالة والشجاعة هي ايضا التي أعطتهم القدرة على المناورة .. وتخطيط المكايد ، ما يخالف الباطن في انتظار الفرصة السانحة للانقضاض ومن هنا جاء حكم الانجيل عليهم بالتزمت الاحمق ، والتناقض في الاقوال والافعال والتآمر والنفاق .

وهناك ايضا من الفرق الشهيرة التي اجملنا الحديث في بعضها فرقة الصندوقيين .

وآذا كان الفريزيون قد استمروا الى يومنا هذا تحت اسماء اخرى هي التي تميز الجماعات والاحزاب الدينية الصهيونية في اسرائيل وباقـي انحاء العالم ، فان هناك فرقة دينية يهودية عاصرت الفريسيين ، بل ربما كانت اقدم منهم ، ولكنها لم تساير تطور الفكر الديني اليهودي حتى النهاية فانطفأت مع الزمن ، هذه الفرقة هي فرقة الصدوقيين .

وبالرغم من شهرة هذه الفرقة فان امرها لا يخلو من غموض ، حتى في اصل اسمها . فالروايات الفريزية القديمة تقـول أن « انتيجنوس السوخي » الذي كان من كبار كهنة الهيكل الثاني ، وعاش حوالى سنـة

۳۰۰ ق.م. كان له تلميذان احدهما اسمه « صدوق » والاخر اسمه « ستوس » ، والى الاول منهما تنسب هذه الفرقة ، ولما كان قد ورد ذكر « البيتوسيين » في بعض النصوص القديمة ايضا ، فقد جرى اليهود على اعتبار ان الصدوقيين والبيتوسيين فرقة واحدة لها اسمان مختلفان . وان كان بعضهم قد تلمس فرقا جعله يعتقد ـ وسط هذا الغموض ـ انهما فرقتان مختلفتان (۱) . والصدوقيون انفسهم لم يكونوا يوافقون على ذلك، فهم يدعون انهم ينتسبون الى « صدوق » اقدم من هذا بكثير هو ـ فيما يقال ـ الكاهن الاعظم لداود ، الذي تولى اخذ البيعة لابنه سليمان وتنصيبه على العرش ، فعينه سليمان كاهنا اعظم لهيكله . جاء في سفر الملوك الاول : في الاصحاح الاول من الايات ۳۲ ـ ۳٥ : وقال الملك داود علي بصدوق الكاهن وناتان النبي وبنايا بن يوياداع ، فدخلوا بين ايدي الملك . فقال لهم الملك خذوا معكم عبيد سيدكم واركبوا سليمان ابني على بغلتي وانزلوا به الى جيحون . وليمسحه هناك صدوق الكاهن وناتان النبي ملكا على اسرائيل، واهتفوا بالبوق وقولوا : ليحيى الملك سليمان ، واصعدوا وراءه فيجيء ويجلس على عرشي ، وهو يملك مكاني ، فانه هو الذي اوصيت ان يكون قائدا على اسرائيل ويهوذا » . ويقول في الاصحاح الثاني آية ۳٥ : « واقام الملك بنايا بن يوياداع مكانه على الجيش ، واقام صدوق الكاهن مكان ابيثار » . ويبدو ان الايام دارت ، واحفاد صدوق هذا يرثون الكهانة عن جدهم ، ففي حزقيال ٤٠ ـ ٤٦ نقرأ : « والغرف التي تتجه نحو طريق الشمال هي للكهنة المتولين حراسة المذبح ، وهم بنو صدوق المقربون الى الرب ، من بين ابناء لاوي ليخدموه » . ويقول الفرنسي جنيبير (۲) ان انتساب الصدوقيين الاول الى الكاهن الاكبر لسليمان ، صدوق يبدو مستبعدا ، اذ لو كانت هناك ادنى مناسبة لحرص ابناء هذه الطائفة لا على تسمية انفسهم الصدوقيين ، ولكن (بني صدوق) على نحو ما جاء في آية حزقيال مثلا .

وازاء هذا الغموض قال بعضهم ان الصدوقيين الذين يسمون بالعبرية (صدوقيم) ربما كانوا يسمون في الاصل (صديقيم) اي الصديقون بمعنى العاليين الابرار . ثم غيروها من الياء الى الواو تواضعا ، بحيث يصبح

---

(۱) جرينسن جنيبير لاجرايخ (دائرة المعارف العبرية) .
(۲) دائرة المعارف العبرية في مادة « صدوقيم » المجلد التاسع .

معناها (أهل العدل) او نحو ذلك : المسألة ما تزال مفتقرة الى وثائق حتى يتم شرحها بشكل حاسم ، خصوصا ان الصدوقيين ، لعداوتهم العقائدية المرة للفريزيين والمسيحيين ، قد نعتوا بأوصاف كثيرة تحول دون الرؤية الواضحة في هذه التسمية لدرجة ان التلمود لم يقنع بوصفهم بأقبح الصفات بل اضرب عن تسميتهم بالصدوقيين وسماهم (الابيقوريين) ، لان مفهوم هذه الصفة عند اليهود التلموديين ينطبق على من يصاب بالشك في الحقائق وعدم تصديق الروايات الشفوية . مع الانفكاك من قيود الدين والاخلاق . ومهما يكن من شيء فهذه الطائفة تمتاز بما يلي :

ا ـ انها لا تؤمن بقيامة الاموات من القبور .

ب ـ ولا تؤمن بالحياة الابدية للبشر بأفرادهم واشخاصهم كما كانوا في الدنيا .

ج ـ وترفض بالتالي الثواب والعقاب في الاخرة .

د ـ تنكر وجود الملائكة والشياطين .

هـ ـ تنكر القضاء والقدر وما كتب للانسان او عليه في اللوح المحفوظ .

و ـ تقول تبعا لذلك بأن الانسان خالق أفعال نفسه ، حر التصرف وبذلك فهو مسئول .

ز ـ تؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود ونحوه .

هذه الفرقة تعبر عن عقيدة الخاصة والمثقفين والطبقة الارستقراطية ولذلك فانهم على الرغم من عدم وضوح فكرة المسيح المنتظر في عقائدهم ربما كانوا يؤمنون بها من خلال تأويلهم لنصوص معينة معروفة من العهد القديم ، وبخاصة سفر اشعيا . ولكنهم لم يبرزوا هذه الفكرة ، ولم يلحوا عليها ، لما راوه من نحو لها الى نوع من الدجل والتهريج الديني بين الجهلة والعوام . ولعل ذلك هو الذي حدد موقفهم العدائي المعروف من المسيح ، فاشتركوا مع الفريزيين في مقاومته ومعاداته حتى كان من أمره ما كان .

وايضا يجيء في الحديث عن الفرق اليهودية فرقة القنائيين .

وهم في الواقع كما يقول الاستاذ الدكتور «حسن ظاظا»(١) ليسوا فرقة بمفهوم هذه الكلمة في تاريخ الاديان ، وانما هم شعبة من الفريزيين يمتازون

---

(١) دكتور حسن ظاظا من كتابه « الفكر الديني الاسرائيلي أطواره ومذاهبه » ، صفحات ٢٦٠ ـ ٢٦٤ من الطبعة التي سبق الاشارة اليها .

بالتطرف الشديد ، والعنف ، بحيث يمكن وصفهم بانهم سياسيا ودينيا « غلاة » اليهود . وكلمة « قناء » التي يتسمى بها كل فرد من هذه الجماعة الدينية معناها في استعمال العبريين « الغيور » او « صاحب الحمية » . وهي الكلمة التي وصف الله بها نفسه في الوصايا العشر عند النهي عن اتخاذ الهة اخرى . وكان الاستعمال القديم لهذه المادة في اللغة العبرية قد اصطبغ بمعنى الجهاد في سبيل الله . والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوة وجراة وان يقف المرء في المجتمع مناضلا لا تأخذه في الله لومة لائم . فعندما ذهب النبي ايليا الى جبل الله حوريب ، حيث كان الله قد كلم موسى تكليما ، دخل الياهو المغارة وبات فيها . « وكان كلام الرب اليه ، يقول : ما لك ها هنا يا الياهو ؟ » . فقال : قد غرت غيرة للرب اله الجنود ، لان بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك ، وقتلوا انبياءك بالسيف ... » فهذه الغيرة للرب يعبر عنها في العبرية بمشتاق من نفس مادة « قناء » .

ويقول المفسرون اليهود اصحاب المدارس ان من اشهرالقنائيين القدماء الذين اخذتهم الغيرة لله ، من عهد موسى ، فنحاس بن العازر بن هارون الكاهن ، الذي اثر عنه في سفر العدد هذا الخبر (عدد ٢٥ / ٦ ــ ١٣) : واذا رجل من بني اسرائيل قد جاء وقدم الى اخوانه (زوجته) المدينية امام عيني موسى، واعين كل جماعة بني اسرائيل ، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع . فلما رأى ذلك فنحاس بن العازر بن هارون الكاهن قام من وسط الجماعة واخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجلالاسرائيلي الىالقبة، وطعن الرجل الاسرائيلي كما طعن المراة في بطنها كليهما ، فامتنع الوباء عن بني اسرائيل وكان الذين ماتوا بالوباء اربعة وعشرين الفا فكلم الرب موسى قائلا : « فنحاس بن العازر بن هارون الكاهن قد رد سخطي عن بني اسرائيل ، بكونه غار غيرتي في وسطهم ، حتى لا افني بني اسرائيل بغيرتي، لذلك قل اني اعطيه ميثاقي ، ميثاق السلام ، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت ابدي ، لاجل انه غار لله ، وكفر عن بني اسرائيل » . وواضح من هذه القصة ان ذلك « القناء » القديم المعاصر لموسى ، فنحاس ، كانت غيرته للرب دموية جدا لم يتحرج فيها عن القتل ، بل عن قتل اثنين احدهما من اخوانه بني اسرائيل وامراة غريبة ضعيفة هي الزوجة المدينية . اما مبرر هذا القتل فالعصبية العنصرية التي جعلت فنحاس الكاهن يرى في الزواج بأجنبية جريمة ما بعدها جريمة، بلجعلمعاصريه من بنياسرائيلحسبهذه القصة يسندون الاوبئة والطواعين التي تفتك بعشرات الالاف منابناء شعب الله المختار الى الزواج بالاجنبيات .

والذي يعنينا هنا هو ان فرقة القنائين التي تكونت في الفتـرة المحيطـة بمولد المسيح كانت تستوحى من امثال هذه الحكايات دستورا للعنـف والتطرف والمغالاة . وكانت بوادر هذا الاتجاه قد ظهرت في عهـد احبار المشنا ، فقد جاء في باب القضاء (السنهدرين ٨١) ان من يسرق ادوات الخدمة الدينية ومن يعمل عملا سحريا للاضرار ، ومن يتزوج بامراة ارامية، فان القنائين ، كانوا يقتلونه ، واما الكاهن الذي قام بالخدمة الدينية وهو في حالة نجاسة فان اخوانه الكهنة يحضرونه ويقدمونه الى المحكمة بل يأتي صغارهم ويخرجونه ويهشمون راسه .

وقد اصبح « قضاء القنائين » مضرب الامثال في القسوة مما جعلهم في ايام هيرودس ، حوالى ميلاد المسيح ، يعتبرون فرقة قائمة بذاتهـا ، وجعل الفريزيين الذين لا يختلفون عنهم من الناحية الاعتقادية او التشريعية يعادونهم بسبب هذا الغلو والارهاب الذي اشتهروا به لدرجة انهم كانـوا يسمون « سيقارين » او « سيقاريقيين » وهي كلمة يهودية من الفاظ التلمود معناها « الارهابيون » او « السفاحون » او « قطاع الطرق » ، كما انهـم سموا في بعض الوثائق «بريوتاي» اي الخارجون على القانون او «المتمردون».

ويقول المؤرخ اليهودي المعاصر لهم يوسيفوس (١) ان هذه الجماعة كانت تمتاز بتمسكها بفكرة الوطن اليهودي الحر المستقل ، وكانـوا لا يعترفون برئيس او سيد الا الله . وكانوا يفضلون الخروج على القانون ، بل يفضلون الموت لهم ولذويهم على ان يبايعوا حاكما اجنبيا . وينقل شارل جنيبير (٢) عن يوسيفوس انه يعزو نشأة حزب القنائين في صورته الرهيبـة المعروفة الى الحوادث التي وقعت في السنة السادسة او السابعة من ميلاد المسيح ، والتي انتهت بعزل ارخيلاوس عن الامارة على اليهود وهو ابن هيرودس وخليفته وصدور مرسوم روماني باعتبار فلسطين رومانية ليس لها اي كيان ذاتي .

وقد بدأت هذه الحوادث بأمر من السلطات الرومانية بعمل تعـداد

---

(١) في كتابه المشهور « تواريخ اليهود » وكذلك في كتابه الاخر « حرب اليهود » الـذي خصصه لتدمير تيتوس للوجود اليهودي بفلسطين سنة ٧٠ ميلادية وهـذه النقـول موجودة في دائرة المعارف العبرية ، المجلد التاسع .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٠ وما بعدها .

احصائي لليهود الموجودين في فلسطين اذ ذاك ، فقام احد القنائين واسمه « يهوذا دي جملا » المعروف بيهوذا الجليلي ، نسبة الى مقاطعة الجليل بشمال فلسطين واتفق سرا مع احد الفريزيين واسمه « صدوق » على اشعال نار الثورة ، ولكنه لم ينجح هو وصاحبه الا في استقطاب بعض المتطرفين وتكوين عدد محدود من العصابات وبمجرد علم الرومان بذلك هبوا لقمع هذا التمرد ونجحوا في ابادة هذه العصابات والقضاء على الرجلين المتزعمين لها . ومنذ ذلك الوقت اصبحت حركة القنائين حركة سرية تعتمد على الاغتيال ، وكان ضحاياها من بين اليهود المتعاونين مع الرومان . وخصوصا الفريزيين . كان الواحد من القنائين يمر احيانا بسرعة البرق وخنجره في يده ، فيقتل الشخص المتفق عليه بطعنة واحدة ثم يختفي . وكان زعيمهم قبيل نزول تيتوس بجيشه لابادة فلول اليهود في فلسطين سنة ٧٠ ميلادية هو « مناحم بن يهودا » الجليلي ، الذي قاد الحركة بعد ابيه ، وراح ينشر الاضطرابات في ارجاء فلسطين سنة ٦٦ ميلادية ، مما ادى الى هذا التدخل الرومائي الحاسم سنة ٧٠ وانتهى فيه أمر القنائين مع انتهاء امر اليهود جميعا .

وخلاصة القول هي ما قدمناه من ان هذه الجماعة لم تكن تؤمن في الدين بما يخالف ايمان افربائيين والفريزيين على وجه الخصوص ، وانما كانت تنظيما صهيونيا سياسيا وعسكريا ، يرى استعمال القوة والالتجاء الى الارهاب والقتل والاغتيال لتحقيق الاغراض السياسية البحتة التي رسمتها الجماعة لنفسها وهي انتزاع فلسطين من الرومان ، وبسط السيطرة اليهودية بصورة دكتاتورية عليها .

ونلاحظ ايضا ان اشتعال حركتهم على اثر الامر بالقيام بتعداد واحصاء لليهود في فلسطين يشعر بصورة واضحة بأن اليهود كانوا أقلية وان القنائين كانوا على يقين من ان عملية التعداد لم تكن في مصلحة هذه الفئة من الناس ولذلك لم يجدوا حلا للموقف الا في العنف والتخريب والاغتيال وبث القلاقل والاضطرابات ، آملين ان يصلوا بذلك الى ان تتحكم الاقلية في الاكثرية وأن يقيموا حكومة تستمد هيبتها من التهديد بالخناجر .

واذا كانت جماعة القنائين قد اندثرت كتنظيم ومذهب في هذا الوقت المتقدم، فان مناهجها ووسائلها ما تزال توحي للفكر الصهيوني الحديث بكثير من التفاصيل التعسفية التي يعتمدها حتى اليوم في فرض كلمتهم بالقوة ، واهدار كل الحقوق المنبثقة مما هو تشريع او قانون او سلوك انسائي .

انبثاق المسيحية اليهودية بعصر الميلاد :

من غير جدال فان الجهود الجبارة والمضنية التي بذلها المعلم العظيم « السيد المسيح عليه السلام » لكي يستطيع ان يصنع من بين قوى التناقض التي احاطت بحركة دعوته وحالت تقليديا مؤملة ان تضع عراقيل وتحديات ضد رسالته العظيمة ، تستحق منا ان ننظر اليها بعين البحث والاستشهاد ذلك ان انبثاق المسيحية من قلب اليهودية في عصر الميلاد وجب علينا ان نضع في الاعتبار انه بمقدار ما كانت طبيعة التركيبة العقائدية عند اليهود تمثل موقف الرفض للدعوة الجديدة ، فانه في نفس الوقت يضعنا امام سر النمو السريع لتطور الكنيسة المسيحية ورفضها بعد ذلك الارتباط باي شكل من اشكال التعلق او المعتقد اليهودي . وهناك كما يقول « ادوارد جببون » (١) من الاسباب التي ساعدت على انبثاق المسيحية وسرعة نموها وابتعادها عن الارتباط بالتراث اليهودي بما يمكن اجماله في الاتي :

ـ غيرة المسيحيين التي لا تلين ، وبالاحرى ، الغيرة المتعصبة (اذا جاز لنا ان نستعمل هذا التعبير) وبالحق ان هذه الغيرة مأخوذة عن الديانة اليهودية ، ولكنها خلت وتطهرت مما كان يشوب هذه الديانة من روح ضيقة انعزالية غير اجتماعية ابعدت الاممين (غير اليهود) عن شريعة موسى بدلا من جذبهم اليها .

ـ نظرية الحياة الاخرة ، قد عضدتها كل الظروف الاضافية التي ان تضفي على هذه الحقيقة الهامة قيمة وفعالية .

ـ قوى الاعجاز المنسوبة الى الكنيسة في صدر المسيحية .

ـ اخلاق المسيحيين النقية الصارمة .

ـ الوحدة والنظام في الجمهورية المسيحية التي شكلت ، مع الايام دولة مستقلة متزايدة في قلب الامبراطورية الرومانية .

ثم الغيرة التي لا تلين والتي ورثها المسيحيون عن اليهودي كاثر مما

---

(١) ادوارد جيبون في مؤلفه الواسع : « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » الجزء الاول ، صفحات ٣٢٣ ـ ٣٥٢ من الطبعة التي صدرت عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (وقد نقله الى العربية الاستاذ محمد علي ابو درة) .

ترك الشعب اليهودي الذي رفض ان يختلط بهذا العالم ذلك ان اليهود الذين انزووا لعهود كثيرة تحت حكم ملوك اشور وفارس بوصفهم احقر العبيد ، خرجوا من الظلام في عهد خلفاء الاسكندر . ولما كثر عديدهم الى درجة مذهلة في الشرق ثم في الغرب ، فانهم سرعان ما اثاروا دهشة سائر الامم وفضولها ويبدو ان عنادهم الرهيب في الحفاظ على طقوسهم الخاصة وادابهم الانعزالية البعيدة عن الروح الاجتماعية ، ميزتهم بانهم جنس مختار من البشر واعلنوا في جراة واخفوا احيانا ، كراهيتهم الشديدة لسائر بني الانسان . ولم يفلح عنف انتيوخوس ، ولا دهاء هيرودس ، ولا الاقتداء بالامم المجاورة ، في اغراء اليهود بالربط بما دعوه انه بين ناموس موسى وبين الاساطير اليونانية الرشيقة . وطبقا لمبادىء التسامح العام الشامل ، كان الرومان يحمون الخرافة التي يحتقرونها . وقد تنازل اوغسطس المهذب فاصدر اوامره بتقديم القرابين من اجل رخائه وازدهاره في هيكل اورشليم . على حين ان احقر ذرية ابراهيم ، الذي كان لزاما عليه ان يقدم مثل هذا الولاء لجوبيتر في الكابيتول كان يصبح موضع احتقار من نفسه ومن سائر اخوته ، اذا هو اقدم على شيء من هذا . ولكن اعتدال الغزاة لم يكن كافيا لاخماد الاحقاد والحزازات في نفوس رعاياهم الذين فزعوا واشمازوا من الشعائر الوثنية التي دخلت بالضرورة الى ولاية رومانية . واحبطت محاولة كاليجولا المجنونة لوضع تمثاله في هيكل اورشليم امام التصميم الاجماعي لشعب كان يخشى الموت اقل كثيرا مما يخشى مثل هذا الرجس الوثني ، وكان تعلقهم بشريعة موسى يعادل مقتهم لسائر الديانات الاجنبية . فلما انحصر تيار الغيرة والاخلاص في هذا المجرى الضيق ، اندفع في قوة السيل الجارف ، بل احيانا في مثل عنفه وشدته .

ويتخذ هذا الاصرار الذي لا يلين والذي بدا للعالم القديم انه كريه مدعاة للسخرية ، شكلا اشد رهبة ، حين شاءت العناية الالهية ان تكشف لنا استار الغموض الذي احاط بتاريخ الشعب المختار . ولكن هذا التعلق المروق بل المتزمت بشريعة موسى ، والذي برز في اليهود الذين عاشوا في ظل محاولات بناء الهيكل الثاني (١) يظل ادعى الى المزيد من الدهشة

(١) الهيكل الثاني بناه اليهود في اورشليم عام ٥٣٦ ق.م. عقب عودتهم من المنفى . اما الهيكل الاول فكان قد بناه سليمان ودمر حوالي عام ٥٨٦ ق.م. ثم بدا هيرود في بناء الهيكل الثالث الذي دمره الرومان عند استيلائهم على اورشليم حوالي سنة ٨٠ م. وكانت كل هذه الهياكل لعبادة يهوه .

اذا قورن بعناد آبائهم الاولين في الارتياب وعدم التصديق ، ذلك انهم عندما نزلت الشريعة من جبل سيناء وسط الرعود ، وعندما توقف جريان البحر وتعطل سير الكواكب خدمة لبني اسرائيل وعندما كان الثواب او العقاب الدنيوي نتيجة سريعة مباشرة لتقواهم او لكفرهم ـ عندما حدث ذلك كله تراهم قد عمدوا باستمرار الى التمرد على جلالة مليكهم الالهي (اي ربهم) الذي يرونه امامهم ، والى وضع اصنام الامم القديمة فيمحراب يهوه ، والى تقليد كل طقوس غريبة من طقوس العرب في خيامهم او الفينيقيين في مدنهم . فلما حبست العناية الالهية بحق رعايتها عن هذا العنصر الجحود ، اكتسب ايمانهم قدرا متناسبا من القوة والنقاوة . وقد شهد معاصرو النبي موسى والسيد المسيح في استهتار مهين اغرب المعجزات . وتحت وطأة الكوارث كلها حفظ الايمان بهذه المعجزات اليهود في عصر متأخر من عدوى الوثنية الشاملة . ويبدو ان هذا الشعب ـ خلافا لكل مبادىء العقل البشري المعروفة ـ قد آمنوا ايمانا اقوى واسرعبتقاليد اسلافهم الاولين، منه بالادلة التي لمسوها بأيديهم او ادركوها بحواسهم(١).

وكانت الديانة اليهودية مهياة للدفاع بشكل يدعو الى الاعجاب . ولكنها لم تكن معدة قط للهجوم والتوسع ، ويبدو من المحتمل ان عدد المهتدين لم يزد كثيرا على عدد المارقين في يوم من الايام . لقد نزلت الوعود الالهية على شعب واحد كما امر الشعب نفسه بشعيرة الختان المميزة . فلما تكاثر نسل ابراهيم حتى اصبحوا كرمل البحر ، اعلن الاله الذي تلقوا من فمه مجموعة الشرائع والطقوس ـ اعلن انه الاله الخاصباسرائيل وكانه الاله القومي لهم وافرز شعبه المفضل ، دون سائر البشر ، باشد ما تكون العناية والغيرة وقد اقترن غزو ارض كنعان بكثير من الظروف العجيبة والدامية كذلك . الى درجة ان اليهود المنتصرين باتوا وقد احتدم العداء بينهم وبين كل جيرانهم انهم بشكل لا يهدأ . وأمروا ان يستأصلوا بعضا من اشد القبائل وثنية ، وقلما عوق ضعف البشر تنفيذ الاوامر الالهية . وحرم عليهم الزواج من الامم الاخرى او التحالف معها . أما تحريم قبولهم في الجماعة اليهودية ، وقد كان تحريما دائما في بعض الاحيان، فقد امتد فيالغالبالى الجيلالثالث، والسابع بل حتى الى الجيل

---

(١) وقال الرب لموسى « حتى متى يهينني هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقون بجميع الآيات التي عملت في وسطهم » (سفر العدد ـ الاصحاح الرابع عشر الاية ١١) .

العاشر . فان الالتزام بتبشير الاميين بعقيدة موسى ، لم يعتبره اليهود يوما مبدا من مبادىء ناموسهم، كما انهم لم يميلوا الى فرضه على انفسهم باعتباره واجبا يتطوعون لادائه .

وفيما يتعلق بقبول المواطنين الجدد ، فقد تأثر هذا الشعبالانعزالي غير الاجتماعي وتصرف في هذا الصدد وفق التقليد اليوناني الذي يشوبه الغرور والانانية ، ووفق سياسة رومة التي تتسم بالكرم والسماحة ، فقد خدع أحفاد ابراهيم من نسل يعقوب انفسهم بأنهم وحدهم ورثة العهد بين الله والانسان كما ورد في التوراة . ولشد ما توجسوا خيفة من الانتقاص من قيمة ميراثهم لو سهل على الغير الاشتراك معهم فيه . ان المزيد من التعرف على الجنس البشري قد وسع مداركهم ، ولكنه لم يهذب تحيزهم او يحد من تعصبهم : وما اكتسب اله اسرائيل يوما مؤمنين جددا الا كان مدينا للمزاج المتقلب عند المشركين اكثر منه للحماسة الجادة عند المبشرين بدينه . ويبدو أن عقيدة موسى شرعت لبلد واحد ، وكذلك لامة واحدة ولو اطاع اليهود طاعة عمياء الامر الذي يحتم مثول كل ذكر ثلاث مرات سنويا أمام يهوه ، لكان من المستحيل عليهم ان ينتشروا خارج الحدود الضيقة لارض الميعاد . والواقع ان هذه العقبة ذللت بهدم هيكل اورشليم ولكن تورط مع هذا التدمير اهم جزء في الديانة اليهودية . ووقع الوثنيون الذين طال بهم أمد الدهشة والاستغراب للنبأ الغريب نبأ هيكل خال وقعوا في حيرة من امرهم ، فأي هدف واية ادوات يمكن ان تكون لعبادة جردت من المعابد أو المذابح أو الكهنة او القرابين ومع ذلك فان اليهود ، حتى في حالة الوهن والتدهور جفلوا — وظلوا يؤكدون امتيازاتهم المتغطرسة الخاصة بهم — من مجتمع الغرباء ، بدلا من التودد اليهم ، واستمر اصرارهم في صلابة لا تلين ، على تلك الاجزاء التي كان في مكنتهم ان يمارسوها من شريعة موسى . فان تمييزهم الغريب بين الايام بعضها بعضا ، وتمييز بعض اللحوم عن البعض ، الى جانب مجموعة كبيرة من الطقوس التافهة ، واو انها ثقيلة ، كل اولئك كان يثير اشمئزاز ومقت الامم الاخرى التي كانوا يختلفون معها اختلافا بينا في العادات والآراء . ان شعيرة الختان الاليمة بل المحفوفة بالخطر ، لكفيلة وحدها برد المهتدي ذي الرغبة الاكيدة في الايمان ، عن باب معبد اليهود .

وفي هذه الظروف تقدمت المسيحية الى العالم ، مسلحة (حسب املاء هذه العقيدة) بقوة الشريعة الموسومة ، متحررة من ثقل قيودها

واجلالها واشرب النظام الجديد في عناية فائقة ، مثل النظــام القديم تماما ، حماسا مطلقا لصدق العقيدة ووحدانية الله . ورتب كــل مــا كشف الآن للانسان من طبيعة « الكائن الاعلى » وتدابيره ، بحيث يزيد مــن اجلالهـم وتقديرهم لهذه النظرية الخفية الغامضة . وسلم بالسلطة الالهيــة لموســى وللرسل ، بل اعترف بها على انها اقوى اركان المسيحية . وظهرت منــذ بدء الخليقة سلسلة لا تنقطع من النبوءات التي بشرت وهيأت لقدوم السيد المسيح الذي طال ترقب قدومه، وطبقا لتوقعات اليهود ومخاوفهم الشديدة، كان كثيرا ما يمثل في شخصية ملك وفاتح ، اكثر منــه في شخصيــة رسول وشهيد . وجاء بعد الطقوس التي تألفت من بعض الانماط والارقام ، عبادة نقية روحية تصلح لكل مناخ ، كما تتفق بالمثل مع ظروف الجنس البشري . وبدلا من التدشين بالدم ، حل شيء اقل ضررا وهو التدشين بالماء وبعد إن كان الوعد برضا الله محصورا في ذرية ابراهيم ــ تحيزا وتحزبا ــ حسب الدعوى اليهودية اصبح اليوم قدرا مشتركا للاحرار والعبيد ، واليونــان والمتبربرين واليهود والاممیین ، وكل ميزة يمكن ان ترقى بالمهتــدي مــن الارض الى السماء او تمجد اخلاصه او نوفر له السعادة ، أو حتى ترضي الغرور ــ الخفي الذي يتسرب الى نفس الانسان في صورة التقوى والايمان ــ ظلت محتفظا بها لاعضاء الكنيسة المسيحية ، ولكن في نفس الوقت ، كــان الناس جميعا مرخصا لهم ، بل مدعوين رجاء وتوسلا ، لتقبل هذه الميــزة التي لم تمنح مجاملة وتفضلا ، بل فرضت فرضا والتزاما . واصبــح مــن اقدس الواجبات على كل من تحول الى المسيحية ان ينشر بــين اصدقائــه واقربائه البركة التي تلقاها والتي لا يمكن تقديرها ، وان ينذرهــم باشــد العقاب للرفض الذي يعتبر مخالفة اثمة لارادة الله المحسن العلي القدير . وبهذا المفهوم الكنسي الذي يستقى من مصادر كثيرة .

كان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بني اسرائيل ، علــى اية حــال ، عملا يتطلب وقتا ، كما انه شاق نوعا . واعترف من تحول من اليهودية الى المسيحية على ان المسيح هو الذي انبأ به الوحي القديم ، واجلوه واحترموه باعتباره رسولا يعلم الناس الفضيلة والدين ، ولكنهم تشبثوا تشبثا عنيدا بشعائر وطقوس اسلافهم ، حتى لقد ارادوا فرضا على الاممیین (غير اليهود) الذين كانوا يزيدون باستمرار في عدد الداخلين في المسيحية، ويبدو أن هؤلاء المسيحيين المتهودين ناقشوا ، على درجة من الصواب ، المصــدر الالهــي للشريعة الموسوية والكمال الثابت لمنشئها العظيم ، واكدوا انه اذا كان الكائن الاسمى ، وهو هو نفسه عبر الخلود ، قد شرع الغاء الطقوس المقدسة التي

كانت تميز الشعب المختار ، ولما كان الغاؤها أقل وضوحا وجلالا ومهابة من سنها في البداية وانه بدلا من هذه التصريحات المتكررة التي تفترض او تؤكد خلود العقيدة ، الموسوية كان من الممكن تمثيلها على انها مشروع مؤقت قصد به ان يستمر حتى تدوم المسيح الذي سيعلم الناس امور العقيدة والعبادة في اسلوب اقرب للكمال ، وان المسيح نفسه وتلاميذه الذين حاوروه في الارض ، بدلا من اجازتهم — عن طريق القدوة — لاصغر الشعائر في الشريعة الموسوية ، كان يمكن أن ينشروا على العالم الغاء تلك الطقوس العقيمة القديمةالمهجورة، دون ان تتكلفالمسيحية عناء البقاء طوالا حائرة مرتبكة بين مختلف طوائف الكنيس اليهودي وقد يبدو ان في مثل هذه المناقشات دفاعا عن قضية شريعة موسى المنتهية . ولكن الاحبار المتفقهين كثيرا ما استطاعوا بجدهم ان يفسروا لغة « العهد القديم » المبهمة ، وسلوك « المعلمين الرسوليين » الغامض . وكان الافضل والاسلم ان يكشف النقاب تدريجا عنالاسلوب الموجود فيالانجيل وان يصدر — في غاية الحذر والرفق — حكم يدين هؤلاء اليهود المؤمنين ، وهو امر تعافه نفوسهم وتبغضهتعصباتهم .

ويقدم تاريخ كنيسة اورشليم دليلا ناصعا على ضرورة مثل هذه الاحتياطات وعلى اثر الديانة اليهودية العميق في عقول اتباعها وكان الاساقفة الخمسة عشر الاولون في اورشليم من اليهود المختنين وجميع شعب الكنيسة الذي تراسوه بين شريعة النبي موسى وتعاليم السيد المسيح ، وكان من الطبيعي ان تتقبل التقاليد البدائية للكنيسة التي اسست بعد موت المسيح بأربعين يوما فقط والتي حكمها في الكثير الغالب حواريوه ورسله لعدة سنين — تتقبل على انها مقياس الصحة اي المذهب الصحيح — الارثوذكسي . اما الكنائس النائية فكثيرا ما لجات الى الكنيسة الام (كنيسة اورشليم) وفرجت كروبها عن طريق الصدقات السخية ، فلما نشات المجتمعات العديدة الغنية في المدن الكبرى في الامبراطورية : في انطاكيه ، الاسكندرية ، افيسوس ، كورنثه ، رومه ، تقلص الاحترام الذي كانت اورشليم توحي به الى المراكز المسيحية ، وسرعان ما وجد اليهود المرتدون الى المسيحية ، او كما سموا فيما بعد « النصارى » ، (نسبة الى مدينة الناصرة) والذين وضعوا اساس الكنيسة — تقول وجدوا انفسهم وقد طغت عليهم الجموع المتزايدة الذين انضموا تحت راية المسيح من مختلف مذاهب الشرك . ورفض الاميون — ثقل الطقوسالموسوية الذي لا يحتمل، وادوا آخر الامر، لاخوانهم الذين هم اكثر غيرة على الحق نفس التسامح الذي تضرعوا هم في بداية الامر من اجله . وقد احس النصارى احساسا عميقا مريرا بدمار

المعبد والمدينة والعقيدة اليهودية، فقد احتفظوا في سلوكهم — وفي عقيدتهم — بأواصر وثيقة بينهم وبين بني وطنهم غير الاتقياء الذين نسب الوثنيون كوارثهم الى احتقار الاله الاعظم، ونسبها المسيحيون، بشكل احق واصدق، الى غضبه . وارتد النصارى من اطلال اورشليم الى مدينة الصغيرة وراء نهر الاردن ، حيث انزوت تلك الكنيسة القديمة في عزلة وخفاء ولكنهم ظلوا يجدون العزاء في التردد على المدينة المقدسة لزيارتها ، وبالامل في عودتهم يوما الى هذه الاماكن التي علمتهم الطبيعة والعقيدة معا ان يحبوها ويجلوها كذلك . ولكن تعصب اليهود الذميم اليائس في عهد هادريان زاد الطين بلة في النهاية ، حتى بلغت الكارثة ذروتها ، فاستخدم الرومان الذين أهاجتهم ثوراتهم المتكررة ، حق النصر في شراسةبالغة غير عادية، واسس الامبراطورية تحت اسم ايليا كابيتولينا مدينة جديدة على جبل صهيون ، واعطاها كل امتيازات المستعمرة ، وتوعد بأشد العقوبات اي فرد من الشعب اليهودي يجرؤ على الاقتراب من تخومها ، ووضع حامية يقظة من الجنود الرومان لتقوم بتنفيذ اوامره . ولم يكن امام النصارى للافلات من الحكم الا سبيل واحدة وعضد الدين القويم هذه المرة ، ما للمزايا المؤقتة من اثر ، فانتخبوا ماركوس اسقفا لهم ، وهو من احبار عنصر الاممين الغرباء واغلب الظن انه كان من مواطني ايطاليا او احدى الولايات اللاتينية وبفضل اقناعه ، شاد معظم شعب الكنيسة بشريعة موسى التي ثابروا على اتباعها اكثر من قرن من الزمان . وبهذه التضحية بعاداتهم وآرائهم اشتروا السماح لهم بالدخول الى مستعمرة هادريان كما دعموا وحدتهم مع الكنيسة الكاثوليكية بشكل اقوى واثبت .

ولما استعاد جبل صهيون اسم كنيسة اورشليم وامجادها ، نسبت جرائم الانشقاق والضلال الى البقية الحقيرة من النصارى الذين رفضوا ان يرافقوا اسقفهم اللاتيني . وظل هؤلاء يحتفظون بمدينة بلا موطنهم السابق ، وانتشروا في القرى المجاورة لدمشق ، وانشأوا لهم كنيسةهزيلة في مدينة حلب بسوريا . واعتبر اسم « النصارى » اسمى واشرف من ان يطلق على هذه الشرذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الافق وضآلة الادراك ، بالاضافة الى حالتهم — الاسم الحقير المزري « الابيونيون » وبعد عودة كنيسة اورشليم ببضع سنين ثار الشك والجدل حول المسالة الآتية : هل يمكن ان يطمع في الخلاص رجل آمن عن يقين بيسوع المسيح في الوقت الذي ظل فيه يتبع شريعة موسى ؟ ونزعت بالقديس جوستين الشهيد روحه الانسانية الطيبة ، فرد على هذا

التساؤل بالايجاب ، والحق ان جوابه كان يتسم بأكبر التحفظ والحياء ، ولكنه رغم ذلك تجاسر فوقف الى جانب مثل هذا المسيحي غير المكتمل شريطة ان يكتفي بممارسة الشعائر الموسوية دون ان يعمد الى توكيد نفعها وضرورتها . فلما الحوا على جوستين في الافصاح عن راي الكنيسة ، قال ان بين المسيحيين الارثوذكس كثيرين جدا ، لا يستبعدون اخوتهم اليهود المتنصرين من أمل الخلاص فحسب ، بل كذلك ينكرون الاتصال بهم في المجالات العامة مثل الصداقة والضيافة والحياة الاجتماعية . وتغلب الراي الذي هو اشد صرامة وقسوة كما كان متوقعا بطبيعة الحال على الراي الذي هو أكثر اعتدالا ومن هنا وجد حاجز ابدي يفصل بين اتباع موسى واتباع المسيح (١) . اما الابيونيون التعساء الذين لفظتهم ديانة لانهم مارقون ، ولفظتهم الاخرى لانهم هراطقة ، فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى تحديد موقفهم بشكل ادق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية . الا انها ذابت بطريقة غير ملحوظة في الكنيسة المسيحية او الهيكل اليهودي .

وبينما اتخذت الكنيسة الارثوذكسية مكانا وسطا سويا بين الافراط في الاحترام والاجلال وبين الازدراء غير اللائق ، لشريعة موسى ، نجد ان مختلف الهراطقة قد انحرفوا الى النقيض بنفس القدر من التطرف ، حتى بلغوا غاية الخطأ وغاية الاسراف . فقد انتهى الابيونيون ، وفقا لما اعترفوا به من صدق الديانة اليهودية ، الى انه لا يمكن الغاؤها او ازالتها قط . على حين سارع اللاادريون (الغنوصيون طائفة تقول بأن الخلاص بالمعرفة دون الايمان) فاستخلصوا من عيوبها المزعومة انها لم تكن قط من انشاء حكمة الاله . وهناك — على سلطان موسى والرسل — بعض اعتراضات سرعان ما تقفز الى أذهان المتشككين الملحدين ، ولو انها تنبع من جهلنا بالآباد السحيقة وتجزنا عن تكوين فكرة كافية عن التدبير الالهي . ورحب علم الغنوصيين العقيم في لهفة بهذه الاعتراضات ، ودافع عنها في جراة ووقاحة . ولما كان معظم هؤلاء الهراطقة يرفضون ملذات الحواس او الملذات المادية فقد هاجموا بشدة تعدد الزواج عند البطاركة (الاشراف) وفروسية داود وحريم سليمان . وبعد فتح أرض كنعان والجهود المبذولة في ابادة

---

(١) سنتعرض بالتفصيل لجهود اليهود في العصر الحديث عندما ذهبوا الى الفاتيكان في محاولة لخلق علاقة مسيحية يهودية تتقسم بنوع من الارتباط العقائدي بين اتباع النبي موسى والسيد المسيح .

السكان الاصليين غير المريبين الابرياء الذين لم يتوقعوا شرا ، ياتوا في حيرة من امرهم ، كيف يلتئمون مع الافكار العامة المشتركة للانسانية والعدالة . ولكنهم لما تذكروا السجل الدامي الزاخر بالقتل والاعدام والمذابح ، الذي يكاد يلطخ كل صفحات تاريخ اليهود ، أدركوا ان المتبربرين في فلسطين اظهروا من الرحمة والرفق باعدائهم الوثنيين مثل ما اظهروا لاصدقائهم او بني جلدتهم . وعندما تجاوزوا ــ المذاهب الفرعية الطائفية للشريعة الى الشريعة نفسها وجدوا انه من المستحيل على ديانة لا تتألف الا من القرابين الدموية والطقوس التافهة ، وطبيعة الثواب والعقاب . على السواء فيها ، هي طبيعة جدية دنيوية مؤقتة ــ من المستحيل على هذه الديانة ان توحي بحب الفضيلة او تكبح جماح الانفعالات والعواطف . وعالج الغنوصيون موضوع خلق الانسان وموته في سخرية يشوبها الدنس والالحاد ، فانهم لم يصغوا في اناة وصبر الى ان الاله قد أخلد الى الراحة بعد ستة ايام من جهد شاق ، الى ضلع ادم ، والى جنة عدن والى شجرة الحياة والمعرفة ، والى الافعى الناطقة . والى الفاكهة المحرمة والى الحكم الصادر ضد الجنس البشري نتيجة لخطيئة تافهة اقترفها اجداده الاولون . وصور الغنوصيون ــ في الحاد بالغ ــ اله اسرائيل بانه معرض للاهواء والخطأ متقلب في حبه ، عنيد لا يطاق في غضبه ، غيور بشكل دنيء على عبادته الخرافية ، وقد قصر عنايته المتحيزة على شعب واحد وعلى هذه الحياة المؤقتة الزائلة . ولم يستطيعوا ان يتبينوا في هذه الشخصية اية معالم لاله الكون الحكيم القدير على كل شيء . لقد ذهبوا ــ اي الغنوصيون ــ الى القول بان عقيدة اليهود اقل اجراما ــ نوعا ما ــ من وثنية الامميين ولكن عقيدتهم الاساسية قامت على أن المسيح الذي يعبدونه هو اول والمع انبعاث من الاله ظهر على الارض ليخلص بني ادم من اخطائهم المختلفة وليبتدع طريقا اخر للحق والكمال . واقر الاباء ،في تواضع فريد ــ سفسطة الغنوصيين ، واذ اقروا بان المعنى الحرفي كريه تنفر منه كل مبادىء الايمان والمنطق ، فانهم حسبوا انفسهم في مأمن لا ياتيهم الباطل من بين ايديهم ولا من خلفهم اذا احتموا في الثوب الفضفاض ، ثوب الاستعارة والمجاز ، الذي اشاعوه فوق كل الاجزاء الضعيفة في ناموس موسى .

وقيل في براعة اكثر منه بحق ، ان الطهر العذري في الكنيسة لم تشبه اية شائبة من الانشقاق او الزيغ قبل عصر « تراجان » أو « هادريان » ، بعد موت المسيح بنحو مائة عام . ولكننا نلاحظ ، في دقة اكثر ، ان تلاميذ السيد المسيح خلال تلك الفترة انصرفوا الى العقيدة والعبادة في حرية اكثر مما

اتيح في العصور التالية . ولما ضيق نطاق اخوية الكنيسة بطريقة غير ملحوظة ومارست الطائفة الغالبة سلطاتها الروحية في قسوة متزايدة . فان كثيرا من اجل اشياعها الذين دعوا لنبذها ، استثيروا للادلاء بآرائهم الخاصة ، وتتبع نتائج مبادئهم الخاطئة ، وبعبارة صريحة ليعلنوا تمردهم على وحدة الكنيسة . ولقد تميز الغنوصيون بأنهم اكثر المسيحيين ادبا وعلما ومالا . واما هذه التسمية العامة ـ التي تعبر عن اتساع معرفتهم وسموها ـ فقد انتحلها لهم غرورهم . او خلعها عليهم حقد اعدائهم تهكما وسخرية . وكاد الغنوصيون ، دون استثناء يكونون من جنس الاممين . ويبدو ان المؤسسين الاصليين لهذه الطائفة كانوا من أهل سوريا او مصر ، حيث دفء المناخ الذي يهيىء للعقل والجسم معا جو التقى والورع في دعة وتأمل . وخلط الغنوصيون بالايمان بالمسيح كثيرا من العقائد او المذاهب الرائعة الغامضة في وقت معا ، تلك التي اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة زردشت التي تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئي . وعندما انزلقوا الى هذه الهوة السحيقة اسلموا قيادتهم لخيال مهوش ، وقد كانت مسالك الخطا متشعبة غير محدودة ، فقد انقسم الغنوصيون ، دون ان يحسوا الى اكثر من خمسين شيعة خاصة ، يبدو ان من اشهرهم البازيليديين والفالنتينيين والماركيونيين ثم المانيكائز في عصر متأخر . وتفاخرت كل شيعة منها باساقفتها واشياعها وعلمائها وشهدائها. واخرج الهراطقة ـ بدلا من الاناجيل التي قررتها الكنيسة، مجموعة كبيرة من التواريخ التي تلتئم فيها مناقشات المسيح وحوارييه واعمالهم معافكار كل شيعة بعينها . وكان نجاح الغنوصيين سريعا واسع النطاق ، فقد ملأوا اسيا ومصر ، وثبتوا مكانهم في رومة وتوغلوا احيانا في ولايات الغرب . والارجح انهم نشأوا في القرن الثاني الميلادي وترعرعوا في القرن الثالث ، ثم خمدوا في القرن الرابع او الخامس بقيام جدل ومناقشات اكثر عصرية . وبفضل السيادة العليا للسلطة الحاكمة . وعلى الرغم من انهم عكروا السلم دائما ، وانهم كثيرا ما اساءوا الى اسم الدين ، فانهم اسهموا في تقدم المسيحية اكثر مما عوقوها . ووجد الاممیون الذين تحولوا الى المسيحية ؛ والذين وجهت كل اعتراضاتهم وتحزباتهم ضد شريعة موسى ، وجدوا منفذا الى كثير من المجتمعات المسيحية ، التي لم تتطلب من عقولهم الامية الجاهلية اي ايمان بوحي سابق . فقوي وزاد ايمانهم بشكل غير ملحوظ ، وافادت الكنيسة في النهاية من دخول الد اعدائها اليها .

ومهما يكن من امر الخلاف في الراي بين الارثوذكس والابيونيين

والغنوصيين فيما يتعلق بالوهية شريعة موسى او سندها ، فقد جمعتهم جميعا على قدم المساواة . نفس الغيرة المطلقة ونفس الكراهية لعبادة الاصنام ، مما وسم اليهود عن سائر الامم في العالم القديم بسمات خاصة . ان الفيلسوف الذي اعتبر الشرك وتعدد الالهة مزيجا من غش الانسان وخطئه ، ليستطيع ان يخفي ابتسامة السخرية تحت ستار التقوى ، دون ان يخشى ان تعرضه السخرية او الامتثال لغضب اي قوى خفية ــ او كما تصورها هو ــ قوى وهمية . ولكن المسيحيين الاولين كانوا ينظرون الى الديانات الوثنية القائمة نظرة اشد مقتا ورهبة . وكان الاعتقاد السائد عند الكنيسة والهراطقة معا ان الشياطين هم منشئو الوثنية وحماتها واصنامها . فان هذه الارواح المتمردة التي حرمت من منزلة الملائكة والقي بها في نار جهنم ، كان لا يزال مقدرا لها ان تحوم حول الارض لتعذب اجسام البشر الاثمين وتضلل عقولهم ، وسرعان ما اكتشف الشياطين واستغلوا في الانسان استعداده الطبيعي للعبادة والنسك ، فحولوا الانسان في دهاء واحتيال عن عبادة ربه ، واغتصبوا هم مكان الاله الاعظم وامجاده . وبنجاحهم في محاولاتهم الخبيثة ، ارضوا في الحال غرورهم واشبعوا شهوتهم في الانتقام ، وحصلوا على الراحة التي كانوا في شك منها ، تلك هي املهم في انزلاق الجنس البشري معهم لمشاركتهم اثمهم وبؤسهم. وقبل او على الاقل تصور ، انهم تقاسموا فيما بينهم اهم شخصيات الالهة التي عرفها المشرحون ، فانتحل فرد من الجن اسم جوبيتر وصفاته ، واخر اسكولا بيوس وثالث فينوس ، وربما انتحل رابع اسم ابولو ... وانهم بفضل مرانهم الطويل وبفضل طبيعتهم العدائية استطاعوا في قدر كاف من المهارة والوقار ان يمثلوا الادوار التي عهد اليهم بها . وقبعوا في المعابد ، ونظموا الاحتفالات والقرابين ، وابتدعوا الخرافات ، ونطقوا بالوحي ، وكثيرا ما سمح لهم بالاتيان بالمعجزات ، أما المسيحيون الذين كانوا يستطيعون على الفور ــ بفضل توسط الارواح الشريرة ــ ان يفسروا اية ظاهرة خارقة للطبيعة فقد كانوا يميلون ، بل يرغبون في التسليم باشد اوهام وخيالات الاساطير الوثنية اسرافا ، ولكن ايمان المسيحي كان مشوبا بالرعب ، واعتبر اقل بادرة من الاحترام للعبادة الوطنية ولاء مباشرا مقدما للشيطان ، وتمردا على جلال الله .

وتبعا لهذا الراي ، كان اول ، ولكن اشق ، واجب على المسيحي هو ان يحافظ على طهارة نفسه وينأى بها عن ارجاس الوثنية . ولم تكن ديانة الامم مجرد عقيدة نظرية يعترف بها في المدارس او يوعظ بها في المعابد .

ولقد تداخلت وامتزجت الهة الشرك وطقوسه العديدة امتزاجا دقيقاً بكل ظروف العمل واللهو ، ظروف الحياة العامة والخاصة ، وبدا انه يستحيل على الانسان ان يتحاشى ملاحظة وجودهم في كل شيء ، آلا اذا تخلى في نفس الوقت عن مخالطة الجنس البشري ، وعن جميع وظائف المجتمع ومسراته . وكانت امور الحرب والسلام تبدأ او تختم بتقديم قرابين رهيبة، كان لزاما على الحاكم والسناتو والجندي ان يراسها او يسهم فيها (١) . وكانت المشاهد العامة جزءا اساسيا في عبادة الوثنيين المرحة وكان المفروض ان الالهة تتقبل الالعاب التي يشترك فيها الامير والشعب تكريما لاعيادهن الخاصة، على انها – اي الالعاب – أعظم تقدمة تفيض بالشكر والعرفان (٢). ووجد المسيحي الذي تجنب – ورعا وفزعا – دنس السنيرك او المسرح ، وجد نفسه يقع في ورطات خبيثة في كل احتفال بهيج كلما عمد اصدقاؤه – في صحة بعضهم بعضا – الى صب الخمور قربانا وضراعة الى الالهة . وعندما كانت العروس تزف في موكب الزوجية ، وسط التظاهر المتقن بالتمنع والخفر ، الى عتبة دارها الجديدة أو كان موكب الجنازة الحزين يسير الهوينا الى المحرقة (٣)، فان المسيحي في هذه المناسبات الهامة كان يفضل مضطرا التخلي عن اعز الناس لديه ، على ان يرتكب الاثم الكامن في هذه الاحتفالات البعيدة عن الورع والتقوى . وتلوث بدنس الوثنية كل فن او مهنة اتصلت ولو اتصالا يسيرا – بصناعة الاصنام او تزيينها وهذا حكم قاس ، لانه جلب البؤس والشقاء الدائمين على اكبر جزء من الجماعة المشتغلة بالمهن الفكرية او الالية . وانك اذا القيت نظرة على المخلفات القديمة لوجدت فضلا عن تماثيل الالهة والادوات المقدسة لعبادتهم – الاشكال الجميلة والاقاصيص اللطيفة التي قدمها خيال الاغريق ، قد ادخلت وكأنها أثمن الزخارف لبيوت الوثنيين وملابسهم واثاثهم . بل ان فنون

---

(١) كان السناتو يعقد اجتماعاته في معبد او في مكان مقدس ، وقبل ان يبدا العمل ، كان كل عضو يقدم على المذبح شيئا من النبيذ ، والبخور .

(٢) انظر ترتوليان في كتابه « المشاهد » ولا يظهر هذا المصلح العنيف من التسامح مع ماساة ليبوريبيدس ، اكثر مما يظهره نحو نزال المصارعين وكان لباس اللاعبين ، بصفة خاصة يضايقه ، وقد حالوا في ضلال وكفر باحذيتهم الطويلة ان يضيفوا ذرعا الى طولهم .

(٣) لم يصف فرجيل الجنائز القديمة (في ايام ميسينوس وبالاس) بدقة اقل مما اوضحها بها سرفيوس (المعلق عليه) وكانت المحرقة نفسها مذبحا وكانت النار تتغذى بدم الضحايا وكان المشيعون يرشون بماء معطر .

الموسيقى والرسم والبلاغة والشعر نفسها تبعث من نفسها هذا المسورد العكر . وفي راي الآباء كان ابولو والموزيات لسان حال الشيطان ، وهومر وفرجيل من ابرز خدامه . وقدر للاساطير الجميلة التي تسود وتحيي نتاج عبقرينها ، ان تشيد بعظمة الشياطين . وقد زخرت اللغة الدارجة في اليونان وفي رومة بتعبيرات مالوفة ، ولكنها فاجرة ، مما يمكن ان ينطق به المسيحي المتهور في غير تبصر ، او يستمع اليها في صبر شديد كذلك .

ان المغريات الخطيرة التي تربصت من كل جانب بالمؤمن غير اليقظ كانت تهاجمه باشد العنف المضاعف في ايام الاعياد الرهيبة وكانت تنظم وتدبر على مدار السنة في دهاء وحيلة ، بدرجة تخلع على الخرافة ثوب المسرة وغالبا ثوب الفضيلة كذلك . وخصصت بعض اقدس الاعياد في الطقوس الرومانية للاحتفال باول يناير في اشد مظاهر الابتهاج العام والخاص ، ولتعداد المآثر النقية للاموات والاحياء ، ولتوكيد الحدود التي لا يجوز الاعتداء عليها للمتلكات ، او للترحيب ، عند عودة الربيع بقوى الاخصاب والنماء ، ولتخليد ذكرى التاريخين الخالدين في رومة ، تاريخ تاسيس المدينة ، وتاريخ قيام الجمهورية ، ولاستعادة المساواة البدائية الفطرية بين الناس في ايامهم الاولى ، وذلك اثناء الاباحية الرحيمة التي يتسم بها عيد زحل (١٧ ديسمبر من كل عام ، يوم الانقلاب الشتوي) . ويمكن تكوين فكرة عن كراهية المسيحيين لمثل هذه الاحتفالات البعيدة عن التقوى والورع من الاحساس المرهف الذي اظهروه في مناسبة اقل خطرا بكثير . فقد تعود القدماء في ايام الاعياد العامة ان يزينوا ابوابهم بالمصابيح واكاليل الغار ، وان يتوجوا رؤوسهم باكاليل من الزهور ، وربما كان من الميسور احتمال هذا الطقس اللطيف البريء باعتباره عملا مدنيا ، ولكن حدث من سوء الحظ ان الابواب كانت تحت حراسة المعبودات المنزلية ، وان الغار كان مقدسا عند عشاق دافني (في الاساطير اليونانية حورية هربت من ابولو) . وان اكاليل الزهور التي كانت توضع رمزا للفرح او للاسى خصصت في بداية نشاتها لخدمة المعتقدات الخرافية . وهنا نجد المسيحيين المرتعدين الذين استدرجوا في هذه الحالة للتمشي مع عرف بلدهم ومع اوامر الحاكم — نجد انهم شقوا تحت وطاة الخوف الرهيب من تانيب ضمائرهم ومن لوم الكنيسة ، ومن الانذار بالانتقام الالهي .

هذا هو الجهد المضني القلق الذي كانت تتطلبه حماية العقيدة في الاناجيل ضد الجرائيم المعدية لعبادة الاوثان . وكان اتباع الديانة القائمة

يمارسون ، بحكم التلقين او بحكم العادة ، دون وعي ، هذه الطقوس الخرافية العامة او الخاصة ، ولكنهم ـ كما حدث غالبا ـ هيأوا الفرصة للمسيحيين ليعلنوا او ـ يؤكدوا تصديهم الغيور لها وبهذه الاحتجاجات المتنكرة تدعم باستمرار تعلقهم بعقيدتهم . وكلما ازدادت غيرتهم ، خاضوا، بمزيد من الحماسة والتوفيق الحرب المقدسة التي شنوها على امبراطورية الشياطين .

(ملامح المعتقد الديني في الحياة الاخرة)

يقول : «ادوارد جيبون» في كتابه « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » عن عقيدة الحياة الاخرة في مرحلة انبثاق المسيحية من اليهودية وما اعقب هذه المرحلة من تطور الكنيسة .

تمثل كتابات شيشرون ، بأجلى بيان ، جهل الفلاسفة القدامى واخطاءهم وترددهم فيما يتعلق بخلود الروح . فانهم عندما كانوا يرغبون في تحصين حوارييهم ضد الخوف من الموت كانوا يقررون ولو ان ما يقولون واضح ، ولكنه محزن ، ان هذه الضربة القاضية التي تصيبنا ـ اي الموت ـ انما تخلصنا من نوائب الحياة ، وان الموتى لن يقاسوا منها بعد موتهم . على انه كان هناك نفر قليل من حكماء الاغريق والرومان ، تبينوا فكرة اسمى ، ومن بعض الوجوه اصدق عن الطبيعة البشرية ، رغم انه يجب الاعتراف بانه في هذا البحث الجليل كان خيالهم يوجه منطقهم ، وان غرورهم كان يلهب خيالهم . انهم لما نظروا في ارتياح الى مدى قواهم العقلية ومارسوا مختلف قوى الذاكرة والخيال ، والحكم على الاشياء في اعمق التأملات وفي اشق الاعمال ، وتملكتهم الرغبة في الشهرة التي سبحت بهم في افاق المستقبل وراء حدود المنايا والقبول، لم يرتضوا ان يحشروا انفسهم في زمرة حيوانات الحقل ، او يفترضوا ان الكائن الذي ابدوا اعظم الاعجاب واصدقه بجلاله ووقاره يمكن أن يوارى في حفرة ضيقة من الارض ، وان يحدد وجوده بسنوات معدودات من العمر . وفي غمرة هذا التحيز السائق أهاموا بعلم الميتافيزيقا ، او على الاصح بلغتها لنجدتهم وسرعان ما اكتشفوا بحيث ان ايا من خواص المادة لا تنطبق على عمليات العقل ـ اكتشفوا ان الروح الانسانية لا بد ان تكون تبعا لذلك شيئا متميزا عن الجسم ، شيئا نقيا بسيطا روحيا غير قابل للتحلل او الفناء ، حساسا لاكبر قدر من الفضيلة والسعادة بعد تخلصه من سجنه الجسدي ، ومن هذه المبادىء النبيلة الخداعة خرج الفلاسفة الذين تأثروا خطى افلاطون بنتيجة لا مبررة، حيث

اكدوا لا مجرد الابدية الاخرة فحسب ، بل كذلك الازلية السابقة للـــروح البشرية التي تقبلوا بأحسن القبول اعتبارها جزءا من الروح السرمديـــة الموجودة بنفسها وجودا ذاتيا ، والتي تعم الكون وتدعمه . وقد تجدي مثل هذه النظرية التي جاوزت مجال الحواس والتجربة البشرية في شغل فراغ عقلية فلسفية ، او انها في سكون العزلة قد تضفي شيئا من الراحة على قلب انسان فاضل تولاه القنوط ، فخارت عزيمته . ولكن سرعان ما محا معترك الحياة الجادة ومشاغلها اثر البصمات الباهتة التي تركتها هذه النظرية في المدارس . وانا لنعرف حق المعرفة الاشخاص الافذاذ الذين نبغوا في عـصر شيشرون والقياصرة الاوائل ، وحتى على بينـة من اعمالهم وشخصياتهم وبواعثهم مما يؤكد لنا ان سلوكهم في هذه الحياة لم يصدر عن اي اقتنـاع حازم بثواب او عقاب في الحياة الاخرة ، ولم يخش ابرع الخطباء في ساحة المحكمة او السناتو في رومة ان يسيئوا الى سامعيهم بالتعريض بهذه النظرية على انها راي فج متطرف ينبذه في ازدراء اي رجل متحرر في تعليمه وفـــي فهمه للامور .

فلما لم تستطع الجهود الفائقة للفلسفة ان تخطو الى اكثر من الاشارة الباهتة الى الرغبة او الامل او على الاقل احتمال حياة مستقبلة (ما بعـد الموت) فانه لم يعد هناك الا وحي الهي ، يمكن ان يؤكد وجود عالم غير مرئي مخصص لاستقبال ارواح الناس بعد انفصالها عن اجسادهم ويصف الاحوال في ذاك العالم المجهول . ولكنا نلمس في الديانات المعروفة في اليونان ورومة عدة نقائض كامنة فيها جعلتها عاجزة عن الاضطلاع بهذه المهمة العسرة .

ذلك ان الاسلوب العام في اساطيرهم لم تعززه اية براهين قاطعة ، بل ان اعقل الوثنيين قد انكر بالفعل على هذه الاساطير سلطانها المغتصب .

اما وصف جهنم فقد تركوه لخيال الرسامين والشعراء الذين حشدوا فيها الكثير من الاطياف وغرائب الوحوش التي وزعت ثوابها وعقابها في شيء يسير من المساواة والانصاف ، الى حد ان هذا الخليط السخيف من اشد الاوهام والاباطيل جموحا ووحشية ، ازرى بالحق الصراح وضيق عليـــه الخناق ، على حين انه احب شيء الى قلب الانسان .

ــ وندر ان اعتبر المشركون الاتقياء في اليونان ورومة نظرية « الحياة الثانية » ركنا اساسيا من اركان الايمان ، فان عناية الآلهة ، بوصفها تتعلق بالجماعات العامة اكثر منها بأفراد خاصين بذواتهم ، تجلت على المســرح

الظاهر للحياة الراهنة ، فقد عبرت الابتهالات والتوسلات التي كانت تقدم على مذابح جوبيتر وابولو عن تلهف عبادها على السعادة الدنيوية ، وعن جهلهم او عدم اكتراثهم بالحياة المستقبلة (الثانية) . اما في الهند وآشور ومصر والغال ، فقد اشربت القلوب الحقيقة الهامة المتعلقة بخلود الروح بدرجة اكبر من المثابرة والنجاح ، ولما كنا لا نستطيع ان ننسب الفارق الى علو كعب التقريرين في المعرفة فان الجدير بنا ان نرجعها الى نفوذ الكهنة الوطيد الذي استخدم بواعث الفضيلة بمثابة وسائل لتحقيق اطماعهم .

وطبيعي ان نتوقع ان ينكشف هذا المبدأ الاساسي في الديانة باجلى معانيه للشعب المختار في فلسطين ، وان يعهد به الى كهنة هارون الوراثيين وكان حتما مقضيا علينا ان نعبد النواميس الخفية للعناية الالهية على حين نكتشف ان نظرية خلود الروح ليس لها وجود في شريعة موسى ، لقد اقحمها الرسل خلسة وفي الفترة الطويلة التي انقضت بين الاستعباد في مصر وفي بابل يبدو ان امال اليهود ومخاوفهم معا كانت محصورة في الدائرة الضيقة للحياة الراهنة (الحياة الدنيا) وبعد ان سمح كورش (١) للامة المنفية في العودة الى الارض الموعودة وبعد ان استرد عزرا (٢) السجلات القديمة للديانة ، نشأ في اورشليم ، بطريقة غير ملحوظة طائفتان مشهورتان الصدوقيون والفريسيون ، والتزم الاولون — وهم من اغنى وأبرز طبقات المجتمع — التزاما شديدا بالمعنى الحر لشريعة موسى ، وانكروا عن ورع وتقى خلود الروح باعتباره فكرة ليس لها سند في الكتاب المقدس الذي يجلونه بوصفه الركيزة الوحيدة لعقيدتهم . واضاف الفريسيون الى سلطان — الاسفار المنزلة سلطان التقاليد والاعراف ، حيث تقبلوا باسم التقاليد والاعراف ، بعض الافكار النظرية في فلسفة الامم الشرقية أو في دياناتها ، وكان في عداد هذه الاركان الجديدة للعقيدة نظريات القضاء والقدر ، والملائكة والارواح ، والحياة الثانية بما فيها من ثواب وعقاب . ولما كان الفريسيون نتيجة لصرامة سلوكهم ، قد جذبوا الى صفوفهم جمهرة الشعب اليهودي ، فقد اصبح خلود الروح هو الشعور السائد في المجتمع اليهودي تحت حكم ملوك الازمونيين احبارهم . وعجز مزاج اليهود عن ان يتقبل مثل هذا التوافق الواهي الفاتر الذي ترتضيه عقلية المشركين ، فلما أقروا فكرة الحياة المستقبلة ، اعتنقوها بالغيرة التي شكلت دائما خاصية الامة ولكن

---

(١) كروش عند (ادورد جيبون) مؤسس امبراطورية الفرس ٦٠٠ — ٦٢٩ ق.م.
(٢) عزرا ، كاتب ومصلح ديني يهودي في القرن الخامس قبل الميلاد .

غيرتهم على اية حال لم تضف عليها شيئا من الوضوح ، او حتى احتمال وجودها ،وظلت نظرية الحياة والخلود التي فرضتها الطبيعة واقرها المنطق ورحبت بها الخرافة في حاجة الى ضمان وسند حقيقة الهية ترجع الى المسيح والمثل الذي ضربه هو بنفسه .

ولما وعد الناس بالنعيم الابدي ، شريطة الايمان واتباع تعاليم الانجيل فليس من عجب في ان تتقبل افواج كبيرة من كل دين ومن كل طبقة ومن كل ولاية في العالم الروماني، هذا العرض الكريم . لقد الهب المسيحيين الاقدمين احتقارهم لحياتهم الدنيا ، وثقتهم الحقة بالخلود الذي لا يستطيع الايمان الضعيف المزعزع في العصور الحديثة ان يعطينا اية فكرة وافية عنه واثره الحق بشكل قوي في الكنيسة الاولى ، نتيجة راي مهما كان جديرا بالاحترام لنفعه وقدمه ، وجد انه لا يلتئم مع الخبرة والتجربة . لقد ساد الاعتقاد بان نهاية العالم وملكوت الرب وشيكتا المجيء . وتنبأ الرسل بقرب وقوع هذا الخطب العجيب ، وقد احتفظ تلاميذهم الاولون بهذا النبأ العظيم، واضطر اولئك الذين فهموا احاديث المسيح بمعناها الحرفي ان يرقبوا في السحب عودة « الانسان » عودة مجيدة ثانية ، قبل أن ينقرض تماما هذا الجيل الذي شهد حياته المتواضعة على الارض ، والذي قد يظل شاهدا على ما اصاب اليهود من كوارث على عهد فسبازيان وهادريان . وقد علمتنا ثورة الفكر في القرون السبعة عشر الا نعتمد كثيرا على لغة النبوة والوحي الخفية الغامضة ولكن طالما سمح ــ ومن اجل اغراض حكيمة بان يعيش هذا الخطأ في الكنيسة فانه اسفر عن خير الاثار على عقيدة واعمال المسيحيين الذين عاشوا في هذا الترقب الرهيب لتلك اللحظة التي ترتعد فيها فرائص الكرة الارضية والجنس البشري بأجمعه لظهور قاضيهم الالهي .

وكانت النظرية القديمة المعروفة ، « نظرية العصر الالفي السعيد » مرتبطة ارتباطا وثيقا بعودة المسيح ثانية الى الارض . ولما كان خلق الدنيا قد تم في ستة ايام فان بقاءها على حالتها الراهنة قد تحدد بستة الاف سنة ، كما جاء في تواتر منسوب الى ايليا (احد انبياء بني اسرآئيل في القرن التاسع قبل الميلاد) . واستدل بنفس هذا القياس على ان هذه الفترة الطويلة من الكد والصراع ــ والتي انقضى الآن معظمها سوف يعقبها راحة (سبت) بهيجة مرحة مقدارها الف سنة ، وان المسيح مع زمرة القديسين الظافرين والظفرة الذين نجوا من الموت او الذين بعثوا الى الحياة بمعجزة سيحكم على الارض ، حتى يحين الموعد المقرر ليوم البعث النهائي او العام .

وكم كان هذا الامل سارا لعقول المؤمنين الى حد ان « اورشليم الجديدة » مثر هذه المملكة المنعمة سرعان ما صورها الخيال في ابهى زينة وابهج حلة . ومثل هذه الجنة الهانئة التي لا تنطوي الا على اللذة الطاهرة البريئة الروحية فحسب قد تبدو في اعين ساكنيها انقى مما يحتملون ، اذ المفروض فيهم انهم لا يزالون على طبيعتهم البشرية مالكين لحواسهم الانسانية . وان جنة عدن بما فيها من ملذات تصلح لبيئة المراعي لم تعد تصلح للمجتمع الذي هو اكثر تقدما ورقيا والذي ساد الامبراطورية الرومانية . ومن ثم شيدت مدينة من ذهب واحجار كريمة ومنح للبقعة المجاورة لها كل ما تشتهيه الانفس من غلال وخمر ، في وفرة خارقة ، يتمتع السعداء الاخيار بنتاجها التلقائي تمتعا حرا لا يشوبه حقد ولا حسد ولا تحجبه قيود الملكية الخاصة الممنوعة. وعنى على توكيد البشرى بهذا العصر الالفي السعيد وترسيخها في اذهان الناس سلسلة من الاباء ابتداء من جوستين الشهيد وايرنيوس اللذين تبادلا الحديث مباشرة مع تلاميذ الرسل والحواريين حتى لاكتانيتوس الذي كان معلما لابن قسطنطين . وربما امكن القول بانه من الجائز ان هذه الفكرة لم يتقبلها الجميع ، الا انها كانت شعورا ملحا على صدور المؤمنين الارثوذكس ، كما يبدو انها كانت تلتئم مع رغبات الانسان وهواجسه ، الى حد انها لا بد ان تكون قد اسهمت بنصيب وافر في تقدم العقيدة المسيحية ولكن لما اكتمل صرح الكنيسة او كاد ، نحي هذا السند المؤقت جانبا فقد اخذت نظرية حكم المسيح على الارض في البداية على انها مجاز عميق ثم اعتبرت بدرجات متفاوتة رايا عقيما مشكوكا فيه ، ثم في النهاية رفضت على انها بدعة سخيفة من صنع الهرطقة والتعصب . ونجت باعجوبة من حكم الكنيسة نبوءة خفية غامضة لا تزال تشكل جزءا من الشريعة المقدسة ، ولكن كان المظنون انها تظاهر العاطفة المتفجرة وتلتئم معها .

وبينما وعد تلاميذ المسيح بالسعادة والمجد في الحكم الدنيوية ، انذر الذين لا يؤمنون بالويل والثبور وعظائم الامور . وتقوم عقيدة اورشليم الجديدة جنبا الى جنب وبنفس الخطى مع تدمير عقيدة بابل الغامضة . وطالما كان الاباطرة الذين حكموا قبل قسطنطين يصرون على الوثنية فان اسم بابل كان يطلق على مدينة رومة وامبراطوريتها . فقد اعدت سلسلة منتظمة من المصائب المادية والمعنوية التي يمكن ان تنزل بامة مزدهرة : الاضطرابات الداخلية، غارات اعنف المتبربرين من الاقاليم الشمالية المجهولة، والوباء والمجاعة ، النيازك والكسوف والخسوف . والزلازل والطوفان . وكان كل اولئك مجرد علامات ونذر اولى للكارثة العظمى التي تنزل برومة،

حين تفنى بلد آل سكيبيو والقياصرة بدخان يغشاها من السماء وتدفن مدينة التلال السبعة بقصورها ومعابدها واقواس النصر بها ، في بحيرة من نار وحمم : ومهما يكن من امر فقد يكون لغرور الرومان وكبريائهم بعض العزاء في ان فترة امبراطوريتهم هي فترة حياة العالم بعكسه تلك الحياة التي اهلكهم مرة عنصر الماء ، ثم قدر لها ان تبتلي ثانية بدمار عاجل من عنصر النار . ولحسن الحظ تلاقت امام فكرة الحريق العام عقيدة المسيحيين وعرف الشرق وفلسفة الرواقيين ومقاييس الطبيعة بل ان البلد الذي اختير لدوافع دينية ليكون المصدر والمشهد الرئيسي لهذا الحريق كان مهيأ على احسن وجه لهذا الغرض لاسباب طبيعية ومادية بغازاته السحيقة وطبقاته الكبريتية وبراكينه الكثيرة وما اتنا وفيزوف والساري الا امثلة بسيطة لها . وما كان في مقدور اهدا المتشككين واشجعهم ان يرفض الاعتراف بان تدمير النار للنظام الحالي للعالم كان في حد ذاته محتملا الى ابعد حدود الاحتمال ، وتوقع المسيحي الذي اسس ايمانه على حجج العقل المضللة اقل كثيرا من اقامته على سلطان العرف وتأويل الاسفار المنزلة ؛ توقع هذا الدمار في رهبته وثقة باعتباره حدثا اكيدا قريبا ، ولما كان عقله ممتلئا دائما بهذه الفكرة المقررة فانه اعتبر كل مصيبة تحل بالامبراطورية بمثابة علامة محققة من علامات الساعة او علامة انتهاء العالم .

ان رمي اعقل الوثنيين وافاضلهم بالجهل او عدم التصديق بالحقيقة الالهية يبدو في العصر الحاضر اساءة وامتهانا للعقل والانسانية . ولكن الكنيسة الاولى التي كان ايمانها اثبت قواما حكمت دون تردد بالعذاب الابدي على اكبر عدد من الجنس البشري وقد يكون هناك امل كريم في التسامح مع سقراط او بعض الحكماء الاقدمين الاخرين الذين استخاروا العقل قبل ظهور الانجيل ولكن تأكد بالاجماع ان اولئك الذين آصروا في عناد ، منذ ولادة المسيح او وفاته على عبادة الشياطين والجن ، لا يستحقون وليس لهم ان يتوقعوا ، العفو من الاله الذي استثير غضبه . ويبدو ان هذه المشاعر القاسية التي لم تكن معروفة في العالم القديم نفثت روحا من المرارة في نظام كان يسوده الحب والانسجام . وكثيرا ما مزق الخلاف في العقيدة الدينية روابط الدم والاخاء والصداقة ورأى المسيحيون انهم يرزحون في هذه الدنيا تحت نير الوثنيين فأضلهم احيانا حنقهم وكبرياؤهم الروحي وأغوتهم نشوة الفرح بالانتصار في المستقبل . ويقول ترتوليان (١)

(١) من اعظم اباء الكنيسة اللاتينية ١٦٠ – ٢٢٥ م. قضى معظم حياته في قرطاجة (لابة افريقية رومانية) وله كتابات باللاتينية واليونانية .

المتشدد متعجبا « انك مولع بالمشاهد ، فتوقع اعظم المشاهد في المحاكمة الازلية الاخيرة ، كم اعجب كم اضحك ، كم ابتهج كم اطرب وأتهلل حين ارى الكثير من الملوك المتكبرين والالهة الوهمية يئنون في اعمق مهاوي الظلام والكثير من الحكام الذين اضطهدوا اسم الله يذوبون في نار اشد سعيرا مما اشعلوا ضد المسيحيين والكثير من الفلاسفة الحكماء يصلون مع تلاميذهم المخدوعين نارا حامية وكثير من الشعراء المشهورين يرتعدون فرقا امام محكمة المسيح ـ لا محكمة مينوس (١) .

والكثير من الممثلين التراجيديين اكثر انسجاما في النغم تعبيرا عما يعانون والكثير من الراقصين والراقصات ، ولكن انسانية القارىء قد تستميح لي العذر في اسدال الستار على بقية هذا الوصف الجهنمي الذي يسترسل فيه هذا الافريقي في مجموعة طويلة من النكاهات المصطنعة المجردة من الشعور .

ولا ريب في انه كان من بين المسيحيين الاولين كثيرون ذوو طبع اكثر التئاما وتوافقا مع وداعة عقيدتهم وما تدعو اليه من البر والمحبة فكان هناك كثيرون ممن استشعروا الرحمة الخالصة لمصائب اصدقائهم وبني وطنهم ، واحسوا بالغيرة الخيرة لانقاذهم من الدمار المحيق بهم . اما المشرك الغافل الذي كانت تطارده الاهوال الجديدة غير المتوقعة التي لم يزوده كهنته او فلاسفته بأي عاصم منها فكثيراً ما ارهبه واخضعه التهديد بالعذاب الابدي. وربما ساعدت مخاوفه على النهوض بعقيدته وعقله ، واذا حمل نفسه يوما على الظن بان الدين المسيحي قد يكون صحيحا صادقا ربما بات من السهل اقناعه بانه يمكن ان ينضم اليه .

وفي النهاية فانه كان حال اليهود الديني في عصر الميلاد والمراحل التي تبعته انهم : كما يقول الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه : « عبقرية المسيح » يشتركون في صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل وكان كثير من الكتبة « طائفة لم تكن كبيرة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين وشاع بين الشعب اهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج الى التعليم والافتاء على وجه الخصوص وشاع بين

---

(١) تقول الاساطير اليونانية انه ملك كريت وابن زيوس ـ واصبح بعد موته احد القضاة الثلاثة في العالم السفلي .

الشعب كذلك الاقبال على العلماء غير الوراثيين او غير الرسميين لسؤالهم في المعضلات والاقتداء بهم في مسالك الحياة فاصيبت المكانة و« التقليدية » بضربــة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غـير مصحوبة بالمراســم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » . على الخصوص .

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على اشهر الروايات ، مصفاة في المجتمع المقدس الذي يطلق عليه اسم « السنهدرين » وعدة اعضائه واحـد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليهــم الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل اعضــاؤه برجال الدولــة « الرومانية » في الشؤون العامة وما يرجع منها الى تنفيذ الاحكام والمحافظة على الشريعة المحلية او الشريعة الموسوية .

وعلى حسب المألوف يحاول اصحاب المناصب في « السنهدرين » ان يرجعوا بأصله الى اقدم العهود ، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر العدد اذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع لي سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه واقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك فانزل انا واتكلم معك واخذ الروح الذي عليك واضع اليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله انت وحدك » .

★ ★ ★

غير ان المراجع التاريخية ومصادر الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر « السنهدرين » الا اشارة عابرة هنا وهناك ، لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ومما لا ريب فيه ان المجلس الذي كان في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني بنحو اربعين سنة ، وكانت احكامه الكبرى في ايام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الروماني يبرمها او ينقضها حين يشاء . ووسط هذا الجو كانت مجموعات من الذين يمثلون سيادة هذه الطوائف على اختلاف مذاهبها واتجاهاتهـــا يلتقون معا جميعا خدما ووشاة في خدمة سيادة ممثلي الدولة الرومانيــة وامرائهــا وكانت العلاقة الخاصة التي نمت وقويت بين ممثلي مظاهـــر الامتيازات الطبقية اليهودية وبين السادة الرومان قد خلقت او ساعــدت على ظهور طبقات طفيلية تعيش على الامتصاص وعلى سلب مقدرات الجماهير اليهودية في عصر السيد المسيح . وفي الفترة التي كان فيها السيد المسيح عليـــه السلام لما يزل بعد لما دخل المرحلة الحاسمة من مراحل الدعـــوة

المسيحية حين ثار على كثير من طوائف الجماعات اليهودية وسخط عليها ووجه اليها عليه السلام مر نقده ، قد ساءت العلاقة بين مجموعات الخدم والوشاة الذين ارادوا ان يجعلوا من سيادة الدولة الرومانية متكئا يثبون من عليه الى مصالحهم وامتيازاتهم وحدهم ليعمقوا علاقات التفاوت والامتياز والاستغلال بينهم وبين الجماهير اليهودية التي طالما ضللت وسخرت على يد مجموعات من المتسلطين والسادة الذين عمقوا الهوة بين الجمهور اليهودي وبين اولئك الذين أتيح لهم بالوشاية ان يكونوا سادة .

وكان من الممكن ومن المتوقع ان تنقض الدولة الناشئة الفتية في مراحل التمدد والتوسع التي وصلت بها الى ارض فلسطين على كل جماعات اسرائيل واليهود لولا ان خطر الدعوة الجديدة التي قام بها السيد المسيح عليه السلام كان يهدد بطريق غير مباشر وغير صريح صلب كيان دولة الرومان نفسها لهدم تناقضاتها وعلاقات الاستغلال والتفاوت والسيطرة التي تحكم السلوك والعلاقات بين جميع من تقوم على امرهم الدولة الرومانية ولذا كان من قادة الدولة الرومانية وسياساتها من استشعر خطر الدعوة المسيحية التي لم تعلن الحرب ضدهم صراحة وانما كان في اسلوبهم ما يؤكد ان خطر الدعوة بقدر ما هو موجه الى بيئتها وجماعتها من اجل القضاء على ما يمثلونه من امتياز وسيطرة من جماعات يهود كان موجها الى الرومان انفسهم ولذا فانه قد دخل اليهود في علاقاتهم بالرومان مرحلة جديدة غير انها كانت مرحلية ولم تكن اكثر من تعاون مؤقت اقرب ما يكون الى العمل المشترك من اجل التخلص من عدو واحد اكثر منها علاقة ولاء وامن او مصلحة اصيلة تعبر عن ارتباط كل من الطرفين بها .

وفي فلسطين العربية كانت مرحلة جديدة وعجيبة حين اصبح السيد المسيح عليه السلام كواحد من بني اسرائيل يأمل ان يؤدي دوره في اخر مرحلة من تاريخ القوم تقدم فيها الهداية الالهية عملها في خدمة الحياة والناس من اجل غدهم وحياتهم ، الا ان القوم من بني اسرائيل واليهود جميعا حين اصبح بينهم السيد المسيح عليه السلام يؤدي دوره العظيم قد جرت من الحوادث على أيدي الجماعات اليهودية ضد السيد المسيح ما يستحق الوقوف عنده وافراد مبحث خاص له ننظر فيه العلاقة العقائدية والتاريخية بين القوم ومن يمثل قيم الدين الموجه اليهم وتعاليمه وننظر من خلاله الى الدور العظيم الذي قام به السيد المسيح عليه السلام في مجتمع اسرائيل لنعرف كم قاوم الطبع الملتوي والخلق النهاز عند القوم كل محاولات الترقي

والتطهر وكل دعوة الى الحب والضمير وكل دعوة الى قضايا العدل والمساواة والنقاء والصفاء والسلام لتظل مواهب القوم في العقل الملتوي والاساليب المستغلة لمقدرات الحياة ونعرة السيطرة والارتباط بعلاقات التفاوت والامتياز قائمة في قلب كل الفرق والطوائف باعتبار هذه المعاني العنصرية الميراث الديني والتاريخي الذي يقاوم به ابناء اسرائيل منذ تاريخهم الطويل كل دعوة للحق وكل محاولة للطهر او احياء الضمير حتى تظل الارض امامهم ميدانا لممارسة اطماعهم واعمال مشاعر التعصب وتبرير دعوى الامتياز والسيطرة المرتبطة دائما وأبدا بتاريخهم وقيمهم بعد أن البسوها حقيقة فارغة من تعاليم دين وسلوك ادب يرتبط بقيم مدعاة ومعتقدات واهمة على المدى الطويل .

الباب السادس

- الغرب الحديث واليهود .
- الكتاب المقدس والفكر الاوروبي المعاصر .
- حدود ارض الميعاد .
- هل كان الوعد نهائيا .
- ظهور المسيحية في مجتمع اسرائيل .
- المستوى الديني في عصر السيد المسيح .
- القضايا الدينية على يد السيد المسيح .
- المطاردات اليهودية ضد السيد المسيح .
- السيد المسيح والمؤامرة اليهودية .
- اليهود يقبضون على السيد المسيح .
- الاقرار بالخطيئة اليهودية .
- حادث الصلب حقيقة دينية مسيحية .
- وعملية الصلب في المعتقد المسيحي .

الغرب الحديث واليهود

مهما يكن من الحكم النهائي للبشرية على الحضارة الغربية في فصلها الحديث من تاريخها ، فواضح ان الرجل الغربي قد وهم نفسه باقتراف جريمتين لن يمحى عارهما :

الاولى : شحن العبيد الزنوج من افريقيا للعمل في مزارع العالم الجديد .

الثانية : استئصال اليهود المنتشرين في مواطنهم الاوروبية .

وان التلاقي المفجع بين اليهودية والعالم الغربي ، جاء نتيجة تفاعل بين خطيئة ازلية ، وملابسات اجتماعية من نوع خاص . وسنكرس جهدنا لايضاح هذه النقط الاخيرة .

كانت اليهودية في الشكل الذي اصطدمت به مع المسيحية الغربية ، ظاهرة اجتماعية شاذة ، بحسبانها فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت في كل مظاهرها ، فلقد كانت دولة يهوداً الاقليمية السريانية ــ وعنها انبثقت اليهوية ــ واحدة من الطوائف : العبرانية ، الفينيقية ، الارامية ، الفلسطينية ، ولكن بينما فقدت الطوائف الاخرى شقيقات طائفة يهوداً كهانها ــ كما فقدت كذلك صفتها كدولة ــ بفعل المصائب القاتلة التي توالت على المجتمع السوري نتيجة للمصادمات المتعاقبة مع جاريه البابلي والهليني ، فان هذا التحدي نفسه الذي واجهه اليهود ، قد استثارهم قادعوا لانفسهم طرازا طريفا من الكيان الطائفي . وفي داخل نطاق هذا الطراز الجديد استعاضوا عن فقدان دولتهم وبلادهم ، بالاحتفاظ بذاتيتهم ــ في صورة تشتت ــ بين ظهراني دول اجنبية ، وفي ظل حكم اجنبي .

وليس رد الفعل اليهودي الموفق هذا ، بالشيء الفريد في نوعه . فان التشتت اليهودي في ارجاء العالمين الاسلامي والمسيحي، ما يماثله في تشتت طائفة « البارسي » في انحاء الهند . وهذه الطائفة ، هي كذلك بقية متحجرة من بقايا المجتمع السوري نفسه .

والبارسيون هم بقايا من تحولوا الى الحضارة السورية ، التي منحت المجتمع السوري دولته العالمية في شكل امبراطورية .

ان طائفة البارسيين ــ كاليهود ــ رمز حي لارادة الحياة ، بعد ان فقدت الدولة والوطن وهذه الخسارة للدولة والوطن جاءت مثلما حدث لليهود ــ نتيجة مصادمات متتالية بين العالم السوري والمجتمعات المجاورة له ، وكما بذل اليهود من تضحيات خلال القرون الثلاث المنتهية في ١٣٥ ميلادية أضحى الآباء الاولون البارسيين من اتباع زرادشت بأنفسهم في محاولة فاشلة للتخلص من تأثير دخيل للحضارة الهلينية. وكما دفع اليهود الثمن الذي اقتضته منهم الامبراطورية الرومانية جزاء فشلهم ، كذلك دفع الايرانيون من اشياع زرادشت جزاء فشلهم ، الثمن الذي اقتضاه منهم الفاتحون العرب المسلمون في القرن السابع الميلادي .

وحافظ اليهود والبارسيون في ابان هاتين الازمتين المتماثلتين من تاريخيهما كل على ذاتيته ، بفضل استنباط نظم جديدة ، والتخصص في مجالات جديدة من العمل ، ولقد وجد كل منهما في احكام شريعته الدينية ، وشيجة اجتماعية تربط بين أفراد الطائفة ، ونجوا من عواقب الكارثة الاقتصادية التي انزلها بهم ، انتزاعهم من ارض آبائهم . وذلك بتنميتهم ــ وهم في المنفى ــ مهارة خاصة في شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضارية ، فاستعاضوا بها عن الفلاحة التي لم يعد يتيسر لهؤلاء المنفيين المجردين من الارض ، ممارستها .

ولم يكن هؤلاء المشردون من اليهود والبارسيين وحدهم ، هم البقايا المتحجرة التي خلفها وراءه المجتمع السوري البائد . اذ اخرجت البدع الدينية المسيحية وقيام الاسلام ، اخرجت قبابا متحجرة في شكل الكنيستين « النسطورية » و « المنوفليستية » .

كما ان المجتمع السوري لم يكن وحده المجتمع الذي وفقت الطوائف المنبثقة عنه في ان تعيش بفضل الجمع بين التنظيم الروحاني والعمل

التجاري ، بعد ان فقدت دولتها واخرجت من ديارها . فان الطائفةاليونانية المسيحية الارثوذكسية التي خضعت لنظام عثماني غريب ، واخرجت من ديارها ـ الى حد ما ـ قد استجابت لتحدي هذا النظام باحداثها تغييرات في تنظيماتها الاجتماعية ومناحي نشاطها الاقتصادي الامر الذي سار بهـا شوطا بعيدا في مصر « التشتت » من نفس النوع الذي سبق ذكره .

وحقا ، كانت الطوائف الدينية في الامبراطورية العثمانية ، مجرد صيغة اخرى للبنـاء الطائفي في المجتمع . ذلك البناء الذي نما تلقائيا في العالـم السوري بعد ان سحقت الدولة السورية ، واختلطت الشعوب السوريـة اختلاطا معقدا بفعل عدوان العسكرية الاشورية ، واسفر ذلك عن اعـادة وصل ما انقطع من اجزاء المجتمع في شكل شبكة من الطوائف المختلطـة جغرافيا ، عوضا عن التنظيم السابق لهذا المجتمع في شكل رقعة من الدول الاقليمية المعزولة جغرافيا ، وورث هذا الاسلوب في اعادة تشكيل المجتمـع عن المجتمع السريائي (السوري) خلفاؤه المسلمون من العرب والايرانيين. ثم فرض فيما بعد بناة الامبراطورية العثمانيين ـ اتباعالحضارةالايرانية ـ على الشعوب المسيحية الارثوذكسية التي خضعت لحكمهم .

وعلى هدى هذه النظرة التاريخية الشاملة ، يتضح لنا ان التشتـت اليهودي كان في تلاقيه بالمسيحية الغربية ، ابعد من ان يكونظاهرة اجتماعية فريدة في نوعها . بل كان على العكس « عينة » لنموذج من طائفة ، عـدا الطراز المالوف في ارجاء العالم الاسلامي الذي تشتت اليهود فيه ، وفـي العالم المسيحي الغربي .

لهذا قد يتساءل المرء بحق ، عما اذا كان الوضع الاجتماعي الخـاص الذي ، اسفر عنه التلاقي المفجع بين اليهودية والمسيحيـة لا يرجع الـى خصائص معينة في جانب المسيحية الغربية ، لا تقل عما يوجد منها في الجانب اليهودي ـ وفي وسعنا ـ اذ نطرح هذا السؤال ـ ان نستبين ان التاريـخ الغربي قد تميز ـ بحق ـ بثلاثة اعتبارات تتصل جميعها بتاريخ العلاقـات اليهودية الغربية :

أولا : ان المجتمع الغربي قد نظم نفسه في شكل رقعة من الـدول الاقليمية المنعزلة احداها عن الاخرى جغرافيا .

ثانيا : ان ذلك قد طور نفسه تدريجيا من مجتمع تفرق في اقتصاده

الزراعي ، يتكون من فلاحين وملاك ارض ، الى مجتمع تفرق : نزعتـــه الحضرية قوامه الصناع والبورجوازية .

ثالثا : هذا المجتمع الغربي في شكله الاخير القائم على الفكرة القومية وعقليـة الطبقـة الوسطى ، انبعث مـن بين طيات الظـلام الذي ران عليه ابان القرون الوسطى ، ثم مضى سريعا ليبسط ظله على سائر الدنيا .

ويفصح تاريخ تشتت اليهود في شبه جزيرة ايبيريا ، عن الارتبـاط الكائن بين النزعة المعادية للسامية ، وبين المثل الاعلى للمسيحية الغربيـة وقوامه : تجانس الجماعة التي تنتظم جميع السكان في اقليم معين .

فما ان التأمت الهوة بين طائفتي الرومان والقوط الغربيين ــ بفضل تحول القوط الغربيين عام ٥٨٧ م من المسيحية الارية الى المسيحية الكاثوليكية حتى بدأ في بلاد القوط الغربيين توتر بين الجماعة المسيحية الموحدة والطائفة اليهودية التي زاد تبعا لذلك شعورها بذاتيتها وتسجل تزايد حدة التوتر سلسلة من التشريعات المناهضة لليهود تناهض تماما التشريع الانساني الذي صدر في نفس الوقت عن القوط الغربيين لحماية العبيد من استبـــداد سادتهم . على ان هذه التشريعات السامي منها والمنحط على السواء دليل على تفرد الكنيسة على الدولة .

وفي تلك الظروف تآمر في نهاية الامر يهود شبه جزيرة ايبيريا مـــع اخوانهم في الدين في شمال افريقيا ليحصلوا على تدخل العرب المسلمـين لصالحهم ولعل العرب كانوا يعتزمون بلا شك القدوم بصرف النظر عن اغراء اليهود لهم وعلى اية حال وفد العرب وتلا هذا قيام نظام اسلامي في شبـــه الجزيرة لبث خمسمائة عام (٧١١ م ــ ١٢١٢) وفي الحكم الاسلامي لم تعر الطائفة اليهودية وقد اصبحت تستمتع بالحكم الذاتي قوما لهم طابع خاص .

حقا ان الاثر الاجتماعي للفتح العربي لشبه الجزيرة الايبرية هو شعور الطائفة اليهودية بأنها آبت الى وطنها هذا التأثير الاجتماعي ماثل في اعادة تشييد المجتمع افقيا وهو ما جلبه العرب الفاتحون معهم من عالمهم السوري لكن لم يستمر هناء الطائفة اليهودية في شبه الجزيرة بعد انهيار الحكـــم الاسلامي فان برابرة القرون الوسطى من المسيحيين الكاثوليك الذين غزوا املاك الخلافة الاموية الاندلسية قد نذروا انفسهم لتحقيق المثل الاعلـــى

للجماعة المسيحية المتجانسة فكان ان اضطر اليهود في الفترة الواقعة بين عامي ١٣٩١ و ١٤٩٧ الى الحروج الى النفي او الاعتراف باعتناق المسيحية.

وهذا المثل الاعلى للجماعة المسيحية المتجانسة الذي كان الواقع السياسي لضيق المسيحية الغربية ذرعا بوجود الاغراب اليهود بين ظهرانيها عززته تطورات اقتصادية واجتماعية على مر الايام .

فما الموطن الذي نشأ فيه المجتمع الغربي الا بقية قصية من العالم الهليني اخفقت فيه الثقافة الحضرية الهلينية في تأصيل جذورها والحياة الحضرية الظاهرة على سطح المجتمع والتي اقيمت على اسس زراعية بدائية قد ظهر انها عامل معوق بدلا من ان تكون عامل دفع واستثارة فما ان تقوض تحت ثقل نفسه هذا البناء السطحي الغريب الذي شيده الرومان حتى عاد الغرب فارتد الى نفس المستوى الاقتصادي الواطىء الذي كان عليه فلم تسع الحضارة الهلينية الى غرس بذورها وراء جبال الابنين او عبر البحر التيراني وترتبت بالذات على هذا التأخر الاقتصادي نتيجتان :

الاولى : انتشار اليهود المشتتين في ارجاء العالم المسيحي الغربي اذ عثر اليهود على ثغرة في الغرب نفذوا منها الى العمل لتدبير معاشهم وذلك بتزويد المجتمع الغربي بأدنى حد من الخبرة التجارية والتنظيم وما كان في وسع اي بلد زراعي ان يعيش بدون هذا الحد من الخبرة التجارية والتنظيم بل لم يكن هذا البلد ليستطيع في ظروفه وقتذاك القيام به بموارده الخاصة .

المرحلة الثانية : وطمح خلالها المسيحيون في المجتمع الغربي الى ان يحلوا محل اليهود عن طريق اتقانهم الفنون اليهودية المربحة .

وعلى مر الاجيال بذل المسيحيون في الغرب جهودا جبارة في هذا الميدان الاقتصادي الذي كان احتكارا لليهود اجرت عليهم في النهاية ارباحا مثيرة فلم يحل القرن العشرون للميلاد حتى كانت المؤخرة الشرقية من طابور الشعوب الغربية في زحفها الطويل نحو هدفها الذي تتطلع اليه وهو بلوغ الكفاية الاقتصادية تمر في عملية تحول حققتها قبلها بألف عام شعوب شمال ايطاليا والفلمنك وقد كانوا الرواد الاول لحركة يمكن ان تطلق عليها دون ان نجاوز الحقيقة في كلا الحالين : التنصر او التهود .

وكان ظهور طبقة من المسيحية اهل لانجاز جميع الاعمال التي تخصص فيها اليهود ثم تطلعهم بالتالي الى طرد اليهودي عاملا في التاريخ الغربي تدل على بلوغ هذه المرحلة الاجتماعية من التقدم العصري .

ولقد مر الصراع الاقتصادي بين اليهود والمسيحيين في الغرب في ثلاثة فصول :

ففي الفصل الاول ـ كان اليهود موضع الكراهية ، بقدر ما كانوا طائفة لا غنى للمجتمع عنها ، يبدو ان سوء المعاملة التي كانوا يلقونها ، كان يحد منها عجز مضطهديهم من المسيحيين عن تدبير شئونهم اقتصاديا ، دون اليهود .

واستهل الفصل الثاني في البلاد الغربية ـ الواحد تلو الاخر بمجرد ان استحوذت البورجوازية المسيحية الناشئة على قدر كاف لنفسها من الخبرة والمهارة وراس المال ، شعور القدرة على انتزاع المكانة التي يحتلها اليهود المحليون وعند هذه المرحلة استخدمت البورجوازية المسيحية قوتها التي تاثرت بها ـ حديثا ـ لتؤمن طرد منافسيها اليهود . وهذه المرحلة بلغتها انجلترا في القرن الثالث عشر الميلادي واسبانيا في الخامس عشر وبولندا والمجر في القرن العشرين .

وفي الفصل الثالث ـ كانت البورجوازية المسيحية قد وطدت مكانتها وتمكنت تماما من الفنون الاقتصادية لدى اليهود . الى درجة ، ولم يعد خوفها التقليدي من عواقب الاستسلام للمنافسةاليهودية ، يمنعهامن الافادة من المقدرة الاقتصادية عند اليهود لخدمة الاقتصاد القومي المسيحي ، وبهذه الروح ، اجازت حكومة توسكانا عام ١٥٩٣ وما بعده للاجئين اليهود الوافدين من اسبانيا والبرتغال ، الاستقرار في الجمهورية . وكانت هولندا منذ عام ١٥٧٩ قد فتحت ابوابها لهم . اما انجلترا التي احست في نفسها القوة الكامنة لطرد اليهود منها عام ١٢٩٠ عادت فشعرت بثقل هذه القوة لتجيز لهم العودة اليها منذ عام ١٦٥٥ .

وسرعان ما تلا هذا التحرر الاقتصادي لليهود في العصر الحديث من تاريخ الغرب تحررهم اجتماعيا وسياسيا نتيجة الثورات الدينية والايديولوجية المعاصرة في العالم المسيحي الغربي . فان الاصلاح البروتستنتي قد حطم جبهة الكنيسة الكاثوليكية الموحدة ، والمعادية لليهودية ومصداقا

لهذا ، نجد انجلترا وهولندا في ابان القرن السابع عشر ترحبان باللاجئين من اليهود باعتبارهم ضحايا الكاثوليكية الرومانية عدوة هذين البلدين البروتستانتيين وترتب على هذا ان شارك اليهود ــ بصفة عامة ــ ثمرات روح التسامح المطرد في النمو في البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وما ان حل عام ١٩١٤ حتى كان تحرر اليهود ــ سيما في جميع مجالات النشاط البشري ــ حقيقة مقررة منذ امد طويل في جميع بقاع العالم الغربي الحديث باستثناء تلك الاراضي التي كانت تكون فيما مضى المملكة المتحدة لبولندا وليتوانيا والتي ضمت اخيرا الى الامبراطورية الروسية .

ولقد قر في الاذهان عن هذه المرحلة كما لو ان المشكلة اليهودية قد وجدت حلا يقوم على امتزاج الجماعتين المسيحية واليهودية ــ احداهما بالاخرى ــ عن طريق اتحاد قائم على حرية الاختيار من كلا الفريقين . لكن ما لبث ان دخلت في فصل رابع اشد هولا من اي شيء سبقه ، فما الذي قاد الى هذا المصير ؟

لقد نكأ الجرح القديم ، ذلك الحاجز السيكولوجي الذي ما برح قائما بين المسيحيين من اهل الغرب واليهود . وحتى بعد ان ازيلت ــ رسميا ــ الفوارق القانونية بينهما ، كان لا يزال ثمة (فيتو) استمر المسيحيون يحاصرون اليهود داخل نطاقه . كما تابع اليهود ــ من ناحيتهم ــ عزل انفسهم عن المجتمع المسيحي الغربي .

اليهودي وهو يعيش في مجتمع موحد من الوجهة الرسمية ــ يجد نفسه ــ شخصا منبوذا بمختلف الاساليب الملتوية . بينما الفى الانسان المسيحي نفسه ما يزال يجابه تضامنا وثيقا ــ ماسونية ــ يربط اليهود بعضهم ببعض . كما يواجه طموحا يهوديا الى المطالبة بالمزايا التي يسبغها المجتمع الموحد على جميع افراده ، بما في ذلك اليهود . لكن اليهود ــ من جانبهم ــ ما كانوا على استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا . فكان ان واصل الفريقان كلاهما اتباع مقياس السلوك مزدوج: فكان ثمة سلوك يتبع لتعامل المرء مع افراد طائفته ، وسلوك اخر اقل مستوى يتعامل به مع بقية مواطنيه ــ بالاسم ــ الساكنين في الجانب الاخر وراء الحاجز الاجتماعي . الذي كان مفروضا انه لم يعد قائما وان هذا الرداء الجديد من النفاق ، الذي تحفظ في طياته رذيلة الجور القديم ، عمق شعور الازدراء والاستهانة

لذي يشعر به كل فريق ازاء الآخر . ومن ثم جعل الموقف بينهما اشد توترا واقل احتمالا .

واظهر تجدد النزعة المناهضة للسامية . دقة العلاقات بين الطائفتين حينما كثرت نسبة اليهود العددية الى مجموع السكان من العنصر المسيحي . فبدا هذا الاتجاه واضحا للعيان عام ١٩١٤ في لندن ونيويورك، نتيجة للهجرة اليهودية التي تدفقت منذ عام ١٨٨١ من الاراضي البولندية والقوائين السابقة ، التي ضمت الى الامبراطورية الروسية هجرت تحت ضغط الاضطهاد الروسي . واشتدت هذه النزعة ضراوة في النمسا الالمانية وفي الريخ الالماني نتيجة لهجرة يهودية اخرى ، وفدت اليهما خلال الحرب العالمية الاولى من غاليسيا وبولندا والمقاطعات الشرقية لما سمي بـ « الحظيرة الروسية » ولم تكن هذه النزعة المناهضة للسامية في المانيا اضعف العوامل التي حملت الاشتراكيين الوطنيين الالمان الى تقلد زمام الحكم . ولا لزوم هنا لتفصيل ما تلا ذلك من استئصال اليهود ، على ايدي الاشتراكيين الوطنيين الالمان . اذ تبلغ الوقائع من قبح الذكر ، ما تبلغه من الهول ، وتقيم للاثم معرضا على مستوى قوي لعل التاريخ لا يجد له حتى الان نظيرا .

وهاجمت الروح القومية الغربية الحديثة فكرة انتشار اليهود في العالم الغربي على جبهتين في وقت واحد .

فان الروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية وضغطها في الوقت نفسه من ناحية اخرى ، قد دفعت اليهود الغربيين الى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم . ويمكن وصفها بانها شكل جماعي للاقتباس من الغرب ، اذا قورن بالشكل الفردي من هذا الاقتباس الذي يقترن — عند اليهود — بعصر الليبرالية الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر .

واذا كان المثل الاعلى في التأثر بالغرب هو تحويل الفرد اليهودي الى بورجوازي غربي يدين باليهودية ، فان المثل الاعلى البديل له يهدف الى تركيز اليهود المشتتين — او جانب منهم — في دولة قومية خاصة بهم لا تنتظم الا سكانا متجانسين من اليهود . هذان الاتجاهان دليلان على ان تحرير اليهود كان من الصدق بحيث مكنهم من الاستجابة للافكار الغربية الشائعة .

وكذلك كانت الصهيونية ، في الوقت نفسه — بشهادة مؤسسها تيودور

هرتزل ـ قرينة على قلق اليهود من اغلاق الطريق الـذي يؤدي الـى استيعابهم ، كأفراد في المجتمعات الاخرى ، بتأثير العصبية القومية بين المسيحيين الغربيين . تلك العصبية التي في أعقاب النزعة الليبرالية . وقد لا يكـون من قبيل المصادفة ـ والحالة هذه ـ ان تنبعث على التتابـع : الصهيونية اليهودية ، والنزعة الجديدة المناهضة للسامية ، في نفس المنطقة الجغرافية ، وهي الاراضي التي يتحدث اهلها الالمانية من الامبراطوريـة النمسوية ، قبل تفككها عام ١٩١٨ .

ومن بين جميع سخريات التاريخ الكنيسة ، لا يلقى أي منها ضياء نافذا على الطبيعة البشرية ، مثلما تلقيه تلك الحقيقة الساخرة . وهي أن غداة أفظع ألوان الاضطهاد المتعددة التي حلت بالشعب اليهودي في تاريخه، نجد اليهود أصحاب النموذج القومي الجديد ـ وهي الصهيونية ـ يقيمون على انفسهم الحجة بان الدرس الذي تعلمه الصهاينة من الفظائع التي قام بها النازي ضد اليهود ، لم يدفعهم الى تكسب ارتكاب نفس الجريمة التـي كانوا هم ضحاياها . بل راحوا يضطهدون شعبا اضعف منهـم ، وهـم الفلسطينيون العرب ، الذين كانت كل جريمتهم لدى اليهود ، أن فلسطين كانت وطن اجدادهم . واذا كان اليهود الاسرائيليون لم يقتفوا آثار النازيين الى درجة ابادة العرب في معسكرات الاعتقال وحجرات الغـاز ، فانهـم شردوا غالبيتهم ـ وقد جاوزوا نصف المليون ـ بطردهم من الاراضي التي شغلوها وزرعوها اجيالا هم وآباؤهم من قبل والاستيلاء على المتاع الـذي عجزوا عن حمله اثناء فرارهم . ومن ثم اصبح العرب في حالـة العدم ، وغدوا « قوما لاجئين » .

واثبتت هذه التجربة الصهيونية فيما اثبتت من نتائج ، نقطة وردت في مكان سابق من هذه الدراسة . الا وهي ان الخصائص من اليهودية التي طالما الصقها المسيحيون منذ امد طويل باليهود المقيمين بين ظهرانيهم ، هي حصيلة الملابسات الخاصة التي صاحبت تشتت اليهود في انحـاء العالـم الغربي ولا ترجع ـ اي الخصائص اليهوديـة ـ الى خلة عنصرية خاصـة موروثة ان تناقض الصهيونية ، انها اذ تبذل جهدها الشيطاني لتشييد صرح جماعة يهودية لحما ودما ، ما برحت تعمل بنفس القدر من النشاط لانخراط اليهود في عالم غربي ـ مثلما داب الفرد اليهودي على التطلع الى ان يصبـح برجوازيا غربيا يهودي العقيدة ، او برجوازيا لا ادريا .

ان اليهودية في تاريخها عبارة عن تشتت . وان الطبع اليهودي والنظم اليهودية من ولاء مغرق في الحذر لشريعة موسى، والتزام تام لقواعد واحكام التعامل التجاري والمالي. كانت من الاعمال التي حصل منها التشتت اليهودي على مر العصور طلاسم اجتماعية ، منحت هذه الطائفة المتفرقة جغرافيا قدرة

سحرية على البقاء ولكن يهودا محدثين اصطبغوا بالصبغة الغربية ، سواء انتموا الى المدرسة الليبرالية او الى الصهيونيـة خرجوا على هذا الماضي التاريخي وكان خروج الصهيونية عليه اشد عنفا لما فعله اليهود مريدو الليبرالية فان الصهيونية بنبذها التشتت اليهودي جملة لتقيم امة جديدة مستقرة على ظهر الارض على غرار ما فعله الرواد البروتستانت المحدثون من المسيحيين الغربيين الذين اقاموا الولايات المتحدة الامريكية واتحاد جنوب افريقيا واستراليا ونيوزيلاندا ، اجل ان الصهيونيين بفعلتهم هذه كانوا يدمجون انفسهم في الوسط الذي يطلقون عليه (الاممي) واذا كانوا يقولون بتلقيهم الوحي من اسفارهم فان هذا الوحي ليس هو الوحي الذي تلقوه على شريعة موسى ولا هو وحي الانبياء ، لكنه وحي تلقوه من القصص الواردة في سفري الخروج ويشوع وبهذه الروح اتجهوا في تحد وحماسة الى احالة انفسهم على عمال يدويين عوضا عن عمال ذهنيين الى قوم ريفيين عوضا عن سكان المدن ، الى منتجين عوضا عن وسطاء ، الى زراع عوضا عن صيارفة واظهر اليهود في ادوارهم الجديدة مقاومة للضغط وصلابة مذهلتين ، مثلما اظهروه في ادوارهم القديمة ، لكن ما تخبئه الايام للاسرائيليين رهن بما سيظهره المستقبل . اذ يبدو ان الشعوب العربية المحيطة بهم مصممة على طـرد الدخلاء ، من بين ظهرانيها .

وهذه الشعوب العربية يفوق عددها عدد الاسرائيليين بكثير .

وفوق هذا فقد اصبحت جميع المسائل عالمية الطابع فالى اي جانب يجد كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مصالحة في الشرق الاوسط حين يجد الجد .

هذه هي المسالة .

فمن ناحية الاتحاد السوفياتي ، يصعب التنبؤ .

واما فيما يتصل بالولايات المتحدة ، فما برح العامل المحدد لسياستها الفلسطينية كامنا حتى اليوم ، في التفاوت الكبير في عدد وثراء ونفـوذ كل من العنصرين اليهودي والعربي في مجموعة سكان تلك البلاد . اذ يبدو الامريكيون العرب — ان قورنوا باليهود الامريكيين — كما مهملا ، حتى وان اخذ في الحسبان اولئك العرب اللبنانيون ذوو الاصل المسيحي .

اما الجانب اليهودي من كتلة المواطنين الامريكيين ، فانه يمارس سلطانا سياسيا لا يتناسب اطلاقا مع عدد افراده . وذلك لان اليهود الامريكيين يتركزون بمدينة نيويورك . وهذا امر له وزن في معترك المنافسة على كسب الاصوات في السياسة الامريكية المحلية في دولة رئيسية . على ان تقديرات الساسة من المسيحيين الامريكيين المستهترين، لاصوات اليهود في الانتخابات ليست هي — كما يتجه اليه اعتقاد بعض المراقبين الذين لا يقلون من هؤلاء

الساسة حمقا ــ التفسير الكامل للتأييد الساحق الذي بذلته حكومة الولايات المتحدة لاسرائيل خلال السنوات الحرجة التي أعقبت مباشرةانتهاء الحرب العالمية الثانية . اذ لم تكن هذه السياسة انعكاسا لمجرد تقديرات جافة لاعتبارات داخلية ، وانما كانت ايضا انعكاسا لشعور الرأي العام في امريكا بلامبالاة ، ومثالية ، وتشويه معلوماته .

لقد الفى الامريكيون انفسهم قادرين على التدخل في المصائب التي انزلها النازي في اوروبا باليهود. لان يهودا آخرين كانوا يمثلون نماذج بشرية مألوفة في حياتهم اليومية . اما العرب ، فليسوا منتشرين في الحياة الامريكية يذكرون الامريكيين بنكبات عرب فلسطين .

« ان الغائبين دائما مخطئون » .

« الكتاب المقدس والفكر الاوروبي المعاصر »

رغم الادعاءات الصهيونية في انها تقوم ايديولوجيا على اساس استحضار التراث اليهودي من خلال انبعاث الشعب اليهودي على ضوء معطيات عقيدته الدينية ، فان الاباطيل الصهيونية كحركة عنصرية تنزع الى التعالي عن طريق العدوان ، لم تجد استجابة كاملة من الفكر الاوروبي رغم امكانيات تجنيد بعضه بالتضليل تارة وبالتشيع تارة اخرى .

وما ورد بالكتاب المقدس بخصوص دولة صهيونية لليهود في فلسطين ادعاء مكذوب في قداسة التراث الديني القديم فضلا عن عدم استقامته على الأطلاق في التوراة . ومن المفكرين الاوروبيين الذين فهموا من « الكتاب المقدس وما يتعلق بفلسطين بخصوص وعد الهي لليهود في فلسطين يقول « الفرد جيوم » (١) : يبدو للقارىء السطحي ان وعدا الهيا مر عليه ما يقرب من اربعة الاف عام باعطاء ارض لشعب معين ــ ثم تكرر هذا الوعد مرارا ــ يجعل من هذا الشعب مالكا لتلك الارض بمقتضى الحق الالهي . واذا كان هذا هو سند اليهود في مطالبتهم بفلسطين فلا بد من فحصه بعناية . ومن ثم فاني اقترح فحص بعض النصوص المألوفة لليهود الذين يمارسون دينهم والتي كانت عميقة الاثر في بعض الهيئات المسيحية ، خاصة في امريكا .

والنقاط ذات الاهمية هي :

١ ــ لمن كانت الوعود ؟

٢ ــ ما حدود الارض الموعودة ؟

---

(١) انظر : اسرائيل في الكتاب المقدس : الكتاب الذي ترجمه الاستاذ حسني خشبة الصادر عن معهد الدراسات العربية ، صفحات : ٢٧ ــ ٣٤ .

٣ ــ هل كان الوعد نهائيا ام كان مشروطا ؟
لمن كانت الوعود ؟

جاء اول وعد صريح باعطاء فلسطين لنسل ابراهيم في شكيم (نابلس حاليا) في سفر التكوين (١٢ : ٧) لنسلك اعطى هذه الارض حين كان ابراهيم يقف على تلة على مقربة من بيت ايل (تك ١٣ : ١٥) قيل له « جميع الارض التي انت ترى لك اعطيها ولنسلك الى الابد » والاصحاح ١٥ : ١٨ اكثر وضوحا : « لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر (١) الى النهر الكبير نهر الفرات » . ثم تكررت الوعود لاسحق ويعقوب في ٢٨ : ١٣ « الارض التي انت مضطجع عليها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الارض وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الارض » . وحينما عقد ابراهيم عهدا مع الرب باختتانه (١٧ : ٨) وعدت له جميع ارض كنعان « ملكا ابديا » . وهناك فقرات اخرى يمكن اقتباسها ، ولكن ما اوردناه كاف للدلالة ، وغيرها لا تضيف شيئا يخص موضوعنا .

من المفترض عموما ان هذه الوعود اعطيت لليهود ، واليهود فقط ، غير ان ذلك ليس ما يقول به الكتاب المقدس . ان كلمة « لنسلك » تشمل بالضرورة العرب مسلمين ومسيحيين ولهم حق الدعوى بانهم من نسل ابراهيم بواسطة ابنه اسماعيل . (ولا يعنينا هنا العرف الاسلامي القائل ان ابراهيم كان مرة في مكة وترك اسماعيل هناك) . والمشهور ان اسماعيل اب عدد من القبائل العربية ، ويسجل سفر التكوين ان ابراهيم اصبح ابا للعديد من قبائل شمال الجزيرة العربية عن طريق جاريته قطورا . ولا يمكننا القول بأن كلمات سفر التكوين (٢١ : ١٠ ــ ١٢) تلغي بالضرورة تلك الوعود التي قطعت لنسل ابراهيم كلية : « فقالت (سارة) لابراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لان ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق فقبح الكلام جدا في عيني ابراهيم لسبب ابنه . فقال الله لابراهيم لا يقبح في عينيك من اجل الغلام من اجل جاريتك . في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لانه باسحق يدعى لك نسل وابن الجارية ايضا ساجعله امة لانه نسلك » . حقيقة انه منذ ذلك الوقت فصاعدا اصبح الاعتقاد لدى خلف اسحق ان « نسل ابراهيم » هم الاسرائيليون ولكن الامر لم يكن كذلك منذ البداية . وذرية اسماعيل ايضا لهم كل الحق لان يعدوا ويسموا انفسهم نسل ابراهيم .

---

(١) المقصود بنهر مصر نهر العريش لا نهر النيل كما شاع خطا . انظر قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست ـ بيروت ١٨٩٤ ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

وعلاوة على ذلك حينما قطع عهد الختان مع ابراهيم (تك ١٧) ووعد ارض كنعان « ملكا » ابديا ، كان اسماعيل هو الذي ختن ، ولم يكن اسحق قد ولد بعد .

ومن واقع هذه الدراسة الموجزه للوعد الالهي الذي قطع لنسل ابراهيم نرى ان الوعد الاول اشتمل بالضرورة على نسل اسماعيل وان كان بعد ذلك في زمن اسحق ويعقوب ضاق نطاق الوعد فقطع لنسلهما ، الا ان ذلك لم يكن بشكل يستبعد في صراحة اخوانهم العرب .

والمعروف جيدا ان الكثير من العرب صحبوا موسى ويشوع الى فلسطين حين كانت البلاد محتلة جزئيا . ويرجع الكثير من نجاح موسى الى عطف جيثر والمديني وكرم ضيافته وقد كان عربيا وحما لموسى .

حدود ارض الميعاد :

والسؤال الثاني بشأن حدود ارض الميعاد ، من الصعب القطع فيه براي فالمقتطفات التي اقتبستها في معرض الحديث عن النقطة الاولى تبدا باشارة غامضة الى « هذه الارض » من نقطة البدء في شكيم (نابلس) ثم تستطرد لتشمل كل المنطقة من « نهر مصر » الى الفرات . والفقرة الثالثة تحدثنا عن نسل ابراهيم ينتشر في كافة الاتجاهات الاربعة . وهنا يهمنا كذلك أن الوعد باقليم يمتد من النيل الى الفرات كان سابقا لميلاد اسماعيل، وكان سابقا لميلاد اسحق ، الامر الذي لا يجعل من هذا الاقليم بالضرورة والشمول اسرائيليا وباستثناء تلك الفترة الوجيزة التي اعترف فيها بسلطة سليمان على هذه المنطقة (الملوك الاول ٤ : ٢١) فقد كانت المنطقة دائما في حوزة العرب .

واذا نظرنا مرة اخرى في سفر التكوين (١٣ : ١٥) سيتضح ان شرق الاردن كانت مشمولة في الوعد لابراهيم لان شرق الاردن يرى بوضوح من تل ابل : ولكن هذا الوعد ايضا يسبق ميلاد اسماعيل واسحق . ومن ثم لا يمكن اعتباره اساسا قاطعا لمطالبة الاسرائيليين بالاقليم عبر الاردن .

وفي سفر التثنية قال موسى للشعب ان الرب آمرهم بالذهاب واحتلال الاقليم الواقع بين البحر الابيض المتوسط في الغرب والفرات في الشرق ، ومن النقب في الجنوب الى لبنان في الشمال .

ولم ينفذ الاسرائيليون هذه التعليمات ــ او انهم لم يستطيعوا ذلك فلم يتمكنوا من احتلال الارض الساحلية التي كانت في حوزة الفلسطينيين. ولم يحدث ابدا ان امتلكوا الموانىء او الارض المجاورة للسواحل الفينيقية. ثم مضت قرون بعد ذلك وامتلك الاسرائيليون دمشق في عهد داود وعقد داود معاهدة صداقة مع حيرام ملك صور حتى أن سليمان عندما اقام احتفالا عظيما لتدشين المعبد بعد الانتهاء من بنائه جاء المندوبون من اقاليم

تبعد شمالا حتى حماة ومن الجنوب حتى العريش الحديث . ولكن قبل ان ينتهي حكم سليمان كان الكثير من امبراطورية داود قد عاد الـى ملاكه السابقين . والكل يعلم ان عملية الاقتطاع من المملكة استمرت حتى انحصرت مملكة يهوذا في بضعة مئات من الاميال المربعة من الارض حول اورشليم . وحتى هذه استولى عليها البابليون عام ٥٩٧ ق.م.

هل كان الوعد نهائيا ؟

ربما قد لاحظنا ان فقرتين من الاقتباسات التي وردت في الجزء الاول استخدمتا عبارتي « الى الابد » و « ابدي » بخصوص ما سيكون من احتلال اسرائيل في المستقبل لفلسطين . ويستخدم الاصل العبري كلمة واحدة في مقابل اللفظين الانجليزيين . وكلمة « ابدي » ليست تعطي المعنى الصحيح. فكلمة « عولام » تعني في الانجليزية (على التوالي) زمنا طويلا ، الازمنـة الغابرة وعالم المستقبل .

وتعبيرات اخرى مماثلة كلها تستخدم تلك الكلمة المذكورة «الى الابد» او « ابدي » كذلك فمعني المزامير يقول : « سأغني للابد » .

وهو تعبير لا يمكن لاي مفسر حرفي للكتاب المقدس ان يفترض فيه معناه الحرفي .

ومن ثم تلخيصا لما اوردته من دليل ، فانني مضطر لاستنتاج ان ارض فلسطين لم تكن في الاصل قد وعدت لليهود فقط . وان الوعد الاول لم يكن محددا « هذه الارض » ثم وسع بعد ذلك ليشمل شرق الاردن وسوريـا ولبنان وارض القبائل الرحل حتى الفرات .

واخيرا نرى انه لم يكن هناك ابدا وعد غير مشروط بالامتلاك الابدي، وان كان القصد فترة طويلة غير محددة .

ونصل الان لمرحلة من مراحل التاريخ والنبوءة تتصل مباشرة وبدرجة اكبر بسوء الفهم الحاضر الذي اقترن بالنبوءات العبرية . فلو لم يكن لدينا نصوص تنبؤية ترشدنا لكان من الواضح ان هذه الوعود بامتلاك ارض كنعان كانت وعودا غير مشروطة : فالعلاقة العهدية بين اسرائيل والرب استلزمت ولاء الشعب والعمل الصالح من الفرد والمجموع . فاذا تنصل الشعب من هذه الامور انتظرهم المصير المحتوم . وتلك الكلمات التي قالها موسـى في الاصحاح ٢٨ من سفر التثنية تنطبق جزئيا على المعاناة اليهودية خـلال الاعوام القليلة الماضية لدرجة يراها الكثيرون نبوءة مـن نبوءات عصرنا الحاضر : « ولكن ان لم تسمع لصوت الرب الهك لتحرص ان تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي انا اوصيك بها اليوم تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدركك ... ويبددك الرب في جميع الشعوب من اقصاء الارض الـى

اقصائها وتعبد هناك الهة اخرى لم تعرفها انت ولا اباؤك من خشب وحجر وفي تلك الامم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلبا مرتجفا وكلال العينين وذبول النفس وتكون حياتك معلقة قدامك . . » .

وواضح هنا ان الوعود الالهية التي قطعت للاباء اصبحت لاغية بفعل الردة القومية . فحينما ازال السبي الاشوري شعب ساماريا ، والسبي البابلي شعب يهوذا ، اي الانبياء في هذه الكوارث انتقاما للعدالة الالهية من شعب عاص ومخالف .

ولكنهم علموا الشعب ان بقية سوف تعود وتعيد بناء الهيكل والحياة الدينية للجماعة ، وتطلعوا لزمن تمتلىء فيه الارض بمعرفة الله .

وغالبا ما ينسى ان هؤلاء الرجال كانوا شعراء ملهمين خلطوا المسائل العلمية جدا مثل العودة من السبي البابلي بصور سامية للصحراء المزدهرة كالوردة والسبع يرقد الى جانب الحمل ورجال يحيلون سيوفهم الى مناجل وينبذون الحرب ويقسمون على نبذها للابد . كذلك تنبأوا بقيام مملكة داود .

مما يؤسف له ان الجانب العملي تحقق وبقي المثالي مثاليا . ونظرا لان تلك الاشياء التي يتوق لها رجال الدين لم تتحقق بعودة اليهود الى فلسطين نشأ في الماضي اتجاه لتفسير ليس فحسب تلك الفقرات الاخروية في كلام الانبياء ولكن كذلك النبوءات العلمية والسياسية في زمن ما في المستقبل ، ولما كانت كافة نبوءات العهد القديم تتركز بالضرورة حول الشعب اليهودي وعلاقته بالله ، فان العصر الذهبي لا يمكن فصله عن المدينة المقدسة يقطنها اسرائيليون مقدسون . وربما يبدو ان البعض يراودهم الامل في انه اذا كان من الممكن اعادة اليهود الى فلسطين وتكوين دولة فان العصر الذهبي ــ بشكل خفي ــ قد يظهر على الارض .

ولكن مثل هذه الاراء انما هي تشويه لنبوءات العهد القديم التي تنبأت بعودة اليهود من بابل ومن كل الاراضي التي نفوا اليها ولقد تحققت هذه النبوءات . فقد عاد اليهود بالفعل الى يهوذا وبنوا بالفعل اسوار القدس وبنوا بالفعل الهيكل . ومر اليهود بمصائر متذبذبة ثم امنوا لانفسهم فترة قصيرة من الاستقلال السياسي والتوسع في عهد المكابيين . ومن ثم فقد تحققت نبوءات العودة من السبي البابلي . ذلك لان :

أ ـ بعد السبي عاد الى الارض المقدسة كل اليهود الذين رغبوا العودة رغم ان عددا عظيما من اليهود فضل ان يبقى حيث كان وكون الشتات « الدياسبورا » الذي اصبح بعد ذلك العمود الفقري للكنيسة المسيحية.

ب ـ مات اخر الانبياء قبل دمار اورشليم بقرون في عام ٧٠ بعد الميلاد .

ويمكننا اذن تفنيد الادعاء بأن الكتاب المقدس يتنبأ بالسيادة اليهودية في فلسطين من وجهة نظر النقد الاعلى للعهد القديم . ولكن تجاهلوا ذلك عن قصد ، وترك الكتاب المقدس يتحدث لنفسه .

كذلك في آستطاعتنا الاستفادة من العهد الجديد في قوله بأن الكنيسة الآن هي اسرائيل الله ، وربما هناك من لا ينصحنا بذلك. ان هذه الدراسة الموجزة ليست هجوما في شيء . ولكنها فحص مقتضب لما قاله العهد القدم عن امور اخذنا حجته عليها .

ظهور المسيحية في مجتمع اسرائيل :

ارض « الجليل » او « جليل الامم » على حد تعبير الاسرائيليين كانت دائما ارضا ، مفتوحة غير مقفلة على فئة معينة او جماعة بذاتها او شعب دون الاخر من الجماعات المتزاحمة على ارض فلسطين عبر مراحل طويلة من عمر هذه الارض ، ولم تخلص ارض الجليل من بين ارض فلسطين قاطبة للاسرائيليين ولا لغيرهم في زمن من الازمان .

وللموقع الذي كان يتمتع به اقليم « الجليل » كجزء من اقاليم الشاطىء الشمالية والتي اطلق عليها اليونان اسم «فينيقية» لوجود علاقة بين الدلالة اللغوية للفظة « فينيقية » (١) التي تعني اللون الاحمر وهو لون الصخور والجبال الممتدة على طول آمتداد اقاليم الشاطىء الشمالية اهمية خاصة من حيث انه كان مقصدا من قديم الزمن للقادمين من بعيد ، وللذين يهتمون بالعلوم والفنون المتعلقة بالحياة ، والمعيشة حينئذ كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة ونقل المعارف الانسانية عموما . ولقد كان للتجار الفينيقيين بعض الفضل في نشر الابجدية في بلاد البحر المتوسط ومنها انتقلت الى سائر الامم الاوروبية (٢) .

---

(١) انظر : عبقرية المسيح للاستاذ عباس محمود العقاد الصادر عن دار الهلال ـ القاهرة .

(٢) وانظر في التقرير التاريخ لهذه الحقيقة (الثقافة العربية اسبق من العبرية واليونانية) للاستاذ الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ، صادر عن سلسلة المكتبة الثقافية ـ القاهرة .

غير ان هذا الاقليم « الجليل » الذي كان بمثابة عاصمة مفتوحة تستقبل الافراد والجماعات والثقافات وتصدر لكل ما حولها ومن حولها خلاصة تجارب اهل الجليل لم تك العلاقة بين الجليليين عموما وجماعات اسرائيل واليهود المقيمين فيها على اساس من تعاون في مصالح مشتركة او التقاء في عقائد متفق عليها ، وكذلك لم تكن العلاقة بين الثقافة الجليلية ان جاز ان تنفرد الجليل بثقافة خاصة نظرا للموقع الفريد الذي تتمتع به ، وبين اليهودية أو ما تبقى من السلوك اليهودي علاقة تفاهم أو تقارب ، بل ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكن علاقة في بعض الاحايين من قبيل الحرب والعداء .

ومن عجب انه رغم سوء السلوك اليهودي في كثير من قضايا الحياة والامور العامة ، فان اليهود اعتمدوا على الكنعانيين والجليليين في شئون كثيرة وخاصة مطالب التجارة والصناعة .

ووسط هذا الجو العام وبين مختلف هذه الاجواء المتناقضة التي يعمل فيها بعض الاطراف في صخب التناقض وضجيجه او همس الوشاية واساليبها ان كان هناك بالاضافة الى الطوائف اليهودية الخمسة التي اشرنا اليها في تفصيل وقلنا انها كانت تشكل خلاصة او سيادة عمل القوى المتصارعة في مجتمع اسرائيل منذ مراحل كثيرة ومتعددة مرت بالقوم واصبحت تمثل حدة التناقض في عصر السيد المسيح ، ان كان هناك ايضا من الطوائف او القوى الدينية التي كان لها بعض الاعمال المحسوسة في الموطن الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام طائفة اخرى ، وهذه الطائفة هي جماعة « النذريين » او المنذورين الذين وهبهم اهلوهم لحياة القداسة والتبشير باليوم الموعود او الذين وهبوا انفسهم لهذه الحياة من اجل يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب ، وكانوا قلة قليلة تعيش حالة عزلة وانطواء في استسلام لما وضعته اياهم مقاديرهم .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعهم الوحدة التي تجمع بين اصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ولكنهم كانوا احادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه او ينذره اهله على حدة ولا ينتسبون الى جماعة واحدة غير الامة بأسرها التي كانت ضائعة بين فئات وشيع تنعدم بينها جميعا معاني التعاطف والولاء .

وكان على « النذري » ان يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع

ويراض على حياة التنطس ، فلا يجوز له شرب الخمر ، ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الاجسام المجرمة وعليه ان يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذرا لاجل مسمى غير انه لم يكن هناك من اهمية لهذا السلوك ولم يمارس في شكل استسلامي الا قبيل الفترة التي سبقت عصر الميلاد .

ومن النذريين افراد او جماعات ممن كانوا يواصلون ما اخذوه على انفسهم من القيام به . وقد بلغ عددهم قبيل ميلاد السيد المسيح كثرة كثيرة اصبحوا وخاصة بعد انخراط جماعات كثيرة من غير اليهود في هذا الطريق يؤلفون نحلة لا تلتقي في ادب او عقيدة او تتفق على شيء قدر دعواهم انهم رواد الدعوة الى انتظار المسيح مخلص يترقبون ظهوره للترحيب به والايمان به ، وكان المتصور والمعقول على اثر مما يتداول عن طائفة النذريين بانهم كانوا في انتظار اليوم الذي يعلن المسيح المخلص عن نفسه ان تؤمن به وان تناضل وتضحي من اجله ومن اجل الدعوة التي تنادي هي بها الا ان المواقف التي تعرض لها السيد المسيح من جميع الطوائف اليهودية باستثناء الاستجابة الفردية التي تعلق اصحابها بالسيد المسيح وآمنوا به كانت كفراً وجحودا ومطاردة وتضييقا من جميع القوى اليهودية حتى هيىء اليهم انهم قد قضوا على الدعوة وعلى صاحبها حين انشبوا اظافرهم حول اعناق المؤمنين بها واحاكوا مؤامراتهم ضد المعلم العظيم صلوات الله وسلامه عليه حين كان بين القوم يقاوم جبروت الذين رفضوا دعوة الله في ان يحيوا الحياة بالعدل في تعاون وتراحم وخير وسلام .

المستوى الديني في عصر السيد المسيح :

عندما كانت طوائف الجماعات اليهودية في عصر الميلاد تحت ضغوط الرومان ومضايقاتهم وعندما كان الشعب اليهودي بمختلف تناقضاته يعاني آلام مرحلة جديدة في ظل هذا السيد الجديد المتمكن من الارض والمسيطر على من فيها والمالك لكل ما فيها كانت فئات من الذين يلوكون دعوى المذهبية والفئوية الدينية ومن الذين يمثلون التناقض الاجتماعي القائم على علاقات الاستغلال والامتياز مثل تلك الطوائف الدينية الاجتماعية التي كانت تتسمى باسم : الكتبة والفريسيين والصدوقيين ، وغيرهم من الذين كان ينظر اليهم العامة من جمهور الشعب اليهودي المغلوب على امره والمضيع رزقه ، والمستهلك جهده ، على انهم يمثلون سيادة الدين والدنيا تتعامل مع الرومان

وتعمل اداة لهم ، خدما ووشاة ضد جماعاتهم وما تبقى من زيف دعوى دينهم .

وبينما الشعب اليهودي (الجمهور الفقير البائس الضائع) يتعرض للارهاب والخوف والفزع ويضيق بأسلوب الحياة المفروضة عليه في ظل السيادة الجديدة كان القادة من الكتبة والفريسيين بجانب الرومان وفي قصورهم خدما ووشاة كما تفصح ايات العهد الجديد وتسجل عليهم .

وكان من نتيجة انصراف اصحاب السيادة الدينية واهل الدنيا وقوى السيطرة والسخرة من اهل اليهود ان تعرضت الطوائف اليهودية كلها لمرحلة من الجدب والقحط النفسي ساءت احوال الفرد الانسان اليهودي وانعدم فيه احساسه بأدنى ولاء لعقيدة او لجماعة او لسلوك ديني واصبح حالهم الاجتماعي والنفسي كما عبر السيد المسيح عليه السلام حين كشف القناع عن هزال الحال الاجتماعي بين الطوائف الاسرائيلية عندما وجه اليهم اقوى نقده وكشف عن حالهم بأنه كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة .

وقبل ان يطول في ظل السيادة الرومانية على جماعات اليهود ، قبل ان يطول الزمن بالشعب الذي مزقته طائفية رجال دينه ووثنية عقائدهم يتدخل القدر في مجالة اخيرة لهذا الشعب الذي حطمته طائفية رجاله بالدين الجديد بزعامة السيد المسيح ، وليكون بمثابة التعبير الرمزي عن ارادة العقل الباطن وتطلعه في طلب الشفاء من همس الوشاية وضجيج الصدام اليوم رافضا ما حاوله التاريخ اليهودي من مسخ وتشويه لعقل الانسان وتاريخه وحضارته . ولينبه كل طوائف الشعب الى بشاعة ما هم مقبلون عليه وفي اتجاه اليه من حياة كلها جدب وقحط وكساد . وتعطيل لعمل الروح وضوابط الضمير (١) .

---

(١) بالرغم مما تفصح عنه آيات العهد القديم وكذلك معظم آيات العهد الجديد «الانجيل» التي تتعرض بالحديث والرواية عن اليهود فيما يتعلق بربهم ونوع العلاقة التي كانت بينهم وبينه ، وتكشف في تناقض منها بانهم كانوا وثنيين ، ومتجردين من كل معاني التنزيه والتطهير التي كانت تضفي بعد ذلك سلوكا اخلاقيا فاضلا ، وبالرغم من الآيات الكثيرة التي وقفنا على بعضها من آيات العهد القديم التي تؤكد لنا في وضوح دون اعمال الصنعة الادعائية المتعصبة ، الجدب العقلي والعاطفي الذي لم يؤثر في فن او ادب اصيل وعميق في تاريخ القوم ورغم الوقوف في وضوح على ـ

وتنهج الحركة اليهودية اسلوبا جديدا ، لا تنقض فيه شرع تقي ، ولا تقاوم سلطان ملك . وانما تلجأ في محاولة لاحياء موات القلوب وتجعل من اداتها في الدعوة سلاما على الحياة ، وحبا للبشر وامنا للخائف ، وتمجيدا للسلام دون صخب او ضجيج مثلما كانت تلجأ دعوات وحركات فارغة ضائعة .

ـ الجفاف والعقم في كل معطيات القوم الدينية والتي لا تزال نصوصها مسجلةلليوم فيما هو بين ايدينا من آيات التوراة ، فان عمل الزيف والتضليل الذي برعت فيه الاجيال المرتبطة في دعوىتعصباليهوديوالتاريخاليهودي، قد مسخت صورةالحقيقة عند كثير منشعوبالعالم، وبالتالي فقد امكن ان تضلل الكثير منالمفكرين والمؤرخين. وها هو واحد من المحدثين الذين لعب الزيف اليهودي في عقولهم بالمصلحة والهوى . فراحوا يكتبون عن الميراث الديني والفكري والحضاري المدعى ، للجماعات الاولى من بني اسرائيل ، والذين يطلق عليهم عند مثل هؤلاء المؤرخين « العقربون » تقدم الاستاذ و. ج. دي بورج في كتابه « تراث العالم القديم » . فقد كتب من الجزء الاول من هذا الكتاب الذي انتهى منه قبل وفاته عام ١٩٤٣ ، ومن العبريين كتب يقول :

« ان الدين الذي تحمله مدنيتنا الحديثة للعبريين يقع بكليته تقريبا في مجال الدين . وشعرهم وهو اصدق مرشد الى افكار ومشاعر شعب ، وهو في جوهره شعر ديني . وقيمته ليست في اسلوبه الادبي او البرهان النظري اكثر منها في البصر الوحي العميق الذي يعبر عنه ، ولم يكن للسلالة العبرية الا شان يسير في الحرب او السياسة ، فيما عدا فترة قصيرة وجيزة في عهد الملك داود، وعلى هذا فان ما حققته من عمل دينوي جليل يمكن ان يمر دون ان يسترعي النظر تقريبا في تاريخ العالم انها العبقرية الروحية لانبياء مثل عاموس وهوشع في اسرائيل واشعياء يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد هي التي كانت اول ما احال عقيدة قبيلة مقصور الى دين ذي معنى عام للعالم ولم يعد يظهر « يهود » بعد كاله قبلي عبور يقود شعبه الى النصر على آلهة أعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم الهي للكون ـ يوقع القصاص على العبريين ، عن طريق اعدائهم يقترفون من خطيئة والذي كان يريد رحمة لا ذبيحة ، ويدعو لعبادته وليس بآلهية الشخصية ، ولكن بالمعاملة البارة بين الانسان وهذا التحول في الدين العبري عاون في الحق على تحطيم وحدة الدولة العبرية السياسية ، ولكن البذرة التي بذرها الانبياء الاوائل نضجت خلال التجربة المريرة من المذلة القومية والاسر الى دين خالص النقاوة وهو الذي في الحين المناسب انجب العقيدة التي هزت العالم المتمدين وكان العبرانيون اول شعب من الشعوب التي عرفها التاريخ وصل الى الاعتقاد باله واحد خالق وحاكم الكون وابي البشر اجمعين .

وتستطيع ان تقول انه من بين لغة التعصب للعبريين وللتاريخ العبري كما هو واضح من منهج الكاتب والمؤرخ « دي بورج » فاننا نلمح انه لم يستطع ان يخفي الحقيقة التي يريد ان يزيفها فمن بين ما ورد مثلا مما قرره نلمح : ـ

ويغتاظ عملاء الرومان الذين هم من الجماعات اليهودية من خطر الدعوة مثلما ادرك الرومان انفسهم ما يمكن ان تفضحهم به الدعوةالجديدة.

ويدرك هؤلاء واولئك من الذين هم عبارة عن خدم ووشاة ضد طوائف شعبهم اليهودي واصحاب السيادة الغزاة انفسهم ان خطر الدعوة الجديدة اخلاقيا ودينيا سيكتسحهم ولن يترك لهم ارض النفاق التي يلعبون عليها ولن يتمكنوا من اداء دور الوشاية ضد طوائف شعبهم في خدمة السادة الرومان .

ثم مع نمو تعاليم الدعوة وتصاعد نجاح المعلم يتفاقم الخطر على الجماعات اليهودية أكثر فأكثر فينظر عملاء الرومان الى الدين الجديد بحذر وقلق ، ثم يعمقون نفس الشعور في نفوس بني اسرائيل جميعا وكل طوائف الشعب اليهودي الى ان يصرفوا الشعب جميعه عن فرصة الاستماع والانصات الى الداعي الجديد (١) .

وتشيع الوشاية وتتحول الى سيطرة على حياة الناس . ويصبح الهمس ضجيجا ضد السيد المسيح الى ان يصبح الحال جميعه بتأثير مما فعل الكهان وممثلي الطبقات الاجتماعية المتناقضة المتصارعة الى تذمر جميع بني اسرائيل من الدين الجديد ومن صاحب الدعوة الى هذا الدين ، واوشك الحال الاجتماعي والسياسي ان يكون في ثورة رفض لكل ما يبشر به السيد المسيح من عقيدة وما يدعو اليه من دين يحمل بين تعاليمه قضية العدل الاجتماعي والتطهر في امور الحياة والدين ومظاهر السلوك .

= ـ ١ ـ لم يكن للسلالة العبرية كبير اثر في الحرب والسياسة .

٢ ـ تقرير ظهور (يهوه) اله قبل غيور ، ثم عدم ظهوره بعد ذلك بهذا المعنى ـ وفي هذا تقرير للفكرة الوثنية تجعل من الاله رغبة توائم كل ظرف وتتفق مع المصلحة.

٣ ـ تقرير المذلة والضياع منذ فترة الاسر .

ويكون التعصب الاعمى جعل من فترة الاسر تجارب لخلق اله (اسرائيل) خالق وحاكم السكون والبشر اجمعين وخاصة ببني اسرائيل .

وسنفند دعوى الزيف اليهودي الرامية الى القول بان اليهود ـ العبرانيين ـ اول من عرفوا الاله الواحد وآمنوا بالتوحيد .

(١) انظر : « مختصر دراسة للتاريخ » للمؤرخ العالمي ارنلد توينبي ، الجزء الثالث، الذي ترجمه الاستاذ فؤاد محمد شبل ، الطبعة الاولى ـ ١٩٦٤ القاهرة .

ومع ان الكهانة الدينية كانت تتوارث فكرة مسيح مخلص على يد من يقيم لهم مطالب المصلحة والهوى ثم ضاقت بهذه الافكار فتخلت عنها . فان المنهج ارتضاه السيد المسيح عليه السلام حين لم يكن مستعصيا على الناس ولا نافرا منهم بل يعايش الصالحين والمذنبين ليطهرهم . ويشارك الجميع افراحهم وولاءهم ويتقبل التحية حتى ولو لم تكن غير صالحة ، كان كفيلا بان يثير همم الذين جمعوا من ثروة المال والكسل ليزيدوا من حال مجتمع العبيد تمزقا مرهقا وفاقة مضيعة فقرروا ان يؤججوا مشاعر جميع الطبقات وان يؤلبوها ضد الدعوة التي ابتدا صاحبها يقول : « ... جئت لالقي على الارض نارا فحبذا لو تضطرم » .

والذي يقول : « اتحسبونني اثبت لامنح الارض سلاما ، كلا وانما هو الصدام والانقسام ، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة ، ينقسم الاب على ابنه والابن على ابيه ، وتنقسم الام على بنتها والبنت على امها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة ، وهكذا فان الحال الاجتماعي في عصر السيد المسيح بمختلف فئاته وطبقاته التي كانت تتساوى عندها مظاهر الرياء والنفاق ، والجمود والجحود قد وقفت من امر الدعوة الجديدة التي تقود عملية تغيير جذري في سلوك المنافقين والمرائين موقف حرب وعداء تعاونت فيه كل قوى التناقض الاجتماعي اليهودية ، ثم استعانت بالسيادة الرومانية بدعوى ان خطر الدعوة الجديدة اخلاقيا لن يدع الجمهور اليهودي الخاضع لمشيئة الدولة مرتبطا بولائه وخنوعه لحكام الدولة وسادتها . وسيعملون على التحرر النفسي والتخلص من الاسر الاجتماعي والسياسي بأداة الدعوة الجديدة حين يستجيبون لها ويرتبطون بها ، وبالفعل فان خدام الدولة الرومانية في عصر السيد المسيح من سادة الطوائف اليهودية قد استطاعوا ان يوقعوا ساسة الدولة الرومانية بأن يعملوا معهم في مطاردة الدعوةالجديدة ورفضها ومع ان الدعوة لم تتعرض للدولة سياسيا بهدم او بناء ، ولم تعرض لها فيما تدعو اليه وفيما تعقد له من مبادىء وقواعد بنقد او هدم او تجريح واضح صريح ومكشوف فان الدولة لم تترك الدعوة الدينية تعمل عملها في النفوس بل أصبحت السلطة الرومانية بالوشاية اليهودية في معركة مع الدعوة ولم تشهر فيها السلاح علانية وانما بالمؤامرة والخداع وتكتيل جهود القوى الثائرة ضد الدعوة من ابناء اسرائيل الادعياء الذين قد بلغ بهم الضلال والعمى المستوى الذي وصف فيه السيد المسيح حالهم حين أراد اصلاح احوالهم بأنهم « خراف ضالة » .

ولما كان على المعلم الجديد ان يستأنس الخراف الضالة وان يهديها الى الطريق السوي ثم يمسخ طبيعتها البهيمية ليجعل منها النفس الخيرة والروح الحي والضمير النقي جوبه بالرفض والسخط والثورة والتنكر من اولئك الذين كشف طويتهم وخبر طبيعتهم وفضح قلوبهم بأنهم « الحيات اولاد الافاعي » .

وبالفعل فان « الحيات » من بني اسرائيل قد نفثت سمومها في طريق الدعوة الجديدة واعلنت الموت لصاحب الدعوة ومن سار على نفس الطريق، وامكن للقوى الشريرة ان تسيطر على الجماعات الاسرائيلية وان تعبىء ضد السيد المسيح عليه السلام حربا قوية وان تشهر في وجهه كل سلاح ، حتى ضللت الجمهور اليهودي وادخلته الحرب ضد السيد المسيح في حالة رفض له ولتعاليمه .

القضايا الدينية على يد السيد المسيح :

قلنا ان المناخ الاجتماعي الذي كان في عصر السيد المسيح قبيل الدعوة واثناءها ان التركيبة الاجتماعية فيه قائمة على حال من الخلخلة في البناء الاجتماعي وعلى التناقض الفئوي وعلى الصراع الطبقي ايضا وكل الطوائف التي تمثل الشعب اليهودي كان سادتها جميعا خدما ووشاة عند الرومان ضد الشعب الذي يمثلون سيادته ، فلما كانت الدعوة الدينية على يد السيد المسيح وقفوا منها موقف رفض وسخط بل وثورة عليها ، واستعدوا السيادة الرومانية واوقعوها في العداء ضد الدعوة الجديدة وضد صاحبها . وما ان ادركت قوى التناقض اليهودي التي تمثل الامتياز والسيطرة على جمهور اليهود ان الدعوة الجديدة على يد السيد المسيح ابتدات تطهر روح المضيعين وتنقي قلوبهم وتشفي امراضهم وتستجمعهم ثم تلم شملهم بالروح وتضع السكينة عليهم بالهداية والتوجيه ، وتخلق فيهم الامل اليوم والغد ، الا وقد ملأهم الخوف والفزع من اسلوب المعلم ومن امكانية تاثيره في قلوب الجماهير المحرومة والمكافحة والمضيع جهدها ما بين تضليل السادة من قومهم ، واستنزاف الدولة السيدة والمسيطرة واستغلال الوسطاء والمرابين والعشاريين ، حين كان المعلم يقول لهم : « ... طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض ، طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى للانقياء القلب

لانهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السموات ، طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من اجلي كاذبين افرحوا وتهللوا ، لان أجركم عظيم في السموات ، فانهم طردوا الانبياء الذين قبلكم » .

وليس من العجب ان هذه الآيات كانت عمليات تعميق روحي وتعبئة نفسية في ان يلتقي المؤمنون المستجيبون للدين الجديد بعضهم والبعض الآخر يرون في الايمان بهذه الآيات والتعلق بها اداة لهم في امكانية الخلاص النفسي والروحي من ظروف القهر والاستبداد التي تفرض حواليهم ، وكما كانت مثل هذه الآيات متنفسا للمظلومين والحزانى والجياع حين كانوا يتعلقون ببشرى : ان لهم ميراث الارض وملكوت السموات فان القوى التي كانت ترى في آيات الدعوة الجديدة حين تعمل على تخفيف الآلام النفسية عن جمهور الشعب ثم تعبئته خطرا عليها كانت تدرك ان الخطر الديني يقترب منها اولا بأول فابتدأت تترصد الدعوة وصاحبها وخاصة عندما ابتدأت الآيات التعليمية التي كان يلقنها المعلم على المؤمنين به تتعرض لزيف ما عليه القوم وما ألفوا « ... احترزوا من ان تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم ، والا فليس لكم اجر عند ابيكم الذي في السموات فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع وفي الازقة لكي يمجدوا من الناس ، الحق اقول لكم انهم قد استوفوا أجرهم ، واما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء ، فأبوك الذي يرى في الخفاء ، هو يجازيك علانية (١) .



وكانت هذه الدعوة دفعة قوية في ان يحترز المؤمنون بالدين الجديد ويبتعدوا عن مظاهر النفاق الاجتماعي وكانت ايضا توجيها الى محاولة خلق الترابط الاجتماعي بالعون والمعونة وبالاسلوب الاخلاقي الذي لا يعرف المنة ولا الاستيلاء الى الحد الذي لا تعرف فيه الشمال ما قدمت اليمين من جهد او خير وكان هذا المنهج يعبر عن تشكيل اخلاقي جديد يرفض زيف

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس : ١ ــ ٤ .

ما عليه مجتمع اليهود حين كانوا يمثلون كل مظاهر الفراغ والزيف والانانية والاستعلاء والسلبية الصفات التي عابها السيد المسيح ورفضها في ثبات ، وفي صراحة وحزم ، ووضوح عمل الضمير .

« ... ومتى صليت فلا تكن كالمرائين ، فانهم يحبون ان يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس ، الحق اقول لكم انهم قد استوفوا اجرهم ، واما انت فمتى صليت فادخل الى مخدعك واغلق بابك وصل الى ابيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية ، وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالامم ، فانهم يظنون انه بكثرة كلامهم يستجاب لهم فلا تتشبهوا بهم لان اباكم يعلم ما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه » (١) .

وكانت مثل هذه الآيات ايضا موقفا جديدا يميز جماعات الذين يستجيبون للدين الجديد في رفضهم لمظاهر الكهانة الدينية والمبالغة والغلو في اتخاذ المحاريب والهياكل وتقديس المقتنيات والارتباط بها على انها وحدها وسيلة الدين ومضمونه ، وفي اطارها ومن اجلها تقوم الوظائف ويتميز القائمون بآيات الهداية والتوجيه لا يعرفون ولا يقرون الارتباط بمظاهر الكهانة والوثنية بكل صورها وهم في رفض لكل ما يمكن ان يشد عواطفهم لغير الله الحق وهم في ايمانهم وتعلقهم بالاله الحق يرفضون كل ما سواه بل ومن اجله فهم لا يعرفون شيئا آخر في حياتهم من مال او جاه، انهم في كل حال يتجردون من كل مظاهر المال والجاه . ومن كل الطرق المؤدية اليها :

« لا يقدر احد ان يخدم سيدين ، لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون ان تخدموا الله والمال . لذلك اقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لاجسادكم بما تلبسون » (٢) .

وكانت هذه الايات للمؤمنين بها تعتبر تشكيلا اجتماعيا واخلاقيا آخر ضد الذين يحبون المتكئات الاولى والمجالس الاولى والمحافل الاولى

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس : ٥ ـ ٨ .
(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس : ٢٤ ـ ٢٦ .

وان يقول الناس لهم سيدي سيدي ، ولم يقف الامر بآيات الدعوة عند حدود الآيات التي ترسم قواعد الاخلاق وآداب السلوك وتنقي الروح وتطهر الجسد ، بل اصبحت تعاليم الآيات تشكل خطرا محققا على كثير من طوائف المجتمع اليهودي الفئوي المتفتت المتميع ، كما ادرك تلاميذ المعلم ان آيات معلمهم تتناول بعض طوائف المجتمع اليهودي ، حين دعا الجمع وقال لهم :

« اسمعوا وافهموا ، ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان ، بل ما يخرج من الفم ينجس هذا الانسان ، حينئذ تقدم تلاميذه ، وقالوا له اتعلم ان « الفريسيين » — طائفة من المجتمع اليهودي الطبقي في عصر الميلاد — لما سمعوا القول نفروا فأجاب وقال كل غرس لم يغرسه ابي السموي يقلع ، اتركوهم ، هم عميان قادة عميان وان كان اعمى يقود اعمى يسقطان كلاهما في حفرة » (١) .

وكان الموقف يتمثل في اله : ذهب يسوع في السبت بين الزروع ، فجاع تلاميذه وابتداوا يقطفون سنابل ويأكلون ، فالفريسيون ، لما نظروا قالوا له عوذا تلاميذك ، يفعلون ما لا يحل فعله في السبت ، فقال لهم اما قراتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله واكل خبز التقدمة الذي لم يحل اكله له ولا للذين معه ، بل للكهنة فقط ، او ما قراتم في التوراة ان الكهنة في السبت في الهيكل يدنسون السبت وهم ابرياء ولكن اقول لكم ان ها هنا اعظم من الهيكل فلو علمتم ما هو . اني اريد رحمة لا ذبيحة ، لما حكمتم على الابرياء فان السلامة ابن الانسان هو رب السبت ايضا . ثم انصرف من هناك وجاء الى مجمعهم واذا انسان يده ، يابسة ، فسالوه قائلين هل يحل الابراء في السبوت لكي يشتكوا عليه . فقال لهم اي انسان منكم يكون له خروف واحد فان سقط هذا في السبت في حفرة افما يمسكه ويقيمه فالانسان كم هو افضل من الخروف : اذا يحل فعل الخير في السبوت ، ثم قال للانسان مد يدك . فمدها فعادت صحيحة كالاخرى (٢) .

وعلى هذا الطريق المغاير تماما لكل ما الف القوم فيه وتفننوا من

---

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس عشر : ١٠ — ١٥
(٢) انجيل متى : الاصحاح الثاني عشر : ١ — ١٣ .

خداع العمل الديني القائم على المصلحة والهوى كان المعلم العظيم يقضي الشوط الكريم يقرر فيه البديل لقضايا الدين الذي زيفه الاسرائيليون وحرفوه وبدلوه منذ تلقوه من يد الانبياء والمرسلين مؤملا ان يصنع جيلا او جماعة تحمل على عاتقها مهمة الدعوة للايمان بقضايا الحب والخير والسلام ، وكم كانت نفس المعلم تواقة لان يرى تباشير الدعوة يستجاب لها او ان اثرها قد علق في نفوس بعض القوم وارتبط بقلوبهم وعقولهم ولكم بذل نفسه وروحه وود لو يرتبط به الذين يسمعون له ويستجيبون له ارتباطا عضويا كي تطمئن قلوبهم له وتستقر نفوسهم نحو هذه القيم الجديدة التي ارتجى ان تكون سبيلهم واداتهم في الحياة .

وفيما هو يكلم الجموع اذا أمه واخوته قد وقفوا خارجا طالبين ان يكلموه فقال له واحد هو ذا امك واخوتك واقفون خارجا طالبين ان يكلموك ، فأجاب وقال للقائل من هي امي ، ومن هم اخوتي ، ومد يده نحو تلاميذه وقال ها امي واخوتي ، لان من يصنع مشيئة ابي الذي في السموات هو اخي واختي وامي (١) .

ومن اشق ما يتصور هو معرفة كيف استطاع المعلم العظيم السيد المسيح عليه السلام أن ينتزع من بين ضياع جمهور الشعب اليهودي المثقل بكل الآلام والمحن والمضيع بين قوى الاستغلال الطبقي افرادا يصنع منهم تلاميذا له ومريدين والجميع لما يزل حتى الامس الذي كان فيه المعلم ينتزع فيه تلاميذه ويعلمهم ويربيهم . غلاظ القلوب قساة النفس موتى الروح ، لا تربطهم بالقيم الاخلاقية او الاجتماعية ادنى علاقة ، بل هم الذين لا يعرفون حتى القيمة الانسانية في علاقة الرجل بامراته ، ويتصورون انه من الحق ان يتخلص الرجل من امرأته لسبب أدنى سبب .

ولقد جاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له : « هل يحل للرجل ان يطلق امراته لكل سبب فأجاب وقال اما قراتم ان الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وانثى وقال (٢) : من اجل هذا يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامراته ويكون الاثنان جسدا واحدا ، اذ ليسا بعد اثنين بل جسد واحد فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان ، قالوا له فلماذا أوصى موسى ان يعطى

---

(١) انجيل متى : الاصحاح الثاني عشر : ٤٦ ــ ٤٨ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح التاسع عشر : ٣ ــ ٩ .

كتــاب طلاق فنطلق ، قال لهم ان موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكــم ان تطلقوا نسـاءكم ولكن من البدء لم يكن هذا ، واقول لكم ان مــن طلــق امراته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني ، والذي يتزوج بمطلقة يزني .

★ ★ ★

ولقد كان السيد المسيح عليه السلام بالمرصاد لكل مضايقات جماعات الكهانة الدينية وقوى الطبقات الاجتماعية ، « ... جاءوا ليجربوه هــل يحل للرجل ان يطلق امراته » فأدرك على الفور مدى خداعهم وتضليلهــم فكشـف عوراتهم وافضح شهواتهم وتعلقهم بالحس والخطيئة بقسوة قلب وبهيمية طبع ، « ... ان موسى من اجــل قساوة قلوبكــم اذن لكــم ان تطلقوا نساءكم » . ثم ساق تعاليمه التي وجهها اليهم حينئذ كي يضيــق المجال امام اندفاع غرائز الطبع الملتوي والخلق النهاز « ... ان من طلق امراته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى فانه يزني » .

وهكذا ظل الاسرائيليون جميعا بمختلف اتجاهاتهم وطبقاتهم في موقف الخائف القلق من خطر قوى تنمو امامه تهدد امتيازاته وقواه بما يعتمــد اليه المعلم من اسباب العون المعجز الذي يحيط به حين يعمل على ابــراز قيم وقضايا جديدة ستكون الاداة في ان يندفع المؤمنون بهــا والمتعلقــون بخيرها يرفعون من امامهم كل ما يعوق تحقيق مبادئهم وقيمهــم . ولقــد ذهب مجموعة من الكهنة والسادة المستغلين والمسيطريــن الــى السيــد المسيح حيث هو يعلم اتباعه وارادوا بالاحراج والمضايقة قبل ان يقومــوا بالمطاردة ان يضعوا حدا لاسلوبه ودعوته التي ابتــدات تستقطب جماهــير الكادحين والمحرومين فذهبوا اليه في الهيكل وكانت مؤامرة ضده رهيبــة عليــه السلام .

« ولما جاء الهيكل تقدم اليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلم قائلين : بأي سلطان تفعل هذا ، ومن اعطاك هــذا السلطان (١) فاجــاب يسوع وقال لهم وأنا ايضا اسألكم كلمة واحدة ، فان قلتم لي عنها أقــول لكم أنا ايضا بأي سلطان افعل هذا . معمودية يوحنا من اين كانت ؟ مــن

---

(١) انجيل متى : الاصحاح الحادي والعشرون : ٢٣ ـ ٢٧ .

السماء ام من الناس ، ففكروا في انفسهم قائلين ، ان قلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به ، وان قلنا من الناس نخاف من الشعب لان يوحنا عند الجميع مثل نبي ، فأجابوا يسوع وقالوا لا نعلم ، فقال لهم هو ايضا ، ولا انا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا . ثم دخل معهم بعد ذلك في مواقف هجوم كشف بها زيف وجودهم ونفاق ما يلوكونه وما يدعونه من أساليب عبادة ومراسيم دين حين قال لهم : ويل لكم ايها الكتبة الفريسيون المراءون لانكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون ، ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تأكلون بيوت الارامل ، ولعلة تطيلون صلواتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم ، ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحداً ، ومتى حصل تضعونه أبنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا ، ويل لكم ايها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم ، ايها الجهال والعميان ايما أعظم الذهب ام الهيكل الذي يقدس الذهب ، ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم ايها الجهال والعميان ايما اعظم ، القربان ام المذبح الذي يقدس القربان . فان من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه ، ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه ، ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تعشرون النعنع والشبث والكمون . وتركتم أثقل الناموس : الحق والرحمة والايمان كان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تنزحوا تلك ، ايها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلغون الجمل ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تنقون خارج الكأس والصفحة وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة ايها الفريسي الاعمى نق اولا داخل الكأس والصفحة لكي يكون خارجهما ايضا نقيا . ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة ، وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة، وهكذا انتم ايضا من خارج تظهرون للناس ابرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما .

ومن وسط السياق العام لآيات الاناجيل والترابط الموضوعي الذي يمكن ان يخرج به الباحث من آيات « متى » في جملة اصحاحاته ، يتضح أن السيد المسيح قد قرر ان يهاجم في وضوح طبيعة التركيبة الاجتماعية والنفسية لجماعات اليهود من الكتبة والفريسيين وشيوخ الشعب المرائين،

وان لا يتركهم على ما هم عليه من محاولة استمرار عمل الكهانة ودعوى ممارستها واسرارها ، وان يتضح الموقف على حقيقته « ... لانكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون انتم ، ولا تدعون الصالحين يدخلون » ثم رفض في ثورة ، اداتها السلم والحلم ان يستمر القوم «المراءون » فيما هم عليه من استغلال لحق الجماهير والمكافحين اليتامى والارامل والمقعدين « ... ويل لكم لانكم تاكلون بيوت الارامل ... » وبغير ما سبب او حق او جهد او مشقة يحصل القوم « المراءون » على امتيازاتهم واستغلالهم « ... ولعله تطيلون صلواتكم » .

وعند دعوى الدين والتعلق بالميراث المدعي من « هيكل » واسلوب عبادة يكشف السيد المسيح عليه السلام طبيعة النفاق الديني وعمل الكهانة الفارغة التي لا ترتبط بولاء او ايمان لشيء بعينه او لقداسة بذاتها وانما حسب المصلحة والهوى « ايها القادة العميان ، القائلون ، من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم » . ثم ساق السيد المسيح تعاليمه التي تملأ النفس ثقة وامانا وثقاء وسط مناخ لا يعرف الصراع ولا الخلخلة الاجتماعية تناقضا وتفاوتا وامتيازا ، وانما بمنهج يجعل من الصورة الاجتماعية للشكل العام للمجتمع من بعيد ومن الخارج معقولا ومقبولا ومتقاربا ومتساويا في الملامح والتركيب على أن لا تكون الحقيقة الاجتماعية عند العامة والجماهير هي الضياع والخراب والموت .

وبالمنهج الذي ارتضاه المعلم وجعله اداة للدعوة وسط مختلف انواع الصراع والتناقض فانه راح يضرب المثل ويتخذ من قوى التناقض الممثلة امامه في الفريسيين والكتبة والذين يمثلون مظهرية الفراغ الاجتماعي بالاسلوب الذي فرض الجدب والقحط النفسي الذي ضيع الجماهير وارهقها وكانوا هم وراء هذا الضياع قال لهم « ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة » (١) .

وبعد ان تأكد للسيد المسيح انه رغم نجاحه في استقطاب جموع المضيعين والمحرومين والمرضى والحزانى ، انه قد اصبح بالفعل املهم

---

(١) انجيل متى : الاصحاج الثالث والعشرون : ٢٧ .

وموئلهم ينشدون الخلاص على يديه ويطلبون الهداية من تعاليمه وآياته الا ان قوى التناقض اليهودي ممثلة في الطبقات المستغلة والمستعلية تضلل الجمهور اليهودي وذلك انها زنفت عليه الحقيقة فانه قبل النهاية للدور الرهيب والعظيم الذي أمل به ان يستأنس الخراف الضالة قد قام ليسوق موقفا عظيما من مواقف تعاليمه به قد افصح عن الحقيقة التي قد جاء من اجلها حين كان السيد المسيح سلام الله عليه آخر مرحلة يمد فيها الرب هدايته في محاولة اخيرة للذين افسدوا وكذبوا وطاردوا وقتلوا كل دعوة للحق وللحياة من بني اسرائيل ، فكذبوه هو الآخر وطاردوه وقاوموه ورفضوه فما كان منه عليه السلام الا ان اعلن عن حقيقة نهاية النبوة والرسالة لجماعات اليهود ولبني اسرائيل وفي بني اسرائيل حين قال فيما يرويه انجيل « متى » عندما ضرب لهم السيد المسيح حالهم وتاريخهم المتمثل في رفضهم الهداية والتوجيه على يد رسل الله وانبيائه عندما كانوا يرفضونهم ويقاومونهم ويقتلونهم بحال رب بيت غرس كرما واقام عليه مجموعة من العاملين ، فاستغلوا الثمر والغرس وعتوا وسرقوا ونهبوا ما ائتمنهم عليه صاحب الغرس وكان كلما يرسل عماله الاخرين كي يأتوا اليه بريع الارض والثمر كانوا يطردون ويقتلون فاضطر اخر الامر أن يخرج العمال المخربين المناكفين السارقين القاتلين من الارض ومن الغرس كي يأتي بعمال آخرين يقدمون له ريع الارض وثمر الغرس (١) .

ويضرب السيد المسيح المثل فيقول (٢) : « كان انسان رب بيت غرس كرما ، واحاطه بسياج وحفر فيه معصرة ، وبنى برجا ، وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار ارسل عبيده الى الكرامين ليأخذوا اثماره . فأخذ الكرامون ، عبيده ، وجلدوا بعضا ، وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم ارسل ايضا عبيدا آخرين ، اكثر من الاولين ، ففعلوا بهم كذلك ، فأخيرا ارسل اليهم ابنه قائلا يهابون ابني ، وأما الكرامون ، فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث ، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه فأخذوه واخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم ، ماذا يفعل باولئك الكرامين ، قالوا له اولئك ارديا يهلكهم هلاكا رديا ، ويسلم

---

(١) انظر ايضا (كتاب قطمارس الاناجيل) وهو كتاب يتضمن الفصول المقتطفة من الاناجيل المقدسة التي تيسر البحث العلمي في هذه القضايا ـ قابله وحرره المونسنيور فرنسيس والقس باخوم حنا ، طبع سنة ١٩٣٠ م.

(٢) انجيل متى : الاصحاح الحادي والعشرون : ٣٣ ـ ٤٤ .

الكرم الى كرامين اخرين يعطونه الاثمار في اوقاتها ، قال لهم يسوع : اما قرأتم قط في الكتب ، الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار راس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في اعيننا لذلك اقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل اثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه » .

وبهذا التصور العظيم الذي ساقه السيد المسيح وهو يقدم لقوى التناقض الاجتماعي اليهودية نهايتها التي كانت خاتمة لمرحلة طويلة لم يستطع فيها الانسان الاسرائيلي ان يتجرد او يتخلص من طبع الانانية والجحود والكفران ولم يتقبل فيها دعوة من دعوات الحق والعدل ، بل كان اسلوب الوشاية والاستغلال والسيطرة والاستعلاء هو اداة الذين يقدرون وامل ومطمع الذين لا يقدرون حتى اذا ما اتيح لهم ان يتمكنوا او يقدروا كانوا كما ضرب لهم السيد المسيح المثل الذي كان فيه صاحب الكرم قد ائتمن مجموعة من الكرامين ، فأكلوا الثمر وقتلوا الوارث ، واصبحت الضرورة بتغييرهم واهلاكهم هي المخرج والخلاص .

وفي قول السيد المسيح : « ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل اثماره ، اكبر تأكيد بان الميراث المدعى لبني اسرائيل فيالنبوة والهداية قد انتهى تماما حين رفضت دعوة السيد المسيح وطوردت .... ومن عند هذا الموقف العظيم الذي اعلن فيه السيد المسيح تجريد بني اسرائيل من كل ما يمكن ان يدعوه دينيا او تاريخيا بهذا الاسلوب العف العظيم الذي ساقه السيد المسيح فان القوى اليهودية التي رات في هذا الدين خطرا عليها قد دخلت في معارك صريحة من الدعوة ومع صاحبها عليه السلام وقد اشرنا الى بعضها في الصفحات السابقة .

المطاردات اليهودية ضد السيد المسيح :

الدعوات الى الحق والعدل دائما وابدا في تاريخ الحركات الاجتماعية والدعوات الدينية والالهية في المجتمعات القائمة على الصراع وعلاقات الاستغلال . مثل مجتمع الجماعات اليهودية المستغلة على ضوء قيم وعلاقاتها الاجتماعية فيما بينها ، والمضيعة تحت اسر وسيطرة الدولة الرومانية وصاحبة السيادة المطلقة ، كانت بجد دائما بجانب الذين يرون في الدين الجديد او الدعوة الى قضية الحق والعدل مخرجا لهم ، واداة في التخلص من جو الظلم والجور والعنف الذي يكبلون به ، والمحروق جهدهم

وعرقهم في ظله ، اولئك الذين تسلبهم الدعوة الى الحق والعدل كل متكئات استغلالهم وسيطرتهم ثم تعريهم في الوقت نفسه أدوات الدعوة الى الحق والعدل من مظاهر نفاقهم وفراغهم وريائهم ، ثم قساوة قلوبهم ، ومن هنا فانه من بين جماعات اسرائيل واليهود قد ادركت قوى الاستغلال اليهودي التي كانت تسيطر عليهم . ان دعوة السيد المسيح تشكل خطرا عليهم فدخلوا معها ومع المؤمنين بها معركة كانت من اشق المعارك التي خاضتها الدعوات الى الحق والعدل مع قوى التناقض الاجتماعي والاستغلال الطبقي التي كانت دائما تعلن الحرب في وجه الدعاة الى قضايا الحق والعدل والمساواة ، ذلك ان اولئك الذين قال فيهم وعنهم السيد المسيح بانهم « الحيات اولاد الافاعي » وبان حالهم من الداخل من عند طوية النفس وسريرتها ، ومن الخارج من عند مظاهر النفاق ، والحس المتبلد بانهم كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل ، وداخلها عظام نخرة ، قد ذهبوا صراحة في معركة مكشوفة قوية وعنيفة ضد صاحب الدعوة الى القيم الجديدة والدين الجديد ضد السيد المسيح عليه السلام ، وكان ذلك على حد الرواية التي تسوقها الاناجيل فيما يرويه « متى » من الاصحاح السادس والعشرين ، انه عقب عدم امكانية مواجهة قوى التناقض لاصالة دعوة السيد المسيح ونقائها ثم عجزهم عن ان يقاوموا نهجه وحججه ، حين كان يكشف كل يوم عوراتهم وسيئاتهم ويهدم زيف نفاقهم أنهم على حد تعبير متى قد قرروا ان يضعوا للمعلم ولاسلوب دعوته حدا للتخلص منه « .... حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه ولكنهم قالوا ليس في العيد ، لئلا يكون شغب في الشعب » . (١)

ويستفاد من نص عبارة الانجيل على حد ما ترويه « ... لئلا يكون شغب في الشعب » ان مجموعات القادة للشعب اليهودي ، من أولئك الفريسيين والكتبة والكهنة وغيرهم من القوى التي تمثل الامتياز والاستغلال العنصري والطبقي في التركيبة الاجتماعية لليهود في عصر الميلاد والقائمة على الصراع فيما بينها ، كانوا يسيطرون على الشعب اليهودي وكانوا ايضا في معزل عن الشعب ، وكانت سياستهم ومعتقداتهم لا تمثل الخط السياسي او الاجتماعي او الديني الذي يمكن ان يكون عليه الشعب اليهودي ، وان هذا الشعب بالمقدار الذي سمعه واتيحت له فيه

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : آيات ٣ — ٥ .

الفرصة لكي يسمع السيد المسيح ويتعلم منه ايات الدعوة قد اصبح مرتبطا به ومتعلقا بذاته الى الحد الذي ادرك فيه رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب حين بداوا ينسجون خيوط مؤامراتهم ضد السيد المسيح انهم لكي ينجحوا في ان يؤلبوا الشعب عليه لا بد وان يمسكوه « بمكر » ويقتلوه .

ولهذه الحرب الكافرة ضد السيد المسيح على حد رواية الميراث الديني الذي بين ايدي قارىء الاناجيل وايدي المؤمنين بها اعدوا عدتهم وعبأوا انفسهم في معركة كانت من جانبهم دنسة وملوثة بسلوك الوشاية والوقيعة واعمال التجسس والقتل ، وكان ذلك حين استطاعوا أن ينفذوا الى صفوف اتباع السيد المسيح ، ويرتبطوا في وقيعة وتجسس بواحد من الاتباع الذين اتيح لهم ان يلازموا السيد المسيح وان يتعرفوا اخباره عن قرب ، ولقد جعلوا من انفسهم ومن صنيع مؤامراتهم ضد صاحب الدعوة كل مسببات الاغراء والاندفاع الاحمق والاهوج ، في ان يتخلى واحد من غير المؤمنين الصادقين عن سيده ومعلمه الى الحد الذي بلغ فيه تأثيرهم عليه (كما تعبر الاناجيل) انه كان يسعى بنفسه لمقابلة القوى المتآمرة كي يعرض عليهم نفسه وخدماته في ان يكون اداة لهم في الامساك بالسيد المسيح والايقاع به حتى يتم القضاء عليه . (١)

ولقد كان الحس المتبلد بالطبع والسجية ، عند جماعات اليهود والذين كان « يهوذا الاسخريوطي » واحدا منهم قويا للغاية ، فالرجل لم تصل الى قلبه اعماق ايات المعلم ولم تنفعل به مشاعره حتى يظل بايمانه أمام الضغوط واساليب الاغراء، كباقي الذين تحملوا عبء الايمان والالتزام به حتى عندما قاومهم السلطان والطواغيت من جماعات اليهود وحملوا على الاخشاب ونُشروا بالمناشير فذهب بنفسه على حد تعبير (متى) في الاصحاح السادس والعشرين الى الذين يطلبون السيد المسيح ليريقوا دمه (... ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعى يهوذا الاسخريوطي الى رؤساء الكهنة ، وقال ماذا تريدون ان تعطوني وانا اسلمه اليكم فجعلوا له ثلاثين من الفضة ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه . (٢)

---

(١) انظر في هذا « الكنز الجليل في تفسير الاناجيل » تاليف الدكتور وليم ادي الامريكي الطبعة الاولى عام ١٨٨٨ ـ بيروت .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : آيات ١٤ ـ ١٦ .

وهكذا من قديم الزمان فان الخلق اليهودي واسلوب التعامل اليهودي يستغل في الفرد الانسان جوانب من شخصيته قد تكون غير سوية هزيلة او مريضة او مترددة ويضغط عليها بما يشتهي ، حتى ولو كان صاحب مبادىء فبالمطاردة والالحاح قد يأتي صنيعتهم من بين من كانوا من يتصور عنهم انهم من اصحاب المبادىء كما امكن لهم صنع واحد من التلاميذ الذين كانوا حول المعلم العظيم (١) .

السيد المسيح والمؤامرة اليهودية :

ما ان ادرك السيد المسيح عليه السلام ان قوى الخطيئة ، ابتدات تطارده في عنف وقسوة ، وانهم يودون النيل منه قتلا وتعذيبا ، وخاصة بعد القرار الخطير الذي اتخذه رئيس الكهنة الذي يدعى « قيافا » بمطاردة السيد المسيح والامساك به ، حتى قد ظهرت بوادر النهاية لدور المعلم العظيم في مجتمع الخراف الضالة .

ويبدو ان نبة الامساك بالسيد المسيح وتنفيذ ما يريد القوم الثائرون عليه الرافضون لدعوته ، كان قد ادركها السيد المسيح وانهم في العيد الذي كان قد حل واقترب يودون ان يجعلوا التخلص منه في عيدهم ، فقالوا فيما يرويه انجيل « متى » من الاصحاح السادس والعشرين « ... ولما اكمل يسوع هذه الاقوال كلها : قال لتلاميذه تعلمون ان بعد يومين يكون الفصح وابن الانسان يسلم ليصلب » .

وعلى ضوء ايات الاناجيل ، فان السيد المعلم العظيم ، قد قصد ان يهيىء النفوس ، ويشعر القلوب ان القوم جميعا يقبلون على خطر محقق ، وان شيئا غير طبيعي يوشك ان يحل بالجميع وفي الوقت نفسه كأن السيد المسيح اراد أن يترك سلوة عزاء ، ودفقة ايمان من نفسه لجماعات الذين يحيطون به في موقف تضحية ، ففي يوم العيد الذي يسمى « عيد الفطير » طلب السيد المسيح من تلاميذه ان يذهبوا ليخبروا واحدا من المؤمنين ، بان المعلم يرغب في قضاء العيد عنده كي يكون في هذا اللقاء فرصة من آمان

---

(١) كان يهوذا الاسخريوطي من بين الاثني عشر ، الايات من متى في الاصحاح السادس والعشرين تقول « ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر ، وفيما هم ياكلون قال الحق اقول لكم ان واحدا منكم يسلمني » .

يلتقي فيها مع تلاميذه ومريديه ، ومن عجب ان قوى الخطيئة التي تتابع السيد المسيح بالمرصاد كان امرها قد شاع في انها تريد التخلص من السيد المسيح وحول تقرير مثل هذا المعنى الذي يلقي اضواء على هذا الموقف يقول انجيل « متى » في الاصحاح السادس والعشرين :

« ...... وفي اول ايام الفطير ، تقدم التلاميذ الى يسوع قائلين له اين تريد ان نعد لك لتأكل الفصح ، فقال اذهبوا الى المدينة الى فلان وقولوا له : المعلم يقول ان وقتي قريب ، عندك اصنع الفصح مع تلاميذي ففعل التلاميذ كما امرهم يسوع واعدوا الفصح » .

وهنا في هذا اللقاء تتضح جوانب المعجزة ، وتؤدي دورها العظيم في كشف خيوط المؤامرة التي تحاك ضد السيد المسيح ، وفي هذا الدور الذي تؤديه المعجزة ، تتوعد جميع اطراف المؤامرة وتطلب من جماعات المؤمنين بالمعلم ان يظلوا على ايمانهم ، ويرتبطوا به ، وان يعملوا ما امكنهم العمل والبذل والتضحية في سبيل ايمانهم فيقول « متى » « ... لما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر ، وفيما يأكلون قال الحق اقول لكم ان واحدا منكم يسلمني فحزنوا جدا ، وابتدا كل واحد منهم يقول له هل انا هو يا رب . فأجاب وقال الذي يغمس يده معي في الصفحة ، هو يسلمني ان ابن الانسان ماض كما هو مكتوب عنه ، ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الانسان ، كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد . فأجاب يهوذا مسلمه وقال هل انا هو يا سيدي قال له انت قلت . (١)

وبهذا فان السيد المسيح كان على علم تام بكل صنيع المؤامرة والخداع ضده ، وبالمعتقد الانجيلي فانه يبدو ان دور المعلم كان قد استنفد المرحلة التي كانت تطلب هذا الدور ولا تتحمل غيره ، وبالشكل الذي تعبر الايات الانجيلية عنه فانه يبدو ايضا أن خطر المطاردة لم يجعل من المتيسر ان يفكر التلاميذ في مقاومة قوى التآمر ، خاصة وبعد ان كشف السيد

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : آيات ٣٠ ـ ٣٥ .

المسيح عن بداية خيوط المؤامرة (١) حين قال لهم « ... والذي يغمس يده في الصفحة هو يسلمني » .

ولقد كان الحال النفسي الذي يمكن ان يتصور بأن السيد المسيح قد اصبح عليه عند السيد المسيح على ضوء ايات آلاناجيل ايضا ، وانه كان في حالة رفض لهذه النهاية التي ترسمها له قوى الشر والمطاردة اليهودية، ويورد مقاومتها ومغالبتها ولو بعمل الضمير .

« ... ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الانسان » .

وحين افصح صراحة ان بداية النهاية بهذا الشكل الاثم الذيتتكالب عليه قوى الخطيئة من جماعات اليهود لا يرضيه بل يغضبه ويؤذيه كان هذا بشيرا بمدى الخطورة الاثمة وفداحة الخطيئة التي ستتخذ ضده ، ففيما يرويه « متى » في الاصحاح السادس والعشرين عن الموقف الذي سبق بداية النهاية المؤلمة ـ انجيليا « ... (٢) نفسي حزينة جدا حتى الموت امكثوا هنا واسهروا معي ، ثم تقدم قليلا وخر على وجهه ، وكان يصلي قائلا : يا ابتاه ان امكن فلتعبر عني هذه الكأس » .

وامام هذا المطلب الرهيب من داخل هذا الموقف العميق والتعنيف الذي ادرك فيه المعلم انه محاصر ممن يودون قتله والتخلص منه فانه يعبر عن الجانب البشري والنفسي ولكن عوامل الاعجاز في المعلم العظيم على ضوء الوحدة الموضوعية لايات الاناجيل تقول على الفور وتفصح « ... ان

---

(١) تقول خيوط المؤامرة بمنهجها العلمي في هذه الدراسة الذي لا يتقيد بعاطفة معينة تجاه بعض الامور المعتقدة والا فان نهاية السيد المسيح بالشكل الذي رسمته الاناجيل معتقدا مسيحيا بمثل القوة التي ستمحو كل خطايا التائبين تقول رسالة « المسيح رئيس كهنتنا الصادرة ضمن سلسلة روح النبوة ـ الربع الرابع ـ عام ١٩٦١ م. الدرس الحادي عشر الماخوذ من كتاب : ارشادات للكنيسة والمطبوع في دار الشرق الاوسط للطبع والنشر .
(في يوم المجازاة الاخير العظيم ، سيدان الاموات ، ما هو مكتوب في الاسفار بحسب اعمالهم) وحينئذ بقوة دم المسيح ستنمحي كل خطايا التائبين حقا من اسفار السماء « اما يسوع فيتوسل لاجلهم بحق يديه المثقوبتين وجسده المسحوق » ويعلن لكل الذين يرغبون في اتباعه قائلا : « تكفيك نعمتي » ، صفحة ٥١٩ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون ـ آيات : ٣٨ ـ ٤٠ .

امكن ان تعبر عني هذه الكأس ، ولكن ليس كما اريد انا بل كما تريد انت ».

ولقد كان عليه السلام رغم ادراكه التام لبهيمية الطبع الملتوي والخلق النهاز الذي عليه كل الجماعات التي تطارده وتحاصره — وفوق ان الدعوة على يديه بالاسلوب العف المسالم قد صنعت مجموعة من المؤمنين به — الا انه كان يود ان يخيي همم الذين حواليه وان يعبىء مشاعرهم . وأن يعمق ايمانهم في ان يكونوا في حالة تهيؤ للبذل والتضحية ، يتضح مثل هذا الجد حين جاءهم عليه السلام ووجدهم غير مدركين تماما لنوع الخطر المحيط بهم والفجيعة المحدقة بهم ، فقال لهم حسبما تقول رواية « متى » في الاصحاح السادس والعشرين حين جاء للتلاميذ ووجدهم نياما ان قال « لبطرس » :

« ... اهكذا ما قدرتم ان تسهروا معي ساعة واحدة اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة ، اما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف ، فمضى ثانية وصلى قائلا : يا ابتاه ان لم يكن ان تعبر عني هذه الكأس الا ان اشربها فلتكن مشيئتك . ثم جاء فوجدهم نياما ، اذ كانت اعينهم ثقيلة فتركهم ومضى ايضا وصلى ثالثة قائلا ذلك الكلام عينه ثم جاء الى تلاميذه وقال لهم ناموا الان واستريحوا هوذا الساعة قد اقتربت وابن الانسان يسلم الى ابدي الخطأة ، قوموا ننطلق هوذا الذي يسلمني قد اقترب (١) .

ومع كل ذلك امام مواجهة الخطر فان السيد المسيح هو الذي قال بالامر الواضح منفذا للمشيئة « ... هوذا الذي يسلمني قد اقترب » :

اليهود يقبضون على السيد المسيح :

مما توضحه الاناجيل عن نوع العلاقة التي كانت بين مجموعات الوشاة والخدم والعبيد الذين يعملون في خدمة سلطات الوالي الروماني في عصر السيد المسيح فان من بين اولئك الذين كانوا في نفس الوقت الذي يعملون فيه خدما ووشاة وعبيدا للرومان كان الكثير منهم القائم بأمر الاخلاق والدين بين جماهير الشعب اليهودي : سطوة وسيطرة وسيادة، ولما كان هؤلاء الوشاة اصحاب السيادة والسيطرة والامتياز على جمهور

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون — آيات : ٤١ — ٤٦ .

الشعب اليهودي فقد قويت العلاقة فيما بينهم جميعا متكاتفين متعاونين من اجل السيطرة على كل حال الشعب اليهودي ودوام استمرارها، ومن اجل التخلص من خطر الدعوة الجديدة التي لم تتعرض للدولة الرومانية بهدم او بناء ، ولكنها كانت تبني مجتمعا جديدا على اساس من علاقات الامن والحب والدعوة الى شريعة الضمير . (١) وكان هذا المنهج الاخلاقي العف المسالم يشكل الخطر المحقق على دولة الرياء والنفاق المسيطرة على جماعات اليهود المرائين المنافقين الذين يحبون المتكئات الاولى والمجالس الاولى والمحافل الاولى .

وكانت هذه العلاقة ، قبيل القبض على السيد المسيح قد بلغت ذروة التلاقي والتعاون الى الحال الذي اصبح انه لم يكن يرفض من طلب او رجاء للجماعات اليهودية التي تعمل في خدمة الوجود الروماني والممثلة للسيادة والاستغلال والسيطرة على جماهير الشعب اليهودي ، ويعبر عن نوع هذه العلاقة مثلا الحوار الذي تم بين الوالي الروماني « بيلاطس » وبين القوة الثائرة الساخطة حين كانت العادة ان يطلق لهم الوالي بمناسبة عيدهم كل عام مذنبا او مخطئا ، ولما كان السيد المسيح قد قبض عليه استجابة لالحاح وثورة القوة الممثلة للسيطرة اليهودية ولما كان هذا القبض قد تم بمساعدة جند الرومان وسيادة الدولة فقد كان الوالي يعلم تماما ان عملية القبض على السيد المسيح كانت لغير ما اتهام أو جريمة ، فانه على حد رواية الاناجيل بعد ان ارسلت اليه امرأته قائلة « اياك وذلك البار » (٢) كان يؤثر ان يطلق سراحه عقب القبض عليه وخاصة في مناسبة العيد استجابة للمطلب التقليدي في ان يطلق لهم كل عام مذنبا ، ولقد كان تصور بيلاطس على حد رواية « متى » ان الجماهير اليهودية لم تكن قد استجابت لثورة كهانها والمسيطرين عليها فكان يرغب في ان يكون مطلب الجماهير اطلاق سراح « السيد المسيح » ولكنه امام المطلب اليهودي في ان لا يطلق سراح السيد المسيح لم يكن عليه الا ان يستجيب .

وكانت عملية القبض على السيد المسيح قد تمت بطريقة تتنافى وقداسة السيد المعلم مما يكشف عن نهاية هذه المقدمة التي بها تم القبض عليه ، هي انهم لم يكن مطلبهم اطلاق سراحه بل المطالبة باعدامه .

---

(١) راجع في هذا كتاب « عبقرية المسيح » للاستاذ عباس محمود العقاد صادر عن دار الهلال ـ القاهرة .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السابع والعشرون : الآية ١٩ .

اقول فانه على حد رواية « متى » فان عملية القبض قد تمت بطريقة تتنافى وقداسة السيد المعلم فقد سيق في عنف وقسوة كأنه مخرب او مخطىء او مسيء . ولقد استاء عليه السلام من اسلوب القبض عليه الى الحد الذي يقول فيه « متى » فيما يرويه عن السيد المسيح انه قال : « .... في تلك الساعة قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني » .

وعقب عملية القبض التي تصورها الاناجيل يقول « متى » انه : « ... فيما هو يتكلم اذا يهوذا واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير ، بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والذي اسلمه اعطاهم علامة قائلا الذي اقبله هو هو امسكوه فللوقت تقدم الى يسوع وقال ، السلام يا سيدي وقبله ، فقال له يسوع ، يا صاحب لماذا جئت ، حينئذ تقدموا والقوا الايادي على يسوع وامسكوه » . (١)

وهنا على حد هذه الرواية الأنجيلية يتعرض السيد المسيح لموقف في غاية الخطورة ومنتهى الدقة في كل تصرف او بادرة منه ، ذلك ان الذين امسكوه قد مضوا به الى بيت رئيس الكهنة المدعو « قيافا » حيث كان القوم جميعا من الكتبة والشيوخ وغيرهم من رؤساء الشعب اليهودي وقواده الذين كانوا قد البوا عقب القبض عليه كل جمهور الشعب اليهودي بمختلف فئاته وطوائفه الى الحد الذي امكن فيه الحصول بيسر على من يتقدم بشهادة زور للمحاكمة الغاشمة التي عقدت للسيد المسيح في حوار عنيد وقائم على التحدي والسخرية .

ولقد جاء على حد رواية الاناجيل شاهدا زور ، وقالا ، هذا قال : « اني اقدر على ان انقض هيكل الله . وفي ثلاثة ايام ابنيه » (٢) .

وامام هذا السخف في جو موبوء ومسموم بالحقد والوشاية والدسائس ، كان رئيس الكهنة يقول للسيد المسيح في سخرية شامت : « هل انت المسيح ابن الله » ... ولا يجيبه السيد المسيح بغير قوله « انت قلت » .

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : ٤٧ ــ ٥١ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : ٦١ .

وحين قال السيد المسيح للجمع المنافق المتآمر في لقاء محاكمة غير ذات موضوع عقب القبض على السيد المسيح مباشرة : « أقول لكم من الان تبصرون ابن الانسان جالسا على يمين القوة، وآتيا على سحاب السماء »(١) : ان مزق رئيس الكهنة الحاقد « قيافا » ثياب السيد المسيح قائلا : قد جدف ما حاجتنا بعد الى شهادة شهودها قد سمعتم بحديثه . وقاموا كما يقص انجيل متى في الاصحاح السادس والعشرين في بهيمية الغوغاء والسوقة ، كي يبصقوا في وجهه ويلكموه ويلطموه قائلين : تنبأ لنا ايها المسيح من ضربك (٢) .

الاقرار بالخطيئة اليهودية :

خطيئة القتل الكبرى التي قام بها اليهود على ـ حد رواية الاناجيل ـ عند مطاردتهم للسيد المسيح وقتله ، لم تكن عملية استأثرت بها طائفة من اليهود دون باقي الطوائف اليهودية . ولا اثما وقع فيه بعضهم باندفاعه او علاقة خاصة يمكن ان يتبرأ منها الآخرون ، وانما الخطيئة التي تقصها ايات الاناجيل وخاصة فيما ورد في « متى » من الاصحاح السابع والعشرين ان الشعب اليهودي ممثلا في سادته وشيوخه وكهانه استجاب لموجة من التضليل رهيبة ومخيفة اعمت الشعب جميعه عن الحقيقة التي ارادوا قتلها ، والتخلص منها . ليعودوا مرة ثانية بعد التخلص من خطر الدعوة الجديدة الى مراحل القهر والزيف والرياء والنفاق التي طالما تم فيها استغلال عرق المكافحين حتى ضاعت بينهم وفيهم قيم العدل والاخاء .

يقول « متى » بعد ان وصف بشاعة الطريقة التي تم بها القبض على السيد المسيح حين خرج القوم عليه جميعا في اندفاعة عمياء الى ان قال لهم السيد المسيح في وصف حالهم حين احاطوا به في تناحر وسوء قصد « ..... كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني » .

« .... ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب

---

(١) انجيل متى الاصحاح السادس والعشرون : ٦٤ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : ٦٨ .

على يسوع حتى يقتلوه ، فأوثقوه ومضوا به ودفعوه الى بيلاطس البنطي الوالي » . (١)

وهنا فقط اذا كان لنا ان نقف عند ايات الاناجيل والمعتقدات التي وردت بها ، فنقول على ضوئها : ان عملية القتل التي قام بها اليهود ضد السيد المسيح لم تتم الا بعد اجتماع ومشاورة واقرار . لو لم يكن الشعب اليهودي جميعه قد غلب على امره ، وضلل تماما ، واصبح ارادة عمياء ، تبغي ما يريد القوم الذين استشعروا خطر دعوة السيد المسيح ، لما تيسر للمجتمعين ان يحققوا ما ابتغوا ولقامت في وجههم طوائف الجموع الفقيرة والمثلة من طول آلام السخرة والسيطرة اليهودية في ظل قسوة الطبقات اليهودية المستغلة . اقول لولا ان الجماعات الفقيرة والمريضة التي كانت ترى ان السيد المسيح اداة لها ومخرجا من محنة الالام وشدائد البلاء قد غلبت على امرها ووصلت بها موجة التضليل الى الحد الذي اصبحت فيه هذه الجماهير بمختلف طوائفها اداة عمياء لما تيسر للمجتمعين والمتأخرين ان يحققوا مبتغاهم ضد السيد المسيح ، وهذا التقرير على حد ما تصوره الاناجيل للمؤمنين بها يتضح تماما ويتقرر مما يصوره « متى » في الاصحاح السابع والعشرين، وهو يرسم الجو العام لحال الشعب اليهودي حين اقرار الخطيئة قبل تنفيذها فيقول .

« ... ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على ان يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع فأجاب الوالي وقال لهم (٢) : من من الاثنين تريدون ان اطلق لكم ، فقالوا باراباس فقال لهم « بيلاطس » فماذا افعل بيسوع الذي يدعى المسيح قال له الجميع ليصلب ، فقال الوالي واي شر عمل فكانوا يزدادون صراخا قائلين : ليصلب ، فلما راى بيلاطس انه لا ينفع شيئا قال : اني بريء من دم هذا البار، ابصروا انتم، فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى اولادنا، حينئذ اطلق لهم باراباس، وأما يسوع فجلده واسلمه ليصلب » .

وامام هذا النص الانجيلي الذي ورد عند «متى» فان الصورة الانجيلية

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السابع والعشرون : ١ ــ ٢ .
(٢) انجيل متى : الاصحاح السابع والعشرون : ٢٠ ــ ٢٦ .

والتي يؤمن بها كل اصحاب المعتقد الديني (١) في الاناجيل تصور الشعب اليهودي جميعا بانه قد استجاب لثورة كهانه وشيوخه واصبح معهم تحت توجيه القادة في رفض كامل لكل ما يتعلق او يتصل بالسيد المسيح ، بل ويصور رغبة الوالي في ان يعفو عن المذنب الذي آخر العفو عنه كما كان يتبع تقليديا فقد كان الوالي يريد ان يقدم للجماعات اليهودية في عيدهم ملذنبا عندهم هو السيد المسيح ويطلق لهم سراحه .

ولقد كان يوجد وقت القبض على السيد المسيح ومطاردته عند القوم جميعا مذنب كبير ومخطىء اثم يعرفونه ، ويتأكدون من عظم ذنبه وفداحة ما اقترف . ولكنهم اصروا على التخلص من السيد المسيح ، ومع اختلاف طبيعة كل من المتهمين السيد المسيح والمذنب الاثم الا ان القوم جميعهم في الثورة العمياء والاندفاعة الحمقاء قد قتلت فيهم جميعا المعاني الانسانية التي كان من الممكن ان تربطهم بقيم او عقيدة وجعلتهم يأبون ان يطلقوا سراح المعلم والداعية بعد ان عميت قلوبهم وبصائرهم واصبحوا يمثلون موقفا غوغائيا احمق ، ومن عجب ان ايات الانجيل لم تخل عند هذا المعتقد بالذات في روايتها له من الاسهاب والتفاصيل لكل ما يتعلق بالظروف العامة وبالدقائق التي كانت من وجهة نظر الرواة الانجيليين تحيط بالنهاية التي فرضها اليهود على السيد المسيح « سلام الله عليه » .

ولقد كان اقرار الخطيئة اليهودية التي قرر القيام بها وتنفيذهاتحالف قوى الكهان والشيوخ تعبيرا عن توجيه ممثلي فئات التناقض الاجتماعي من الفريسيين والبارسيين والصدوقيين والعشارين والمرابين وغيرهم ، ثم تأثيرهم جميعا في الحال الاجتماعي كله وتلويثهم لما تبقى من العقيدة الدينية التي كانت مناخا عاما للسيد المسيح من آثر دعوته .

ولقد بلغت السيطرة اليهودية تضليلا للجماهير المغلوبة على امرهـا الى الدرجة التي كانت تجعل جمعا كبيرا من الشعب المريض المطحون بالالم يتجرد من الولاء للبشارة الدينية على ايدي السيد المسيح ويتحلل من الارتباط بالعقيدة الدينية على يد المعلم العظيم ، ولقد بلغ من سيطرتهم على

---

(١) انظر في هذا : سلسلة المحاضرات التي القاها القس سرجيوس وطبعت بمطبعة التقدم تحت رقم ايداع بدار الكتب ٥٤٣٨ بعنوان « ان لم يكن المسيح الهـا فديانته تكـون باطلة » ، الجزء الاول ، صفحة ٧٨ .

الجماهير البسيطة ان الذين كانوا يرون في السيد المسيح المخرج والخلاص اصبحوا تحت أسر القوى الثائرة تثور هي الاخرى وتهلل للنهاية التي مثلت ابشع مرحلة في تاريخ قاتلي الانبياء وراجمي المرسلين .

ولقد كان كل هذا بعض حلقات في السلسلة الطويلة التي تربط وجود الفرد الانسان اليهودي ومجتمعه الى بهيمية الطبع الملتوي والخلق النهاز الذي يأبى الا ان يكون مسيطرا او سيدا او مستغلا يمثل كل اساليب العلاقات العنصرية ومظاهر الاستغلال المقيت ، ما ان تلوح في افق حياتهم دعوة من الحق والعدل والمساواة ، الا وتقوم الكهانة الدينية في خدمة السيادة الدنيوية وتتكاتف قوى تناقضات الميراث القائم على الوشاية والاستغلال حتى تتخلص من الدعوة والدعاة بالقتل او بالتشريد أو المطاردة وهذا هو ما تقصه ايات الاناجيل كميراث لكل المؤمنين بهذه الايات عما تعرضت له دعوة المعلم العظيم ، وعما تعرض له وعما نال اصحابه ووقع عليهم من صنوف المحن والآلام حتى انتهى الدور العظيم للمعلم سلام الله عليه وقوى الاستغلال اليهودي ساخطة عليه وثائرة .

حادث الصلب حقيقة دينية مسيحية

قلنا في كتابنا « الصهيونية في التاريخ » الصادر في عام ١٩٦٧ م والذي نشرته « مكتبة القاهرة الحديثة » (١) ان حركات الاصلاح الديني والدعوات الالهية كانت تجد بجانب الذين يستجيبون لها ويتحرك الوازع الديني عندهم في لهفة وسرعة استجابة ، ينشدون اصلاح احوال الحياة العامة ، ويتطلبون في أمل ان يكون اسلوب الدعوة الدينية اداة لهم في طهر ونقاء اسلوب المعيشة كبديل لعلاقات الاستغلال والسيطرة ، الكثيرين ، ممن تشكل عليهم قيم الدعوة الى الحق والعدل خطرا ، وتهدد مصالحهم وامتيازاتهم او تقفل عليهم ابواب التسلق، ومحاولات السيطرة والنفاذ الى مقدرات الانسان والحياة بقصد الاستغلال لمتطلبات الحس وحاجة الهوى والمصلحة الخاصة .

---

(١) كتاب الصهيونية في التاريخ من الكتب التي تلقتها الطوائف المسيحية في الوطن العربي بالبشر والترحاب ، وعلقت عليه هيئات دينية مسيحية بالنقد الكريم وقد نفدت الطبعة الاولى في نفس العام .

وأمر السيد المسيح عليه السلام في وجود اتباع له ومريدين من الحواريين والتلاميذ ، بل والمناضلين من اجل دعوته والارتباط بها ، ليس بدعا دون غيره من الدعاة ولا دعوته نشازا دون سائر الدعوات الا انه عليه السلام منذ البداية حين تحرك ينشد الصلاح والخلاص، محاولا ان يستأنس الخراف الضالة من بني اسرائيل ، تحرك في مجتمع متعفن التقاليد جامد العواطف تسيطر عليه الطبقية المستغلة من تجار الحكم ، وتجار المال وتجار الدين ووسط صراع وتناقضات مجتمع العشارين والمرابين والفريسيين والصدوقيين ، وكل هذه القوى التي كانت تسيطر على المجتمع الذي بدأ فيه المعلم العظيم الدعوة والعمل الى قيم التطهر والنقاء . وكان هذا وحده كفيلا بأن يعرضه للمشقة وللمخاطر . وبأن يقضي عليه وعلى دعوته منذ البداية الاولى قبل ان يشكل خطر الدعوة على الذين تهدد الدعوة امتيازاتهم وتسلبهم ادوات استغلالهم الا انه عليه السلام باسلوب الدعوة المسالم والعف في اكثر الحالات وأعظم المواقف ، استطاع ان يواصل عبء مشقة الدعوة الى قيم التطهر والنقاء . الى ان اصبح هو واصحابه من الحواريين والتلاميذ والجموع الغفيرة من المرضى والمعوزين من عامة الشعب اليهودي في عصر الميلاد ، يشكلون خطرا اكيداً ومحققا على اسلوب الحياة الاجتماعية القائم على الاستغلال ومنهج الحياة الاقتصادي القائم على الاحتكار والمتمثل في طبقية كل طوائف الشعب اليهودي وتناقضاته .

وعليه فان القيم الجديدة بقدر ما كانت عمليات رفض لمظاهر الاستغلال الصارخة فانه بالتالي كان خطر الدعوة الجديدة اخلاقيا يكتسح من امامه كل عفن ديني وكل كهانة اخلاقية وكل جمود على العرف والتقاليد، وليس من العجب او غير المألوف ان خطر الدعوة ــ اخلاقيا ــ سرى الى سلطات الدولة الرومانية نفسها في اورشليم « القدس » وكل امتدادها ، مهددا النظام الغاشم القائم على القهر والاستعباد ، رغم ان الدعوة المسيحية على حد روايات الاناجيل لم تتعرض للدولة الرومانية صراحة في ثورة دين ، بهدم او بناء .

وامام كل ما تمثله الدعوة الجديدة على يد معلمها العظيم . فليس غريبا ان تتكتل الجهود ، جهود كل قوى التناقض اليهودي الطبقي ثم تتعاون قوى السلطات الرومانية مع التحالف اليهودي ويقرر موقف الوالي سلبيا متميعا ، كي يكون بالسلبية دون التدخل المباشر من قبل الدولة وانما بالتحالف غير المباشر وبالمؤامرة والخداع المجال ميسرا ومهيئا لامكانية التخلص من خطر الداعي الجديد .

ولقد بذل القوم جميعا في تحالف وارتباط وتآمر جهودا قويةومضنية في التخلص من المعلم الجديد .

الا ان النهاية في هذا المقام تنحد ملامحها حسب معتقدات وتفسيرات متعددة فبينما ترتسم الصورة انجيليا بشكل وكيف معينين تحدد وتوضح ملامحهذه النهاية ، فان النظر اليها يختلف في معطيات تاريخية ودينية من واحدة لاخرى ، الا اننا هنا وبمنهجنا في تصوير الملامح العامة ، للمسار التاريخي لا نجعل للمعطياتالدينية فيما يؤمن به فريق دون الآخر فيموقف معين من النظر الديني لمعتقد ديني ترتبط به عواطف قوم دون غيرهم كل تصورنا لمجموع القضايا الكثيرة والمتشعبة التي تبرز من بين ثنايا الرحلة الطويلة في استعراضنا لتاريخ بني اسرائيل ــ حتى عندما جئنا الى مرحلة العهد الجديد وانما نحن نعرض ونسجل صورا من المعتقدات للباحثين والدارسين .

ولما كانت ايات الاناجيل ، وهي في جملتها وتفصيلها تمثل موقف رفض وسخط بل وحرب لكل ما خلفه مجتمع اسرائيل عبر التاريخ ولكل ما كان عليه مجتمع اسرائيل في عصر الميلاد ، فاننا نأتي عليها لنسمعما نقرره عن علاقتها بشعب اسرائيل المدعي ، خاصة وانها قد اصبحت منذ عصر الميلاد ايات عقيدة لمن آمن من بني اسرائيل بالسيد المسيح واصبح مسيحيا خالصا منقطعة كل صلة له ببني اسرائيل وتاريخهم ومعتقداتهم وميراث اخلاقهم وكل ما كانوا عليه في حالة من عقيدة الرفض لكل مظاهر الزيف والنفاق والوثنية متحليا بقيم النقاء الديني والتطهر الروحي الذي دعا اليه المعلم العظيم ، لذا فاننا هنا في تتبعنا التاريخي لمسار بني اسرائيل ندرس في هذه الصفحات عصر الميلاد وانه من الضرورة ان نعرض لايات العقيدة الدينية للمؤمنين بصاحب الميلاد عليه السلام في تصورهم ومعتقداتهم نحو العلاقة الدينية والتاريخية بينهم وبين الذين كانوا بالامس ــ حسبما ينظر بعض من الذين دونوا لعصر الميلاد ــ الجزء الاسبق منهم في انتظار المخلص، ولولا قيم وعقيدة وآداب الدين الجديد الذي آمنوا به على يد السيد المسيح وانفتحوا به على غيرهم والتقوا به في الحياة وتطهروا به من دنس الطبع وسوء الطوية ، لما كان في التاريخ الاسرائيلي ما يستحق الدراسة او ما يمكن الوقوف عنده في موضوعية علمية (١) .

---

(١) انظر : « اليهودية واليهودية المسيحية » للاستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، عام ١٩٦٨ ــ القاهرة .

اقول : لولا رفض السيد المسيح عليه السلام لكـــل ما كان عليـه الاسرائيليون وما يحملونه من ميراث مدعى ، ودعوى عنصرية ، وانغلاقيـة بها استطاعت فئات ان تكون لنفسها مجتمع السادة الذين يحيون الحيـاة بكل امكانيات الاستغلال والسيطرة ، لولا رفض السيد المسيح لحياة النفاق في مجتمع اسرائيل ومحاولته ان يستأنس الخراف الضالة ، لما كان فـي التاريخ الاسرائيلي وبالمعطيات الدينية اليهودية التي بين ايدينا اليـوم ما يستحق الدراسة له ، والوقوف عنده فما اكثر التناقضات التي تضج بها ايات العقيدة الدينية عند القوم ، وما اكثر الاضطراب والخلل بين كل مـا ساقه القوم من ايات العقيدة ، وزيف وميراث التاريخ المدعى .

وعليه فانه حسبما تصور اكثر النصوص التي وردت في الاناجيل فان انجيل « متى » في الاصحاح السادس والعشرين هو الذي يصور لنا بداية النهاية الاثمة بانها كانت على الوجه الاتي :

« ... ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر ، وفيما هم يأكلون قال الحق اقول لكم ان واحدا منكم يسلمني ، فحزنوا جدا ، ابتدأ كل واحد منهم يقول هل أنا هو يا رب فأجاب وقال ، الذي يغمس يده معي في الصفحـة هـو يسلمني ان ابن الانسان ماض كما هو مكتوب عنه ، ولكن ويل لذلك الرجل الذي به ، يسلم ابن الانسان ، كان خيرا لذلك الرجل ، لو لم يولد ، فأجاب « يهوذا » مسلمه وقال انا هو يا سيدي ، قال له انت قلت » .

وعلى هذا فانه فوق جوانب أبعاد المعجزة المحيطة بالمعلم العظيـم في توجيه كل ما يمكن ان يصدر عنه او يحيط به . فانه قد أفصح عن الحقيقة المحيطة به، والتي علم أمرها منذ كانت البداية ضده تآمرا او وشاية، وكأنه قد قال للجميع في اعلان شجاع ثابت مطمئن ، ان الامر قد اصبح على جانب رهيب من الخطورة نتيجة لهذه المطاردة « ... أن واحدا منكم يسلمني » .

وتلعب المعجزة الالهية دورها حسبمـا تصور المصادر الانجيلية عند المفسرين لها حين يحدد السيد الموقف كله : « الذي يغمس يده معي فـي الصفحة هو يسلمني » .

وامام عنف ما تصوره الاناجيل من استقبال المعلم العظيم لهذه النهاية المفجعة التي ارادتها له كل قوى تناقض الاستغلال اليهودي فانه « عليـه السلام » قد ابتدا يدخل مرحلة من الاسى والاسف على ان القـوم الذين

وصف احوالهم « بالخراف » لم تستأنس ولم تتقبل ايات الدعوة وانما انتقل الطبع الملتوي والخلق النهاز الى توحش حيواني مفترس لا يعرف في اندفاعه الحيواني بعيدا عن دنيا الروح ونقاء الضمير الفرق بين طبيعةالخلق السوي والرفض العنصري الشاذ ، ولا الفرق في طبيعة الحياة الحية بين ما هو انساني وبين ما هو ضد الطبيعة الانسانية فامام ضرورة ان يتخلص القوم الثائرون المتمردون الساخطون ، على تعاليم المعلم ومنهجه ، فانهم لم يكونوا بقادرين على ان يدركوا خطر الجهال عليهم والادعياء بينهم والقوى المستغلة لقدراتهم وحياتهم ، ومع كل ذلك فانهم قد قرروا التخلص منه والقضاء عليه . وامام هذه النهاية المفجعة ابتدأ المعلم العظيم علىحد روايات الاناجيل ، يحزن ويأسف لان تكون النهاية هكذا وتمنى في ابتهال الصادق ودعوة النبي ، وصدق العظيم ، ثم وبالاضافة لكل هذا وفدائية البطل ان لا تكون النهاية هكذا الى ايدي قاتلي الانبياء وراجمي المرسلين ثم حاول ان يعبىء مشاعر التلاميذ ويشحذ هممهم ، ولكنها كانت النهاية المرسومة في ان تتكتل جهود بني اسرائيل كي يضعوا حدا وان يتخلصوا من خطر المعلم العظيم .

يقول « متى » فيما دونه عن الحال النفسي الذي سبق بداية النهاية الاثيمة « ... وابتدأ يحزن ويكتئب ، فقال نفسي حزينة جدا حتى الموت، امكثوا هنا ، واسهروا معي ، ثم تقدم قليلا وخر على وجهه ، وكان يصلي قائلا : يا ابتاه ان امكن فلتعبر عني هذه الكأس ، ولكن ليس كما اريد انا ، بل كما تريد انت ، ثم جاء الى التلاميذ فوجدهم نياما ، فقال لبطرس ، أهكذا اما قدرتم ان تسهروا معي ساعة واحدة اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة » .

ثم تبرز من ثنايا ما سجله « متى » حقيقة المعتقد الانجيلي الذي تعبر عنه الاناجيل كلها ، وهي تكشف عن جلد وعظمة وايمان المعلم العظيم في موقف فدائي بطل « ... يا ابتاه ان لم يمكن ان تعبر عن هذه الكأس الا ان اشربها فلتكن مشيئتك » .

ووسط هذا الجو الرهيب يدرك عليه السلام حسبما يقص « متى » الموقف على حقيقته .

« ... هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الانسان يسلم الى ايدي الخطاة » . ومن اعجب العجب ان كل هذا الترابط العجيب والغريبالذي

نقصه الاناجيل من انه اثناء هذا الحوار بين المعلم وتلاميذه ، حين كان يكشف لهم عن ابعاد المؤامرة التي تدبر ضده ، وضدهم حتى يتخلص منهم أعداؤهم ان جاءت القوى المتربصة الشر ، ومعهم انموذج من الذين لم تصل الدعوة الى اعماقهم فتجردوا منها نظير اجر يسير ، وتمت عملية القبض المباشر على السيد المسيح فيما يصفه « متى » في الاصحاح السادس والعشرين ، بطريقة انعدم معها ادنى اعمال العاطفة او خلق او ضمير ، وكأن الذي يقبضون عليه ليس هو الذي يدعو الى قيم الحب والتطهر والنقاء ، وليس هو الذي يحيي الامل في قلوب الحزانى والجياع والمساكين ، بل كأنه من الخطأة والمجرمين .

وكان الموقف حسبما يصوره « متى » كالآتي :

« ... وفيما هو يتكلم اذ يهوذا واحد من الاثني عشر ، قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، والذي اسلمه اعطاهم علامة قائلا : الذي اقبله ، هو هو امسكوه فللوقت تقدم الى يسوع وقال السلام يا سيدي وقبله ، فقال له يسوع ، يا صاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا ، والقوا الايادي على يسوع وامسكوه » .

وكتصوير لبشاعة ما عامل به القوم في ثورتهم داعي الحب والسلام في اندفاعة الخراف الضالة التي ابت الا ان تقضم بأسنانها كل كيان المعلم العظيم ..

يقول « متى » عن لحظة الموقف الذي تمكنت فيه قوى التناقض من الامساك بالمعلم ، بعد عمل الوشاية واساليب الايقاع التي لجأ اليها القوم في آن ينزعوا ، واحدا عن دينه وايمانه .

« ... في تلك الساعة قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني » .

وعلى هذا الحال الهمجي الوحشي الذي تصوره الاناجيل حين القبض على السيد المسيح فان اولئك الذين تولوا عملية القبض عليه كانوا من بلادة الحس وانعدام ابسط المشاعر الانسانية الى درجة فوق كل تصور ، ذلك انهم على حد روايات الاناجيل بعد ان امسكوا به مضوا الى « قيافا » رئيس

الكهنة وحيث الكتبة والشيوخ والفريسيون وغيرهم في انتظار اخبار القبض على المعلم العظيم فانه من موقع التآمر وحيث القوم فان السيد المسيح قد ترك بين الخدم فترة من الزمن حتى يجمعوا غوغاءهم ، ويعملوا أنيابهم القاتلة ، كي يتخلصوا في شماتة وتمثيل ممن يشكل عليهم خطر توجيه الجماعات المحرومة والمحروق جهدها والمضيع عمرها وعرقها في المزرعة تارة وفي المتجر تارة اخرى . لكي لا يقوموا في ثورة دين كاثر لذلك التوجيه يأخذ حقوقهم وهدم مسببات التناقض .

وعلى حد ايات الاناجيل التي تصور عملية التلفيق التي وجهت الى السيد المسيح عقب القبض عليه مباشرة ؟ فان السيد المسيح «عليه السلام» قد اخذ موقفا في غاية العظمة والتأبي عن مجاراة القوم في سخرية ما يشمتون وتلفيق ما يصنعون ذلك انه بعد القبض عليه مباشرة فوجىء بمجموعة من المغلوب على امرهم كي يشهدوا على المسيح انه في اثناء تعاليمه وتوجيهه لتلاميذه قد تعرض لسلطان الدولة وجرح قداسة الدين بينما هو قد اخذ على عاتقه ان لا ينقض ولا يهدم بل يتمم ويكمل ، وكان في تصور القوم انه عليه السلام يتمم ويكمل زيف ما هم عليه فبعد توجيه التهمة التي يرويها « متى » في الاصحاح السادس والعشرين عن حال شاهدي الزور اللذين قالا : هذا قال : اني اقدر ان انقض هيكل الله وفي ثلاثة ايام ابنيه، فقام رئيس الكهنة وقال له : اما تجيب بشيء ماذا يشهد به هذان عليك » (١) .

ولما لم يرد السيد المسيح على لغط الساخطين ومهاتراتهم الحوا عليه ان يجيبهم انه المسيح المنتظر ابن الله ، فقال لهم « من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء » .

وعند هذه الاجابة الدقيقة المسالمة في موطن قاتل متآمر ، اغتنمها الماكرون الساخطون ، وتعرضوا له بالاذى ، الذي يصفه « متى » يقول :

« ... فمزق رئيس الكهنة ثيابه قائلا : قد جدف ، ما حاجتنا بعد الى شهود ها قد سمعتم تجديفه ، ماذا ترون فأجابوا وقالوا انه مستوجب الموت حينئذ ، بصقوا في وجهه ، ولكموه وآخرون لطموه » (٢) .

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : ٦٢ ــ ٦٣ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس والعشرون : ٦٦ ــ ٦٨ .

وبعد الحوار المصنوع الذي تم في غير ذي موضوع بين هذه القوى المفترسة وبين السيد المسيح في موقف وبين السيد المسيح والوالي الروماني « بيلاطس » ايام نهاية السيد المسيح في موقف اخر ، ثم بين السيد المسيح والقيصر في موقف غيره ، تقص الاناجيل ، السلوك الباسل، والخلق العظيم المقترن بهذه المواقف الرهيبة فان السيد المسيح قد سلم من ايدي المتآمرين والوشاة الى ايدي ادواتهم كي ينفذوا فيه ما يحول بينهم فيه وبين مواجهة خطره وتأثيره في القلوب هداية وتربية واستجماعا لضياع الذين احرق جهدهم واستغل كدهم وشقاءهم وكان المعلم ملجأ امن لهم كي يحيوا الحياة ويقيموا في ملكوت الرب كما قسم لهم الرب الحياة وكما أرادها عدلا وتكاملا .

وبالخبر الانجيلي فان السيد المسيح قد سلم الى مجموعة من الجند كي تنفذ فيه عملية الاعدام ، والتي كانت تقليديا تتم بطريقة الصلب .

عملية الصلب في المعتقد المسيحي :

من القضايا الجوهرية في العقيدة المسيحية التي تستقي مقوماتها من مصدر كالعهد الجديد قضية صلب السيد المسيح معلقا على الصليب وقضية الخطيئة في اجيال ولد آدم تاب الله عليهم بدم السيد المسيح، هكذا تقول عقائد المسيحيين بالامس واليوم وغدا ، ما لم يطرأ في انماط التفكير جديد .

ومن المهم لباحث في التتبع التاريخي الطويل لرحلة بني اسرائيل في التاريخ ان يسمع وجهة نظر الخصوم ، حتى ولو كانت الخصومة هنا بين الطرفين لا تعني الباحث في عقيدته التي يؤمن بها ، لكن القاء نظرة هنا على الحوار تكون مفيدة جدا وبهذا التصور الذي يعرض لمجرد العرض لجوانب العقيدة المسيحية في قضية كتلك فانه من الافضل منهاجيا ان يكتفى بالاقتصار في التتبع التاريخي الذي نهجناه في دراسة التاريخ اليهودي في هذه المرحلة ــ عصر الميلاد ــ على مقتضيات العقيدة الانجيلية فان الاناجيل وحدها وهي التي يمكن ان تكون لدى باحث يريد التعرض لقضية شائكة كتلك ، وداخل دائرة البحث المستند الى معتقدات دينية مسيحية تشكل اساس العقيدة المسيحية فيما يؤمن به المؤمنون بها على حد روايات الاناجيل التي بين ايدينا فانه بعد المحاكمة الملفقة والتي لم تكن سوى مواقف المهاترة التي ارادها القوم في حوارهم مع السيد المسيح وبعد الاخبار المتعلقة

بالقبض عليه والمناقشات الدينية التي تمت بعد القبض عليه وايضا فيما تقصه الاناجيل ، كان الحال الاجتماعي ان الجماهير اليهودية قد ضللت ، اي انها قد اصبحت في موقف رفض وثورة تمرد وسخط على المعلم ، وكأن « متى » فيما يرويه في الاصحاح السابع والعشرين يريد ان يصف مظاهرة ثائرة وساخطة احاطت بالموكب الذي لازم السيد المسيح ، وهو يساق الى النهاية الاثيمة التي تصورها الاناجيل للمؤمنين بها ، هذه النهاية التي آقترنت بالتعليق على الصليب ، اقول كان ما يقصه علينا « متى » من تصوير غوغائية الشعب اليهودي ، وبهيمية طبعه واندفاعه الاعمى والاحمق وهو يطارد في النهاية داعي الحب والسلام بعبارات الشماتة والسخرية والهزء والنكران ، ثم تشويه كل ما دعا اليه وما نادى به هو كل ما يمكن ان يستفاد عن علاقة الشعب اليهودي عبر التاريخ في موقفهم من دعاة الحق والخير والسلام ، فانه من داخل الحال الذي يصوره « متى » والسيد المسيح يساق في موكب الشامتين الساخطين انه كان قد نزع القوم عنه ملابسه وعروه ووضعوا حول راسه الاشواك وحملوه الالام بعد ان « ... اخذ عسكر الوالي ، يسوع الى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتبة فعروه والبسوه رداء قرمزيا وضفروا اكليلا من شوك ووضعوه على راسه ، وقصبة في يمينه وكانوا يجيئون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام يا ملك اليهود ، وبصقوا عليه ، واخذوا القصبة على راسه وبعدما استهزآوا به ، نزعوا عنه الرداء اذ كان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام ، خلص نفسك ان كنت ابن الله فانزل من على الصليب » (1) .

وهكذا يعمل النكران والكفر عمله ببني اسرائيل في علاقاتهم وتاريخهم من السيد المسيح فحتى اثناء المواقف الرهيبة التي طاردوا فيها السيد المسيح وجاء « متى » فصورها فانهم كانوا على حد روايته اثناء تعليقهم للسيد المسيح على الصليب « عليه السلام » قد وقفوا منه في شماتة وسخرية ، ينادون بعبارات الجحود والنكران مؤملين في اندفاعهم وحقدهم ان يقتلوا في قلب من لا يزال متعلقا او مرتبطا بما دعا اليه المعلم « عليه السلام » كل اثر لهذا الارتباط .

---

(1) انجيل متى : الاصحاح السابع والعشرون : ٢٧ ـ ٣١ ـ ٤١ ـ ٤٣ .

يقول « متى » :

« ... وكذلك رؤساء الكهنة ايضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا : خلص اخرين ، وأما نفسه فما يقدر ان يخلصها ، ان كان هو ملك اسرائيل فينزل الان من على الصليب فنؤمن به ، قد اتكل على الله فلينقذه لان ان اراد لانه قال انا ابن الله » (١) .

ومن اعجب العجب انه حتى الذين لم يكن من صالحهم ولا يضيرهم حياة السيد المسيح او نهايته بل وما يكون لهم ان يجاروا قوى التناقض الطبقي الذين يهددهم منهج السيد المسيح في الحياة ودعوته الى الحب والعدل ان اندفعوا مع القوم في ثورتهم واصبح تيار التمرد والسخط والرفض لقيم الحق والخير يشمل جميع فئات وجماعات بني اسرائيل ، فاللصان اللذان كانا حكم عليهما بالصلب وبنفس النهاية التي يبتغيها القوم للسيد المسيح ، قد اصبحا رغم نهايتهما السيئة ، مثل القوم جميعا ، ويرون في السيد المسيح مثلما يستشعر القوم جميعا ، الخطر والرفض لوجود وحياة المعلم العظيم ، فكانا على حد رواية « متى » وتسجيله للمؤمنين المسيحيين يقفان نفس الموقف .

« ... وبذلك ايضا كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه » .

« وعلى ضوء المنهج الانجيلي وتسجيله لرد الفعل اليهودي او لما جابهت به قوى التناقض الطبقي اليهودي الممثلة للسيطرة الاجتماعية استنزافا واستغلالا لا لجماعات اسرائيل في عصر الميلاد ، السيد المسيح عليه السلام فان الشعب اليهودي جميعه لم يكتف بالمطاردة والتضييق والحصار وتعبئة الجهد بالقوة والوشاية . لايقاف خطر الدعوة الجديدة ، بل استجاب لسيطرة كهانه وسادته وانطلق مع المأساة حتى قام بها واختتم نهايتها بنفسه .

وتسجل الاناجيل صورة من حوادث التاريخ الانساني المريرة ، صورة من الصور التي تكالبت فيها قوى الشركي تمزق من الارض قضية الخير قبل ان ينمو ويستقر مطلب الانسان الفرد في ان يحيا الحياة بالحق

---

(١) انجيل متى الاصحاح السابع والعشرون : ٢٧ ـ ٣١ ـ ٤١ ـ ٤٣ .

والعدل حين اصبح مطلبه ، على لسان صاحب دعوة يؤسسسمبادئها ويجمع الناس على اجل الحق والعدل حواليها .

يقول « متى » :

« ... وفيما هم خارجون وجدوا انسانا قيروانيا اسمه سمعان ، فسخروه ليحمل صليبه ، ولما اتوا الى موضع يقال له جلجلة وهو المسمى موضع « الجمجمة » اعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرب ولما صلبوهاقتسموا ثيابه ، مقترعين عليها .

« ... وكان المجتازون يحدقون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين : يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام خلص نفسك ان كنت ابن الله ، فانزل من على الصليب ، وكذلك رؤساء الكهنة ايضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا : خلص اخرين ، واما نفسه فما يقدر ان يخلصها ، ان كان هو ملك اسرائيل فلينزل الان عن الصليب فنؤمن به ، قد اتكل على الله فلينقذه الان ان اراده ، لانه قال انا ابن الله ، وبذلك ايضا كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه » . ثم يبقى في الاناجيل ايضا ما يمكن ان يكشف عن الاسفاف اليهودي في غوغائية بهيمية حمقاء مندفعة وهو ان القوم على حد رواية « متى » في الاصحاح السادس والعشرين رغم فزع الطبيعة المحيطة بالساخطين وجزعها وغضبها من بشاعة صنع القوى المتآمرة بداعي الحب والسلام ، لم تدعوا القوم ولم تعمل فيهم توجيهات من عمل الاعجاز الذي تقصه الاناجيل عن غضب السماء وظلمتها وبرقها ورعدها ، حين الصلب بل ظلوا في عنادهم والاندفاع في خطيئتهم الى فترة يوم بحالة كان من الممكن لو وجد القلب او الضمير الذي به لو تيسر وجود منفذ ضئيل لرؤية الحق ومسائدة قضية المعلم العظيم لامكن للسيد المسيح ان يتخلص وينجو من النهاية التي تقصها الاناجيل معتقدا دينيا انجيليا مسيحيا عند المؤمنين بها ذلك انه على حد رواية « متى » :

« ... من الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الارض الى الساعة التاسعة ونحو التاسعة صرخ بصوت عظيم قائلا : ايلي : ايلي لما شبقتني اي الهي الهي لماذا تركتني ، فقوم من الواقفين هناك سمعوا قالوا : انه ينادي ايليا ، وللوقت ركض واحد منهم واخذ اسفنجة ، وملأها خلا وجعلها على قصبة وسقاه واما الباقون فقالوا اترك ، لنرى هل يأتي ايليا ، يخلصه أم لا ، فصرخ يسوع ايضا بصوت عظيم واسلم الروح » .

وبهذه الايات التي تصور المعتقد الديني بما سجلته الاناجيل عن علاقة الشعب اليهودي وجماعات اسرائيل بالسيد المسيح ، وكيف كانت مقدمات النهاية بالرفض والسخط ثم التمرد والثورة على اسلوب الدعوة ومنهجها وادواتها . حتى كانت هذه النهاية التي تشكل ملامح العقيدة الدينية لمسيحيي العالم على اختلاف مذاهبهم واوضاعهم تدمغ الوجود اليهودي والتاريخ اليهودي بكل غرائز القتل والتآمر والوشاية والرفض لقضايا العدل والحب والاخاء التي كانت تموت دائما وابدا في بيئات اسرائيل ومناخهم قبل ان ترى النور .

واما رسالة ... « الويل لي ان لم ابشر » كانت توضح دائما وابدا العراقيل والتحديات (١) حتى لا تنتشر دعوة الحق والحياة على يد السيد المسيح .

ولقد كانت النيات المبيتة بالغدر والخداع والوشاية في قلب المجتمع الاسرائيلي سببا مباشرا واصيلا في ان تنتزع من البقية الباقية من جماعات اسرائيل منذ عصر السيد المسيح كل معاني الرجاء في خير او اصلاح او عافية أو سلام ، لتوجه كل معاني الخير ومشاعر الامل والرجاء في قوم يعملون الحق ، ويغرسون الكرم ويعطون الثمار كما عبر عنهم السيد المسيح حين كان يواجه الجمع المنافق من جماعات اسرائيل وحدثهم بما سيحل بجماعات اسرائيل لما هم عليه من الطبع الملتوي والخلق النهاز حين اثر عدم الافصاح والتعبير بالرمز عن طبيعة النهاية التي ستحل بجماعات اسرائيل من جدب وكساد وبوار وسوء مصير .

ولقد كانت الظروف العامة المحيطة بنهاية السيد المسيح هي التاكيد، والتدليل لكل المعاني التي ضرب بها السيد المسيح المثل حين ادرك انه لا امل في توجيه القوم او خلق معاني الخير او تحريكها أو اشاعتها في قلوبهم فقال لهم في شبه تصريح رسمي لم يلجأ فيه الى الافصاح تماما والتفصيل وانما اثر هذا الاسلوب الذي تستشهد به كتعبير عن بداية النهاية الدينية والاجتماعية لكل خلق وكيان ومقومات جماعات اسرائيل منذ هذا الحديث الذي ساقه اليهم المعلم العظيم .

---

(١) انظر « موجز الكمال المسيحي » للاب جيوفاني روسي ، صادر عن المعهد الفرنسيسكاني الشرقي بالجيزة ــ القاهرة عام ١٩٦٨ صفحة ٢٧٤

ومنذ هذا الحديث وهو شبه اعلان رسمي من جانبه عليه السلام بينه وبين محدثيه من جماعات اسرائيل واليهود واقرارهم بما ضرب لهم به المثل الذي يؤكد نهاية وجودهم او احتمال الخير والسلام بين صفوفهم اصبح من غير المعقول في دعوى الدين اليهودي فضلا عن زيف السياسة ان يصبح في القوم من يلوك بعد ذلك دعوى الوهم الذي يستبقي في القوم بقية من دين او اجتماع امة او نظام حياة فان مكونات العقيدة الدينية المسيحية تقف على ضوء آيات الاناجيل في موقف رفض كامل لكل دعوى الدين او الجنس المدعاة في تاريخ جماعات اسرائيل ولقد تحددت معالم الرفض المسيحي لكل الوجود الاسرائيلي بما يمثله من خلق او دين قبل المرحلة التي تقص عنها آيات الاناجيل جحود القوم ومطاردتهم للسيد المسيح حين قال لهم ، فيما يرويه « متى » في الاصحاح الحادي والعشرين (١) حين يقول :

« ... كان انسان رب بيت غرس كرما واحاطه بسياج وحفر فيه معصرة ، وبنى برجا ، وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار ، ارسل عبيده الى الكرامين ليأخذ اثماره ، فأخذ الكرامون ، عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم ارسل ايضا عبيدا آخرين اكثر من الاولين ففعلوا بهم كذلك فأخيرا ارسل ابنه اليهم قائلا يهابون ابني ، واما الكرامون ، فلما راوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث ، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه واخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم ، ماذا يفعل بأولئك الكرامين، قالوا له : اولئك الاردياء يهلكهم هلاكا رديا ، ويسلم الكرم الى كرامين اخرين يعطونه الاثمار في اوقاتها ، قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البناؤون ، هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا لذلك اقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم . ويعطى لامة تعمل اثماره » .

وبهذه الآيات المعجزة التيساقها السيد المسيح فيتقرير نهائي، وضع به الختام والنهاية لاسطورة الدعوى التي تلوك وتجتر الحديث المتعلق بالشعب الاسرائيلي المدعي الابوة لسلالة الانبياء والمتصور في اثم انه يعبر عن القداسة الدينية هذه الدعاوى العنصرية التي يزيفها التاريخ الاسرائيلي ضد الشعوب والامم ويمثلها القوم الاسرائيليون كاسلوب حياة في محاولات لاستبقاء وهم التشدق بالافضلية والامتياز او الاختيار والاصطفاء فان

---

(١) انظر : انجيل متى : الاصحاح الحادي والعشرون : آيات ٣٣ ــ ٤٤ .

المرحلة الخطيرة من عمر الوجود الاسرائيلي وهي المرحلة التي حاول فيها السيد المسيح ان يؤصل ويخلق معا معاني الخير في قلوب الذين سرقوا الحق وقتلوا اصحابه على حد ما ترمز اليه عبادات الاناجيل فرفضوا الدعوة وصاحبها ، فكانت هذه البشارة الانجيلية بهذا التقرير الذي يجرد من جماعات اسرائيل حتى امكانية اجترار الادعاء المتعلق بالرسالة الدينية ووحي السماء ، هذه المعاني التي كانوا يدعون تداولها في غير ما ارتباط بها او اخلاص لها .

ومع كل هذه الاستخراجات التي اتينا عليها مما قررتها ايات الاناجيل في تاريخها لنوع العلاقة اليهودية المسيحية التي بدات من جانب جماعات اسرائيل في عصر الميلاد بالتخلص من صاحب الميلاد (عليه السلام) ثم عنادهم واصرارهم ومواصلتهم طريق العداء والرفض بل والمطاردة لكل قيم ومبادىء وعقيدة صاحب الميلاد عليه السلام قائه في العصر الحديث ، وتحت سمع الدنيا وبصرها قد وجد من الذين ارادوا ان يشوهوا ميراث الدين المسيحي وصلب دعوته وعقيدته في خدمة مرحلة جديدة وعصرية من محاولات اليهود ـ صهاينة الحركة الاستعمارية العنصرية الراسمالية ـ مجموعة من العملاء والجهلاء عملوا على ان يشوهوا ايات العقيدة الدينية المسيحية التي تكشف عورات اليهود وسوء نياتهم نحو قيم الحب والحق والخير وتبدد النظر عن اثم عملهم وخطيئة ميراثهم كان ذلك حين امكن لنشاط اليهود العالمي ان يصل الى معقل القداسة الدينية وموطن التطهر المسيحي في العالم كي يمسخ ويشوه الآيات التي تقوم عليها قداسة الدين المسيحي ومعتقد المسيحيين في الفاتيكان وفي غيره من بقاع ارض ، وحيثما يوجد مسيحي يرد ويضع ايات من الاناجيل يؤمن بها ويعتز بقداستها .[1]



الباب السابع

- السيد المسيح في الفكر الاسلامي .
- وأدلة هؤلاء على هذا الراي هي .
- قوى المقاومة اليهودية للمسيحيين .
- موقف الاباطرة من المسيحيين .
- علاقة اليهود بالفاتيكان .
- أطماع اليهود العقائدية في الفاتيكان .

« السيد المسيح في الفكر الاسلامي »

هذه القضية الشديدة التعقيد ، أدلى فيها الفكر الاوروبي بدلوه في مناسبات بحوث علمية عديدة ، وعند تناولها عرضوا لموقف العقيدة الاسلامية منها باعتبار انها من اكبر العقائد السائدة في العالم فضلا عن سلامة مصادرها في الرأي والتوجيه .

ومن المعروف ان القرآن الكريم عند حديثه عن السيد المسيح يرد الحديث دائما على ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم، وانه نبي رسول لم تتقبل دعوته عند الذين بعث اليهم واسعد به حواريون اجلاء مثلوا بطولة العقيدة الدينية وجلدها ومقاومتها لكل ضروب الطغيان والعدوان .

وان قوى العدوان اليهودي تكالبت عليه بالتآمر ومحاولة وضع حد للدعوة المسيحية بالقضاء على صاحبها لكنه كنبي رسول كان موضع تكريم الله وعنايته ولم يتعرض لما اعد له من التخلص .

وقد اورد الامير « شكيب ارسلان » في « حاضر العالم الاسلامي » من الجزء الاول دراسة اسلامية حول موقف الفكر الاوروبي من النظرة الاسلامية لهذه القضية، ونحن نريد ان نأتي عليها مزيدا للفائدة واستشهادا بالبحث العلمي الجاد .

ذلك انه يبدا القول ان القرآن يطهر ام السيد المسيح تطهيرا من كل دنس يقول « ان لعيسى مكانا مستثنى في القرآن الكريم »(١) ذلك بأنه مولود على غير الاحوال البشرية المعتادة ، وانه رسول الله الوحيد

---

(١) حاضر العالم الاسلامي تاليف لوثرب ستوارد الامريكي ، ترجمة الاستاذ عجاج نويهض الجزء الاول الصادر عن دار الفكر ، صفحات ٦٣ ـ ٧٢ .

الذي في القرآن يخاطب الحق ويجاوبه، وانه كلمة الله الحية وليس بمجرد واسطة للرسالة . قلنا : ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام في القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل ، وهو انه خلقه الله مباشرة على غير المعتاد من ولادة البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبيد الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحا من الله غير ناف عبودية الله الواحد الذي لا اله غيره قال الله تعالى « يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم » . انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا » .

ثم يقول « درمنغهم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تأييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالتجليات العليا والعلوم الكونية ، كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدع لنفسه العصمة .

والذي نعلمه ان الاسلام يعصم الانبياء جميعا عن الكبائر وهذا لا يمنعهم من ان يستغفروا الله بكرة واصيلا . وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم من اكثرهم عبادة واستغفارا وكان يصلي حتى ترم رجلاه .

ثم يقول (درمنغهم) ان القرآن يقول في المسيح ما تقول الكنيسة، اي انه كلمة الله وروح الله نزل في بطن مريم كما انه بشر تام البشرية . وانما ينتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذ بهما ، وبحسبما كان يقول المبتدعة — وفي الاصل الهراطقة — ولا يستطيع المسيحي الا ان يوافق على ما يقول القرآن من انه كبر مقتا عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم االنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله) فلقد كانت في الشرق نحل تعبد مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ابيفانوس ان الكولوريديين كانوا يقدمون خبزا لمريم على سبيل العبادة ثم ياكلونه .

اننا ذكرنا قول (درمنغهم) هذا لا لنوافقه فيه جميعه بل لنبين ان

القرآن لم يخطىء فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن في ذلك مخطئون .

فقد وجدت نحل تعبدها في القديم ولا تزال في ايامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية فقوله تعالى : (أانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين) معناه : انت قلت للناس اتخذوني وامي معبودين . ثم يزعم (درمنغهم) ان قول المسلمين بأن القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الازل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقي يقول : اذا قلتم ان الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلتم انهما مخلوقان افتريدان ان تقولا ان كان وقت من الاوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟ وهنا بدون ان تدخل في هذا البحث الطويل العريض الذي ربما لا ينتهي وبدون ان نذكر قول المسلمين ما خلا المعتزلة بعدم خلق القرآن وقول النصارى بكون الكلمة هي من الازل انها هي المسيح، نكتفي بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه انه آية من آيات الله وان الله أوجده راسا بلا اب وان قوله (كلمة الله) معناه انه وجد بكلمة التكوين (كن) وفي هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من ازلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح وكيف تطبق ازلية المسيح على قوله تعالى : (قل فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعا) وقوله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقد حاول (درمنغهم) ان يوفق بين الديانتين في عقائد كثيرة الى ان وصل الى قضية الصلب فقال انها اشدها اشكالا ، وذلك ان الاسلام التاريخي لا يعرف سر الفداء . وربما يجد حاجة للكلام على الفداء لانه موجود في الانجيل والانجيل مصدق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كمخلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهي لخلقه الى حد ان يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم فان الاسلام يريد ان ينزه الالوهية تنزيها عظيما ويجعل الله بائنا عن خلقه الا انه بهذا وقع في التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم في النصرانية وهو (ان الله محبة) .

فالمسلمون لا يقدرون ان يعتقدوا ان الله الذي يحب المسيح يتركه يصلب كما ان اليهود لا يقدرون ان يفهموا المسيح الا ملكا ارضيا فاتحا على

ان نعرآن قال من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا وهذا فيهما يشير الى قول بولس الرسول وهو (انه بخطيئة واحد قد عم الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التي هي مصدر الحياة) .

نقول ان كل هذه المباحث اذا اخذ بها الانسان لا تنتهي وكتابنا هذا كتاب تاريخ لا مثار جدل وحسبنا أن نسرد اقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا ان نستخرج من قوله تعالى : (انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن احيانا فانما أحيا الناس جميعا) الدليل الذي حاول (درمنغهم) استخراجه بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق . وهذا امر بديهي لا جدال فيه لان النفس هنا تمثل النوع الانساني . وكذلك من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا لانه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع. وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم في القصاص حياة) وليست هذه المسألة في شيء مما قاله بولس الرسول الذي يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الاصلية اي معصية آدم الشامل وزرها لجميع ابنائه ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الارض وصلبه فداء لابناء آدم ، وتخليصا لهم من تبعة معصية ارتكبها ابوهم . نعم هذا ركن العقيدة المسيحية ، لكنه لا يلتئم اصلا مع عقيدة الاسلام التي لا يؤخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسري وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا تزر وازرة وزر اخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين.

ثم يقول (درمنغهم) ان الاسلام ينفي موت المسيح مصلوبا مهينا بل يقول ان الله قد رفعه اليه ولم يبق في أيدي اليهود الا شبحا او شخصا آخر شبه بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التي هي مستغربة عقلا وتاريخا، وهادمة لاجمل قصة معروفة في العالم ، والتي بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الاوهام مستفادة من اية قرانية متشابهة هي هذه :

(وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما) .

قال : فالمعنى الحقيقي الوحيد لهذه الآية التي تثبت قيام المسيح

اكثر مما تنكر موته ، وتعني برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلل كيد اليهود وان عيسى لم يقع في أيديهم بل خرج منها فريدا منصورا . وهذا هو عين ما تقوله النصرانية فان اليهود بحسب قول النصارى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، وبينما يظنون انفسهم قضوا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذا لمشيئة الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا تجاه العالم .

قال (درمنغهم) : فقول القرآن (ولكن شبه لهم) يذكرنا بأقوال العهد الجديد وبولس الرسول عن حمل الله المكفر عن سيئات البشر وعن آدم الجديد الذي جاء بدل القديم . فاذا فكرنا في ان المصحف الحالي تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد ابطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هي كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شيء ما عدا هذه العقيدة جامع موحد بينهما ؟ ان (درمنغهم) لا يراها كافية .

ثم قال : بل اننا لو فرضنا وجوب اخذ هذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لان آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه ليس ابن الله هو الذي صلبه اليهود واماتوه على الصليب، وانما الطبيعة البشرية التي في المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الابدية ولكن يكونون قتلوا الرجل الذي يشبهها واللحم والدم المتجسدين في بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيدا لعقيدة الكنيسة الكبرى ، وهي ان في المسيح طبيعتين الهية وبشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية ، فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الا على اقوال الهراطقة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة واقوالهم شائعة حتى في جزيرة العرب ، الى (ان يقول) : ان احد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت مجمعا للبدع المسيحية فكان فيها السابليون والدوسيتيون الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية في المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شبحا محضا ، والاريوسيون الذين كانوا ينكرون الوهيته ، والايتوضيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين

فيه ، والناظرة الذين كانوا يرون فيه شخصية، والمريميون والكوليريديون الذين كانوا يعبدون مريم العذراء واضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق في نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشي : « لم يتفق النصارى على شيء الا على ولادة المسيح » .

ولا نريد ان نفرغ من هذه المسألة بدون ان نعلق بعض الملاحظات على ما قاله (درمنغهم) فيها فاما ذهابه الى ان مراد القرآن بالآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) انما هو وقوع القتل على الجسد فقط ، وان الله بعد ذلك رفعه اليه ، فان له وجها وجيها لا سيما وان آية اخرى (اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا) تعزز هذا الراي وان كان جمهور اهل الاسلام على ان القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وان الذي قتل انما هو رجل آخر وان قوله تعالى (اني متوفيك) هو من توفاه الله اي استوفى مدة اجله في الدنيا .

ومن الناس من يرى ان الصلب وقع ، ولكن الموت على الصليب لم يقع وان المسيح قد انزل عن الصليب وهو حي ودفن في المغارة ، على انه مات وهو لم يكن مات ، فلذلك عندما جن الليل خرج من المغارة وذهب ، ثم بعد ايام جاء وتلاقى مع الحواريين .

ولكن الذين يرون هذا الراي يخالفون الاسلام والنصرانية معا . اما الاسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب ايضا ، ولان الاسلام يثبت ان الله رفع المسيح اليه ونجاه من اليهود ، واما النصرانية فلان مدارها كلها على موت المسيح مصلوبا فداء عن البشر . فان لم يكن مات مصلوبا انهدمت العقيدة المسيحية كلها ، وجواب من يرى هذا الراي ان آية (وما قتلوه وما صلبوه) لا تنفي الصلب نفسه بل تنفي الموت على الصليب ، وان قوله تعالى (وما صلبوه) اشبه بأن يكون توكيدا لقوله تعالى (وما قتلوه) لان المقصود ليس نفي رفعه على الخشبة وانما نفي موته عليها وان الاظهر ان يكون رفع على الخشبة ساعات ، ثم انزل عنها وهو حي ، واخذ الى المغارة ووضع فيها ، وذلك على هيئة انه مات وانه دفن . والحقيقة انه لما انزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج في جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعشى معهم العشاء السري .

والذين يرجحون هذا الراي يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الاناجيل لكنهم لا يرون رايهم مخالفا للاسلام . وذلك لانهم يقولون ان قوله تعالى : (وما قتلوه وما صلبوه) معناه وما قتلوه مصلوبا . وليس بناف ان يكون رفع على الصليب مؤقتا تشبيها على اليهود الذين كانوا يطلبون جزما قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلا .

واختفاؤه عن العيان ليس مما ننفى رفعه الى السماء بعد ذلك .

وادلة هؤلاء على هذا الراي هي :

اولا : ان بيلاطس البنطي كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامرأته وانه اخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر ان يأمر بصلبه وهو مكره ، فيجوز ان يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب الى ان يكون اظلم الوقت فينزله ويجعله في المغارة على انه ميت ويشير اليه بأن يفر من المغارة ليلا ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون انقذه من الموت ولكن مع ايهام اليهود انه قتله .

ثانيا : ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه في مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر اليهود في بيوتهم فيسهل على الذي تولى قضيةالصلب ان يوارى عيسى في المغارة ويسهل له النجاة بدون ان يشعر اليهود .

ثالثا : ان من العادة في المصلوبين ان تكسر ارجلهم تعجيلا لموتهم اذا طال نزعهم وقد ثبت ان القائد الذي عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجليه مع انه كسر ارجل المصلوبين الآخرين اللذين صلب عيسى عليه السلام بينهما فعدم تكسير رجلي عيسى عليه السلام دليل على نية استبقائه .

رابعا : ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدونها بكل ممكن ولذلك جاء اناس من محبى عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى بيلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحايم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين انزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم امل في انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامسا : انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الاحد وجدوا الحجر مدحرجا ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لان المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد ان صلب ومات ودفن وهذه هي العقيدة المسيحية وعندما قام في اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج الحجر ، فيرد على هذا ان الذي يقوم من الموت بمعجزة يمكنه ان يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر ولا سيما اذا كان قد صعد الى السماء والصعود هنا بالروح وبالجسد .

سادسا : ان وجود الثياب في القبر دليل على انه قد نزع ثياب الدم التي كانت عليه عند الصلب ، وانه جيء اليه بثياب نظيفة وخرج بها عندما خرج ، والا فما معنى وجود الثياب الملطخة بالدم في القبر بعد فقد الجثة فان قيل ليصعد بها الى السماء فيجاب بأن الصعود الى السماء انما هو بالروح فليس يحتاج الى تبديل ثياب وما وجود الثياب الا علامة على تبديلها وما تبديلها الا علامة على ان المسيح خرج من القبر ليلا بجسده وتوارى عن أعين اليهود ، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات .

سابعا : ان وضع المسيح عليه السلام في مغارة بدلا من دفنه في ضريح تحت الارض ، وهيل التراب عليه هو من جملة الادلة على ارادة بيلاطس عدم قتله لانهم لو كانوا دفنوه في لحد تحت الارض لما امكن بقاؤه في الحياة واما دفنه في غار فليس الا تخبئة الى ان يكون اظلم الليل .

ثامنا : ان اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على انه لم يكن مات وان قيل انه مات ثم عاش كما هي العقيدة المسيحية فنحن انما نتكلم الآن عن رأي فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وانما تنظر في الحادثة الى المعقول والطبيعي بدون معجزات ولا خوارق عادات . فهذه الفئة ترى ان المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وانه اكل معهم وان قوما اشتبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذي صلب ، ولما كان يعلم انه كائن في صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها اصبعه حتى تحققها . وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع ان الموت على الصليب لم يقع وان « المشبه » الذي في القرآن في آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وانما هو تشبيه الصلب الذي جرى بالموت بحيث يسكت

اليهود الذين حكم مجلسهم الروحاني على عيسى بالقتل صلبا وكانوا يأبون الا انفاذ هذا الحكم . فخيل لهم الرومانيون انهم قتلوه والحقيقة انهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر انزلوه عنها وادخلوه المغارة حيا وكان اليهود دخلوا في السبت فلم يعلموا بشيء وبعد ان بدل المسيح في المغارة ثيابه خرج منها ليلا وذهب متواريا ويوم الاحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقودا ، والحجر متدحرجا ، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى بيلاطس وشكوا اليه الاهمال الذي وقع في هذا الامر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد اخذوا جسده ليلا ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أنزل عن الصليب حيا ووضع في القبر على صورة مدفون ، ثم في جوف الليل فر من المغارة ومن جملة الروايات انه بعد ان ظهر للتلاميذ واكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفا من ان تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة ، فعلا لا تشبيها ، ومن فلسطين ذهب الى الهند ابعد ما يمكنه أن يبعد وانتهت حياته في الهند ودفن في شمالي الهند حيث له الآن هناك قبرا يزار . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هي مجرد حدس وتخمين تعززه قرائن وادلة في نظر من لا يعتقد بالمعجزات او من يظن ان هذه الحادثة جرت مجرى طبيعيا لا معجزة فيه . فاما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدرة الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدرة مقررة منذ الازل وان النصرانية مبنية عليها .

واما الذين كتبوا حياة يسوع مثل (رنان) وامثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرر الفداء من الازل فقد ذهبوا الى ان الصلب والموت على الصليب وقعا فعلا ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء في القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وانما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيلهم وهيامهم في حب المسيح الى حد انهم ظنوه نزل عليهم واكل معهم وان كل ما ورد من ذلك في الاناجيل لم يقع وانما هو خيال في خيال حملهم عليه الحب. وبالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوبا ودفن في المغارة وفي اليوم الثالث قام وصعد الى السماء وانه بعد قيامه تجلى للتلاميذ وتمشى معهم وامرهم بنشر دينه وودعهم والمسلمون يقولون انه لم يكن هو المصلوب وانما صلب شخص آخر عوضا عنه ، وان الله رفعه اليه ــ وهناك راي من الآراء هو انه في قوله

تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) لا يقصد نفي القتل والصلب عن الجسد وانما يقصد انهم ان كانوا قتلوا الجسد فلم يقدروا ان يقتلوا الروح وان آلله رفع تلك الروح اليه . وراي آخر انه رفع على الصليب الى ان اقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . وبعد ان ادخل المغارة جيء اليه بثياب فلبسها وترك الثياب الملطخة بالدم . وكانت مريم امعيسى ومريم المجدلية وبعض نساء وبعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى ان خرج من المغارة فالارجح انهم هم الذين أتوه بالثياب ليبدلها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وابعد في الارض خوفا من الوقوع في يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك . وهذا الراي الاخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معا كما ان الراي الذي قبله وهو الذي معناه ان قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفي موت جسد المسيح على الصليب وانما يعني روحه ويعني عمله في الارض هو الراي الوحيد الذي يمكن به التوفيق بين عقيدتي الاسلام والمسيحية . وهو الراي الذي يحاول تأييده (درمنغهم) لانه راى فيه التوفيق بين الديانتين في اهم ما اختلفتا فيه . واحسن ما كتبه المسلمون في مسألة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فمن شاء فليرجع اليها .

قوى المقاومة اليهودية للمسيحيين :

منذ المراحل الاولى المبكرة لدعوة السيد المسيح النقية والطاهرة وعناصر الرفض اليهودي لهذا الدين المسيحي قوية وشديدة باعتبار ان مقومات الخلق ، والدعوة لعمل الضمير في مسيحية السيد المسيح التي دعا اليها وارتبط بها اتباعه تتعارض والطبع اليهودي الملتوي والنهاز .

ومن هنا راحت القوى اليهودية المختلفة تتخذ من نفسها قوة الرفض الديني قبل ان تكون قوة المقاومة السياسية لكن الخطير في موقف القوى اليهودية في مقاومتها للتعاليم المسيحية هو المرحلة التي تم فيها تجنيد القوى الرسمية والسياسية في عصر البلاد لمقاومة المسيحية .

يقول المؤرخ « ادوارد جيبون » في كتابه « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ومن الجزء الاول في الطبعة العربية .

ويبدو ان السياسة الدينية القديمة اتخذت موقفا اشد صلابة وابعد

عن التسامح لتقاوم تقدم المسيحية وبعد نحو ثمانين عاما من موت المسيح عوقب تلاميذه الابرياء بالاعدام ، بناء على قوانين سنها امبراطور اتسمت ادارته العامة بالحكمة والعدالة وكم امتلأت صفحات الدفاع التي وجهت مرارا الى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة من ان المسيحيين الذين استجابوا لحرية الضمير وتوسلوا اليها ، حرموا وحدهم ، دون سائر رعايا الامبراطورية من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة. وسجلت بعناية وفاة عدد قليل من الشهداء البارزين . ومنذ الوقت الذي تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا لم يكن حكام الكنيسة اقل انشغالا وتيقظا الى الكشف عن قسوة مخالفيها الوثنيين منهم بالاقتداء بهم في سلوكهم .

وانه ليندر ان يكون اتباع الديانة المضطهدة ، الذين يقض الخوف مضاجعهم ويهيجهم الاستياء ، وربما يلهبهم الحماس - يندر ان يكونوا في مزاج عقلي سليم ، يمكنهم من التنقيب الهادىء او التقدير الصادق لبواعث اعدائهم تلك البواعث التي كثيرا ما تغيب عن النظرات المتجردة الغامضة حتى لاولئك الذين يقفون في مأمن وبمنأى عن نيران الاضطهاد ، وقد ذكر لسلوك الاباطرة ازاء المسيحيين الاولين ، على وجه التحديد ، سبب يبدو انه اكثر تمويها واقرب احتمالا ، لانه مشتق من عبقرية الشرك المعترف بها . فقد كان الملحوظ بالفعل ان الوئام الديني في العالم كان يعززه في الاساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الامم القديمة كل منها نحو تقاليد الاخرى وطقوسها . ومن ثم كان من المتوقع ان تتحد كلها ، بلا حرج ولا غضب ، ضد اية طائفة او شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشري ويحتقر بالضرورة - بحكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الالهية - اي لون من العبادة باعتباره ضلالا ووثنية ، اللهم الا عبادته هو فحسب . وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بين القدر . وكانت هذه الحقوق تضيع عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة . ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتا عن دفع هذه الجزية ، فان الباعث الذي حذا بحكام الرومان الى المعاملة التي لقيها منهم اليهود قد يوضح الى اي مدى تبرز الحقائق هذه التأملات وتؤدي الى الكشف عن الاسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية .

وسوف نشير فقط دون تكرار الى ما اسلفنا بالفعل ذكره من احترام الملوك والحكام الرومان للهيكل في اورشليم الى ان تدمير الهيكل والمدينة اقترنا كما اعقبهما بكل الظروف التي تغضب الفاتحين ويتيح الاضطهاد الديني باشد ذرائع العدالة الاجتماعية والامن العام تمويها وخداعا فمنذ

عهد نيرون حتى عهد انطونينوس بيوس اظهر اليهود ضجرا جديدا بحكم روما تجلى مرارا في اعنف المذابح والثورات . وان العالم ليصعق لـدى سماعه بأفظع اعمال القسوة الرهيبة التي ارتكبوها في مدن مصر وقبرص وبرقة ، حيث عاشوا في صداقة غدارة خائنة مـع المواطنين غير المرتابين واننا لنميل الى امتداح القصاص الشديد الرادع الذي انزلته فرق الجيش بهذا العنصر من المتعصبين الذين يبدو ان خرافتهم (عقيدتهم) الشريرة الغريرة جعلت منهم أعداء الداء ، لا للحكومة الرومانية وحدها ، بل للجنس البشري بأسره . وكان حماس اليهود يستند الى الرأي القائل بأن دفـع الضريبة لسيد وثني امر غير مشروع لديهم والى الوعد الموهوم الذياستقوه من الوحي القديم الذي لديهم بقرب ظهور المسيح الذي سيفتح العالـم ، ويحطم اغلالهم ويخلع امبراطورية الارض على احباء السماء المقربين . وقد اعلن باركوكيباس الشهير نفسه مخلصهم الذي طال انتظارهم له واهـاب بذرية ابراهيم ان يحققوا امل اسرائيل ، وبهذا جمع جيشا كبيرا تحدى به سلطان الامبراطور هادريان لمدة عامين .

ورغم الاثارات المتكررة زال استياء الامراء الرومان بعد انتصارهـم ولم تدم مخاوفهم لاكثر من فترة الحرب والخطر . وبفضل التسامح العام الذي تميز به مذهب الشرك ، وبفضل الطبع الرقيق المعتدل الذي تميز بـه انطونينوس بيوس اعيـدت لليهود امتيازاتهم القديمة ورخص لهم ثانية في ختان اطفالهم مع قيد بسيط واحد وهو عدم اجراء هذه العملية المميـزة للعبرانيين لاي مهتد اجنبي . وسمح للبقايا الكثيرة من هذا الشعب ، رغم انهم ظلوا بعيدين عن تخوم اورشليم بانشاء المؤسسات الكبيرة او الاحتفاظ بها في ايطاليا وفي الولايات وبالحصول على حرية رومة ، وبالتمتع بمزايـا المدينة ، على ان يكون في نفس الوقت حق الاعفاء من مناصب المجتمـع الثقيلة العبء الكثيرة النفقة . وهيأ اعتدال الرومان او احتقارهم لهـذه الطائفة سندا قانونيا لانشاء نوع من الشرطة الملية (الكنيسة) وخول الحاخام الذي اتخذ مقره في طبرية سلطة تعيين القسس والحواريين التابعين له وان يمارس القضاء المحلي ، وان يتلقى من اخوانه المبعوثين هنـا وهنـاك اعانات سنوية . وكثيرا ما شيدت هياكل جديدة في المدن الرئيسية فـي الامبراطورية واقيمت احتفالات مهيبة عامة في ايام السبت او لمناسبة الصوم ، او الاعياد التي نزلت بها شريعة موسى ، او اوصت بها تقاليد الاحبـار ، وهدأت هذه المعاملة الكريمة من طبع اليهود الحاد بطريقة غير ملحوظـة فلما افاقوا من علم النبوءة والغزو نهجوا منهج الرعايا المسالمين المجدين . اما كراهيتهم التي لا تهدأ للجنس البشري ، فانها بدلا من ان تتقد في اعمـال

العنف والدم استنفدت في اعمال اقل خطرا ولكنها اعمال تشبع رغباتهم . وانتهزوا كل فرصة للتفوق على الوثنيين في التجارة وصبوا اللعنات الخفية الغامضة على مملكة ايووم (اي الدولة الرومانية) المتغطرسة .

واذا تمتع اليهود الذين نبذوا في مقت واحتقار معبودات ملوكهم واقرانهم من الرعايا بالحرية في ممارسة ديانتهم الانعزالية غير الاجتماعية على اية حال ، فلا بد انه كان يوجد سبب آخر عرض تلاميذ المسيح لاعمال القسوة التي اعفيت منها ذرية ابراهيم . والفرق بينهما بسيط جلي ، ولكنه كان وفقا لمقاييس الاقدمين او مشاعرهم على اعظم جانب من الاهمية ذلك ان اليهود كانوا امة ولكن المسيحيين فرقة او شيعة واذا كان طبيعيا ان تحترم كل جماعة النظم المقدسة لجيرانها فانه كان لزاما عليهم ان يبقوا على ملة ابائهم . ولقد فرض صوت الوحي وتعاليم الفلسفة وسلطان القانون بالاجماع ، هذا الالتزام الوطني . وربما اثار اليهود بادعائهم العريض تفوقهم في الطهارة والقداسة حفيظة المشركين فاعتبروا اليهود جنسا كريها ممقوتا غير نقي ، وربما كان اليهود جديرين بهذا الاحتقار نتيجة ترفعهم عن الاتصال بالامم الاخرى . وربما كانت قوانين اليهود مستهترة او عابثة ، ولكن طالما تلقاها على مر الاجيال مجتمع كبير ، فقد كان لاتباع موسى في بني الانسان اسوة وفيما اقروه عامة سند يبرزان حقهم في ممارسة ما قد يكون اجراما منهم ان يهملوه . ولكن هذا المبدأ الذي حمى كنيس اليهود لم يقدم للكنيسة في صدر المسيحية اية رعاية او امن . بل ان المسيحيين باعتناقهم رسالة الانجيل جلبوا على انفسهم الوزر المزعوم ، وزر جريمة غير طبيعية لا تغتفر : انهم حلوا روابط العرف والتعاليم المقدسة ، وانتهكوا حرمة النظم الدينية في بلدهم ، واحتقروا في جراة ووقاحة كل ما آمن به آباؤهم على انه حق او بجلوه على انه مقدس . كما ان هذه الردة (اذا جاز ان نستعمل هذه اللفظة) لم تكن جزئية او محلية ، لان المرتد التقي الذي كان ينسحب من معابد مصر وسوريا كان يستنكف ان يلتمس ملجأ في معابد اثينا وقرطاجة . ونبذ كل مسيحي في ازدراء خرافات عشيرته ومدينته وولايته ، ورفض جمهور المسيحيين عامة اي ارتباط بآلهة رومة او الامبراطورية بل بمعبودات الجنس البشري بأسره . وعبثا اكد المؤمن المغبون حقوق الضمير والراي الخاص التي هي وقف على كل فرد . ومهما دعا موقفه الى الاشفاق فان حججه لم تنفذ الى عقول الفلاسفة او المؤمنين في دنيا الاوثان . بل ان اعتناق بعض الافراد للشكوك بدلا من الامتثال للون العبادة المقررة ، لم يثر في عقولهم دهشة اقل منها فيما لو وقعت عيونهم فجأة على كراهية للعبادات والزي واللغة في وطنهم .

وسرعلن ما تحولت دهشة الوثنيين الى سخط واستياء . وتعرض اتقى الناس للاتهام الجائر ولكنه الخطير ، اي الكفر والالحاد . واجتمع الحقد والتعصب على تصوير المسيحيين على انهم مجتمع من الكفار الذين استحقوا — لهجومهم البالغ على الدستور الديني للامبراطورية — اعنف سخط من الحكومة المدنية ، فانهم نأوا بأنفسهم (وكم طرب المسيحيون لهذا الاعتراف) عن كل لون من الوان الخرافة رحب به اي فريق من ائمة الشرك في مختلف اقطار الارض ، كما انه لم يتضح قط اي معبود واية عبادة استبدلوها بمعبودات القدماء ومعابدهم . ولقد غابت الفكرة النقية السامية فكرة « الكائن الاعظم » عن الادراك البليد لدى جمهور الوثنيين الذين حاروا في العثور على اله روحي احد لا يتمثل في صورة مجسمة او رمز مرئي ، ولا يعبد بالابهة المعهودة في سكب الخمر والاعياد والمذابح والقرابين. ان حكماء اليونان وروما الذين سموا بعقولهم الى مرتبة التأمل في الوجود وفي صفات « الكائن الاول » قد اغراهم ادراكهم السليم او زهوهم بأن يحتفظوا لانفسهم وللصفوة من تلاميذهم بامتياز هذا النسك الفلسفي . وكانوا ابعد ما يكونون عن اقرار اهواء بني الانسان على انها مقياس الحقيقة ولكنهم اعتبروها منبثقة عن النزعة الاصلية في الطبيعة البشرية ، وذهبوا الى ان اي لون مألوف من العقيدة او العبادة، رغم التنصل من مساعدة الحواس لا بد انه بنسبة ما يتنحى عن الخرافة سيجد نفسه عاجزا عن الحد من شطحات الخيال او اشباح التعصب . ان النظرة الوائية المستهترة التي تفضل رجال العقل والعلم بالقائها على الوحي المسيحي لم تجد الا في توكيد رايهم المتسرع واقناعهم بأن المبدأ الذي كان بمكن ان يحترموه ، مبدأ « وحدانية الله » قد شوهته حماسة الطوائف الجديدة ، وأطاحت به تأملاتهم الخيالبة . وانك لترى مؤلف الحوار المشهور الذي تسب الى لوشيان ، حين يتظاهر بمعالجة موضوع « التثليث » الغامض في اسلوب من التسفيه والتحقير — تراه يفضح جهله بضعف الادراك الانساني وبالطبيعة العويصة التي لا يمكن ادراك كنهها ، طبيعة الكمال الالهي .

ولقد بولغ الى اقصى حدود المبالغة في الجرم الذي ارتكبه كل مسيحي في ايثاره عاطفته الخاصة على الديانة الوطنية وجاءت هذه المبالغة نتيجة لتعدد المجرمين واتحادهم . ومن المعروف جيدا وقد لحظ بالفعل ان السياسة الرومانية كانت تنظر باشد القلق والريبة الى اية رابطة تقوم وسط رعايات ، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة في اضيق الحدود ، وفي تقتير شديد رغم ان الهيئات كانت ذات اهداف خيرة بعيدة عن الاذى والضرر . ولكن الجمعيات المسيحية التى انفصلت عن العبادة العامة الشائعة

بدت ذات طبيعة اقل براءة . فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب ، ولم ير الاباطرة انهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرموا — حرصا على سلامة المجتمع — هذه الاجتماعات السرية والليلية احيانا . لقد عكس تمرد المسيحيين التقي الورع على سلوكهم او ربما على خططهم ضوءا بدا للناظرين منذرا بخطر اشد واجرام أفدح . وفي بعض الاحيان حاول الامراء ، الرومان — الذين اجازوا لانفسهم ان يلقوا سلاحهم اذا ما رأوا الاستعداد للتسليم والانقياد ، مقدرين ان شرفهم متعلق بتنفيذ اوامرهم — حاولوا بالعقوبات الرادعة ان يخضعوا هذه الروح الاستقلالية التي اعترفت بجراة بسلطان يسمو على سلطان الحكام وبدا ان اتساع مدى هذه المؤامرة الروحية واستطالة مدتها ، جعلها يوما بعد يوم احق بلومه وسخطه . ولقد رأينا بالفعل كيف ان غيرة المسيحيين الجادة الموفقة قد ادت الى انتشارهم ، بشكل غير ملحوظ ، في كل ولاية بل على الاغلب في كل مدينة في الامبراطورية وبدا ان المهتدين الجدد انكروا عشيرتهم وبلدهم حتى يندمجوا في عصبة موحدة لا تنفصم عراها ، تشكل مجتمعا خاصا معينا اتخذ في كل مكان طابعا مغايرا لسائر البشر ، وادخل مظهرهم العبوس المتشدد ، وعزوفهم عن الاعمال والمباهج المشتركة في الحياة وتنبؤاتهم الكثيرة بالبلايا المحدقة كل اولئك ادخل في روع الوثنيين توجس الخيفة من خطر ينجم عن هذه الطائفة الجديدة التي هي اشد ازعاجا كما انها اشد غموضا . وكما قال بليني « مهما يكن من امر المبدأ الذي يحكم سلوكهم ، فان عنادهم الذي لا يلين ولا ينثني بدا جديرا بالعقاب » .

واملى الخوف والضرورة في البداية تلك الاحتياطات التي لجأ اليها تلاميذ المسيح في اقامة شعائر دينهم ولكنهم استمروا عليها طواعية واختيارا وتوهم المسيحيون انهم — باقتدائهم بالكتمان العجيب الذي كان يحوط « الاسرار الاليوسية » (احتفالات دينية كانت تقام في الربيع قديما بمدينة اليوسيس في اليونان) — قد يضفون على نظمهم المقدسة مزيدا من الاحترام في اعين العالم الوثني . ولكن هذا التصرف — كما يحدث غالبا في عمليات السياسة الحاذقة — خدع امانيهم وامالهم . فقد استنتج انهم انما حجبوا فقط عن الانظار كل ما كان يجدر ان تحمر وجوههم خجلا لاخفائه . فان فطنتهم قد هيأت الفرصة للحقد ان يخترع وللسذاجة المرتابة ان تصدق تلك القصص الشنيعة التي نعتت المسيحيين بانهم اشر البرية ، وانهم كانوا في خلواتهم المظلمة يأتون من المنكرات ما يزينه لهم احط الخيال ، ويلتمسون رضا الههم المجهول عن طريق التضحية بكل فضيلة اخلاقية . وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض او سرد اتباعها

فقيل على وجه التأكيد ان « طفلا حديث الولادة مغطى تماما بالدقيق ، كان يعرض — وكانه رمز روحاني للدخول في الاخوية المسيحية لسكين المهتدي الجديد الذي يهوي به فيشخن على غير هدى الضحية البريئة لخطاياه بكثير من الجروح الخفية القاتلة ، حتى اذا ما انتهى من ارتكاب هذا العمل القاسي ، شرب المجتمعون الدم ، ومزقوا الاوصال المرتعدة في شره ونهم ، وتعاهدوا على كتمان السر الى الابد شاعرين شعورا متبادلا بالذنب كما قيل بنفس القدر من التاكيد ، ان هذه التضحية غير الانسانية كان يعقبها حفل لائق تلعب الخمر فيه برؤوسهم وتوقظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم حتى اذا حانت اللحظة المقررة اطفئت الانوار فجأة وخلعوا عذار الحياء وتناسوا الطبيعة واختلط الحابل بالنابل ولوثوا سواد الليل بارتكاب اشنع الفواحش : الاخوة مع الاخوات والابناء مع الامهات » .

ولكن قراءة الدفوع القديمة كانت كافية لازالة حتى اتفه الشكوك من ذهن الخصم المنصف العادل . ومن ثم يعمد المسيحيون — في اطمئنان جريء الى براءتهم — الى الاستعانة من ظلم الشائعات بانصاف الحكام : فيقررون انهم يكونون جديرين بأشد العقاب اذا اقيم اي دليل على الجرائم التي الصقتها بهم الوشايات . انهم يتعجلون العقاب . ويتحدون البيئة وفي نفس الوقت يعترضون بشدة ، وبنفس القدر من الصدق واللياقة ، بان الاتهام ليس اقل بعدا عن الاحتمال ، منه تجردا من الحجة والبرهان ويتساءلون عما اذا كان هناك من يصدق ان تعاليم الانجيل النقية المقدسة التي غالبا ما تحد من التنعم بأكثر المتع مشروعية ، تصرف الذهن الى اقتراف ابغض الاثام ، وأن مجتمعا كبيرا يعمد الى تلطيخ شرفه في أعين اعضائه ، وان جمعا كبيرا من الجنسين من مختلف الاعمار والاخلاق . لا يتأثر بالخوف من الموت او الفضيحة فينتهك حرمة المبادىء التي نقشتها الطبيعة والتعليم في عقولهم مثل النقش في الحجر . وقد يبدو انه ليس ثمة شيء يمكن ان يضعف من قوة او من اثر مثل هذا التبرير الذي لا يستطاع نقضه ، اللهم الا السلوك الغرير لاولئك المدافعين الذين خانوا قضية الدين، ارضاء لبغضهم المروع لاعداء الكنيسة المحليين ، وقيل — تلميحا طفيفا تارة وتوكيدا جريئا تارة اخرى — ان هذه الضحايا الدموية وهذه الاعياد الفاحشة التي نسبت زورا وبهتانا الى المؤمنين الارثوذكس — كان يحتفل بها المركيونيون والكربكراتيون وغيرهم من شيع الغنوصيين (اللاادريين) الذين كانوا لا يزالون يتأثرون بمشاعر المسيحيين وتحكمهم تعاليم المسيحية ، رغم انهم ربما انزلقوا الى مهاوي الهرطقة كما الصق بالكنيسة اتهامات من مثل

هذا النوع جماعة المنشقين الذين انفصلوا عنها ، وقد اعترف في جميع الاحوال بان اشد السلوك فجورا كان يسود الافواج الكبيرة التي تظاهرت باعتناق المسيحية وربما سهل على الحاكم الوثني الذي لم يؤت فسحة من القوة او شيئا من القدرة على تبين الخط الطفيف غير المحسوس الذي يفصل بين الصراط المستقيم وبين الهرطقة ـ سهل عليه ان يتصور ان البغضاء المتبادلة بينهم هي التي ازاحت الستار عنوة عن جرائمهم المشتركة . وكان من حسن حظ المسيحيين الاولين ـ من اجل طمأنينتهم او على الاقل سمعتهم ـ ان تصرف الحكام اتسم احيانا بمزيد من اللياقة والاعتدال اكثر مما يتأتى مع الغيرة الدينية ، وقالوا ـ كنتيجة متجردة غير متحيزة لتحرياتهم القانونية ـ ان الطوائف التي تخلت عن العبادة القائمة بدت لهم مخلصة في عقائدها وانه لا غبار على سلوكها مهما تعرضت لمؤاخذة القانون بخرافتها المسرفة الحمقاء .

موقف الاباطرة من المسيحيين

ان التاريخ الذي يأخذ على عاتقه تسجيل احداث الماضي لتكون عبرة وتوجيها للاجيال القادمة لا يستحق شرف هذه المهمة ، اذا تنازل فدافع عن قضية الطغيان او برر منهج الاضطهاد . ومهما يكن من امر فانه يجب الاعتراف بان سلوك الاباطرة الذين بدا انهم اظهروا اقل العطف على الكنيسة الاولى ليس بأي حال من الاحوال في مثل القدر من الاجرام الذى يتسم به سلوك الملوك الحديثين الذين استخدموا وسائل العنف والارهاب للآراء الدينية التي اعتنقها بعض رعاياهم . وربما اكتسب ملك مثل شارل الخامس او لويس الرابع عشر ، بوحي من تأملاتهم او من مشاعرهم الخاصة، معرفة صادقة بحقوق الضمير او بالتزامات العقيدة . او ببراءة الخطأ . ولكن امراء رومة القديمة وحكامها كانوا غرباء على هذه المبادىء التي الهبت وعززت عناد المسيحيين الذي لا يلين في قضية الحقيقة، كما انهم هم انفسهم لم يستطيعوا ان يتبينوا في اعماق صدورهم اي باعث كان من الجائز ان يدفعهم الى رفض الخضوع المشروع ، بل الطبيعي للنظم المقدسة في بلادهم وكان نفس السبب الذي يساهم في تخفيف جريمة اضطهاداتهم لا بد وانه اتجه الى الحد منها . ولما كانوا يصدرون ، لا عن غيرة المتعصبين العنيفة ، بل عن سياسة المشرعين المعتدلة فلا بد ان العصيان كثيرا ما ارخى ، وان الروح الانسانية الطيبة غالبا ما عطلت تنفيذ تلك القوانين التي سنوها ضد اتباع المسيح الاذلاء المغمورين . وطبيعي ان نخلص من النظرة العامة الى اخلاقهم وبواعثهم الى :

١ ـ انه قد مضى زمن طويل قبل ان يتبينوا ان الطائفة الجديدة تستحق اهتمام الحكومة .

٢ ـ وانهم في ادانة اي من رعاياهم الذين اتهموا بمثل هذه الجريمة الشاذة تصرفوا في حذر وعلى كره منهم .

٣ ـ وانهم كانوا معتدلين في استخدام العقوبات .

٤ ـ وان الكنيسة المنكوبة نعمت بفترات كثيرة من السلام والهدوء وعلى الرغم من الاستهتار العقيم المهمل الذي عالج به اغزر الكتاب الوثنيين مادة وكذا ادقهم في التفاصيل في شئون المسيحيين فانه سيظل في مكنتنا ان نثبت كل واحد من هذه الفروض المحتملة بشواهد من الحقائق الصادقة الصحيحة .

١ ـ اقتضت حكمة «العناية الالهية» ان تسدل على طفولة الكنيسة الاولى حجابا غامضا ، افلح ـ حتى اشتد عود العقيدة المسيحية وزاد عدد المسيحيين ـ في وقايتهم لا من شر دنيا الوثنية فحسب بل حتى مجرد معرفتها بهم فقد زود الالغاء المتدرج المتأني للطقوس الموسوية اول الداخلين في شريعة الانجيل بقناع امن بريء ، ولما كان معظمهم من عشيرة ابراهيم فانهم تميزوا بتلك العلامة الخاصة وهي الختان وقاموا بعباداتهم في معبد أورشليم حتى دمر تدميرا نهائيا ، وتقبلوا « الشريعة » والرسل على ان الجميع تنزيل اصيل من عند الله . اما الاميون المتحولون الذين كانوا قد ارتبطوا بأمل اسرائيل نتيجة اختيار روحي ، فقد كان يصعب تمييزهم وهم في زي اليهود ومظهرهم ولما كان اهتمام المشركين باركان العقيدة اقل من اهتمامهم بالمظاهر الخارجية للعبادة فان الطائفة الجديدة التي اخفت في عناية تامة ، او اعلنت اعلانا خافتا عن عظمتها واطماعها المستقبلة سمح لها ان تظلل نفسها بظل التسامح العام الذي كان ممنوحا لشعب قديم مشهور في الامبراطورية الرومانية وربما لم يمض وقت طويل قبل ان يدرك اليهود انفسهم وقد تملكتهم غيرة اشد ضراوة واثارهم ايمان اشد حقدا ، ان اخوتهم النصارى ينفصلون تدريجا عن عقيدة الكنيس اليهودي ، وربما طاب لهم ان يطفئوا نيران هذه الهرطقة الخطيرة بدماء اتباعها ولكن قضاء السماء احبط كيدهم ورغم انهم عمدوا في بعض الاحيان الى التمرد المفاجيء فانهم لم يعودوا يملكون زمام القضاء الجنائي كما لم يكن من السهل عليهم اخفاء كراهيتهم واعلن حكام الولايات انهم على استعداد للاستماع الى أي اتهام من شأنه ان يضر بالسلامة العامة ولكنهم حالما كانوا يعرفون ان المسألة مسألة

كلام لا حقائق ونزاع حول تفسير شرائع اليهود ونبوءاتهم كانوا يعتبرون انه لا يليق بمكانة رومة وعظمتها ان يبحثوا بحثا جديا في الخلافات الغامضة التي قد تنشأ بين شعب متبربر يؤمن بالخرافات . وكأني بالجهل والاحتقار كانا يحميان براءة المسيحيين الاولين . وكثيرا ما تبت ان القضاء الحاكم الوثني كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودي . ولو كنا نجنح حقا الى تبني تقاليد القدامى السذج الاغرار لسردنا الجولات النائية والمنجزات العجيبة التي قام بها الرسل او الحواريون الاثنا عشر ، والميتة المختلفة التي لقيها كل منهم ولكن الاستقصاء الذي هو اكثر دقة قد يدفع بنا الى الارتياب في ان واحدا من هؤلاء الاشخاص الذين كانوا شهودا على معجزات المسيح قد اذن له فيما وراء حدود فلسطين ان يؤكد ببصمات من دمه صدق شهادته . . (١) ومن الطبيعي ان نفترض ، تبعا للاجل العادي لحياة الانسان انهم قضوا نحبهم قبل ان ينفجر سخط اليهود في تلك الحرب الضروس التي لم يضع لها حدا الا تدمير اورشليم فاننا طوال هذه الحقبة الطويلة التي انقضت بين موت المسيح وبين هذه الثورة المشهودة لن نستطيع ان نتبين اي اثار لتشدد الرومان او عدم تسامحهم اللهم الا في هذا الاضطهاد المفاجىء العابر ولكنه كذلك القاسي الذي اذاقه نيرون للمسيحيين في العاصمة بعد خمس وثلاثين سنة من سابقه ، وقبل عامين من ثاني هذين الحدثين الجسيمين وان شخصية المؤرخ الفيلسوف الذي ندين له بالتعرف على هذا العمل الشاذ لتكفي وحدها لتجعله اهلا لدراستنا الواعية .

ففي السنة العاشرة من حكم نيرون اصيبت العاصمة بحريق اندلع في شدة لم يعرف لها في العصور الخوالي نظير او مثال . ولم تنج من الدمار الشامل اثار فن اليونان وقوة الرومان والانصاب التذكارية لحروب البلوبونيز والغال واقدس المعابد وافخم القصور . ومن الاحياء الاربعة عشر التي كانت تضمها رومة ، سلم اربعة فقط ومحي منها ثلاثة محوا تاما أما الاحياء السبعة الباقية التي تلظت في سعير النيران فقد كشفت عن منظر مفجع حزين للخراب والوحشة . ولا يبدو ان يقظة الحكومة لم تغفل اتخاذ اية احتياطات لتخفف من اثر هذه الكارثة الرهيبة . ففتحت الحدائق الامبراطورية ابوابها للجموع المنكوبة وشيدت بعض المباني المؤقتة لايوائهم

---

(١) اقتصر شرف التضحية في ايام ترتوليان وكليمنز السكندري على القديس بطرس والقديس بولس والقديس يوحنا . وقد اسبغ هذا الشرف على بقية الرسل الافريق الذين هم احدث عهدا ، والذين اختاروا فطنة وحرصا منهم بلدا نائيا عن حدود الامبراطورية الرومانية ليكون مسرحا لوعظهم وآلامهم .

ووزعت كميات كبيرة من القمح والمؤن باسعار معتدلة . وبـدا ان اكـرم سياسة قد املت القوانين التي حددت فتح الشوارع واقامــة المساكـن الخاصة ـ وكما يحدث عادة في ايام الرخاء ـ وانتج حريق رومه في بضع سنين قلائل ، مدينة جديدة ، أدق نظاما واوفر جمالا من سابقتها . ولكن كل الفطنة والروح الانسانية اللتين تظاهر بهما نيرون لم تنقذ من شكوك الشعب فان اية جريمة يمكن ان تلصق بقاتل زوجته وامه كما يستحيل الظن بأن الامير الذي اساء الى شخصه والى مكانته يعجز عن ارتكاب اشنع الخطايا. واتهمت الاشاعات الامبراطور باحراق عاصمته عمدا ولما كانت ابعد القصص عن التصديق هي التي تلتئم اكثر ما يكون الالتئام مع عبقرية الشعب فـي سورة غضبه . فقد ذكر في اسلوب جاد لا هزر فيه كما ساد الاعتقاد الجازم الراسخ بان نيرون الطروب للكارثة التي احدثها تسلي على قيثارته بانشودة تدمير تروادة القديمة . وصمم الامبراطور على الصاق التهمــة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التي عجزت قوة الاستبـداد عن القضاء عليها . ويتابع تاسيتس حديثه فيقول : « وعلى هذا الاساس انزل نيرون اشد الوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا ـ تحت اسـم المسيحية ـ القبيح (في راي نيرون) ـ قد وصموا فعلا بأشنع العار ، فقد اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذي لقي حتفه في عهد تيبيريوس ، على يد نائب الحاكم بيلاطس البنطي . واخمدت هذه الخرافة المروعة لفتـرة قصيرة ولكنهـا ما لبثت ان انتشرت وذاعـت لا في ارض الميعـاد وحدهـا وهي الموطن الاول لهذه الطائفة الشريرة . بل كذلك وصلت الى رومة وهي الملاذ العام الذي يتلقى ويحمي كل ما هو ملوث مهما كان تلوثه وكل شيء فظيع مهما بلغت فظاعته ، وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركـاء كثيرين لهم وادينوا جميعا بتهمة كراهيتهم للجنس البشري اكثر منهم بتهمة اشعال النار في المدينة . وعذبوا حتى ماتوا ، وزاد السباب والسخرية من مرارة التعذيب . ودق بعضهم بالمسامير على الصلبان وخيط اخرون فـي جلود الحيوانات المتوحشة وتركوا لنهم الكلاب وصب على بعضهم مـواد محرقة واوقدت فيهم النار ، واستخدموا كمشاعل تضيء حلكة الليل . وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذي صحبه سباق للخيـل ، والذي شرف حضور الامبراطور الذي اختلط بالشعب في زي وهيئة قائد عجلة حربية . واستحقت جريرة المسيحيين في الواقع اقسى عقاب يكون عبرة لغيرهم ولكن الملفت العام تحول الى اشفاق استنادا الى آن التضحية بهؤلاء الاشقياء التعساء لم تكن من اجل المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود » . وقد يلحظ كل الذين يستعرضون ثـورات الجنس البشري بنظرات فاحصة مدققة ان حدائق وملعب نيرون في الفاتيكـان

تلك التي لطخت بدم المسيحيين الاولين قد ازدادت شهرتها بانتصار الديانة المضطهدة وبسوء استغلالها . ففي نفس البقعة ومن ذاك العهد، اقيم معبد يفوق الروعة القديمة للكابيتول بكثير اقامه احبار المسيحية الذين استمدوا دعوى ملكية العالم من صائد السمك المتواضع في « الجليل » فاعتلوا عرش القياصرة وسنوا القوانين لغزاة رومة المتبربرين ، وبسطوا ولايتهم من ساحة البلطيق الى شواطىء المحيط الهادىء .

وبعد ، قد يتساءل المرء عن موقف المسيحية دينا من احلام صهيون ، علها تلتقي واياها على صعيد في تفسير تضفيه على وعود حفلت بها التوراة لبني اسرائيل في ارض تمتد من النيل الى الفرات .

وذلك ان المسيحية رسالة تكمل شريعة موسى وتحقق وعود الانبياء في المسيح هاديا ومخلصا تنكر له البعض من اليهود ودان بعضهم الاخر ، سار على خطاه الكثير من الامم ، وتلقف تعاليمه العديد من شعوب الارض .

لسنا من علماء الدين لنعطي الراي الحازم في النظرة المسيحية الى التوراة او الى « العهد العتيق » بوجه عام .

ولكن لنا بعد درس وتنقيب في اسس المسيحية وكتبها المقدسة ان نحاول جاهدين تحديد ما يجب علنا نسهم في تفسير توسعت منه الحلقة وكثر حوله الشطط .

ولا بد من الاشارة في معرض بحثنا الحالي الى ان التوراة وهي جزء من العهد العتيق الذي بشر بالمسيح حفلت في اسفارها الخمسة (١) « بالوعود والمواثيق » يتذرع بها الصهيونيون بعذ حوالى اربعة الاف عام ارساء لحق « شعب الله المختار » على ارض كنعان ، فلسطين .

★ ★ ★

ان الانجيليين الذين سطروا اقوال المسيح ورسالته ، والرسل من بعده توافقوا على ان الله اله المغفرة والرحمة ، لا يسند غزوا او يدعم فتحا ، او يستقطب الاهتمام لديه رخاء بني اسرائيل وامنهم ، اذ حقق عوضا عن النصر على الاعداء النصر على الخطيئة والموت ، وامن بدلا من الحليب والعسل ثمرات الفكر من محبة وسرور وسلام ، لان وعود الله جميعها تحققت فيه (٢) .

---

(١) التكوين « الخروج » العدد ، الاحبار ، تثنية الاشتراع .

(٢) رسالة القديس بولس الاولى الى اهل كورنتس ، الفصل الخامس عشر منها المقاطع ٥٥ ، ٥٦ ، ورسالته الثانية اليهم ، فصلها الاول ، المقطع ٢٠ .

والمسيحي ، على حد تفسير احد علماء الدين ، في احترامه « للكتب المقدسة » لا يؤمن باسرائيل واقعا جغرافيا ، عنصريا سياسيا ، بل يرى في بني اسرائيل ــ والتعبير للقديس بولس راس الكنيسة المفكر ــ « جماعة المؤمنين بالله » .

ولئن اعتمدت الكنيسة منذ البدء العهد العتيق كتابا مقدسا عند المسيحيين فمرد العقيدة كامن وراء الرسالة المسيحية دينا مكملا لليهودية ما دامت وصايا الله العشر مطاعة ، والنبوءات المبشرة بمجيء المخلص قد تحققت بالمسيح .

ليس للمسيحية وقد تسببت لليهود بالمتاعب والاضطهاد ، باسم المسيح وفي غفلة عن تعاليمه ، ان تأخذ من التوراة نصها الحرفي لتحقق في ضوئه احلام الصهيونية من غزو ونهب وفتح واجلاء عن ارض ، وان تتناسى ما بشرت هي وتبشر به من سلام ومحبة وعدالة وعطاء .

لقد تنكر اليهود للأنبياء واعرضوا عن المسيح محاربين رسالته ناقمين عليه ، بعد ان دلل على ان « مملكته ليست من هذا العالم » وان على من يقتفي اثره ان يحمل صليبه ويجرد نفسه من متاع الدنيا .

ويخطىء من يخال ان العهد العتيق ، ينظر ، نظرة دنيوية الى الوعود المقطوعة لاسرائيل . وهو يعرض في القوانين الرابع والثالث قبل الميلاد ، في المراحل التي تلت سبي اسرائيل ، الى الصفات التي يشاؤها الله حقا في « شعبه » ، مشددا على حبه تعالى ، للفقراء والمساكين والاتقياء ولكل من تخلى عن ذاته ليتطلع اليه ويتفتح عليه ويؤمن به .

« وتبدى العهد ميثاقا يرتبط به الخالق نحو جميع بني الانسان » .

وهكذا وبينما يستند الصهيونيون ارساء لحق مزعوم قائم ابدا على ارض فلسطين ، الى « عهد » تم في معنى معين ، واطار محدود من الزمن نرى ان « العهد » لاقى منذ اقدم العصور التفسير الصحيح على لسان انبياء « العهد العتيق » وقد مهدوا لرسالة المسيح القائمة على المحبة والعطاء والروح .

اننا ، نحن المؤمنين بالمسيح ، نجد في الرسالة حافزا على الصهيونية وضدها . فهي تبغي سيطرة دنيوية يستقر عمادها في بيت المقدس وترفرف اعلامها على الامم تحقيقا « للعطاء » و « للوعد » اللذين يستند اليهما حكماء صهيون والمسيحية تعتبر ان وعود الله « للشعب المختار » تحققت بالمسيح .

ومن البديهي ان رسالة السيد تناقض السيطرة الدنيوية التي يبغيها الاسرائيليون وتبشر بالاخرة التي لا يؤمنون بها وقد حدد فيها السيد مملكته داعيا الى التضحية بمتاع الدنيا وبالدنيا نفسها ، سعيا وراءها .

ومن البديهي ايضا أن الصهيونية اول ما تنافي تنافي تعاليم الدين المسيحي وتناقضه وان رسالة المسيح وقد سمت عن صغائر هذا الكون ، وعلت فوق نزعات بنيه داعية الى دنيا افضل ، « لا وجع فيها ولا حزن » اغاظت اسرائيل فتفتحت فيها ابواب النقمة عليه داعية الى صلبه .

وانى لعاصمة الروح « السيدة في البلدان » على حد ما جاء في مراثي ارميا النبي الباكي ، ان تمسي قاعدة فتوحات ومنطلقا لمطامح يرمي اليها الصهيونيون بما يسيء الى المسيحية ويتنافى ومجيء المسيح ورسالته وتعاليمه .

علاقة اليهود بالفاتيكان :

قد لا يكون هناك من تقارب في المسار التاريخي ونحن بصدد الحديث عن العلاقة التاريخية بين الجماعات الاسرائيلية التي كانت في عصر الميلاد حيث كان السيد المسيح يوجه دعوته اليهم ثم رفضهم له ولدعوته ومطاردتهم اياه وبين العلاقة اليهودية المسيحية التي نريد الحديث عنها الان بهذا العنوان « علاقة اليهود بالفاتيكان » وخاصة بعد ان اصبحت هذه العلاقة من جانب اليهودية العالمية ، ضغطا وتشويها الى الحد الذي امكن لها ان تجند مجموعة من الرجال يوشك التحرر الديني عندهم في مجازاة وارضاء هذه العلاقة اليهودية المسيحية ، التي لم تكن قبل ذلك سوى حرب وعداء ورفض ان يتحول الى مسخ كامل وتشويه مقصود ، لصلب دين واساس معتقد بحالة يدين به كل مسيحي في العالم ، الا ان الوحدة الموضوعية – فميا نرى – بين ما نحن بصدد الحديث عنه من النظر العلمي في التاريخ اليهودي ثم الوقوف امام ما تفيض به ايات الاناجيل من تواتر معتقد فيه عند المؤمنين بالاناجيل يؤكد لنا ان العلاقة التاريخية بين اليهود بمختلف طوائفهم ومذاهبهم ، وبين المؤمنين حقا بآيات الاناجيل والمصدقين لمعتقدات العهد الجديد علاقة صاحب الدم عند قاتله وطارده ولاعنه . والذي لم يكف يوما ، منذ تحمل خطيئة سفك الدم ورفض الحق وقتله عن الاصرار والسير على نفس الطريق طريق القتل والعداء في تعلق وارتباط بل واسر لشعور العداء والرفض ، وهذه المعاني التي دفعت القوم من اسرائيل في عصر الميلاد للتخلص من السيد المسيح عليه السلام هي التي جعلتنا نبادر الى دراسة ما تحاوله اليهودية العالمية في ثوبها العنصري الجديد والمسمى « بالصهيونية العالمية » حين ذهبت الى الفاتيكان كي تقتحم من داخل موطن القداسة الدينية لمسيحيي العالم ، صلب الدين المسيحي ، وعظيم اياته ؛ ثم لتضع بعد ذلك ما تريده من مسخ وتشويه لكل آيات الاناجيل باعتبارها

كتابا دينيا وأخلاقيا كل ما فيه يفضح خلق الافتراء والزيف اليهودي(١).

والذي حدث انه في يوم الثامن من نوفمبر « تشرين الثاني عام ١٩٦٣م قام المكتب الصحفي في الفاتيكان بتوزيع مشروع وثيقة بشأن موقف الكاثوليك من غير المسيحيين وعلى الاخص اليهود ، وفي المشروع ، اشارة الى اعتقاد المسيحيين بان جذور الكنيسة تمتد الى العهد الذي اقامه الله مع ابراهيم ونسله طبقا لمقاصد الله الرحيمة وانه بمجيء السيد المسيح ، وهو من نسل ابراهيم (بحسب الجسد) فقد امتدت مراحم الله التي كانت للشعب المختار الى العالم بأسره .

ثم تناول المشروع موضوع المسئولية في موت السيد المسيح وحاول اخراجها من كونها محصورة حول اليهود وتاريخهم الى النوع الانساني كله الذي يتحمل خطيئة موت السيد المسيح باعتبار ان النظرة المسيحية للنوع الانساني انه كله واقع تحت الخطيئة (٢) . وتناوله المشروع اشارة الى التعاليم التي وردت في العهد الجديد وما ردده جميع اباء الكنيسة ، وهو ان يسوع قد مات ، ليكفر عن خطايا كل انسان ، فالمسئولية التي دفعت قادة اليهود بصلبهم السيد المسيح لا يتحملها اليهود وحدهم . ولا يبرأ منها النوع الانساني كله .

وافرد مشروع الوثيقة نصا لم تحدد فيه مسئولية الجريمة المتعلقة بالصلب وانما على حد ما ورد في مشروع الوثيقة : ان جريمة القادة الذين قاموا بعملية الصلب جريمة شخصية لا يؤخذ بجريرتها الشعب اليهودي كله لا في ذلك الزمان الذي وقعت فيه ولا في اي زمان لاحق له .

ولم يكن مشروع الوثيقة بكل ما ورد فيها من محاولات التحايل وتأويل النص الانجيلي حول معطياته الصريحة في كل ما يتعلق بالصلب وتحميله المسئولية بالاثم والكفر للشعب اليهودي بكل فئاته وجماهيره التي استجابت لقوادها وكهانها هو كل جهد القوى اليهودية المعاصرة التي لبست ثوب العصر حركة سياسية عنصرية تجعل من قضايا الدين متكئا لها ومسوغا في سوق الادعاءات وتلفيق المعتقدات او تزييفها .

وانما كان بعد ذلك مع مشروع الوثيقة ايضا ، ما اثار الدهشة والحيرة

---

(١) انظر : المسيحية والجسد ، تاليف كمال حبيب ، صادر عن التربية الكنيسية بارمينيا بشبرا ـ القاهرة عام ١٩٧٠ م.

(٢) انظر الدراسة المسيحية الخاصة التي كتبها القس لبيب ميخائيل بعنوان : هل المسيح هو الله ، الصادر عن مطبوعات الصوت المعمداني ـ المطبعة التجارية بالظاهر ـ القاهرة ١٩٦٩ .

حقا ، هو تلك النغمة الجديدة في تاريخ الدين المسيحي ورجاله تلك النغمة التي توشك ان لا تكون مسخا وتشويها لعقيدة العهد الجديد فقط ، بل وكفرا بكل معانيه ومقرراته وخاصة فيما يتعلق بموقف اتباع السيد المسيح من الجماعات الاسرائيلية منذ عصر الميلاد حين رفضوا الدعوة المسيحية ولم يستجيبوا لها. وقد كان ذلك المسخ والتشويه ان وصلا الى اعلى مراحل الادعاء والاثارة حين وقف الكردينال « اغسطين بيا » الالماني الغربي، صاحب مشروع وثيقة التبرئة ليقول عن مشروعه انه يبين النواحي المشتركة بين الكنيسة الكاثوليكية والشعب اليهودي ، فالكنيسة ما هي الا استطرادا لشعب اسرائيل المختار (١) .

واستطرد « الكردينال بيا » يقول : ان ما يدعو الى وجوب بحث هذه المسألة هو سيطرة العداء لليهودية منذ عشرات السنين في بعض المناطق واتخاذه صورة اجرامية كما حدث في المانيا ابان حكم النازي : وفي هذا يقول انصار وثيقة التبرئة ان الكردينال « بيا » قد تألم كثيرا وتعرض لمحن نفسية من المصائب والكوارث التي اصابت اليهود من بني قومه الالمان في العهد النازي . لذا كان عليه كرجل دين عانى آلام اليهود على يد بني جنسه الالمان ان يعمل على التقريب بين اليهودية والمسيحية وكان هذا التبرير نوعا من التلفيق للبواعث النفسية والقوى التي تحرك التيار الخفي الذي كان وراء مشروع الوثيقة ، حين امكن للقوى اليهودية ان تكلل جهود املها في الوصول الى الفاتيكان بهذه الخطوة التي دفعوا اليها الكردينال « اغسطين بيا » .

اطماع اليهود العقائدية في الفاتيكان :

في الميراث الاخلاقي والديني والسياسي عند اليهود والذي امكن للعالم من خلال صراع طويل الوقوف عليه وتداوله رغم جهود اليهود في كتمانه والحفاظ عليه مدة طويلة من الزمن، هذا الميراث المسمى «بروتوكولات حكماء صهيون» والذي سنتعرض له بالدراسة حين الكلام عن العقيدة الدينية اليهود من بين النصوص نص يقول من البروتوكول السابع عشر :

« ان حرية العقيدة الدينية معترف بها اليوم في كل مكان، ولا يفصلنا عن انهيار المسيحية الا بضع خطوات ، وسيكون القضاء على الاديان الاخرى

---

(١) انظر الدراسة المفصلة التي اعدها الاستاذ الكبير محمود نعناعة عن الصهيونية في الستينات ، الصادر عن سلسلة من الشرق والغرب ـ القاهرة ١٩٦٤ .

أيسر من ذلك ــ وعندما يحين الوقت المناسب لهدم القصر البابوي ، ستمتد يد مجهولة الى الفاتيكان وتعطي اشارة الهجوم » (١) .

واذا ما علمنا انه لم يبدأ نشر هذه الاداب والمعتقدات اليهودية الا في عام ١٩٠٥ وفي روسيا عن طريق « اليكس نيقولا فيتش سوخوتين » الذي كان قد اطلع على اصول هذه البروتوكولات من السيدة «جوليدا ديمترملينا» التي كانت تقيم في باريس ، وعادت الى روسيا ، وكان معها بروتوكولات حكماء صهيون حيث كانت عضوا في المراتب العليا (٢) ، لجمعيات « الماسون » التي كما قلنا سنتعرض لها في الفصول القادمة بشيء من التفصيل لادركنا انه قبل القرن العشرين بكثير والنيل من القداسة الدينية للفاتيكان من بين مخططات الاطماع ومن بين اهداف السيطرة اليهودية والوثنية اليهودية على معتقدات الدين المسيحي وليس المقصود في الهدف اليهودي من تحطيم الفاتيكان تجريح قداسة الدين المسيحي وخدش جلال القائمين فيه على امر دينهم فقط وانما هو تخطيط للنفاذ الى وجود الفاتيكان نفسه لخلق قيم مستحدثة ولزعزعة الثقة في القيم التقليدية المتوارثة اولا حتى يمكن بهذا العمل زرع مبادىء التشكيك حول صحة وقداسة الاناجيل المسيحية والتي كانت تسجيلا عقائديا للمسيحيين لكل ما كشف السيد المسيح عليه السلام ، من عورات القوم وزيف مبادئهم وعنصرية اوهامهم ، وعنف مطامعهم واستغلالهم ، حتى يمكن لهم البدء في تحقيق ما يخططون له من تصور امكانية ازالة الوجود المسيحي اولا بما يمثله من مبادىء وقيم كامنة في صلب الدين المسيحي امامهم فينطلقون على مبتغاهم فيما يرسمون له ، وما يخططون من اجل التحقيق لاطماع العنصرية والتعصب من اجل سيادة وسيطرة اليهودية العالمية .

ومهما يكن من امر هذه المعتقدات اليهودية التي اشرنا الى ان بعضا من الكشف عن جوانبها يؤكد مطامع اليهود في الوصول خطوة خطوة الى قداسة المعتقدات الدينية التي يمثلها الفاتيكان حتى يمكن لهم من داخله بالسيطرة والتوجيه تحقيق مبتغاهم الا ان بعضا من الباحثين في التاريخ اليهودي لا يتعلقون بكثير من التعصب للدعوة الدينية العنصرية عند اليهود ولا يقبلون الارتباط بزيف ما يعتقد الغلاة المتطرفون من اليهود في الانتماء

---

(١) انظر : بروتوكولات حكماء صهيون ، الدراسة الموسعة التي قام بها الاستاذ عجاج نويهض من الجزء الثاني صفحة ٢٦٢ من طبعة بيروت ــ راس المتن ــ لبنان .

(٢) انظر : الدراسة الواسعة التي كتبها في اجزاء اربعة عن البروتوكولات الصهيونية الاستاذ عجاج نويهض بعنوان : بروتوكولات حكماء صهيون ، راس المتن ــ لبنان عام ١٩٦٧ م.

لدعوة التعصب والسيطرة ضد شعوب العالم ومقدراتها ويرفضون نسبة مثل هذه الاداب والمعتقدات الى تاريخ اليهودية ووجودها ولا يؤيـدون النشاط اليهودي التخريبي الذي خطط للسيطرة على العالم وعلى مقدراته ومع هذا فان واقع الحركة السياسية اليهودية الصهيونية ونشاط التعصب الديني والعنصري ، وخاصة في العصر الحديث حين بدأ يستجمع أوهـام شتات الجماعات التي كانت ولا زالت في نسبتها الكبرى تمثل فئة قليلـة وجماعات منبوذة داخل كل وطن هذه الجماعات المسماة في تمييز عنصري معروف بـ « اليهود » يكشف عن مدى الارتباط السياسي للجماعـات اليهودية بهذه الاوهام العنصرية لاساليـب يخططون بها لتحقيق مطامعهم وكان ذلك عندما اصبحت مطامع القوى الاحتكارية تعمل بالجهد والمساعدة وكل صور التعاون والتلاقي مع كل دعوة عنصرية سياسية كانت او دينية لتضيف الى جهدها وامكانياتها القدرة على العمل وعلى التوسع والانتشار فاستغل دعاة الاوهام الدينية المتطرفين من اليهود اصحـاب المطامـع الاستعمارية واستغل ايضا الاستعماريون اصحاب المطامع التوسعية دعاة الاوهام الدينية من اليهود ، ابتدأوا جميعا العمل من اجل اطماعهم وكـان هذا وحده من العوامل المشجعة مثلا في ا نيبدأ الغلاة اليهود يولون وجوههم شطر تحقيق كل الاماني التي تتعلق بمعتقداتهم وترتبط بما رسموا فـي ادابهم وخططوا لاطماعهم وخاصة في ظل التناقض الاجتماعي الذي ابـرزه العصر الحديث فمثلا حول علاقة اليهود بالفاتيكان وفي تحقيق المطمـع الصهيوني في ان يكون للفاتيكان جهد وخدمة من اجـل العمـل اليهـودي الصهيوني قبل ان تصل القوى اليهودية الى حال مواجهة بين الطرفين : الفاتيكان واليهود عند تلك المرحلة التي يخطط لها القوم في اهدافهم من انه « .. عندما يحين الوقت المناسب لهدم القصر البابوي ستمتد يد مجهولة الى الفاتيكان وتعطي اشارة الهجوم » .

فان في يوم ١٩٠٤/١١/٢٥ م وحين كان البابا « بيوس العاشر » على كرسي القداسة الدينية في الفاتيكان يمثل امتداد الدين المسيحي وبقائـه على عرش بطرس الرسول استطاع « تيودر هرتزل » الصحفي النمسوي اليهودي ان يقابل البابا « بيوس » ودخل معه في مناقشات طويلـة حـول علاقة الكنيسة بالشعب اليهودي وموقف الفاتيكان بالذات من اليهود عبر التاريخ ، والمح « هرتزل » في الحديث الى البابا « بيوس » عـن المطلـب اليهودي الذي كان قد اعده بوحي من مطمع سياسي وديني مـن رجـال الدين اليهودي في تفسيراتهم الحرفية لبعض نصوص من التوراة تربط في استمرار زمني من الماضي البعيد الى كل الزمن المستقبل عن وحدة الوجود

الاسرائيلي والمسيحي حتى بعد مجيء السيد المسيح ، ولم يخجل هرتزل من ان يلوك امام البابا حديث وحدة الوجود الديني لاسرائيل والمسيحيين حتى بعد مجيء السيد المسيح وكفر الاسرائيليين به .

وكان هذا الحديث معرض المناقشة التي تمت يوم ١٩٠٤/١١/٢٥ ويهدف به هرتزل الى مطلب اليهود اصلا وهو ان يكون للفاتيكان جهود اكثر من التعاطف مع اليهود حول الاراضي المقدسة في فلسطين ، وبأن تكون لها ـ فلسطين ـ وضعا خاصا يمكن الجماعات اليهودية من تحقيق اهدافها ، كي يمكن لها في النهاية خدمة الاهداف الصهيونية ، التي جعلت من الدعوى اليهودية الصهيونية في الارض المقدسة متكئا لها ومنفذا الى قلب الوجود العربي حتى تمزقه وتبعثره وتستغل مقدراته البشرية والمادية في خدمة أوهام الحركة العنصرية والمسماة بالصهيونية كمدخل للسيطرة على مقدرات العالم وقيمه الا ان البابا بيوس العاشر ، وكان في حل من ان يقول ما يؤمن به ، فلم تكن الضغوط ذات تأثير كبير على العاملين في الفاتيكان ، ولم تكن المناورات السياسية من القدرة على التأثير ـ زيفا وتضليلا ـ حتى على كبار الرجال الذين عرفوا اللاهوت حقا ، وخدموا الكنيسة حقيقة ، فقد قال لهرتزل « ... اما ان يظل اليهود محتفظين بمعتقدهم ينتظرون مجيء المسيح ... والمسيح عندنا قد جاء وتمت بعثته للبشر في هذه الحالة نعتبر اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح ، ولا مجال هنا لمساعدتهم في فلسطين ، ولا في غيرها هذا هو الوجه الاول والآخر ان يذهبوا الى فلسطين شعبا بلا دين بالمرة وفي هذه الحالة نجد انفسنا في مجال اضيق وغير مستعدين لمؤازرتهم ، ومعلوم ان الدين اليهودي هو اساس ديننا ولكن الدين اليهودي قد جاءت عليه تعاليم المسيح وحلت محله ولهذه العلة فليس من الممكن ان تقدم اليوم لليهود من المساعدة اكثر مما فعلنا من قبل ، والذين انكروا المسيح من اليهود ولم يعترفوا به ما زالوا على هذا الانكار حتى اليوم » (١) .

ورغم كل هذا الموقف القوي الواضح وهذا الكلام الديني الشجاع الذي يعبر عن سلامة المنطق المسيحي كتعبير عن العقيدة الدينية لاصحاب الاناجيل والمؤمنين بها الا ان الخبث اليهودي مكرا ودهاء باسلوب اللف والدوران حول كل ما يمكن ان يكون عائقا بين مطمع عنصري او رغبة يهودية قد جعل هرتزل يقول في رده على البابا « بيوس » اثناء المناقشة : ان

---

(١) انظر : الصهيونية في الستينات ـ الفاتيكان واليهود ، للاستاذ محمود نعناعة المصدر السابق الاشارة اليه .

النكبات والاضطهادات لم تكن في اعتقادي خير وسيلة لاقناع قومي بما يكرهون .

وامام هذا اللغط وقبح المواجهة الماكرة من يهودي ملتو وخبيث ثارت ثائرة البابا واستفزه قبح اسلوب هرتزل والعبارة التي رد بها عليه، فقال قداسة البابا « ... ان سيدنا يسوع المسيح ، اتى الى هذا العالم ولا قوة له ولا سلاح فقد جاء فقيرا من حطام الدنيا وهو لم يضطهد احدا ؛ وانما هو الذي تعرض للاضطهاد وتخلى عنه الناس ، وسلطانه على الارض لم يظهر الا بعد انقضاء رسالته ولم يقم للكنيسة كيان الا بعد مضي ما لا يقل عن ثلاثمائة عام على تأسيسها وقد كان بوسع اليهود خلال تلك الفترة ان يقبلوا رسالة المسيح فلم يقبلوها ورفضوها وما زالوا يرفضونها حتى هذه الساعة » .

وامام هذه الشجاعة المؤمنة في التعبير عما يعتقده البابا « بيوس » ويؤمن به ويمثله في أعلى مراحل القداسة الدينية عند المسيحيين فان سفاهة الخلق اليهودي وخبث معدنه عند قطب الصهيونية المتعصب قد جعل هرتزل يدون في مذكراته ما جابهه به البابا بيوس ورفضه للمساومة ونقول :

« ... ان البابا بيوس امتعض مني لأني لم أقبل يده عند اللقاء ولو كنت قبلتها كما فعل كونت ليباي ــ الذي أعد لهذا اللقاء الذي تم بينه وبين البابا بيوس ــ لما كان قداسته ذهب المذهب الذي صدر عنه » (١) .

ومن مثل ما سجله هرتزل في مذكراته عما اخذه عن البابا حين رفض المطمع اليهودي فانه هكذا يفهم اليهود الرجال من المؤمنين المسيحيين... قبلة مضمون الباعث على القيام بها انها « رشوة » دينية ، تطبعها شفة الواحد منهم ، على يد المثل الديني والاخلاقي للكنيسة الكاثوليكية ، فيتصورون كما فسر قطب الصهيونية « هرتزل » ان القبلة لو كانت قد تمت ووقعها على يد قداسة البابا ــ من فمه الاسرائيلي ، لما ذهب قداسته المذهب الذي ذهب اليه من رفضه للمطمع اليهودي والتحريف اليهودي الذي يحاوره في امره الصهيوني (هيرتزل) .

ورغم فشل هذه المرحلة ١٩٠٤ من عمل اليهود الصهاينة في احتواء القوى المسيحية المؤمنة في ان ينفذوا بالتيار التعصبي العنصري الى قلب الوجود الاخلاقي للفاتيكان ويغيروا اتجاهه الديني القائم على رفض الوجود

---

(١) انظر : يوميات هيرتزل ، ترجمة هلدا شعبان صايغ ، صفحات ٣٢٣ ــ ٣٢٥ ، صادر عن مركز الابحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ بيروت عام ١٩٦٨ م.

اليهودي ، الممثل للتعصب والقائم على دعوى العنصرية حتى يكون في ايديهم ، وتحت اوهام مخططاتهم في التوسع والسيطرة الا ان عمل اليهود الصهاينة ظل في اندفاع والمام ومثابرة حتى امكن لهم ان يخلقوا بالتزييف والاغراء من داخل الكنيسة صراعات مثلت في جملتها تيارين اخلاقيين يطلق على تيار منهما وهو الذي يقود (موضة) المذاهب والبدع الدينية والقيام بعمل التحليلات والتفسيرات والتأويلات التي تخدم اهداف هذا التيار السياسي ، والذين يقومون على أمره هم طائفة : « المتحررين » .

والطائفة الاخرى التي تحاول ان تتمسك بقيم وعقائد النصوص التي بين ايديها وتؤمن بها وهي طائفة « التقليديين » ومع اللعب بالدين والضغط والمساومة امكن لليهود الصهاينة من خلال بعض رجال الدين المسيحيين ان يثيروا قضايا عديدة كانت في كل ما يرتبط بها ، تتعلق بهم وبأمانيهم وعلاقة المنظمات والهيئات الدينية بهم وكان اخطرها الدعوى التي اثيرت حول عدم تحمل اجيال اليهود لجريمة صلب السيد المسيح لا في الاجيال اللاحقة لجريمة الصلب ولا التي عاصرت الصلب وشاهدته او قام بعض منها باقترافه .

والدعوة الثانية التي اثيرت وكان قد سبقها اكثر من لغط ديني وفكري على المدى الطويل قبل ان تصبح اسلوب عمل وتوجيه تيار ديني يهودي داخل الكنيسة وهي وحدة الديانتين اليهودية والمسيحية ووحدة شعب اسرائيل المجسد في شخص السيد المسيح واسرائيل الله ، فيوحدة اللاهوت (١) وغير هذه الدعاوى على المستوى الفكري والديني وفي مجال الهيئات والمنظمات الدينية فان اطماعا كثيرة تريد ان تبدأ مما يسمى وحدة اسرائيل الله ممثلا للديانتين اليهودية والمسيحية حتى تصنع الارض اليهودية المتصورة التي عليها تبدأ عملية المسخ والتشويه والقضاء على المعتقدات الدينية كي يكون المسرح معدا لدعوى الجنس اليهوديوعنصرية الشعب الذي يرفض الا ان يكون مستغلا ومسيطراً . وفيما أفردنا له من مواضيع مستقلة بذاتها حول علاقة الشعب الاسرائيلي من عصر السيد المسيح بالمسيحية وبمعلمها العظيم . فان آيات العقيدة الدينية التي تقص تفاصيل دين بحاله تحكي كيف انقطعت العلاقة التاريخية والدينية بين جماعات اسرائيل الذين رفضوا دعوة السيد المسيح ، وقاوموها ، وبين الذين اعتنقوا آداب وعقيدة وتعاليم السيد المسيح وتعرضوا للمحن والآلام

---

(١) انظر : الملل المعاصرة في الدين اليهودي ، تاليف الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي صادر عن معهد الدراسات العربية العالي ـ جامعة الدول العربية ـ القاهرة عام ١٩٦٨م.

بسببها . حين كانت تقاومهم الجماعات الاسرائيلية وتلاحقهم قتلا وتعذيبا ومطاردة ، ولعل في هذا الجزء الذي خصصناه للمعتقد المسيحي في كشف جوانب العلاقة بين المسيحية واليهودية في صميم اسس المعتقدات التي يمثلها جوهر المعتقد الديني في الديانتين ما يلقي بعض ضوء في ان يتنبه العالم المسيحي لما يراد بدينه حتى على يد بعض الممثلين الاخلاقيين والدينيين للمسيحية في بعض مذاهبها .

وعليه فانا نقول ان المسيحية في ثوبها الذي ترتديه من الاناجيل بقدر ما هي آيات رفض للخلق والقيم والمعتقدات اليهودية التي تعبر عن الاستغلال والسخرة والسيطرة فان اليهودية متمثلة في الجماعات التي تقيم بها وعلى اساسها دعوى العنصرية الدينية والقومية ترفض الفكرة والعقيدة المسيحية رفضا كاملا ولا جدال في ان ابسط محاولة للتقريب بين طبيعة التناقض التي يمثلها كل دين من الديانتين بالنسبة للآخر فانها عملية تزييف مقصودة لمعان اخرى ومآرب في خدمة شيء غير الدين والعقيدة .

ومرة ثانية فيصبح من الضرورة ان يتنبه العالم المسيحي وان ينظر بحذر الى دعوى التحرر الديني القائمة على تفسيرات وتأويلات تمسخ المعتقد المسيحي وتقضي على اهم أسسه ومبادئه . اقول انه لمن الضرورة ان يتنبه العالم المسيحي للاخطار التي تلاحقه وللتزييف الذي تتعرض له اسس العقيدة المسيحية من أثر تلك الاصوات الهامسة والتي تعلو احيانا تطالب بأن تبدأ الكنيسة عهدا بين المسيحية واليهود ، ولئن جاز لاية قوى افاقة ومضللة ان تدعو الى البدء في ان تكون هذه المرحلة من اللقاء المسيحي اليهودي وان تقوم وان تكون هناك علاقات باية صورة كانت او على أي اسلوب يراه المغرضون في ان تلتقي الكنيسة باليهود وتفتح ابوابها وقلوبها وعقيدتها لليهود فانه لمن الضرورة ان يستقر فيخلد المؤمنين بأناجيل السيد المسيح وبمعلمهم العظيم ان القوم جميعا من بني اسرائيل وادعيائهم منذ عصر الميلاد يتداولون في معتقد ديني ميراث الخطيئة الدينية التيتقوم عليها أسس معتقداتهم وهي انهم قد قتلوا يسوع المسيح الذي ادعى انه ابن الله لانه لم يكن المسيح الذي يقيم لهم مملكة السلطان والسيطرة ويقعد لهم مبادىء الاستغلال ويصنع لهم اساليب السخرة والتفاوت الطبقي وان الموقف الديني معتقدا وسلوكا في كل تاريخ ببني اسرائيل منذ عصر الميلاد حول علاقاتهم بالسيد المسيح يقوم على رفض المعلم العظيم تاريخه ودينه ومطاردة كل اتباعه (١) .

---

(١) انظر : « تبديد الظلام ــ اواصل الماسونية العام » الذي نقله عن الفرنسية عوض =

ومن هنا فلقد كان قداسة البابا « بيوس » العاشر في اللقاء الـذي تم بينه وبين هرتزل عظيما للغاية حين كشف عن طبيعة هذه العلاقة كما قلنا حين قال لهرتزل ما سبق ان اشرنا اليه : « ... اما آن يظل اليهود محتفظين بمعتقدهم ينتظرون مجيء المسيح ... والمسيح عندنا قد جاء وتمت بعثته للبشر ، وفي هذه الحالة نعتبر اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح ، واما ان يكونوا شعبا بلا دين بالمرة ... ان سيدنا يسوع المسيح اتى الى هذا العالم ولا قوة له ولا سلاح فقد جاء فقيراً من حطام الدنيا ، وهو لم يضطهد احدا وانما هو الذي تعرض للاضطهاد وتخلى عنه الناس. سلطانه على الارض لم يظهر الا بعد انقضاء رسالته ولم يقم للكنيسة كيان الا بعد مضي ما لا يقل عن ثلاثمائة عام على تأسيسها وقد كان بوسع اليهود خلال تلك الفترة ان يقبلوا رسالة المسيح فلم يقبلوها . وما زالوا يرفضونها حتى هذه الساعة » .

★ ★ ★

وبعد فما الذي يمكن أن نراه فيما تبقى من هذا المسار التاريخي الذي نتتبع فيه الوجود الاجتماعي والديني لليهود عبر التاريخ . فيآلواقع انه لئن كانت الوحدة الموضوعية بين جهود اليهود الصهاينة اليوم في ظل العصر الحديث كي يحققوا مطمعهم في السيطرة على القيم والعقائد الدينية اولا حتى يتيسر لهم التوسع والانتشار ، وبين رفضهم قيم ومبادىء ودعوة السيد المسيح عليه السلام في عصر الميلاد وهذه العلاقة بين الجهد اليهودي الصهيوني اليوم ورفض الجماعات الاسرائيلية اليهودية التيكانت في عصر السيد المسيح لدعوة المسيح هي التي جعلتنا نجيء من عصر الميلاد حيث كنا نتتبع المسار التاريخي لليهود لنكتشف عن نشاط واطماع الحركات العنصرية والتعصبية القائمة على دعوى استغلال الدين بهدف مسخ وتزييف معتقدات العالم المسيحي اولا حين تركزت الاطماع حول الفاتيكان في محاولة لشجب المعتقدات المسيحية ومسخها .

الا أنه يبقى لنا بعد ذلك ان نلقي نظرة على المسار التاريخي لليهود في الفترة الدينية التي تلت عصر الميلاد واعني المرحلة التي اصبحت فيها القوة العربية المسلمة تمثل الوجود الديني والسياسي على طول المنطقة الممتدة من غرب آسيا كله الى معظم شمال افريقيا هذه المنطقة التيكانت تشهد بقية من وجود يهودي يلوك دعوى امتداده القديم وارتباطهالتاريخي والديني بالآباء الاول لبني اسرائيل .

= الخوري عام ١٩٢٩ وهو من السجلات التي تطاردها الحركة الصهيونية ويعتبر من المصادر العلمية النادرة في العالم كله ٥

صابر طعيمة

التاريخ اليهودي العام

الجزء الثاني

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩١م.

الباب الثامن

- منشأ العلاقة التاريخية لليهود بالعرب .
- التكتل اليهودي في الارض العربية .
- اليهود في عصر الدعوة الاسلامية .
- المنظمات اليهودية في عصر ظهور الاسلام .
- العناد والمقاومة اليهودية للاسلام .
- التناقض بين اليهود والاسلام .
- مقدمات الحرب بين اليهود والاسلام .
- تفاقم العلاقة بين اليهود والاسلام .
- المسلمون يتحررون من اليهود .
- حصون خيبر والقوى المضادة فيه .

منشأ العلاقة التاريخية لليهود بالعرب :

من المسلم به تاريخيا من وجهة نظر البحث التقليدي حتى الآن انه لم تكن للامة العربية وخاصة في المناطق التي تشمل شمـال الحجاز وجنوبه اية مظاهر للدولة وتقاليدها قبل عصر الاسلام ، ومع ان القرآن الكريـم قد لفت النظر الى ارتباط العرب في هذه المنطقة وعلى امتداد بادية الشام كلها بحضارات مادية وعلمية على مراحل متفاوتة وطويلة من الزمن اشـار اليها القرآن الكريم حين تحدث عن فرع من الجنس العربي من عاد وثمود الى ارم ، الا ان البحث العلمي لم يفتح لنا هذه الآفاق بعد ، ومـن هنـا يبقى لنا اكثر من سؤال حول بداية العلاقة بين العرب واليهـود في ارض العرب الى ان اصبح العرب اصحاب دولة وبسيادة قويـة ونظـام علمـي واسلوب حياة بعد الاسلام وهو : متى بدات هذه العلاقة التاريخية التـي اقترنت في البحوث الدراسية بكثير من اللبس والغموض ، بل ان كثيرا من الذين تعرضوا لهذه المرحلة لم تكن عندهم الجرأة في الوقوف على تفاصيل هذه العلاقة بين الشعب العربي وخاصة منذ اصبح يمثل سلطة الدولـة والدين وبين الجماعات اليهودية التي التقت بالوجود العـربي على الارض العربية بالجوار والمعايشة وبالشعب العربي في كثير من مراحـل سيادتـه وسيطرته الى ان اصبحت تشكل خطرا على الوجود العربي وعلى الانسان العربـي .

التكتل اليهودي في الارض العربيـة :

في الفترة من عام ١٨٠٠ ق.م. التي نميل مع كثير من المؤرخين الـى انها بداية المرحلة التي كان فيها النبي ابراهيم عليه السلام قد ابتدأ يدعو

الى الله ويحمل انباءه وخاصة : اسماعيل عبء الدعوة الالهيـة بعـد ان استقر وكبر واصبح قادرا على تحمل اعباء الحياة والسير على خط الدعوة الالهية التي حملها استمرارا لاعداد الله له ووصية ابيه لهمقيما ومستوطنا في ارض العرب من على ارض مكة ثم على امتـداد رقعة الارض الفسيحة المحيطة بها .

واسحق الولد الثاني الذي اصبح ابا للمجموعات التي ترتحل مـن مكان لآخر طلبا للمرعى او لمبادلة السلع او المقايضة الى ان اصبـح هـذا الفرع من ولد ابراهيم منذ عصر اسحق ، وولـده يعقوب المصادر الاولى للجماعات الاسرائيلية التي قدمت الى مصر ويطلق عليها : العبريون تارة والاسرائيليون مرة اخرى .

منذ هذه المرحلة التي بدات كما سبق وان اشرنا الى انها بدات حوالي ١٦٠٠ ق.م. بداية دخول هذه الجماعات الى ارض مصر عقب الجـدب والقحط الذي تعرضت له بادية الشام والجزيرة ، بل ومنطقة كبيرة من غرب آسيا كله على ما يحققه بعض الباحثين الى عام ١٢٢٥ ق.م. حين ظهر النبي موسى عليه السلام في قلب المجتمع الاسرائيلي الذي كان يستوطـن مصر واراد السيطرة عليها وتسخير شعبهـا في خدمـة الخلـق الدينـي والاجتماعي المتوارث للجماعات العبرية التي لم يكن لها ادب عام او قيـم تشدها الى نوع من الامان والائتمان مع غيرها من الجماعات التي لم تتمكن ان تعيش معها على طول هذه المرحلة التي بدات منذ نشأة النبي ابراهيم عليه السلام الى عصر ظهور النبي موسى في عام ١٢٢٥ ق.م. وليس هناك من مصادر ذات ثقة علمية او تحقيق ديني يقرر انه قد وجدت صلة ادنى صلة لليهود الاسرائيليين والجماعات العبرية بالارض العربيـة وبالشعـب العربي قبل بدء ظهور النبي موسى عليه السلام الذي اراد (ولم يستجب القوم له في طواعية) ان يوجه الجماعات الاسرائيلية الى نوع من العلاقـة في ارض العرب بادئا الطريق بسيناء ، اقول ليس هناك من المصادر ذات الطابع العلمي والديني او حتى المصادر ذات الطابع الادعائي تقول انه توجد علاقة بين اليهود والعرب قبل هذا التاريخ الذي ظهر فيه النبـي موسى عليه السلام . والذي قرره ابن خلدون في كتابـه « تاريخ ابن خلـدون » المسمى بكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » من الجزء الثاني من الطبعة

التي طبعت عام ١٩٣٦ م. عن المكتبة التجارية بفاس يقول نقلا عن كتاب « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني وهو يلقي الضوء من وجهة نظر بعض البحوث العربية حول بداية العلاقة التاريخية التي كانت بين اليهود والعرب وكيفية منشئها .

ورغم اننا قد يكون لنا وجهة نظر اخرى تختلف بها مع ما ذهب اليه هذا المؤرخ ـ الذائع الصيت مع ما ذهب اليه واورده من كلام ابي الفرج الاصفهاني حول تقرير بدء العلاقة اليهودية بأرض العرب وبالعرب الا أننا هنا نؤثر هذا التقرير العربي التقليدي في تأريخه لبدء العلاقة بين العرب واليهود وتاريخها .

يقول ابن خلدون في روايته :

بنو قريظة وبنو النضير ، الكاهنان من ولد الكوهن بن هارون عليه السلام كانوا بنواحي يثرب بعد موت موسى عليه السلام وقبل تفرق الأزد من اليمن بسيل العرم ونزلوا بسيل العرم ونزل الاوس والخزرج يثرب وذلك بعد الفجار ونقل ذلك عن علي بن سليمان الاخفش بسنده الى العماري قال :

ساكنو المدينة العماليق وكانوا اهل عدوان وبغي وتفرقوا في البلاد وكان بالمدينة منهم بنو يعف وبنو سعد وبنو الازرق وبنو مطروق وملك الحجاز منهم الارقم ما بين تيما الى فدك وكانوا ملوك المدينة ولهم بها نخل وزرع وكان موسى عليه السلام قد بعث الجنود الى الجبابرة يغزونهم وبعث العمالقة جيشا من بني اسرائيل وأمرهم ان لا يبقوا احدا فابقوا ابنا للارقم ضنوا به على القتل فلما رجعوا بعد وفاة موسى عليه السلام واخبروا بني اسرائيل بشأنه فقالوا هذه معصية لا تدخلوا علينا الشام فرجعوا الى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة وكان هذا اولية سكنى اليهود بيثرب وانتشروا في نواحيها واتخذوا بها الاطام والاموال والمزارع ولبثوا زمانا وظهر الروم على بني اسرائيل وقتلوهم وسبوا فخرج بنو النضر وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين الى الحجاز وتبعهم الروم فهلكوا عطشا في المفازة بين الشام والحجاز وسمي الموضع ثمن الروم .

ولما قدم هؤلاء الثلاثة المدينة نزلوا العالية فوجدوها وبيئة وارتادوا ونزل بنو النضير مما يلي بطعه وبنو قريظة وبنو بهدل على مهزوز كان ممن سكن المدينة من اليهود حين نزلها الاوس والخزرج بنو الشطية، وبنو ثعلبة وبنو لخم وبنو قينقاع وبنو مرثد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو عصص وكان بنو الشطية من غسان وكان يقال لبني النضير (الكاهنات) كما مر .

فلما كان سيل العرم وخرجت الازد نزلت ازد شنوءة الشام بالسراة وخزاعة بطن مر — ونزلت غسان بصرى وارض الشام ونزلت ازد عمان الطائف ونزلت الاوس والخزرج يثرب كل ذلك بأمر كاهنهم فلما وردت الاوس يثرب ونزلوا بعضهم بالضاحية وبعضهم بالقرى مع أهلها ولم يكونوا أهل نعم وشاء لان المدينة كانت ليست بلاد مرعى ونخل لهم ولا زرع الا الاغداق الاراضي الخصبة اليسيرة يستخرجها والاموال لليهود فلبثوا حينا ثم وفد مالك بن عجلان الى ابي جبيلة الغساني وهو يومئذ ملك غسان فسأله فأخبره عن ضيق معاشهم فقال ما بالكم لم تغلبوهم حين غلبنا اهل بلدنا ووعده ان يسير اليهم فينصرهم فرجع اليهم واخبرهم ان الملك ابا جبيلة يزورهم فاعدوا له نزلا فاقبل ونزل بذي حرض وبعث الى الاوس والخزرج بقدومه وخشى ان يحتمي منه اليهود في الاطام فاتخذ حائطا وبعث اليهم فجاءوه في خواصهم وحشمهم واذن في دخول الحائط وامر جنوده فقتلوهم رجلا رجلا الى ان اتوا عليهم وقال للاوس والخزرج : ان لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلاحرقنكم ورجع الى الشام فاقاموا في عداوة مع اليهود .

ثم اجمع مالك بن العجلان وصنع لهم طعاما ودعاهم فامتنعوا لغدرة ابي جبيلة فاعتذر لهم مالك عنها وانه لا يقصد نحو ذلك فاجابوه وجاءوا اليه فغدرهم وقتل منهم سبعة وثمانين من رؤسائهم وفطن الباقون فرجعوا وصور اليهود بالحجاز مالك بن النعمان في كنائسهم وبيعهم وكانوا يلعنونه كلما دخلوا .

ولما قتلهم مالك ذلوا وخافوا وتركوا مشى بعضهم الى بعض في الفتنة

كما كانوا يفعلون من قبل وكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن مـــن الاوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم احلافا .

***

ومهما يكن من خلاف حول تفصيل هذه البداية للجماعات الاسرائيلية اليهودية في تحديد بدء اتصالها بالارض العربية وخاصة منطقة شمال الحجاز التي ركز عليها ابن خلدون في انها كانت مواقع توزيع الجماعات اليهودية في الارض العربية منذ عصر موسى واخيه هارون الذي لم ير ابن خلدون كبير حرج فيما نقله من ان يسوق خبـــر ارسال موسى جنوده الى الجبـــابرة ليحاربهم ويهزمهم فان هذه البداية المتقدمة والتي نرجح انها بناء على ما ذهب اليه ابن خلدون ومعه ابو الفرج الاصفهاني تصبح في الجيل الثـــاني او الثالث من حياة موسى واخيه هارون اي منذ حوالي ١١٥٠ ق م. حين بدأت هذه الجماعات تتنوع وتتعدد ويقيمون لهم رجالا وافرادا يرجعون اليهم وينظمون امورهم ويواصلون استعدادهم في العمل بالمقايضة والمتاجرة والسمسرة لتكون اداتهم في الطريق الى السيطرة والاستعلاء الخلق المدعى والمتوارث حسبما يقرر القصص التوراتي الذي بين ايدينا اليوم منذ عصر الاب المباشر يعقوب مهما يكن من خلاف حول تحديد هذه البداية خاصة اذا علمنا ان بعض الباحثين العرب من المتقدمين على ابن خلدون والاصفهاني وكثير من المتأخرين يقررون بعد دراسة لاسلوب العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية التي كانت سائدة في هذه المرحلة وما بعدها بكثير حين تأكد لديهم خلو الخلق العربي واسلوب العامل والميراث الادبي من وجود اثر ، أو ذكر، أو اشارة الى احتمال ان تكون الجماعات اليهودية منذ هذا العصر المبكر قد حلت بالارض العربية انه لم تبدأ العلاقة بين اليهود والعرب منذ هذا التاريخ الذي اشار اليه ابن خلدون . هذا فضلا عن أنه لم تكن هنـــاك عمليات تجمع يهودي في الجزيرة العربية في هذا التاريخ المبكر .

وعند المحـــدثين من المؤرخين انه لم تبدأ هذه العلاقة الا بعد المراحل القاسية والتي اخذ فيها الرومان بعـــد سيطرتهم علـــى العـــراق وانّهـــم يقومون برد الفعل لما قام به اليهود من اساليب الوشاية والتآمر والخداع وخاصة بعد عصر السيد المسيح ابتداء من عام ٧٠ ميلادية مرحلة القائـــد

الروماني تيطس الذي اخذ زمام المبادرة امام حركات التمرد اليهودية .

والمرحلة الثانية عصر القائد الروماني هادريان الذي احرق لهم دعوى حائط المبكى وضريح الرب ومعبد الرب وهيكل الرب وهدم لهم كثيرا من المباني والمنشآت . منذ هذه المرحلة في تقدير الفريق المخالف والمقرر لغير ما ذهب اليه ابن خلدون في سوق خبر البداية المبكرة لوجود الجماعات اليهودية في الارض العربية ومن عجب أن العلاقة القديمة بين العرب واليهود لم تأخذ حقها من الدراسة العلمية ومهما يكن من تباين وجهات نظر البحث والتأريخ لبداية العلاقة اليهودية العربية بالارض العربية فان الذي لا جدال فيه ان اليهود في الارض العربية حين بدات الدعوى الاسلامية وابتدات قيم الدين الاسلامي تنتشر وتستقطب الناس وتنظمهم وفي ظلها يشكلون استعدادا لاقامة دولة ذات نظام وسيادة كان اليهود في الارض العربية قوة اقتصادية وسياسية لا تتفق وطبيعة ما يمكن تصوره عن حجم اليهود الاجتماعي خطر اسلوب الدعوة الجديدة عليها حتى اعلنت الحرب ضدها ولما تزل الحرب قائمة بين النظام الاسلامي واسلوب التعامل والخلق اليهودي المرتبط بالغش والنفاق والمراوغة ونزعات السيطرة والاستغلال حتى اليوم .

اليهود في عصر الدعوة الاسلامية :

من الاشياء التي تثير الدهشة انه في عصر الاسلام كانت ارض العرب في منطقة الحجاز مقسمة قسمة عجيبة بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود وسيطرتهم ففي بدء بعثة النبي محمد عليه السلام كانت قوة اليهود الاقتصادية والسياسية كبيرة ومزعجة في شمال الحجاز ولقد بلغت القوة اليهودية في السيطرة على شمال الحجاز ما تعادل به نفوذ وقوة قريش في جنوبه ويمكننا القول ان نفوذ وسيطرة قريش كانت تشمل جنوبي الحجاز من منطقة يثرب المدينة حتى الطائف وكذلك كان نفوذ اليهود يمتد في شمال الحجاز الى حد يمكن معه القول ان هذا النفوذ كان يمتد من المدينة حتى تيماء في اقصى حدود الحجاز الشمالية ملتقيا في حدود سوريا في مسافة تقدر الآن بحوالي ٤٥٠ كيلومتر .

وامام هذا النفوذ الممتد اقتصاديا على طول هذه المنطقة من شمالي الحجاز لو لم يكن للعرب القرشيين في جنوبي الحجاز من المقام الادبي والارتباط بالارض والخلق العف الكريم الذي يرعى حق الجوار ويعظم المقدسات في تعلق بالكعبة واحترام لشعائر التعبد العربي في تقديسهم البيت وحرماته في حرص على ان تكون قيم المروءة العربية والنخوة والكرم والشجاعة المعاني التي ترتبط بالارض العربية حضاريا قائمة وباقية وممارسة في شكل ميراث يحمله الآباء للابناء لكان من الممكن القول ان نفوذ اليهود الاقتصادي ابان عصر البعثة المحمدية يشكل أسس حركة السيطرة اليهودية التي كان من الممكن أن تمتد وان تتوسع فقد كانت اوضاع توزيع الوجود اليهودي في شمال الحجاز في منتهى الدقة والحرص على نيات مبيتة في التوسع والسيطرة وذلك ان يهود بني قينقاع التي ورد ذكرها في رواية ابن خلدون كانت تقيم في منطقة يثرب المدينة وكان معها قبائل بني عوف وبني النجار وتقيم حولها قبائل الاوس والخزرج وتنزل في نفس المناطق الزراعية التي كانت تهتم بها .

وبنو قريظة كانوا ينزلون في ضاحية يثرب المدينة من جهة الجنوب الشرقي .

وبنو النضير كانوا ينزلون في ضاحية يثرب المدينة من جهة الغرب.

وكانت منطقة يهود خيبر حيث يوجد اعظم مركز تجمع لليهود في شمال الحجاز هي المنطقة ما بين المدينة ومنطقة تيماء الملاصقة لاقصى حدود الشمال عند سوريا .

وكان هذا التوزيع لمراكز القوة اليهودية بات يمكنهم وقتها من القدرة على الانتشار وفي ان يمدوا ايديهم على مساحة كبيرة من الارض يعملون على استغلالها واستثمارها ولذا كان لهم كما فعلوا ان يقوموا بتحصين أماكن تجمعهم واعدادها بالقوة العسكرية وتخزين كميات من السلاح واعداد مجموعات منهم للقتال بأمل الحفاظ على ما اكتسبوه حتى يمكن لهم دوام السيطرة والبقاء وبالفعل فانهم ما ان احسوا أن من بين العرب القرشيين أهل القسم الجنوبي من الحجاز تباشير اسلوب عمل ومقدمات النظام الجديد المرتبط بعقيدة الاسلام وآدابه وتعاليمه وانه ابتدأ يقعد

ويقنن اساليب التعامل المالي والاقتصادي ويحدد نوعية العلاقات الاجتماعية بين الناس بعضهم والبعض الآخر الا وقد ادركوا تماما ان هذه للبداية الدينية بما تقرره وبما تصنعه من اعداد قوة بشرية ودينية تصطدم مع واقع وآمال ومصالح الوجود اليهودي في الارض العربية الا واطلنوها حربا فلسية ومريرة ضد محمد عليه السلام وضد الاسلام وضد العرب ولم تفتر حدة الحرب الا بعد ان تمكن العرب المسلمون من تصفية مراكز القوى وبعثرة مواقع التجمع اليهودي في ارض العرب وابقوا عليهم افرادا وجماعات دون ان يتركوهم يشكلون خطر الجماعات الطامعة المتوسعة .

المنظمات اليهودية في عصر ظهور الاسلام :

في عام ٧٠ م اضطر القائد الروماني الشهير « تيطس » ان يقوم بحركة تطهير واسعة من السيطرة اليهودية في فلسطين وللقضاء على محاولاتهم في التمرد واعلان السخط والمقاومة للحكم الروماني الذي لا يتيح لهم كل ما يبتغون من اعمال العنف وممارسة اساليب القهر والعدوان في تحقيق مطامعهم واغراضهم .

وفي عام ١٣٥ م كان اليهود في فلسطين قد عادوا مرة ثانية لتجميع ما تبعثر لهم واستطاعوا ان يجابهوا سلطان الدولة الرومانية بما يشبه الثورة وقادوا من اعمال الاضطراب واثارة الشغب وتضليل العامة عدوانا على الدولة الامر الذي جعل القائد الروماني هادريان يحطم معابدهم ويدمر لهم حصونهم ويصادر اموالهم ويحرق كتبهم ويطارد كهانهم ويرفض ان تقوم لهم قائمة بفلسطين .

ومنذ هذا التاريخ اندفعت الافواج اليهودية تقصد العديد من البلدان وتعيش بين الشعوب وكان من بين تلك الافواج اليهودية المشردة مجموعات نزلت بأرض الحجاز في مدينة يثرب وما يليها من الشمال .

ثم قاموا بتوزيع تجمعاتهم في هذه المنطقة واتخذوا فيها الحصون والمستعمرات والبساتين واسواق التجارة وغير ذلك .

ثم حدث ان قام بين الاوس والخزرج العناصر الاساسية من العرب سكان مدينة « يثرب » مشكل الزعامة ومنافسات القيادة وفي حالات كثيرة كانت تتحول هذه المنافسات الى نوع من الصدام والعراك المسلح بين الاوس والخزرج في داخل مدينة يثرب وعلى حدودها .

ولما كان اليهود قد تمكنوا من ان يقوموا بعمليات توزيع بشري لتجمعاتهم داخل يثرب في مواقع متعددة فقد واتتهم الفرصة الذهبية حين كان يقوم الصراع بين الاوس والخزرج ويتحول الى قتال وقام يهود « قينقاع » بعقد حلف مع الاوس والخزرج وتقديم العون لهم ، ثم قام يهود بني قريظة وبني النضير بعقد حلف مع الخزرج وحين بدات العلاقة بين الاوس والخزرج قبيل البعثة المحمدية تنتقل من الضغائن والمشادات الى نوع من الصراع والحروب كان على اليهود ان يؤججوا نار البغضاء والعداوة بين العناصر العربية في يثرب .

واقتضى الصراع العربي بين عناصر التجمع العربي في يثرب ان يقترض الاوس من يهود قينقاع وان يقترض الخزرج من يهود بني النضير وبني قريظة وبالقطع فان القوى اليهودية لم تكن تبغي في هذه المرحلة اكثر من ذلك فقد اثقلوا الفريقين بالديون والالتزامات علاوة على ما تعرضوا له من ارهاق ومشقة .

ومن خلال هذا الوضع السياسي الذي كانت عليه يثرب تحركت في صدور اليهود خصوصية الحقد الدفين في اعماقهم على كل من ليس باسرائيلي وهي خصوصية قديمة في اعماقهم لا تقنع ابدا بغير التدمير وسفك الدم كلما تواتيهم الظروف .

ومن هنا فان الحال الذي ساعدوا عليه بين عرب يثرب قبيل البعثة المحمدية كانوا يحلمون به . خاصة وان الكهانة الدينية عندهم كانت تتداول الحديث عن قرب ظهور نبي يوشك ان يبعث . وكانت بعض العناصر اليهودية تستغل مثل هذه الافكار لتنطلق القوى اليهودية الكبرى التي تقتل في روح العربي ارادة الحياة الآمنة ويقولون للعرب ان نبيا قد اظل زمانه تتبعه وتقتلكم معه قتل عاد وارم .

وحين ظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم انكروا دعوته وقاوموه وحاربوه كان ذلك حين هاجر صلى الله عليه وسلم من مكة الى يثرب .

ولما آمن به جماعة من اليهود مثل عبدالله بن سلام ، ومخيريق الذي كان حبرا يهوديا كبيرا وقاتل مع الرسول في غزوة احد ضد مكة ومثل ثعلبة بن سعية واسد بن عبيدان على القوى الجاحدة المنكرة ان تقاوم هذا التيار الذي ابتدأ يتعاطف مع المسلمين بل وينضم اليهم ومن هنا فان عناصر المقاومة اليهودية ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ابتدات تعلن عن مواقف القوى التي تنتمي اليها وتعبر عنها فبرز من التنظيم اليهودي الخفي في بني النضير مجموعات تقود المطاردة ـ للنبي والمسلمين ـ ثم تتابع جهدها بالتشهير والتجريح واشاعة الفتن ويتمثل ذلك في اساليب حيى بن اخطب وامثاله ابو ياسر بن اخطب ، وسلام بن مشكم ، وسلام ابن ابي الحقيق وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق وعمر بن جماش وكعب بن الاشرف وكردم بن قديس وغيرهم .

وتعاونت هذه العناصر اليهودية مععناصر اخرى من اليهود المنتشرين في مناطق الشمال .

وحين وقعت معركة بدر وظهر من نتائجها ما يمكن ان يغير في اوضاع المسلمين بيثرب ويحولهم الى قوة سياسية تمثل خطرا على قوى الرفض اليهودي للاسلام والمسلمين كان على قيادات التنظيم اليهودي ان تكشف للجماهير اليهودية عن قدرتها على المقاومة والرفض لهذه الاوضاعالاسلامية الجديدة وتظهر بجانب العناصر اليهودية القائدة في بني النضير عناصر من يهود ثعلبة وكان منهم بن الفطيون عبدالله بن صوريا الاعور ـ وكان معاونا فلم يكن احد بالحجاز في زمانه أعلم منه بالتوراة وظهر من يهود قينقاع بن اللصيت وسعد بن حنيف ومحمد بن سيمان وعزيز بن عزيز ورفاعة بن قيس وفنحاص ، ونعمان بن عمرو ـ واشيع ـ وكعب بن ابي رافع .

وبرز للمواجهة والمطاردة من مواقع العمل الخفي مع العناصر التي تصدت للاسلام والمسلمين من النضير وثعلبة وقينقاع عناصر قيادية اخرى من يهود بني قريظة وكان من اشهرهم الزبير بن باطا بن وهب وعزال بن شمويل وكعب بن اسد ـ وكان هذا من العناصر اليهودية الثرية التي

تقود الجماعة اليهودية في قريظة فتولى القيام بعقد مع المسلمين لصالح بني قريظة ولما احس ان الوقت في غير صالح المسلمين في حصار الاحزاب ليثرب في السنة الخامسة من الهجرة نقض عهده وقبل ان يمد يده لجيوش مكة في انقضاضها على المسلمين .

وكان من يهود بني قريظة الذين دفعتهم العداوة للاسلام ان يعملوا وجها لوجه ويتركوا مواقعهم الخفية واساليبها المستترة شمويل بن زيد وجبل بن عمرو وابن سكينة والتمام بن زيد وفردم بن كعب والحارث ابن عوف وعردم بن زيد .

واما يهود بني زريق فكان منهم لبيد بن اعصم وهو الرجل الذي قامت نساؤه بمحاولات لايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي المراحل الاولى لتطور اوضاع واحوال المسلمين في المدينة فان القوى الخفية للتنظيمات اليهودية قد ألقت بهؤلاء في وجه الاسلام والمسلمين وذلك قبل ان يعلنوا الحرب على الرسول صلى الله عليه وسلم ويدخلوا في القتال .

العناد والمقاومة اليهودية للاسلام :

تمثلت المقاومة اليهودية للاسلام في بادىء امرها بمواقف الانكار والتشكيك التي ابتدأ رجال الدين اليهود يقومون بها ولما احسوا ان الموقف يوشك ان يفلت من ايديهم نتيجة المواقف المؤمنة التي قادها احبار اليهود من الذين رأوا الحق فاتبعوه قامت العناصر اليهودية التي تتوارث التوجيه اليهودي وتسيطر عليه اجيالا بعد الاخرى بعملها ضد الاسلام والمسلمين .

ويقول الحصين بن سلام اليهودي الذي كان حبرا كبيرا من اهل التوراة ثم اسلم وتسمى باسم (عبدالله بن سلام) لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نترقبه فكنت على ذلك مسرا وصامتا عليه حتى قدم رسول الله المدينة فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف اقبل رجل حتى اخبر بقدومه وانا في راس نخلة لي اعمل

وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت قال فقلت لها : اي عمه هو والله اخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به . قال فقالت : اي ابن اخي أهذا النبي الذي كنا نخبر انه يبعث مع نفس الساعة . فال فقلت لها نعم فقالت فذاك اذا . ثم خرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت الى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا .

ومن البداية التي لا يغفلها رجل في مثل قلب وعقل عبدالله بن سلام ان رد الفعل اليهودي في مواجهة ما اقدم عليه وما استجاب له خاصة وانهم يدركون قيمته ومنزلته الادبية بين قومه سيكون قويا وعنيفا ضده .

ويدلل لنا ابن سلام بفراسته في تصور ما يمكن أن تقوم به القوى اليهودية من التخفيف والتهوين من اسلام رجل في منزلته ويعمل جهده في ان يضرب اسلوبهم في المراوغة والتشويش على المواقف والمبادىء فيقول :

وكتمت اسلامي من يهود ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له يا رسول الله ان يهود قوم بهت وانا أحب ان تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف انا منهم قبل ان يعلموا باسلامي فانهم ان علموا بي يهينوني ويعيبوني يقول بن سلام فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم اي رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا يقول بن سلام ــ فلما فرغوا من كلامهم خرجت عليهم فقلت لهم ــ يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا حاجاتكم به فوالله انكم لتعلمون انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اؤمن به واصدقه واعرفه .

وفي هذا الموقف الدقيق والرهيب الذي أعد لهم من قبل رجل كان بالامس واحدا منهم يعرف خلقهم وسرائرهم وما تنطوي عليه نفوسهم من غدر وخيانة اتضح ومبكرا الوقت الذي ستتخذه القوى اليهودية بمختلف فئاتها من المصطفى صلى الله عليه وسلم ذلك انهم حين فوجئوا باسلام الحصين بن سلام بعد اقرارهم بقيمته الادبية والدينية بينهم قالوا لابن

سلام كذبت ثم ابتدأوا في التشهير به . ويصف لنا الحبر الاسرائيلي الجليل الحصين بن سلام بعد ان اصبح انصاريا من صحب رسول الله والمؤمنين به اخلاق قومه اليهود : ألم اخبرك يا رسول الله انهم قوم بهت اهل غدر وكذب وفجور . ثم يقول بعد هذه الواقعة : فاظهرت اسلامي واسلام أهل بيتي واسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن اسلامها .

وكذلك اسلم مخيريق ولما كان رجلا قد استقر قلبه وعقله علىالايمان بالاسلام وبمحمد عليه السلام فانه قد آثر ان يكون لاسلامه تأثيره الحاد في نفوس اليهود ويبدو من جملة تاريخ هذا الصحابي الجليل انه كان كبير السن كثير المال قليل العيال .

وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطمئن اليه كثيرا فلم يزل على ذلك حتى كانت غزوة احد في السنة الثالثة من الهجرة وكانت في يوم سبت فوقف مخيريق على ملأ من جمع يهودي وقال : يا معشر اليهود انكم لتعلموا ان نصر محمد عليكم لحق . وبهتوا من موقفه منهم في يوم السبت وقالوا له ان اليوم يوم السبت قال لا سبت لكم ثم اخذ سلاحه وانطلق ليشترك مع المسلمين في معركة احد بعد ان ترك وصية بنقل امواله كلها فضلا عن مزارعه من النخيل ان هو استشهد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وامام البداية العملية لتأثير الاسلام في بعض العناصر النقية من اليهود جن جنون قيادات المقاومة السرية المتحكمة في مصير التجمع اليهودي ومقوماته .

وانضم الى القيادات اليهودية بعض رجال الاوس والخزرج ممن ظلوا على جاهليتهم وانضم اليهم بالولاء بعض العناصر المنافقة التى تعتنق الاسلام ظاهرا اما حقيقة عواطفهم فكانت مرتبطة بالقوى المقاومة للاسلام.

ومن هنا فانا نرى ان من اسباب انتشار المغالطات التي كان يروج لها اليهود من سكان المدينة كانت من خلال هذا التجمع المتلاقي علىاهداف محددة ضد الاسلام ونبيه الصلاة عليه والسلام .

ولقد عاون على تفاقم التباين وتصاعد حدة التناقض بين ما يبينه

الاسلام في عالم الروح ونظام الاجتماع وامور الاقتصاد والسياسة وبين ما يمتلكه اليهود وما يطمعون فيه من تسلط وعدوانيـة وارهاب . هـو ان عناصر يهودية من الاحبار والكهان اسلمت نُفاقا ورياء واندست تحت ظل ارتداء ثوب الاسلام بين المسلمين واطلعت على ما هـم بصدده من أمـور شئون الحياة وشئون الدين .

وكان من ابرز هذه العناصر اليهودية سعد بن حنيف وزيد بناللصيت ونعمان بن ارقى بن عمرو وعثمان بن اوفى ولقد عمل التنظيم اليهـودي الخفي عمله في الدفع بهذه العنـاصر اليهوديـة لتأديـة دورهـا المرسوم لها ضد الاسلام والمسلمين (فزيد بن اللصيت) مثلا هو الـذي قاتـل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بسوق قينقاع وهو الذي قال حـين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « يزعم محمد انه يأتيه خبـر السماء وهو لا يـدري اين ناقته » . وعلم صلى الله عليه وسلم بقولة هذا اليهودي المستتر فغضب من هذه القولة اللئيمة التي اراد بها هذا اليهودي الهزء بالمصطفى عليه السلام ودله الله تعالى على مكانها فقال « ان قائـلا قال يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء ولا يدري اين ناقته واني والله مـا اعلم الا ما علمني الله وقد دلني عليهـا فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف .

وهذه العناصر اليهودية بكل ما تؤمن به وما تلجأ اليه من اساليـب في الخفاء او العلانية تصاعدت بالمقاومة ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الى مرحلة الصدام المسلح ويكفينا في التدليل على روح العنـاد والمقاومة عند اليهود ضد الاسلام والمسلمين شهادة صفية رضي الله تعالى عنها بنت حيى بن اخطب اليهودي تقول فيما يرويه ابن هشام في سيرتـه عن ابن اسحاق الذي يقول وحدثني عبدالله بن ابي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم قال حدثت عن صفية بنت حيى بن اخطب انها قالت « كنت أحب ولد ابي اليه والى عمي ابي ياسر ولم القهما قط مع ولد لهما الا اخذاني دونه قالت فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قبـاء في بني عمرو بن عوف فدخل عليه ابي حيى بن اخطب وعمي ابو ياسر بن اخطب مغلسين قالت فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس قالت فاتيا

كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى قالت فهششت اليهما كما كنت اصنع فوالله ما التفت الى واحد منهما مع ما بهما من الغم قالت وسمعت عمي ابا ياسر وهو يقول لابي حيى بن آخطب اهو هو قال نعم والله قال اتعرفه وتثبته قال نعم قال فما في نفسك منه قال عداوته والله ما بقيت .

بهذه الروح المنكرة الكافرة والجاحدة عامل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل مراحل دعوته لهم او مجاورتهم له حتى كانت المرحلة التي ابتداوا فيها يمثلون الخطر المحقق على حركة المسلمين وامنهم وخاصة بعد ان ضاق اليهود بانتصار المسلمين في السنة الثانية من الهجرة على جيش مكة في معركة بدر . ومنذ السنة الثانية من الهجرة والعداوة اليهودية للمسلمين قد استنفدت كل ما لديها من الاعيب واساليب حتى كانت الحرب بين المسلمين واليهود وقد تمكن فيها المسلمون ان يفرضوا ارادتهم على التجمعات اليهودية ويهيئوا الجو العام من حولهم لعلاقات اسلامية جديدة شريفة وفاضلة تقوم على قضايا الحق والخير والمساواة وحتى لا تستقر هذه القيم على الارض بدأ اليهود جولتهم المتآمرة ضد العروبة والاسلام .

التناقض بين اليهود والاسلام :

حين اضطر المسلمون الذين آمنوا بمحمد واستجابوا له من اهل مكة في جنوبي الحجاز ان يستجيبوا لما وجههم اليه رسول الله عليه السلام بل ولما فعله بنفسه حين تم له تغيير موطن الاقامة في مكة حيث امر في المدينة لم يكن في تقدير الرسول ولا احد من الصحابة ان يواجهوا قوة اليهود مبكرا ولا ان يتعرضوا لهم وكان الرسول عليه السلام يدرك ان وراء ظهره في الجنوب طغيان مكة وجبروت اهلها ورفضهم تقبل دعوته ومطاردتهم اياه فليس من الحكمة ان يسمح او ان ينهج نهجا يثير به ثائرة هذه القوى اليهودية التي تسيطر في كثير من امور وحياة هذا الموطن الجديد الذي اضطر المسلمون الى الهجرة اليه وكان في تقدير الرسول صلى الله عليه وسلم العمل والاعداد على ان لا يصبح بين قوتين في الميدان الذي ابتدا يوجه فيه الدعوة الى الله بين قوة المكيين في الجنوب واليهود في الشمال ولذا كانت توجيهاته صلى الله عليه وسلم ان لا يتعرض احد من المسلمين

لليهود بسلوك يجرح مشاعرهم او يضايق سلوكهم بل انه بنفسهعليهالسلام قد اخذ زمام المبادرة وافصح عن رغبته في حسن الجوار والمشاركة في الامور العامة وذلك حين عرضوا على اليهود ان يكون بينهم وبين المسلمين عقد اتفاق كان من بين بنوده ان « ... اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » .

وكان كذلك من بين بنود الاتفاقية « ... ان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة (الاتفاقية) وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم وانه لم يأثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة » .

وبهذه الصحيفة او بعقد الاتفاق الذي عقده الرسول مع اليهود معترفا بهم مقرا بوجودهم وبعقائدهم كان الامل كبيرا في قلوب المسلمين ان تسير العلاقة بين اليهود والمسلمين سيرة حسنة وان يتعاون الطرفان الا انه كانت المناورة وكانت المضايقة والتربص من جانب اليهود ثم كانت الحرب حتى مرحلة التآمر والقتل على نبي المسلمين ومحاولات التخلص منه نهائيا باعتباره رمزا لسيادة المسلمين في المدينة الموطن الجديد لهم الذي ضايق اليهود وجود المسلمين فيه ومواصلتهم نشر الدعوة الاسلامية منه .

وبدات العداوة تصبح هي طابع العلاقة بين اليهود والعرب المسلمين واخذت هذه الحرب الصامتة تقوى وتشتد من جانب اليهود ضد المسلمين على مراحل وفي كل مرحلة كان موقف اليهود فيها يكشف عنطبيعةوجودهم وعقائدهم في اي موقع يسيطرون فيه ويبرز نوع تعاملهم مع اي امة يعيشون معها او بينها فقد كانت بداية الافصاح عن النيات السيئة المبيتة في قلب اليهود نحو المسلمين تاخذ المراحل الآتية :

مرحلة الحذر والاستياء من المسلمين :

وتمثلت هذه المواقف من الحذر والاستياء في عدم الترحيبواستقبال

المسلمين المهاجرين الى ارض يثرب وخاصة بعد ان علم اليهود ان من بين المسلمين المكيين القادمين من الجنوب من الرجال التجار اصحاب همة اقتصادية نشطة ما ان استقروا في المدينة حتى قرروا انشاء سوق اقتصادية خاصة بالمسلمين وكان على راس هؤلاء التجار عبد الرحمن بن عوف وابي بكر الصديق من الرجال الذين قادوا بالفعل جهودا اقتصادية في ان يكون للمسلمين اقتصاديتهم وميادينهم تجارة خاصة بهم ترتبط بما يمكن ان تقرره تعاليم دينهم .

والمرحلة الثانية التهيؤ لرفض المسلمين ومضايقاتهم وتمثلت هذه المرحلة من التهيؤ والاستعداد لرفض المسلمين حين أدرك اليهود ان المسلمين ليسوا مجرد مجموعات مهاجرة ولا جثة هامدة ,تريد ان تعيش في امن وحماية اصحاب المهجر الجديد الذين قبل بعضهم مسئولية الحماية وعبء تحمل المهاجرين وانما هم قوة تريد ان تنمي نفسها وان تصنع لنفسها الارض التي تمكنها من النمو والقدرة على الحركة وعلى الحياة كان ذلك حين أدرك اليهود عن قرب من المسلمين ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب اقامته بالمدينة وهو لما يزل بعد قريب عهد جدا بمقامه فيها كي يستقر ويبتعد عن الاذى والمضايقة حين أخرج في الشهر السابع من مقامه بالمدينة سرية على راسها عمه حمزة بن عبد المطلب في ٣٠ مهاجرا كي يتعرفوا أحوال الطريق ما بين مكة والمدينة ويوافوه بما يكون قد جد من حوادث او ما اعد من مفاجآت .

ثم ما واصله الرسول بعد ذلك ايضا من ارساله السرية الثانية وكانت بمقام الدورية المسلحة التي تستطلع اخبار الميدان من على الحدود حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة .

وكانت هذه السرية (ويا للعظمة في الاعداد للاعمال الكبرى والترتيب لها) في الشهر الثامن من مقام النبي بالمدينة اي في الشهر الثاني من الدورية الاولى .

وهكذا في العام الاول من مقام النبي في المدينة فانه قد واصل الاعداد لحماية المسلمين حتى لا يفاجئوا بليل . وفي الشهر الثالث من ارسال السرية الاولى ارسل الثالثة بقيادة سعد بن ابي وقاص .

وما ان عادت هذه الدورية حتى قرر النبي عليه السلام ان يخرج بنفسه على راس قوة من المسلمين الى شمال المدينة وعسكر في منطقة شمالي المدينة وتبعد عنها حوالي ٢٨ كيلومترا عند قرية اسمها (ودان) وكانت هذه اول مرة يخرج فيها النبي على راس قوة شبه عسكرية .

ومن الدقة المعجزة في الاعداد ان الرسول عليه السلام حين ارسل السرايا الثلاث اي الدوريات المسلحة (المستطلعة) كان يوجهها الى منطقة الساحل اما هذه المرة والنبي على راس القوة فانه قصد جهة الشمال لا الغرب .

ولعله من المعقول ان الرسول عليه السلام في بعض ما كان يهدفه ان يصيب وضعا سياسيا وعسكريا واقتصاديا حتى يدرك اهل الموطن الجديد ان الرسول وصحبه ليسوا مجرد لاجئين وان على القوة التي قاومتهم ان تدرك ان وجودهم ينمو ويتصاعد فلعلهم ان يكفوا عن المطاردة والتضييق .

وفي هذه المرحلة التي كان فيها اليهود يعدون انفسهم لرفض الوجود الاسلامي كان الوجود الاسلامي ينمو ويتزايد ولما افصح عن شخصيته السلوكية بدأت الحرب بين اليهود والعرب المسلمين وكان ذلك عقب النتائج التي ترتبت على اولى معارك الاسلام ضد الذين حاربوا الدعوة وقاوموها وحاصروا او صادروا مقدرات اهلها عقب معركة « بدر » التي كان من نتائجها صدى بعيد الاثر في تكوين صورة سياسية عن ملامح الجماعة الجديدة المسلمة التي استطاعت ان تنظم نفسها وان تقوم بعمليات مضادة وحصار مضايقة كرد على ما واجههم به اهل مكة بل ان المسلمين قد تأكدت قوتهم في المدينة بعدما اضيف اليها ما ترتب على عملية المواجهة مع قوى قريش وظفرهم فيها بما غنموه وما تقاضوه من فداء الاسرى وما حصلوا عليه وما اخذوا من سلاح العدو الذي انتصروا عليه في المعركة وقد تبدل حال المسلمين تماما عقب هذه المعركة فبعد عودتهم اصبح كيانهم الاقتصادي والسياسي اقوى مما كان عليه قبل المعركة بكثير واصبح رسول الله زعيم المسلمين سيد المدينة بلا منازع يده عليها وصاحب الرأي فيها .

ولما كانت ظروف المعركة غير طبيعية وعنصر المكافاة بين الطرفين فيها منعدما فالقوة العددية ونوع العتاد كان في صالح قريش بنسبة كبيرة ومع ذلك

فكان النصر بجانب المسلمين وحليفهم فعقب عودة الرسول الى المدينة تردد الحديث وكان الناس في امر وحوار حول نصر المسلمين وعون الله لهم فاغتنمها الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة قبل ان يكون رد الفعل عند اليهود قد تكون على ما طرأ على المسلمين من قوة وتأكيد سيادته على الارض التي هاجر اليها وعرض نفسه عليهم ووجه اليهم دعوة الله مجتمعا بهم في سوقهم في المدينة وقال لهم يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة واسلموا فانكم قد عرفتم اني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله اليكم .

فأجابوا وافصحوا عن نياتهم وموقفهم من المسلمين ومن نبيهم .

« ... يا محمد انك ترى اننا كقومك لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة أنا والله لئن حاربتنا لتعلمن انا نحن الناس » .

وواضح تماما عند هذا الموقف بهذا الحوار المهذب من جانب رسول الله وبهذا الصلف المتعجرف من جانب اليهود ان العلاقة بين الطرفين تتحول الى حال من السوء والصراع والتناقض فالنبي عليه السلام املا في هداية القوم دعاهم الى الله ووجه اليهم الدعوة مخوفا اياهم من نقمة الله فلم يستجيبوا ولم يلقوا بالا اليه الا انه من المعقول ان يقال ان الرسول عليه السلام هددهم دون ان يفصح عن هذا المعنى صراحة بأنه سيتبع معهم اسلوب مواجهته لقريش .

واليهود كانوا في الرد يعبرون عما تنطوي عليه نفوسهم وقلوبهم من غل وحقد وحسد للمسلمين ويفصحون عن احساسهم بالخطر مما يمكن أن يطرأ على حال المسلمين من اطراد القوة والمنعة والسيادة بعد ان نجحوا في اولى المعارك ولذا كان موقفهم من المسلمين كله يقوم على العداء والحذر والتربص .

مقدمات الحرب بين اليهود والمسلمين :

قلنا انه بعد انتقال الزعامة السياسية في المدينة للمسلمين في شخص

نبيهم انهم اصبحوا يمثلون خطر النظام الجديد على كل أوضاع وتناقضات الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة والتي كانت تعبر عن السيادة المستغلة لجماعات اليهود في كل منطقة شمال الحجاز تقريبا ولذا فان الجماعات اليهودية بدات تتعرض للمسلمين وتستعد لهم قبل ان تستقر أوضاعهم وتتماسك دعائمهم ويتفرغون لمقاومة اليهود ولقد مرت العلاقة العربية المسلمة بالجماعات اليهودية بالمراحل التي اشرنا اليها الى ان تفاقمت واصبح الصراع اشبه ما يكون بالعمل المكشوف والتعرض الصريح وكانت هذه المرحلة عقب الموقف واللقاء المتوتر الذي تم بين النبي عليه السلام وبين اليهود في سوق بني قينقاع حين دعا اليهود الى الاسلام والدخول في دين الله فأبوا واغلظوا الرد لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا اياهم : « ... يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نُزل بقريش من النقمة واسلموا فانكم قد عرفتم اني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله اليكم .

فكانت اجابة هذه الدعوة الرقيقة الطيبة المسالمة موقفا يفصح عن صلف وغباء وتحد واستعداد للمجابهة والمواجهة والعراك .

« يا محمد انك ترى انّا كقومك لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة انا والله لو حاربتنا لتعلمن انّا نحن الناس ».

وكان مما ساعد بعد ذلك على تصاعد المرحلة التالية للعداء المبيت من جانب الجماعات اليهودية هو الحادث الذي وقع لفتاة عربية مسلمه هذا الحادث الذي صور نموذجا للخلق اليهودي وانعدام جوانب المروءة او النخوة او العفة في الجماعات اليهودية في جميع أساليب تعاملها منذ الزمن البعيد الذي كان عليه الآباء الاول وخلاصة هذا الحادث ان فتاة عربية مسلمة ذهبت الى سوق بني قينقاع بحلي خاصة بها كي تبيعها عند صائغ يهودي .

ولما كانت الفتاة كشأن كل فتاة عربية مسلمة متحفظة متابية تخفي معظم مظاهر الجمال ومواضع الاثارة من جسمها فتعرض لها مجموعة من اليهود الذين كانوا عند الصائغ واصروا على ان تكشف لهم عن وجهها وضايقوا عليها الطريق وعاونهم في ذلك الصائغ اليهودي اللئيم الذي ادرك

اصرار الفتاة وعدم تنازلها عن ان تكشف لليهود وجهها فاختلس لحظةوعقد طرف ثوبها الى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها فضحك الجميع وسخروا من الفتاة العربية وضاق بالموقف وتألم له شاب مسلم فدخل في عراك مع الصائغ اليهودي تمكن فيه الشاب من قتل اليهودي ثأرا لكرامه اخته المسلمة وعلى الاثر انتصر اليهود لصاحبهم فقاموا على المسلم وقتلوه ، فغضب المسلمون وحملوا على يهود بني قينقاع حملة ثأر وضيق، فثارت ثائرة الجميع واحتمى اليهود الى حصونهم ، في منطقة بني قينقاع فواصل المسلمون الحصار حتى قطعوا عنهم كل صلة لهم بالخارج .

وبهذا الموقف الذي عمل على تفاقم العلاقة بين المسلمين واليهود وتصعيد حالات العداء التي كان يعمل المسلمون على تجنبها ، فقد كان اليهود يدركون ان الوقت في صالحهم فاذا لم يكسروا شوكة المسلمين من الآن وخاصة بعد بدر فان خطر المسلمين سيتضاعف ، ومع أن المسلمين كانوا يعيشون انتصار بدر وصداه العظيم في كل أرض الحجاز ، فانهم كانوا يدركون ان خطر قريش لا يزال قائما ، وانه ربما تكون الجولةالقادمة من جانب قريش طلبا للثأر من المسلمين، ثم ان بداية المضايقات وتصاعدها وبلوغها حالات الصدام في الوطن الجديد ، كانت تتمثل في قطاع هائل من اليهود وهم (بنو قينقاع) الذين توجه اليهم رسول الله بنفسه في سوقهم فرفضوا دعوته ثم هددوه ان قامت الحرب بينه وبينهم ، ثم ساروا على طريق الهزء بالمسلمين والاستخفاف بهم وبحرماتهم ولعل موقف الصائغ اليهودي والجماعات التي كانت بمتجره كانت تعبر عن تيار عام وسلوك متعمد خطط له اليهود من بني قينقاع لاحراج المسلمين والهزء بهم فلم يبال المسلمون امام كل الظروف المحيطة بهم ، وقاموا بمحاصرة يهود (بني قينقاع) في بطولة فدائية عظيمة ، فقد كان عدد اليهود من بني قينقاع وعدتهم أكثر وأقوى مما لدى المسلمين بكثير ، فهم عند بعض المؤرخين :

٧٠٠ مقاتل

٣٠٠ دارع

٤٠٠ حاسر

وكان هذا العدد يتحرك على ارض تمكنه من القتال ومن المناورة ، ذلك انهم كانوا قد اتخذوا لهم حصونا ومخابىء ، بالاضافة الى كميات من التموين واحتياجات القتال ، ومع ذلك فان اولئك الذين هددوا وتوعدوا الرسول عليه السلام في سوقهم « ... لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس » قد ظلوا في حصونهم ومخابئهم حتى قطع المسلمون عنهم كل صلة لهم بالخارج واضطر اليهود ان يستسلموا دون قيد أو شرط وعندما أعلن اليهود استسلامهم ، فوضوا امرهم للنبي عليه السلام ان يفعل بهم ما يشاء ، وقبل ان يتخذ الرسول عليه السلام قراره في القوم تقدم اليه « عبد الله بن ابي » وقال « يا محمد احسن في موالي » ، وكان يهود « قينقاع » موالي وانصار « عبد الله بن ابي » وقال « والله لا ادعك حتى تحسن في موالي ٤٠٠ حاسر ، و ٣٠٠ دارع منوئي من الاسود والاحمر ، تحصدهم في غداة واحدة والله لا آمن واخشى الدوائر » ... فأثر هذا الكلام في نفس الرسول وقال له ، هم لك واكتفى باجلائهم ، وأوكل على الاشراف في عملية اجلائهم « عبادة بن الصامت » رضي الله عنه الذي اشرف على خروج « بني قينقاع » من المدينة ، الى شمالها حتى وصلوا الى منطقة « الشرارات » التي تدخل في اراضي شرقي الاردن الجنوبية ولم يقتل المسلمون من يهود بني قينقاع احدا ولم يمثلوا بصغير او كبير بل عملوا بوعد الرسول ، لعبد الله بن ابي حين سمح له بأن يخرجوا دون ان يثأر منهم المسلمون ويشفوا غليلهم .

وبهذه المقدمة المبكرة من الصدام بين المسلمين واليهود ادرك اليهود الذين ينتشرون في كل شمال الحجاز انه لا بد لهم من العمل ضد الاسلام والمسلمين ، وهذا هو ما ساروا عليه وخططوا له على المدى البعيد .

تفاقم العلاقة بين اليهود والمسلمين :

لم تكن مفاجأة للمسلمين مواقف التحلل من الارتباط الذي اخذوه على اليهود في المدينة ، ولم يكن اليهود في ظل التحلل من العهود الى اساليب اشاعة الفتنة وعمل العراقيل ضد المسلمين ، وخاصة منذ المرحلة التي تلت السنة الثانية من هجرة المسلمين الى المدينة الى حين اجلائهم

« لبني قينقاع » ولذا فان المسلمين اخذوا حذرهم واستعـدوا لليهـود ؛ فقد كانوا امام المسلمين لا يقلون خطرا من قريش .

وبعد ازدياد الوجود الاسلامي وتعاظم قوته منذ الهجرة ، اثر بطولة العمل الفدائي العظيم ، في معركة « بدر » ثم الاقدام على اجلاء بني قينقاع، فان تحالفا كبيرا من الاحابيش في جيش مكة ومن المتطوعين من ابناء مكة وقبائل من بني كنانة احلاف قريش ، وقبائل نهامة المرتبطة بتحالف هي الاخرى مع قريش قد قاموا للثأر من محمد في معركـة « احد » وكانـت فرصة عظيمة اغتنمها اليهود ، ذلـك ان الرسول حين استجـاب لـراي الاكثرية من المسلمين وقرروا الخروج من المدينة لملاقاة جيش مكـة عنـد جبل احد الذي يبعد عن المدينة الى حوالي خمسة كيلومترات من ناحيـة الشمال . قال اليهود الذين بينهم معظم طوائفهم اتفاقية بين المسلمين على العون والنصرة . ان المعركة يوم سبت ونحن لا نقاتل يوم السبت والمعركة خارج المدينة ، والاتفاق على القتال داخلها . ووقف « عبد الله بن ابي » يقول لليهود : « ارجعوا ايها الناس ما ندري علام نقتل انفسنا هنـا فقد أطاعهم وعصاني ويقصد ابن ابي بهذه الكلمة « آلرسول عليه السلام » حين استجاب للراي الذي قرر الخروج من المدينة ومواجهة جيش مكة خـارج المدينة ، بينما هو صلى الله عليه وسلم قد رأى في اول الامر ان يقاتل جيش مكة من داخل المدينة » . وبعد انكسار المسلمين فيمعركة احد ، فانه لم يكن امام اليهود ميدان يلعبون فيه ويشفون مر كيدهم وغيظهم من المسلمين سوى استغلال هزيمة المسلمين ولذا فانهم بدأوا يستغلون فرصة آلام المسلمـين من عدم توفيقهم في معركة احد ، ودخلوا في معركة العمل بالمؤامرة والوشاية والخديعة ضد المسلمين وارادوا فيها قتل النبي والتخلص منه أولا باعتباره الرمز الحقيقي للخطر الذي ينمو ويتصاعد ، وباعتباره القوة التي تستطيع جمع المسلمين وتعبئة مشاعرهم ، والارتفاع بهم الى مستوى اكبـر مـن الظروف السيئة التي حاقت بهم بعد عدم التوفيق في احد .

الحـرب بـين اليهـود والمسلمـين :

كانت الصورة في الموقف الذي طرا على المسلمين ، انه وراء الفشـل

في احد ، جملة اسباب ولا بد من التخلص منها وخاصة بعد ان تتابعت مصائب كثيرة كان منها مثلا :

١ ــ مقتل عاصم بن ثابت ومن معه من المسلمين .

٢ ــ مقتل المنذر بن عمرو ومن معه من المسلمين .

والذي حدث في هذين الموقفين اللذين هزا كيان المجتمع الاسلامي الصغير ان بعض « بني لحيان من بني هذيل » ــ وكانت تقيم في منطقة من الحجاز بين مكة والطائف وكان موقعها الى مكة اقرب ــ .

« بعض بني الهون ابن خزيمة بن مدركة ، فجعلوا لهم ابلا على ان يطلبوا رسول الله عليه السلام ، فيخرج اليهم نفرا من اصحابه فجاء سبعة من هؤلاء الى المدينة ، فأظهروا الاسلام واقترحوا عليه أن يرسل معهم نفرا من اصحابه ، يفقهونهم في الدين ، ويقرئونهم القرآن ، ويعلمون شرائع الاسلام فبعث معهم ستة من الصحابة . هم : عاصم بن ثابت الانصاري ، ومرثد بن ابي مرثد الغنوي وحبيب بن عدي الاوسي البدري ، وزيد بن الدثنة ، وعبدالله بن طارق ، وخالد بن البكير ، فغادروا المدينة في شهر صفر من السنة الرابعة قاصدين الى هذيل لتعليمهم .

واخذ القوم السرية فجأة حينما بلغت « ماء الرجيع » قرب ديار هذيل ، واحاطوا برجالها ، فهرعوا الى سلاحهم للدفاع عن انفسهم ، فقالوا لهم ، لا نريد قتالكم ، فلم يطمئنوا اليهم . وقالوا ، والله لا نقبل من مشرك عهدا وقاتل خالد وعاصم ومرثد ، حتى قتلوا ، واستسلم الثلاثة الآخرون فقيدوهم وقصدوا بهم مكة لبيعهم من أهلها ، وقبل ان يبلغوها تخلص عبدالله بن طارق منهم ، وانتضى سيفه لقتالهم ، فرموه بالحجارة فقتلوه فلم يبق معهم سوى حبيب وزيد فباعوهما من أهل مكة ، فقتلوهما وحزن المسلمون كثيرا على المصير السيء الذي حل باخوانهم ، ويشاء الله ان يواصل المسلمون نضالهم ، ويتعرضون لكثير من المصائب كالتي حدثت لهم بعد مقتل عاصم بن ثابت ومن معه من المسلمين ، فلم يكد يتخلصون من آلام هذا الحادث ، وهم لما يزالوا في جراحهم منذ عدم النجاح في أحد ، واذا بحادث يعرف في التاريخ الاسلامي بحادث « بعث بئر معونة » وخلاصته : انه قد وفد على المدينة من السنة الرابعة للهجرة في

شهر صفر ، « ابو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري » ويعـرف بملاعب الاسنة ، فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام ، فوقف موقفا ، لم يفصح فيه عما في دخيلة نفسه ، اذ لم يقبـل ولم يرفض ، وقال : يـا محمد اني أرى أن أمرك هذا ، حسنا وشريفا ، وقومي خلفي فلو انك بعثت معي نفرا من اصحابك لرجوت ان يتبعوا أمرك .

ويرد عليه الرسول عليه السلام : اخشى عليهم أهل نجد .

ويقول الرجل الافعوان : انا جار .

وأملا في ان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا جديـدة ، للدعوة وللرجال وثق النبي بهذا الرجل « ابو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري » والذي كان يعرف ، بملاعب الاسنة ، فانتدب سبعين من قـراء القرآن وكانوا يحفظونه ، ويرتلونـه في المسجـد . وكان شيـخ القـراء « المنذر بن عمرو » معهم فسار مع جموع القراء الى نجد للتبشير بالديـن والدعوة اليـه .

وسار البعث الاسلامي ، الى شرقي المدينة حيث « نجد » ولما وصـل القوم الى منطقة « بئر معونة » في الارض التي تقع بـين ارض بني عامـر و « حرة بني سليم » أرسل المنذر بن عمرو رئيس البعث كتابا الى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي العامري ، وهو ابن اخ لابي البراء عامر ابن مالك بن جعفر العامري ، الذي يعرف بملاعب الاسنة ، وحمل كتـاب المنذر بن عمرو « حرام بن ملحان » ، وكانت المفاجأة ان يقوم عامر بن مالك بقتل الرسول الذي يحمل الكتاب دون أن ينظر ما جاء فيه ، واراد علـى الفور ان يعبىء قومه من بني عامر لكي يقوم معه بقتل البعث المتجه اليهم من قبل المسلمين ، وكان موقفهم منه الرفض بعد ان قالوا له : لن نخفـر لابي براء عهدا ، الا ان الرجل لجأ الى بعض القبائل المجـاورة من سليـم وذكوان ورعل ، بعد رفض قومه له . واستطاع أن يستنفر هذه القبائـل لقتال المسلمين، فاستجابت، وبعد غيبة رسول المنذر بن عمرو رئيس البعث فاخذ البعث واتجه الى بني عامر ، وفي الطريق لقيهم ، عامر بن الطفيل بمن معه من القبائل وفوجىء المسلمون بالمؤامرة وبالحرب وبالانقضاض عليهم . وبأنهم في معركـة داميـة تقتضي المـوقف الفـدائي البطـل . وكـانت

معركة رهيبة لم تسعف الشجاعة التي قاوم بها المسلمون القبائل الموقف غير المتكافىء بين الطرفين فقد تكاثرت القبائل المتآمرة في قيادة عامر بن الطفيل فقتلوا المسلمين جميعا ، ولم ينج من المسلمين سوى واحد هو عمرو ابن امية الضمري فقد أطلق سراحه « عامر بن الطفيل » فداء عن والدته بعدما حز ناصيته .

وكان وقع هذه المصائب الثلاث على المسلمين عنيفا للغاية .

عدم التوفيق في معركة احد ، وهي بداية مراحل الصمود والالم، التي استغلها اليهود .

مقتل عاصم بن ثابت ومن معه .

ومقتل المنذر بن عمرو ومن معه .

وكان لا بد للمسلمين أن يشحذوا هممهم ، ويعبئوا مشاعرهم ، في محاولة لتأكيد الارض التي كانوا يقفون عليها منذ النصر المبكر الذي احرزوه من ايام هجرتهم حتى معركة بدر ، الى ان هاجموا يهود « بني قينقاع » .

وما ان بدأ المسلمون يعدون انفسهم للقوى المضادة من اهل مكة ويحذرون من مجموعات المنافقين ، والمتلصصين من اهل المدينة حتى فوجئوا ، بمحاولة ضربة غدر قاتلة ، لو نجحت لما قامت للمسلمين ، قائمة بعدها ، وكانت هذه الضربة هي حالة الخيانة التي تربص فيها يهود « بني النضير » الذين يقطنون المدينة الى الشمال ، بخمسة كيلو مترات وارادوا قتل النبي والتخلص منه ومن المسلمين في شخصه نهائيا ، حتى يفرغ لهم ميدان الحجاز بشماله حيث هم وحيث كانوا يسيطرون ويوسعون سلطانهم ويعملون على استبقائهم وحيث كانوا يسيطرون ويوسعون اوضاعهم وامتيازاتهم والى الجنوب أيضا ، حيث يطمعون ويعدون ، ويخططون له على المدى الطويل كي يكون الحجاز بشماله ، وجنوبه تحت سيطرة النفوذ اليهودي . وأسلوب التعامل القائم على السخرة والاستغلال في خدمة الخلق اليهودي . وزيف العنصرية الجنسية القديمة المدعاة والتي هي اليوم من بين اسلحة القوى التي تسيطر على الارض العربية ، وتتحكم فيها وان كان للصراع اليوم جوانب اخرى ولكن هيهات ان تصمد في وجه قوى الارادة العربية التي تجتاز كل ظروف التخلف التي فرضت عليها .

« جوهر الصراع بين المسلمين واليهود » :

من الاسباب الرئيسية في تفاقم العلاقة بين المسلمين واليهود وانتقالها الى مرحلة من عنف الحرب والعداء ما حدث للنبي عليه السلام من يهود « بني النضير » عقب الحوادث التي توالت على المسلمين ولم يكونوا بمنأى عن توجيه هذه الحوادث والتأثير فيها .

والذي حدث هو ان النبي عليه السلام قصد بني النضير في مواقعهم في شهر ربيع الاول من السنة الرابعة للهجرة ، ومعه مجموعة قليلة من المسلمين ، وكان الرسول يقصد من زيارته ليهود بني النضير في أماكنهم ان يشتركوا مع جيرانهم من المسلمين في دفع دية الرجلين من بني عامر ، اللذين قتلهما عمرو بن امية الضمري ، وهو الذي نجا من القتل فقد التقى بهما في منطقة القرقرة على الطريق وهو عائد الى المدينة فقتلهما ثأرا لنفسه ولاصحابه .

ولما ابلغ النبي ذلك دفع ديتهما لانهما كانا عنده وقد اخذ منهما عهدا لم يطلع عليه عمرو ، ولما كانت التقاليد العربية التي توشك ان تكون قانونا ملزما فيما يتعلق بالدية والالتزام بها وهو ان تشترك قبيلة القاتل وأحلافها ، اذا كان لها أحلاف ، في الدفع والغرامة ، كل بنسبته وقدرته وتوزع أيضا على قبيلة المقتول واحلافها اذا كان لها احلاف بنسب مقدرة ولما كان بنو النضير ، مرتبطين مع المسلمين بالتحالف والاتفاق الذي أشرنا اليه ، فقد توجه اليهم النبي بنفسه يطلب منهم ان يتعهدوا بالتزامهم ويشتركوا مع المسلمين في دفع دية القتيلين لانهما كانا مواليين لهم ، فلا يجوز أن تذهب دماؤهما هدرا .

ورغم سوء العلاقة بين العرب المسلمين واليهود والتي مرت بأطوارها المختلفة من بدء الهجرة حين توجه المسلمون الى المدينة الى حين مطاردة النبي لمجموعة كبيرة من يهود « بني قينقاع » فان ابسط اساليب التعامل المرتبط بالعرف والتقاليد وخاصة عند الخلق العربي القويم الذي لم تطمسه ، ولم تمسخه نعرة التعصب والارتباط الذاتي والانانية في التعلق بالمصلحة وكل اوضاع الامتياز جعل اليهود حين يصل الرسول الى « بني النضير » ومعه المجموعة القليلة من الرجال المسلمين ، يعدون مؤامرة

بالخديعة والوشاية حتى يأخذوا بالموقف قبل أن يتصاعد وجود المسلمين ويجتازوا محنتهم .

ومن عجب ان خيوط المؤامرة قد تم الاعداد لها هذه المرة ضد شخص الرسول نفسه عليه السلام .

والذي حدث ان الرسول عليه السلام حين وصل الى مواقع تجمع يهود بني النضير ، ان رحب به الجميع واستقبلوه ووافقوا تماما على ما عرضه عليهم ، من الدفع في الدية ، والاشتراك في غرمها . وقالوا له « لا نفعل يا ابا القاسم الا ما احببت ». وكانوا قد اعدوا جنايتهم حين علا الرجل اليهودي الذي يحدد اسمه ابن هشام « في سيرته » بأنه «عمرو بن جحاش» سطح الجدار الذي كان يجلس الى جانبه النبي واراد ان يلقي بصخرة كبيرة فوق راس النبي كي تسحقه وينتهوا منه ومن تاثيره في خلق قوة جديدة ، قد اصبحت تشكل خطرا عليهم ، وهذه الجناية الاثمة تضاف الى الجريمة التي قامت بها زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم حين وضعت السم في الشاة التي ياكل منها النبي .

وامام هذا التآمر وخطورة كل هذا الجرم ، فلعله من المعقول جدا ان المعجزة الالهية قد لعبت دورها في توجيه النبي وحمايته ولعلها ايضا الفراسة العربية وعمق شفافية النبي وسرعة بديهته وادراكه قد عملت كل هذه المعاني في أن يفطن النبي الى ان طبيعة الجو المحيط به غير طبيعي ، فقد تكون هناك خدعة مفاجئة فيتظاهر (عليه السلام) بقضائه حاجاته في وقعة « عمرو ابن جحاش » ، وتواجه بأقصى ما تكون السرعة والدقة ، ليفاجئهم في اليوم التالي برسوله « محمد بن مسلمة » على راس قوة من المسلمين تحمل انذارا من النبي ، بضرورة الاجلاء . جلاء « بني النضير » عن مواقعهم في ظرف عشرة ايام والا فانهم امام محاولتهم بالغدر قتله، والتخلص منه ، فهذه المؤامرة فان كل من يتواجد في مواقعه منهم . يضرب عنقه ، ويراق دمه . وكان من تاثير هذه الجدية في المجابهة من جانب المسلمين فى شخص نبيهم أن اليهود من بني النضير ضعفوا وتخاذلوا وغلب عليهم اتجاه التسليم بالجلاء في المهلة التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ان القوة المضادة للنبي وما يمثله من دعوة الحق والعدل كانت من قطاعات كثيرة يهودية من غير يهود بني النضير وكانت قد تمكنت من عقد تحالفات فيما

بينها ، وبين بعض القبائل العربية المناوئة او الرافضة ، فاستغل الجميع الموقف الذي بادر به النبي لوضع حد للتآمر ضده وأرادوا أن يجعلوها حربا كبيرة ، ولعلهم فيها ينالون من المسلمين ومن قوتهم وهيبتهم أو يتمكنون من النبي بأذى او بقتل ، وبالدسائس التي دست استطاع حيى بن اخطب قائد يهود بني النضير أن يجابه الانذار الاسلامي بعد التقاعس الذي دب فيهم اول الامر قائلين لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ، وفي تسجيل هذه المرحلة يربط المؤرخون الاسلاميون بين هذا الموقف المفاجىء الذي طرا على حال اليهود حين انذار النبي لهم والذي عبر عنه « حيى بن اخطب » في مواجهته للنبي بقوله اننا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك وبين موقف التآمر الذي اخذه ابن ابي من المسلمين حين ارسل سرا الى بني النضير يشجعهم على رفض الانذار ويغريهم بالمقاومة ويقول لهم : « لا تخرجوا من دياركم واقيموا في حصونكم فان معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم فيموتون عن آخرهم وتمدون قريظة وحلفاءكم من غطفان ورغم كل هذا الذي عبأ به اليهود انفسهم من تآمر وتحالف فان النبي قد وجه المسلمين الى ان يقوموا الى اليهود في مواقعهم ويهاجموهم في حصونهم ومع صبر المسلمين وجلدهم وقوة ايمانهم واصلوا حصارهم ليهود بني النضير خمسة عشر يوما لم يجرؤ خلالها اليهود في ان يحاولوا فك الحصار عن حصونهم ومواقعهم ، بل ان المسلمين اثناء حصارهم ليهود بني النضير اضطروا اليهود الى ان يرفعوا أصواتهم بالاستسلام قائلين لا تفعلوا فقد قبلنا شروطكم ونحن مستعدون للخروج وامام هذا الاستسلام المخجل فان المسلمين اعملوا في الموقف هذا تعاليم دينهم وخلقهم وكل ما الفوه من قواعد العفو والصفح وانهوا الموقف بينهم وبين يهود بني النضير بالشروط الاتية :

اولا ــ تنفيذ انذار النبي لبني النضير بالجلاء عن الارض التي منها يمثلون موقف المناداة ضد المسلمين .

ثانيا ــ تعهد المسلمون بأن تصان دماء اليهود وارواحهم اثناء عملية الجلاء عن الارض .

ثالثا ــ اباح المسلمون لانفسهم أن يأخذوا من اليهود متاعهم .

رابعا ــ اشترط المسلمون على اليهود ان يسلموا سلاحهم للمسلمين ولا يخرجوا به .

وبهذه المرحلة من انفجار الصراع بين العرب المسلمين في بـدء عصر الدعوة الاسلامية وبين اليهود فان الظروف التي أدت الى انذار المسلمين ليهود بني النضير وما تم بعد موقف المسلمين من اليهود قد اكد طبيعـة التناقض التاريخية بين الاخلاق الاسلامية والطبيعة العدوائية عند اليهود والتي تعبر عن اختلاف في الطبع والتكوين والعقيدة ومنهج الحياة وكل امور السلوك العام بين كل من الخلق اليهـودي القائم على اساليب الاستغـلال والسيطرةوالمرتبط دائما وابداً بالسلوكالمرتشيالمتآمر والمنحرفوالأنتهازي بدعوة العلم والنبوغ ونقاء الجنس ومبررات وتعاليم الدين والخلق العربـي السمح والعف الكريم الذي يحفظ حق الجوار وحرمة العهد والوعد وخاصة بعد ان امتزجت قيم المروءة والنخوة العربية بقيم واداب وتعاليم الاسلام .

ونستطيع القول انه في الصراع العربي اليهودي القديم جملة اسسفي التناقض المستقر عند الطرفين تمثل عدة اتجاهات متنافرة في طبيعةمكونات التراث عند الطرفين فقضية الرفض العربي واليهودي عند كل من الطرفين للاخر وان اختلف هذا الرفض في طبيعته عند كل من العرب واليهود باعتباره عند العربي الموقف الذي يعبر عن الايمان بقضية الحب والخير والعدل وعند اليهودي يعبر عن الطبع الذي يمتلىء بمشاعر العداء للناس ونزعة الشر في السلوك والتعامل والجوار والاستغلال في علاقة اليهودي بغيره من البشر كان اساسها السلوك اليهودي .

اقول فان تتابع المواجهة من جانب اليهود ضد العرب المسلمين بالتآمر والوشاية ضد الشخصية العربية المسلمة التي بدأت تنمو وتقف على قدميها وسط جو السخرة والسيطرة والاستغلال الذي كانت الجماعات اليهودية تسوده في ارض العرب حتى المراحل التي حدثت فيها مضاعفات المجابهـة الصريحة بين العرب واليهود في قينقاع والنضير كان لا بـد فيه للشخصية العربية التي تنمو على هدى دين الاسلام أن تعمل على التخلص نهائيا مـن خطر الوجود اليهودي في الارض العربية على ان لا تسمح للوجود اليهودي القوى التي اصبحت على هدى من تعاليم دينها تمثل قوة الحق والخيـر والعدل والسلام بأن ينمو او يتزايد وان يتمكنمنالتعبير عن مطامعهونزعات التعصب والاستغلال المرتبط بها والملتصقة بالطبع والذات اليهودية دينـا وتاريخا وقد كان للعرب المسلمين ما اوجبته عليهم ظروف نضالهم مـع جماعات اليهود من استعداد للبذل والفداء والتضحية حتى لا تلتهمهمالقوى

الافعوائية ويضيعون تحت اساليب السمسرة والوشاية والدس بالخداع والنفاق والاخلاق التي يجعل منها الانسان اليهودي دائما أبدا اداة له في خدمة واستبقاء اوضاع الاستغلال الفئوي والتفاوت الطبقي .

المسلمون يتحررون من اليهود

اوجبت الضرورات المصيرية التي واجهت المسلمين بعد ان اتضح لهم خطر الجماعات اليهودية على مسرح الدعوة الجديدة وتربصهم وتآمرهم في أن يتخلصوا من شخص النبي بكل ثمن أن يعملوا على استئصال الوجـود اليهودي من على مسرح ارض الدعوة وهذا هو ما قام به المسلمون حقيقـة تقديرا منهم لطبيعة العدو الذي يتربص بهم وقد كان ذلك عندما ازدادت نقمة اليهود على الاسلام والمسلمين بعد رد الفعل الذي تم من قبل المسلمين ضد ما قام به اليهود من خيانة ودسيسة وتآمر في حوادث كثيرة مثل تلك التي قام بها يهود بني النضير ويهود بني قينقاع ويهود بني قريظة ممن لم نأت بذكرهم اكتفاء بتقديم نماذج للعمل اليهودي مما ذكرناه عن يهود بنـي النضير ويهود بني قينقاع بتفصيل .

وكان الموقف امام المسلمين يتمثل في ضرورة اجتياز الخط الاتي :

حصون خيبر والقوى المضادة فيه

منذ هجرة المسلمين من ديارهم الى المدينة في شمال الحجاز حيـث يوجد النفوذ اليهودي وسيطرته أي من السنة الاولى للهجرة حتى السنـة السادسة وقبيل ان يتجه المسلمون الى قريش في جنوب الحجاز ليقيموا شعائر العمرة واليهود جميعهم الذين قاوموا واطلوا بوجوههم صراحـة ثم اخذهم المسلمون وضاع الموقف من ايديهم والذين عمل الجبن فيهم عملـه فلجأوا الى الاشاعة والبلبلة واثارة الاقاويل ضد الاسلام والمسلمين وهـم يتجهون الى منطقة الحصون اليهودية فى ارض خيبر من شمال المدينـة الشرقي وما ان تناهى الى علمهم ان المسلمين بقيادة نبيهم يتجهون في شهر ذي القعدة من السنة السادسة الهجرة الى مكة كي يفتحوها ويوسعوا نطاق دعوتهم وتمددهم الجديد الا وهم يعدون انفسهم لكل ما يسعفهم به الزمـن

كي يواجهوا به خطر المسلمين عليهم فلما تبين لهم ان الرسول لم يكن يقصد فتح مكة ولا قتال أهلها بل انه قبل صلحا بينه وبين قريش وهو الصلح الشهير المعروف بصلح الحديبية واثاروا اشاعة وهي : ان المسلمين لم يقدروا ان يفتحوا مكة لضعفهم وقلتهم وما ان عاد المسلمون الى المدينة الا وقد ادركوا ما صنع اليهود في خيبر من اعداد واستجماع هممهم وطوائفهم وقبائلهم كي يستغلوا كثرة عدد رجالهم وكثرة سلاحهم ووفرة المئونة ومناعة الحصون التي ينزلون فيها لحرب المسلمين وامام كل هذه المؤامرات والمضايقات والتحفز للانقضاض من جانب اليهود في خيبر فان المسلمين بقيادة نبيهم في شهر المحرم من نفس السنة السادسة وعقب عودتهم من مكة بعد صلح الحديبية الذي اعتبر نجاحا سياسيا للمسلمين لانهم به اطمأنوا الى حماية ظهورهم من مناوشات قريش في جنوب الحجاز قرروا ان يخرجوا بقيادة النبي نفسه على رأس قوة اسلامية كانت اكبر ما امكن للمسلمين ان يبعثوا به من قوة الرجال حتى ذلك التاريخ فقد بلغ عدد الجيش الاسلامي الذي توجه لخيبر في روايات بعض المؤرخين الاسلاميين ١٦٠٠ مقاتل يتحرك بينهم حوالى ٢٠٠ فارس وانطلق المسلمون من المدينة يقصدون خيبر ويودون مواجهة الرابضين في حصونهم وبلغ الجيش الاسلامي مشارف الحصون ليلا فصدرت اوامر النبي عليه السلام الى المسلمين ان يناموا ويستريحوا ويعدوا انفسهم لصباح تختبر فيه اعمق اعماق الايمان في قلوبهم ومن العجب ان المسلمين وصلوا مشارف حصون خيبر وكانت سبعة حصون كبيرة وقوية وتسمى ناعم القموص ابي الحقيق الشق النطاة السلالم الوطيح الكتيبة وأهل خيبر لا علم لهم بما يحدث حواليهم وما يدبره لهم المسلمون من امر وحين خرج الفلاحون كعادتهم في صباح مبكر الى اعمالهم فوجئوا بالجيش الاسلامي الرابض على مشارف الارض يجتاز الحدود القائمة حول حصون خيبر فصاح الفلاحون وجأروا كي يسمع قومهم قولهم محمد والخميس اي الجيش .

ومنذ الصباح الباكر عبأ المسلمون قواهم تعبئة عسكرية في غاية البسالة والاقدام فقد قسموا انفسهم الى قسمين قسم وهو الاكبر اوكل اليه النبي مهمة مهاجمة الحصون واشعال القتال وقسم وهو الاقل جعله الرسول بمثابة مؤخرة للجيش ليحمي ظهر الجيش المقاتل والمهاجم للحصون خاصة وان الجيش الذي اوكل اليه مهمة مهاجمة الحصون كان يقاتل ووراء ظهره الطريق بين منطقة خيبر وقبائل غطفان وهي لما تزل على عدائها للاسلام

والمسلمين فخشى الرسول ان تستغل غطفان الظرف المناسب لها وهو قتال المسلمين ليهود خيبر وتنضم في حركة انقضاض على ظهر الجيش المهاجم.

ودارت المعركة في خيبر بين المسلمين واليهود قدم المسلمون فيها نماذج للبذل والتضحية كي يتخلصوا من كل آلامهم وضيقهم من مطاردات ومؤامرات اليهود ضدهم وكان القتال قويا وعنيفا امام احد الحصون التي اختبأ فيها اليهود وهو الحصن المسمى (النطاط) الا ان استبسال المسلمين ويقين ايمانهم بالنصر جعلهم يواصلون نضالهم وكفاحهم الى ان جاء الحباب ابن المنذر والمواجهة في اقصى ما تكون عليه وقال يا رسول الله ان لي بأهل النطاط معرفة وليس قوم ابعد مدى منهم ولا اعدل رمية وهم مرتفعون علينا ولا نأمن من مفاجأة يفاجئوننا بها يأتوننا من بين النخل وهنا وبأسرع ما تعمل البديهة الحاضرة في قلب وعقل الرسول العظيم يدرك عليه السلام على الفور سلامة الراي الذي ذهب اليه الحباب بن المنذر ويأمر بالتحول عن حصن النطاط ويقطع شجر النخيل المحيط بالحصن لان كثرته تحول دون الحركة الطليقة للمقاتلين ويقوم المسلمون بقطع نحو ٤٠٠ نخلة ضربة قوية مثابرة الموقف يجبر القوى المختبئة في حصونها على الخروج للقتال لتدور معركة يشترك فيها النبي عليه السلام بنفسه ويخوض مواقع ويصد هجمات ويستمر القتال بين الطرفين ويطول في معركة لم يعرف فيها احد من الطرفين الراحة في اليوم الاول والثاني والثالث والرابع والخامس فالطرف اليهودي في كثرة من عدد وعدة وعتاد وحصانة موقف والمسلمون في استبسال وايمان ويقين بالسيطرة على الموقف اليهود يخرجون للقتال في النهار ويلجأون للحصن بالليل والمسلمون رابضون متحفزون للقتال بالنهار ويلجأون لربهم بالليل .

واستمر الحال بين المسلمين واليهود في ساحة القتال في خيبر على اقوى واشد ما يكون استعدادا وتعبئة كل طرف امكانياته ضد الآخر حتى جاء في الليلة السادسة يهودي من اهل خيبر واراد ان يقابل النبي ليقول له ان اليهود يتسللون بالليل من حصن النطاط وان كل الرجال الذين يقومون بحماية الحصن يتسللون في تلك الليلة ويذهبون الى حصن الشق فيجعلون فيه ذراريهم ويتهيأون للقتال .

ولكم كان القتال قاسيا على الطرفين واصبحت طبيعة القتال بمنطق

الحرب يحتم على احد الطرفين ان يعمل جهده للتخلص من الطرف الثاني قتلا وابادة او هدما وتدميرا وتخريبا ولكنه الاسلام الذي كان يحكم سلوك المسلمين وحركتهم وينظم ويوجه نضالهم ففي وسط كل هول هذه المعركة التي كان يدرك فيها كل واحد من الطرفين انها معركة مصير وانه بنتيجتها يتحدد مستقبل الوجود الاسرائيلي او الوجود العربي الاسلامي في منطقة الحجاز شماله وجنوبه ومع ذلك فان النبي عليه السلام حين لم يقدر ان يشترك بنفسه في اليوم السادس من المعركة اوكل الى علي بن ابي طالب قيادة المعركة وحمل الراية الاسلامية وامره بقوله بعد سؤال علي اأقاتلهم حتى يصبحوا مثلنا ؟ انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام فان لم يطيعوا لك فقاتلهم فوالله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم .

اقول وسط هذا الجو الرهيب العميق والذي تنعدم فيه امام العين التي تفقأ او الذراع الذي يبتر او الدم الذي يراق بسيف يقطع كالنار كل القيم التي ترتبط بالصفح او العفو او الخير او السلام لم ينس محمد عليه السلام ان يحمل قائد المعركة في يومها السابع جوهر الدعوة الى الله وان يدعو القوم وهم — المتآمرون الناكثون المتمردون الى الاسلام — ولان يهدي بك الله رجلا واحداً خير لك من حمر النعم .

واخيرا تلعب الفدائية الاسلامية عملها في نفوس وقلوب المقاتلين المسلمين فما ان ركز على الراية الاسلامية في قلب حصن النطاط حتى خرج الحارث أخو مرحب من اكبر قادة التآمر اليهودي في خيبر واندفع يقاتل عليا فما هي الا لحظات حتى سقط الحارث قتيلا كي يلحقه اخوه مرحب هو الاخر بعد ان تلقى ضربة الموت من البطل الاسلامي الزبير بن العوام .

ومن عجب انه في هذه المعركة خيبر يخرج ياسر الاخ الثالث للحارث ومرحب حتى يلقى نفس المصير الذي آل اليه اخواه وعلى يد الزبير بن العوام هذه المرة ثم حمل المسلمون بعد ذلك على الحصون اليهودية حملة قوية كلها بأس وعزم وتصميم وبالفعل فانه في سبعة ايام تمكن المسلمون من اقتحام كل الحصون اليهودية غير اثنين منها فقبل احتلالهما صرخ اليهود بالاستسلام وطلبوا الحفاظ على انفسهم ودارت مفاوضات بين الفريقين انتهت بمجموعة من القواعد اتفق عليها وكان منها .

١ ــ ان يحقن المسلمون دماء المقاتلة من اليهود ويتركوا الذرية .
٢ ــ ضرورة الجلاء اليهودي عن خيبر بكل اراضيها .
٣ ــ اشترط المسلمون ان لا يأخذ احد من يهود خيبر اكثر من ثوب واحد .
٤ ــ تكون ذمة الله تعالى محرمة منهم ان كتموا شيئا .

وبهذه النهاية التي استبسل المسلمون بايمانهم رغم انعدام التوازن بين امكانياتهم وامكانيات اعدائهم انتهى الوجود الاجتماعي والاقتصادي لليهود في الحجاز وانتهى من على ارض مسرح الدعوة الاسلامية الخطر اليهودي رغم انه لم يكن قد استكمل بعد المجتمع الاسلامي قوته وامكانياته .

ولقد بلغت جملة الشهداء الذين سقطوا من الجيش الاسلامي ١٥ شهيدا في مقابل ٩٣ يهوديا قتلوا في معركة خيبر وحدها .

وكان من اثر الهزيمة التي لحقت بيهود خيبر وقضت على نفوذهم واطماعهم وآمالهم في السيطرة والتوسع هو ان اليهود الذين كانوا على مقربة من خيبر ولم يشتركوا معها في قتال المسلمين من سكان منطقة فدك القريبة من جوار خيبر ان ذهبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه ان يسمح لهم بالعيش في امن واستقرار على ان يدفعوا له نصف حاصلاتهم فوافقهم النبي على مبادرتهم بالاقرار على عدم التمرد والتآمر .

ومن خيبر اصبحت العوائق والقوى المضادة امام المسلمين محدودة فان الرسول عليه السلام عرج في طريقه الى المدينة من خيبر على وادي القرى وهو الاخر واحد من حصون اليهود في هذه المنطقة فحاصره وفتحه قهرا وأقام عليه عاملا اسلاميا هو عمرو بن سعيد بن العاص .

واخيرا استقر الامر بالاسلام وبالمسلمين بعد أن تخلصوا من خطر اليهود ورفضهم للاسلام ومقاومتهم له ومحاولاتهم التخلص من نبيه عليه السلام .

ومن عند هذه البداية المبكرة في المقاومة العربية للعدوان اليهودي القائم

على السيطرة والاستغلال والتوسع بأساليب التآمر والدس والخديعة والوشاية والخلق اليهودي بل والعقيدة الدينية السياسية التي تحكم سلوك اليهودي تجاه غيره من البشر تؤكد له في ميراث متداول بغضه وكراهيته للوجود العربي وللانسان العربي في كل ما يمارسه الانسان العربي من امن في ان يحيا غده ومستقبله سيد أرضه ومالك نفسه هذا ولم تبال الجماعات اليهودية ايا كان موقفها من الارض سواء على مقربة مباشرة مع العرب أو بعيدين عنهم من ان يتربصوا بالعرب المسلمين الدوائر كي تواتيهم فرصة امل في ان يوجهوا بعضا من رصيد هائل في اعماقهم تعصبا عدوانيا لانفسهم وبغضا وكراهية لكل ما هو عربي ولكم حاول القوم ان ينفذوا الى قلب المجتمع العربي عن طريق اساليب ومهارات يجيدونها كي يمكن لهم ان يغيروا من الوجود العربي ولو بعض عاداته وتقاليده وكان املهم تشكيك الامة العربية في قيمها ومثلها وميراثها وارادتها ليتيسر للجماعات اليهودية ان تصنع لها ثغرة في قلب الوجود العربي تنفذ منها اليه بالسيطرة والسيادة لتمارس في ارض العرب ومجتمعهم دعوى العنصرية والسيادة والامتياز وعلى المدى الطويل فان الجماعات اليهودية التي لفظتها دولة المسلمين القوية ظلت رابضة داخل كثير من المجتمعات حتى استغلت حركة التاريخ وتطور العصر الصناعي حين كان يقيم دولا ويسقط اخرى ويذيب قوميات وينعش غيرها لم تكن موجودة حين بدات حركة القوميات في اوروبا بعد عصر الثورة الصناعية وتصاعد حركة راس المال العالمي تعمل عملها وتؤثر وتوجه نظما اقتصادية واجتماعية لم تكن موجودة اصلا تحتاج في ارساء قواعدها واسسها الى دعاوى مثل تلك التي يجترها اليهود فيما بينهم أو يواجهون بها العالم اذا اتيح لهم العمل بالسيطرة والسيادة ان تمكنوا من ان ينفثوا هذه السموم في قلب المجتمعات وعلى المدى الطويل في ظل الدور الذي لعبه اليهود في استغلالهم تطور حركة التاريخ الصناعي الراسمالي حين كان تطور حركة التاريخ يخدم بعض دعوات التعصب والسيطرة في ان تجهر بنعرتها واوهامها فكان من امر المجتمعات اليهودية في حركة تطور المجتمعات العالمية ما يستحق ان نفرد مبحثا مستقلا لننظر مكان اليهود في مسارهم الطويل داخل المجتمعات الانسانية خاصة قبل واثناء العصور الوسطى تلك المرحلة التي كانت المقدمة التاريخية لتواجد اليهود كقوة ذات تأثير في عصر النهضة.



الباب التاسع

- الخلق اليهودي في اوربا في العصور الوسطى
- الاضطهاد الاوربي لليهود في العصور الوسطى
- اليهود في العالم المسيحي الحديث
- الفكر الاوربي يقاوم الاطماع اليهودية
- اليهود والحركة الثورية

« الخلق اليهودي في أوربا في العصور الوسطى »

الظاهرة الغريبة التي يجب ان تستحق اهتمام كل دارس وباحث في التاريخ اليهودي هي ارتباط الجماعات اليهودية التي تربط اتصالها بشكل او بآخر في دعوى ارتباط بالجنس اليهودي والدين اليهودي هذه المعاني التي لم يصبح لها اعتبار من جنس او دين او تقدير ثم تلتبس هذه الجماعات التي تندفع من احساس بدعوة التعصب والجنس أو بمشاعر العنصرية والاستعلاء والامتياز هذه النعرة وتجتر هذه الافكار العنصرية التي تحكم سلوكها وتحدد ذاتها بغيرها على ضوء من هذا السلوك العنصري البغيض تجاه غيرها من البشر .

وهذه الظاهرة التي تحملها في اعماقها الجماعات التي تخلع على نفسها الانتماء بشكل او بآخر لما يسمى بالجنس الاسرائيلي كانت تلازم الذين يحملون هذه الاوهامالتعصبية منذ قديموخاصة منذ مطاردةالعربالمسلمين لنعرة وسيطرة اليهود على الارض العربية ابان عصر الدولة الاسلامية وظلت هذه الظاهرة تلازم الجماعات اليهودية حتى تفرقوا بها وتفتتوا في كثير من بلدان العالم وهم يحملون سلوكا تقليديا يقوم في الاصل والاساس على السيطرة الاجتماعية والاقتصادية واشاعة القيم والعادات والتقاليد التي لا تتفق وطبيعة او مزاج المجتمع الذيتريد الجماعةاليهودية انتسيطر عليه وان تحتل مقدرات الحياة فيه .

وهكذا كان امر الجماعات اليهودية في المجتمعات الاوروبية التي ذهبوا اليها وخاصة ابان العصور الوسطى بعد ان ضاق الخلق العربي القويم بالوجود اليهودي وما يمثله لذا لم تستطع الجماعات اليهودية العملالهادىء او الاقامة المستمرة او حتى الحل والترحال القائم على الاختيار بل كانت تضطرهم الامارات المسيحية الاوروبية في اكثر الحالات التي كان فيها العدد

اليهودي يتكاثر قليلا بشكل او بآخر الى الجلاء القهري والهجرة القسرية المجبرة .

ومنذ حوالي ١٢٩٠ م اي منذ حوالي سبعمائة عام تقريبا حين قام الانجليز في بلادهم بمطاردة الجماعة اليهودية الانجليزية تبعتها فرنسا في ذلك وادركت باقي امارات اوروبا الوسطى وشعوبها خطر اليهود عليهم باعتبارهم فئة قليلة وجالية منبوذة تعمل في السر وتكتم امور حياتها العامة وتعزل نفسها عن خدمة الجماعات التي تعيش بينها .

واضطرت الجماعات اليهودية ان تتجه صوب الشمال الشرقي في اوروبا الى المانيا الشرقية وبولندة وغيرهما .

ولقد كان اواخر القرن الخامس عشر الميلادي المرحلة العليا للادراك الكامل عند شعوب بلدان مثل اسبانيا والبرتغال حين ادركوا خطر اليهود عليهم بالسيطرة والتسلط فكان النفي الرهيب في العقد الاخير من القرن الخامس عشر ولم يجد اليهود في جميع بلدان العالم الاوروبي في العصور الوسطى ملجأ أمن او موطن استقرار يمكنهم من خلاله ان يعملوا حسب امانيهم بالمصلحة والهوى باستثناء الجماعة اليهودية الصغيرة التي كانت بايطاليا فقد نجت من اساليب المقاومة والاضطهاد ويبدو أنها قد رضيت بأن تعيش الحياة الطبيعية دون ان تثير من القلاقل والفتن والعراقيل الشيء الكثير .

واذا ما نظرنا الى بعض الاسباب التي احاطت بالجماعات اليهودية في الاوطان المسيحية في العصور الوسطى وجعلت معظم الشعوب تقاوم الجماعات اليهودية وترفض وجودها المسيطر المستغل . فان من بين الاسباب الرئيسية في مطاردة اليهود في البلدان الاوروبية في العصور الوسطى هو احساس اصحاب الارض الكثرة من المواطنين بالخطر من اليهود المهيمن حتى ولو كان بعض هؤلاء اليهود أصلا من بين مواطني البلد الذي يقف من الجماعة اليهودية موقف رفض ومضايقة ومطاردة ذلك ان الانسان اليهودي وكما أشرنا الى بعض اساليبهم في الحياة يتقن تماما ويتعلق عاطفيا بل ودينيا دائما وابدا بأن يقوم بدور المرابي والتاجر السمسار .

ولقد كان المسيحيون في اوروبا في العصور الوسطى ينظرون الى اليهودي

على انه خطر اجتماعي واقتصادي يسري وسط المجتمع الاوروبي ينفث المعتقد اليهودي على ضوء سلوك الذين يدعون الارتباط باليهودية في كيان المجتمع الذي يحلمون به ولقد رأى المسيحيون الاوروبيون بانفسهم كيف ان اليهود معاول هدم للمجتمع المسيحي من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ولقد بلغ الخوف المسيحي ايضا في قلوب المسيحيين من سلوك اليهود نحوهم الى ان المسيحي كان يتصور عن اليهودي اشنع وابشع التصورات العدائية التي يقوم بها اليهود ضد الدين المسيحي ومعتنقيه وارتبطت المخاوف المسيحية القائمة على الحذر والخوف الديني من جراء سلوك ديني يهودي كان يضيق به المسيحي وتتعرض شعائر دينه لخطر المعتقد اليهودي في سلوك اليهودي اليومي وحركته الدينية على المعتقدات المسيحية كان ذلك في الوقت الذي ابتدات فيه الجماعات اليهودية تتداول فيما بينها كي تنظم وتعبىء روح العداء ضد العالم المسيحي على ضوء تعاليم التلمود الذي كان قد عمق عند اليهود التعلق به والارتكان اليه غير ان معظم الجماعات اليهودية حين كانت في البلدان التي يعيشون فيها وعلى ارضها تمارس اخطر عقيدتها كانت الشعوب تدرك وتنتبه للمعتقدات اليهودية التعصبية التي تسيطر على عقلية اليهود فكانوا في العزلة المفروضة عليهم داخل الاوطان التي كانت تحاصرهم في احياء بذاتها ليمكن لها مجابهتهم ورصد حركتهم غير انه لم يكن هناك من خطر يتعرض له المسيحي في اوروبا اكثر من ان يرى ببصره بيوت المسيحيين تنهار دعائمها من اثر الربا الفاحش الذي ارتبط باسم اليهودي بل اصبح عنوانا له وتجسيما لشخصه وتعبيرا عن عقيدته .

اذا ما نظرنا الى الدين المسيحي الذي كان قد تمزق وتهدم كيانه الاجتماعي كنتيجة لمغالاة المرابين اليهود في فرض نسب عالية وخيالية للفائدة على قروضهم لادركنا سر بغض المجتمعات الاوروبية المسيحية لعمليات التجمع اليهودي وهو ان وجودهم يقترن بالتهديد في كل مكان وكل مجتمع ومن عجب انه تهديد متشابه ومستمر في كل مجال وميدان فالانانية التي اشتهر بها اليهودي هي التي قضت على كل ما كان من الممكن ان يقدم اليه من دعوة لكي يكون مواطنا صالحا ذلك انه دائما وابدا في ظل دوافع الانانية واساليب النفاق والمراوغة يرفض المواطنة الصالحة المتعلقة في ظل المجتمع الذي يعيش فيه الفرد اليهودي وهو اما ان يعمل سيدا ومسيطرا واما ان يقوم مفسدا ومدمرا .

ولقد كان للسيطرة الاقتصادية ومحاولات مسخ الحياة الاجتماعية الاوروبية التي كان يعمل لها اليهود بكل الاساليب الملتوية والمدمرة والتي تهدم حياة الاوروبيين هدما ليكونوا تحت وهم نعرة الجنس ودعوى التعصب الدينية التي يجترها اليهود أوهاما واحلاما عبر التاريخ اثرا سيئا للغاية في حياة المجتمع الاوروبي ابان العصور الوسطى اذ قابل المسيحيون هذا الاسلوب المستغل وهذا الوجود المسيطر العنصري بالسخط والحنق على اليهود وازدرائهم ومقاومتهم كما عمل التعصب اليهودي الذي كانوا يواجهون به المسيحيين ويمارسون سلوكهم العنصري على اساس من معتقداتهم وتعاليمهم على احياء عوامل التعصب والعداء القديمة بين الفكرة المسيحية واليهودية هذا العداء الذي ترجع جذوره التاريخية الى بيئة المسيحية الاولى وما صادفته المسيحية فيما دعت اليه وما تقرره على ايدي المؤمنين بها من غدر يهودي بل والى مطاردة وقتل لنبيها ومعلمها صلوات الله عليه على حد ما تذهب المصادر المسيحية المعتقدة وتبادل الطرفان التهم واعمال الانتقام.

ووجد المسيحيون في الكنيسة معبرا لهم واداة تخلصهم مما تنطوي عليه نفوسهم من مقت وكراهية ملأت قلوبهم نحو اليهود مما يلقونه منهم في حياتهم اليومية وقامت الكنيسة بدورها الذي خفف مما كان يلاقيه المسيحيون من ضغوط اليهود المالية والاقتصادية عليهم ، فصورت الكنيسة اليهود تصويرا تمتلىء كل ملامحه بالبغض والكره والاشمئزاز من الوجود اليهودي وسيطرته ، وظلت العداوة بكل صورها ومطاردتها قائمة بين المسيحيين واليهود طوال كل العصور الوسطى الحال الذي اقتضى من المفكر اليهودي أن يجعل نتاجه في خدمة الخروج من هذا المأزق التاريخي ففي انجلترا مثلا اختفت اسطورة اليهودي التائه منذ تم طرد اليهود من بريطانيا عام ١٢٩٠ حتى عودتهم في عهد كروموبل وبدات من هذا التاريخ الاسطورة في النمو من جديد ولكي لا تتمكن الجماعات اليهودية من ان تصل الى مكان طبيعي حتى في ميدان الفكر الانجليزي وظل الوجود اليهودي يتراوح بين سائر الاوهام الدينية وبين ظروفه السياسية .

واخيرا حاول اليهود في خبث ودهاء ان يندمجوا بالدس والخداع والوقيعة بين قوة المجتمع المسيحي في اوروبا حين كان المجتمع المسيحي يبني نفسه حضاريا في مرحلة الانتقال من سيطرة واسر الامراء الاقطاعيين الى مرحلة ازدهار حركة التجارة واستثمار الارض الخام وتصدير المنتج

الصناعي الذي كانت بشائره قد بدت في افق المجتمع الاوروبي المسيحي وكان على اليهود في هذه المرحلة التي ارادوا فيها ان يندسوا ويندمجوا داخل حركة التطور الجديد ان يمارسوا الحياة العامة بمنهج يختلف عما الفوه وأن يتخلوا عن حرصهم في آن يكونوا بالسطو والسمسرة والوشاية والربا الفاحش سادة متسلطين لا مواطنين عاديين .

وبالفعل فان الجماعات اليهودية في كثير من بلدان اوروبا المسيحية قد بدات تغير قليلا من اساليب التسلط المكشوفة والسيطرة الصارخة ، ولجات الى اساليب جديدة كانت توائم تطور القوى التي تواجهها . فحين تم ترحيلهم وطردهم من اسبانيا في اواخر القرن الخامس عشر هاجرت اعداد كبيرة منهم بعد ذلك الى بلاد البلقان وروسيا واتجه جزء كبير منهم الى بلدان شمال افريقية لكي يسيطروا على الارض الخام ، ويركبوا الشعب الوثني الذي لم يكن قد اتيحت له ظروف التحضر في ظل مراحل التبشير الاوروبي التي كانت قد بدات في ذلك الحين ، وكما اتجه جزء من اليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال الى بلاد البلقان وروسيا وشمال افريقية ، اتجهت جماعات جديدة في حركة هجرة تجارية بأسلوب ضعيف متخاذل مسالم الى بلدان مثل هولندا وانجلترا والمدن التجارية المنتشرة على ساحل الاطلنطي من هامبورج الى بايون . وكان مما ساعد على حركة الانتشار هذه ما حدث في القرن السادس عشر الميلادي ١٥٨٠ ــ ١٦٢٠ تقريبا وحين اضطربت احوال اليهود في « بولاندا » ورفض الشعب البولاندي دعوى وعنصرية السيطرة اليهودية ، بما تمثله من القدرة المالية المرابية والاقطاع المستغل ، واضطرت طوائف اليهود كلها في بولاندا الى التجمع بعد حالة رفض من الشعب البولاندي لكل الوجود اليهودي ، وكانت حالة التجمع اليهودي في بولاندا على حدود روسيا حين تم التقاء جماعات يهود بولاندا بمراكز الاسبان وكانت عملية التجمع هذه التي التقى فيها اليهود الاسبان مع اليهود البولانديين مع اليهود الروس كفيلة بأن تيسر للقوى التي تطاردهم وترفض السماح لهم بالاستغلال والسيطرة ان توجه اليهم ضربة قاتلة ومميتة غير انه حين تم التقاء جماعات يهود بولاندا بمراكز اليهود الاسبان ان بدأ الانتشار اليهودي بأسلوب الخداع المستكين في المراكز الجديدة التي ابتدات الافواج اليهودية تتجه اليها وتذوب فيها ورغم تغيير الادارة وتطوير اسلوب المواجهة اليهودية لشعوب البلدان التي تعيش فيها والتي ذهبت اليها

مهاجرة فقد بقيت نفس الاصول العقائدية التي تحكم وتوجه سلوك اليهودي تجاه غيره اي انه قد بقي نفس الاسلوب الذي ارتبطت العقيدة اليهودية به من حب للسيطرة والسخرة يحكم السلوك ويوجه الخطى سمسرة ومضاربة وربا فاحشا ثم الاعمال الملتوية لسيطرة راس المال وتناقضاته وقد كان بعد ذلك من السيطرة اليهودية على حركة ونمو التطور الاجتماعي والاقتصادي الصناعي والتجاري ما جعل اليهود كقوة استغلال طبقي قوية للغاية فضلا عن سلوكيات عقائدية لا تتفق ومزاج او روح الانسان المسيحي وخاصة في مراحل التصاعد بالتناقض اليهودي المسيحي في العصور الوسطى (١) .

الاضطهاد الاوروبي لليهود في العصور الوسطى

مهما اختلف الراي حول البواعث الحقيقية لعمليات الطرد والتعذيب التي كان يلقاها اليهود في اوروبا تضييقا واضطهادا من قبل مسيحيي اوروبا فانه حدث وخاصة في عامي ١٣٤٨ — ١٣٤٩ م ان قام المسيحيون بموجة من الاضطهاد لليهود كان فيها المسيحيون يتخذون من قتل اليهود وسيلة للتقرب الى الله الذي يكرههم ويمقتهم وكلما كان اليهود يبذلون جهودهم لمقاومة موجات الاضطهاد الاوروبي فان موقف القوى الاوروبية بمختلف اتجاهاتها كانت ترى في التخلص من اليهود تحررا من الخطر الرابض وسط التناقض الاوروبي والمخطط له من قبل اليهود لاستبقائه وتعميق اسبابه.

ولقد حدث انه في اول اغسطس ١٤٠١ أصدر الملك روبرشت Rupecht (١٤٠٠ — ١٤١٠) قرارا بطرد جميع اليهود من اقليمي الرين وبافاريا كما حرص على وجوب ارتداء اليهود ملابسهم الخاصة التي سبق أن ابتدعها عام ١٢١٠ م البابا (اينوسنس الثالث Innezenr III) ومن ثم اخذت هذه العادة في منتصف القرن الثالث عشر في الانتشار في كثير من البلاد الاوروبية .

---

(1) Einhardi, Ann, Mon. Germ, hist. S.S.I., 196, Lit. : Ar. 5. 25, f.

وظل اليهود عرضة للتقتيل والحرق والتشريد حتى جاء فريدريش الثالث (١٤٤٠ ــ ١٤٩٣) فشعر بعبء الضائقة المالية التي تعانيها البلاد بسبب القيود التي فرضتها الكنيسة واصحاب الجاه من بين المدنيين على الاهالي سواء كانوا مسيحيين او يهودا فتدخل القيصر وأعلن حمايته لليهود ومنحهم كثيرا من خطابات الامان كما خفف من الاجــــراءات الاستثنائيــة الاقتصادية التي اثقلت كاهل الشعب .

★★★

لكن حدث ان وجد طفل لم يتجاوز الثانية من عمره مقتولا في (ترينت Trient) بايطاليــا وكان ذلــك عام ١٤٤٥ فاتهم المسيحيون اليهود بقتله وانتشرت المذابح هناك ومنها انتقلت الى مدينة (ريجنزبرج Regensburg الالمانية حيث تعرض يهودها لكثير من اعمال الوحشية عام ١٤٧٦ واضطر القيصر في ١٤ يوليه من نفس العام الى التدخل منقذا اليهود الباقين علــى قيد الحياة كما امر بالافراج عن المعتقلين منهم .

وحدث ان مجلس مدينة (نورنبرج) تقدم برجاء عام ١٤٧٣ الى القيصر فريدريش الثالث بطرد جميع اليهود من مدينتهم ،فلهمل القيصر هذا الرجاء حتى جاء القيصر مكميلان الاول (١٤٩٣ ــ ١٥١٩) واصدر في يوليه ١٤٩٨ قرارا باجابة هذه الرغبةوطرد اليهود نساء ورجالا من المدينة فغادروها عام ١٤٩٩ الى فرنكفورت وبراج .

ولم يقف طرد اليهود واجلاؤهم عند هذا بل أخذت المــدن الاخرى تتسابق الى التخلص منهم وقد حدث عام ١٥٠٩ ان شخصـــا يدعــى (يــوحنــا ففــركــورن) Johann Pfefferkorn كــان فــي الاصــل جــــزارا يهوديــا ثـم تــرك اليهوديــة الــى المسيحيــة فتقــدم الــى القيصر مكسمليان الاول ورجاه السماح له بمصادرة جميع الكتب اليهودية واتلاف تلك التي جاء فيها اساءة للمسيحية وحاول يوحنا هذا كسبالعالم الانسان (رويشلــين Rouchlin) (١٤٥٥ ــ ١٥٢٢) الى صفه الا ان رويشلين رفض هذا التعاون رغبة في الابقاء على الكتب اليهودية فسبــب موقفه هذا خصومة حادة مع جماعة الدومينيكان في كولونيا وقــد كانــوا

متعاونين مع (يوحنا) فأخذوا يكيدون للعالم (رويشلين) ويقاومون الرغبة التي دعت الى تعلم اللغة العبرية واليونانية واللاتينية وتوجه (رويشلين) الى دراسة المؤلفات العبرية من الناحية اللغوية .

وقد انتصر اليهود في هذه المعركة الادبية العلمية حتى ان البابا (ليو العاشر سمح للطباع المسيحي (دئيال بومبــــرج Danial Bomberg) بطبع الطبعة الاولى للتلمود وقد ظهرت في مدينة البندقية عام ١٥٢٠ م الا أن (رويشلين) بالرغم من هذا التوفيق قد اصبح في موقف حرج جدا بسبب كيد الدومينيكانيين ودسائسهم مما اضطره الى طلب المساعدة ووساطـــة اليهـودي (بوئيتــو ده لتيس Bonetto de Lattes) الطبيــب الخـــاص للبابا بالتدخل في سبيل فض هذه الخصومة ويفضل (رويشلين) ان يمثل امام المحكمة المركزية وامام محكمة بابوية وقد منع (رويشلين) هذا الحق وحكم اسقف (شبير Speyer) عام ١٥١٤ ببـــراءة (رويشلين) ولم يقف (رويشلين) وحيداً في هذه الخصومة بل سانده المصلح البروتستنتـــي (مارتين لوثر) (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦) وبخاصة من الناحية اللاهوتية فاليهودي في رايه يجب ان يعتنق المسيحية لانه اخ للمسيح وان المسيح يهودي الا ان امل لوثر في تنصير اليهود قد تلاشى وخاصم اليهودية لموقفها من التعاليم المسيحية اللاهوتية وقد اثر موقف لوثر هذا من اليهود واليهودية حتى عصرنا الحالي اذ كان من العوامل الهامة التي امتزجت بنظرية التفرقة الجنسية النازية واصبح اليهود ابان الحكم النازي (١٩٣٣ ــ ١٩٤٥) هدفا لمختلف انـــواع التعذيب والقتل والوحشية (١) .

وحظ اليهود في البلاد البروتستانتية لم يكن احسن حـــالا منـــه في الكاثوليكية وبخاصة في القرن السادس عشر . ففي سكسونيا وقـــع اول اضطهاد بروتستنتي على اليهود وكان ذلك عام ١٥٣٦ حيث طرد امير الاقاليم (يوحنا فريدريش) اليهود من اقليميه وفي عام ١٥٣٩ سمح لهم بعبـــور سكسونيا فقط ثم الغى هذا الاذن عام ١٥٤٣ وقد استند الامير في قراراته هذه على تعاليم لوثر .

---

(1) Dass Jesus Christus ein Geborener Judesei (1523).

وما حدث في سكسونيا حدث ايضا في (هيسن Hessen) (وبراندنبورج) حيث طردهم امير الاقليمين .

وفي خريف ١٦٠٣ عقد حاخاميو فرنكفورت والمدن المجاورة اجتماعا لدراسة وضع اليهود عامة واتخاذ اللازم حياله واختاروا من بينهم افرادا يمثلونهم لدى الحكام واصدر المجتمعون قرارا حرموا فيه ان يصدر احد اليهود كتابا في (بازل) والمانيا دون موافقة لجنة مكونة من ثلاثة من الحاخاميين .

ونشبت الحرب الثلاثينية ١٦١٨-١٦٤٨ فتطورت الامور في اعقابها سريعا ففتحت بعض البلاد ابوابها لليهود ثانية وظل المجتمع اليهودي بين مد وجزر حتى جاء القرن الثامن عشر فظهر (موسى مندلسون) Moses Mendelssohn (١٧٢٩ - ١٧٨٦) فبعث هذا الفيلسوف المفكر الرغبة في التحرير عند اليهود فشرعوا في الامتزاج بسائر طبقات الشعب التي وجدوا مما دفع القيصر يوسف الثاني الى مناصرة التسامح وتقوية اواصر المساواة بين اليهود وسائر افراد الشعب ففي ٢٨ سبتمبر ١٧٩١ م حصل يهود فرنسا على جميع حقوق المواطنين ذلك بقرار اصدرته الجمعية الوطنية كذلك لم تكد تتقدم جيوش فرنسا في المانيا وتحتل غرب الرين حتى تداعت المعازل (جيتو) وذلك بسبب تطبيق الدستور الفرنسي هناك عام ١٧٩٦ .

وفي يناير ١٨٠٨ صدر القرار التالي :

نحن (هيرونيموس - جيروم - نابوليون) امرنا بناء على المادتين ١٠ و ١٥ من الدستور الصادر في ١٥ نوفمبر ١٨٠٧ بالآتي :

١ - جميع رعايانا الذين يدينون بالموسوية يتمتعون في بلادنا بكافة الحقوق والحريات مثل سائر رعايانا الآخرين .

٢ - اليهود الذين ليسوا من رعايانا ويدخلون بلادنا ويتجولون فيها لهم نفس حقوق وحريات الاجانب الآخرين .

٣ - الغاء جميع الضرائب القاصرة على اليهود .

وبعد ذلك منحت هذه الحقوق وتلك الحريات لسائر اليهود في بقية الاقاليم الالمانية .

وفي ١١ مارس ١٨١٢ صدر قانون في بروسيا يمنح اليهود الجنسية البروسية وسائر حقوق المواطنين الاصليين مع تكليفهم استخدام اسماء عائلية كما منح اليهود حق شغل مختلف للوظائف الجامعية والتربوية والوظائف العامة ، ولليهود الحق في الاقامة في المدن والريف .

وهكذا زالت الفوارق الاجتماعية تدريجيا بين اليهود وغيرهم في فرنسا وهولنده وفي بعض الولايات الالمانية ، ولو ان بروسيا حسب قانون ١٨١٢ احتفظت لنفسها تجاه اليهود الذين يرغبون في شغل الوظائف الحكومية بتقديم شهادة التجنيد بينما في اقليم فرتمبرج Wurttemberg نجد قانون ١٨٢٨ يخول لليهود الالتحاق بسائر الوظائف والتمثيل النيابي. أما في اقليم بادن فلا حق لليهودي في شغل الوظائف الحكومية ، وابباح لهم العمل في الوظائف البلدية وعرفت بافاريا بقيودها المشديدة التي اتخذتها ضد اليهود فقد حددت عدد الاسر اليهودية التي ترغب في سكن كل مدينة وحرمت على اليهودي الذي لم يقم من قبل في مدينة حق الاقامة في المدن .

ولم يكتف اليهود بهذه الحقوق التي اكتسبوها بل سلكوا طرقا اخرى اكثر فعالية في سبيل بلوغ اهدافهم الاجتماعية في هذا المجتمع الاوربي ، ففي برلين مثلا نجد الطبيب الفيلسوف مرقص هرز Marcus Herz (١٧ يناير ١٧٤٧ — ١٩ يناير ١٨٠٣) واحد المعجبين بالفيلسوف (كانت) وزوج هنريت Henriette (٥ سبتمبر ١٧٦٤ — ٢٢ اكتوبر ١٨٤٧) واسمها قبل الزواج (هنريت ليموس) وقد اقترن بها مرقص عام ١٧٧٩ واتخذت لها في برلين ناديا كان يجمع مشاهير رجال العصر من الادباء والفلاسفة والفنانين امثال (شلير ماخر) Schleirmacher و (مشليجل) Schlegel و (فلهلم فون هومبلدت) Humboldt و (شادو) .Schadow و (افيشتته) Fichte و (بورنه) Borne وغيرهم من نجوم برلين .

وغير هذا النادي نجد ناديا آخر يعرف باسم (دخشتبشن) Cachstibchen وصاحبته (رحيل فارناجن) Varnhagen (٢٦ مايو ١٧٧١ – ٧ مارس ١٨٣٣) وهي ابنة تاجر الجواهر (مرقس لفين) Marcus Leivn وقد اعتنقت المسيحية عام ١٨١٤ وتزوجت الكاتب كارل اوجست فون انزه وكان ناديها يعتبر منتدى أذكى امرأة في عصرها فكان يؤمه الامراء والعظماء امثال الامير لويس فريننند والاخوين فون هومبلدت وشليجل وتيك Tieck وبرنتانو Brentano وجوته وهينة Heine وبورن Borne وجريلبرز Grilparce وغيرهم فلعبت هذه الاندية دورا هاما في التقارب بين اليهود وقادة الفكر والنبلاء، الا آن حياة اليهود وبخاصة في المانيا كانت على فوهة بركان وذلك لان الجنس الجرماني اشتهر منذ القدم بالتطرف وقد تفجرت هذه الصفات ابان الحكم النازي (١٩٥٣ – ١٩٤٥) حيث استخدمت النازية ابشع وسائل الوحشية في سبيل افناء اليهود وغيرهم من خصومها ومع ذلك فقد كان لليهود في اوربا من العلاقات ما يستحق ان نفرد له دراسة مستقلة (١) .

اليهود في العالم المسيحي الحديث :

كان من اثر عملية الانتشار والذوبان بين مختلف الاجناس والاوطان التي اراد اليهود بها ان يتخلصوا من عمليات المواجهة والمطاردة التي كانت تقاومهم بها الشعوب كنتيجة طبيعية في مقاومة اساليب التسلط والسيطرة وتفاقم روح الانعزالية التي كان عليها اليهود داخل المجتمعات يوشكون ان يشكلوا بها مجتمعا مغلقا داخل المجتمع الذي يحملون جنسيته ويعيشون على ارضه ، وبجهود فردية اشرنا الى بعضها، استطاعت الجماعات اليهودية ان تهاجر وتنتقل من مكان لآخر وخاصة بين المدن الاوربية التجارية التي ابتدات تدب فيها وتنشأ حركة التجارة وخاصة منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى اوائل القرن التاسع عشر حين كان اليهودي في معظم المدن التجارية يعاصر نمو وتطور الحركة التجارية الراسمالية والتي كان

---

1 L. Polikov, J. Wnif, Das Dritte Reich und Cie Juden, 1955.
G. Reitlinger, Die Endlosung, 1959.

يستتبعها بالتالي نشاط عمليات ادارية ومصرفية وحركة توجيه لسيطرة رأس المال بعد ذلك .

ولما كان اليهودي الذي يكاد ان يرث ـ بالطبع ـ ما يشبه التخصص في شئون المال ـ سمسرة ومقايضة ومضاربة ـ وجد الفرصة سانحة لكي يثب الى قيادة هذه المرحلة التي بدات بنمو الحركة التجارية الراسمالية على انقاض الوجود اليهودي المسيحي الاقطاعي الذي لم يكن اليهودي فيه بقادر على ممارسة حركة واسعة منتشرة ومسيطرة رغم خدمة الكثير من اليهود للامراء الاقطاعيين ومن اثر انتشار اليهود في المدن التجارية فانهم كانوا على مقربة من ميادين التطور فلم يكد يأتي القرن التاسع عشر الا وقد كان بالفعل لليهود في ظل نفاذهم الى مجالات السيطرة على الوجود الرأسمالي أهمية لم تكن تتاح لهم حتى في مرحلة السيطرة على حركة التطور الرأسمالي الصناعي الا انهم استطاعوا في اواخر القرن التاسع عشر ان يكونوا قوة يحسب لها الف حساب ويخشى بأسها تماما خاصة وانهم عرفوا كيف يمكن استعمال المال واستغلاله وقد كان من اساليب معرفتهم لاستعمال المال واستثماره انه لكي تصنع للمال مجالاتالاستغلالوالسيطرة به فلا بد من رشوة الحكام والامراء والسلطان وقد كانوا في رشوتهم للحكام والامراء والوزراء أبرع ما يكون المراوغ الراشي حين يعمل بالاختلاس والرشوة وليس هذا بغريب على اليهودي فقد علمه تاريخه المضطربالقلق غير الامن وغير الواضح ، وعلمته اخلاقه ومعتقداته القائمة على العنصرية والتعصب السطو والاغارة والسرقة والتلصص حيثما تواتيه الظروف التي تحيط بامكانية العمل في يسر بالشكل الذي يتفق وطبيعة الجو الملائم فانه كان يعبر عن هذه المعاني ويمارسها .

ولقد اتاح القرن التاسع عشر الميلادي لليهود فرصا كثيرة جدا فعندما بدات ملامح الثورة الصناعية في اوربا وخاصة في انجلترا تعظم وتتطور وجد بين الطبقات من سكان المدن اصحاب القوة الاقتصادية الجديدة التي تأخذ زمام القيادة والسيطرة من اصحاب مرحلة الاقطاع الاقدمين ولقد شاء الانسان اليهودي ان لا يتركها فرصة تمر دون ان يقود هو هذا التيار التاريخي الخطير فبعد ان اندفع الانسان اليهودي بقدراته الخاصة وسط هذه المرحلة في قلب المدن التجارية وخاصة عندما اقترب القرن التاسع عشر وفي مراحله الاولى أوشكت الجماعات اليهودية التي

ابتدات تظهر وتتجمع ان تكون هي الرائد والمسيطر لهذا التطـور المـادي والصناعي والتجاري الذي جرده بعد ذلك الانسان اليهودي من معـاني الخير والتعاون وقاده الى اساليب الصراع والتطاحن ، ولقد بلغ الحـال الذي سرى اليه امر الوجود اليهـودي في المجتمعات المسيحيـة في العصر الحديث سيطرة اجتماعية وسياسيـة واستغـلالا للبشر وللاقتصاد ان المفكرين المسيحيين قاموا بمجابهة واسعة ارادوا بها أن يحاصروا الخطـر اليهودي كي لا تضيع مجتمعاتهم المسيحية امام موجـات المـد اليهـودي الرهيب الذي لم يترك جانبا من جوانب المجتمع الاوربي المسيحي ابـان بدء التقدم المادي الصناعي والتجاري الـذي كانت اوروبا تدخـل عصره الا وقد مسخ شخصيته وسيطر عليه ، ومن عجب ان اليهود في كثير ممـا قاموا به ضد اوروبا المسيحية كانوا يرجعون كل تصرف لهم وكل سلـوك غير طبيعي تصطدم به مصالح المجتمع الـذي يعيشون فيه ويريـدون ان يعمقوا او يوسعوا مطامع السيطـرة والاستغـلال الـى خصائص الجنس اليهودي وتعاليم الدين وارادة الاله لهم بأن يكونوا على الناس ولا يد لاحد عليهم ومن هنا فان الفكر الاوربي كان لا بد وان يقوم بعملية مجابهة سريعة لباطل ما تصنع الفئات المحدودة والجماعات المنبوذة التي تواجه العالـم وتعيش فيه دائما وابدا بدعوى العنصرية والامتياز والتي كانت في المجتمع الاوربي المسيحي تعيش منغلقة ومضيعة ولذا فان الكثيرين من المفكريـن الاوربيين الذين استطاعوا ان يروا مدى ما يمكن أن يتعرض له الشعـب المسيحي في اوربا فضلا عن المعتقد المسيحي بآدابـه وتعاليمه مـن خطـر السيطرة اليهودية والمسخ التعصبي فقامـوا يكشفون عـن كل الظـروف والميادين التي عملت على اتاحة الفرص لان يعبر اليهودي عن مطامعه ونزعاته وتعلقه بأساليب المقايضة وتقديم الربا الفاحش ثم سيطرتـه على حركـة التطور الصناعي وادارة الاعمال وكانت الصفوة من مفكري اوربا ومؤرخيهم التي هبت تحاصر الخطر اليهودي هي تلك المجموعة من المفكرين التي قامت من فرنسا والمانيا ثم استطاعت أن تؤثر بفكرها المستنير في كشف النقـاب عن الخطر اليهودي امام باقي شعوب اوربا والقوى المفكرة التـي تنبهـت للاخطار المحدقة بشعوبها فقامت تلعب الدور العظيم الذي كان من الممكن له لو استمر في صدقه ومطاردته للقوى المتعصبة من الجماعات اليهودية التي كانت تنفث سمومها في جسد المجتمع الاوربـي المسيحـي لتغـيرت الصورة التي عليها يهود العالم اليوم ولاصبحت قضايا الصراع العالمي على غير ما هي عليه في عالم الصراع في العصر الحاضر .

* * *

الفكر الاوربي يقاوم الاطماع اليهودية :

بعض مراحل القرن الثامن عشر والتاسع عشر وخاصة ابتداء من النصف الثاني منه كان عصرا ادى فيه المفكرون الاوربيون دورا نضاليا ضد السيطرة اليهودية على كل جوانب الحياة الاوربية ولقد كانت المجابهة التي استطاع ان يقوم بها الفكر الاوربي ضد التسلط اليهودي كبيرة وقوية شاملة تناولت كل صور المسخ والتشويه التي عملت الجماعات اليهودية على ان تقوم بها حتى في الجوانب العقائدية ، وخاصة اثر مراحل التنادي اليهودي الذي قام به الحاخامات من رجال الدين اليهودي .

وعن الدور النضالي الذي لعبه المفكرون الاوربيون في مجابهة الخطر اليهودي الذي كان قد تمدد وسيطر على مساحات شاسعة من الارض واعداد كثيفة من البشر وصور كثيرة من المعتقدات والقيم ، فان للاستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر دراسة في كتابه «الصهيونية في المجال الدولي» الصادر عن دار المعارف بالقاهرة وقد كتب يقول عن هذه المرحلة التي كان فيها المفكرون الفرنسيون والالمان يجابهون اخطار اليهود في اوربا : لقد وضع الفرنسيون الفلسفة التي كشفت النقاب عن الخطر اليهودي وتبعهم في ذلك الالمان .

ففي سنة ١٨٤٥ نشر توسينل Toussenel كتابا عنوانه « اليهود ملوك العصر ــ تاريخ الاقطاع المالي » ، وقد اوحى بمواد هذا الكتاب وموضوعه ما ظهر من فضائح مالية واستغلال الثائي للمالية الفرنسية في ذلك العهد وما كان لليهود في ذلك من دور كبير ، ومن الطريف ان الكاتب في هذا المؤلف قد شمل تحت عنوانه اليهود الانجليز والهولنديين واهل جنيف من البروتستانت الذين يتعلمون كيف يقرأون ارادة الله في نفس الكتاب الذي يتعلم منه اليهود والذين يقابلون بالازدراء قوانين العدل وحقوق العاملين وذلك لاخذهم بما اخذ به اليهود من اخلاقيات المال والصناعة والمضاربة . ونشر الكونت دي جوبينو Comte de Gobineau في سنة ١٨٥٤ بحثا آخر عنوانه « مقال عن عدم المساواة بين الاجناس البشرية » وفيه ابان الفرق بين الآري والسامي وقصد به ان يهاجم نشاط اليهود السياسي كما هاجم توسينل نشاطهم الاقتصادي المدمر ثم جاء كاتب ثالث فرنسي فكتب في سنة ١٨٦٩ كتابا عنوانه « اليهودي واليهودية

وتهديد الشعوب المسيحية » وصاحب هذا الكتاب جوجينو دء موســو Gougenot des Monsseaux رجل من رجال الدين وقد حاول ان يبين خطر اليهود في ميدان الدين والثقافة كما أبان توسينل وجوبينو خطرهــم في ميدان الاقتصاد والسياسة ، ومما اكده في كتابه ان اليهود لا يقيمون وزنا ولا يؤمنون بصحة ما يلتزمون به نحو غير اليهود من قسم او يمين كما ان مصدر خطرهم يكمن في محاولتهم القضاء على الروحية في العالم المتدين وتغليبهم المادة على الروح . ولقد دفع هذا السلوك الاوربيين الى ان يتلفتوا حولهم باحثين عن المؤلفات التي تساعدهم على فهم اليهود فأخذوا يقرأون كتابات العالم الالماني ايزنمجر Eisenmenger التي كتبهـا في القـرن الثامن عشر عن تعاليم التلمود المعادية للمجتمع كما اخذوا كتابات اليهـود الذين تنصروا وفيها يكشفون النزعات الهدامة لبعض التعاليم اليهوديـة خاصة كتابات الاب جوزيف ليمـان Joseph Lemann التـي كـان لهـا اثر في محاكمة دريفوس .

واذا اشتركت دول اوربا جميعها في التعرض لخطر اليهود الهـدام في مجتمع القرن التاسع عشر نرى رد الفعل يكاد يكون متشابها بل انه قد اخذ يتبلور حتى رايناه يتفجر في شكل حركات شعبية في المانيا وفرنســا والنمسا والمجر وبولندا ورومانيا وروسيا اثناء الجيل الاخير من القــرن الماضي والذي يعتبر البدء الحقيقي لمشكلة اليهود في القرن الحالي ، ففي المانيا نشر (مار) Wibelm Marr وهو صحفي في هلمبورج سنــة ١٨٧٣ رسالة صغيرة عنوانها « انتصار اليهودية على الجرملنية » وان كان (مار) قد لاحظ ان هذا الانتصار اقتصادي في مظاهره الا انه وجد أن اختــلاف اليهود في الجنس هو الذي دفعهم الى التماس هذا الانتصار بوسائل مالية ضالة منحرفة ورأى ان هذا السلوك يستتبع محاربة اليهــود ونفوذهــم التخريبي ولا شك في أن (مار) قد اعتمد في نظريته العنصرية على نظرية جوبينو الفليسوف السياسي الفرنسي . وقد هيأت ظروف سلسلة من الفضائح المالية في المانيا اشترك فيها اليهود الجو لاستعمال هذا العــداء العنصري حتى لقد اخذ به بسمارك في برنامجــه السياسي سنــة ١٨٧٩ خاصة وانه وجد خصومة عنيفة لسياسته الجمركية من حزب الاحــرار الذي كان يتزعمه اليهوديان لاسكر Lasker وبامبرجر Bamberger وسار في المانيا بعد ذلك العداء بين اليهود في عالم الفكر وعالم السياســة جنبا لجنب، ففيلسوف المانيا السياسي تريتشكه Heinrich von trutschk

تبنى نظرية التعارض بين الآرية واليهودية ونشرها من كرسيه في جامعة برلين وخلق الجملة التي ذهبت مثلا بين الالمان (ان اليهود بلاؤنا) ، كما ساهم الفيلسوف نيتشه Netecha في حركة احتقار اليهود في المانيا . ولكن المرجع الكلاسيكي عن نبذ اليهود كجنس يتمثل في كتاب القرن التاسع الذي كتبه عالم الماني من مولد انجليزي هو تشامبرلين Houston Stewart Chamborlain ولقد ظل هذا الكتاب مرجعا الى ان اخذ مكانه كتاب « كفاحي » الذي الفه هتلر دستورا للحركة النازية .

ولم تكن هذه المؤلفات الفكرية عن السياسة الاوربية لمناهضة اليهود واثرهم المفسد في الحضارة الصناعية البورجوازية اثناء القرن التاسع‌عشر الا ينابيع لحركات المقاومة سواء كانت حزبية او شعبية فقد اصبحت هذه المؤلفات مراجع لتبرير التكتل الاوربي ضد الخطر اليهودي وتنقلت الافكار الاساسية عن ذلك الخطر على الجنس والسياسة والاقتصاد والدين بين دول اوربا سواء المتحضر منها بحضارة الغرب الجديدة او الباقي على النظام الاقطاعي وذلك لان الفكر في حالة التهديد اليهودي لم يكن‌مستوردا من السماء او السحاب وانما كان نابعا من التجربة العادية التي كان يقابلها المواطن العادي في علاقته اليومية مع اليهود ولذلك ترجمت الافكار الى منظمات سياسية . ففي المانيا تكونت عصبة محاربة السامية تحت زعامة القسيس اللوثري اودلف شتوكر Adolf Stcockr الذي اسس اتحاد العمال الاشتراكي المسيحي والذي كان عضوا في الريشتاغ وقد زاد الحركة لهيبا وانتشارا بين جماهير الشعب ان ظهر زعيم شعبي في شخص هرمان الفاردت Hermann Ahlvardt استطاع في سنة ١٨٩١ أن يقيم في محكمة زانتين قرب دوسلدورف Xanten neara Dossldorf قضية قتل من اجل طقوس اليهود الدينية ولو ان المحاكمة انتهت برفض القضية الا ان اصرار شتوكر في الريشتاغ على صحة الاتهام ادى الى اعادة محاكمة اليهودي المتهم في سنة ١٨٩٢ ولم يثبت القتل في كلا الحالتين غير ان امثال هذه الحركات الشعبية قد جمعت تأييد المحافظين والمتدينين والمتطرفين في الاصلاح والوطنية ووجهته نحو العدو المشترك في نهاية القرن التاسع عشر ولم يمت هذا العداء وانما استقر في اعماق الشعب الالماني تغذيه الجامعات والاحداث الى ان ظهر مع حركة النازية ظهوره التاريخي في القرن العشرين .

وكما تعاون الفكر والسياسة في محاربة اليهود في المانيا تعاونا في الامبراطورية النمسوية المجرية بقسميها المجري والنمسوي ، ففي المجر كان للقسيس الكاثوليكي رولنج Angustus Rohlug اعمق الاثر في ازاحة الستار عما تشتمل عليه تعاليم اليهود القديمة خاصة ما جاء منها في التلمود من دعوة الى تدمير غير اليهود وقد ضمن هذه الافكار كتابه الذي نشره قبل ان يترك المانيا الى المجر في سنة ١٨٧١ وعنوانه «يهود التلمود»، وما أن عين استاذا لكرسي الديانة الكاثوليكية في جامعة براغ حين كانت اقليما من اقاليم الامبراطورية النمساوية حتى انتشر ذكره وعمق آثره وتجاوبت تعاليمه مع الحركة السياسية المعادية لليهود في براغ ، ومن ثم نرى هنالك ارتفاع الشكوى والسخط من سلوك اليهود وانتقاضهم عن المواطنة الحقة في كل ميدان في الجامعة والكنيسة والبرلمان ، ولم يكن القسم النمساوي من الامبراطورية بأهدأ حالا من الناحية السياسية اذ تيقظ الوطنيون في فيينا لما يمثله اليهود في حياة الامبراطورية من عوامل الفساد والاستغلال فوضعوا أسس الحركة المعادية لليهود وكان من ابرز قواها الدكتور لوجز الذي بارك البابا حزبه في سنة ١٨٩٥ والذي انتخب محافظا لمدينة فيينا في العام نفسه ولكن قاوم الامبراطور انتخابه بأن رفض تعيينه في منصبه ولم يوافق على ذلك الا بعد ان اعيد انتخابه آربع مرات واصرار أهل فيينا على انتخاب الدكتور لوجز رغم معارضة الامبراطور دليل واضح على القوة التي بلغها بين الشعب زعماء النظام الذي استهدف محاربة اليهود واثرهم الاجتماعي وعلى تأصل جذور المدرسة التي تعلم عنها هتلر في صباه دعائم فلسفته .

ولم تتخلف فرنسا عن ركب المحاربين لنفوذ اليهود الذي امتد الى جميع الميادين من سياسية واجتماعية واقتصادية لانه على قدر ما جنى اليهود من مزايا الصبغة العالمية التي اصطبغت بها حضارة القرن التاسع عشر الصناعية والراسمالية لاقوا من الشرور التي تنطوي عليها تلك المزايا ، فانتشارهم في انحاء اوربا والعالم كان الدعامة التي ارتكزوا عليها ليجنوا خيرات السوق العالمية الجديدة الموحدة في ظل الرأسمالية المتحركة ولكن على قدر ما كان استغلالهم عالميا كانت حركة المقاومة عالمية ايضا فحين تألمت برلين تألمت براغ وفيينا وكذلك باريس وان كان الفرنسيون قد وضعوا اصبع اوربا الحديثة على موطن الداء الجديد بما ألف كتابهم عن خطر اليهود فقد واصلوا ايضا كشف الداء، فكان آدوارد دريمون الصحفي

البارع الاسلوب زعيم الكتاب الفرنسيين في هذا المجال اثناء العشرين عاما الاخيرة من القرن التاسع عشر، اذ ألف كتاب «فرنسا اليهودية» الذي تدفقت من نسخه عشرات الآلاف كل شهر من مطابع باريس وتلقفته الاذهان تلقفا نادر المثال ، كما انه اسس صحيفة القول الحر في سنة ١٨٩٢ فاستطاع بكتابه وصحيفته ان يقدم غذاء حيا مثيرا لحملة سياسية قوية ضد عدو اوربا المشترك وجاءت الفضائح السياسية المالية التي اشترك فيها ثلاثة من مشاهير اليهود المضاربين تؤكد بالفعل ما ينادي به الاحرار من قول وكان من اثر ما جربه الناس على يد اليهود من خداع مالي ان انحاز بعضهم الى تأييد اتهام دريفوس الضابط اليهودي في تآمره مع الالمان ونقله اسرارا حربية فرنسية الى قيادتهم . ولكن ضمير فرنسا لم يترك ذلك الاتهام يلصق بذلك الضابط بعد ان تبين براءته فبرىء دريفوس من تهمته العسكرية ولكن في الواقع ان هذه التهمة ليست الا من قبيل التهم التي وجهتها المانيا والمجر في القرن التاسع عشر ووجهتها اوربا في العصور الوسطى الى اليهود من ناحية استباحتهم اهراق دماء غير اليهود لاغراض طقوسهم الدينية فهي تهم يدفع اليها الذعر من اثر هذا العدو الذي يعصر غيره في سوق المال كما يدفع اليها اليأس في علاج هذا العدو الجاثم على صدر ضحيته تؤيده في ذلك نظم الحكم التي تتحالف معه في استغلال الشعوب .

ولكن العواطف والحركات التي اثارها السلوك اليهودي في دول اوربا الغربية وجدت صورا مشابهة لها في دول اوربا الشرقية . فاستغلال اليهود في القرن التاسع عشر لدول اوربا الشرقية خاصة رومانيا وروسيا وبلاد البلقان الواقعة تحت سيادة تركيا اصطبغ بحالة تلك الدول التي كانت عليها منذ العصور الوسطى ، فعلى حين كان الاستغلال اليهودي لدول اوربا الغربية متمشيا مع التطورات الحديثة في النظم الراسمالية كان استغلالهم للدول الشرقية متأثرا بالنظم الاقطاعية السائدة .

ففي رومانيا كان اليهود يعملون كوسطاء ووكلاء للنبلاء وقد زاد من اهميتهم ان الطبقة الوسطى في رومانيا كانت صغيرة جدا ، وكان الفلاحون في حالة من البساطة والسذاجة مكنت استغلالهم بواسطة نبلاء الاقطاع ووكلائهم اليهود . وكان اليهود في كلا الحالين أداة الاستغلال لصالح النبلاء وصالحهم الخاص فأبغضهم شعب رومانيا بغضا عميقا لانه رأى فيهم أصحاب السيطرة الحقيقية على مصائرهم المعاشية ، خاصة انهم اضافوا

الى مقدرتهم على استغلالهم باسم النبلاء استغلالهم عن طريق عمالهم كأصحاب المتاجر ومقرضي المال ومرابيه ، ولقد زاد السخط بين شعب رومانيا مع الزمن حتى تعددت الاضطرابات وانتهت بثورة ضد اليهود وملاك الارض في سنة ١٩٠٧ احتاجت الى مائة الف جندي لاخمادها .

وان موقف اليهود من رومانيا جدير بالدراسة عندنا في بلاد الشرق الاوسط لانه لا يصور استغلالهم التقليدي للشعوب وحسب ، وانما لانه يسجل خطوة من الخطوات الاولى في السياسة الحديثة لليهودية العالمية التي حاولت ان تستغل الدول الغربية ونفوذها في تحقيق مطالبهم الخاصة . فرومانيا لم تتوحد اقاليمها الا في سنة ١٨٥٩ ولم ينل اليهود فيها حقوقهم السياسية كما نالوها في دول اوربا الغربية وظلوا محرومين من حق المواطنة ، ولذلك نرى اليهود في دول اوربا الغربية يستخدمون نفوذهم الواسع الجديد في حضارة القرن التاسع عشر للضغط على رومانيا حتى تسمح لليهود بحقوق المواطنة كسائر المسيحيين من المواطنين . وحدث نتيجة للتدخل اليهودي عن طريق المنظمات اليهودية السياسية ان مؤتمر برلين الذي انعقد في سنة ١٨٧٨ لتسوية المسألة الشرقية جعل الاعتراف برومانيا مشروطا بمنحها المواطنة والتمتع بالحقوق السياسية لجميع المقيمين في حدودها دون نظر الى المعتقدات الدينية ، ولكن نسي مؤتمر برلين ان ما يسهل تقريره على الورق قد يصعب تنفيذه في الواقع لان بغض شعب رومانيا لليهود في اثر تجربتهم اليومية كان اعمق من ان يمحوه قرار سياسي دولي ، فما كان من رومانيا امام اصرار الدول الغربية على وجهة نظرها في تحرير اليهود بين ربوعها الا ان قيدت ذلك الحق واشترطت في منح التجنس ان يكون امرا فرديا يعطى لكل فرد على حدة بقوانين من البرلمان . ولذلك ظل اليهود في معظمهم اجانب مقيمين في رومانيا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وهكذا نرى بهذا المثال المحسوس في السياسة الدولية ان اليهود بتنظيماتهم الموحدة في عالم السياسة — شأنها شأن تنظيماتهم الموحدة في عالم الاقتصاد — استطاعوا ان يستغلوا الدول الغربية في تنفيذ مآربهم ومصالحهم قبل أن يجعلوا من هذا الاسلوب مادة مقررة من مواد السياسة الصهيونية التي وضعها مؤتمرهم في بال سنة ١٨٩٧ .

* * *

وان كان تاريخ اليهود في رومانيا قد حفل بالحوادث اثناء القرن التاسع عشر الا ان تاريخهم في روسيا وهي الدولة الاوروبية الشرقية الكبيرة قد تجاوب في احداثه وبعد اثره على نطاق امتد في الزمان والمكان امتدادا اتفق ومكانة روسيا وظروفها من ناحية كما اتفق مع احتشاد جماعات اليهود خلال العصور داخل حدودها من ناحية اخرى فقد اتخذت موجات الاستيطان عند اليهود في اوروبا طريقين رئيسيين منذ البدء احدهما سار من الجنوب الغربي مع خطوط التجارة الغربية للعالم الروماني واتجه نحو الشمال الشرقي خاصة في العصور الوسطى تحت ضغط الحروب الصليبية التي جعلت اليهود يحرصون على تفادي الالتقاء بالجيوش المحاربة في طريقها نحو الشرق مما ادى الى استيطان اليهود استيطانا واسعا في مملكة بولندا القديمة . وحين تقسمت روسيا وبروسيا والنمسا وبولندا في نهاية القرن الثامن عشر كان الجزء الاكبر منها من نصيب روسيا وتبع ذلك ان انتقل الجزء الاكبر من السكان اليهود فيها الى سيطرة الروس والاخر سار عبر البحر الاسود خلال القرم وفي المناطق التي تكون الان جنوب غربي روسيا . وقد كان التوسع سببا في ضم اقاليم آهلة باليهود مثل القرم وبسارابيا ودوقية وارسو ، وهكذا لم يحل حرص روسيا المقدسة على ان تمنع تسرب اليهود الى بلادها في اتجاههم من الغرب الى الشرق دون ان تجد نفسها فجأة من الدول التي تشتمل على نسبة كبيرة من يهود اوروبا .

ومن ثم كان من الطبيعي ان يكون تفاعل اليهود مع الروس في جسامته وحدته متلائما مع ضخامة اعدادهم وخصائص فعالهم ، فحاولت روسيا ان تحدد اقامتهم بان تخصص لهم اقاليم لا يبرحونها الى سواها دون اذن من السلطات العامة . وقد احتوت تلك الاقاليم على اكثر من نصف اليهود في العالم . غير انه كان من المصرح لطوائف خاصة منهم ان يقيموا حيث يشاءون خارجها وان يزوروا الاسواق ويدرسوا في الجامعات ، وصادف ان كان اغلب اليهود الذين انتقلوا الى حكم روسيا من فقراء اليهود الذين كانوا يعيشون في ظلام العصور الوسطى دون ثقافة او اصلاح الا ان الفقير اليهودي لم يمنعه فقره من استغلال الفلاح الروسي الفقير ، لان نسبة كبيرة من اليهود كانت تشتغل باعداد المشروبات الروحية وبيعها بل ان تجارة الخمور اصبحت احتكارا وقفه رجال الاقطاع على اليهود . ولذلك عاش الاهالي في دين مستمر لاصحاب الحانات ولم تقف الشكوى منهم عند حد الاستغلال الاقتصادي الضار وانما تعدتها الى جوانب الالتزام السياسي الذي

يستشعره المواطن نحو وطنه في السلم والحرب اذ ضاق اليهود بتجنيدهم طبقا لقوانين نقولا الاول التي نظمت الخدمة العسكرية في سنة ١٨٢٧ ورأى شبابهم وشيبهم ان ولاءهم قاصر على اليهود وانه لا يتجاوزها الى الدولة ولذلك كان اكثر نشاطهم في روسيا ذلك النشاط الدموي الذي شاركوا فيه مشاركة جوهرية لقلب نظام الحكم منذ سنة ١٨٨٠ حتى قيام الثورة البلشفية ١٩١٧ .

وكان رد الفعل الروسي متجاوبا مع نشاطهم في هذا المضمار فلقد أشيع عند اغتيال الاسكندر الثاني في سنة ١٨٨١ ان لليهود يدا في ذلك ولذلك قام الفلاحون واهل المدن بهجوم كان القصد منه (تدمير) اليهود للاخذ بالثأر لمليكهم المصلح في ربيع سنة ١٨٨١ وتكرر الاعتداء في صيف العام نفسه وفي ربيع العام الذي تلاه ، ولقد اصدرت الحكومة بعض القواعد المؤقتة في مايو سنة ١٨٨٢ لتنظيم اقامة اليهود ازاء استفزازهم للشعب وهجوم الشعب عليهم من حين لاخر ، وقضت هذه القواعد بعدم السماح لليهود باقامة مستوطنات جديدة في المناطق الريفية او بشراء املاك او سلع خارج المدن كما انها لم تسمح لهم بالعمل في ايام الاحاد والاعياد المسيحية ، والى جانب هذه القواعد التي اصدرتها الحكومة لحفظ الامن في البلاد فتحت حدودها الغربية لهجرة اليهود الى اوروبا وامريكا .

ولكن اليهود ازدادوا سخطا بالقواعد التي اطلق عليها (قواعد مايو) واصابهم الذعر من المذابح المتكررة التي تلاحقت حتى بلغت اقصاها في حوادث سنة ١٩٠٥ وقابلوا ذلك بالهجرة العلنية الى اوروبا وامريكا وبالحركات الثورية السرية في روسيا . ويهمنا ان نتتبع حركتهم الظاهرة والباطنة لان اثارها امتدت الى قلب البلاد العربية لتنفث فيها سمومها بعد ان حاول الغرب من اقصى اليمين الى اقصى الشمال ان يسد بابه دونها وان يفتح أمامها باب الشرق العربي ومفتاح ذلك موقف الدول الغربية الاوروبية والامريكية من المشكلة اليهودية اذ ان سياسة (الباب المفتوح) امام المهاجرين الاجانب سادت القرن التاسع عشر نتيجة توسع الغرب في الانتاج الصناعي وما نتج عن ذلك من تحرر في السياسة وتحرير في العمل للمهاجرين بل والترحيب بالايدي العاملة في كثير من الاحيان ، ولكن ما ان اعلنت الحرب العظمى الاولى في سنة ١٩١٤ حتى كان الغرب قد وصل الى سياسة اغلاق

الباب في وجه المهاجرين خاصة بعد ان جرب اليهود الذين تدفقوا اليه من روسيا بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٩١٤ والذين اثبتوا انهم من المقيمين الضارين بالاقتصاد القومي والمواطنة السياسية والجوار الاجتماعي فلقد استقبلت الولايات المتحدة في سنة ١٨٨١ اكثر من ثمانية الاف مهاجر من يهود روسيا وتضاعف ذلك العدد في سنة ١٨٨٢ وبقي على هذا المستوى حتى وصل سنويا الى متوسط يبلغ الثلاثين الفا سنويا بعد سنة ١٨٨٧ ثم بلغ في سنة ١٩٠٥ رقما قياسيا وهو ٢٤٣ر١٢٥ ، كما اخذت انجلترا وفرنسا وهولندا والمانيا نصيبها من اولئك المهاجرين وهكذا في عشرين عاما أرتفع السكان اليهود في الولايات المتحدة من اقل من ربع مليون الى اكثر من مليون ، وفي انجلترا من أقل من مائة الف الى ما يقرب من ربع المليون، على حين أن فرنسا وهولندا والمانيا استقبلت كل منها بين العشرين والخمسة والعشرين الفا من هؤلاء اللاجئين ، واذ هاجر يهود روسيا الى هذه البلاد الغربية لم ينسوا ان يصحبوا معهم ثقافتهم وطرق حياتهم الخاصة مما اثار شكوى الدول الاوربية واعلانها لرأيها عن تجربتها المؤلمة معهم ، فهم لم يتخلوا عن نظرتهم المعادية للمجتمع المحيط بهم ولم يتخلوا عما تنطوي عليه نفوسهم من قسوة وضغن ، وظهر ذلك بطريقة عملية في مزاولتهم لاعمالهم العادية اثناء السلم وفي محاولة الهرب من الخدمة العسكرية عند اعلان الحرب في سنة ١٩١٤ ، اذ لم يراعوا المنافسة الحرة الكريمة في العمل فحاول العمال منهم ان يعملوا بأجور منخفضة انخفاضا يضر مصالح العمال من غير اليهود في اوروبا الغربية ويحول دون حصولهم على نسب الاجر التي تسمح لهم بالاحتفاظ بمستوى معقول في الحياة العادية كما حاول المشتغلون منهم بالتجارة ان ينافسوا غيرهم من التجار بعرض سلع رخيصة والاكتفاء في اغلب الاوقات بنصف الارباح المعتادة معتمدين في ذلك على ما تعودوا في مواطنهم الاصلية من انحراف في التعامل والتواء في الوصول الى مآربهم المادية ، وقد جاءت الحرب العظمى الاولى فكشفت عن هذا الانحراف والالتواء لان اوقات الازمات اقدر على اظهار جوهر الخلق والسلوك الاجتماعي من اوقات الهدوء العادي فتجاوبت الشكوى في اوروبا وامريكا من محاولات اليهود الطارئين المعقدة في اخفاء انفسهم واشخاصهم عن نظر ادارات التجنيد الاجباري وذلك بعد استلام شهادات الجنسية الوطنية في الدول التي استوطنوها بعد الهجرة من روسيا ، هذا الى تفننهم في تفادي الجندية وتشويه أعضائهم والهرب حتى بعد التجنيد ، مما جعل الحلفاء

والدول الوسطى على السواء ترى في اليهودي مثالا لعدم الولاء والنكارا للجميل والبعد عن فهم معنى المواطنة وتقدير مسئولياتها وحمل اعبائها كسائر المواطنين .

فاليهودي المهاجر من روسيا اثبت انه المشارك في السراء والهارب في الضراء ، ولا عجب اذن بعد هذه التجربة ان تغلق دول اوروبا وامريكا دون امثاله الابواب فتحدد الهجرة اليهودية اليها وتلتمس في اعانة اليهودي ارضا غير ارضها وديارا غير ديارها ، ومن ثم كانت فلسطين ارض الميعاد لا لليهود وحدهم وانما لانصار اليهود من الغربيين الذين ارغموا على عونهم وانما على حساب غير حسابهم الخاص .

ولكن اليهود الروسيين ما كانوا ليكتفوا بحل مشكلتهم عن طريق الهجرة اليهودية الى اوروبا وامريكا وعن طريق بناء دولة لهم في فلسطين وحسب وانما حاولوا بعد ان عجزوا في روسيا عن ان يجدوا لهم منفذا فوق الارض ان يلتمسوه تحت الارض فهم لم يذعنوا لما فرض عليهم من قيود الاقامة والعمل بل حاولوا في الخفاء ان يتآمروا مع الساخطين من الروس على قلب ذلك النظام القيصري الذي لم يجار المدنية الغربية مجاراة تكفي لان يمسك اليهود فيها بزمام المجتمع كما حاولوا ان يفعلوا في الدول الغربية ، ولذا لم يقر لهم قرار منذ اغتيال الاسكندر الثاني في سنة ١٨٨١ حتى انتصرت الثورة الشيوعية واحتلوا في قيادتها اول الامر مكان الصدارة فعلى حين انهم رأوا امتيازهم في دول الغرب انما يأتي عن طريق التحالف مع الراسمالية تبينوا ان نيل الامتياز المماثل في روسيا مرتبط بسيادة الشيوعية ، غير حافلين بما بين المذهبين من تعارض طالما يؤدي الطريقان الى سيادة « شعب الله المختار » ولا ريب في ان الثورة الشيوعية في روسيا حركة حتمية استلزمتها ضرورات التطور التاريخي لشعب اغفل حكامه مطالبه الصارخة زمنا طويلا ، الا ان اليهود مع ذلك قد ساهموا مساهمة فعالة في الاعداد لها وفي تنفيذها . فجميع طبقات اليهود من راسماليين ومفكرين وعمال قاموا بأدوار ملائمة لمرحلة معينة في نشر الدعوة الماركسية في تأييد الاحزاب الثورية ولقد ادت نسبة اليهود الكثيرة بين رجال الادارة في حكومة الثورة البلشفية سنة ١٩١٨ وبين صغار الموظفين والكتبة ، كذلك الى ان يربط الملاحظون الاجانب في الغرب ربطا وثيقا بين اليهود وبين الثورة الشيوعية .

ومن الطريف ان اليهود في دول الكتلة الشرقية يفاخرون بما ساهموا به في تحقيق الشيوعية الا انهم في الغرب ينكرون صلتهم بها ويبررون انضواء اليهود تحت علم البلاشفة بأنه امر لم يكن هناك مفر منه انقاذا لرؤوسهم التي كانت تهددها سيوف قادة جيش روسيا البيضاء المعادية لليهود لكونهم يهودا كما كانت تتهددها في الوقت ذاته ثورة البلاشفة كأعداء للشعب ان هم ازوروا عنها ، فاعتناقهم الشيوعية قد جاء كما يدعي المحامون عنهم من كتابهم في الغرب نتيجة الضرورة لا نتيجة الاعتقاد اذ انهم ديمقراطيون لحما ودما وانهم يذرفون الدمع لفشل كيرنسكي في اقرار دعائم الحكم الديمقراطي في روسيا سنة ١٩١٧ والذي عمل اليهود ما وسعهم الجهد الفكري والعملي لسيادته في الشرق والغرب .

وفي الواقع ان هناك اتجاهين يعملان في المدة الاخيرة على التهوين من شأن الدور الذي لعبه اليهود في الثورة الشيوعية الروسية ، اما الاتجاه الاول فيروج له اليهود الذين يعيشون في دول الكتلة الغربية الراسمالية خاصة في انجلترا والولايات المتحدة التي اصابها الذعر من جراء انتصار النظام الشيوعي في روسيا وخطر دعوته المذهبية العالمية عليها اذ اخذت طائفة من كتاب اليهود تتزعم مناصرة المبادىء الديمقراطية حسب المفهوم الغربي من حيث تطبيقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتنادي حتى في الجامعات الغربية بالمذهب الفردي المتطرف الذي عدل عن الاخذ به اخذا متزمتا حتى مفكرو الانجليز والاميركيين المحافظين ، ولعلهم في هذا المسلك يحاولون أن يكونوا ملكيين اكثر من الملك وبابويين اكثر من البابا وفرديين اكثر من الامريكيين في القرن العشرين ، وهم بذلك يدرأون عن انفسهم الشبهات اليسارية وينزهون ابناء دينهم عن نصرة المبادىء الشيوعية في المعاقل الغربية وهذا الاتجاه المتطرف في انكار الانتساب الى الشيوعية سواء في الماضي أو الحاضر او المستقبل هو وليد الحصانة اليهودية التقليدية التي تدرك اسرار التطور التاريخي للشعوب ، فتعطي كل شعب البضاعة الرائجة في سوقه الخاص . واما الاتجاه الثاني فيصدر عن كتاب الروس انفسهم خاصة بعد النزاع الذي حدث بين ستالين وتروتسكي اول الامر وبين ستالين وزينوفييف بعد ذلك وانتهائه بتغلب ستالين على الزعيمين اليهوديين اللذين كانا يطمحان بحكم دورهما في الثورة البلشفية الى تولي منصب الخلافة بعد موت لينين .

فمنذ ان اخذ ستالين مقاليد السلطة الحقيقية في يده وحول منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي من منصب اداري الى مقر السلطة والنفوذ الفعلي سار الاتجاه الى اغفال المساهمة اليهودية في الثورة البلشفية بل ان كثيرا من الوثائق المتصلة بنشاط الزعماء اليهود في الحكم وقبل الحكم قد أصابه التعديل والتبديل ان لم يكن قد اصابه الافناء والاعدام وهذا الاجراء الذي لجأ اليه الروس في دعايتهم وتسجيل تاريخهم الثوري امر عرفه التاريخ القديم حين عمد بعض ملوك مصر الفرعونية الى طمس معالم السابقين لهم ، كما انه امر اصبح الان شائعا في القرن العشرين لا سيما بعد ان تقدمت فنون الدعاية الشعبية ومناهج مخاطبة الجماهير الوطنية وبعد ان طبق الحكام على شئون السياسة والاجتماع في جميع أقطار الارض نظرية اينشتين في ان الحقيقة نسبية وليست مطلقة . لكن مهما اتفقت مصلحة اليهود في الغرب من ناحية ومصلحة الروس الوطنيين من ناحية اخرى على حجب الدور الجوهري الذي قام به اليهود في قلب نظام الحكم القيصري واحلال النظام الشيوعي محله فان ذلك الدور من الوضوح حتى لا يستطيع حاجب ان يحجبه مهما ابتكر في سبله ووسائله ، ويكفي في ذلك أن كان تروتسكي فوق مكانته الفكرية في توجيه الحزب الشيوعي القائد الرسمي الاعلى للقوات المسلحة الحمراء التي عملت على تثبيت النظام البلشفي في الفترة العصيبة الاولى التي شهدت اعداء الثورة البلشفية ينقضون عليها من الداخل والخارج انقضاض الصواعق من كل صوب كما كان زينوفيف من بين القادة الاخصاء للحزب الشيوعي وقد اشترك في زعامته بعد وفاة لينين الذي سبق ان صاحبه في النفي الى فنلندا حين حاولت حكومة كيرنسكي القبض في سنة ١٩١٧ على زعماء الحزب البلشفي بعد ان احبطت محاولتهم في الانتفاض قبل ثورة اكتوبر .

ولقد كان الدور الذي قام به يهود روسيا في الثورة على الحكم القيصري امرا طبيعيا دفعهم اليه محاولة القياصرة دائما وضعهم العادي كغيرهم من المواطنين وعدم اعطائهم من الامتيازات الاجتماعية ما يتناسب مع مركزهم المالي المتفوق في روسيا ، ولما كانت الثورة واقامة دولة جديدة مكان الدولة القديمة في حاجة دائما الى مذهب فكري او دعوة تسبقها ــ كما اشار الى ذلك ابن خلدون ــ فقد سارع اليهود الروس الى المناداة بالشيوعية الماركسية ومناصرة الثائرين من الروس الذين اخذوا بها وعلى رأسهم لينين فكانوا سدنة الدين الثوري الجديد ومبشريه بل وحراسه وحملة لوائه ، ولكن

ميزة اليهود في هذه الناحية كانت تنطوي في الوقت ذاته على نقيضه وذلك لان الشعب الروسي ما كان لينسى بين عشية وضحاها رواسب الخصومة التقليدية بين المسيحي واليهودي والتي عبر عنها الطرفان في آخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين تعبيرا انتقاميا داميا .

وقد حاول قادة الجيوش الروسية البيضاء في محاربتهم للثورة البلشفية اثارة عاطفة البغضاء التقليدية بين الفريقين وذلك باستغلال اسم عائلة تروتسكي اليهودية في الدعاية المضادة محاولين تصوير الثورة تصويرا طائفيا لا قوميا ، ولم يقتصر الامر على هذه الصفة الدينية عند اليهود فان صفاتهم الخلقية والعقلية والقبلية البدائية كانت ايضا من العوامل التي تحد من مزاياهم التي وجهوها الى خدمة الثورة والتي تباعد بينهم وبين فهم الشعب الروسي وتراثه التاريخي .

وهذا ما حدث فعلا فان تروتسكي وزينوفييف وقادة اليهود في الثورة اصروا على التمسك بتطبيق نظرية ماركس في الشيوعية تطبيقا منطقيا دون تقدير الظروف الاجتماعية ، ولذلك دعا تروتسكي في السياسة الداخلية الى ابعاد الفلاحين من حظيرة الطبقة العمالية مقتفيا في ذلك تعريف ماركس للبروليتاريا وقصره اياها على عمال الصناعة وهو في ذلك لم يستطع بحكم بعده عن الارض مثل غيره من ابناء دينه عن ان الفلاح الروسي فلاح ثائر لاشتراكه مع سواه من ابناء جنسه في التعرض لاضطهاد اصحاب الاقطاع كما أن زينوفييف خاطب المهندسين في مؤتمر لهم عقدوه في لننجراد سنة ١٩٥٢ بقوله الحاسم : اننا لن نعطيكم ابدا حقوقا سياسية . ولم يكن قادة اليهود في الواقع بقادرين على تكييف الفلسفة الشيوعية الماركسية تكييفا يتفق والمجتمع الروسي لعجزهم عن فهمه نتيجة حتمية لقصورهم في العطف عليه والتعاطف معه وكذلك نتيجة استعلائهم الذهني الذي طبع سلوكهم العام والخاص بطابع الوقاحة العقلية المجردة وهذا ما استشعره ستالين نفسه في تجربته معهم فكانت مظاهر هذا السلوك الفكري والخلقي الذي اختص به قادة اليهود في الثورة من عوامل فشلهم في ان ينالوا الخلافة بعد لينين كما كانت من اسباب انتصار ستالين عليهم ونجاحه المنتظر في ان يمثل الشعب الروسي قائد الثورة المصطفى للعهد الجديد .

وهكذا ظهرت مزايا اليهود ونقائصهم التقليدية اثناء اشتعال الثورة

الروسية واثناء استمرارها ، فمزاياهم التي تقوم على الهدم وتشويه الحقائق وبلبلة الافكار واثارة النفوس ونشر العداوة والبغضاء واشاعة الفرقة بين الناس قد كان لها الاثر النافذ في البداية ولكن سرعان ما بان للناس قصورهم في السياسة القومية التي تعتمد على تدعيم الالفة بين المواطنين وتوحيد طوائفهم وجماعاتهم وتقدير عاداتهم وطرائق حياتهم ، فاليهودي الساخط قادر على ان يذيب الروابط بين ابناء الوطن الواحد ولكن سخطه يعجزه عن ان يحفظها او يقيم بينهم ما هو خير منها .

ومن الغريب ان الروس انفسهم قد شعروا بالخطر اليهودي على نظامهم القديم اثناء ذلك الصراع الذي احتدم بينهم وامتد منذ العشرين سنة الاخيرة في القرن التاسع عشر الى اوائل القرن العشرين وكان اعلان هذا الشعور في البيانات التي نشرها الكاتب الروسي سرجي نيلوس تحت عنوان بروتوكولات حكماء صهيون في سنة ١٩٠٥ والتي ذهب الى انها وثيقة يهودية حقيقية تشتمل على خطة اليهود في ان يسيطروا على العالم باتخاذ الوسائل الدولية المختلفة لتحقيق ذلك وتقوم هذه الوسائل اول ما تقوم على الهدم والتخريب واضعاف العقول والاجسام واصطناع السبل المناسبة لكل بلد من البلدان . ولقد اشير في هذه الطبعة الى ان الماسون شركاء اليهود في نسج مؤامرة عالمية ضد المسيحية على وجه العموم وروسيا على وجه الخصوص .

وهذه الرؤية الواضحة لكافة ابعاد الصورة التي كان عليها اليهود في بلدان العالم الاوروبي لم تحل دون أن يعمل اليهود على تصيد كل الظروف التي تتاح لهم لكي يصنعوا بالتسلط واصطياد الفرص مجالات وميادين للسيادة المدعاة ويمارسوا امانيهم في سلوك التعصب والعنصرية للمعاني التي تلازم خلقهم واستعدادهم والمقترنة بقدراتهم في الرشوة والربا والسمسرة واستعمال العنف والاكراه والدم ذلك ان اليهودي « بالطبع » اولا وبالخلق والعقيدة ثانيا لا يترك مغنما الا ويعمل على اصطياده ولا يسمح لفرصة عمل او تحقيق امل او ممارسة سيادة تمر من امامه الا ويركبها ويؤكد بها ذاته ، فمثلا حين كان الفكر الشيوعي يرسي قواعده النظرية وينتشر في القرن التاسع عشر اصبحت العلاقة بين الشيوعية التي لم تكن قد استقرت معالم مستقبلها بعد وبين الجماعات اليهودية التي ابتدأت تدير الدفة الى الجماعات الشيوعية قوية الى الحد الذي قال فيه الفيلسوف نيتشه قوله الشهير : « ... ان المفكر الذي يهمه امر اوروبا ويطيل فيه التفكير تكشف له نظراته

الى المستقبل ان اليهود والروس سيكونان اهم العوامل في رواية المستقبل العظيمة وصراع القوى المنتظرة » .

اليهود والحركة الثورية :

ليس غريبا عند البعض وان كان مثيرا وباعثا للعجب والدهشة والحيرة ان اليهود يعملون في تفان في سبيل ان يقنعوا حركة الثورة العالمية انهم اول من قاد الحركات الثورية ونادى بالشيوعية وعمل لها ولئن كان جهد العمل اليهودي الاعلامي هو الذي كان وراء اشاعة انهم ثوار وانهم خدموا الحركات الثورية وصنعوا الشيوعية العالمية انما هي ظروف عالمية بعد ذلك طرات على حركة الثورة العالمية نفسها ومنها انها ترفض دعوى السيطرة ونعرة التعصب التي يلوكها القوم من اليهود ويجترونها عبر التاريخ، والا فان العمل اليهودي من اجل اقناع العالم بأن اليهود ثوار قد بدأ مبكرا ، وقالوا انه ليس من قبيل المصادفة ان زعيم الشيوعية الاكبر وقطبها العظيم وواضع اسسها وقواعدها كارل ماركس ان يكون يهوديا ويهوديا متعصبا .

اقول انه قد يكون عجبا عند كثرة كثيرة لا تعلم ان الجماعات اليهودية كانت تحمل على عاتقها مهمة توجيه الدعوة الى العالم كي يعرف ان اليهود اول من نادى بالشيوعية فمجلة (افريكان هيبرو) وهي من كبريات المجلات اليهودية الامريكية تقرر في عددها الصادر يوم ١٠-٩-١٩٢٠ ان الثورة الشيوعية في روسيا كانت من تصميم اليهود وانها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون الى خلق نظام جديد للعالم وان ما تحقق في روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التي خلقت الشيوعية في العالم ونتيجة لتدبير اليهود ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم . وعند هذا اللبس والخلط بين جوهر فكر الحركة الثورية في العالم وبين عقائديات الحركة الصهيونية كترجمة عصرية للمطمع اليهودي القديم فانه لمن الضرورة العلمية هنا ان نشهد في مجال البحث بما يمكن ان يتصور في مجال الموضوعية الدراسية عن موقف الحركة الثورية من المطمع اليهودي او المسالة اليهودية في العالم .

وحين يعمل الاخطبوط اليهودي بخلقه النهاز والمستغل وبقدراته على

الالتواء والنفاذ الى مقدرات الشعوب ومصائرها فانه يصنـــع الاخطار الرهيبة ، فان الوجود اليهودي ينطلق في اعلانه عن نفسه حتى حين يحاول بزيف الاعلام وتضليل الدعاية الاسلوبان اللذان يجيدهما ان يركب مد الحركة الثورية او يدعي صنعها طبقا لاهدافه ومخططاته كما اشرنا من قبل ، فنراه هنا يحاول ان يركب حركة الثورة الشيوعية في روسيا ولم ينجح كنتيجة للفرض العقائدي في الحركة الثورية ويتجه الى بلدان مثل المجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ولكي يكون ولد بالمسخ والتشويه قـوة تمارس وجودها واطماعها ورغم عدم نجاحه تماما يبقى يعمل بالهـــدم والتدميـر او باسلوب التوجيه والتاثير لصالح اطماعه .

ورغم الموقف الفلسفي والاخلاقي الذي تتخذه الشيوعية من قضيـة الدين عموما فان القلة القليلة من اليهود التي تدرك هذا المعنى وتدرك ان ركوب اليهودي حركات او مذاهب تخدم اطماعه وعقائده في الوقت الـذي تصطدم فيه هذه الحركات في سيرها المذهبي بالفكر التعصبي العنصري الذي يجتره اليهود ويتصرفون على هديه ومع ذلك فان الكثرة الكثيرة من اليهود قد حرصت على ان تستغل حركات التاريخ في كل الظروف والمناسبات ثم تعمل بالقصد والتوجيه على ان تشيع ما يخدم الاطماع وسياسة السيطرة العنصرية وان تخفي ما تراه غير مناسب للاعلان والاثارة ، فلم يتورع اعيان اليهود عن الاشتراك في الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ وكان منهم جاكوب شت وجورجنهايم وماكس برينونج واتوكان وغيرهم .

وقد صرح الاستاذ (لاسكي) الكاتب البحاثة اليهودي الذي توفـي ، في كلمة القاها في كارديف يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٦ انه لو خير هو واعضاء الحركة العمالية في انجلترا بين امريكا وروسيا لاختاروا جميعا الاتحـاد السوفياتي وساندوا ظهره .

وقد كتب الدبلوماسي السوفياتي السابق (ثيودوربوتنكو) الذي هرب من رومانيا سنة ١٩٣٨ م في جريـدة (جورنال ايطاليا) يوم ١٧ فبرايـر سنة ١٩٣٨ م يقول : « لقد وعد البلشفيك العمال باعطائهم المصانع والمناجم وجعلهم سادة البلاد والواقع ان العمال لم يعانوا ضروبا من الحرمان كالتي ذاقوها في العهد المسمى عهد الاشتراكية وقد ظهر في مكان الرأسماليين طبقة بورجوازية جديدة كلها من اليهود وقد اصبحت الصناعات الضخمة والمصانع الحربية والسكك الحديدية والتجارة جميعها في يد اليهود .

وهكذا كما تفصح الحوادث الحية المعاصرة التي يحاول اليهود الاعلان عنها فان حقائق الحكم على ان اليهود بالفعل يحاولون بجهد وتفان السيطرة على الحركة الثورية لتكون اهدافها في صالح اطماعهم وفي خدمة معتقداتهم تضاف هي الاخرى الى ما كانت عليه الجماعات اليهودية في داخل المجتمعات الاوروبية الغربية وخاصة في مرحلة اواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من سيطرة وتسلط على المجتمع الاوروبـــي الغربي .

ولقد كانت القدرة اليهودية ــ وانها بالسمسرة والوشاية والارهــاب لخطيرة ــ هي القوة السحرية التي كان بها ينفذ الانسان اليهودي حيــث يوجد متخليا مرحليا عن بعض معتقداته ومتطلباته حتى يتيسر له بالفعل ان يسيطر وان يسود من اجل تحقيق نعرة الجنس ودعوى الدين في أن الانسان اليهودي يستطيع ان يمثل التقاء الجنسي لصنف منتقى من البشر وعقيدة مختارة من بين الاديان والمذاهب هذه الدعوى التي يؤمن بها ويتعلق بهــا الانسان اليهودي عن الجنس والدين والتي كانت وراء كل ما تعرض له او ما قام به عبر التاريخ ، هذه الدعوى التي جعلته في مراحل كثيرة من التاريخ من اجل الايمان بها والارتباط بها كان يعمل اذا اضطرته الظروف بغير ما تمليه ، بل كان يعمل ضدها او يمارس متجردا سلوكه عنها اذا ما اقتضت الضرورة التي كانت تجعله يتخلى عن عقيدته ويرفض الاستبسال القــوي والشجاع الواضح في سبيلها يعود يلوك دعوى الجنس (الشعب المختــار) ودعوى الدين .

فلننظر مع التطور ومقررات العلم ، زيف دعوى الجنس ، وعنصرية العقيدة الدينية المدعاة ، بادئين بنظرة على موضوع العقيدة الدينية فــي دراسة مقارنة بجوهرها في التراث اليهودي .

الباب العاشر

- مقدمة في موضوع العقيدة الدينية
- من المعتقد الديني في اليهودية
- المعتقد الديني عند اليهود القدماء
- انموذج العقيدة الدينية في اليهودية
- القداسة الدينية للتلمود
- طبيعة بروتوكولات حكماء صهيون
- من الاسس العقائدية عند اليهود
- الجمعيات الماسونية واطماع اليهود
- تطور التنظيم العقائدي عند اليهود
- طبيعة المحفل وعضويته

« مقدمة في موضوع العقيدة الدينية »

ليست العقيدة الدينية اليهودية بدعا دون غيرها من العقائد الدينية التي شاعت في العالم القديم وتعبد بها الانسان وما يثار حولها من انها اول عقيدة دينية عالجت موضوع التوحيد والايمان بالله واحد لا رب سواه للبشر ، انما يجب أن يعاد فيها النظر ولذا من اجل هذا الادعاء المتصور والسبق الكاذب في الوصول الى الايمان بالاله الواحد وعبادة المؤمنين من يهود ربهم عن طريق هذا السبق بالاسلوب المثالي النقي المتطهر يجب ان يرفض علميا تماما ، فان هذه العقيدة في دعوى الذين يشيرون مثل هذا التصور مصدرا لكل العقائد الدينية التي دعت الى الايمان بالاله الواحد متأخرة جدا عن غيرها من الدعوات فليس صحيحا ان المؤمنين بها المتعبدين بمنهجها هم اصحاب فضل في تقعيد وتأصيل أسس العقائد الدينية المتطهرة، ذلك ان الحقيقة الموضوعية التي تؤخذ من مصادر التاريخ الحضاري وفي مقدمة مواطن التاريخ مصر وآشور وبابل ، تقدم معطيات وحقائق غير هذا اللغط المفترى والمثار ، ومن المتيسر الوقوف على صور العقيدة الدينية والتي كان لها هي الاخرى مقومات اصلية في السبق الديني في بلدان كالتي أشرنا اليها سبقت بها غيرها من اصحاب الدعوات التاريخية ومن دراسة التاريخ الحضاري يتضح انه لا يخلو دين من الاديان حتى المعتقدات التي كانت تشيع بين القبائل البدائية الاولى من الارتكاز على نقطتين او قضيتين اساسيتين وهما التوحيد والايمان بعالم آخر .

ومن دلالة تاريخ الاديان والمعتقدات فان الصورة التي مرت بعقيدة التوحيد كانت تنحصر بين حالتين :

ــ أن يكون التوحيد يرتبط ايمانا بالاله الواحد الذي خلق الحياة والاحياء وخلق اربابا آخرين بجانبه ، وكانت تتلون هذه الحالة وتتشكل بالبيئة والمناخ الذي توجد فيه .

والحالة الثانية :

ـ ان يكون التوحيد ايمانا بالاله الواحد الذي لا اله الا غيره ولا رب سواه . وكذلك كان امر القضية الثانية التي تقوم عليها المعتقدات الدينية في مختلف الاديان وعند جميع الامم وهي الايمان بالعالم الاخر .

ـ ومن تاريخ الاديان والمعتقدات ايضا فان الصورة التي كانت عليها العقيدة والايمان بالعالم الاخر تنحصر في حالتين :

الحالة الاولى :

ـ ايمان ينظر الى العالم الاخر بنفس النظرة الحسية التي ينظر بها الى هذه الحياة التي يحياها وكأن العالم الآخر جزء من العالم المشهود .

وفي اساطير الامم القديمة ان هذا العالم يوجد تحت الارض وبعيدا عن النور الحسي وكانوا يطلقون عليه اسم الهاوية .

الحالة الثانية :

ـ ايمان ينظر الى العالم الاخر بانه عالم الخير والروح وفيه الحساب و لجزاء وتكريم الاخيار والابرار ومعاقبة الاشرار والطغاة ، وهذا العالم خالد بعد الحياة الدنيا ولا يفنى .

وبين الحالتين في عقيدة الايمان بالعالم الاخر فانه كانت هنالك عقيدة متوسطة تجمع بين الفكرة المعتقدة عن الهاوية وبين الايمان بعقيدة الخلود وكانت هذه العقيدة عبارة عن ايمان بأن الموتى يذهبون الى الهاوية ثم ينجو منهمفي آخر الزمان من يدينون بالالهالحق، فيعودون اليالحياة كحياةالدنيا ويتم قضاء الموت الابدي على الاخرين ، وكانت عقائد الدنيا المتعددة في الحضارات القديمة تدور حول هاتين الحالتين او تتوسط المعتقد الذي يرى في الايمان بعقيدة العالم الذي يوجد تحت الارض وبعيد عن النور الحسي والمعتقد الذي يؤمن بعقيدة الخلود بعد الموت وبعد ان يذهبوا الى الهاوية ثم ينجو منهم في اخر الزمان من يدينون بالاله الحق .

وفي التاريخ القديم لم نعرف ان امة من الامم تطهرت عندها فكـــرة المعتقد الديني وتوشك ان تكون توحيدا خالصا وايمانا بعالم اخر هو عالـم الخلود والحياة الباقية وفيه يتلقى كل انسان الحساب والجزاء ليفرق الرب الاله بين الابرار والاشرار مثل « مصر القديمة » .

ولقد وصلت العقيدة الدينية في مصر قمة من النقاء في عبادة (اتون) التي دعا اليها اخناتون منذ ثلاثة وثلاثين قرنا ، ويكفي مثلا في قضية الاصالة الدينية والسبق بفكرة التوحيد عند المصريين دون ما تقدير لدعوى الزيف التي يجترها البعض من تعلق الشعب العبري والمصادر الاولى للجماعـات اليهودية بفكرة التوحيد والدعوة اليها ما جاء على لسان اخناتون في الانشودة التي ترنم فيها بالشمس رمزا لمصدر الوجود كله في مصر وغيرها والتـــي يقول فيها عن دين اتون الاله الواحد :

« انك تشرق جميلا في افق السماء .
يا آتون الحي يا بدء الحياة .
ملأت كل بلد بجمالك وحميتك .
انك جميل . انك عظيم .
انك تتلألأ عاليا فوق كل بلد .

ان اشعتك تحيط بالاراضي كلها وبكل شيء خلقته لانك رع وتستطيع الوصول الى نهايتها .

وتستطيع ان تجعل كل بلد اسيرا لك .
انك الاله الذي دان الجميع بحبك .
انك ناء ولكن اشعتك على الارض
انك تشرق على وجوه الناس
ولا يستطيع احد ان يتكهن بسر قدومك
حينما تغيب في افق السماء الغربي
اظلمت الارض واصبحت تبدو كأنها ميتة
فيستقر الناس في حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم
وانخفض صوت زفيرهم
ولا ترى عين عينا اخرى

ويتسلل اللصوص الى المنازل
ويولون الفرار دون ان يتنبه احد اليهم
اما السباع فهي تخرج من عرائنها
والثعابين تنساب وتلدغ
ويخيم الظلام ويعم الارض السكون
عندما يذهب خالقها ليستريح في افقه الغربي

***

واذا اصبح الصباح تشرق متألقا في الافق
وعندما تضيء كأتون اثناء النهار
تبدد الظلام ويستيقظ كل من القطرين مهللا
ويصحو الناس ويقفون على اقدامهم
لانك انت الذي توقظهم
فيغتسلون ويلبسون ملابسهم
وترتفع أذرعتهم مستعدين لشروقك
ثم ينتشرون في الارض يباشر كلّ منهم عمله
اما الماشية فهي فرحة في مروجها
والاشجار والنباتات فهي تزدهر
والطيور فهي ترفرف تاركة اوكارها
وتسبح اجنحتها بحمدك
وتقفز الحملان على اقدامها
وكل ما يطير او يحط تهتز اعطافه
لانك تشرق من اجله
وتبحر السفن شمالا وجنوبا
وتعج الطرق بالناس
اما الاسماك في النهر فهي تقفز امامك
ان اشعتك تنفذ الى اعماق البحر
انك تعطي الحياة للجنين في احشاء النساء
وانك تصنع من النطفة الرجال
وانك انت الذي يعنى بالطفل في بطن امه

وتسكن روعه فلا يبكي
انك بمثابة المربية للجنين وهو لا يزال في بطن امه
انك تهب نسيم الحياة لكل انسان خلقته
اذا خرج الجنين من بطن امه
جعلت من ذلك يوم ولادته
ثم تفتح فمه ليتحدث
وتدبر ما يحتاج اليـه
واذا صاص الفرخ في بيضته
فانك تهبه الهواء ليبقيه حيا
ثم تمده بالقوة ليثقب بيضته
ويخرج منها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة
ويسعى على قدميه اذا خرج منها

★★★

ما اكثر مخلوقاتك
وما اكثر ما خفي علينا منها
انت اله يا اوحد ولا شبيه لك
لقد خلقت الارض حسبما تهوى انت وحدك
خلقتها ولا شريك لك
خلقتها مع الانسان والحيوان كبيرة وصغيرة
خلقتها وكل يسعى على قدميه فوق الارض
وكل ما يحلق بجناحيه في السماء
خلقت بلاد سورية والنوبة ومصر
واقمت كل انسان مكانه
ودبرت لكل انسان ما يحتاج اليه
وجعلت لكل منهم ايامه المعدودة
لقد تفرقت السنتهم باختلاف الوانهم
كما اختلفت اشكالهم والوان اجسادهم
لانك انت الذي يميز اهل الامم الاجنبية

★ ★ ★

لقد خلقت النيل في العالم السفلي

ودفعت به الى اعلى حسب مشيئتك
ليحفظ اهل مصر احياء
وذلك لانك انت الذي خلقتهم لاجل نفسك
وانت سيدهم جميعا الذي يشغل نفسه من اجلهم
انت يا شمس النهار
يا عظيم في جلالك

* * *

انت الذي يعطي الحياة لكل البلاد الاجنبية البعيدة
لقد جعلت نيلا يهبط اليهم من السماء
وجعلت له امواجا تتدافع على الجبال كالبحر
لتروي حقولهم التي في قراهم
ما اعظم تدابيرك يا سيد الابدية
وهبت نيل السماء لشعوب الجبال
فاحييت حيوانها وكل من يسعى فوق اقدامه
اما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلي

* * *

تغذي اشعتك كل حديقة
ويحيا وينمو كل نبات اذا ما اشرقت عليه
لقد خلقت الفصول تحيي مخلوقاتك
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك
ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق فيها
حتى ترى كل ما صنعت
وذلك عندما كنت وحيداً
انت الوحيد الذي يشرق في صورته كاتون الحي
ساطعا متلألئا رائحا وغاديا
لقد خلقت من نفسك تلك الاشكال التي تعد بالملايين
مدنا وقرى وقبائل وجبالا وانهارا
كل العيون ترنو اليـك

لانك انت آتون الذي يشرق في النهار على الارض

★ ★ ★

وحينما تغيب
وكل الخلق الذين امددتهم بالحياة
لكي لا تجد نفسك وحيدا
يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما خلقته
انك في قلبي
وليس هناك من يعرفك
غير ابنك (نفر خبروع ـ راع ان رع) (اخناتون)
انك انت الذي ثقفته بتدبيراتك وقوتك
انك انت الذي امددته بالحكمة

★ ★ ★

انت الذي صنعت الدنيا بيدك
وخلقت الناس كما شئت ان تصورهم
اذا ما اشرقت عاش الناس
واذا ما اغربت ماتوا
انك انت الحيـاة
ولا يحيا الناس الا بـك
تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب
فاذا غربت في الافق الغربي
ترك الناس اعمالهم كلها
ولكن عندما تشرق ثانية
يزدهر كل شيء لاجل الملك
لانك انت الذي خلقت الارض
وانت الذي خلقت الناس لاجل ابنك
الذي ولد من صلبـك
ملك مصر العليـا ومصر السفلـى
الذي يحيـا في الحـق

سيد الارضين اخناتــون
الذي يحيــا الــى الابـــد

★ ★ ★

وهذا الانموذج وغيره كثير من صور عقيدة التطهر والنقاء التي دعـا اليها اخناتون وتعبد بها وتقرب الى الاله الواحد هي التي حدت بالعلمـاء المحدثين من امثال برستيــد وويجال والاستــاذ آلان جاردنر ان يقــرروا ويذهبوا كما ذهب برستيد مثلاً في (فجر الضمير) انه بالمقابلة بين صلوات اخناتون والمزامير المنسوبة الى داود تتأكد فكرة الاصالة والسبق الوجداني والتطلع بالرؤية وعمل الضمير عند المصري قبل غيره من الاجناس والامم .

ونستطيع بمقابلة بسيطة مثلما ذهب برستيد بين صلوات وادعيــة اخناتون وبين المزامير المنسوبة الى داود ، المفترض فيه حتى مــن وجهــة نظر المعطيات الاسرائيلية انه الملك النبي المجدد والمتطهر في فكــر العقيــدة الدينية يقوم بدوره الداعي في المجتمع الاسرائيلي عبر التاريخ .

فمثلا يقول اخناتون محاولا الادراك والتعلق بعظمة الــذات الالهيــة التي لا حد لها ولا نهاية ، هذه الذات التي لم تعد عند اخناتون منحصرة في وادي النيل بل بين الجميع وفي العالم اجمع .

« بهاء « اتون » وقوته العالمية تشرق وتضيء »
انت تبزغ بجمالك في أفق السماء
انت يا اتون الحي الذي كنت في ازلية الحياة
فحينما كنت تطلع في الافق الشرقي
كنت تملأ كل البلاد بجمالك
انت جميل وعظيم ومتلألىء ومشرق فوق كل ارض
واشعتك بالارضين حتى نهاية مخلوقاتك
انت (رع) وانت تخترق حتى نهايتها القصوى ـ يعني الارضين ـ
وانت توثقهم ـ يعني البشر ـ لابنك المحبوب (الفرعون)
ورغم انك قصي جدا فان اشعتك فوق الارض
ورغم انك تجاه البشر فان خطواتك خفية (عنهم)



وتمضي التعاليم والصلوات الاخناتونية تناجي كل ما في صور الكون المرتبة ثم التضرع والابتهال للاله بالعجز امام عظمة الخالق مما في الكـون مما لا يدرك سره اخناتون وهذه الادعية والتعاليم التـي شملـت صـورا عديدة تتحدث عن الشكر للاله والارتباط بقدرته والتعلق به هـي التـي جعلت واحدا كالاستاذ العالم العظيم (برستيد) يقرر بعد ان راى فجـر الضمير ينبع ويشنع على شعوب العالم القديم من قلب مصر « ان ما دون في مزامير داود مما تسبه الاسرائيليون اليه هو ما نقله الحكماء الاسرائيليون الذين كانوا يطلعون على أسرار المحاريب في مصر » .

فمثلا من الممكن ان نلمح من بين الاناشيد التي يصلي بها اخناتـون مصدرا ومراجعا لكثير من آيات المزامير .



يقول اخناتون عن « الليل والانسان » :

وحينما تغيب في افق السماء الغربي فان الارض تظلم كالموت
فيناموت في حجراتهـم
ورؤوسهم ملفوفـة
ومعاطسهم مسدودة
ولا يرى انسان الآخر
في حين ان امتعتهم تسرق
وهي تحت رؤوسهم
وهم لا يشعرون بذلك



وفي نفس المعنى وقريب من هذا الروح تقول الآيات من المزمور ١٠٤ :
« صنع القمر للمواقيت ، الشمس تعرف مغربها ، تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان الوعر » .



ويقول اخناتون عن « الليل والحيوان » :

وكل اسد يخرج من عرينه ليفترس
وكل الثعابين تنسلب لتلدغ
والظلام يخيم
والعالم في صمت
في حين ان الذي خلقهم في افقه

★ ★ ★

وفي نفس هذا المعنى وقريب جداً من نفس هذا الروح تقول الآيات من المزمور ١٠٤ :

والاشياء تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها .

ويقول اخناتون عن « النهار والانسان » :

الارض زاهية حينما تشرق في الافق
وعندما تضيء بالنار مثل اتون
فانك تقصي الظلمة الى بعيد
وحينما ترسل اشعتك
تصير الارضان « مصر » في عيد
والناس يستيقظون ويقفون على اقدامهم عند ايقاظك لهم
وبعد غسلهم لاجسامهم يلبسون ثيابهم ثم يرفعون اذرعتهم تعبدا لطلعتك
ثم بعد ذلك يقومون الى اعمالهم في كل العالم

★ ★ ★

وفي نفس هذا المعنى وقريب جدا من نفس هذا الروح تقول الآيات من المزمور ١٠٤ :

« تشرق الشمس فتنصرف وفي مآويها يربض الانسان يخرج الى عمله والى شغله في المساء » .

ويقول اخناتون عن « النهر والمياه » :

والسفن تقلع في النهر صاعدة
او منحدرة فيه على السواء

وكل فج مفتوح لانك اشرقت
والسمك يثب في النهر امامك
واشعتك تنفذ الى وسط البحر
الاخضر العظيـم

وفي نفس هذا المعنى وقريب جدا من نفس هذا الروح تقول الآيـات من المزمور ١٠٤ :

« هذا البحر الكبير الواسع الاطراف هناك دبابات بلا عـدد صغـار حيوان مع كبار هناك تجري السفن ، تجري السفن لوياثان هـذا خلقتـه ليلعب فيه كلها ، اياك تترجى لترزقها قوتها في حينه ، تعطيها فتلتقط ، تفتح يدك فتشبع خبزا ، تحجب وجهك فترتاع ، تنزع ارواحها فتموت والى ترابها تعود ، ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الارض .

وتمضي ادعية وصلوات اخناتون لتشتمـل على بعض رؤي هـذا العبقري العظيم والى ان تصل الى الصورة التي ملأت مشاعـره وقلبـه عن « الخلق العالمي » فيقول :

وانت خالق الجرثومة في المرأة والذي يذرا من البذرة أناسا
وجاعل الولد يعيش في بطن امه
ومهدئا اياه حتى لا يبكي
مرضعا اياه حتى في الرحم
وانت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل انسان خلقته وحينما
ينزل من رحم امه في يوم ولادته
فانت تفتح فمه كليـة
وتمنحه ضروريات الحيـاة



وحينما يصير الفرخ في لحاء البيضة
فانت تعطيه نفسا ليحفظ حيا في وسطها
وقد قدرت له ميقاتا في البيضة ليخرج منها

وهو يخرج من البيضة في ميقاته الذي قدرته له فيصبح ويمشي على رجليه حينما يخرج منها .

★ ★ ★

ما اكثر متعدد اعمالك
انها على الناس خافية
يا ايها الاله الاوحد
الذي لا يوجد بجانبه اله آخر
لقد خلقت الارض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيدا لا شيء غيرك
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان
وجميع ما على الارض
مما يمشي على رجليه
وما في عليين مما يطير باجنحته
وفي الاقطار العالمية سوريا
وكوشي وارض مصر
فانك تضع كل انسان في موضعه
وتمدهم بحاجاتهم
وكل انسان لديه قوته
وايامه معدودات
والالسنة في الكلام مختلفة
وكذلك تختلف اشكالهم وجلودهم
لانك تخلق الاجانب مختلفين

★ ★ ★

ومن عجب ان الجزء الاكبر من الاناشيد والادعية والصلوات الاخناتونية التي جادت بها روح ومشاعر اخناتون العظيم وتطهرت بقلبه ووجدانه حين يتحدث عن ري الاراضي في مصر وخارجها وعن فصول السنة وعن السيطرة العالمية لروح الكون العظيم وعن الرعاية العالمية على

يد سر الكون لا نجد انه قد امكن للمسجلين الاسرائيليين ان يكونوا في تقلهم لاسرار الدين في مصر محافظين على صور النقاء والتطهر التي كانت تفيض من الروح المصري ، فالسياق العام للمزامير وكما سبق وأن قررنا قبل ذلك يرتبط بحوادث وظروف مرت بها الجماعات الاسرائيلية واليهودية وكانت تقص روايات او تتوقع نبوءات او تنبه لمحذور او تسوق دعوى ولم تكن آيات المزامير في مجموعها صادقة تماما في تأثرها بالفكر التوحيدي الذي بشر به المصريون منذ عصر اخناتون ، وظل للمصريين سبقهم الروحي في مجال اعمال الضمير في تعلقه بالفطرة ونشدانه للحقيقة التي ناجاها اخناتون وارتبطت بها روحه وجاشت بها مشاعره .

وامر العقيدة الدينية قديما كان يختلف حاله من مجتمع لآخر ومن امة عن غيرها فبينما يصل الحال الديني بدعوة اخناتون من مجرد عقائد محلية وبيئية الى هذه المحاولة العالمية التي جرد اخناتون نفسه وروحه وقلبه لها منذ أقل تقدير علمي ٣٣٠٠ سنة تقريبا نرى نموذجا آخر للعقيدة الدينية في مسرح تناوبته في الوجود السياسي والاجتماعي الحضارة الآشورية والبابلية وكان المسرح الذي جرت عليه صورة من صور العقيدة الدينية في العالم القديم في المنطقة العظيمة التي تسمى بأرض الرافدين او ما بين النهرين ، وعلى نهجنا في النظرة النقدية فما هي الصورة العقائدية التي كانت عليها الحضارة في كل من آشور وبابل لنرى من خلالها هل حقا صادقة دعوى السبق اليهودي في الاستجابة لعقيدة التوحيد وهل هذه الدعوى حقيقة دينية وتاريخية وحضارية ؟!

من المعتقد الديني قبل اليهودية :

نؤثر ان نقتصر الحديث في المعتقد الديني قبل اليهودية على نموذجين هما صورة المعتقد في آشور وبابل وعلى الصورة الدينية التي اتتنا ومبلغ اجتهاد اصحاب هاتين الحضارتين فيها رغم انهما كانتا وثنيتين في تطور المعتقد الديني الراقي ومحاولة الوصول الى طبيعة الفطرة الانسانية السليمة في تعلقها وارتباطها بالقوة الكبرى التي تحكم الكون والانسان وتسيرهما . الا ان النموذجين اللذين نود أن نستطيع من تاريخهما الحضاري دراسة صورة المعتقد الديني قبل اليهودية كانا حلقة في سلسلة

من الحضارات السامية القديمة . وعليه فانه من المعقول ان نلقي نظـرة سريعة على المناخ الذي اثر في الحضارة الآشورية البابلية التي كانت تقـوم اصلا على المسرح الممتد بين ارض الرافدين او ما بين النهرين والتي اثرت بالتالي في الصورة التي كانت عليها العقيدة وخاصة ان المعتقـد الدينـي كان هو العامل المسيطر على كل اركان الحياة العامة وعلى كل مظهر مـن مظاهر الحياة وكاد الدين والمعتقد الديني ان يكون قوام الحياة ، بل لقـد ذهب بعض المؤرخين والباحثين ان الدين كان قـوام الجوهر العميق لهذه الحياة الانسانية التي كانت في هذه الحضارات ، ومـن هـؤلاء العلمـاء الباحثين في تاريخ الحضارات الاستاذ « سبتينو موسكاتي » الذي يقول :

« كانت حضارة ارض الرافدين من نمط بالغ الرقي ، يختلف اختلافا ملحوظا عن التراث السامي المشترك وحضـارة الامم السامية الاخـرى فعندما نزل المهاجرون الساميون في وادي الرافدين واجهتهم حضارة قديمة ثابتة الاركان فريدة الطابع فلم يكن امامهم بد من ان يذوبوا شيئا فشيئـا في بيئتهم الجديدة على الرغم من انهم اسهموا بنصيب من الحضارة بحمل طابع حياتهم الاولى . وكان معنى هذا ابتعادهم شيئا فشيئا عن احـوال العيش والحضارة التي كانت تحيط بالشعوب السامية الاخـرى ، تلـك الشعوب التي لم ينتقل أي منها ما عدا الاثيوبيين الى بيئة تختلف جغرافيا وتاريخيا عن بيئته الاولى قدر اختلاف البيئة التي نزحوا منها .

واهم ما يميز الحضارة البابلية الآشورية اذا قورنت بالنظم السامية الاصيلة هو انتقالها من البداوة الى حياة الاستقرار . فاحـوال الساميين التاريخية والحضارية كانت تتأثر تأثرا عميقا بثبوت حضارتهـم على حال واحدة عند استقرارهم في مواطن ثابتة بعد ان كانت حضارة متقلبة وصور تكيفهم بيئتهم الجديدة كانت تحددها صلاتهم بالشعوب الاخرى .

وكان السومريون هم الشعب غير السامي الذي اختلط به الساميون المتنقلون من البداوة اكبر الاختلاط وكان اولئك السومريون قد بلغوا من الحضارة مبلغا يسمو كثيرا على ما بلغه الوافدون الجدد . وكان استيعاب الساميين لعناصر الحضارة السومرية متصلا واسع النطاق الى حد صارت معه جوانب عدة من الحضارات البابلية الآشورية تعتمد اعتمادا مبـاشرا على تلك العناصر ولم تتح لنا معرفة النصوص السومرية والقـدرة علـى

تفسيرها الا منذ عهد قريب وكلما ازدادوا علما بما في هذه النصوص ازداد وضوحا ان كثيرا من تقاليد الاكديين وافكارهم ليست خاصة بهم وحدهم وانما هي نتاج تركيب جديد للعناصر السومرية والحق ان الاكديين وهم يستوعبون الحضارة السومرية اظهروا روحا ونظرة خاصتين بهم ولكنهم كانوا أسرى لسحر حضارة السكان القدماء وهي اسمى من حضارتهم وأكثر اصالة وكانوا في ذلك كما كانت روما بالنسبة الى اليونان .

وما ان نشأت الحضارة البابلية الآشورية نتيجة لعملية الاستيعاب المعقدة حتى اخذت هي ايضا تؤثر تأثيرا بعيدا في جميع المناطق المحيطة بها فاصبحت ارض الرافدين مركزا حضاريا انتشرت منه الافكار الكونية والاسطورية والعلمية وان جانبا كبيرا من أدب الشعوب السامية الاخرى وعلدأتها صدى مباشرا لصوت ارض الرافدين ولم تقتصر افكار ارض الرافدين على العالم الثاني وانما تغلغلت في آسيا الصغرى وبلغت بلاد اليونان نفسها ، وتدل الدراسات الحديثة دلالة تزداد وضوحا يوما بعد يوم على ان الحضارة اليونانية رغم اصالتها في جملتها تدين بكثير من افكارها لشعوب ارض الرافدين ، والجوانب التي سنتناول منها الحضارة البابلية الآشورية هي الدين والادب والقانون والفن وليست هذه الجوانب وحدات متميزة منفصلة تماما وانما هي متداخلة تؤلف معا وحدة مركبة ، وهذه ظاهرة طبيعية في الشرق الادنى القديم حيث لم تكن هذه الجوانب من الحضارة واضحة التمييز كما هي في عالمنا الحديث فلم يكن يفرق عندئذ مثلا بين الادب الديني والادب الدنيوي او بين القانون المدني والقانون الديني .

وكان الدين هو العامل المسيطر في ركن من اركان الحياة الانسانية وكانت نظرة الرافدين الى الادب والقانون والفن هي نظرة الشرق الادنى كله قديما فلم يكن ينظر اليها الا في نطاق الدوافع المتغلغلة في مظهر من مظاهر الحياة فكانت قوام الجوهر العميق لتلك الحياة ولعل هذا ابرز خصائص الحضارة في الشرق الادنى القديم فكان الدين خلاصة القيم الانسانية ، اما التأمل الفلسفي المستقل والابداع الفني فلم يتيسر الا بعد ذلك على يد اليونان .

وطابع التوفيق بين الاشياء المختلفة الذي يميز حضارة ارض الرافدين

لا يتجلى في شيء كما يتجلى في نظمها الدينية ، فآلهتها السامية هي الى حد كبير آلهة سومرية تقبلها الغزاة المنتصرون مع بعض التعديل وهي ظاهرة تتكرر كثيرا خلال التاريخ هذا الى ان الالهة البابلية والآشورية نفسها امتزجت وتفاعلت بعد ذلك بعضها ببعض بتغير الازمان والاحوال السياسية في ارض الرافدين والدين الاكدي وافر الالهة وخصائص آلهته من نوع مماثل لخصائص الانسان لا تختلف عنها الا انها اكثر كمالا وتجديدا ولباس الآلهة كلباس البشر ولكن ثياب الآلهة أبهى من ثياب الامراء ويصدر عنها بريق يخطف الابصار .

وللآلهة أسر واسلحة وصراعها كصراع الناس ولكنه بالطبع على نطاق اعظم واهول ولعل هذه النظرة الى الآلهة أقرب الى نظرة هوميروس في اشعاره منها الى نظرة الاديان السامية كلها والدور الذي لعبته العناصر السامية في هذا كله هو كما قلنا موضع شك وهو قطعا ليس بالدور الكبير .



وكانت الحياة اليومية التي يحياها البابليون والآشوريون تظللها دائما مخافة الشياطين وكانت هذه الشياطين مخلوقات عجيبة يمكنها ان تتشكل في اية صورة وان تنفذ من اي جسم وان تتحرك في كل مكان دون ان يراها احد وكانت تفضل عامة الاماكن المهجورة المظلمة والخرائب والمدافن وكل مكان آخر يبعث على الرهبة وكانت تدل على وجودها بأصوات حيوانية تبعث الفزع الشديد في الاماكن الموحشة .

وفن ارض الرافدين وهو صورة صادرة لحياة الشعب غني بصور الشياطين وهي تجمع عادة بين أجسام الانس ورؤوس الحيوان او تربط بين أعضاء حيوانات مختلفة على نحو رهيب .

وكانت الشياطين في الغالب ارواحا شريرة صعدت من جوف الارض وكان بعضها أرواح الذين لم يدفنوا في قبور فكانوا يهيمون من مكان الى مكان لا يهدأ لهم قرار وينتقمون لانفسهم على مصيرهم التعس بمهاجمة البشر ومضاعفة الكوارث .

وان ابرز ما يميز السيكولوجية الدينية لارض الرافدين فيما يتعلق بالشياطين هو انه كان ينظر الى الانسان على انه لا عاصم له فعلا فحتى المرء الذي يحيا حياة طاهرة ولا يسيء الى اله من الآلهة يمكن ان يقع فريسة لمكانة ساحر شرير او ان يتصل عن غير قصد بكائن او شيء نجس فالانسان يمكن ان يكون ضحية بريئة لقوى شريرة وان مثل هذه النظرة المؤلمة في التشاؤم لتدل على ضعف كبير في الافكار الخلقية . وعلى انعدام الايمان بجزاء عادل في حياة اخرى على ما تقدمه من اعمال في هذه الدنيا .

ولكن كانت الخطيئة اقرب الطرق التي يستطيع بها الشيطان دخول جسم الانسان وكانت الخطيئة صنوفا عدة كاهمال الطقوس الدينية والسرقة والقتل ، ولم يكن ثمة تمييز بين الذنوب الخلقية والذنوب المتعلقة بالطقوس الدينية فكان ينظر اليها كلها على انها من نوع واحد وذلك بسبب الدور الغالب الذي كانت تلعبه الافكار الدينية في نظام الحياة اليومية كلـه .

وكان المرء اذا اذنب ينبذه الاله الذي يظلله بحمايته فيصير الطريق مفتوحا امام الشياطين فتنتهز هذه الفرصة للدخول في جسد الانسان وما يلبث وجودها فيه ان يعلن عن نفسه بظواهر كريهة مختلفة كالاصوات تتردد في البيت ولفحات الريح والرؤى المفزعة .

ولكن كان المرض اشيع مظهر لوجود الشيطان في جسم الانسان وانما كان شيطان الحمى اهون الشياطين عند اهل الرافدين وكانت له راس أسد واسنان حمار واطراف نمر او قط وكان صوته كصوت النمر الارقط والاسد ، وكان يمسك بيديه افاعي هائلة وكان كلب اسود وخنزير يداعبان ثدييه وهكذا كان المريض صاحب اثم وكان مرضه راجعا لوجود الشيطان في جسمـه .

وكان من الطبيعي ان يصل الطب في ارض الرافدين من هذا الى ان علاج المرض هو طرد الشيطان وفي سبيل هذا الغرض كانت تتبع اجراءات مفصلة معقدة فكان على المريض اولا تعيين الشيطان الذي سبب له المرض . وهنا يجد العون من الافكار السائدة فاسماء الشياطين التي تقيم في أجزاء الجسم كانت معروفة منذ وقت طويل واولها اشكو شيطان

المراس الذي كان يسبب الصداع ، وكان سكان البلاد يخشون الصداع خشية بالغة فاذا ظلت حقيقة الشيطان موضع شك عمد الى تدبير احتياطي وهو ان يتلو المريض اعترافا طويلا بالآثام التي قد يكون اقترفها فيتأكد ذكره للاثم الذي ارتكبه فعلا .

وكان من الضروري بعد ذلك طرد الشيطان وكان يتولاه كاهن متخصص لهذا الامر وذلك بالرقى والاعمال السحرية التي تتطلبها الحالة .



وكانت طقوس ارض الرافدين بالغة التعقيد تشتمل على تفصيلات محددة في صرامة ودقة وهذا يدل على مدى تطور الناحية الشكلية من الدين كما يبين في الوقت نفسه سيادة الدين المطلقة في كل جانب آخر من جوانب الحياة الاجتماعية .

وكان تقديم القرابين اشيع الطقوس الدينية واغلبها في الاستعمال وكانت القرابين تقدم لاغراض مختلفة للتكفير عن الذنوب او اكتساب رضا اله من الآلهة او تدشين معبد جديد او تمثال جديد هذا عدا القرابين العادية التي كانت تقدم كل يوم في المعابد في أوقات محددة .

وكانت القرابين في الغالب من الحيوانات والسوائل وكان الجمل والجدي اكثر الحيوانات استعمالا في هذا الصدد وكان النبيذ والجعة واللبن والعسل والزيت اكثر السوائل استعمالا وكان القربان من الاضاحي او غيرها يوضع على مذبح امام تمثال الاله او الآلهة ويبدأ الحفل الديني بالصلوات تصحبها بعض الطقوس العملية والرش بالماء المقدس وكانت اجزاء معينة من القرابين مخصصة للاله او الآلهة تسكب او تحرق تكريما له او لها وكانت أجزاء اخرى تؤول الى الكهنة ويرد الباقي الى صاحب القربان .

وكان هناك فيما يبدو كهنة مخادعون يجنون الربح من غير جهد بالاستيلاء على القرابين التي يؤتى بها اليهم واحلال قرابين اخرى اقل

قيمة محلها وكانت المعابد تتلقى مقـادير كبيرة من السلع المختلفـة الانواع وكانت ادارة هذه السلع مسألة معقدة كما يتبين من سجلات الحسابـات التي كشفت بين الآثار .

وكانت المبالغة في مراعاة الطقوس تنعكس ايضا في التقويـم المقـدس ــ وكان يضبط ايضا ــ بطائفة كبيرة من القواعد المفصلة فكانت ايام السنة تقسم الى ايام مؤاتية واخرى غير مؤاتية وكان اداء الاعمال العامة والخاصة المختلفة في ايام معينة يصرح به او يحرم وفق هذا التقسيم .

وكانت الاعياد الدينية هي اعياد الآلهة وكان الناس يشاركون فيهـا بالمسرات والطقوس ، وكانت اهم هذه الاعياد اعياد الآلهة حمـاة المـدن المختلفة وكان من ابرزها عيد العام الجديد في مدينة بابل وكان هذا العيد يشمل احتفالا مهيبا يبدي فيه الملك خضوعه للاله وكانت وفود ضخمـة من الحجاج تهرع الى المدينة في كل عيد والاله ينعـم بالقـرابين والنـاس بالمآدب وكانت ترسل دعاء بعد دعاء الى مزدك الاله الاسمي للمدينة وكـل المنطقة التي سادت فيها الدولة البابلية الاولى . وفي ذلك اليوم كان الاله يقرر في احتفال مهيب مصائر الدولة طوال العـام الـذي يستهلكه ذلـك اليـوم .

وكانت تصحب الصلوات حركات مختلفة فكانت تجري عادة وقوفا امام الاله مع رفع اليد اليمنى ويبدو ان عادة الصلاة مع مد الكفين مفتوحتين نحو الاله من اصل سامي .

وكانت هناك صلوات عامة واخرى خاصة ومن الطبيعي ان تكـون الصلوات الخاصة اكثر تفصيلا واشد اصطباغا بالجوانب الشخصية وان يكون للصلوات العامة اسلوب اعم واكثر ايغالا في النواحي الشكلية .



ورغم ان حقائق التاريخ المتعلق بمنطقة غربـي آسيـا في العصـور القديمة والتي نشط شعوبها حضاريا في منطقة الرافدين بالذات وكـانت تتمدد في نشاطها بحكم الموقع الجغرافي لتكون علـى مبـاشرة من المحيـط

الهندي وايضا لتكون على ارض جبال ايران وارمينيا وفي اتجاه حوض البحر الابيض المتوسط لم يقتصر النشاط الحضاري على الوجود البابلي والآشوري على حدة فان هناك من بناة الحضارة والتاريخ في ارض ما بين النهرين شعبين ينتميان الى أصلين مختلفين ولكنهما ابدعا حضاريا وتركا من الآثار الفنية والادبية الشيء الكثير ونعني بهما الشعب السومري والشعب الاكدي اللذين عاشا مختلطين ببعضهما الى حد كبير فكانت حضارة الرافدين وتاريخها نتاج شعب مركب ليس من اليسير في كثير من الاحيان ان يوضح البحث العلمي الفرق بين العنصرين اللذين يتألف منهما ولقد كان هذا باعثا للعلماء والباحثين ان يطلقوا اصطلاحا اسم (أكد) والاكديون على ما يعرف بالبابليين (والآشوريين) واصبح اسم الاكديين اسما جامعا للبابليين والآشوريين وهو نسبة الى أكد وايضا أصبحت تطلق اكد هذه على :

(١) الدولة السامية Ak-ka-du-u التي اسسها سرجون Suarriken الملك الشرعي في الجزء الشمالي من ارض بابل حوالي ٢٣٥٠ ق.م. بعد ان قضى على سلطان السومريين في جنوب ارض الرافدين وهي اول دولة سامية شهدتها تلك البلاد .

(٢) المدينة A.G.A.D.E. التي بناها سرجون بالقرب من كيش Kich (تل الاحيمر) وسبر Sipar (ابو حبة) لتكون مقرا لدولته ولا يعرف مكانها على وجه اليقين وتذكرها التوراة في سفر التكوين ١٠ : ١٠ (أكد) .

(٣) المنطقة Mat Skkadi المتدة حول مدينة اكد سميت المنطقة باسم عاصمتها ومنطقة اكد هي الجزء الشمالي من ارض بابل وسومر هي الجزء الجنوبي ، وفي العصر البابلي المتأخر (العصر الكلداني) اطلق اسم أكد على بلاد أكد وسومر معا .

واللغة الأكدية اسم جامع أطلقه البابليون على لغتهم البابلية ولغة اخوانهم الآشوريين معا . وهي كذلك في اصطلاح العلماء المحدثين يطلقونها على اللهجات البابلية والآشورية المختلفة فاذا أرادوا التمييز قالوا البابلية القديمة والآشورية الوسطى .

واللغة الاكدية القديمة Old Akkadiua هي لغة دولة اكد الاولى خاصــة .

★ ★ ★

اقول ورغم الصورة الدينية التي كانت عليها حضارات ما بين النهرين وهي حضارة كشأن كل الحضارات القديمة قائمة على علاقات التنــاقض ولا شك الا اننا نود بالاتيان على صور العقيدة الدينية القديمة وما يتعلــق بها ان نثبت ونؤكد انه ليست الجماعات الاسرائيلية واليهوديــة وحدهــا التي كانت في التاريخ اول من تعمق بالعقيدة الدينية وحاول التطهر بهــا وهذا هو ما دعانا الى ان نلقي نظرة على العقيدة الدينية القديمة .

ونستطيع مثلا ان نلمس دور العقيدة الدينية في حياة شعوب منطقة الرافدين ولتكون ايضا هذه الصورة دليلا على ان افكار النقاء الديني رغم مراحل الوثنية الاولى لم تكن حكرا على بني اسرائيــل وحدهم بل كانــوا ناقلين ومتأثرين بغيرهم ، فمن هذه الصورة نرى انه حتى الادب والسلوك العام كان لا يخلو من مسحة دين وعقيدة حياة .

ولقد وصل التأثر بالعقيدة الدينية عند اصحاب الحضارات القديمة الى حد محاولات تطهير الفكرة الدينية في العصور الوثنية .

فالشعر الغنائي في ارض الرافدين من مزامير وصلوات تعبر في صور مختلفة عن عبادة الآلهة تلك العبادة التي كانت بمثابة الجوهر من حيــاة تلك الشعوب فنلمح مثلا هذا الروح النقي عن مثال مأخوذ مــن ترنيمــة الشمس فتقول الترنيمة :

ايه يا شمس يا ملك السماء والارض
يا من توجه كل شيء في عل وسافل
يا شمس ان بيدك اعادة الميت الى الحياة
وتحرير الاسير من قيــده
انك قاض لا سبيل لافساد ذمته
ومرشد لبني الانســان

وابن رائع للاله نمرصت
ابن عظيم القوة والنبل
نور البلاد
وخالق كل ما في السموات وما في الارض
هذا هو انت يا شمس

★ ★ ★

هذه الصور من العقيدة الدينية التي اتينا عليها ولم نشأ ان نتعرض لدقائق التفاصيل تقدم ولا شك بالدليل ما يثبت أن محاولات الانسان الدينية كانت دائما هي ان يترقى بمعتقده الديني من مرحلة الوثن الى الرمز كي يصل الى اعماق فطرته وسلامة المعتقد المنزه الذي تتعلق به نفسه وهذه الصور تقول لنا أن الجماعات العبرية والتي لم تكن تستقر في ارض بعينها ولا وطن بذاته لم تكن تمثل اصالة في الطبع او المعتقد وكل ما اعتقدته وتعلقت به قبل مسخها وتشويهها للرسالة الدينية حين جاءت كان يخالف السنن المطردة التي تشيع وتكاد تكون ظاهرة عامة فيالمجتمعات القديمة وهي محاولات تعلق اصحاب الحضارات القديمة بأفكار التطهر والنقاء بعد مراحل الوثنية والرمز وكان امر الجماعات العبرية او الاسرائيلية بعد عصر يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام انهم يتعلقون نفسيا ويرتبطون عاطفيا بمعتقدات تتفق وظروف جماعات قلقة حائرة لا تستقر في ارض بعينها ولا تأمن لجماعة ولا تسالم شعبا ولا تأنس لخير ولا تبارك سلاما فلننظر العقيدة الدينية المدعاة للجماعة التي زيفت التاريخ وشوهت العقيدة الدينية .

المعتقد الديني عند اليهود القدماء :

لئن كان اليهود او جماعات اسرائيل مثلهم في امور العقيدة الدينية مثل غيرهم من الامم والشعوب التي دانت بعبادة الاوثان وتعلقت بظواهر الطبيعة فانها ظلت متعلقة بعبادة الاوثان وانحصر معتقدها في امور تتعلق بالحس والحاجة اليومية التي كانت تعبر عن رغبة القوم في استغلال المعتقد

الديني ليظل اداة في ايدي البعض ضد البعض الآخر ليتيسر خلق مجالات للسخرة والسيطرة عن طريق الشعائر وامور العبادة .

وبينما سارت شعوب وامم كثيرة في طريق المعتقد من مرحلة الارتباط بعبادة الاوثان والكواكب وظواهر الطبيعة والطواطم الى الارتقاء بالفكرة الدينية والتطهر بها فان الجماعات اليهودية والاسرائيلية منذ حملوا ميراث الجماعات العبرية التي كانت تنتجع البادية وتنتقل من مكان لآخر طلبا للقوت والكلأ وهم على ما هم عليه من تعلق بالافكار الوثنية وعبادة الحس المرتبطة بأمور الحياة اليومية .

ولقد بقيت في القوم منذ عصر العبرانيين عبادة الاوثان والتعلق بصنع التماثيل المتعبد بها والمغالاة في اساليب البيع والشراء لادوات العبادة الطوطمية المتخذة من الحديد والحجر .

ومنذ دعوة النبي ابراهيم عليه السلام وظهور الانبياء من بعده حتى عصر النبي موسى عليه السلام لم ترتق العقيدة الدينية عند الجماعات الاسرائيلية اليهودية الذين حملوا الميراث الاخلاقي المرتبط بخلق السطو والاغارة من العبرانيين ومعتقد الاله عند القوم لم تخلع عليه الصفات الراقية المتطهرة المنزهة التي نلمحها في معتقدات امم كثيرة كالتي اشرنا اليها مثل مصر التي كادت ان تكون موحدة في عصر اخناتون وآشور وبابل التي اوشكت كل واحدة منهما رغم وثنيتها ان ترتقي بطريقة التعبد وممارسة السلوك الديني حتى نكاد نلمح مسحة من تطهر ونقاء ديني نفتقده تماما في تراث اليهود وتاريخهم .

فالاله في العقيدة اليهودية يقوم بأعمال الانسان وحركاته بل انه يأكل ويشرب ويصارع التنين هو عندهم تارة يهوه الذي يقصد بالتعلق به ضمير الغائب وهو ايل القوي وعقيدة يهوه عند الجماعات اليهودية وخاصة ايام موسى ــ على حد رواية التوراة ــ انه اله يكيد لهم وينصب الفخاخ ويضللهم ويغرر بهم بل انه غير راض عن وجودهم في مصر ولذا فانه يتمنى هلاكهم بعيدا عن ارض وادي النيل .

ومن عجب ان العقيدة عند الجماعات اليهودية سواء المتعلقة بيهوه او

المرتبطة بايل هي من قبيل ربوبية السيادة والسيطرة والتسلط ولم تكن فكرة الخالق هي التي تحدد نوع علاقاتهم بالمعبود وانما الذي يربطها بالمعتقد هو ولاؤه له من بين المعتقدات الاخرى لارباب العشائر والقبائل او الامم من عدمه .

ولم يكن غير صواب عند القوم ان تتعدد الارباب من موطن لآخر لانهم لا ينكرون الارباب التي تدين بها القبائل او الامم الاخرى .

ومن الملاحظ في تطور العقيدة الدينية عند الجماعات اليهودية هي الارتباط دائما بالممارسة الوثنية كوظيفة اجتماعية يقوم بها من يوكل اليه امر تقديم الذبائح وعمل القرابين ، ففي كتاب اشعيا النبي الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد ومن الاصحاح الاول اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم اصغوا الى شريعة الهنا يا شعب عمورة لماذا لي كثرة ذبائحكم . يقول الرب اتخمت من محروقات كبائش وشحم مسمنات وبدم عجول وخراف وتيوس اسر .

وتكاد ان تنعدم تماما من المصادر الدينية الاسرائيلية افكار الحديث عن اليوم الاخر وصور الخير والنعيم او العقاب والنار والعذاب ، وما ورد فيما تركه لنا تاريخ العقيدة الدينية الاسرائيلية في هذا الجانب من العقيدة لا يقدم تصورا ولا يملأ عاطفة معتقدة ولا يرضي قلبا يتعلق بالغيب ففي كتاب اشعيا من الاصحاح الرابع والعشرين عن ذلك اليوم الذي تبعث فيه الخلائق انه يكون في ذلك اليوم ان الرب يطالب جند العلاء في العلاء وملوك الارض على الارض ويجمعون جميعا كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون ويخجل القمر وتخزى الشمس لان رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي اورشليم وقدام شيوخه مجد .

ورغم هذا الجدب والعقم الديني الذي يلازم تطور المعتقد اليهودي في كل جوانب العقيدة الدينية فان هناك من وهم بان الديانة التي حملتها الجماعات اليهودية كانت اسبق الاديان الى تقرير القصص الديني والتعليق على المسائل المتعلقة بامور الغيب والارتباط بالتوحيد والواقع انه حتى عقيدة الاله يهوه الذي كان يظهر للقوم باعتباره الها خاصا بهم قد عقد معهم دون غيرهم عهدا بان لا يكون الها لسواهم من البشر وسط سحب البرق

والعواصف مستعرضا قوته وجبروته لشعبه كان لا يظهر الا ليقود القوم الى فوق تابوت العهد الذي ظل عبارة عن صندوق من الذهب يحيط به تمثالان من الذهب للكين من ملائكة السماء ومن طوائف ملائكة الكروبيم اي المقربين وكان القوم ليطمئنوا الى ان علاقاتهم بالاله قائمة ونافذة فلا بد وان يكون هذا الصندوق الذهبي والذي كان يطلق عليه تابوت العهد معهم في حلهم وترحالهم ، وكانت الجماعة من جماعات اسرائيل اذا خرجت لسفر فانما يخرج معهم تابوت العهد لتنصب له خيمة خاصة به حين يحطون رحالهم وظلت هذه العلاقة الوثنية اداة العبادة الاسرائيلية حتى كان عصر النبي سليمان الذي تقول الرواية الدينية الاسرائيلية عنه انه استبدل الخيمة بمعبد بناه في قصره .

وعلى هذا فنصيب القوم من نقاء الفطرة وسمو المعتقد بعيدا عن امور ومظاهر الحس المباشر هو الجدب والقحط .

ومن اقدم مراحل تاريخ الجماعات الاسرائيلية اليهودية منذ المصادر الاولى للجماعات العبرية لم ترتق معتقداتهم عن امور الحياة ومطالب الحس فلم يكن عندهم من فارق بين طبيعة الكائنات او القوى العلوية او الغيبية وبين طبيعة القوى او الكائنات الارضية من انسان وحيوان ، وبالتالي فلم تميز العقيدة الدينية عند القوم الفرق بين الخلق الخير والخلق الشرير ، فالشيطان يحضر بين يدي الله على الارض مع الملائكة الكائنات العلوية بكل صفاتها وطبقاتها تهبط الى الارض لتعاشر النساء من جماعات اسرائيل وخاصة البنات . والاله حين يرضى ينزل الى الارض والنزول هنا ليس معنويا بروحه او خيره او فيضه او رحمته وانما ينزل ليمشي في الحدائق يأكل اللحم والخبز ويتشاجر فيحقد وينتقم ويفعل كما يفعل كل مخلوقاته .

ومن عجب انه حين تتطور العقيدة الدينية عند القوم في النظر الى معتقد من المعتقدات لا تتحرك نحو التنزيه ابدا ، فحين تطورت عقائدهم في النظر الى الكائنات العلوية وخاصة الملائكة ظهرت بوادر التخصص في وظائف الملائكة فمنهم ملائكة مهامها في الارض ان يقوم بعضهم على الابار وبعضهم على الانهار وبعضهم للتلال والجبال والبعض الاخر يعمل في طاعة الشيطان وينتقل بين السماء والارض على هواه .

وليس في جملة العقيدة الدينية الاسرائيلية على مدى تاريخها الطويل محاولات لخلق صور اخلاقية والتبتل بها أو التعبد بتصور اخلاقي مبتكر وسياق الامر الذي جعل معظم علماء الاديان يرجعون في يسر وسهولـــة الصلوات والادعية الاسرائيلية الى مصادر تأثرت بها ونقلت عنها الصلــوات الاسرائيلية من بابل وفارس فضلا عن الوثبة الروحية التي بدأت مبكـــرة في مصر .

فبالمقارنة البسيطة نجد قصة الخليقة في العقائد الاسرائيلية والتـــي افاض فيها سفر التكوين تشابه الى حد كبير قصة الخليقة فيما تركه لنــا البابليون من ميراث عن معتقداتهم بل ان عقيدة المخلص التي ارتبطت بها عواطف الجماعات اليهودية في كثير من مراحل حياتها وتاريخها ثم تخلت عنها وكفرت بها في مراحل اخرى من تاريخها موجودة اصلا في معتقـــدات فارس .

والذي يواجه الباحث المنصف المتعلق بالحقيقة ودون تأويل او شطحات هوى واعمال لنعرة التعصب والزيف هو ان الفكرة الدينية الاسرائيلية لم تزدهر ابدا بقيم التوحيد واسلوب المتعبدين على هديه فحتى المرحلة التـــي اقترنت بدور الانبياء والمرسلين الكبار كانت في عواطف القوم وعقيدتهـــم مرحلة عادية معتقدهم فيها ما تصوره لهم ظروفهم واحتياجاتهم اليومية . ومراحل التطور توشك ان تكون معدومة وان وجدت فعلى حسب المصلحة والهوى . يوضح سفر الملوك الثاني من الاصحاح الثامن عشر كيف يساغ في عقل القوم ومنطقهم الديني ان يأتي على اسرائيل ملك من الشباب الذين لما يبلغوا مبلغ الرجال الحكماء او الكهان او الانبياء وينصب بالكهانة نفســـه ملكا ويقيم شعائر للعبادة جديدة ثم يطور في أسلوب التعبد ويمسخ معتقدات ثابتة عند القوم ليأتي بغيرها دون خروج او حرج او مشقة ؟ واي معتقـد وأي اسلوب متعبد اخذ المدعو حزقيا بن احــاز على عاتقـه ان يغيره وان يطوره ؟ انه اسلوب ومعتقد النبي موسى فيما سجلته ونسبته اليه التوراة.

ان التوراة على دينها في التسجيل دون اعمال لفكر او عقل ذهبت تقول: ان موسى صنع لاسرائيل حية من نحاس كي يعبدوا الرب الاله بها ويتقربوا اليها فلما تولى الحكم المدعو حزقيا بن احاز حطم حية موسى وكسرها .

تقول آيات الاصحاح الثاني عشر من الملوك بالحرف : وفي السنة الثالثة لهوشع بن ايلة ملك اسرائيل ملك حزقيا بن احاز ملك يهوذا وكان ابن خمس وعشرين سنة في أورشليم واسم امه آبي ابنة زكريا وعمل المستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل داود ابوه هو ازال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى لان بني اسرائيل كانوا الى تلك الايام يوقدون لها ودعوها نخشتان .

وهذه الصورة المسجلة في المصادر الاسرائيلية عن معتقدات نبي كموسى تدل في تأكيد على ان عقيدة التوحيد التي دعا اليها النبي موسى باعتباره نبيا رسولا قد رفضت ولم تجد مجالا في نفوس القوم وقلوبهم .

وليت الامر قد أمكن معه ان يكون هناك أدنى اثر اخلاقي خير وفاضل قد اقترن أو تأثر بالصور المتعددة والمتناقضة للعقيدة الدينية التي كان عليها القوم فان الاله الاسرائيلي ورب الجنود الذي كان يضرب الشعوب والامم الساكن في صهيون على حد ما تقص رواية اشعيا من كتابه في الاصحاح العاشر فان القيم الاخلاقية في نفس الوطن صهيون كم كانت سيئة ومنحرفة ومعوجة ومنحلة للغاية الى الحد الذي يقول فيه اشعيا من الاصحاح الثالث ان الرب يوشك أن لا يرضى عن كل هذا الفسق الذي كانت عليه نساء القوم وبناتهم .

يقول الاصحاح الثالث من اشعيا :

وقال الرب من اجل ان بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الاعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعري الرب عورتهن ، ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والاهلة والحلق والاساور والبراقع . وخزائم الانف والثياب المزخرفة والعطف والاردية والاكياس والمرائي والقمصان والعمائم والازر ، فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسح وعوض الجمال كي ، رجالك يسقطون بالسيف وابطالك في الحرب فتئن وتنوح ابوابها وهي فارغة تجلس على الارض فتمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا ليدع فقط اسمك علينا .

وقد تأخذ المرء الحيرة اذا علم ان هذا الاله المرتبط في ضمير القوم على انه الههم وان بينهم وبينه عهدا انا اذا غضب فكما يقول النص الذي سقناه فانه يعري بنات صهيون ويكشف عوراتهن وانه غضب من اجل الذين يؤمنون به فانه سرعان ما ينزل الى الارض بطلا اسطوريا يبيد الامم والشعوب لا بل انه ينزل نارا تحرق الاخضر واليابس من اجل غباء زيف العقيدة الدينية التي يتعلق بها اصحابها عبر التاريخ ؟

يقول اشعيا من الاصحاح الرابع والثلاثين : هوذا الرب يأتي من بعيد غضبه مشتعل والحريق عظيم شفتاه ممتلئتان سخطا ولسانه كنار آكلة ونفخته كنهر غامر يبلغ الى الرقبة لغربلة الامم بغربال السوء وعلى فكوك الشعوب رسن زمام مضل تكون لكم اغنية كليلة تقديس عيد وفرح قلب كالسائر بالناي ليأتي الى جبل الرب الى صخر اسرائيل ويسمع الرب جلال صوته ويرى ذراعاة يهيجان غضب ولهيب نار آكلة نوء وسيل وحجارة ، لانه من صوت الرب يرتاع آشور بالقضيب يضرب ويكون كل مرور عصا القضاء التي ينزلها الرب بالدفوف والعيدان وبحروب ثائرة يحاربه .



ويبقى لنا بعد تقرير ان السلوك الوثني في المعتقد الاسرائيلي على مدى مراحل التاريخ الاسرائيلي كله هو السائد والمسيطر على عواطف القوم ومشاعرهم وبهذا فلم يكن هناك من جهد ديني قدمه الاوائل من شعب اسرائيل الى تاريخ العقيدة الدينية وخاصة قصة التوحيد ان تؤكد ما قلناه في كتابنا (الصهيونية في التاريخ) ان فكرة الايمان بالاله الواحد ربا أو سيدا لكل ما في الكون ومن في الحياة تقبلتها وتعلقت بها شعوب كثيرة الاجماعات اسرائيل فقد كانوا بدعا دون غيرهم من الامم فقد ظلوا وثنيين قبل موسى وظلوا على وثنيتهم بعده ولم ترتق عقائدهم الى الايمان بالاله الواحد ابدا وهم منذ دعوة النبي ابراهيم عليه السلام بعد أن ثار قومه فيما يعبدونه من وثن وصنم وهجرته من أرض قدومه من اور في العراق ودعوته الناس جميعا الى الايمان بالاله الواحد وهم في حالة رفض لعقيدة التوحيد ذلك ان الجماعات الاسرائيلية لم تكن ممن سار على طريق الدعوة الدينية في الايمان بالاله الواحد .

وظلت جماعات اسرائيل على وثنيتها وتعلقهم بما يستأثرون به في

حياتهم اليومية من عبادة للمال والوثن والصنم والايمان بهذه المعاني وعندما كانت الامم والشعوب تنتقل في طريق التقديس والتطهير من عبادة الاوثان والكواكب ومظاهر الطبيعة الاخرى وتسير على هدى من فطرتها في طريــق تنزيه الاله عن الاشباه والنظائر كانت الجماعات الاسرائيلية واليهودية متعلقة بالسلوك الوثني اكثر من تقبلهم لاي تطور في معتقداتهم الوثنية فهم لم يتخلوا ابدا عن معتقداتهم الوثنية وتعلقهم بمظاهر العبادة المادية والشكلية وذلــك لنظرتهم الى هذه المظاهر المعتقدة التي كانوا يحرصون عليها على انها سلعة تباع وتشترى ويقايض عليهــا لا على انها عبادة للاله وعلاقة بين الانسان وربــه .

ومع كل هذا الجدب العقائــدي والتخلف التعبــدي فــان الذيــن قاموا على امر العقيدة الدينية الاسرائيلية عبر مراحل التاريخ قد قدمــوا للتاريخ الانساني عامة والتاريخ العقائدي خاصة ابشع واحط ما تفصــح عنه عقيدة وما يعبر عنه اصحابها ودعاتها والمؤمنون بها من سلوك ، كان ذلك حين ابتدأ القائمون على امر العقيدة الدينية الاسرائيلية عبر مراحل التاريخ الاسرائيلي يترجمون المثال والتجربة مصادر دينهم ومعتقداتهم في مناهــج الحياة : اي حين بدات الطبقة المشتغلة بأمر الدين الاسرائيلي تضــع لــه تفاسير واخبارا وتصنع له مذهبا وافكارا .

((انموذج العقيدة الدينية في اليهودية))

ان الدارس لمصادر العقيدة الدينية الاسرائيلية اليهودية عبر مراحل التاريخ يلحظ بوضوح فكرا اخلاقيا ومعتقدا دينيا وسلوكا تطبيقيا في الحياة العامة يرتبط بمصدر ديني مكتوب ومسجل يضاف الى قداسة المصــدر الديني المعتقد المسمى بالعهد القديم وهذا المصدر هو التلمود الذي اكتسب في نفوس الجماعات الاسرائيلية واليهودية على المدى الطويل قداسة واهمية تفوقان كل مقدس وكل تصور .

والتلمود من بين جملة المصادر الدينية الاسرائيلية قد اصبح التوراة الحقيقية في عواطف القوم ومعتقداتهم عبر مراحل التاريخ وهو جملة مــن

الفواعد والوصايا والشرائع والتعاليم الدينية والادبية والشروح والتفاسير والروايات المتعلقة بدين وتاريخ وجنس اسرائيل على مدى التاريخ . وكانت هذه التعاليم والقواعد والوصايا والشرائع تتناقل وتدرس مشافهة من حين لآخر .

ولما تعاظم شأن هذه التعاليم في نفوس الجماعات الاسرائيلية واليهودية عبر التاريخ وكثرت هذه التعاليم كثرة شملت كل تاريخ وحياة وعقيدة ومستقبل الجماعات الاسرائيلية اليهودية قرر كبار الحاخامات من رجال العقيدة الاسرائيلية ان يسجلوا هذه التعاليم خوف فقدانها او نسيانها او اختلاط امورها بعضها والبعض الاخر وبدأت عملية التسجيل والتدوين على مراحل متعددة وفي مواقع متعددة وتركزت عمليات التسجيل في بابل وفي مناطق فلسطين وخاصة اورشليم وكانت التعاليم التي سجلت في اورشليم المشنا وقام بها علماء من احبار اليهود كانوا يسمون التنائيم وكان اولهم شمعون الصديق وقد قام هؤلاء العلماء بعد رجال المجمع الاكبر ابتداء من سنة ١٠ — ٢٢٠ م وكانوا في مجموعهم فرقتان الاولى : بدأت بشمعون الصديق الى هليل وشماي وهم الاحبار والشيوخ الاول وكانوا يلقبون بأسماء كان منها ربان والفرقة الثانية هم الجماعات التي كان يطلق عليهم الربى ربا اريحا ولقبهم ربى والمشنا التي تعني الدرس هي عبارة عن خلاصة من التعاليم الشفهية ومجموعة من قوانين اليهود السياسية والمدنية والدينية التي اقرها العلماء اليهود الكبار والتي بدأها الحبر شمعون بن جملتيل تنسيقا وترتيبا يعاونه في عملية التنسيق مجموعة من الاحبار رجال الدين اليهودي وظلت عملية التدوين والاضافة التي بدأت من عام ١٦٦ — ٢٠٦ حتى جاء القرن السادس الميلادي وقد اصبحت تعاليم المشنا عدة اقسام تحتوي على بحوث تشمل دراسة خاصة بالزراعة ودراسة خاصة بأحكام الصلوات والبركات ودراسة خاصة بالاعياد والسبوت ودراسة خاصة بأمور النساء وأحكام الزواج والطلاق ودراسة خاصة بالاحكام المالية والجنح والقرابين والذبائح .

وكذلك ايضا امر القسم الثاني او الشق الاخر من مجموعة القواعد والاداب والتعاليم والتفاسير المسماة الجمارا ، وهذا القسم الجمارا من بين الروايات والاحاديث المسموعة عن الحاخامات على مدى اجيال متعددة وهي اي الجمارا تقوم على ايضاح وشرح وتفسير المشنا وهي تحتوي ايضا

على خلاصة ومحصلة البحوث والدراسات والمجادلات التي تم تداولها في معابد الكهانة الدينية وهي تشمل من انواع الدراسات والبحوث والامثال والحكم والاخبار والمعلومات المتعلقة بالامور العامة والصناعات الطبية او الفلكية او الحرفية وتكاد ان تكون الجمارا دائرة معارف تشمل كل امور الحياة الاسرائيلية اليهودية ، ومن مجموع ما تحتويه المشنا وما تشتمل عليه الجمارا يتكون المصدر الديني والذي بلغت قداسته في قلوب الجماعات الاسرائيلية اليهودية وعقولهم حدا لا يتصوره عاقل ، وهذا المصدر الديني القائم على ما في المشنا والجمارا هو التلمود الذي اصبح بين ايدينا الان بعد مراحل طويلة مر بها منذ ابتدأ تدوين الجزء الذي سجل في اورشليم وفي طبرية بالذات بمعرفة الجماعة المسماة الاورايم اي المفسرون والمتكلمون وقد ظلت عملية التدوين في الجزء الاورشليمي حتى أواخر القرن الرابع الميلادي .

وكذلك امر الجزء البابلي الذي كان يتفق على نسبة جزء كبير منه المدعو رب آشي والذي كان رئيسا للاكاديميا في سورة على مقربة من بغداد وكانت تسجل التعاليم قبل ذلك بمساعدة الاحبار اليهود في أرض بابل وظلت عملية التدوين والتسجيل حتى اخذت في الاكتمال والاكتفاء في اواخر القرن الخامس الميلادي والتعاليم التي يحتويها الجزء الخاص في منطقة بابل أكثر شيوعا وانتشارا من الجزء الاورشليمي وظلت الافكار والتعاليم التي احتواها التلمود بشقيه المشنا والجمارا تتداول وتنتقل باللسان مخافة ان يطلع عليها احد غير يهودي فلما استقر راي الاحبار اليهود على تسجيلها في كتاب واحد وعقدوا العزم على ذلك ابتدات هذه التعاليم تقع في ايدي غير اليهود وعندما ظهرت الطباعة كان راي الكثرة من الحاخامات انه من الافضل طبع التلمود ليمكن لتعاليمه ان تنتشر بين اليهود وليمكن ايضا تحديد النص التلمودي من غيره وخاصة بعدما ظهرت تفاسير وآضافات في العصور الوسطى قام بها رجال الدين اليهود وخاصة حاخامات فرنسا الذين اضافوا للتلمود ملحقات مثل مجموعة مشنابوت التي اضافها ربي حيا وربي أوشعيا وهي شروح لاحبار فرنسا في القرون الوسطى على شرح رب آشي على التلمود .

وبالفعل فان التلمود قد ظهر مطبوعا لاول مرة في كتاب من اثني عشر مجلدا في البندقية .

وهناك بعد ذلك طبعات عدة للتلمود اقدمها طبعة البندقية التي طبعت في ١٥٢٠ والتي كانت في اثني عشر مجلدا واعيد طبعها دون تعديل في البندقية ايضا عام ١٥٥٠. وكان من اثر هاتين الطبعتين ان تعرض اليهود في كل بلدان العالم الى الحرج والمضايقة الى حد لم يكن في تقديرهم ولا تصورهم فان الفقرات والاخبار والاخلاق التي في التلمود والتي كشفت عن نواياهم تجاه العالم الانساني كله جعلت شعوب العالم من التي اتيح لها ان تطلع على نيات اليهود وعقائدهم المسجلة في التلمود ان تأخذ من المواطنين اليهود موقف رفض لهذه الاطماع المبيتة والمسجلة في التلمود ولذلك كانت الطبعة الثالثة والتي كانت في بازل عام ١٥٨١ م خالية من بعض الفقرات والاخبار والاخلاق التي تفضح نيات اليهود ومقاصدهم ومع ذلك فانه بعد طبعة بازل ١٥٨١ م والتي كانت خالية من بعض فقرات معينة تفضح اليهود وتكشف اطماعهم في العالم كله فان الجماعات اليهودية قامت بطبع هذه الفقرات منفصلة وقامت بتوزيعها على الاسرائيليين اليهود لحشرها فيما بينهم بين صفحات التلمود في الاماكن التي انتزعت منها ومع ذلك فانه قد ثارت مضايقات وشكاوى من الذين اتيح لهم ان يطلعوا على تعاليم التلمود اثر ظهور طبعتي امستردام ١٦٠٠م وكراكوفيا ١٦٠٥ فاجتمع احبار اليهود في صورة مجمع مقدس وقرروا حذف الفقرات المريبة في كل طبعة تطبع في المستقبل وقالوا في مقدمة قرارهم ما نصه : « ... ولذلك تقرر اصدار الحرمان ضد كل شخص يجرؤ على ان يثبت في الطبعات المستقبلة ـ للمشنا والجمارا ـ كل ما يعتبر طعنا مباشرا في عيسى او في الاديان الاخرى . وقرر أن يترك مكان هذه الفقرات خاليا حتى يستطيع اليهود بعد ذلك ان يثبتوها فيه بخط يدهم ، او ان يوضع في مكان كل منها دائرة هكذا « ... » تشير الى الحذف مع التنبيه على الاحبار ومعلمي المدارس ان يكتفوا بتلقينها للشباب والتلاميذ شفهيا وبهذه الوسيلة نستطيع ان نصل الى اهدافنا دون اثارة الاعداء حوالينا » .

يقول الاستاذ الكبير الدكتور « محمد القصاص » في بحثه المعنون بـ « الاسرائيليون وروح العدوان » .

وقد طبق هذا القرار بحذافيره في الطبعات التي ظهرت بعد ذلك مثل طبعة امستردام لسنة ١٦٤٤ م وفرانكفورت لسنة ١٦٩٧ ، ١٧١٥ ، ١٧٢١م وسالسياخ لسنة ١٧٦٩ وبراغ لسنة ١٨٣٩ وفرصوفيا لسنة ١٨٦٣ .

ولكن بالرغم من الحذف والتبديل والتغيير المتوالي فان هذه الطبعات لا تزال زاخرة بالفضائح والشنائع المخجلة .

« القداسة الدينية للتلمود »

يكاد يكون بدعا بين الامم والشعوب بل انها ظاهرة شاذة في تاريخ العقيدة الدينية ان تتحول الاجتهادات والتفاسير والتعاليم المنبثقةمن مصدر مقدس الى اهمية سياسية وقداسة دينية في وقت واحد وتفوق في اهميتها وقداستها والتعلق بها المصدر الديني الام والتي هي اصلا من اجله ذلك هو امر التلمود بالنسبة للتوراة فبينما هو في الاصل تفاسير الحاخامات ورجال الكهانة الدينية اليهودية لآيات التوراة وهي التي تملأ عقيدة القوم ووجدانهم بانها افكار وحي وتعاليم السماء قد اصبح حظها من التعلق بها والارتباط بها اقل بكثير وذلك مما تفصح عنه القرائن وتؤكده الشواهد من تحمس وتعلق الجماعات اليهودية في ايمانها بتعاليم التلمود وتقديرها المفرط للقائمين على امره ولقد عمل الحاخامات من اليهود على اذكاء روح الحماس والتعلق العاطفي والديني عند الجماعات اليهودية فراح واحد من الحاخامات يقول كما سجل عنه اليهودي الذي ألف الكتاب المسمى كرافت والذي طبع حوالى ١٥٩٠ م يقول :

« أعلم ان اقوال الحاخامات افضل من اقوال الأنبياء » . ومن قبله وحوالي عام ١٥٠٠ م قال احد الحاخامات : « ان من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارا فليس له اله » .

ولقد بلغ الغباء الديني والتعصب العنصري عند القوم وهم يسجلون تفاسير لدينهم ومعتقداتهم حدا يفوق كل صور الخرافة الاسطورية فمن الاخبار التي احتواها التلمود عن قداسة وعظمة الحاخامات اليهود « .. ان تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله وقد وقع الاختلاف يوما بين الله وبين علماء اليهود في مسألة وبعد ان طال الجدل تقررت احالة المشكلة الى احد الحاخامات الربيين وأضطر الله ان يعترف بخطئه بعد حكم الحاخام المذكور » .

وليس الاسفاف العقلي هو كل ما في جعبة القوم بين دفتي كتابهم المقدس التلمود وانما كما يقول الرابي مناحم وهو من كبار الحاخامات : « ان الله (تعالى سبحانه وتنزه عن ذلك) يستشير الحاخامات على الارض عندما

توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها في السماء وانه يجب الالتفات الى اقوال الحاخامات اكثر من الالتفات الى شريعة موسى » .

ثم وبقدر ما في تعاليم التلمود من حث على التعصب ودعوى العنصرية اليهودية والقول بأفضلية ونقاء شعب اسرائيل فان فكر الخرافة والاسطورة يشيع كثيرا في مضمون تعاليم التلمود ففيه عن مذلة اليهود وضياعهم وتفتتهم بين الاجناس والامم والشعوب ان الله يندم على تركه اليهود في حالة التعاسة التيهم فيها حتى انه يلطم ويبكي كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان في البحر فيسمع دويهما من بدء العالم الى نهايته وتضطرب الارض في أغلب الاوقات فتحصل الزلازل .

واما عن نظرة تعاليم التلمود لله فهي ان الله يخطىء ويصيب لا بل انه كثير الخطأ وكثيرا ما يطلب الى القائمين على امر التلمود ان يغفروا له اخطاءه وليست اخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم التلمود وجعلهم اكثر عصمة من خالقهم بل ان اخطاء الله في التلمود وقعت منه في الكون الكبير حين خلقه فهو مثلا وكما تقول آيات التلمود قد اخطأ لكون القمر اصغر من الشمس وعن هذه الخطيئة كون القمر اصغر من الشمس تسجل آيات التلمود ان حوارا حدث بين الله والقمر وان القمر قال لله اخطأت حيث خلقتني اصغر من الشمس فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه ، وقال اذبحوا الي ذبيحة اكفر بها عن ذنبي لاني خلقت القمر اصغر من الشمس » .
ورغم هذا المعتقد الوثني الصرف الذي تفيض به تعاليم التلمود فان هناك من بين تعاليم التلمود دعوى العنصرية التي يلوك بها اليهود ادعاءاتهم ويجترون الحديث عن افضليتهم ونقائهم وامتيازهم وكل آيات العنصرية المدعاة في تاريخ القوم وعقائدهم فمن بين دعوى العنصرية التي تفيض بها آيات التلمود ان الاسرائيلي افضل عند الله من الملائكة فاذا ضرب اممي واعتدى على اسرائيلي فكأنه ضرب العزة الالهية ذلك لان اليهودي حسبما تملي عليه عقيدة التلمود وتعاليمه أنه جزء من الله . كما ان الابن جزء من ابيه ، وعلى هذا فانه اذا ضرب اممي اسرائيليا فالاممي يستحق الموت لان اليهود لو لم يخلقوا لانعدمت البركة من الارض ولما خلقت الامطار والشمس ، بل تقول عقيدة التلمود وتعاليمه لما امكن لباقي المخلوقات ان تعيش ومن اجل هذا الامتياز المختار والاصطفاء الذي لا يعقله غير دعاة التعصبية والعنصرية الاسرائيلية من الذين يؤمنون بتعاليم التلمود فان الفرق بين درجة الانسان

العادي غير اليهودي وبين الحيوان هو كالفرق بين اليهود وباقي الشعوب غير اليهودية . ومن اجل هذه الدعاوى المتعصبة فان العالم كله يصبح في مطامع القوم ونياتهم ملكا لهم وهدفا يعملون من اجل تحقيقه بالسيطرة والاستغلال والنفاذ الى مقدرات الشعوب وقيمها اولا ليتيسر خلق المجالات التي يستطيع من خلالها أن يمارس اليهودي دعواه واطماعه ولذا كان من بين جملة المعطيات الدينية والاخلاقية التي توجه حركة اليهودي معتقدا ثالثا غير التوراة والتلمود وان لم يكن له نفس قداستهما وتعلق اليهودي به بنفس المستوى الذي تمتلىء به عواطف ومشاعر اليهودي نحو المصدرين اللذين اشرنا اليهما وهذا المصدر الثالث الذي اخترناه ضمن جملة المعتقدات والمصادر التي توجه حركة الجماعات الاسرائيلية اليهودية وخاصة في حركة التاريخ التي ابتدات تؤدي فيه هذه المصادر تأثيرها وفعاليتها منذ فرض على الجماعات اليهودية كرد فعل ضدها ان تكون قلة قليلة وفئات محدودة بين الجماعات والشعوب هو مجموعة المعتقدات والاساليب التي لا ينظر اليها اليهودي على انها معتقدات اخلاقية او تعبدية قدر ما هي خطة عمل وهذا المصدر هو اسلوب ضد الامم والشعوب وتجاه كل القيم والمعتقدات غير اليهودية وهو المسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » .

« طبيعة بروتوكولات حكماء صهيون »

ليس هناك أدل على طبيعة بروتوكولات حكماء صهيون واهميتها باعتبارها اسلوب العمل اليهودي السياسي في تحويل جملة المعتقدات اليهودية الى خطة عمل يجابهون به العالم ويحققون اطماعهم وامانيهم في السيادة والسيطرة على العالم من تصدير الطبعة الخامسة لبروتوكولات حكماء صهيون من الطبعة الانجليزية التي طبعت في لندن عام ١٩٢١ بعد ان نشرت في روسيا عام ١٩٠٥ عن طريق الاستاذ سرجي نيلوس الذي نشر هذه البروتوكولات لاول مرة بعد ان وصلت اليه سرا عن طريق سيدة فرنسية كانت عضوا في محافل الماسون وقد تمكنت من سرقة هذه البروتوكولات في نهاية اجتماع سري .

ولقد ترجم الاستاذ محمد خليفة التونسي الطبعة الخامسة الانجليزية

كلها ترجمة امينة وصادقة وهي تقول في المقدمة كبيان في التدليل على اهمية طبيعة هذه البروتوكولات .

ان نفاد طبعة اخرى ايضا من هذا الكتاب ليدل على انه لـم ينقص تلهف الناس على استقبال اخبار بروتوكولات صهيون Protocols of Zion وانه ليزداد وضوحا في كل يوم ان سياسة البروتوكولات الان تطبق بعنف على الاممين لان حكوماتها كما يفاخر المستـر اسرائيـل زانجفيـل Mr. Israel Zangwill مطابقـة باليهـود ووكلائهـم وان العالـم مديـن للاستاذ سرجي نيلوس Professor Sergyi Nelus بنشر هذا الكتـاب المفزع وهكذا بينما روسيا تتخذ ضحية لبغضاء اليهودية الخالدة ويقع عليها اختيار حكماء صهيون لتكون عبرة الانتقام اليهودي فان روسيا كذلـك تكشف مدى الخطر الذي أيقظ العالم وان العالم لمدين لشجاعة هذا الابن الحق لروسيا الحقيقية ولعزمه ووفائه بان كشفت الان اليد الخفية Hidden Hand حتى جلدها ومخالبها وان الفوضى والعماء Chaos الذي يطبق في كل مكان هنا ليجد في هذا الكتاب غايته وسببه واضحين .

على كل قارىء ان يدرس المقدمة والتعقيب اللذين قدمهما لنا نيلوس نفسه ولا سيما التعقيب وصلته بالبروتوكول الثالث الذي يكشف خطوات الافعى الرمزية Symbolic Serpent في التفافها القاتل حول اوروبا وان حسرة الكاتب البالغة على مصير بلاده المحبوبة (روسيا) التي كان يوشك ان يحل بها لا يمكن ان تخيب في ان تزلزل عواطف كل قارىء يشعر شعوره وفي ان تنفذ الى اعماق فؤاده .

ويجب وجوبا ان نستحضر في عقولنا ان الاستاذ نيلوس قـد نشر البروتوكولات اولا في سنة ١٩٠٢ وان الطبعة التي اخذت ترجمتنا عنها قد نشرت في سنة ١٩٠٥ وان النسخة ذاتها التي اتخذناها في الترجمة هـي الان في المتحف البريطاني مختوما عليها تاريخ تسلمها وهو ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٦ انه لا يمكن تفنيد هذه التواريخ التي تبرهن على ان الحرب العالميـة وصلت روسيا والاضرابات والثورات والاغتيالات قد حدثت جميعا وفـق خطة كما تبرهن على ان تلك الخطة لم تكن خطة المانيا ولا خطة انجلترا ولا اية امة اخرى الا الامة اليهودية بلغتها السرية ـــ اليد الخفية The hidden Hand

التي كشفت عنها الان بعد امد طويل في البروتوكولات التي لا حاجة بنا الى القول بانها لم يقصد منها ان تراها عيون الاميين غير اليهود .

ويزعم اليهود ضرورة ان البروتوكولات زور ولكن الحرب العظمى ليست زورا وبها تنبأ حكماء صهيون منذ امد طويل يرجع الى سنة ١٩٠١ .

ان الحرب العظمى لم تكن حربا المانية بل انها مكيدة دبرتها اليهودية وقتال بسبب اليهود على تبادل ذخائر العالم . لقد كان اليهود هم الذين سخروا كل قواد الجيش وكل قواد الاساطيل وان بيانات معركة جتلاند Jutland Battle ونتيجتها لتقدم مثلا واحدا صغيرا يبين كيف قاد اليهود الحرب سواء في البر او البحر وكيف حازوا مغانم الحرب لليهود وكيف انهم حصلوا على سلطة القيادة والتوجيه على كل المتحاربين من اجل اليهود .

ايها القارىء ان نشر هذا الكتاب ليلقي عليك مسئولية كبيرة وعليها فانه قد اصبح من الواجب العلمي ان لا تلم الطرف عن هذا التخطيط الديني والسياسي المرذول والذي افصح عنه العصر الحديث بجهود القوى الخيرة من امثال السيدة جوليدا ديمترينا والاستاذ سرجي نيلوس والاستاذ اليكسي نيقولافيتش سوخونين الذي وصل النص المسروق الى سرجي عن طريقه لصلته القوية بالسيدة جوليدا ديمترينا وانهم حقا لمن النماذج الانسانية الفاضلة التي كشفت في جراة وشجاعة عن طبيعة هذا الذي يراد بمستقبل الامم والشعوب من شر وتدمير وتخريب . وفي مقدمة الاستاذ سرجي نيلوس ما يكشف عن مدى خطورة وهول ما اعدت الجماعات اليهودية للانسانية من مسخ وتشويه ومن شر وتخريب وفي النماذج التي سنسوقها كمثال من تعاليم البروتوكولات وخططها ما يؤكد هذا المعنى ويوضحه .

يقول الاستاذ سرجي نيلوس :

لقد تسلمت من صديق شخصي هو الان ميت مخطوطا يصف بدقة ووضوح عجيبين خطة وتطورا لمؤامرة عالمية مشئومة موضوعها الذي تشمله هو جر العالم الحائر الى التفكك والانحلال المحتوم .

هذه الوثيقة وقعت في حوزتي منذ اربع سنوات (١٩٠١) وهي بالتاكيد

القطعي صورة حقة في النقل من وثائق اصلية سرقتها سيدة فرنسية مـن احد الاكابر ذوي النفوذ والرياسة السامية من زعماء الماسونية الحـرة Free Masonry وقد تمت السرقة في نهاية اجتماع سري بهذا الرئيس في فرنسا حيث وكر المؤتمر الماسوني اليهودي Jewish Masonic Conspiracy

وللذين يريدون ان يروا ويسمعوا اخاطر بنشر هذا المخطوط تحت عنوان بروتوكولات حكماء صهيون وبالتفرس المبدئي خلال هذه المذكـرات قد تشعرنا بما تشعر به امام ما نسميه عادة الحقائق المسلمة Truisms انها تظهر في هيئة الحقائق المألوفة كثيرا او قليلا وان عبر عنها بحدة وبغضاء لا تصاحبان عادة الحقائق المألوفة فبين سطورها تتأجج بغضاء دينية وعنصرية عميقة الغور متغطرسة قد خبئت بنجاح امدا طويلا وانها لتجيش وتفيض كما هو واقع من اناء طافح بالغضب والنقمة مدرك تمـام الادراك ان نصره النهائي قريب .

ونحن لا نستطيع ان نغفل الاشارة الى ان عنوانها لا ينطبق تماما على محتوياتها فهي ليست على وجه التحديد مضابط جلسات بل هي تقريـر وضعه شخص ذو نفوذ وقسمه اقساما ليست مطردة اطرادا منطقيا علـى الدوام وهي تحملنا على الاحساس بأنها جزء من عمل اخطر وأهم بدايتـه مفقودة وان كان اصل هذه الوثائق السالف ذكرها يعبر عن نفسه بوضـوح ووفق تنبؤات الاباء القديسين Holy Fathers لا بد ان تكون دائمـا اعمال اعداء المسيح محاكاة لحياة المسيح ولا بد ان يكون لهم خائنهم غير ان خائنهم من وجهة نظر دنيوية لن يظفر بغاياته طبعا واذن فمن المؤكد ان ينتصر الحاكم العالمي انتصارا كاملا لكن لفترة وجيزة وهذه الاشارة الى كلمـات و . سولوفيف W. Soloviev لا يقصد بها ان تتخذ برهانا علـى سندهم Suthority لا مكان له والجانب المهم هو القضـاء والقـدر . ان سولوفيف يعطينا النسيج Canvas والمخطوط المعروض امامنا سيقوم بالتطريـز Embroidery

وقد نكون ملومين حقا على التشكك في طبيعة هذه الوثيقة غـير انـه لو امكن البرهان على هذه المؤامرة العالمية الواسعة بخطابات او تصريحات من شهود عيان وامكن ان يكشف قناع زعمائها وهم ممسكون بخيوطهـا

الدموية ـ اذن لكشفنا بهذه الواقعة الحقة اسرار الظلم ولكن لكي تحقق المؤامرة نفسها يجب ان تبقى سرا حتى يوم تجسدها في ابن الفناء » .

اننا لا نستطيع البحث عن براهين مباشرة في مشكلات الخطط الاجرامية التي امامنا ولكن علينا ان تقنع بالبينات العرضية او القرائن وان مثلها ليملأ عقل كل متأمل مسيحي غيور .

ان المكتوب في هذا الكتاب ينبغي ان يقنع من لهم آذان للسمع لما فيه من وضوح ولانه مقدم اليهم بقصد حثهم على حماية انفسهم اذ الوقت متسع لهذه الحماية حتى يكونوا على حذر .

ان ضميرنا سيكون راضيا اذا وصلنا بفضل الله الى هذا الغرض الاهم من تحذير العالم الاممي (غير اليهودي) دون اثارة الحقد في قلبه ضد شعب اسرائيل الاعمى . ونحن نثق بأن الامميين لن يضمروا مشاعر الكراهية ضد جمهور اسرائيل المؤمن خطأ ببراءة الخطيئة الشيطانية لزعمائه من الكتبة والفريسيين Pharsees الذين برهنوا مرة قبل ذلك على انهم هم انفسهم سبب ضلال اسرائيل واذا نحينا جانبا نقمة الله من الظالمين لم تبق الا وسيلة واحدة هي اتحاد المسيحيين جميعا في سيدنا يسوع المسيح والفناء الشامل فيه مستغفرين لانفسنا وللاخرين .

ولكن اهذا ممكن مع حالة العالم الضالة الآن ؟ انه مستحيل مع سائر العالم ولكنه ممكن مع حالة روسيا المؤمنة فالظروف السياسية الحاضرة للدول الاوروبية الغربية والاقطار التابعة لها في الجهات الاخرى قد تنبأ بها امير الحواريين Prince of Apostles

ان النوع البشري ـ في استرواحة Eopiration لاكمال حياته الارضية وبحثه عن مملكة الاكتفاء العام التي تحقق المثل الاعلى للحياة الانسانية ـ قد غير اتجاه مثله بدعوى ان الايمان المسيحي كاذب قطعا . وانه لا يحقق الامال المعلقة عليه وان العالم ـ الذي حطم معبوداته السابقة وخلق معبودات جديدة واقام آلهة جديدة على قواعدها ـ انما يبني لهذه الالهة الجديدة هياكل كل منها اعظم فخفخة واكبر فخامة من الاخر ثم يعود فينكسه ويدمره .

ان النوع البشري قد فقد الفهم الصحيح للسلطة التي منحها الملوك المسحة من الله وهو يقترب من حالات الفوضى وسرعان ما تبلى بلى تاما ضوابط الموازين الجمهورية والدستورية وستنهار هذه الموازين وستجر معها في انهيارها كل الحكومات الى اغوار هاوية الفوضى المتلفة .

من الاسس العقائدية عند اليهود

يندهش المرء وتملأه الحيرة اذا اخذ نصوصا معينة من بين السياق العام لمواضيع البروتوكولات المتعددة ذلك انه يلحظ ان هناك علاقة قوية بين ما يحدث مما له اتصال بشكل او بآخر باليهود بينهم وبين غيرهم او ما يحدث بين طرفين ولطرف منهما من بعيد او قريب لقاء بالمصلحة اليهودية وبين الخط العام لاماني اليهود واسلوب عملهم المخطط له في نصوص البروتوكولات ومن اعجب العجب ان الجماعات اليهودية منذ ركبت حركة الثورة الصناعيةوسيطرت بالنفاذ والرشوة علىحركة التجارةالعالمية وادارة الاعمال وهناك الكثير جدا من حوادث العالم من اليسير الوقوف على ان مصدر الحركة فيها والمضاعفات التي تترتب عليها انما هي نتيجة الارتباط بالنشاط اليهودي الذي يعبر عن نفسه بخطة الامائي والاطماع والمسماة بروتوكولات صهيون ومن يطلع على البروتوكولات يجد فيها مثل النصوص الاتية :

البروتوكول الاول من مجموعة البروتوكولات التي بلغت بالعدد حتى الرابع والعشرين .

« ... ان ما لنا من ثروة ومال في انحاء العالم سوف يطغى على القوانين العالمية كلها كما اننا سوف نحكم الدول كما تحكم الحكومات رعاياها .

ويقول :

« علينا ان نختار من بين افراد الشعب رجالا للادارة من الاذلاء الذين

لم يكتسبوا خبرة في شئون الحكم وسيكون من السهل علينا ان نجعلهم كقطع الشطرنج » .

وفي البروتوكول الثالث :

« ... ان مصلحتنا تقضي بانحلال الشعوب غير اليهودية وتهدف قوتنا الى ابقاء العامل في حالة تافهة وعجز دائمين لاننا بذلك نخضعه لمشيئتنا وارادتنا .

وفيه ايضا :

« ... سنعمد الى خلق ازمة اقتصادية بكافة الطرق الملتوية وبواسطة الذهب الذي بين ايدينا وسنطلق في شوارع أوروبا كلها في وقت واحد جماهير العمال الغفيرة التي سيسعدها أن تنقض على اولئك الذين كانت تشعر منذ الطفولة بالحقد عليهم وسنريق دماءهم ونستولي بعد ذلك على ممتلكاتهم .

وفي البروتوكول الرابع :

« ... ان المحافل الماسونية تقوم في العالم اجمع بدور القناع الذي يحجب اهدافنا الحقيقية .

وفيه ايضا :

« ... الشعب باعتناقه الايمان سوف يخضع لرجال الدين ويعيش في سلام ومن ثم يتحتم علينا ان تقوض اركان كل ايمان ونزعزع من عقل الخوارج الاعتقاد بالله ونستعيض عنه بالارقام الحسابية والمطالب المادية .

وفي البروتوكول السادس :

« ... سنشرع في تنظيم احتكارات عظمى بحيث نستوعب الثروات بطبيعة الحال ثروات غير اليهود بشكل تزول هذه الثروات تماما كما تزول حظوة حكومتهم غداة الازمة السياسية .

وفي البروتوكول السابع :

« ... علينا ان نرد على اية دولة تجرؤ على اعتراض طريقنا بدفع الدولة المجاورة لها الى اعلان الحرب عليها » .

ولكن اذا قررت الدولة المجاورة بدورها ان تتخذ ضدنا موقفا فيجب علينا الرد باشعال حرب عالمية .

وفيه ايضا :

« ... وبالاختصار لكي تظهر أن جميع حكومات غير اليهود في اوروبا خاضعة لنا سوف تظهر سلطتنا لكل حكومة منها من طريق الجرائم والعنف، اي عن طريق حكم الارهاب .

وفي البروتوكول التاسع :

« لقد حطمنا في الواقع جميع السلطات الحاكمة ولكنها ما زالت قائمة من الوجهة النظرية فقط » .

وفيه ايضا :

« ... وسوف تحل محل شعارنا الماسوني الذي يتسم بالتحرر — الحرية والمساواة والاخاء — كلمات تعبر ببساطة عن فكرة وتصور فنقول حق الحرية وواجب المساواة وفكرة الاخاء وبذلك نقبض على الثور من قرنيه » .

وفيه ايضا :

ان مطامعنا غير محدودة وجشعنا نهم وتعصبنا شديد وحقدنا عنيف ولذلك نتوق الى انتقام لا رحمة فيه .

وفي البروتوكول الحادي عشر :

الامر الجوهري بالنسبة لنا ان يدرك الشعب بمجرد هذا الاعلان ما دام

يتألم من التغير المفاجيء مستسلما بالذعر والتردد اننا قد اصبحنا من القوة والمناعة لدرجة اننا لا نأبه بمصالحه ولن نعيرها التفاتا وسنعمل على ان يقتنع اننا لا نتجاهل آراءه ورغباته فحسب بل اننا على استعداد في اي وقت وفي كل مكان لقمع كل مظاهرة وكل جنوح للمقاومة بشدة وسنفهم الشعب على اننا حصلنا على ما نريد واننا لا نسمح له بمشاركتنا السلطة وحينئذ يدفعه الذعر الى ان يغمض عينيه وينتظر الاحداث في صبر .

وفيه ايضا :

« ... غير اليهود كقطيع الاغنام اما نحن فاننا الذئاب وهل تعلمون ماذا تفعل الاغنام اذا اقتحم الذئاب حظيرتها .. انها تغمض عينيها .

وفيه ايضا :

« ... ما هو السبب الذي دفعنا ان نبتدع سياستنا ؟ ونثبت اقدامها عند غير اليهود ؟ لقد رشحناه في اذهانهم دون ان ندعهم يفقهون ما نبطن به من معنى فما هو الذي دفعنا ان نسلك هذا المسلك اللهم الا اننا جنس مشتت وليس في وسعنا بلوغ غرضنا بوسائل مباشرة فحسب هذا هو السبب الحقيقي لتنظيمنا الماسوني الذي لم يتعمق هؤلاء الخنازير من غير اليهود في معناه ولا حتى الشك في اهدافه واننا نسوقهم الى محافلنا التي لا عداد لها ولا حصر تلك المحافل التي تبدو ماسونية فحسب ذرا للرماد في عيون رفاقهم .

وفي البروتوكول الثاني عشر :

« ... ان الصحافة والادب اهم دعامتين من دعائم التربية ولهذا السبب سنشتري اكبر عدد ممكن من الصحف الدورية فنقضي بهذا الشكل على الاثر السيىء للصحافة المستقلة ونسيطر سيطرة كاملة على الروح البشري .

وفيه ايضا :

عندما نصبح اسياد الارض لن نسمح بقيام دين غير ديننا .

وفيه ايضا :

« ... ومن اجل ذلك يجب علينا ازالة العقائد واذا كانت النتيجة التي وصلنا اليها موقتا قد اسفرت عن خلق جيل من الملحدين فان هدفنا لن يتأثر بذلك بل يكون ذلك مثلا للاجيال القادمة التي ستتشيع الى تعاليم موسى هذا الدين الذي فرض علينا مبدؤه الثابت النابه وضع جميع الامم تحت اقدامنا .



هذه النماذج التي سقناها من السياق العام لنصوص وتعاليم البروتوكولات هي بعض امثلة من الروح العام للبروتوكولات وقد تكشف الصياغة العربية بمثل هذه الامثلة والنماذج روح البروتوكولات وقد لا تتضح تماما جوانب العدوان والشر ومخططات التخريب والتدمير التي تستفاد من مجموع آيات وتعاليم ونصوص البروتوكولات الا ان الدقة العلمية والضبط الدقيق في توجيه النصوص والحفاظ على المعنى المقصود يتضح تماما في الترجمة الحرفية للبروتوكولات والتي قام بها الاستاذ محمد خليفة التونسي في نقل البروتوكولات الى اللغة العربية عن النسخة الانجليزية في طبعتها الخامسة وهي المنقولة عن النسخة الروسية التي نشرت البروتوكولات لاول مرة وقد افرد الاستاذ محمد خليفة التونسي دراسة علمية وموضوعية حول طبيعة هذه البروتوكولات ومدى ما يقترن بها من لبس وغموض ومن بين النصوص المترجمة عن الطبعة الانجليزية الخامسة نسوق بعضا من النماذج كدليل على مدى ما تنطوي عليه هذه البروتوكولات من روح الشر والتدمير والتخريب والاعداد للسيطرة على العالم وعلى مقدراته بمنهج غاية في الدنس والخطيئة وكل صنوف الموبقات ففي البروتوكول الثالث عشر ما يأتي :

ان الحاجة يوميا الى الخبز ستكره الاميين Gentiles على الدوام اكراها على ان يقبضوا السنتهم ويظلوا خدمنا الاذلاء وان اولئك الذين قد نستخدمهم في صحافتنا من الاميين سيناقشون بايعازات منا حقائق لن يكون من المرغوب فيه ان نشير اليها بخاصة في جريدتنا Gazette

الرسمية وبينما تتخذ كل اساليب المناقشات والمناظرات هكذا سنمضي الى القوانين التي سنحتاج اليها وسنضعها امام الجمهور على انها حقائق ناجزة.

ولن يجرؤ احد على مطالبة استئناف النظر فيما تقرر امضاؤه فضلا عن طلب استئناف النظر بخاصة فيما يظهر حرصنا على مساعدة التقدم وحينئذ ستحول الصحافة نظر الجمهور بعيدا بمشكلات جديدة (وانتم تعرفون بانفسكم اننا دائما نعلم الشعب ان يبحث عن عواطف جديدة) وسيسرع المغامرون السياسيون الاغبياء الى مناقشة المشكلات الجديدة ومثلهم الرعاع الذين لا يفهمون في ايامنا هذه حتى ما يتشدقون به .

وان المشكلات السياسية لا يعني بها ان تكون مفهومة عند الناس العاديين ولا يستطيع ادراكها كما قلنا من قبل الا الحكام الذين قد مارسوا تصريف الامور قرونا كثيرة ولهم ان يستخلصوا من كل هذا اننا حين تلجأ الى الراي العام سنعمل على هذا النحو كما نسهل عمل جهازنا Machinary كما يمكن ان تلاحظوا اننا نطلب الموافقة على شتى المسائل بالافعال لا بالاقوال ونحن دائما نؤكد في كل اجراءاتنا انا مقودون بالامل واليقين لخدمة المصلحة العامة .

ولكي نذهل الناس المضعضعين عن مناقشة المسائل السياسية نمدهم بمشكلات جديدة اي بمشكلات الصناعة والتجارة ولنتركهم يثوروا على هذه المسائل كما يشتهون .

انما نوافق الجماهير على التخلي والكف عما تظنه نشاطا سياسيا اذا اعطيناها ملاهي جديدة اي التجارة التي نحاول فنجعلها تعتقد انها ايضا مسألة سياسية ونحن انفسنا اغرينا الجماهير بالمشاركة في السياسات كي نضمن تأييدها في معركتنا ضد الحكومات الاممية .

ولكي نبعدها عن ان تكشف بانفسها اي خط عمل جديد سنلهيها ايضا بانواع شتى من الملاهي والالعاب ومزجيات الفراغ والمجامع العامة وهلم جرا .

وسرعان ما سنبدأ الاعلان في الصحف داعين الناس الى الدخول في

مباريات شتى في كل انواع المشروعات كالفن والرياضة وما اليهما هـذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتما عن المسائل التي سنختلف فيهـا معه وحالما يفقد الشعب تدريجيا نعمة التفكـير المستقـل بنفسه سنهتف جميعا معا لسبب واحـد هو اننا سنكون اعضاء المجتمع الوحيدين الذين يكونون اهلا لتقديم خطوط تفكير جديدة .

وهذه الخطوط سنقدمها متوسلين بتسخير آلاتنا وحدها من امثـال الاشخاص الذين لا يستطـاع الشك في تحالفهم معنـا . ان دور المثـاليين المتحررين سينتهي حالما يعترف بحكومتنا وسيؤدون لنا خدمة طيبة حتى يحين ذلك الوقت .

ولهذا السبب سنحاول ان نوجه العقل العلم نحو كـل نـوع مـن النظريات المبهرجة Fautastic التي يمكن أن تبدو تقدمية او تحررية . لقد نُجحنا نجاحا كاملا بنظرياتنا عن التقـدم في تحويـل رؤوس الاممين الفارغـة من العقل نحو الاشتراكية ولا يوجـد عقـل واحد بين الاممين يستطيع ان يلاحظ انه في كل حالة وراء كلمة التقدم يختفي ضلال وزيـغ عن الحق ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة الـى كشوف ماديـة او عملية اذ ليس هناك الا تعليم حق واحد ولا مجال فيه من اجل التقـدم ان التقدم كفكرة زائفة يعمل على تغطية الحـق حتى لا يعرف الحق احـد فيرنا نحن شعب الله المختار الذي اصطفاه ليكون قواما على الحق .

وحين نستحوذ على السلطة سيناقش خطباؤنا المشكلات الكبرى التي كانت تحير الانسانية لكي ينطوي النوع البشري في النهايـة تحت حكمنـا المبـارك .

ومن الذي سيرتاب حينئذ في اننا نحن الذين كنا نثير هذه المشكـلات وفق خطة Scheme سياسة لم يفهمها انسان طوال قرون كثيرة .

البروتوكول الرابـع عشر :

حينما نمكن لانفسنا فنكون سادة الارض ، لن نبيح قيـام اي ديـن

غير ديننا اي الدين المعترف بوحدانية الله الذي ارتبط حظنا باختياره ابانا كما ارتبط به مصير العالم .

ولهذا السبب يجب علينا ان نحطم كل عقائد الايمان واذ تكون النتيجة الموقتة لهذا هي اثمار ملحدين فلن يدخل هذا في موضوعنا ولكنه سيضرب مثلا للاجيال القادمة التي ستصغي الى تعاليمنا على دين موسى الذي وكل الينا بعقيدته الصارمة واجب اخضاع كل الامم تحت اقدامنا .

واذ نؤدي هذا سعكف ايضا على الحقائق الباطنية Mystic Truths للتعاليم الموسوية التي ستقوم عليها — كما سنقول — كل قوتها التربوية .

ثم سننشر في كل فرصة ممكنة مقالات تقارن فيها بين حكمنا النافع وذلك الحكم السابق وان حالة اليمن والسلام ستسود يومئذ — ولو انها وليدة اضطرابات قرون طويلة — سيفيد ايضا في تبين محاسن حكمنا الجديد . وسنصور الاخطاء التي ارتكبها الامميون (غير اليهود) في ادارتهم بأفضح الالوان وسنبدأ باثارة شعور الازدراء نحو منهج الحكام السابقين حتى ان الامم ستفضل حكومة السلام في جو العبودية على حقوق الحرية التي طالما مجدوها فقد عذبتهم بأبلغ قسوة واستنزفت ينبوع الوجود الانساني نفسه وما دفعهم اليها على التحقيق الا جماعة من المغامرين الذين لم يعرفوا ما كانوا يفعلون .

ان تغييرات الحكومة العقيمة التي اغرينا الامميين بها متوسلين بذلك الى تقويض صرح دولتهم ستكون في ذلك الوقت قد اضجرت الامم تماما الى حد انها ستفضل مقاساة اي شيء منها خوفا من ان تعود الى العناء والخيبة اللذين تمضي الامم خلالهما فيما لو عاد الحكم السابق .

وسنوجه عناية خاصة الى الاخطاء التاريخية للحكومات الاممية التي عذبت الانسانية خلال قرون كثيرة جدا لنقص في فهمها اي شيء يوافق السعادة الحقة للحياة الانسانية ولبحثها عن الخطط المبهرجة للسعادة الاجتماعية لان الامميين لم يلاحظوا ان خططهم بدلا من ان تحسن العلاقات بين الانسان والانسان لم تجعلها الا اسوأ . وأسوأ هذه العلاقات هي اساس الوجود الانساني نفسه ان كل قوة مبادئنا واجراءاتنا ستكون كامنة في

حقيقة ايضاحنا لها مع انها مناقضة تماما للمنهج المنحل الضائع للاحوال الاجتماعية السابقـة .

وسيفضح فلاسفتنا كل مساوىء الديانات الاممية (غير اليهودية) ولكن لن يحكم احد ابدا على ديانتنا من وجهة نظرها الحقة اذ لن يستطاع لاحد ابدا ان يعرفها معرفة شاملة نافذة الا شعبنا الخاص الذي لن يخاطر بكشف اسرارها .

وقد نشرنا في كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدبـا Literature مريضا قذرا يغثي النفوس وسنستمر فترة قصيرة بعد الاعتراف بحكمنـا على تشجيع سيطرة مثل هذا الادب كـي يشير بوضوح الى اختلافه عـن التعاليم التي سنصدرها من موقفنا المحدود وسيقوم علماؤنا الذين ربـوا لغرض قيادة الامميين بالقاء خطب ورسم خطط وتسويد مذكرات متوسلين بذلك الى ان تؤثر في عقول الرجال وتجذبها نحو تلك المعرفة وتلك الافكار التي تلائمنا .

البروتوكول الخامس عشر

نستعمل كل ما في وسعنا على منع المؤامرات التي تدبـر ضدنا حين نحصل نهائيا على السلطة متوسلين اليها بعدد مـن الانقلابات السياسيـة المفاجئة Coups d'état التي سننظمها بحيث تحدث في وقت واحد في جميع الاقطار وسنقبض على السلطة بسرعة عند اعلان حكوماتها رسميـا انها عاجزة عن حكم الشعوب ، وقد تنقضي فترة طويلة من الزمن قبل ان يتحقق هذا وربما تمتد هذه الفترة قرنا كاملا ولكي نصل الى منع المؤامرات ضدنا حين بلوغنا السلطة سننفذ الاعدام بلا رحمة في كل من يشهر اسلحة ضد استقرار سلطتنا .

ان تاليف اي جماعة سرية جديدة سيكون عقابه المـوت ايضا وامـا الجماعات السرية التي تقوم في الوقت الحاضر ونحن نعرفها والتي تخـدم اغراضنـا فاننا سنحلهـا وننفي اعضاءها الى جهـات نائية من العالـم ، وبهذا الاسلوب نفسه سنتصرف مع كل واحـد مـن الماسونيين الاحـرار

الامميين (غير اليهود) الذين يعرفون اكثر من الحد المناسب لسلامتنا .
وكذلك الماسونيون الذين ربما نغفر لهم لسبب او لغيره سنبقيهم في خوف دائم من النفي وسنصدر قانونا يقضي على كل الاعضاء السابقين في الجمعيات السرية بالنفي من اوربا حيث سيقوم مركز حكومتنا .

وستكون قرارات حكومتنا نهائية ولن يكون لاحد الحق فيالمعارضة.

ولكي نرد كل الجماعات الاممية على اعقابها ونمسخها - هذه الجماعات التي غرسنا بعمق في نفوسها الاختلافات ومبادىء نزعة المعارضة Proteliant للمعارضة - سنتخذ معها اجراءات لا رحمة فيها . مثل هذه الاجراءات ستعرف الامم ان سلطتنا لا يمكن ان يعتدى عليها ويجب ان لا يعتد بكثرة الضحايا الذين سنضحي بهم للوصول الى النجاح في المستقبل .

ان الوصول الى النجاح ولو توسل اليه بالتضحيات المتعددة هو واجب كل حكومة تتحقق ان شروط وجودها ليست كامنة في الامتيازات التي تتمتع بها فحسب بل في تنفيذ واجباتها كذلك .

والشرط الاساسي في استقرارها يكمن في تقوية هيبة سلطانها وهذه الهيبة لا يمكن الوصول اليها الا بقوة عظيمة غير متأرجحة Unshakable وهي القوة التي ستبدو انها مقدسة لا تنتهك لها حرمة ومحاطة بقوةباطنية Mystic لتكون مثلا من قضاء الله وقدره .

هكذا حتى الوقت الحاضر كانت الاوتقراطية الروسية Russian Autocracy عدونا الوحيد اذا استثنينا الكنيسة البابوية المقدسة Holy See . اذكروا ان ايطاليا عندما كانت تتدفق بالدم لم تمس شعرة واحدة من رأس سلا Silla وقد كان هو الرجل الذي جعل دمها يتفجر ونشأ عن جبروت شخصية سلا Silla ان صار الها في اعين الشعب وقد جعلته عودته بلا خوف الى ايطاليا مقدسا لا تنتهك له حرمة Inviolap'e فالشعب لن يضر الرجل الذي يسحره hypnutises بشجاعته وقوة عقله .

والى ان يأتي الوقت الذي نصل فيه الى السلطة سنحاول ان ننمي ونضاعف خلايا الماسونيين الاحرار في جميع انحاء العالم وسنجذب اليها كل من يصير او من يكون معروفا بأنه ذو روح عامة Public Spirit وهذه الخلايا ستكون الاماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من اخبار كما انها ستكون افضل مراكز الدعاية .

وسوف نركز كل هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا وستتألف هذه القيادة من علمائنا وسيكون لهذه الخلايا ايضا ممثلوها الخصوصيون كي نحجب المكان الذي تقيم فيه قيادتنا حقيقة. وسيكون لهذه القيادة وحدها الحق في تعيين من يتكلم عنها وفي رسم نظام اليوم ، وسنضع الحبائل والمصايد في هذه الخلايا لكل الاشتراكيين وطبقات المجتمع الثورية . وان معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا ، وسنهديها الى تنفيذها حالما تتشكل .

وكل الوكلاء Agents في البوليس الدولي السري تقريبا سيكونون اعضاء في هذه الخلايا .

ولخدمة البوليس اهمية عظيمة لدينا لانهم قادرون على ان يلقوا ستارا على مشروعاتنا Enterprises وأن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف وان يعاقبوا ايضا اولئك الذين يرفضون الخضوع لنا .

ومعظم الناس الذين يدخلون في الجمعيات السرية مغامرون يرغبون ان يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية وليسوا ميالين الى الجد والعناء .

وبمثل هؤلاء الناس سيكون يسيرا علينا من ان نتابع اغراضنا وان نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة .

وحينما يعاني العالم كله القلق فلن يدل هذا الا على انه قد كان من الضروري لنا ان نقلقه هكذا كي نحطم صلابته العظيمة الفائقة وحينما تبدأ المؤامرات خلاله فان بدءها يعني ان احدا من اشد وكلائنا اخلاصا

يقوم على راس هذه المؤامرة وليس الا طبيعيا اننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية ونحن الشعب الوحيد الذي يوجهها . ونحن نعرف الهدف الاخير لكل عمل على حين ان الامميين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الاشياء الخاصة بالماسونية ولا يستطيعون رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون وهم بعامة لا يفكرون الا في المنافع الوقتية العاجلة ويكتفون بتحقيق غرضهم حين يرضي غرورهم ولا يفطنون الى ان الفكرة الاصلية لم تكن فكرتهم بل كنا انفسنا الذين أوحينا اليهم بها .

والامميون يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية عن فضول محض او على امل في نيل نصيبهم من الاشياء الطيبة التي تجري فيها وبعضهم يغشاها أيضا لانه قادر على الثرثرة بأفكاره الحمقاء امام المحافل والامميون يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان ونحن نوزعها جزافا بلا تحفظ ولهذا نتركهم يظفرون بنجاحهم لكي نوجه لخدمة مصالحنا كل من تتملكهم مشاعر الغرور ومن يتشربون أفكارنا عن غفلة واثقين بصدق عصمتهم الشخصية وبأنهم وحدهم اصحاب الآراء وانهم غير خاضعين فيما يرون لتأثير الآخرين .

وانتم لا تتصورون كيف يسهل دفع امهر الامميين الى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة naivite باثارة غروره واعجابه بنفسه وكيف يسهل — من ناحية اخرى — ان تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له وبذلك تدفعه الى حالة خضوع ذليل كذلك العبد اذ نصده عن الامل في نجاح جديد وبمقدار ما يحتقر شعبنا النجاح ويقصر تطلعه على رؤية خطة متحققة يحب الامميون النجاح ويكونون مستعدين للتضحية بكل خططهم من اجله .

ان هذه الظاهرة Feature في اخلاق الامميين تجعل عملنا ما نشتهي عمله معهم ايسر كثيرا ان اولئك الذين يظهرون كأنهم النمورة وهم كالغنم غباوة ورؤوسهم مملوءة بالفراغ .

سنتركهم يركبون في احلامهم على حصان الآمال العقيمة لتحطيم الفردية الانسانية بالافكار الرمزية لمبدأ الجماعية Collectivism انهم لم يفهموا بعد ولن يفهموا ان هذا الحلم الوحشي مناقض لقانون

الطبيعة الاساسي Principal الذي هو ـ منذ بدء التكوين ـ قد خلق كل كائن مختلفا عن كل ما عداه لكي تكون له بعد ذلك فردية مستقلة .

افليست حقيقة اننا كنا قادرين على دفع الامميين الى مثل هذه الفكرة الخاطئة لنبرهن بوضوح قوي على تصورهم الضيق للحياة الانسانية اذا ما قورنوا بنا ؟ وهنا يكمن الامل الاكبر في نجاحنا .

ما كان ابعد نظر حكمائنا القدماء حينما اخبرونا انه للوصول الى غاية عظيمة حقا يجب الا نتوقف لحظة امام الوسائل وان لا نعتد بعدد الضحايا الذين تجب التضحية بهم للوصول الى هذه الغاية . اننا لم نعتد قط بالضحايا من ذرية اولئك البهائم من الامميين (غير اليهود) ومع اننا ضحينا كثيرا من شعبنا ذاته فقد بوأناه الآن مقاما في العالم ما كان ليحلم بالوصول اليه من قبل . ان ضحايانا ـ وهم قليل نسبيا ـ قد صانوا شعبنا من الدمار . كل انسان لا بد ان ينتهي حتما بالموت والافضل ان نعجل بهذه النهاية الى الناس الذين يعوقون غرضنا لا الناس الذين يقدمونه .

اننا سنقدم الماسون الاحرار الى الموت باسلوب لا يستطيع معه احد الا الاخوة ـ ان يرتاب ادنى ريبة في الحقيقة بل الضحايا انفسهم ايضا لا يرتابون فيها سلفا انهم جميعا يموتون ـ حين يكون ذلك ضروريا ـ موتا طبيعيا في الظاهر حتى الاخوة ـ وهم عارفو الحقائق ـ لن يجرؤوا على الاحتجاج ـ عليها .

وبمثل هذه الوسائل نستأصل جذور الاحتجاج نفسها ضد اوامرنا في المجال الذي يهتم به الماسون الاحرار فنحن نبشر بمذهب التحررية لدى الامميين وفي الناحية الاخرى نحفظ شعبنا في خضوع كامل .

وبتأثيرنا كانت قوانين الامميين مطاعة كأقل ما يمكن ، ولقد قوضت هيبة قوانينهم بالافكار التحريرية Liberal التي اذعناها في اوساطهم وان اعظم المسائل خطورة سواء اكانت سياسية ام اخلاقية انما تقرر في دور العدالة بالطريقة التي نشرعها ، فالاممي القائم بالعدالة ينظر الى الامور في اي ضوء نختاره لعرضها وهذا ما انجزناه متوسلين بوكلائنا

وباناس نبدو ان لا صلة لنا بهم كآراء الصحافة ووسائل اخرى ، بل ان اعضاء مجلس الشيوخ Senators وغيرهم من اكابر الموظفين يتبعون نصائحنا اتباعا أعمى .

وعقل الاممي ــ لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة ــ غير قادر على تحليل اي شيء وملاحظته فضلا عن التكهن بما قد يؤدي اليه امتداد حال من الاحوال اذا وضع في ضوء معين .

وهذا الاختلاف التام في العقلية بيننا وبين الاميين هو الذي يمكن ان يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله واننا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية superhuman nature . حين تقارن بالعقل الفطري البهيمي عند الاميين انهم يعاينون الحقائق فحسب ولكن لا يتنبأون بها وهم عاجزون عن ابتكار أي شيء وربما نستثني من ذلك الاشياء المادية ومن كل هذا يتضح ان الطبيعة قد قررتنا تقديرا لقيادة العالم وحكمه وعندما يأتي الوقت الذي نحكم فيه جهرة ستحين اللحظة التي نبين فيها منفعة حكمنا وسنقدم كل القوانين وستكون كل قوانيننا قصيرة وواضحة وموجزة غير محتاجة الى تفسير حتى يكون كل انسان قادرا على فهمها باطنا وظاهرا وستكون السمة feature الرئيسية فيها هي الطاعة اللازمة للسلطة وان هذا التوفير للسلطة سيرتفع الى قمة عالية جدا وحينئذ ستتوقف كل انواع اساءة استعمال السلطة لان كل انسان سيكون مسئولا امام السلطة العليا الوحيدة اي سلطة الحاكم وان سوء استعمال السلطة من جانب الناس ما عدا الحاكم سيكون عقابه بالغ الصرامة الى حد ان الجميع سيفقدون الرغبة في تجربة سلطتهم لهذا الاعتبار .

وسنراقب بدقة كل خطوة تتخذها هيئتنا الادارية التي سيعتمد عليها عمل جهاز الدولة فانه حين تصير الادارة بطيئة ستنبعث الفوضى في كل مكان ولن يبقى بمنجاة من العقاب اي عمل غير قانوني ولا اي سوء استعمال للسلطة .

ستزول كل اعمال الخفاء والتقصير العمد من جانب الموظفين في الادارة بعد ان يروا أوائل امثلة العقاب .

وستلتزم عظمة سلطتنا توقيع عقوبات تناسبها اي ان تلك العقوبات ستكون صارمة Harsh ولو عند أدنى مشروع في الاعتداء على هيبة سلطاننا من أجل مصلحة شخصية للمعتدي او لغيره والرجل الذي يعذب جزاء أخطائه ــ ولو بصرامة بالغة ــ انما هو جندي يموت في معترك الادارة من اجل السلطة والمبدأ والقانون وكلها لا تسمح بأي انحراف عن الصراط العام Public path من اجل مصالح شخصية ولو وقع من اولئك الذين هم مركبة الشعب Public chariot وقادته فمثلا سيعرف قضاتنا انهم بالشروع في اظهار تسامحهم يعتدون على قانون العدالة الذي شرع لتوقيع العقوبة على الرجال جزاء جرائمهم التي يقترفونها ولم يشرع كي يمكن القاضي من اظهار حلمه . هذه المفاضلة لا ينبغي ان تظهر الا في الحياة الخاصة للانسان لا في مقدرة القاضي الرسمية التي تؤثر في كل اسس التربية للنوع البشري .

ولن يخدم اعضاء القانون في المحاكم بعد سن الخامسة والخمسين للسببين الآتيين :

اولهما ــ ان الشيوخ اعظم اصرارا وجمودا في تمسكهم بالافكار التي يدركونها سلفا واقل اقتدارا على طاعة النظم الحديثة .

وثانيهما ــ ان مثل هذا الاجراء سيمكننا من احداث تغييرات عدة في الهيئة Staff والذين سيكونون لذلك خاضعين لاي ضغط من جانبنا فان اي انسان يرغب في الاحتفاظ بمنصبه سيكون عليه كي يضمنه ان يطيعنا طاعة عمياء . وعلى العموم سيختار قضاتنا من بين الرجال الذين يفهمون ان واجبهم هو العقاب وتطبيق القوانين وليس الاستغراق في احلام مذهب التحررية Liberalism الذي قد ينكب النظام التربوي للحكومة كما يفعل القضاة الامميون الآن وان نظام تغيير الموظفين سيساعدنا ايضا في تدمير اي نوع للاتحاد يمكن ان يؤلفوه فيما بين انفسهم ولن يعملوا الا لمصلحة الحكومة التي ستتوقف حظوظهم ومصائرهم عليها وسيبلغ من تعليم الجيل الناشىء من القضاة انهم سيمنعون بداهة كل عمل قد يضر بالعلاقات بين رعايانا بعضهم وبعض .

ان قضاة الاممين في الوقت الحاضر مترخون مع كل صنوف المجرمين

اذ ليست لديهم الفكرة الصحيحة لواجبهم ولسبب بسيط ايضا هــو ان الحكام حين يعينون القضاة لا يشددون عليهم في ان يفهموا فكرة ما عليهم من واجب .

ان حكام الامميين حين يرشحون رعاياهم لمناصب خطيرة لا يتعبــون انفسهم كي يوضحوا لهم خطورة هذه المناصب والفرض الذي انشئت من اجله فهم يعملون كالحيوانات حين ترسل جراءها الساذجة بغية الافتراس وهكذا تتساقط حكومات الامميين بددا على ايدي القائمين بامورها . اننا سنتخذ نهجا ادبيا واحدا اعظم مستنبطا من نتائج النظام الذي تعارف عليه الامميون ونستخدمه في اصلاح حكومتنا .

وسنستاصل كل الميول التحررية من كل هيئة خطيرة في حكومتنــا للدعاية التي قد تعتمد عليها لتربية من سيكونون رعايانا وستكون المناصب الخطيرة مقصورة بلا استثناء على من ربيناهم تربية خاصة للادارة .

واذا لوحظ ان اخراجنا موظفينا قبل الاوان في قائمة المتقاعدين قد يثبت انه يكبد حكومتنا نفقات باهظــة اذا فجوابي اننا قبــل كــل شيء سنحاول ان نجد مشاغل خاصة لهؤلاء الموظفين لنعوضهم عن مناصبهم في الخدمة الحكومية او جوابي ايضا ان حكومتنا على اي حال ستكون مستحوذة على كل اموال العالم فلن تأبه من اجل ذلك بالنفقات .

وستكون اوتوقراطيتنا مكينة في كل اعمالها ولذلك فان كــل قــرار سيتخذه امرنا العالي سيقابل بالاجلال والطاعة دون قيد ولا شرط وسنتنكر لكل نوع من التذمر والسخط وسنعاقب على كل اشارة تدل علــى البصر عقابا بالغا في صرامته حتى يتخذه الآخرون لانفسهم عبــرة وسنلغي حــق استئناف الاحكام ونقصره على مصلحتنا فحسب والسبب في هذا الالغاء هو انه يجب علينا الا نسمح ان تنمو بين الجمهور فكرة ان قضاتنا يحتمل ان يخطئوا فيما يحكمون .

واذا صدر حكم يستلزم اعادة النظر فسنعزل القاضي الذي اصــدره فورا ونعاقبه جهرا حتى لا يتكرر مثل هذا الخطأ فيما بعد .

ساكرر ما قلته من قبل وهو ان احد مبادئنا الاساسية هو مراقبــة

الموظفين الاداريين وهذا على الخصوص لارضاء الامة فان لها الحق الكامل في الاصرار على ان يكون للحكومة موظفون اداريون صالحون .

ان حكومتنا ستحمل مظهر الثقة الابوية Patriarchal في شخص ملكنا ، وستعده امتنا ورعايانا فوق الاب الذي يعنى بسد كل حاجاتهم ويرعى كل اعمالهم ويرتب جميع معاملات رعاياه بعضهم مع بعض ومعاملاتهم ايضا مع الحكومة وبهذا سينفذ الاحساس بتوفير الملك بعمق بالغ في الامة حتى لن تستطيع ان تقوم بغير عناية وتوجيه. انهم لا يستطيعون ان يعيشوا في سلام الا به وسيعترفون في النهاية به على انه حاكمهم الاوتوقراطي المطلق .

وسيكون للجمهور هذا الشعور العميق بتوقيره توقيرا يقارب العبادة وبخاصة حين يقتنعون بأن موظفيه ينفذون اوامره تنفيذا أعمى وانه وحده المسيطر عليهم وانهم سيفرحون بأن يرونا ننظم حياتنا Our Lives كما لو كنا اباء حريصين على تربية اطفالهم على الشعور المرهف الدقيق بالواجب والطاعة .

وتعتبر سياستنا السرية ان كل الامم اطفال وان حكوماتها كذلك ويمكنكم ان تروا بانفسكم اني اقيم استبدادنا على الحق Right وعلى الواجب Duty فان حق الحكومة في الاصرار على ان يؤدي الناس واجبهم هو في ذاته فرض للحاكم الذي هو أب لرعاياه ، وحق السلطة منحة له لانه سيقود الانسانية في الاتجاه الذي شرعته حقوق الطبيعة اي الاتجاه نحو الطاعة .

ان كل مخلوق في هذا العالم خاضع لسلطة ان لم تكن سلطة انسان فلسلطة الظروف او لسلطة الطبيعة الخاصة فهي ــ مهما تكن الحال ــ سلطة شيء اعظم قوة منه واذن فلنكن نحن الشيء الاعظم قوة من اجل القضية العامة .

ويجب ان نضحي دون تردد بمثل هؤلاء الافراد الذين يعتدون على النظام القائم جزاء اعتداءاتهم لان حل المشكلة التربوية الكبرى هو في العقوبة المثلى .

ويوم يضع ملك اسرائيل على راسه المقدس التاج الذي اهدته له كل اوروبا سيصير البطريرك Patriarch لكل العالم .

ان عدد الضحايا الذين سيضطر ملكنا الى التضحية بهم لن يتجاوز عدد اولئك الذين ضحى بهم الملوك الاميون في طلبهم العظمة ، وفي منافسة بعضهم بعضا .

سيكون ملكنا على اتصال وطيد قوي بالناس وسيلقي خطبا من فوق المنابر Tribunes وهذه الخطب جميعها ستذاع فورا على العالم .

البروتوكول السادس عشر

رغبة في تدمير اي نوع من المشروعات الجماعية غير مشروعنا سنبيد العمل الجماعي في مرحلته التمهيدية اي اننا سنغير الجامعات ونعيد انشاءها حسب خططنا الخاصة .

وسيكون رؤساء Heads الجامعات واساتذتها معدين اعدادا خاصا وسيلته برنامج عمل سري متقن سيهذبون ويشكلون بحسبه ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب . وسيرشحون بعناية بالغة ويكونون معتمدين كل الاعتماد على الحكومة Government وسنحذف من فهرسنا Syllabus كل تعاليم القانون المدني مثله في ذلك مثل اي موضوع سياسي آخر ولن يختار لتعلم هذه العلوم الا رجال قليل من بين المدربين لمواهبهم الممتازة ولن يسمح للجامعات ان تخرج للعالم فتيانا خضر الشباب ذوي افكار عن الاصلاحات الدستورية الجديدة كأنما هذه الاصلاحات مهازل Comedies او مآس Tragedies ولن يسمح للجامعات ايضا ان تخرج فتيانا ذوي اهتمام من انفسهم بالمسائل السياسية التي لا يستطيع ولو آباؤهم ان يفهموها .

ان المعرفة الخاطئة للسياسة بين اكداس الناس هي منبع الافكار الطوباوية Untopia Ideas وهي التي تجعلهم رعايا فاسدين .

وهذا ما تستطيعون ان تروه بأنفسكم في النظام التربوي للاميين « غير اليهود » وعلينا ان نقدم كل هذه المبادىء في نظامهم التربوي كي نتمكن من تحطيم بنيانهم الاجتماعي بنجاح كما قد فعلنا وحين نستحوذ على السلطة سنبعد من برامج التربية كل المواد التي يمكن ان تمسخ Upset عقول الشباب وسنصنع منهم اطفالا طيعين يحبون حاكمهم ويتبينون في شخصه الدعامة الرئيسية للسلام والمصلحة العامة .

وسنتقدم بدراسة مشكلات المستقبل بدلا من الكلاسيكات Classics وبدراسة التاريخ القديم الذي يشتمل على مثل Examples سيئة اكثر من اشتماله على مثل حسنة ، وسنطمس في ذاكرة الانسان العصور الماضية التي تكون شؤما علينا ولا نترك الا الحقائق التي ستظهر اخطاء الحكومات في الوان فاقعة فاضحة ، وتكون في مقدمة برنامجنا التربوي الموضوعات التي تعنى بمشكلات الحياة العملية والتنظيم الاجتماعي وتصرفات كل انسان مع غيره وكذلك الخطب التي تشن الغارة على النماذج الانانية السيئة التي تعتدي وتسبب الشر وكل ما يشبهها من المسائل الاخرى ذات الطابع الفطري . هذه البرامج ستكون مرتبة بخاصة الطبقات والطوائف المختلفة . وسيبقى تعليمها منفصلا بعضها عن بعض بدقة .

وانه لاعظم خطورة ان نحرص على هذا النظام ذاته وسيفرض على كل طبقة او فئة ان تتعلم منفصلة حسب مركزها وعملها الخاصين . ان العبقرية العارضة Ebance قد عرفت دائما وستعرف دائما كيف تنفذ الى طبقة اعلى ولكن من اجل هذا الغرض الاستثنائي تماما لا يليق ان نخلط بين الطوائف المختلفة ولا ان نسمح لمثل هؤلاء الرجال بالنفاذ الى المراتب العليا لا لسبب الا انهم يستطيعون ان يحتلوا مراكز قد ولدوا ليمثلوها وانتم تعرفون بأنفسكم كيف كان هذا الامر شؤما على الاميين اذ رضخوا للفكرة ذات الحماقة المطلقة القاضية بعدم التفرقة بين الطبقات الاجتماعية .

ولكي ينال ملكنا مكانة وطيدة في قلوب رعاته يتحتم اثناء حكمه ان تتعلم الامة سواء في المدارس والاماكن العامة اهمية نشاطه وفائدة مشروعاته .

اننا سنمحو كل انواع التعليم الخاص وفي ايام العطلات سنيكون للطلاب وآبائهم الحق في حضور اجتماعات في كلياتهم كما لو كانت هذه الكليات اندية

وسيلقي الاساتذة في هذه الاجتماعات احاديث تبدو كأنها خطب حرة في مسائل معاملات الناس بعضهم بعضا وفي القوانين وفي اخطاء الفهم التي هي على العموم نتيجة تصور زائف خاطىء لمركز الناس الاجتماعي واخيرا سيعطون دروسا في النظريات الفلسفية الجديدة التي لم تنشر بعد على العالم . هذه النظريات سنجعلها عقائد للايمان متخذين منها مستندا Stepping stone على صدق ايماننا ودينننا .

وحينما انتهي من رحلتكم خلال برنامجنا كله ـ وبذلك سنكون قد فرغنا من مناقشة كل الخطط في الحاضر والمستقبل ـ عندئذ سأتلو عليكم خلاصة تلك النظريات الفلسفية الجديدة ونحن نعرف من تجارب قرون كثيرة ان الرجال يعيشون ويهتدون بأفكار وان الشعب انما يلقن هذه الافكار عن طريق التربية التي تمد الرجال في كل العصور بالنتيجة ذاتها ولكن بوسائل مختلفة ضرورية واننا بالتربية النظامية سنراقب ما قد بقي من ذلك الاستقلال الفكري الذي نستغله استغلالا تاما لغايتنا الخاصة منذ زمان مضى ، ولقد وضعنا من قبل نظام اخضاع عقول الناس بما يسمى نظام التربية البرهانية Demonstrative education (التعليم بالنظر) الذي فرض فيه ان يجعل الاميين غير قادرين على التفكير باستقلال وبذلك سينظرون كالحيوانات الطيعة برهانا على كل فكرة قبل ان يتمسكوا بها . وان واحدا من احسن ركائزنا في فرنسا وهو بوري Pouroy واضع النظام الجديد للتربية البرهانية .

البروتوكول السابع عشر

ان احتراف القانون يجعل الناس يشبون باردين قساة عنيدين ويجردهم كذلك من كل مبادئهم ويحملهم على ان ينظروا الى الحياة نظرة غير انسانية بل قانونية ، انهم صاروا معتادين ان يروا الوقائع ظاهرة من وجهة النظر الى ما يمكن كسبه من الدفاع لا من وجهة النظر الى الاثر الذي يمكن ان يكون لمثل هذا الدفاع في السعادة العامة .

لامحام يرفض ابدا الدفاع عن اي قضية انه سيحاول الحصول على البراءة بكل الاثمان بالتمسك بالنقط الاحتيالية Tricky الصغيرة في التشريع jurisprudence وبهذه الوسائل سيفسد ذمة المحكمة .

ولذلك سنحد نطاق عمل هذه المهنة وسنضع المحامين على قدم المساواة on a footing مع الموظفين المنفذين Ex cutive والمحامون ـ مثلهم مثل القضاة ـ ان يكون لهم الحق في ان يقابلوا عملاءهم Clients ولن يتسلموا منهم مذكراتهم الا حينما يعينون لهم من قبل المحكمة القانونية وسيدرجون مذكرات من عملائهم بعد ان تكون النيابة قد حققت معهم مؤسسين دفاعهم عن عملائهم على نتيجة هذا التحقيق وسيكون اجرهم محدودا دون اعتبار بما اذا كان الدفاع ناجحا ام غير ناجح . انهم سيكونون مقررين بسطاء لمصلحة العدالة معادلين النائب الذي سيكون مقررا لمصلحة النيابة .

وهكذا سنختصر الاجراءات القانونية أختصارا يستحق الاعتبار وبهذه الوسائل سنصل ايضا الى دفاع غير متعصب ولا منقاد للمنافع المادية بل ناشىء عن اقتناع المحامي الشخصي ، كما ستفيد هذه الوسائل ايضا في وضع حد لاي رشوة او فساد يمكن ان يقعا اليوم في المحاكم القانونية في بعض البلاد .

وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين Clergy من الاممين (غير اليهود) في اعين الناس وبذلك نجحنا في الاضرار برسالتهم التي كان يمكن ان تكون عقبة كؤوداً في طريقنا وان نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوما فيوما .

اليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان ولن يطول الوقت الا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بددا انهيارا تاما . وسيبقى ما هو ايسر علينا للتصرف مع الديانات الاخرى ، على أن مناقشة هذه النقطة امرسابق جدا لاوانه .

سنقصر رجال الدين وتعاليمهم له على جانب صغير جدا من الحياة وسيكون تاثيرهم وبيلا سيئا على الناس حتى أن تعاليمهم لها اثر مناقض للاثر الذي جرت العادة بأن يكون لها .

حينما يحين لنا الوقت كي نحطم البلاط البابوي The Papal Court تحطيما تاما فان يدا مجهولة مشيرة الى الفاتيكان The Vatican ستعطي اشارة الهجوم وحينما يقذف الناس اثناء هيجانهم بأنفسهم على

الفاتيكان سنظهر نحن كحماة له لوقف المذابح وبهذا العمل سننفذ الى اعماق قلب هذا البلاط وحينئذ لن يكون لقوة على وجه الارض ان تخرجنا منه حتى تكون قد دمرنا السلطة البابوية ان ملك اسرائيل سيصير البابا Pope الحق للعالم وبطريرك Patrich الكنيسة الدولية .

ولن نهاجم الكنائس القائمة الان حتى تتم اعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد موقتة جديدة ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها عن طريق النقد Criticism الذي كان وسيظل ينشر الخلافات بينها ، وبالاجمال ستفضح صحافتنا الحكومات والهيئات الاممية الدينية وغيرها عن طريق كل انواع المقالات البذيئة Unscrubulous لنخزيها ونحط من قدرها الى مدى بعيد لا تستطيعه الا آمتنا الحكيمة .

ان حكومتنا ستشبه الاله الهندي فشنو Vishnu وكل يد من ايديها المائة ستقبض على لولب في الجهاز الاجتماعي للدولة .

انا سنعرف كل شيء بدون مساعدة البوليس الرسمي الذي بلغ من افسادنا اياه على الامميين انه لا ينفع الحكومة الا في أن يحجبها عن رؤية الحقائق الواقعة وسيستعمل برنامجنا فريقا ثالثا من الشعب لمراقبة ما قد ينبغي من احساس خالص بالواجب ومن مبدأ الخدمة الحكومية الاختيارية.

ويومئذ لن يكون التجسس عملا شائنا بل على العكس من ذلك سينظر اليه كانه عمل محمود . ومن الجبهة الاخرى سيعاقب مقدمو البلاغات Reports الكاذبة عقابا صارما حتى يكف اصحاب البلاغات عن استعمال حصانتهم استعمالا سيئا .

وسيختار وكلاؤنا Agents من بين الطبقات العليا والدنيا على السواء ، وسيتخذون من بين الاداريين والمحررين والطابعين وباعة الكتب والكتبة Clerks والعمال والحوذية والخدم وامثالهم وهذه القوة البوليسية لن تكون لها سلطة تنفيذية مستقلة ولن يكون لها حق في اتخاذ اجراءات حسب رغباتها الخاصة ، واذن فسينحصر واجب هذا البوليس الذي لا نفوذ له انحصارا تاما في العمل كشهود وفي تقديم بلاغات Reports وسيعتمد في فحص بلاغاتهم ومضبوطاتهم الفعلية على فرقة من المفتشين

المسئولين وسيجري فحص مضبوطاتهم الفعليـة علـى ايد الجندرمـة Gendarmes وبوليس المدينة واذا حدث تقصير في تبليغ اي مخالفـة Misdemeanour تتعلق بالامور السياسية فان الشخص الذي كان عليه تبليغها سيعاقب بتهمة الاخفاء العمد للجريمة اذا كان ممكنا اثبات انه مجرم بمثل هذا الاخفاء وعلى مثل هذه الطريقة يجب ان يتصرف اخواننا الان ، اي ان يشرعوا بانفسهم لابلاغ السلطة المختصة عن كل المتنكرين للعقيـدة Apostates وعن كل الاعمال التي تخالف قانوننا . هكذا يكون واجب رعايانا في حكومتنا العالمية Universal government ان يخدمـوا حاكمهم باتباع الاسلوب السابق الذكر .

ان تنظيما كهذا سيستأصل كل استعمال سيىء للسلطة والانـواع المختلفة للرشوة والفساد ـ انه سيجرف في الواقع كل الافكار التي لوثنا بها حياة الامميين عن طريق نظرياتنا في الحقوق البشرية الراقية Superhuman Rights وكيف استطعنا ان نحقق هدفنا لخلق الفوضى في الهيئات الادارية للامميين الا ببعض امثال هذه الوسائل ؟

ومن الوسائل العظيمة الخطورة لافساد هيئاتهم ان نسخر وكلاء ذوي مراكز عالية يلوثون غيرهم خلال نشاطهم الهدام بان يكشفوا وينموا ميولهـم الفاسدة الخاصة ، كالميل الى اساءة استعمال السلطة والانطلاق في استعمال الرشوة .

البروتوكول الثامن عشر

حينما يتاح لنا الوقت كي نتخذ اجراءات بوليسية خاصة بان نفرض قهرا نظام اكهرانا Okhrana حينئذ سنثير اضطرابات تهكمية بيـن الشعب او نغريه باظهار السخط المعطل Protracted وهذا يحـدث بمساعدة الخطباء البلغاء ان هؤلاء الخطباء سيجدون كثيرا من الاشيـاع Sympathipers وبذلـك يعطوننـا حجـة لـتفتيش بيـوت النـاس ووضعهم تحت قيود خاصة مستغلين خدمنا بين بوليس الامميين .

واذا كان المتآمرون مدفوعون بحبهم هذا الفن ـ فن التآمر وحبهـم

الثرثرة ـ فلن نمسسهم حتى نراهم على اهبة المضي في العمل وسنقتصر على ان نقدم من بينهم من اجل الكلام ـ عنصرا اخباريا Reporting Element ويجب ان نذكر ان السلطة تفقد هيبتها في كل مرة تكتشف فيها مؤامرة شعبية ضدها ، فمثل هذا الاكتشاف يوحي الى الاذهان أن تحدس وتؤمن بضعف السلطة وبما هو اشد خطرا من ذلك وهو الاعتراف بأخطائها . يجب ان يعرف اننا دمرنا هيبة الاممين الحاكمين متوسلين بعدد من الاغتيالات الفردية التي انجزها وكلاؤنا وهم خراف قطيعنا العميان الذين يمكن بسهولة اغراؤهم بأي جريمة ما دامت هذه الجريمة ذات طابع سياسي .

اننا سنكره الحاكمين على الاعتراف بضعفهم بأن يتخذوا علانية اجراءات بوليسية خاصة اكهرانا Oknrana وبهذا سنزعزع هيبة سلطتهم الخاصة .

وان ملكنا سيكون محميا بحرس سري جدا ، اذ لن نسمح لانسان ان يظن ان تقوم ضد حاكمنا مؤامرة ، هو شخصيا لا يستطيع ان يدمرها ، فيضطر خائفا الى اخفاء نفسه منها فاذا سمحنا بقيام هذه الفكرة ـ كما هي سائدة بين الامميين ـ فاننا بهذا سنوقع صك الموت ـ ان لم يكن موته هو نفسه فموت دولته **Dynasdy**

وبالملاحظة الدينية للمظاهر يستخدم ملكنا سلطته لمصلحة الام فحسب لا لمصلحته هو ولا لمصلحة دولته Dynaste

وبالتزامه مثل هذا الادب سيمجده رعاياه ويفدونه بأنفسهم . انهم سيقدسون سلطة الملك Sovereign مدركين ان سعادة الامة منوطة بهذه السلطة لانها عماد النظام العام .

ان حراسة الملك جهارا تساوي الاعتراف بضعف قوته .

وان حاكمنا سيكون دائما وسط شعبه وسيظهر محفوفا بجمهور مستطلع من الرجال والنساء يشغلون بالمصادفة ـ دائما حسب الظاهر ـ اقرب الصفوف اليه مبعدين بذلك عنه الرعاع بحجة حفظ النظام من اجل النظام فحسب ، وهذا المثل سيعلم الاخرين محاولة ضبط النفس ، واذا وجد صاحب ملتمس بين الناس يحاول ان يسلم الملك ملتمسا ويندفع خلال

الغوغاء فان الناس الذين في الصفوف الاولى سيأخذون ملتمسه وسيعرضونه على الملك في حضور صاحب الملتمس لكي يعرف كل انسان بعد ذلك ان كل الملتمسات تصل الى الملك وانه هو نفسه يصرف كل الامور . ولكي تبقى هيبة السلطة يجب ان تبلغ منزلتها من الثقة الى حد ان يستطيع الناس ان يقولوا فيما بين انفسهم ولو ان الملك يعرفه فحسب او حينما يعرفه الملك) .

ان الصوفية Mysticism التي تحيط بشخص الملك تتلاشى بمجرد ان يرى حرس من البوليس موضوع حوله فحين يستخدم مثل هذا الحرس فليس على اي مغتال Assassin الا ان يجرب قدرا معينا من الوقاحة والطيش كي يتصور نفسه اقوى من الحرص فيحقق بذلك مقدرته وليس عليه بعد ذلك الا ان يترقب اللحظة التي يستطيع فيها القيام بهجوم على القوة المذكورة .

اننا لا ننصح الامميين (غير اليهود) بهذا المذهب وانتم تستطيعون ان تروا بانفسكم النتائج التي ادى اليها اتخاذ الحرس العلني .

ان حكومتنا ستعتقل الناس الذين يمكن ان تتوهم منهم الجرائم السياسية توهما عن صواب كثير او قليل اذ ليس امرا مرغوبا فيه ان يعطى رجل فرصة الهرب مع قيام مثل هذه الشبهات خوفا من الخطأ في الحكم .

ونحن فعلا لن نظهر عطفا لهؤلاء المجرمين وقد يكون ممكنا في حالات معينة ان نعتد بالظروف المخففة Attenuating circumstances عند التصرف في الجنح الاجرامية العادية ولكن لا نرخص ولا نتساهل مع الجريمة السياسية اي لا نرخص مع الرجال حين يصيرون منغمسين في السياسة التي لن يفهمها احد الا الملك ، وانه من الحق انه ليس كل الحاكمين قادرين على فهم السياسة الصحيحة .

البروتوكول التاسع عشر

اننا سنحرم على الافراد ان يصيروا منغمسين في السياسة ولكننا من جهة اخرى سنشجع كل نوع لتبليغ الاقتراحات او عرضها ما دامت

تعمل على تحسين الحياة الاجتماعية والقومية كي توافـق عليها الحكومة ، وبهذه الوسيلة اذن سنعرف اخطاء حكومتنا والمثل العليا لرعايانا وسنجيب على هذه الاقتراحات اما بقبولها واما بتقديم حجة قويـة ــ اذا لم تكـن مقنعة ــ للتدليل على انها مستحيلة التحقيق ومؤسسة على تصور قصيـر النظر للامور .

ان الثـورة Sedition ليست اكثر من نباح كلب على فيـل ، ففي الحكومة المنظمة تنظيما حسنا من وجهة النظر الاجتماعية لا من وجهة النظر الى بوليسها ينبح الكلب على الفيل من غير ان يحقق قدرته ، وليس على الفيل الا ان يظهر قدرته بمثل واحد متقن حتى تكف الكلاب عن النباح وتشرع في البصبصة بأذنابها عندما ترى الفيل .

ولكي ننزع عن المجرم السياسي تاج شجاعته سنضعـه في مراتـب المجرمين الاخرين بحيث يستوي مع اللصوص والقتلة والانواع الاخرى من الاشرار المنبوذين المكروهين .

وعندئذ سينظر الراي العام الى الجرائم السياسية في الضوء ذاتـه الذي ينظر فيه الى الجرائم العادية ، وسيصمها بوصمة العار والخزي التي يصم بها الجرائم العادية بلا تفريق .

وقد بذلنا اقصى جهدنا لصد الامميين على اختيار هذا المنهج الفريد في معاملة الجرائم السياسية ولكي نصل الى هذه الغاية استخدمنا الصحافة والخطابة العامة وكتب التاريخ المدرسية المحصة واوحينا اليهم بفكـرة ان القاتـل السياسي شهيد لانه مات من اجل فكرة السعـادة الانسانيـة وأن مثل هذا الاعلان قد ضاعف عدد المتمردين فانتفخت طبقات وكلائنا بآلاف من الامميين .

البروتوكول العشرون

سأتكلم اليوم في برنامجنا المالي الذي تركته الى نهاية تقريري لانه اشد المسائل عسرا ولانه يكون المقطع النهائي في خططنا ، وقبل ان اناقش هـذه

النقطة سأذكركم بما اشرت من قبل اليه واعني بذلك ان سياستنا العامة متوقفة على مسألة الارقام .

حين نصل الى السلطة فان حكومتنا الاوتقراطية ـ من اجل مصلحتها الذاتية ـ ستتجنب فرض ضرائب ثقيلة على الجمهور وستتذكر دائما ذلك الدور الذي ينبغي ان تلعبه واعني به دور الحامي الابوي .

ولكن ما دام تنظيم الحكومة سيتطلب كميات كبيرة من المال فمن الضروري كل الضرورة ان تتهيأ الوسائل اللازمة للحصول عليه ولذلك يجب ان نحاول بحرص عظيم بحث هذه المسألة وان نرى ان عبء الضرائب موزع بالقسط .

وبحيلة وفق القانون ـ سيكون حاكمنا مالكا أملاك الدولة (وهذا يوضع موضع التنفيذ بسهولة) وسيكون قادرا على زيادة مقادير المال التي ربما تكون ضرورية لتنظيم تداول العملة في البلاد .

ومن هنا سيكون فرض ضرائبتصاعدية على الاملاك هو خير الوسائل لمواجهة التكاليف الحكومية وهكذا تدفع الضرائب دون ان ترهقالناسودون ان يفلسوا وان الكمية التي ستفرض عليها الضريبة ستتوقف على كل ملكية فردية .

ويجب ان يفهم الاغنياء ان واجبهم هو التخلي للحكومة عن جانب من ثرواتهم الزائدة لان الحكومة تضمن لهم تأمين حياة ما تبقى من املاكهم وتمنحهم حق كسب المال بوسائل نزيهة ، وانا اقول نزيهة لان ادارة الاملاك ستمنع السرقة على اسس قانونية .

هذا الاصلاح الاجتماعي يجب ان يكون في طليعة برنامجنا كما انهالضمان الاساسي للسلام فلن يحتمل التأخير لذلك .

ان فرض الضرائب على الفقراء هو اصل كل الثورات وهو يعود دائما بخسائر كبيرة على الحكومة وحين تحاول الحكومة زيادة المال على الفقراء تفقد فرصة الحصول عليه من الاغنياء .

ان فرض الضرائب على رؤوس الاموال يقلل من زيادة الثروة فيالايدي الخاصة التي سمحنا لها بتكديسها مفرضين ــ حين تعمل كمعاول لحكومة الاميين وماليائها .

ان الضرائب التصاعدية المفروضة على نصيب الفرد ستجبي دخلا اكبر من نظام الضرائب الحاضر (١٩٠١) الذي يستوي فيه كل الناس ، وهذا النظام في الوقت الحاضر ضروري لنا لانه يخلق النقمة والسخط بين الاميين .

ان قوة ملكنا ستقوم اساسا على حقيقة انه سيكون شملنا للتوازن الدولي والسلام الدائم العام وسيكون على رؤوس الاموال ان تتخلى عن ثروتها لتحفظ الحكومة نشاطها .

ان النفقات الحكومية يجب ان يدفعها من هم اقدر على دفعها ومن يمكن ان تزداد عليها الاموال .

مثل هذا الاجراء سيوقف الحقد من جانب الطبقات الفقيرة علىالاغنياء الذين هم الدعامة المالية الضرورية للحكومة وسترى هذه الطبقات ان الاغنياء هم حماة السلام والسعادة العامة لان الطبقات الفقيرة ستفهم ان الاغنياء ينفقون على وسائل اعدادها للمنافع الاجتماعية .

ولكيلا تبالغ الطبقات الذكية اي دافعو الضرائب في الشكوى من نظام الضرائب الجديد ــ سنقدم لهم كشوفا تفصيلية توضح طريق انفاق اموالهم ويستثنى منها بالضرورة الجانب الذي ينفق على حاجات الملك الخاصة ومطالب الادارة .

ولن يكون للملك ملك شخصي فان كل شيء في الدولة سيكون ملكا له اذا لو سمح للملك بحيازة ملك خاص فسيظهر كما لو كانت كل املاك الدولة غير مملوكة له .

واقارب الملك ــ الا وارثه الذي ستتحمل الحكومة نفقاته ــ سيكون عليهم كلهم ان يعملوا موظفينحكوميين او يعملوا عملا آخر لينالوا حقامتلاك الثروة ولن يؤهلهم امتيازهم بانهم من الدم الملكي لان يعيشوا عالة على نفقة الدولة .

وستكون هناك ضرائب دمغة تصاعدية على المبيعات والمشتريات مثلها مثل ضرائب التركات C'eath duties وان اي انتقال للملكية بغير الدمغة المطلوبة سيعد غير قانوني . وسيجبر المالك السابق fromer على ان يدفع عمالة بنسبة مئوية Percentage على الضريبة من تاريخ البيع .

ويجب ان تسلم مستندات التحويل (للملكية اسبوعيا) الى مراقبي الضرائب المحليين Local مصحوبة ببلاغ عن الاسم واللقب Surname لكل من المالكين الجديد والسابق والعنوان الثابت لكل منهما ايضا .

ان مثل هذا الاجراء سيكون ضروريا من اجل المعاملات المالية حين تزيد على مقدار معين اعني حين تزيد على مقدار يعادل متوسط النفقات اليومية الضرورية الاولية Prime وسيكون بيع الاشياء الضرورية مدموغا Stamped بضريبة دمغة محدودة عادية .

ويكفي ان تحسبوا انتم كم ضعفا سيزيد به مقدار هذه الضرائب على دخل حكومات الامميين .

ان الدولة لا بد لها من ان تحتفظ في الاحتياطي بمقدار معين من راس المال واذا زاد الدخل من الضرائب على هذا المبلغ المحدود فسترد الدخول الفائضة الى التداول وهذه المبالغ الفائضة ستنفق على تنظيم انواع شتى من الاعمال العامة .

وسيوكل توجيه هذه الاعمال الى هيئة حكومية وبذلك ستكون مصالح الطبقات مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالح الحكومة ومصالح ملكهم وسيرصد كذلك جزء من المال الفائض للمكافات على الاختراعات والانتاجات .

ومن الزم الضرورات عدم السماح للعملة Currency بأن توضع دون نشاط في بنك الدولة اذا جاوزت مبلغا معينا ربما يكون القصد منه غرضا خاصا اذ ان العملة وجدت للتداول . وان اي تكديس للمال ذو اثر حيوي في امور الدولة على الدوام لان المال يعمل عمل الزيت في جهاز الدولة فلو صار الزيت عائقا اذن لتوقف عمل الجهاز .

وما وقع من جراء استبدال السندات بجزء كبير من العملة قد خلق الان تضخما يشبه ما وصفناه تماما ونتائج هذه الواقعة قد صارت واضحة وضوحا كافيا .

وكذلك ستنشىء هيئة للمحاسبة كي تمكن الملك من ان يتلقى في اي وقت حسابا كاملا لخرج Expenditure الحكومة ودخلها . وستحفظ كل التقريرات بدقة وحزم الى هذا التاريخ ما عدا تقريرات الشهر الجاري والمتقدم .

والشخص الوحيد الذي لن تكون له مصلحة في سرقة بنك الدولة سيكون هو مالكه واعني به الملك ولهذا السبب ستقف سيطرته كل احتمال للاسراف او النفقة غير الضرورية وان المقابلات التي يمليها ادب السلوك وهي مضيعة لوقت الملك الثمين ـ ستكون معدومة لكي تتاح له فرصة عظمى للنظر في شئون الدولة ولن يكون الملك في حكومتنا محوطا بالحاشية الذين يرتقون عادة في خدمة الملك من اجل الابهة ولا يهتمون الا بأمورهم الخاصة مبتعدين جانبا عن العمل لسعادة الدولة .

ان الازمات الاقتصادية التي دبرناها بنجاح باهر في البلاد الاممية قد انجزت عن طريق سحب العملة من التداول فتراكمت ثروات ضخمة وسحب المال من الحكومة التي اضطرت بدورها الى الاستنجاد بملاك هذه الثروات لاصدار قروض وقد وضعت هذه القروض على الحكومات اعباء ثقيلة اضطرتها الى دفع فوائد للمال المقترض مكبلة بذلك ايديها .

وان تركز الانتاج في ايدي الراسمالية قد امتص قوة الناس الانتاجية حتى جفت وامتص معها ايضا ثروة الدولة .

والعملة المتداولة في الوقت الحاضر لا تستطيع ان تفي بمطالب الطبقات العاملة اذ ليست كافية للاحاطة بهم وارضائهم جميعا .

ان اصدار العملة يجب ان يساير نمو السكان ويجب ان يعد الاطفال مستهلكي عملة منذ اول يوم يولدون فيه ، وان تنقيح العملة حينا فحينا مسألة حيوية للعالم اجمع .

واظنكم تعرفون ان العملة الذهبية كانت الدمار للدولة التي سارت عليها لانها لم تستطع ان تفي بمطالب السكان ولاننا فوق ذلك قد بذلنا اقصى جهدنا لتكديسها وسحبها من التداول .

وان حكومتنا ستكون لها عملة قائمة على قوة العمل في البلاد وستكون من الورق او حتى من الخشب .

وسنصدر عملة كافية لكل فرد من رعايانا مضيفين الى هذا المقدار عند ميلاد كل طفل ومنقصين منه عند وفاة كل شخص .

وستقوم على الحسابات الحكومية حكومات محلية منفصلة ومكاتب اقليمية (ريفية) .

ولكيلا تحدث مماطلات في دفع الامور المستحقة للحكومة سيصدر الحاكم نفسه اوامر عن مدة دفع هذه المبالغ وبهذا ستنتهي المحاباة التي تظهرها احيانا وزارات المالية نحو هيئات معينة .

ستحفظ حسابات الدخل والخرج معا لكي يمكن دائما مقارنة كل منهما بالاخرى .

والخطط التي سنتخذها لاصلاح المؤسسات المالية للامميين ستقوم بأسلوب لن يمكن ان يلحظوه فسنشير الى ضرورة الاصلاحات التي تتطلبها الحالة الفوضوية التي بلغتها الماليات الاممية وسنبين ان السبب الاول لهذه الحالات السيئة المالية يكمن في حقيقة انهم يبدأون السنة المالية بعمل تقدير تقريبي للميزانية الحكومية وان مقدارها يزداد سنة فسنة للسبب التالي: وهو ان الميزانية الحكومية السنوية تستمر متأخرة حتى نهاية نصف السنة وعندئذ تقدم ميزانية منقحة ينفق مالها بعامة في ثلاثة اشهر وبعد ذلك يصوت لميزانية جديدة وفي نهاية السنة تقرر حسابات بتصفية الميزانية . ان الميزانية لسنة واحدة تقوم على جملة النفقة المتصلة في السنة السابقة وعلى ذلك فهناك عجز في كل سنة نحو خمسين بالمائة من المبلغ الاسمي ، فتضاعف الميزانية السنوية بعد عشر سنوات ثلاثة اضعاف ، وبفضل هذا الاجراء الذي اتبعته الحكومات الاممية الغافلة استنفدت اموالهم الاحتياطية عندما

حلت مواعيد الديون وافرغت بنوك دولتهم وجذبتهم الى حافة الافلاس.

وسوف تفهمون سريعا ان مثل هذه السياسة للامور المالية التي اغوينا الاميين باتباعها لا يمكن ان تكون ملائمة لحكومتنا .

ان كل قرض ليبرهن على ضعف الحكومة وخيبتها في فهم حقوقها التي لها ، وكل دين – كأنه سيف داموكليز Damocles – يعلق على رؤوس الحاكمين الذين يأتون الى اصحاب البنوك Bankers منا وقبعاتهم في ايديهم بدلا من دفع مبالغ معينة مباشرة عن الامة بطريقة الضرائب الوقتية .

ان القروض الخارجية مثل العلق الذي لا يمكن فصله عن جسم الحكومة حتى يقع من تلقاء نفسه او حتى تتدبر الحكومة كي تطرحه عنهاولكن حكومات الاميين لا ترغب في أن تطرح عنها هذا العلق بل هي عكس ذلك فانها تزيد عدده ، وبعد ذلك كتب على دولتهم ان تموت قصاصا من نفسها بفقد الدم فماذا يكون القرض الخارجي الا انه علقة ؟ القرض هو اصدار اوراق حكومية توجب التزام دفع فائدة تبلغ نسبة مئوية من المبلغ الكلي للمال المقترض ، فاذا كان القرض بفائدة قدرها خمسة بالمائة ، ففي عشرين سنة ستكون الحكومة قد دفعت بلا ضرورة مبلغا يعادل القرض لكي تغطي النسبة المئوية وفي اربعين سنة ستكون قد دفعت ضعفين ، وفي ستين سنة ثلاثة اضعاف المقدار ، ولكن القرض سيبقى ثابتا كأنه دين لم يسدد .

ثابت من هذه الاحصائية ان هذه القروض تحت نظام الضرائب الحاضرة (١٩٠١) تستنفد آخر المليمات النهائية من دافع الضرائب الفقير كي تدفع فوائد للراسماليين الاجانب الذين اقترضت الدولة منهم المال ، بدلا من جمع الكمية الضرورية من الامة مجردة من الفوائد في صورة الضرائب .

وقد اكتفى الاغنياء – طالما كانت القروض داخلية – بأن ينقلوا المال من اكياس الفقراء الى اكياس الاغنياء ، ولكن بعد ان رشونا آناسا لازمين لاستبدال القروض الخارجية بالقروض الداخلية – تدفقت كل ثروة الدول الى خزائننا وبدأ كل الاميين يدفعون لنا ما لا يقل عن الخراج المطلوب .

ـ والحكام الاممیون ـ من جراء اهمالهم او بسبب فساد وزرائهم او جهلهم ـ قد جروا بلادهم الى الاستدانة من بنوكنا حتى انهم لا يستطيعون تأدية هذه الديون ، ويجب ان تدركوا ما كان يتحتم علينا ان نعانيه من الالام لكي تتهيأ الامور على هذه الصورة .

سنحتاط في حكومتنا حيطة كبيرة كي لا يحدث تضخم مالي وعلى ذلك لن نكون نحن في حاجة الى قروض للدولة الا قرضا واحدا ذا فائدة قدرها واحد في المائة تكون سندات على الخزانة حتى لا يعرض دفع النسبة المئوية للبلاد لان يمتصها العلق .

وستعطى الشركات التجارية حق اصدار السندات استثناء فان هذه الشركات لن تجد صعوبة في دفع النسبة المئوية من ارباحها لانها تقترض المال للمشروعات التجارية ولكن الحكومات لا تستطيع ان تجني فوائد من المال المقترض لانها انما تقترض دائما لتفي ما اخذت من القروض .

وستشتري الحكومة ايضا اسهما تجارية فتصير بهذا دائنة بدل ان تكون مدينة ومسددة للخراج tribute كما هي الان وان اجراء كهذا سيضع نهاية للتراخي والكسل اللذين كانا مفيدين لنا طالما كان الاممیون (غير اليهود) مستقلين وسيصيران بغيضين في حكومتنا .

ويكفي للتدليل على فراغ عقول الامميين المطلقة البهيمة حقا انهم حينما اقترضوا المال منا بفائدة خابوا في ادراك ان كل مبلغ مقترض هكذا مضافا اليه فائدته لا مفر من ان يخرج من مواد البلاد وكان ايسر لهم لو انهم اخذوا المال من شعبهم مباشرة دون حاجة الى دفع فائدة ، وهذا يبرهن على عبقريتنا وعلى عقيدة اننا الشعب الذي اختاره الله ان من الحنكة والدربة اننا نعرض مسألة القروض على الامميين في ضوء يظنون معه انهم وجدوا فيها الربح ايضا .

ان تقديراتنا Estimates التي سنعدها عندما يأتي الوقت المناسب والتي ستكون مستمدة من تجربة قرون والتي كنا نمحصها عندما كان الاممیون يحكمون ، ان تقديراتنا هذه ستكون مختلفة في وضوحها العجيب عن التقديرات التي صنعها الاممیون، وسنبرهن للعالم كيف ان خططنا الجديدة ناجحة. ان هذه الخطط ستقضي على المساوىء التي صرنا بأمثالها سادة الامميين والتي لا

يمكن ان نسمح بها في حكمنا وسنرتب نظام ميزانيتنا الحكومية حتى لن يكون الملك نفسه ولا اشد الكتبة Clerks خمولا في مقام لا يلاحظ فيه اختلاسه لاصغر جزء من المال ولاستعماله اياه في غرض اخر غير الغرض الموضوع له في التقدير الاول (في الميزانية) .

ويستحيل الحكم بنجاح الا بخطة محكمة احكاما تاما حتى الفرسان والابطال يهلكون اذا هم اتبعوا طريقا لا يعرفون الى اين يقودهم او اذا بدأوا رحلتهم من غير ان يتأهبوا الاهبة المناسبة لها .

ان ملوك الامميين الذين ساعدناهم كي نغريهم بالتخلي عن واجباتهم في الحكومة بوسائل الوكالات (عن الامة) **Representation** والولائم Entertainments والابهة والملاهي الاخرى – **وهؤلاء الملوك** لم يكونوا الا حججا لاخفاء مكايدنا ودسائسنا .

وان تقريرات المندوبين الذين اعتيد ارسالهم لتمثيل الملك في واجباته العامة قد صنعت بايدي وكلائنا وقد استعملت هذه التقريرات في كل مناسبة كي تبهج عقول الملوك القصيرة النظر مصحوبة – كما كانت – بمشروعات عن الاقتصاد في المستقبل وكيف استطاعوا أن يقتصدوا بضرائب جديدة . هذا ما استطاعوا ان يسألوا عنه قراء تقريراتنا التي يكتبونها عن المهام التي يقومون بها ولكنهم لم يسألوا عنها فعلا .

وانتم انفسكم تعرفون الى اي مدى من الاختلال المالي قد بلغوا باهمالهم الذاتي ، فلقد انتهوا الى الافلاس رغم كل المجهودات الشاقة التي يبذلها رعاياهم التعساء .



هذه هي البروتوكولات التي افصح عنها العصر الحديث وهي التي اصبحت في تاريخ الجماعات اليهودية عبر التاريخ ثالث ثلاثة مصادر دينية تختلف في طبيعتها والظروف التي عملت في تكوين مضمونها ولكنها جميعا تتفق في توجيه حركة وسلوك الانسان اليهودي اذا ما ارتبط عمليا وايجابيا بمطامعه ونزعات الاستغلال التي تسيطر على وجدانه ومشاعره تجاه غيره من البشر ، ومن عجب انه يمكن للناظر الى ما يجري في كثير من وقائع

العالم الكبرى السياسية والعسكرية او التخريبية والتدميرية او حوادث القتل والاغتيال والاختطاف ان يلمح بيسر وجود علاقة بين ما يحدث وبين مواقف اليهود تجاه غيرهم على ضوء المخطط العام السياسي والعقائدي المرسوم اصلا واساسا في مكونات المعطيات الدينية التي يتلقونها من المصادر الدينية الثلاثة والتي صيغت سياسيا وحركيا في تعاليم ونصوص البروتوكولات .

ولما كانت تعاليم البروتوكولات في جملتها وتفصيلها تعني العمل وفق خطة سياسية واخلاقية واقتصادية للسيطرة على المقدرات الانسانية ليمكن سوق العالم وتسخيره من اجل المخطط المرسوم فان الجماعات اليهودية راحت ، وبذكاء تنظيمي خارق ، تلعب دورا ضد الامم والشعوب ، وليس هناك ما يواجه العالم الانساني من خطر مدمر وساحق سواه . وهذا الخطر الذي يترصد خطى حركة الامم والشعوب حتى اذا ما اتيح له الانقضاض على حياة الشعوب وكرامتها قتلها ومسخها دون وازع من خلق او ضمير .
وهذا الخطر الذي تعد له اليهودية العالمية كي يعظم ويتفاقم هو اسلوب العمل الديني القائم على اشكال تنظيمية سياسية ودينية ليتيسر له دوام الاستمرار والانتشار ، ومن مجالات هذا الخطر الميدان المعروف بـ (النشاط الماسوني) لجمعيات (الماسون) المنتشرة في ارجاء العالم كله .

الجمعيات الماسونية واطماع اليهود

قلنا في كتابنا (الصهيونية في التاريخ) عن التنظيمات الدينية والاخلاق انه على المستوى الديني والاخلاقي حاول اليهود ان يحافظوا على اسلوب عمل لهم يضمن لهم امكانية الحركة والتعبير عن مطامعهم فيما بعد ، وما نود ان نقرر له الان قبل ان نتعرض بالتفصيل عن دور الجمعيات الماسونية في خدمة الاطماع اليهودية وخاصة فيما يتعلق بتعاليم البروتوكولات ومخططاتها هو انه من المتفق عليه تماما انه في عام ١٨٦٩ م وفي مدينة (براغ) قد عقد اجتماع سري على قبر القديس اليهودي (سيمون بن يهودا) وكان هذا الاجتماع قمة العمل اليهودي في الجمعيات السرية المسماة بالماسون فقد تم في هذا الاجتماع تطوير مرحلة اعادة النظر في تعاليم الماسونية ورموزها التي كانت منذ عام ١٧١٧ م حين أعيد النظر في التعاليم اليهودية بتغيير بعض

الاساليب لتلائم الجو الجديد الذي كان فيه الشعب في بريطانيا والولايات المتحدة ، جو البروتستانت المسيحيين .

والاجتماع السري الذي عقد في مدينة براغ على قبر القديس اليهودي سيمون بن يهودا الها وسيدا ليهود العصر الحديث يحطون اليه الرحـــال ويجمعون حواليه ما يبعثره لهم الزمن او ما يؤاتيهم به ويرمز الى تعاليمهم وامانيهم في ظروف العالم الجديد ، وكانت هذه المرحلة تتم وفق خطة عامة دينية وسياسية بايحاء وتوجيهات من تنظيم عالمي يطلق عليه في الاصطلاحات المتفق عليها بين اعضاء جمعيات الماسون اسم الحكومة العالمية ، ولهـــذه الحكومة العالمية كل قرائن المخططات اليهودية من بين تعاليم المصادر التـي اشرنا اليها وتدل على انها موجودة وقائمة ومنبثة في جميع بلاد الدنيا وتعمل وفق الخطة العالمية المقررة في تعاليم البروتوكولات بمنهج ديني وسياسي هادف بقصد التحكم كما قلنا في كل مقدرات الشعوب ومصائرها حتـى ياتي يوم حكمها حكما نهائيا ومطلقا .

ومن بين ما يعرف المشتغلون بالمسائل اليهودية ان هناك بين التنظيمات اليهودية في العالم ثلاثمائة رجل يعرفون بعضهم ـ حركيا وتنظيميا ـ جيدا وهم يتحركون باستعدادات خاصة ومكونات عالية تؤهلهم للعمل في هذه الحكومات السرية وعندما يموت الواحد منهم او يسقط يتم تعيين غيره على الفور من الصف الثاني وهو خلف له ، نفس الاستعداد للعمل الحركي الخفي ولديه من التحمس والارتباط بالنصوص المعتقدة مـــن توراة وتلمـــود وبروتوكول من اجل حكم العالم والسيطرة عليه بعد اشاعة عمليات مسخ وتشويه كل ما هو مقدس او حضاري ، الشيء الذي لا يتصور من حيث قوة الجلد والصبر والارهاب والمطاردة والتضحية ، المعاني التي لا يمارسها اليهودي الا متسلقا للغير او متصيدا نتائجها بجهد الاخرين ليحقق مآربه واغراضه.

ومن عجب ان الخط السياسي والديني الذي تسير عليه الجماعـات اليهودية في ظل توجيهات هذه الحكومة السرية العالمية ويرتبـط بقضايـا معتقدة تأخذ دورها في خطة تعبر عن مطمع الجماعات اليهودية في المستقبل الكبـــير .

فمن بين المعتقدات التي تواجه الحركة السياسية للمستقبل اليهودي

وأطماعه في العالم بعض فقرات تقول من اجل تعميق وتأكيد اسلوب العمل حول الحكومة السرية التي تباشر سلطانها في التوجيه والتأثير على اعضاء الجمعيات التي تنقل تعاليم المعتقدات الدينية الى واقع يباشر بالحس والتجربة .

« ... لقد وكل آباؤنا من قادة يهوذا امر الاجتماع مرة على الاقل في كل قرن حول قبر استاذنا الاعظم الرباني المقدس « سيمون بن يهودا » الذي تعطي تعاليمه للصفوة الممتازة من كل جيل سيطرة على جميع العالم وسلطة على شعب يهوذا » .

ومن اعجب العجب ان مثل هذه المعتقدات تجد في اصحاب الطبع الملتوي والخلق النهاز من جماعات اليهود صدى واستجابة تفوق كل ما يربطهم بأمة او جماعة ويعملون بوحي منها من اجل السيطرة على العالم ويقولون من بين ما يعتقدون وما يخططون :

« ... قد مضى ثمانية عشر قرنا على حرب يهوذا من اجل السيطرة على العالم التي وعد بها ابراهيم والتي اغتصبها الصليب غصبا ورغم ان شعب يهوذا قد ديس بالاقدام وأهين من قبل اعدائه وكان على الدوام متهددا بالموت والاضطهاد والاغتصاب وجميع انواع الشدائد فانه لم يستسلم ، فاذا كنا قد انتشرنا في جميع انحاء العالم فذلك لان العالم كله ملك لنا » .

تطور التنظيم العقائدي عند اليهود

الجمعيات السرية المسماة ب « الماسونية » قبل ان تدخل في المراحل النهائيةمن اشكالها التنظيمية التيعرفت بها اخيرا منبثةفيجميعبلدانالعالم مسخرة لها ومسيطرة عليها مرت بأطوار عديدة كانت فيها تتلون وتتغير طبقا لمقتضيات كل عصر وظروف كل بيئة وجهود الجماعات اليهودية في كل مرحلة من مراحل التطوير والانتشار الاخلاقي بأسلوب العمل المعبر عن تعاليم البروتوكولات وغيرها كانت تكلفهم زمنا طويلا من العمل المتواصل والتخطيط الدقيق وكان كل جيل عليه ان يصنع لبنة في بناء الوهم الكبير

لتحقيق اطماع الذين سجلوا ودونوا جشعهم وحقدهم على مقدرات العالم والقيم الانسانية في بروتوكولات حكماء صهيون .

ومن المراحل التي مر بها العمل التنظيمي الحركي للجمعيات المذهبية الماسونية والتي اخذت اهمية تخطيطية منظمة هي مرحلة طويلة ومتداخلة تمتد عبر القرن الثامن عشر والتاسع عشر واوائل القرن العشرين .

ولقد كانت هذه المرحلة مرتبطة بما طرا على حياة الجماعات اليهودية داخل الاوطان التي يعيشون فيها ، ذلك انه قد تمكن النفوذ اليهودي ان يتحرر من الاسر الذي كان يتعرض له داخل اوطان الشعوب التي يعيش بينها ، وابتدأ النفوذ اليهودي بعد تمكنه من ان يركب النمو والتطور المادي الذي ساعد على تغيير علاقات اجتماعية وخلق مجالات وميادين للعمل الاجتماعي والسياسي لم تكن موجودة ان يقاوم ما يلاقيه او يواجهه من اجل دعواه العنصرية حين كان يستعلي بالجنس او يحاول السيطرة على وسائل الحياة العامة وفق دعوته واماتيه .

ومن الملاحظ انه كان اسلوب المقاومة اليهودية للمجتمعات التي كانت تبتلى بهم فتتنبه لخطرهم وتتخذ منهم موقفا او تضيق عليهم السبل ، ان اسلوب المقاومة اليهودية هو نفسه منهج تعاليم هذه الجمعيات الخفي والمستتر والمنتشر في بلدان العالم .

وهذه المرحلة يتمدد زمانها وتدخل عوامل كثيرة من تطور وتقدم ومعتقدات كانت من اخطر المراحل في حياة الشعوب ، فالمجتمعات التي كانت تطمئن الى نفسها وتريد ان تشق طريقا بعيدا عن الارتباط بضغوط الجماعات اليهودية وتوجيهها ، كانوا هم يركزون عليها لهدمها اولا ـ اخلاقيا ـ من حيث تريد هي البناء ، وكانت الجمعيات المسماة (بالماسون) هي اسلوبهم في التعبير عن دنس الطبع وسوء الطوية التي كانت آداتهم في مواجهة الشعوب التي ترفضهم .

في مرحلة اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين تغلغل سلطان اليهود في العالم بما أتيح لهذه الجمعيات من مسببات الانتشار والنجاح ، ذلك ان نشاطا تجاريا اجتاح العالم بسبب تطور الثورة الصناعية التي ساعدت على تطور وسائل المواصلات في العالم واتيح لهذه

الجمعيات امكانية الانتشار والانتقال بأعضائها من مكان لآخر لنشر ما في تعاليمهم من مبادىء واهداف تتعلق بأمانيهم واطماعهم عن طريق هذه الجمعيات التي تتعدد وتتفرع لتعود بكل حصيلتها من تاثير وتوجيه في اخلاقيات الشعوب ومقدراتها الى مصدرها الاصلي ، ولتقدم كشف حساب ولتتلقى تعليمات مرحلة أثر مرحلة في الانتشار والتوجيه والسيطرة كي ترتبط كل تأثيرات هذه الجمعيات بالهدف الذي تعبر عنه الخطة الكبرى للحكومة السرية العالمية المنبثة في جميع بلدان العالم والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الاطماع اليهودية .

وقد يعجب الانسان اذا علم انه امكن للجماعات اليهودية عن هذا الطريق أن يتغلغل سلطانهم الى جميع الحكومات الاوربية والامريكية الى الحد الذي لم يكن ليخلو مرفق او هيئة او بيت مال بالاضافة الى رجال الحكومة وقادة الجيوش ورؤساء الدول من وجود عدد ضخم منهم يمثل جزءا من الجهاز العام في هذه الجمعيات للسيطرة على المواقع الحساسة عن طريق من يدينون بالولاء لدعوات الماسونية وتعاليمها .

وفي احصائية للاستاذ (عبدالله التل) في كتابه « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » تبين منها انه امكن للجماعات اليهودية عن طريق عضوية هذه الجمعيات ان تؤثر بتعاليمها في ما لا يقل عن ٦٠ بالمئة من عدد العاملين في الجمعية العامة للامم المتحدة وعن طريق التطور بعمل هذه الجمعيات ، ولم تكن الجماعات اليهودية تتوانى في العمل والاعداد من اجل تحقيق اهداف هذه الجمعيات في التأثير والسيطرة والانتشار ، ففي عام ١٧١٧ م كان اليهود قد اعادوا النظر كما سبق الاشارة الى ذلك في التعاليم اليهودية ولم يتغير الهدف الموضوعي المرتبط بالبروتوكولات ومعطيات العقيدة الدينية عند اليهود ، كل ما في الامر انهم غيروا بعض الشيء من اسلوب العمل ليلائم الجو الجديد ، وهذا التغيير الذي تطورت اليه الجمعيات الماسونية على مختلف المراحل ضمن لها امكانيات النجاح في ان تصبح اكبر البيوتات المالكة والحاكمة في اوربا اعضاء في المحافل الماسونية.

وكان من اثر التغيير الذي حدث في عملية تطوير الاشكال والرموز التنظيمية وفي اسلوب العمل الماسوني أن اصبح الاسم الجديد المتفق عليه لحركة العضوية الماسونية « جماعة البنائين الاحرار » بعد ان كان يرمز

الى حركة العضوية بالقوة المستورة وعندما لبسوا الاشكال الجديدة العصرية اضفوا عليها من بريق الدعاية والخداع ما يزيد من قوة الجاذبية الدعوة الى الانخراط في عضوية جمعيات ومحافل الماسون .

ولقد اطلقوا الشعارات الرنانة وكان من بينها : الحرية ، الاخاء ، المساواة . وظلت هذه الشعارات واجهة خداع وتضليل حتى انكشفت الاهداف العظمى والحقيقية وراء تنظيم الماسون ودوره في خدمة التعاليم اليهودية المستمدة من البروتوكولات .

ولقد كان من اثر انكشاف وانفتاح حقيقة التنظيم الماسوني أن وقف العالم على اهداف عظمى للاطماع اليهودية وكان منها :

١ ــ المحافظة على حركة اليهود العالمية .

٢ ــ محاربة الاديان جميعا والكثلكة بصورة خاصة .

٣ ــ العمل المنظم على بث روح الالحاد في العالم .

وذلك من اجل الغاية العظمى لليهودية العالمية وهي القضاء على الاسلام ، ومع ان الكثيرين قد تنبهوا الى خطر الماسونية على المقدرات الانسانية وان من بين الاهداف المباشرة في العمل الماسوني ان تتحول القيم الانسانية كلها الى حال من المسخ والتشويه ليصبح العالم سوقا للفوضى وملهى للاباحة ، الا ان سموم الجمعيات الماسونية كانت قد نفذت الى كثير من أساليب الحياة العامة وخاصة عندما انتشر اخطبوط الماسونية في بريطانيا لينتقل منها الى باريس ، ولقد وقع في ايدينا معظم ما كتب عن نشاط هذا الاخطبوط ، من عجب ان اكثر وجهات النظر التي تكتب فيه تؤمن بهذا النشاط وتدافع عنه .

وقد يعجب البعض اذا علم ان تخطيط القوى اليهودية المدبرة لامر الجمعيات يمتد الى مراحل طويلة وبعيدة في الزمن الماضي ، فأول محفل ماسوني عقد في باريس كان عام ١٧٣٢ م وكان هذا المحفل بالذات من الاهمية بحيث ادخل العمل الماسوني مرحلة جادة وخطيرة بعد ذلك ، فمن عند محفل باريس ١٧٣٢ م بالذات اتجهت جهود القوى المدبرة لحركة الجمعيات الماسونية الى تنفيذ الاستيلاء على مساحة كبيرة من الارض وعدد

ضخم من البشر ، كان ذلك حين عقدت محافل بوسطن في الولايات المتحدة عام ١٧٣٣ م وان كان قبل محافل بوسطن كانت تقام محافل ماسونية في نيويورك لم تكن ذات اهمية كبيرة .

ومن بوسطن ونيويورك انتشرت المحافل الماسونية بعد عام ١٧٣٣ م كالوباء في جميع بلدان الولايات المتحدة الامريكية فلم يكد يأتي عام ١٩٠٧ م حتى زاد عدد المحافل الماسونية بنفس منهج الخداع والزيف الذي يقود البشر بدعوة المذاق الحلو لكل المحرمات، هذا المنهج الذي تلتذ له الجماعات التي تتقبل به الدعوة الى فوضى الجنس وبهيمية العلاقات بين الناس .

وقد شاعت تعاليم الماسونية وكثرت جمعياتها ببريق دعواتها الانحلالية بين اكثر مجتمعات اوربا ، فعن طريق بريطانيا تأسست المحافل الماسونية في كندا واستراليا ونيوزلندا ومصر ايضا وغيرها من بلاد العالم العربي ، ولم تقدم مصر العربية المسلمة على قتل هذا النشاط التخريبي وتقوم بالقضاء عليه كعامل خراب يمزق جهود الامة ومقوماتها الا في اواخر عام ١٩٦٤م .

طبيعة المحفل وعضويته

من الاشياء التي تزيد في حيرة المرء عندما يتابع الاطماع اليهودية هو انه كيف تتشكل الطبيعة اليهودية من اجل تحقيقها وتسخير كل ما يمكن تصوره من اجلها ، ويتمثل هذا في طبيعة عضوية المحفل الماسوني ، فرغم ان الجمعيات الماسونية في صلب تخطيطها واطماعها انه حيث توجد الجمعية الماسونية فمن الواجب ان تتحول جموع المجتمع الذي توجد فيه الجمعية الماسونية الى عضويتها ليتيسر للقوى اليهودية ان تسود بعد ذلك المجتمع الانساني وكأنه قطيع من الحيوان قد الف اسلوب راعيه ، الا ان التنظيم الماسوني لا يترك امر الدخول في عضويته عفويا ولمن شاء .

والماسونية تضع قيودا في منتهى الدقة والحيطة حتى تزيد فكرة اضلال الراغب انه ليس بصدد عمل عادي انما هو بسبيل الانخراط في عضوية هيئة انسانية كبرى من اجل معاني الخير والسلام .

ولما كانت العضوية الماسونية بمجرد ان يحملها من استطاعت القوى اليهودية ان تجنده وتتصيده فانه لا بد وان يتجرد من كل ولاء للوطن او الجنس او القومية او اية عقيدة اخرى يؤمن بها ، لذا كان لزاما ان يمر العضو الماسوني بمجرد انخراطه في التنظيم الماسوني بمراحل او بأشكال تنظيمية قائمة في الاصل والاساس على الزيف والخداع وانما هي مراحل من العمل لاختبار معدن العضو الجديد ومعرفة مدى كفاءته وقدرته على تحمل وقيادة الاعمال التخريبية والتدميرية في مجالات الاخلاق والسياسة والاقتصاد . ومن هذه المراحل :

١ ـ مرحلة ابتدائية رمزية ، وهي المرحلة التي تكون فيها تعاليم الماسونية وشكل العضوية واعمالها واجهة من بريق الدعاية واسلوب الخداع القائم على عبارات وشعارات فارغة .

٢ ـ مرحلة متوسطة او سلوكية ، وهي التي يصبح العضو فيها من الكفاءة او الصلاحية بحيث يخول له ممارسة وجوده الشخصي بالسؤال او تلقي المعلومات عن حياة مملكة الماسون التي يعمل لها اعضاء الماسون لتشمل العالم بأسره .

٣ ـ مرحلة كونية ، ومن الممكن التعبير عنها بانها الحالة داخل حركة ونشاط الجمعيات الماسونية التي تضم النخبة الممتازة والصفوة الذين اختبروا بالعمل الماسوني فاثبتوا جلدهم وكفاءتهم ليكونوا من حكام الماسون حتى يمكن لهم ان يؤدوا دورهم العالمي في خدمة مملكة الماسون العالمية وذلك بما يقومون به من اشراف وتوجيه وقيادة للمحافل المحدودة .

ومن العجيب الذي يملأ النفس بالحيرة ان للماسونية قسما قد انتهت اليه القوى اليهودية المدبرة بعد جهود العمل السري المتواصل وبعد محاولات دائمة من اجل تطوير العمل الماسوني وقدرته على الانتشار ومن اجل الترقي من حضيض معنى الفكرة الماسونية ولفظها الى صيغة جذابة وعبارات مرنة ذات وقع نفسي مطمئن بالعظمة والقداسة المصنوعة زيفا وتضليلا ليمكن سوق أكبر عدد من البشر الى زيف ما تهيىء القوى

اليهودية المدبرة للجمعيات الماسونية حتى يلقي في روع العضو الماسوني انه امام قداسة تنظيم انساني كبير .

ويقوم القسم فيما سجل عن بعض المحافل :

« أقسم بمهندس الكون الاعظم ان لا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالاشارة ولا بالكلام ولا بالحركات وان لا اكتب شيئا عنها ولا أنشر بالطبع او الحفر او التصوير وأرضى - ان حنثت بقسمي - أن تحرق شفتاي بحديد محمى وان تقطع يداي ويحز عنقي وتعلق جثتي في محفل ماسوني ليراني كل طالب آخر فيتعظ بها ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء لئلا يبقى أثر من جنايتي » .

وهذا القسم هو صيغة يرددها العضو المبتدىء في عضوية المحافل اما اذا تدرج ووصل الى رتبة الماسوني الخالص فهناك من الصيغ الحركية التي يشترط في صياغتها ان يكون لها بريق يؤثر في نفسية العضو ويشحذ هممه ويعبىء مشاعره نحو التنظيم كلما تدرج فيه ، والى ان يصبح ماسونيا خالصا فهناك « القسم المطلق » وهو الذي يجرد الانسان الذي يصل الى مرتبة الماسوني الخالص من كل ما يحيط به من الاهل والزوجة والولد والمجتمع ، ويتحرر تماما من كل انواع الولاء أو الارتباط بشيء غير الولاء والايمان والعمل المخلص المتفاني لتعاليم الماسونية التي تنص على : « ان اعظم واجب للماسوني الاوروبي هو تمجيد الجنس اليهودي وعبادته لانه حافظ على المستوى الكهنوتي للحكمة » .

وكم تكون طبيعة هذه الحكمة ومدى مستواها في خلق التنظيم الماسوني الذي يعمل على تمجيد الجنس اليهودي صاحب الحكمة المدعاة انها الحكمة التي تعري الناس من كل اخلاقهم وقيمهم وتجردهم حتى من الطبيعة الانسانية ليسلكوا نفس اسلوب المراتب الدنيا من الحيوان حين تكون كل العلاقات فيما بينهم هي الجنس ، وعن الطريق المباشر لها عن الاعضاء التناسلية والسلوك اليومي لتقديسها . وقد يعجب المرء اذا علم أن السلوك العام في حركة ونشاط اعضاء المحافل وهم يعبرون عن تعاليم محافلهم وجمعياتهم بأنواع من الممارسة البهيمية التي سجلته دائرةالمعارف اليهودية على انه اسلوب حياة للجمعيات والمحافل الماسونية ، فقالت دائرة

المعارف اليهودية طبعة عام ١٩٠٣ م في الجـزء الخامس من صـفحـة ٥٠٣ ما يأتي :

« ... ان تعاليم الماسونية محوطة بالسرية الدائمـة وهي تنص في صلبها على تقديس الجنس والحرية التامة لنشر الاباحية وآمال الماسونيين امام هذا الجانب الاخلاقي من حياة الناس هو تنظيم جماعـة من النـاس يرونهم احرارا لا يخجلون من اعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نـوادي العراة ويلتقون على شواطىء المصايف . »

وبهذه الوسائل ترى القوى المدبرة للنشاط الماسوني انه عن طريق تصعيد حركة العضوية العالمية فانه من المتيسر على المدى الطويـل مسخ العقل البشري في كل قيمه ومعتقداته وتحرره وتجرده من كل ولاء لغـير الماسونية وتعاليمها الى ان يكفر بالله والوطن ويصبح امام اعظـم واجب مقدس وهو تمجيد الجنس اليهودي وعبادته لان هذا الجنس حافظ علـى المستوى الكهنوتي للحكمة !!

وهذه الحقيقة هي طبيعة عمل المحافل الماسونية واسلوب العضوية فيها باعتبارها مجالا وميدانا للتعبير عن فكر المصدر الثالث من معطيـات العقيدة اليهودية وهو : « البروتوكولات وبالمعطيات الثلاثـة : التـوراة ، التلمود ، والبروتوكولات ، ومجالات عملها في خدمة الجماعات اليهوديـة والاطماع العنصرية قويا ومؤثرا للغاية » .

هذا وان فكر الجمعيات الماسونية وجوانب العقيدة التي تنادي بهـا تكون قد اصبحت في حاجة الى ان نبـدأ ــ ان شاء اللـه ــ في دراسـة مستقلة لكشف القناع ولعل في كتابنا « الماسونية ذلك العالـم المجهول » الصادر في القاهرة عام ١٩٧٣ عن مكتبة القاهرة ما يكشف عن بعض مخاطر هذا التنظيم السري اليهودي الرهيب .

الباب الحادي عشر

- اليهود ودعوى الجنس .
- الدعوى في ثوبها العلمي .
- نقد الدعوى بالمنهج العلمي .
- الانتشار اليهودي ودعوى الجنس .

اليهود ودعوى الجنس

الدعـوى في ثوبهـا العلمي :

الدعوى التي تداولها اليهود عبر التاريخ من « ان جميع يهود العالم من سلالة شعب اسرائيل وان يهود كل بلدان العالم انما هم امتداد عضوي للآباء الاول من عصر اسحق ويعقوب » انما هي من اكبـر مفتريات الزيف اليهودي عبر التاريخ على العلم والحقيقة ، ومع ذلك فان الحفنة السفاحة من الجماعات اليهودية التي كانت تهاجر من شرق اوربا الى فلسطين كانت تقول للجنة التحقيق الانجلو امريكية : اننا اذ نعود الى فلسطين لا نعـود اليها مهاجرين او موفدين بل مثلنا كمثل الرجل يغيب عن داره فترة مـن الزمان ، طالت ام قصرت ، ثم يعود اليها ، ومن عجب ان قضيـة الجنس اليهودي تبرز تماما عندما يتعلق الحديث بمـدى علاقاتهـم او صلاتهم بفلسطين ومع ذلك ايضا فان الجماعات اليهودية رغم ما بين جميع طوائفها من تباين وتناقض فان هناك حدا ادنى من الاتفـاق والرضا على مواجهـة العالم بقضية الجنس اليهودي ونقائه وسيادته . ومن البدهي ان الزعـم بأن جميع يهود العالم يلتقون بالجنس في وحدة عضوية تنتهي عند الآبـاء الاول من عصر الانبياء كان يقتضي على اقل تقدير ان يكون يهـود للعالـم اجمع في حالة تشابه في السحنة والتقاطيع والطول والعرض والارتسامـة بناء على ان أبسط قوانين الوراثة تقضي بأن يتشابه الفرع بالاصل وتتشابه الفروع فيما بينها تشابها شديدا ، وهذا ما لا يتوفـر ليهـودي واحـد وشقيقـه .

وان الحقيقة العلمية التي يحرص كثير من يهود العالـم على طمس معالمها كما حاول بعضهم في المؤتمر السنوي الذي يعقد لعلمـاء الاجنـاس البشرية في امريكا عندما ارادوا من المؤتمر الذي عقد عام ١٩٣٣ م ان يقرر موضوع وحدة ونقاء الجنس اليهودي ، ورفض المؤتمر وقرر بأنه لا يوجـد في العالم جنس يهودي بل توجد ديانة يهودية فقط هي وحدها التي يمكن

ان تكون سندا موضوعيا في تقرير القضايا اليهودية او رفضها وعليها فماذا يقول علم الاجناس البشرية في موضوع الجنس عموما دون آن ندخل في موضوع العلم الخالص .

يقول العلم التقليدي انه امكن تقسيم شعوب الارض تقسيما عاما الى ثلاثة اجناس : زنجي ، مغولي ، قوقازي . وقسم هذه الاجناس الى سلالات يمتاز كل منها بصفات سائدة فيه وتغلب على جميع افراده يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واذا ما حدث تغيير في مظاهر هذه الصفات او وظائفها التي تسود كل سلالة لتعود بهذه السلالة الى جنسها الاصلي فان ذلك ايضا خاضع لعوامل وراثية في غاية التعقيد والدقة منها ان تتعرض السلالة أو الجنس لعزلة تامة وانقطاع عن باقي الاجناس التي تكون بعض الصفات الجسدية غير ملائمة لها ، فتفنى على مدى الزمن وتسود الصفات الاخرى التي يتمتع بها الجنس ، ومنها ان تتعرض السلالات لعناصر جديدة فيها صفات وراثية تعادل مميزاتها الوراثية او تزيد فتنتقل الصفات الجديدة أو القديمة وراثيا من احد الفريقين الى الآخر ومنها ان تتعرض السلالات لما يسمى بالانتخاب الزوجي بمعنى ان يكثر الزواج بين الرجال والنساء لصفات خاصة يفضلونها ، فعلى مدى الاجيال تسود بعض الصفات التيلم تكن سائدة من قبل . هذه هي بعض اساليب علم الوراثة عن علاقة الفروع بالاصول ، فهل الامر كذلك بالنسبة للجماعات اليهودية مع ما نشاهده على كل الجماعات اليهودية عبر التاريخ من اصحاب العيون الزرقاء واصحاب الشعر الاصفر والسود اصحاب الشعر المجعد والاقزام وطوال القامة ومتبايني لون البشرة ؟ أعتقد انه لا والف لا . ولعل هذه المقررات التي ترفض القول بزيف ما تدعيه الجماعات اليهودية هي التي جعلت الاستاذ هادون الذي كان استاذا لعلم الاجناس بجامعات انجلترا يقول : لا توجد في العصر الحديث شعوب يمكن ان نقول بنقاء جنسها . اي لا توجد شعوب تنتسب الى اصل او جنس واحد ، ففي العالم المتمدن قد امتزجت الاجناس بعضها بالبعض وكانذلك الامتزاج والاختلاط اثرا من آثار الرحلات والعلاقات التجارية والغزوات بين الاجناس المختلفة منذ الازمنة القديمة . ثم ويجب ان يرفض فكريا وعقائديا التصور الذي استقر عند بعض الاتجاهات السياسية القديمة عن افكار المميزات الخاصة المتعلقة بجنس دون الآخر ذلك ان البحوث العلمية المعاصرة لم تعد تقبل مثل هذا اللفظ العلمي . هذا وعن اختلاف

لون البشرة وخاصة سمرة الشعر والعين عند اليهودي فان هناك دراسة علمية ممتعة عن انتربولوجيا اليهود وقد كتب فيها الاستاذ الدكتور جمال حمدان يقول :

الشائع الدارج ان اليهودي يتصف تدريجيا بالسمرة ثم بالانف الاقني الضخم والعيون المنتفخة والشفاه الممتلئة ، اما عن النظرة العامة فالمقول الشائع هو ان هناك نظرة يهودية او سحنة يهودية بطريقة ما تميز اليهودي لاول وهلة ويعرفها هو جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل ، فما مدى صحة هذه الافكار الدارجة وما قيمتها في تحديد نقاوة واصل اليهود ؟

اما ان اليهودي اسمر الشعر والعين فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وانما كاتجاه سائد ، وفي اجزاء كثيرة من اوربا وجد ان نسبة السمر بين اليهود تصل احيانا بين ثلثي العينة المدروسة ، وان هذه النسبة تعادل ضعفي مثيلتها بين الجنتيل (ونسبة السمرة دائما أعلى — بالمناسبة — بين اليهوديات منها بين اليهود) ومع ذلك نفي مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث الى خمسي اليهود ذوو شعر فاتح ، كذلك فمن الثابت ان هناك عنصرا اوضح من القشرة بين اليهود الشرقيين يجنح بهم الى اللون الاصهب Tufons وحتى بين السفارديم هناك كثرة من الشقر وتبدو الشقرة واضحة كذلك في يهود الالزاس واللورين واوضح في يهود انجلترا .

نصل من هذا الى ان سيادة السمرة بين اليهود ليست الا نصف الحقيقة ، وربما كان اهم انه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان تفاوت ولون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة انما هو ظاهرة لا يمكن ان تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة او باخرى ، فمن حيث الشعر والعين لا نجد في فلسطين عامة شقرة ما (قبل اسرائيل) بينما يبدي قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفي العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة هذا بينما في شمال افريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥ ٪ ترتفعالى نسبة السدس بينسفارديم سالونيك واسطنبول وفي القرم ٧٥ ٪ سمر مر البرونت والباقي من لون فاتح ثم بين آشكناز اوربا تهبط نسبة السمر الى ٥٥ ٪ وتتحدد نسبة الشقر

بنحو ١٠ ٪ والباقي لون فاتح حتى اذا ما وصلنا الى يهود ليتوانياكان ٥٥ ٪ من لون فاتح ، فهذه اذن سلسلة تصاعدية يبدو لون اليهود فيها عامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد ، ويرى « كون » ان اشكناز اوربا قد حققوا لانفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما في لون الشعر والعين ، ففي البلاد التي يغلب على الجنتيل فيها الشقرة او السمرة نجد اليهود اميل الى السمرة نسبيا وفي البلاد التي تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فانها في اليهود تميل الى ان تكون اكثر شقرة ، وسواء اتفق هذا الراي مع عامل الارتباط الواضح في السلسلة السابقة او تعارض معه فالشيء المؤكد ان اليهود ليسوا متجانسين لونا .

اما عن لون البشرة نفسها فالفروق بين اليهود ليست اقل حدة وليس ثمة نمط موحد البتة فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة ، وهم كذلك في التركستان حيث يشبهون في لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم في غزارة شعر الجسم ، اما في اليمن فهم ان بدوا افتح قليلا من اليمنيين فما ذلك الا لحياتهم في الظل بعيدا عن العمل في الخلاء ، اما في اوربا فلا يختلف الاشكناز عن الاوربيين في لون البشرة .

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض فثمة اليهود السود الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثي لليهود الى اشكناز وسفارديم وشرقيين من هؤلاء الفلاشة Falasha في شمال الحبشة وهم الى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الاجاو الكوشية القديمة ومنهم كذلك في افريقيا الدجاتون Daggatuns في جنوب الصحراء الكبرى ، اما في آسيا فهناك اليهود السود من التاميل في كوتشين بجنوب غربي الهند وهم يسمون هناك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم اليهود البيض الذين ينحدرون من اصل فلسطيني منذ ايام الشتات الاولى . وربما جاز لنا ان نضيف الى نماذج اليهود السود مجموعات في امريكا اللاتينية من الزنوج او الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية او اختلطوا بيهود مهاجرين .

ننتقل الآن الى الانف ، فأما الانف الاقنى المحدب الذي الصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاتير حتى سار علما على الانف اليهودي — فليس في الحقيقة صفة يهودية ، فالملاحظات الانثروبولوجية تثبت أولا انه ليس

منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة او عادية وانه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود ، فبين يهود بولنده لم تزد نسبة حدوثه عن ٩ ٪ من العينات وهي نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع في غاليسيا الى ٣٠ ٪ ، وفي مدينة نيويورك لم يعثر على الانف اليهودي الا بين ١٥ ٪ من ذكور اليهود الراشدين . اما الشكل الاكثر حدوثا بين اليهود فهو الانف المستقيم كما في يهود شمال افريقيا ويهود العالم العربي والسفارديم . مثلا بين يهود اليمن ٦٠ ٪ انوف مستقيمة بل وهناك نسبة من الانف المقعر ، وبين اشكناز اوربا تسجل القياسات سيادة الانف المستقيم في حين يقل الانف المحدب عن النصف دائما . بل ان الانف المقعر ليكثر بين يهود روسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك ترجح نسبة حدوث الانف المقعر نسبة الانف المحدب كثيرا بينما في ليتوانيا تصل نسبة الانف المقعر الى ٥٠ ٪ ويختفي الانف المحدب كلية .

ومن الناحية الاخرى فالانف الاقنى المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود ، وجد بين ثلث العينة في جنوب شرق بولندا وهو منتشر كثيرا بين العرب والافغانيين وكثير من الاوربيين ... الخ . ونحن أقرب الى الصحة — فيما يرى « كون » — حين نصف الانف الاقنى بالانف السامي من ان نصفه بالانف اليهودي ، ولو ان هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقول ان تسمية الانف اليهودي بالسامي خطأ شائع وانه في الحقيقة من اصل ارمني .

وايا كان فالذي يميز الانف اليهودي حقا انما هو تشكل او تشوه خاص يشمل انخفاض او تدلي طرف الانف مع ارتفاع جناحي المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين مما يؤدي بالتالي الى ظهور قصبة الانف بوضوح والظاهرة ككل يمكن ان تسمى بالمنخرة Nostrlity وتقرب بروفيل الانف وكثيرا من رقم D الافرنجي ، وهذا قد يعطي شعورا بتحدب الانف في حين انه مستقيم في الواقع ، ولكن يبقى بعد ذلك كله ان هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود او حتى اغلبهم ، وفي النتيجة فان من المستحيل ان نتكلم عن نمط او شكل يهودي بعينه من الانف . ولا يعرف اليهود وحدة انفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية .

يبقى الحاجبان اللذان يبدوان ثقيلين لسوادهما ، وهما أميل عادة

الى ان يقتربا بعضهما من بعض . اما العيــون فبينما نجد عيونــا شريطية غائرة بين اليهود العرب ، تسود بين اشكنازيم اوربا العيون المائية الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التي ـ كما يعبر ريلي ـ تعطي شعورا اما بالحزن او النظرة الحالمة واما بالخبث المكتوم ، على ان المهم ان ليس هناك عيون خاصة باليهود ، وبالمثل فان ما يقال عن امتلاء الشفاه مــع بــروز الشفة السفلى مدلاة ان لم تكن مقلوبة حقا ليس شائعــا أو شرطيا بــين اليهــود .

يبقى الآن ما يقال عن سحنة يهودية بعينها يمكن بها التعــرف علــى اليهودي ، قد لا يمكن انكار وجود مثل هذه السحنة احيانا ولكــن المحقق علميا انها لا توجد عند كل اليهود فهي ان كانت موجودة بين بعض الاشكناز في اوربا فانها لا تكاد تعرف في اشكناز امريكا كمــا انها ليست معروفــة تماما بين غير اليهود ومن ثم فهي كثيرا ما تخــدع الرائــي في التشخيص فيأخذ غير اليهودي على انه يهودي ، واليهودي على انه غير يهودي ، واذا كانت هذه النظرة او السحنة تتركز بطريقة ما حول العينين والانف والفــم فان من الصعب تحديدها وقياسها .

ولكن الاهم من ذلك كله ان سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ما هي تعبير اجتماعي مكتسب من البيئــة الاجتماعيــة مــن صنــع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة ، حتــى لقد أسماها البعض تعبير الجيتو . انهــا باختصار مــن فعــل الانتخــاب الاصطناعي لا الوراثة والبيولوجيا تثبت عن طريــق التــزاوج الداخلــي والانتخاب الاجتماعي والمهني ، ومعنى هذا اننا اذا صادفنا هذه المسحــة اليهودية قائمة ، هي مجرد ارث الاضطهاد الديني ايا كان الاصل الجنسي والسلالة العرقية ودون ان يعني ان صاحبه من نسل بني اسرائيل التوراة بالضرورة .



ثم يجدر بنا ان نوجه الى ان كلمة جنس كما يقول الاستاذ (هادون) تستعمل لمعان مختلفة ، على انه يقصد بها عادة جماعة مــن الناس تجمــع بينهم صفات مشتركة وذلك كان موضع الخلاف بين الكثيريــن ، فمثــلا

نجد الشعوب ذات الجلد الابيض يطلق عليهـا الجنس الابيض في حين ان كلمة الجنس تطلق كذلك على كل من قسمي هذا الجنس وهو القسم الذي يشمل اصحاب الرؤوس العريضة ـ كما تطلق كلمة الجنس على كل الثلاثة فروع لذلك الجنس الابيض وهي : الآري ، الحامي ، السامي . واذا نحن اضفنا الى حقيقة ما قرره العلم حين اكد استحالـة ان يحتفظ فـرع او جنس او سلالة في ظروف تاريخ طويل من الغزو والاغارة والحل والترحال وعدم الاستقرار في بلد بعينه او مجتمع بذاته حقيقة تاريخية أخرى تتعلق بالجنس اليهودي المدعى ، وهي ان اكثر يهود العالم وخاصة يهود اوربـا الشرقية الذين روجوا لفكرة الجنس وثقائه هم من قبائل الخزر التي كانت تقطن وسط آسيا ثم هاجرت الى شرق اوربا في وثنية لا تحمل حتى بعض شعائر الدين اليهودي ، ومما هو مسلم به عند جمهور الباحثين المنصفين الذين لم يعمل فيهم الهوى عمله ان اصول جماعات يهود اوربا الشرقيـة على وجه الخصوص لم يكونوا يهوداً ولم يعرفوا عن اليهودية شيئا قبـل القرن السابع الميلادي ، فقد كان شعب الخزر جميعه منذ هجرتـه مـن وسط آسيا وثنيا ولم يقبل على اليهودية ويعتنقها الا في ظروف تطاحنه في الارض التي هاجر اليها وحتى يقيم مجتمعا كان ينعدم كل اسسه ومقوماته، وحتى ينظم حياته بعد افلاسه في الارض التي نشأ عليها ، فقد كان في حرب مع القبائل المنغولية واضطر من جراء حروب كثيرة كان يخسر أكثر معاركها الى ان بترك الميدان لقبائل المنغوليين في أواسط آسيا ويهاجر الى مناطق شرق اوربـا .

وعندما اعتنق شعب الخزر اليهودية لم يكن ذلك الذي لجأ اليه شعب الخزر لاصالة الفكرة اليهودية او مميزات سلوك المؤمنين ولم يكن اعتنـاق شعب الخزر الوثني لليهودية نتيجة تأثر بالقيم والاخلاق التي يمكـن ان تكون في طبيعة أي معتقد ، اذ لم يكن امام شعب الخزر من بديل غير هذا الدين الذي يرفع أصحابه ودعاته لواء التعصب ونعرة السيطرة والامتيـاز ضد كل مجتمعات الدنيا ، وكان هذا وحده كفيلا بأن يدفع جماعات الخزر الذين ينشدون من بين ظروف الضياع اسلوبا من حيـاة يحفـظ عليهـم حياتهم ويقيهم شر الفناء الى اعتناق اليهودية . وساعد على هذا الاعتبار ان تجار اليهود ودعاة اليهودية كانوا يجوبون العالم بحثا عن مواطن الثروة والاستغلال فاستطاعوا ان يقنعوا الملك الوثنـي الخزري (بولان) بالديـن اليهودي وكان هذا الملك قد رفض الدين المسيحي قبل اعتناقه اليهودية ،

وبهذه العوامل وتحت تأثيرها اصبح شعب الخزر يهوديا وامتدت حـدود هذا الشعب من جبال الاورال شرقا ووسط اوربا غربـا وشمال البحـر الاسود جنوبـا .

وهذه الجماعة الكبيرة او هذه الدولة الواسعة التـي استطاعت ان تنتشر وان توسع رقعتها معتلقة اليهودية كانت من الظواهـر النـادرة في تاريخ مسار العقيدة اليهودية نفسها ، فرغم ان تقرير مثل هذا المعنى وهو حقيقة تاريخية يؤكد لنا بالمثال ان الدين اليهودي ليس دينا انغلاقيا علـى شعب اسرائيل وحدهم وليس خاصا بقوم دون غيرهم وانمـا هـو ديـن تبشيري قد دخلته من الامم والاجناس المختلفة جماعات كثيرة مثل اي دين آخر ، الا ان الدين اليهودي لم تكن تقبل عليه جماعات كبيرة بهذا الشكل المندفع الا في هذه المرة ، فحتى عندما انتشر التجار المشردون من اليهـود الذين لا وطن لهم الى شعوب القبائل التي تقطن شمال افريقيا حتىمراكش الى اليوبيا ثم الى الصين والهند والاقطار الاوربية التي تقع على شاطـىء البحر الابيض المتوسط الشمالي كانت جماعة صغيرة واقلية ضئيلة هـي التي تقبل على الدين اليهودي .

اما شعب الخزر الذي اعتنق الدين اليهودي دفعـة واحدة فكـان لجملة الاسباب التي اشرنا الى بعضها ، ولم تكن قبائل الخزر سامية بل قبائل تركية جبلية من قبائل وسط آسيا التركيـة التي هـاجرت كما اشرنا الى اوربا الشرقية بعد هول الصدام الذي كان يتكـرر بينهـا وبين القبائل المنغولية .

فمن اين الصلات الجنسية لشعب التوراة المدعى ؟ والـذي تمتـد اصوله حتى تصل الى الاب الاعلى المباشر للاسرائيليين والجماعاتاليهودية وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام بجماعـات يهـود العالـم وخاصة اصحاب دعوى الجنس ، الدعـوى المفتراة من بين يهود اوربـا الشرقية ابناء شعب الخزر التركي الوثني المتهود ؟

ان العلم لا يعرف اليوم ـ ولن تتاح للقوى التي تزيف الحق والعلم ان تغالط اي استنتاج يمكن ان يوضح به صلة شعب الخزر الذي اعتنق اليهودية في القرن السابع الميلادي بالجماعات الاولى من ابنـاء اسرائيـل

والقبائل العبرية التي كانت تنتجع البادية وفلسطين قبل شعب الخزر وتهوده بألف عام على أقل تقدير .

وشعب الخزر نفسه بعد ان اعتنق اليهودية ذاب في شعوب كثيرة غير سامية واختلط عن طريق التزاوج والخطف والاغارة والحروب بأجناس متعددة الى أن ذاب تماما في وثنيات مختلفة وفي المنطقة التي تحدها من الشرق جبال الاورال ومن الغرب وسط اوربا وشمال البحر الاسود من الجنوب وهي المنطقة الموزعة اليوم بين عدة جمهوريات مثل بولنده واوكرانيا ورومانيا ولتوانيا وروسيا وغاليسيا ، وذابت قومية الشعب الخزري في قوميات هذه الشعوب حتى قبل ان تأخذ اشكالها السياسية المعروفة بها اليوم .

ولا يستطيع اليوم متعصب يهودي ان يستأنس بالعلم في سند دعواه العنصرية في القول بنقاء جنسه وارتباطه التاريخي بالجماعات الاولى لاسرائيل او بيهود التوراة الذين ادعوا وجود علاقة لهم بفلسطين ، وان الدلائل والبراهين على عدم نقاء الجنس اليهودي ثم والدليل على اختلاطه بغيره هي من الكثرة والشيوع بحيث لم يعد في امكان متبجح عنصري ان يأتي ليقيم دعوى نقاء الجنس اليهودي ، وخاصة بعد عمليات ارتداد جماعات منهم عن اليهودية بقصد اغراض شخصية في اكثر الحالات مثل التزوج بمسيحية او وثنية او العمل بالتجارة والسمسرة او الانتقال من بلد لآخر ثم دخول وثنيين ومسيحيين الى اليهودية بقصد هذه الاغراض .

وفي الدراسة التي أشرنا اليها في الصفحات السابقة من البحوث العلمية التي قدمها الاستاذ الدكتور جمال حمدان عن الانثربولوجيا المتعلق باليهود يقدم أدلة تاريخية على الاختلاط اليهودي وعدم نقائه على مدى مراحل طويلة من التاريخ فيقول : اذا بدأنا عرضنا التاريخي من البداية فنجد ان يهود فلسطين التوراة اختلطوا في عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودي ودليلة الفلسطينية) . ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفرحزقيال:امك كانت حيثية وعموريا كان ابوك) . وهذا الاختلاط الجنسي كان اقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه في قلبها الوعر المعزول ، وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات وثنيات من

الاجانب المحيطين ان يتركوا الوطن الى تلك السهول المجاورة كذلك ، فمن الثابت ابان الاسر البابلي الذي استمر ١٤٠ عاما ان كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة .

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ ان الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا بحيث ينتهي اذا تحول الجنتيل الى اليهودية . والواقع انه في أيام اليهودية الاولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا ابدا كما حدث فيما بعد ، هكذا يذكر المؤرخ (جوزيفوس) أن يهود انطاكية نجحوا في تحويل الكثيرين الى عقيدتهم وادخلوهم مجتمعهم . وقد حدث لعدد كبير للغاية من التحول الى اليهودية بلا شك في القرن الثاني للميلاد ، ومن الامثلة العامة النساء اليهوديات اللائي تم بيعهن كاماء واخذن الى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم لمواقع اخرى فشب ابناؤهم كيهود .

والثابت ان التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحي مباشرة وفي قرونه الاولى ، فحين تشتت اليهود في العالم المتوسط وجدوا انفسهم ازاء اختيارين : اما ان يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد ، واما ان يحتفظوا بديانتهم . وهناك — كما يقول بيرجل — اصبح الكثيرون ربما الاغلبية وثنيين وذلك لان من بين القبائل الاثنتي عشرة عشرا مفقودا كما تحدثنا الروايات وفي حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسي جنبا الى جنب مع كيانهم الديني ويصبحون جزءا لا يتميز عن الامة التي اقاموا بينها ، اما اذا ظلوا على يهوديتهم فانها اذا العزلة الاجتماعية ، ومن ثم فلا تزاوج الا اذا تحول الوثنيون الى اليهودية ، وهذا بالدقة ما حدث مرارا وتكرارا لان اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسي ، الا ان الموقف تغير بعد ان اصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية ، حيث اصبح التحول الى اليهودية صعبا ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف .

اما في العصور الوسطى حيث اصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحية باليهود كما فعل مجلس توليدو عام ٥٣٨ .

٥٨٩ ، ومجلس روما عام ٧٤٣ ، فان أغلب الكتاب يفسرها على انها دليل على خطورة المدى الذي كان الزواج المختلط قد وصل اليه بالفعل ، بل ان اضطهاد القوط الغربيين في اسبانيا لليهود في القرن الخامس والسادس الميلاديين انما يرجع ـ كما يؤكد « كين » ـ الى نشاطهم التبشيري الخطير والى تفشي الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين .

وثمة ادلة اخرى على الاختلاط والتحويل على نطاقات اقليمية كبيرة، فالسفارديم قبل خروجهم من اسبانيا كانوا قد استوعبوا دماء ايبيرية وعربية وبربرية كثيرة فيعروقهم وفيشمال افريقيا من المؤكد ـ كما رأينا ـ ان اليهودية كانت قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الاسلام مباشرة . وفي المغرب يبدو اليهود المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشدة عن يهود السفارديم المتكلمين بالاسبانية في المدن الغربية بينما ان اليهود المتكلمين بالعربية في نفس المدن ينحدرون من اكثر من اصل يهودي واحد ، اهمه بلا شك العنصر البربري ، اما في أوربا فالادلة التاريخية تشير بكل قوة الى ان اجداد الاشكناز اختلطوا مع ابناء غرب اوربا الى ما قبل الحروب الصليبية الاولى اختلاطا اقوى من اختلاط اجدادهمالاحداث من ابناء البلاد السلافية في شرق القارة ، فغزارة شعر اللحية والجسم وتموج شعر الراس الى جانب عرض الراس تدل على تأثير جنسي فرنسي او الماني اكثر منها مؤثرات سلافية .

اما عن التحول فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدام مسيحيين خشية تحولهم الى اليهودية ثم الزواج بهم الا ان الارجح ان هذا المنع لم يجد نفعا . حيث نجد على سبيل المثال كبير اساقفة المجر يقرر في عام ١٢٣٩ ان كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات ، وان التحولات بالآلاف كانت مستمرة وفضلا عن هذا فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والاقنيان من امكانية التهود والزواج من اليهود . وفي اسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول الى المسيحية حيث ذابوا بعدها في السكان .

اما في عصرنا الحديث فتتواتر الادلة والاحداث الثابتة التي تؤكد التزاوج والتحويل على حد سواء . فمع الهجرة الى العالم الجديد تحول

كثير من الهنود الحمر والزنوج في امريكا الوسطى والجنوبية الى اليهودية ــ ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود اصلا ــ ومع اختفاء التعصب الديني في اوربا الصناعيه واكثر منه مع العلمانية المطردة انهارت الحواجز امام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية . واذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية في العصور الحديثة ، ويمكن ان نتخذ من بعض الاسماء الشهيرة مؤشرا في ذلك الاتجاه مثل الشاعر هايني والموسيقي مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . وفي روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم الى المسيحية .

ومن الادلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود في العصور الحديثة والوسيطة في اوربا ما كشفت عنه تجربة النازية في المانيا ، فقد كان على المرء الذي يبغي اثبات الدم الآري فيه ان يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية ، يعني هنا اليهودية بالتحديد ، ولكن المفاجأة ان التجربة كشفت ان عددا ضخما من الحالات من المواطنين الالمان الى اقصى حد ثبت ان اجدادهم تجري في عروقهم الدماء اليهودية تماما كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل .

ولقد اخرج كاتب فرنسي كتابا كان له دوي كبير حيث اثبت او حاول ان يثبت بتتبع شجرات الانساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء ... الخ في العالم العربي كيف تجري في عروقهم دماء يهودية بدرجة او بأخرى ، وبالعكس أن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية . اما في الولايات المتحدة حيث اعظم مستعمرة لليهود اليوم ، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود انصاف وارباع اليهود ... الخ ، لا سيما منذ القرن الماضي حين اصبح الزواج المدني مباحا وقانونيا .

ومن اجل هذه الحقيقة العلمية التي ترفض زيف دعوى القوم فان الكثير من العلماء الباحثين يجابه سخف هذه الدعوى بقوة وصراحة ومن هؤلاء الاستاذ اوجين بيتار استاذ علم الانتروبولوجيا في جامعة جنيف الذي يقول في كتابه Eugène Pittard: Les Races et l'Histoire :

ان جميع اليهود بعيدون عن الانتماء الى الجنس اليهودي ... وان

اليهود يؤلفون جماعة دينية اجتماعية قوية جدا من غير شك شديدة التماسك ، ولكن العناصر التي تتالف منها تتنوع تنوعا عظيما .

ويقول الاستاذ بيتار وهو بصدد موضوع الاجناس الذي يعرض له في كتابه :

ان اليهود عبارة عن طائفة دينية اجتماعية انضم لهم في جميع العصور اشخاص من اجناس شتى وهؤلاء المتهودون جاءوا من جميع الآفاق فمنهم الفلاشا سكان الحبشة ، ومنهم الالمان ذوو السحنة الجرمانية ، ومنهم التامل ــ اليهود السود ــ من الهند والخزر ، والمقروض من الجنس التركي .

ومن المستحيل ان نتصور ان اليهود ذوي الشعر الاشقر او الكستنائي والعيون الصافية اللون الذين تلقاهم في اوربا الوسطى يمتون بصلة القرابة ــ قرابة الدم ــ الى اولئك الاسرائيليين الذين كانوا يعيشون بجانب نهر الاردن .

الانتشار اليهودي ودعوى الجنس

مما يتناقض مع حقائق العلم والتاريخ معا دعوى الجنس ونقائه والقول بحركة الانتشار والهجرة اليهودية ؛ ذلك انه يستطيع الباحث في يسر وسهولة ان يرى حقائق التاريخ تقرر ان مسيرة الجماعات بعيدا عن ارض الدعوى فلسطين كانت كبيرة ومنتشرة في ارجاء بعيدة وواسعة فمنذ تمكنت الجماعات اليهودية من ان تستغل العلاقة التاريخية بين جماعات اسرائيل في عهد الملك النبي الرسول سليمان وبين شعب اليمن ممثلا في ملكته بلقيس ملكة دولة سبأ في اليمن وقد انتشرت اليهودية من اليمن الى الحبشة ايضا لوجود صلات وعلاقات تجارية بين اليمن والحبشة في ذلك الوقت .

وبعد هذه المرحلة لجأت الجماعات اليهودية الى اساليب في نشر الدين اليهودي وتقديمه لكافة شعوب الارض ، وكان الانتشار اليهودي في حركة التمدد الرهيبة التي قامت بها الجماعات اليهودية ، وايضا

الجماعات المتهودة التي اضيفت للقوى اليهودية ، وساقتها حركةالاستغلال والسيطرة والسيادة التي تلوكها الجماعات اليهودية على اساس من دعوى الامتياز وكانت الطرق التي سلكتها الجماعات اليهودية والتي خرجت اصلا مبشرة بدينها وداعية الى ما تؤمن به من قلب البلدان العربيـة تنحصر في عدة طرق كان من اهمها في حركة الانتشار اليهودي :

١ ـ طريق شرقي غربي يمتد من فلسطين شرقا الى العراق وغربا الى مصر وبلاد المغرب واسبانيا والبرتغال ، ويهود هذه الدفعة لا يزال منهم مـن يعيش فيها ، ففي بغداد ولبنان ومصر جماعات يهودية لم تفضل الانتقـال الى دولة اسرائيل عندما صنعت ، وفي شمال افريقيا لا يزال عدد كبير منهم يقيم بها ، ويهود اسبانيا كان لهم سيادة وسيطرة كما اشرنا وخاصة قبيل العصور الوسطى ، الحال الذي جعل اسبانيا تقاومهم وتعمل على طردهم ، وليس من عجيب ان اليهود في اسبانيا ابان الحكم العربـي المسلم كانـوا يتكلمون على الاستعراب ليمتزجوا بالثقافة والفكر العربي ولم يواجهوا طوال سيادة العرب المسلمين على اسبانيا ادنى مضايقة ، ولما انتهـت السيادة العربية وتعرضت اسبانيا لتيارات متعددة كان من امر الجماعات اليهوديـة فيها ما كان . وعن الفترة التي قضاها اليهود في ظل السيادة العربية فـي اسبانيا كتب يقول جوستاف لوبون في حضارة العرب الذي ترجمـه الى العربية الاستاذ عادل زعيتر :

ولقد استعرب النصارى ففدوا هم واليهود مساوين للعرب المسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة فكانت اسبانيا هـي البلـد الاول والوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها فزاد عدد اليهـود فيه كثيرا .

٢ ـ والطريق الثانية التي سلكتهـا الجماعات اليهودية في عمليـة انتشارها الى خارج الارض العربية على مراحل متفاوتة من التاريخ هـو طريق القوقاز . وفي بلدان القوقاز استقرت الجماعات اليهودية والمتهودة حتى ليرى بعض الباحثين ان الديانة اليهودية والجماعات المتهودة في روسيا ابان العصور الوسطى كان مصدر التاثير في التهود هي بلاد القوقاز .

ويرى بعض الباحثين ايضا ان وجود اليهود في بلدان القوقاز كان من

بين الاسباب المؤثرة في اقطار اوروبا الشرقية وخاصة في القرن السابع الميلادي عندما تم التأثير على جماعات الخزر التركية أن تعتنق الديانة اليهودية ومع ذلك فان اليهود في القوقاز ليس لوجودهم ثقل سياسي او اجتماعي او غيره .

٣ ـ والطريق الثالث ، التي سلكتها الجماعات اليهودية في عمليات الهجرة والانتشار وهي من الطرق التي كان لها كبير أثر في توسيع نطاق عملية الانتشار والهجرة وهي منطقة حوض نهر الراين وبولندا وروسيا الغربية ، وهذا الخط من حركة الهجرة والانتشار ليست هناك تفاصيل عن مدى اثره ليقال انه ليس هناك كبير تصور عن الخطوات التدريجية التي تمت بها عملية الانتشار والهجرة . ويرجع الاستاذ محمد مصباح حمدان في كتابه الاستعمار والصهيونية العالمية المطبوع عام ١٩٦٧ في دار المكتبة العصرية في بيروت قلة الالمام بتفاصيل الخطوات المتعلقة بهذا الخط من حركة الانتشار الى سببين :

١ ـ ان هذا الانتشار حدث اكثره في عصور الوثنية الاولى للبرابرة غير المثقفين حيث التاريخ كان لم ينفذ بنوره الى تلك الجهات بعد .

٢ ـ ان انتشار الديانات ليس من الامور التي يسهل على الباحث تعقبها وتحقيق الخطوات الهامة في طريق انتشارها حيث في الامكان ان تزرع البذرة اليوم لتاتي اكلها بعد سنين وربما قرون ، ولكن العبرة في النتيجة العظيمة التي ادت اليها ، وهي ان جماعة كبيرة يهودية قد تم تكوينها قبل ميلاد السيد المسيح بقرنين او ثلاثة في حوض نهر الراين وفي اوروبا الغربية الشمالية ثم تفرعت منها مجموعات اخرى في بولندا وروسيا الغربية .

وقد ازدادت هذه المجموعات في العدد برغم ما تعرضت له من الاضطهاد الشديد حتى بلغ عددها تسعة اعشار اليهود في العالم .

وانني ارجح ان السبب في ذلك كان لوجود عدد كبير من المبشرين قد خرجوا من فلسطين مع الفينيقيين حيث كان تجارهم يصلون الى شواطىء البحر الاسود والبلقان واوروبا الغربية وربما وصلوا الى اسكندناوه

والدانمرك والمانيا ، وبعض كتاب التاريخ يؤكدون وصولهم لهذهالاقطار حيث هناك تأييد لهذا القول لوجود بعض المستعمرات الفينيقية وحملات التجار الفينيقيين الى تلك الشواطىء البعيدة، وركب الموج جماعة من بني اسرائيل على اثر الاضطرابات الفارسية بعد عودتهم من الاسر البابلي ووجود بعض القلاقل والاضطرابات التي جعلت من العيش في فلسطين وبلاد الشرق عبئا ثقيلا لا بد من التخلص منه فلما وصلوا الى شواطىء أوروبا الغربية والمانيا وهولندا والدانمرك وجدوا حياة هادئة هناك فأقاموا في تلك البقاع مع المحافظة على دينهم محاولين نشره بين تلك الاقوام فانتقلوا من هناك الى برابرة اوروبا وهودوهم في حين كانت تسود البرابرة المعتقداتالوثنية فرأوا في الدين الجديد فتنة نفسية ومتعة ادبية لم يألفوها من قبل فألفوا بذلك ما يزيد على تسعة اعشار يهود العالم .

وهذه المجموعة الكبرى التي يطلق عليها اسم يهودالاشكناز تتكلم لغة (يدش) وهي تطابق لغة الاقليم الشمالي الغربي من المانيا وعلى الرغم من انها لغة المانية فانها تكتب بالحروف العبرية وكذلك عدد من الكلمات السلافية بعد الاختلاط بهم ولكن الاقتباس لم يغير شيئا من طبيعة اللغة. وقد وصفها كاتب يهودي في دائرة المعارف البريطانية بانها من لغات المانيا السفلى اي المانيا الشمالية الغربية ، ولهذا السبب اختلفت بعض الاختلاف عن اللهجة الالمانية الحديثة .

واخيرا فان زيف الدعوى التي تقول ان الجماعات اليهودية تقيم دائما وابدا دينا مغلقا ومجتمعا مستقلا حتى تظل محتفظة بخصائص الاختيار والاصطفاء انما هي مرفوضة من واقع هذا التاريخ الذي يرفض الاوهام اليهودية وزيف ما تصنع ، وبما قرره العلم وسجله التاريخ فانه لا يسيغ لعاقل حتى من الجماعات اليهودية قد تطهر وجدانه من لوثة الارتباط بالدعاوى التعصبية العصرية التي تتداول عبر التاريخ ان يدعي القول بنقاء الجنس وأفضلية الشعب المختار ، فلقد اصبح من المقررات العلمية بان اليهود وخاصة الاوروبيين هم ادنى الى الجنس الآري منهم الى الجنس السامي .

غير ان الارتباط بزيف ما يؤمن الغلاة المتطرفون من اليهود بنقاء الجنس وارتباط السلالة اليهودية بعضها بالبعض في حركة تمدد عضوي

عبر مراحل التاريخ وبين كل الامم والشعوب هي التي كانت وراء تجنيد الجماعات اليهودية وتعبئتها في حركة سياسية عنصرية قادت اعنف واشد ما يعتقد المتعصبون من يهود للشعب الذي يعيش بلا ارض وبلا لغة تعامل وبلا آداب دين وبلا مستقبل ، وكانت هذه العقيدة من أجل الارض واللغة والمستقبل مضمون الفكرة القومية اليهودية التي عبر عنها الغلاة المتعصبون جيلا بعد جيل منذ مراحل الذوبان والانتشار حتى وجدت في مطامع الاستعمار العالمي وقواه مسرحا وسندا فعبرت عن نفسها بدعوى التعصب العنصري مرتبطا بحركة الاستعمار العالمي ضد مستقبل الشعوب ومقدراتها في الصهيونية العالمية مرحلة من مراحل التاريخ اليهودي في مساره العام والطويل .



الباب الثاني عشر

- الصهيونية العالمية وشعب اسرائيل
- في الجذور التاريخية للحركة الصهيونية
- مولد الصهيونية العالمية في اوروبا
- مؤتمر بازل والعمل الصهيوني
- الصهيونية السياسية في المجال الدولي
- الحرب العالمية واثرها في الاطماع اليهودية
- جهود الحركة الصهيونية ابان الحرب العالمية الاولى
- اثر الحرب الاولى على الصراع العالمي
- بريطانيا تمزق الارض العربية

الصهيونية العالمية وشعب اسرائيل :

الصهيونية العالمية التي تعني « الحركة اليهودية السياسية المعبرة عن الاهداف والاماني واسلوب العمل المنظم من اجل استعمار واستيطان فلسطين » هي حركة قديمة قدم تعلق الاوهام والاطماع اليهودية في « صهيون » وهي في تاريخ الجماعات اليهودية مرتبطة بقيام وسقوط الدولة المدعاة في بيت داود « عليه السلام » وهذه الاهداف والاماني اليهودية المتعصبة ليست في تاريخ القوم تعاليم دين وارتباط به قدر ما هي اساليب « السياسة » حسب المصلحة والهوى ، فالوعد المزعوم « بصهيون » ، كان لابراهيم عليه السلام فاصبح لاسحق ابنه لا باعتبار ذلك الوعد ميراثا مما ترك الوالد لابنائه ـ كما سبق ان عالجنا ذلك ـ وانما لان الوعد تحول بمشيئة القوم الى اسحق بدلا من ابيه لكي يرثه « يعقوب » وينحصر في سلالة « اسرائيل » وهذه الحركة السياسية في تاريخ القوم كانت الاداة التي تتخذها الجماعات اليهودية عبر مراحل التاريخ فيما يمكن ان تقوم به من تكيف ومواءمة لتطوير الظروف التاريخية التي يحلمون بها . فمثلا بعد ضياع الدولة المدعاة ودخولهم مرحلة الاسر البابلي ظلت اطماع القوم في الدولة السياسية قائمة ولم يفتر عمل الكهانة الدينية من اجل التعلق بعودة المملكة . فتعلم اليهود اساليب عمل لم تكن في ايديهم فكان منها بقية من تعاليم قديمة عن عودة « مردخ » الى الارض وعودة رسول للخير بعد كل الف سنة ليخلص الارض من آثامها وفسادها ، فلم تر السياسة ما يمنع من التعلق بعودة « المملكة » وعلى يد بطل من الابطال ورسل الخير (١) ، وليس شرطا ان يكون من « اسرائيل » اي من ذرية داود صاحب « المملكة المدعاة » وعليه

---

(١) انظر التلمود والصهيونية للاستاذ الدكتور اسعد رزوق ، صادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت عام ١٩٧٠ م .

فانه ما ان سمح « قورش » القائد الفارسي الذي اقام تمدده وتوسعه على انقاض « دولة » بابل للجماعات اليهودية ان تبدأ من جديد في بناء «الهيكل» الا اطلقوا من الشائعات على حد ما يذهب الاصحاح الخامس والاربعين من سفر « اشعيا » ان « قورش » هو البطل المخلص ، وظلت « الصهيونية » حركة سياسية في مطامع القوم ونياتهم زمانا يتخيلون فيه البطل المخلص ملكا صاحب عرش وتاج يقيم سلطان الدولة المتعلق بها في بيت « المقدس » بقوة السيف وسواعد الرجال ، ولما طال الزمان بالقوم ويئسوا من تحقيق المطمع في اقامة دولة المملكة بقوة الابطال المنتظرين علقوا امالهم وعواطفهم في انتظار مخلص من عالم الروح وفيه قال زكريا في سفره : « انه عادل ومنصور ووديع يركب حمار ابن اتان » .

وفي هذا المعنى يقول المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « الصهيونية العالمية » وهو يشرح المراحل التي كانت فيها المعاني الصهيونية اطماعا في ضمير الجماعات اليهودية عبر التاريخ (١) .

ولما بعث المسيح — عليه السلام — انكر كهان الهيكل بعثته وآمن به بعض اليهود وبعض ابناء الامم المقيمين في فلسطين ، واحتج القوم عليه بوعد ابراهيم ، فقال لهم : ان ابناء ابراهيم بالروح هم الموعودون بالخلاص فكل من آمن بدينه فهو من ابنائه ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لان ربا واحدا للجميع . كما جاء في الرسالة الى رومية .

وقد حدث في عصر السيد المسيح ان اليهود تفرقوا في انحاء الدولة الرومانية ، واتخذوا لهم وطنا في كل قطر من اقطارها الواسعة ، فكتب « فيلون » فيلسوف الاسكندرية اليهودي يقول في تحديد موقفهم من الدولة « ان اليهود — لكثرة عددهم — لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق في اغنى البلاد من اوروبا وآسيا ، على انهم ينظرون الى اورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطنا لهم كل ارض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم واجدادهم من قبل » .

---

(١) انظر الصهيونية العالمية للمرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد — طبعة مكتبة غريب بالقاهرة — عام ١٩٧٠ .

والكلمة التي عبر بها « فيلون » عن الحاضرة هي الكلمة اليونانية متروبوليس Metropolis اي ام المدن من كلمة « متري » بمعنى ام وبوليس بمعنى مدينة وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد او الدواوين .

فالصهيونية في الزمن القديم لم تكن عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الامل في نجاحها السياسي ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافي ، واطلقت في بعض التغييرات على معنى آخر بعيد كل البعد عن المعاني الجغرافية ، وذاك حيث يقول صاحب الرسالة الى العبرانيين من الانجيل « انكم لم تأتوا الى جبل ملموس مضطرم بالنار ... بل اتيتم الى جبل صهيون ، والى مدينة الله الحي اورشليم السماوية .. وكنيسة ابكار مكتوبين في السموات والى الله ديان الجميع » .

وواضح من تعبير هذه الرسالة ان الصهيونية قد تحولت الى فكرة لا تتعلق بمكان معين . ولا تتطلب العودة الى فلسطين ، ولذلك ناهضها المتدينون من اليهود عند ظهور الدعوة اليها ، واعتبروا هذه الدعوة تجديفا وانكارا للمسيح المنتظر في عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين ـ بالمسيح ـ عليه السلام ـ وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه في آخر الزمان فاتفقتا على شيء واحد ، وهو الفصل بين الصهيونية السياسية والفكرة الدينية .

والواقع ان الصهيونية الحديثة كأختها القديمة : كلتاهما وليدة السياسة والسياسيين ، ايا كان السبب الذي تستند اليه .

وجملة اسبابها ـ كما يذكرها المؤرخون لها (١) ـ هي الاضطهاد وظهور الفكرة القومية ومطامع الاستعمار .

لهذا نشأت اول الامر في اوروبا الشرقية واوروبا الوسطى ، حيث بلغ الضغط على اليهود اشده في القرن التاسع عشر ، ثم نشأت مع المسألة

---

(١) اوضحنا في كتابنا هذا عند الحديث عن مولد « الصهيونية العالمية الحديثة » اسبابا اخرى غير الاضطهاد وظهور الفكرة القومية .

الشرقيـة واستخدمها الساسة لتحقيـق مطامعهـم في بـلاد « الرجـل المريض » ... اي الدولة العثمانية كما سماها رواد الاستعمار .

فلما اتجهت اوروبا كلها الى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال ـ الدولة العثمانية ـ اراد نابليون ان يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة في هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية اعلانا دعا فيه يهود افريقيـة واسيا الى موافاة جيشه بمصر ، ليدخلوا معه الى اورشليم ، وراجـت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية الى اغتنام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم اعمالهم التجارية بين الوجه البحري في مصر وعكا والبحر الميت وشواطىء البحر الاحمر .

ولم تكد هذه الدعوة تحبط بحبوط حملة نابليون حتى تصدى الايرل اوف شافتسبري الانجليزي سنة ١٨٤٢ لتبنيها واحتضانها، منعا لتنفيذها على يد دولة اخرى ، وعلى الخصوص الدولة الروسية ، فوضع مشروعـا سماه مشروع « الارض بغير شعب للشعب بغير ارض » ويعني بالارض مكانا خاليا يصلح للاستعمار الزراعي في انحاء فلسطين ، ثم انعقد مؤتمر برلين وهذه الفكرة شائعة فيه بين الاروقة يزجيها رجال المال من وراء الستار .

مولد الصهيونية العالمية في اوروبا :

من الخطأ الشائع الذي درج عليه كثرة كبيرة ممن تعرضوا بالبحـث العلمي للوقوف على المصادر المؤثرة في نمو حركة الصهيونية العالمية الحديثة وتصاعد نشاطها ، هو ان مولد الصهيونية العالمية بمضمونهـا الحركـي السياسي الذي يعني العودة لفلسطين واستيطانها واستعمارها يقترن بحركة اضطهاد اليهود ومقاومتهم ومطاردتهم ، الحال الذي ولد في اعماقهـم شعورهم « بالتميز » ، والى ان يبحثـوا عن « ارض الميعاد » في تاريخهـم ودينهم ليلبسوها (الحركة الصهيونية) طابعا سياسيا ودينيا يأخذ علـى عاتقه فكرة الخلاص واسترداد الكرامة ، فالواقـع ان دراسة التاريـخ اليهودي بكل جوانبه وخاصة الجوانب السياسية والادبية تقدم تصورا آخر غير هذا الذي درج عليه الباحثون من أن المصادر وخاصة النفسية ـ المؤثرة في الحركة الصهيونية كان من اهمها واعمقها ظروف الاضطهاد الاوروبـي

لليهود ، وهذا التصور يقول بعكس ذلك تماما أي انالظروف التي ساعدت على مولد الحركة الصهيونية ونموها لم تكن عوامل الاضطهاد الاوروبي لليهود ، بل ان المصادر المؤثرة في توجيه الحركة الصهيونية الحديثة هي فترات عدم الاضطهاد وانفتاحهم على الحياة العامة وتمكنهم من ممارسة حياتهم في ظل ارادتهم بتوجيه من تفكيرهم وحريتهم ثم مراحل ازدهارهم وانطلاق تفكيرهم في خدمة امانيهم ومعتقداتهم ، ويتمثل لنا هذا المعنى الذي نسوقه ونوجه اليه اذا درسنا تاريخ الانتاج الفكري لليهود خلال عدة مراحل متفاوتة ، لنرى من خلالها هل حقيقة بدأ مولد الفكر السياسي الحديث المرتبط بالاماني والاطماع في استيطان فلسطين في ظروف القهر والاضطهاد أم في مراحل الانفتاح على الحياة وتمكنهم من الحركة والممارسة والتعبير عن فكرهم ومعتقداتهم ؟

* * *

من الملاحظ في تاريخ اليهود بوجه عام ان المرحلة الممتدة من حوالي عام ١٧٥ ــ ١٠٣٨ م كانت فترات الازدهار والانفتاح اليهودي وعدم مقاومة الشعوب للطبع الملتوي في خلق القوم اكثر وبشكل كبير من مراحل الاضطهاد الذي تعرض له اليهود ، وفي خلال هذه المراحل كان يتاح لكثير من الرجال القائمين بأمر الفكر والدين اليهودي استكمالهم للعلوم والتشريعات الدينية وبعض المصنفات الادبية .

ومن الممكن القول بانصاف ودون اعمال لنعرة التعصب ان اليهود عاشوا عصرهم الذهبي ابان الحكم العربي المسلم للاندلس . فمن يطلع على كتاب « تاريخ الاندلس » الذي ألفه « انخل جنثالث بالانسيا » والذي ترجمه الدكتور حسين مؤنس في القاهرة عام ١٩٥٥ م ، يجد ان اليهودي ، يهودا ابن ليفي الطليطلي ٤٧٧ هـ ٥٣٧ ــ ١٠٨٥ ــ ١١٤٣ م الذي يكنيه العرب بأبي الحسن قد انتج من القصائد الدينية اليهودية ما يعتبره اليهود من اعظم وأجود نتاجهم الشعري في تاريخهم الادبي ، وقد يعجب الكثير اذا علم ان هذا اليهودي هو الذي كتب في ظل الدولة العربية المسلمة حلقة من سلسلة الفكر القومي والديني عند اليهود ، هذا الفكر الذي يضاف بعضه الى بعض ليكون في النهاية الارض التي تجمع عليها الوعي التعصبي عند اليهود ليتعلقوا بأطماعهم واوهامهم جيلا بعد جيل من اجل تنظيم حركي

يقودهم الى تجديد تعلقهم بالمملكة المدعاة في فلسطين ، وهذه الحلقة التي كتبها «يهودا» هي الرسالة المسماة «الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل» وقد كتبها بلغة عربية فصيحة ويقال ان الباعث عند « يهودا » على تاليفه هذا ، للحادث التاريخي المتعلق باعتناق ملك الخزر لليهودية .

ويقول الاستاذ « غسان كنفاني » في كتابه القيم «في الادب الصهيوني» الصادر عن « مركز الابحاث » للدراسات الفلسطينية :

وتحت الحكم العربي الذي اتاح لليهود حقوقا كاملة (١) ، كتب سعادية ابن يوسف ٨٩٢-٩٤٢ ـ انتاجه التلمودي والفلسفي، وقدم الترجمة العربية للعهد القديم في مصر وكتب اسحق الفاسي ١٠١٢ ـ ١١٠٣ ، فلسفته بالعربية وحقق ابن ميمون المعروف في الغرب بـ « مايمونيدس » انتاجه الديني والفلسفي الذي يعتبر علامة من علامات اليهودي ، وبوسع المرء ان يعدد الاسماء اليهودية البارزة التي سجلت للفكر اليهودي الديني قواعده في فترات الانفراج : قائداي بن شبروت المولود عام ١٩٦١ ، وشاموئيل هاناجيد ، استاذ سليمان بن غابيرول ، وغيرهما .

وحين امتدت الدولة الاسلامية الى الشرق في منتصف القرن السابع واعترف الاسلام بالدين اليهودي ومنح اليهود كل الحقوق التي كانوا يتمتعون بها تحت اكثر النظم الفارسية تسامحا حقق اليهود الذين عاشوا في ظل ذلك النظام دراسات دينية وفلسفية وشعرية مرموقة في نفس الوقت الذي عانى فيه اليهود في اوروبا الغربية في فترة الاضطهاد التي امتدت خلال العصور الوسطى جدبا فكريا مدقعا ، وفي الواقع ان اية اسماء كانت تبرز في عصور الاضطهاد لم تكن في الحقيقة اكثر من امتدادات دراسة لانتاج حصل في فترات الانفراج والتسامح ، ومن النادر ان نرى انتاجا يهوديا بارزا وخلاقا كان وليد فترة اضطهاد ، فقد عاش اليهود والاسبان وسكان فرنسا الجنوبية في فترات الاضطهاد التي اعقبت التراجع العربي عن الاندلس على دراسة انتاج «ابن ميمون» وتوسيعه والتعقيب عليه ، وتلاحظ الشيء ذاته ايضا في الفترة الاضطهادية التي اعقبت تفسيرات راشي للتلمود والتي

---

(١) في الادب الصهيوني ، واحد من اهم كتبنا العربية عن الادب الصهيوني للاستاذ غسان كنفاني ـ صادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت .

كتبها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر والتي بقيت مصدرا للفترات التي جاءت في اعقاب عصر « راشي » .

ومنذ الحكم العربي في الاندلس الى عصور المطاردة والمضايقة ثم تفتت الجماعات اليهودية وذوبانها أحيانا في بعض المجتمعات الاوروبية الى أواخر القرن الخامس عشر ثم عصر ظهور الثورة الفرنسية ، وعدد المراحل او الفترات والبلدان التي كانت فيها الجماعات اليهودية تتعرض للمقاومة والمطاردة اقل بكثير من الفترات والبلدان التي كانت تتيح لهم فرص الحياة وحق الممارسة والتعبير ، ففي اواخر القرن الخامس عشر كانت القسطنطينية من اكثر اماكن العالم انفتاحا واستقبالا لليهود في ان يحيوا حياتهم ويمارسوا أفكارهم وثقافتهم ، ومن يطلع على بعض الدراسات الموضوعية يجد فيها انه امكن لليهود ان يقيموا مركزا ثقافيا في فلسطين نتيجة ليسر وتسامح ما عامل به الحكام في القسطنطينية الجماعات اليهودية، وكان اليهود الهاربون من اوروبا الشرقية والوسطى ، قد وصلوا الى « صفد » عن طريق القسطنطينية قد كونوا مركزا للبحث والمذاكرة وفي هذا المركز تألق في الانتاج اليهودي رجال من المفكرين اليهود كان من اشهرهم ، جوزيف كارلوا ١٤٨٨ م و « اسحق لوريا ١٥٣٢ م » .

وفي القرن الثامن عشر تمتع اليهود الالمان بكثير من المجالات والميادين التي هيأت لهم انتاجا فكريا ودينيا كان في خدمة الروح الحركية السياسية التي ترتبط بفكرة الارض والمملكة المدعاة .

وفي نهاية القرن الثامن عشر تمتع اليهود الالمان على وجه الخصوص بمجالات وميادين لم تكن تتاح لغيرهم وذلك للدور العظيم الذي قام به المثقفون الالمان ومع ذلك فانه رغم ما تمتع به اليهود في اكثر البلدان ومعظم المراحل التاريخية فان نظرتهم الى الدعوة التي كانت تنادي بالذوبان داخل المجتمعات كانت تجد من التيار الفكري العام عند اليهود معارضة شديدة فعندما قام اليهودي الالماني « موسى مندلسون ١٧٢٩ — ١٧٨٦ » بترجمة الكتاب المقدس الى الالمانية وكان يقصد من جملة جهوده دعوة اليهود الالمان الى الامتزاج بالشعب الالماني ، جوبه بحملة نقد ومطاردة ضارية أوشك الغلاة المتطرفون من اليهود ان يجردوه حتى من يهوديته .

ونستطيع ان نرى في « مندلسون » خير نموذج لعمليات التجميع الفكري التي كان يقوم بها اليهود وخاصة في المراحل والمجالات التي تتاح لهم فيها حرية العمل فانه ان حاد واحد من القوم عن الخط الحركي التعصبي الذي يقوم على رفض المساواة بالشعوب الاخرى فانها المجابهة والمواجهة والمطاردة ، ومن يقرأ ما كتب عن « موسى مندلسون » في
Elmer Berger «the Jewish, Dilemma, New York, the Devin Adait Co., 1946.

يجد انه تحت الضغط على « موسى مندلسون » كان من نتائج ترجمته للكتاب المقدس وخاصة العهد القديم الى الالمانية ان ادى الى عكس الغاية التي كان يتوخاها « مندلسون » .

ومقومات الحركة الصهيونية نلمحها في الدور الخطير الذي قام به المفكر اليهودي في اكثر بلدان العالم انفتاحا وتوفيرا لكل حقوق المواطن اليهودي فعندما منح المجلس الوطني الفرنسي عام ١٧٩١ م كل الحقوق المشروعة للمواطنين اليهود في فرنسا ، كان هذا هو الامر الذي استغله اليهود كثيرا في المطالبة به والدعوة اليه في باقي اوروبا الغربية والوسطى، ومع ذلك لم تقبل الجماعات اليهودية الفرنسية دعوات الاندماج والذوبان داخل وحدة الوطن الفرنسي بشكل يخدم وحدة الوطن الذي يعيشون فيه.

ومن عجب انه في هذه الظروف التي منح لليهود فيها كل ما كانوا في حاجة اليه فان القوة الاقتصادية اليهودية التي كانت في فرنسا في ذلك الحين قامت تقود تيارا عنصريا متطرفا يرفض فكرة الاندماج والمساواةويقيم موقفه على اساس من حجج دينية متعصبة ترفض فيمضمونها فكرة مساواة الشعب اليهودي بغيره ، وقد كان من اثر موقف القوى الاقتصادية الطبقية ان العلاقة التي كانت بين جملة التعاليم الروحية والسلطة المدنية اليهودية تحولت الى موقف اخر كانت فيه القوة الاقتصادية والتي تبني موقفها تجاه كل ما يحيط بها على اساس مصلحي صرف كانت تدفع كل ما ترفضه حتى وان تعارض مع جملة تعاليم الدين . ونشأ الموقف العنصري اليهودي عميقا وكبيرا باقوى مما كان في معظم الاعمال التاريخية ، يلعب من أجل مصلحة سياسة الاقتصاد اليهودي واحابيل السياسة الصهيونية .

الصهيونية السياسية في المجال الدولي :

الصهيونية الحديثة في المجال الدولي التي بشر بها ودعا اليها وقاد اسلوب عملها وارسى الكثير من قواعد عملها « تيودر هرتزل » ظهرت على صورة حركة عالمية منظمة في العقد الاخير من النصف الثاني للقرن التاسع عشر ١٨٩٧ م .

وقبل هذه المرحلة كانت الجهود اليهودية كما قلنا فكرا واماني أو تنظيمات دينية تجتر الاماني المبهمة او تعمل على تعميق الوعي القومي وانتشاره ، ولم تنزل الجهود اليهودية الى المجال الدولي بسياسة عامة واسس محددة في اسلوب عمل الا في هذه المرحلة التي أشرنا اليها من اواخر القرن التاسع عشر وعلى وجه التحديد منذ العمل ببرنامج مؤتمر «بازل» .

وقبل « بازل » في الدعوات والتنظيمات السياسية كانت هناك محاولات على طول التاريخ اليهودي تتعلق بالعودة والارتباط بـ «صهيون» ومنها مثلا :

« حركة المكابيين » : وكانت محاولة للتجمع اليهودي وكان من اهم اهدافها العودة المنظمة الى ارض صهيون في فلسطين .

« حركة باركوخيا » : ١١٧ ــ ١٣٨ م وكانت تحث اليهود على التجمع في فلسطين ، والعودة المقدسة لاعادة بناء الهيكل من جديد وهذه الفترة هي أوائل حكم القيصر الروماني « هادريان » الذي نسخ الكثير مما تبقى في عواطف اليهود وسلوكهم العنصري وشيد مدينة على انقاض مدينة « اورشليم » بعد ان كان حالها منذ عصر القائد الروماني « تيطس » عام ٧٠ م قد بلغ حالة من الدمار والخراب ذلك انه ما كاد جيشه يقترب من المدينة حتى اكلتها النيران ولم يبق على قيد الحياة من اليهود الا قلة قليلة هاموا على وجوههم بعد ان تبعثروا ، واعتبر الرومان سقوط اورشليم انتصارا ابديا للعالم على اليهود .

« و حركة موزس الكريتي » : وكانت ايضا حركة سياسية ساذجة

تافهة غير منظمة وكانت تهدف الى التجمع اليهودي من اجل فلسطين الا انه لم يكتب لها النجاح من اولها وانتهت قبل ان تظهر .

« وحركة دافيد روبين » : ١٥٠١ – ١٥٣٢ م وانتهت سريعا ولم تشغل بال العالم يوما .

« وحركة منشة بن اسرائيل » : ١٦٠٢ – ١٦٠٧ م وكانت في اهدافها سياسية بحتة تريد خلق موقف قومي يجمع اليهود في حالة من التعامل المباشر والاستثمار المستقل ، ومن عجب انها كانت تريد بريطانيا وطنا قوميا لليهود .

« وحركة شيبتاي ليفي » : ١٦٢٦ – ١٦٧٦ م وهذه الحركة لم يتوفر لها كغيرها من الحركات السابقة مقومات نجاحها في توجيه الوجود اليهودي سياسيا الى العمل المنظم من اجل الوطن القومي .

ومن قبيل هذه الحركات النداءات الصارخة التي كان يوجهها بعض من مفكري اليهود الى بني جنسهم من اجل الالتفاف والتجمع للعمل من اجل وطن قومي في اي موقع من العالم . وكان من هذه النداءات الدعوة التي تضمنها أول كتاب صدر يطالب بانشاء دولة لليهود تجمع فئاتهم وأفرادهم في ظل قومية موحدة وهذا الكتاب الذي اسماه مؤلفه « السير هنري فيتش » ١٦١٦ م « نداء اليهود » لم يحدد فيه « هنري » تفاصيل مكونات القومية اليهودية ولا الارض التي ستنشأ عليها هذه القومية ، الا انه تلا هذه المرحلة الدور الذي قاده الكاتب اليهودي « موسى هيس » الذي كتب عن علاقة روما باليهودية بعد ان نادى بانشاء وطن قومي لليهود ولم يحدد هو الآخر ضرورة أن يكون هذا الوطن « فلسطين » ثم كانت بعد ذلك هذه المرحلة الحديثة والتي كانت بمثابة ضجة قوية متعصبة حين ناشد اليهودي الفرنسي في بدء الحملة الفرنسية التي وجهها نابليون ١٧٩٨ م الى ابناء جنسه ودينه ان يعملوا على تكوين مجلس يضم كل الطوائف والفئات اليهودية على ان يكون مقره باريس وعلى ان يقوم هذا المجلس بتوجيه النداءات الى الحكومة الفرنسية من اجل المساعدة في انشاء الوطن القومي الذي يجمع شمل اليهود وينظم حياتهم وقد قيل في حدود هذا الوطن واهدافه ووظائفه ... « وهذا القطر الذي نريد ان نحتله يشتمل على

مصر السفلى « الوجه البحري » ويمتد شرقا الى الجهات المتاخمة ، وينتهي بخط يمتد من بلدة عكا الى البحر الميت ، وموقع هذا القطر من انفع المواقع في العالم . ويمكننا من السيطرة على ملاحة البحر الاحمر وعلى تجارة الهند وبلاد العرب وافريقيا الشرقية والجنوبية ، وكذلك سيسهل لنا تجارة ايران واسيا لقربه من مدينتي دمشق وحلب ، كما يسهل الاتصال بواسطة البحر المتوسط بالبلاد والممالك الاوروبية ، وهكذا تكون بلادنا بفضل موقعها الممتاز في قلب العالم والمستودع الاكبر للمنتجات العالمية الثمينة » .

ومن اعجب العجب ان هذه الدعوة اليهودية وجدت تحمسا لها واستجابة لما يمكن ان تكون عليه لو توفرت لها اسباب قيامها عند «نابليون» بونابرت القائد الفرنسي الشهير الذي كان في ذلك الوقت يريد ان يجمع كل القوى حتى المتناقضة مع بعضها لتكون تحت اللواء الذي كان يحلم به فكتب يرد على هذه النداءات اليهودية التي صدرت من اليهودي الفرنسي المتعصب ونشر بالفعل في صحيفة Moniigur في العدد من ٢٠ نيسان ١٧٩٩ م . نداء الى جميع يهود اسيا وافريقيا يدعوهم ويستحثهم لكي يهيئوا للعمل من اجل مجدهم الغابر في ظل لوائه الغازي ولكن نهاية نابليون بونابرت في بلاد العرب وامام اسوار عكا بالذات جعل هذه المرحلة من العمل اليهودي المرتبط بظروف وتطورات السياسة الدولية لا يتعدى كونه حلقة من سلسلة العمل الطويلة من اهداف الغلاة من اليهود وامانيهم (١) .

وقد بدات الجماعات اليهودية في تطوير فكرها واسلوب عملها وخاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد ان تأكدت من انها حقيقة تركب الحركة الاستعمارية وخاصة في بريطانيا وفرنسا وقد كانت البداية العملية والمنظمة منذ المؤتمر الشهير الذي دعا اليه وتراسه اليهودي النمسوي الاصل « تيودر هرتزل » واعني به مؤتمر بازل في سويسرا .

---

(١) انظر : صراعنا مع اسرائيل للمهندس عبدالله عاصي ـ صادر عن منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت عام ١٩٧٠ م .

مؤتمر بازل والعمل الصهيوني :

قبل بازل لم يكن المجال الدولي في تحقيق الاطماع اليهودية يتعرض لخطة منظمة من قبل القوى اليهودية العالمية . واما منذ بازل فان العمـــل اليهودي الصهيوني قد انطلق بخطة عالمية تعبر عن الاماني والاطماع اليهودية ذلك انه كان للمؤتمر اليهودي في بازل المضمون السياسي والحركي في تاريخ الاطماع اليهودية . وقد حضر المؤتمر ٢٠٤ من كبار اليهود في العالم ، ولـم يكونوا بالطبع اعضاء منتخبين الا انهم بحثوا مشاكلهم ودرسوا اطماعهـــم ووضعوا ما ارتأوه من اساليب لتحقيق امانيهم وكان من اهم منجزات هذا المؤتمر اليهودي الاتي :

وضع البرنامج الصهيوني المعروف والذي عرف « ببرنامج بازل » . واقامة المنظمة الصهيونية العالمية لتنفيذ البرنامج الموضوع . وكان ايضـــا من اهم قرارات المؤتمر على حد ما يذهب « اسرائيل كوهين » في « تاريخ مختصر للصهيونية » قرار المؤتمر الرئيسي الذي جاء على النحو التالي :

« ان هدف الصهيونيه هو اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام » .

ومن اجل تحقيق هذه الغاية بعينها وهي اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين خطط المؤتمر خطوات اربع كان لا بد منها لتحقيق هذا الهـــدف بالذات وهذه الخطوات الاربع هي :

١ ــ تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين وخاصة تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقا لخطوط مناسبة .

٢ ــ تنظيم اليهود وربطهم جميعا عبر مؤسسات مناسبة على الصعيدين المحلي والعالمي ، كل منها حسب قوانين البلد المعني .

٣ ــ تقوية الحس والوعي القومي اليهودي وتعزيزهما .

٤ ــ اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول حيث يكون ذلك ضروريا لتحقيق هدف الصهيونية .

هذه هي بعض القرارات والخطوات التي اتخذت في المؤتمر اليهـودي في بازل والتي على ضوئها وبأساس منها قامت « المنظمة » الصهيونيةالعالمية عام ١٨٩٧ م .

وكانت الخطوات التمهيدية المباشرة لهذا المؤتمر انه قبل انعقاد المؤتمر بيومين عقد اجتماع تمهيدي اتخذت فيه القرارات اللازمة التي تضمن نجاح اعمال المؤتمر ، وايضا في هذا الاجتماع التمهيدي تم تشكيل لجنة خاصة كانت مهمتها صياغة قرارات البرنامج الصهيوني .

وفي يوم ٩ من اغسطس ١٨٩٧ م افتتح الدكتور ماركس ليبي اعمال المؤتمر وبعد تلاوة صلاة خاصة القى تيودر هرتزل خطاب الافتتاح .

وعلى الاثر تم تشكيل مكتب للمؤتمر ، انتخب تيودر هرتزل رئيسـا للمؤتمر الصهيوني الاول . ثم سارت بعد ذلك الصهيونية العالمية فـي عمليات التصاعد والتوسع والانتشار بنشاطها وتنظيماتها ، فمثلا فـي المؤتمر الصهيوني الثاني الذي عقد في اغسطس عام ١٨٩٨ بلغ عـدد اعضاء المؤتمر ٤٠٠ اي ضعف عدد المشتركين في اعمال المؤتمر الاول وفي الفترة ما بين المؤتمرين ازداد عدد الجمعيات الصهيونية بنسبة ثمانية اضعاف .

وبالاضافة الى هذا النمو العددي ، شهدت المنظمة الصهيونية تطورا اداريا ، فالمؤتمر الصهيوني الثاني كان متميزا في نقطتين (١) :

الاولى : ان هذا المؤتمر الصهيوني الثاني كان اول مؤتمر صهيونـي يحضره ممثلون شرعيون منتخبون .

الثانية : ان انعقاد هذا المؤتمر في موعده المحدد اكسب الادارة التشريعية

---

(١) تاريخ مختصر الصهيونية . او اسرائيل كوهين .

الصهيونية صفة الدوام والانتظام (١) ولقد شهد المؤتمر الصهيوني الثالث الذي انعقد في اغسطس عام ١٨٩٩ نموا جديدا في عدد الاعضاء المشتركين في اعماله وكان هذا دليلا على ازدياد اعضاء المنظمة الذين ازدادوا بنسبة الثلث في روسيا ونسبة الربع في البلاد الاخرى مقارنة بعدد الاعضاء في المؤتمر الثاني .

والنقطة البارزة في المؤتمر الثالث كانت تبني المؤتمر لاجهزة المنظمة الدائمة ، التي حلت محل الاجهزة المؤقتة .

وفي المؤتمر الصهيوني الرابع الذي انعقد في اغسطس عام ١٩٠٠ م اعلن ان عدد الجمعيات الصهيونية في بريطانيا ازداد من ١٦ الى ٣٩ ،وفي الولايات المتحدة الاميركية من ١٠٣ الى ١٣٥ وفي روسيا القيصرية من ٩٠٠ الى ١١٤٦ ، وايضا فقد شهدت البلدان الاخرى نموا مماثلا لهذه النماذج من البلدان التي انتشرت فيها الحركة الصهيونية وتوسعت .

اما المؤتمر الصهيوني الخامس المنعقد في اغسطس ١٩٠١ فقد شهد ظهور الحزب الصهيوني الاول داخل المنظمة وهو « الجناح الديمقراطي الصهيوني » ، وفي المؤتمر ذاته انشىء الصندوق القومي اليهودي بهدف استملاك اراض في فلسطين ، وبالاضافة الى ذلك ، راجع المؤتمر بعض الاعمال والانظمة وادخل عليها التعديلات الضرورية ، فمثلا اعلن المؤتمر عن تشكيل محكمة للمؤتمر لفض الخلافات بين الاجهزة الصهيونية ، وقرر المؤتمر ايضا ان يمد دورته من عام الى عامين على اساس ان يحل محل المؤتمر الصهيوني بين المؤتمرين « المؤتمر السنوي » والمؤلف من اعضاء المجلس العام واللجنة التنفيذية واللجنة الدائمة ودائرة البنك الصهيوني وفوق ذلك كله فقد خضع البناء التنظيمي على الصعيد الدولي الى تغييرات وتعديلات ، فالعلاقة بين المكاتب المركزية في كل بلد وبين مكتب التوجيه المركزي في « فينا » استبدلت بعلاقة مباشرة بين المكاتب المركزية في البلدان المختلفة من جهة واللجنة التنفيذية من جهة ثانية .

---

(١) انظر المنظمة الصهيونية العالمية تنظيمها واعمالها ١٨٩٨ ــ ١٩٢٨ للاستاذ اسعد عبد الرحمن ، الصادر عن مركز الابحاث الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وبهذا البناء التنظيمي المتطور في اسلوب العمل الصهيوني منذ المؤتمر الاول فانه لم يكد ياتي عام ١٩٠٣ موعد المؤتمر الصهيوني السادس الا وفد شهده ٦٠٠ عضو مشترك بعد ان اصبح عدد الجمعيات الصهيونية في الفترة التي مرت بين المؤتمرين من ١١٤٦ الى ١٥٧٢ جمعية .

وبهذه الروح المنطلقة الطامعة المتوسعة في الاعداد والعمل كانت تندفع الحركة الصهيونية تهيىء الافكار وتصنع المجالات وتعبىء القوى التي تساعدها وتدفعها الى العمل في المجال الدولي من اجل تحقيق وتنفيذ خطة العمل التي تحددت ملامحها في برنامج ــ بازل ــ الصهيوني .

ولم يكن غريبا للتنظيم الصهيوني منذ ــ بازل ــ ان يتطور ويتصاعد بشكل غير مالوف في طريق النجاح والانتشار والتوسع ، فمنذ المؤتمر الاول عام ١٨٩٧ م الى عام ١٩١٣ وسير المؤتمرات اليهودية الصهيونية من بازل، الى لندن ، الى لاهاي الى هامبورج ، الى فينا ، يضيف قوة واندفاعا في العمل الصهيوني لتحقيق برنامج بازل واهدافه . ففي عام ١٩١٣ اخر مؤتمر هام في هذه المرحلة ــ مرحلة الاعداد للدولة ــ تقرر في هذا المؤتمر انشاء الجامعة العبرية في فلسطين . ومنذ هذا المؤتمر الذي عقد في فينا فان حركة الاستعمار العالمي وبقيادة بريطانيا قد ادركت تماما ما يمكن ان تقدمه القوى الصهيونية الوليدة كقوة تضاف الى حركة اطماع الاستعمار وخاصة حين تصبح الحاجة ماسة الى تعبئة كل القوى المتوثبة المادية لامكانيات العالم الراسمالي ، وبالفعل فان التجربة التي مارستها القوى الاستعمارية مع القوى الصهيونية قد اكدت لكل منهما مدى ما يمكن ان تكون عليه العلاقات من عون بين كل منهما . ففي منتصف الحرب العالمية الاولى لم تكن الكفة الراجحة في يد بريطانيا تماما ، الا انه بوعود واماني من حركة الاستعمار العالمي في بريطانيا لاهداف ومخططات الصهيونية العالمية تحولت الصهيونية بضغوط رجالها والممولين لمرافق الحياة العامة في الولايات المتحدة وضغطت عليها كي تدخل الحرب التي لا ناقة لها فيها ولا جمل ولكي تغير مجراها ، فتصبح في صالح بريطانيا ، وبالفعل سافر « هربرت صموئيل » البريطاني الصهيوني ، واتصل بالقاضي «براندس» والقاضي « فرانكفورتز» واستطاع الثلاثة بضغوطهم وتعبئتهم للقوى اليهودية الامريكية ان يقحموا الولايات

المتحدة في الحرب سندا لبريطانيا وعونا لها ومنذ هذا التاريخ بات محققا امكانية العمل المثمر لكل من الصهيونية والاستعمار البريطاني في حالة تعاون مشترك بينهما تحقيقا للاماني التي وجدت عند كل منهما منذ ابتدا الاستعمار البريطاني يخطط لاطماعه في العالم بصنع اساليب بعيدة المدى للسيطرة على مقدرات العالم وذلك بممارسة الاساليب التي تؤدي الى ان يكون العالم سوقا للتصدير وحقلا للخام في خدمة مخطط الاطماع البريطاني الذي وضع اسسه المحكمة وطور اسلوبه التقليدي البريطائي « كامبسل بترمان » حين دعا الى عقد مؤتمر للقوى الاستعمارية التي تدور في فلك بريطانيا وتتحرك في ظلها وتحت توجيهها ، كان ذلك حين شرعت بريطانيا ومنذ عام ١٩٠٤ م العمل على تشكيل جبهة استعمارية تضم كافة الدول الاستعمارية لتخفف من حدة التنافس وتجنب صدام الاطماع والاهواء ، ولكي تواجه خطر الاستعمار الالماني المزاحم والذي ابتدا يمارس دوره في الاطماع وتخطيطه للسيطرة .

ومن المساعي التي تمت في هذا الشأن : الاتصالات التي تمت مع فرنسا وهولندا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال وايطاليا ، والتي كان من نتائجها تشكيل الحلقات الدراسية التي ضمت مشاهير مفكري الاستعمار ومؤرخيه ولقد ظلت عملية التخطيط والدراسة المتأنية لمستقبل الاستعمار في العالم تتحرك بتوجيه من الحلقات الدراسية التي كانت وليدة لقاء اطماع القوى الاستعمارية بقيادة بريطانيا من عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩٠٧ م حين تمخضت الحلقات الدراسية عام ١٩٠٧ م عن وضع تقارير هي زبدة الفكر الاستعماري القديم في العالم ، وكان مما وصل اليه فكر الاستعمار الراسمالي الذي افصح عن نفسه بما خطط له علماء الاستعمار الاوروبي حين افصحوا عن ان خطرا طبيعيا واصيلا في منطقة السواحل الشرقية والجنوبية للبحر الابيض المتوسط يهدد مصالح الاستعمار وكل مستقبله في هذه المنطقة (١).

وكان الموقع الجغرافي الذي تحتله البلدان العربية من تصدرها لمداخل

---

(١) « فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار » للدكتور احمد طربين ، المصدر السابق الاشارة اليه .

قارتين كبيرتين ، حيث تحدها من الشرق جبال ذاغروس ، الفاصلة بين العراق وايران ، ومن الغرب المحيط الاطلسي ، ومن الشمال سلسلة جبال طوروس التي تفصلها عن تركيا ، ومن الشرق ـ الشمالي بالنسبة لافريقيا ـ ساحل البحر الابيض الذي يفصلها عن اوروبا ، ومن الجنوب يحيط بها المحيط الهندي وادغال افريقيا والصحراء الكبرى ، موضع اهتمام جاد وخطير ومدروس من القوى الاستعمارية في العالم فقد ادركت ان هذا الموقع الذي لا تتمتع به امة في العالم لو اتيح لاهله وشعبه ان يشغل بنفسه كنوز وثروات هذه الارض فان تكون هذه الارض على المدى الطويل سوقا للتصدير وحقلا للخام ، وعليه فقد ارتأت لجان الدراسات الاستعمارية المشكلة بتوجيه من الجبهة الاستعمارية التي كانت تدور في فلك بريطانيا وبقيادتها ان توصي القوى الاستعمارية بضرورة العمل على تجزئة المنطقة وتفتيت عناصر التجمع فيها ، وقتل قوى التقدم التي يمكن ان تطرأ على المنطقة ، اقتصاديا او علميا او ثقافيا . ثم محاربة كل اشكال الوحدة التي يمكن ان يفكر فيها اصحاب هذه الارض مع ضرورة العمل الجاد والمنظم لخلق كيان بشري غريب يكون قويا وقادرا على ان يمتص كل المصادر الاقتصادية في تهديده المباشر بحكم سيطرة وجوده داخل حدود الوطن العربي ليحول دون تحقيق اماني التقدم والرفاهية لشعوب هذه المنطقة ، وليعوق ايضا مطلب الحرية والاستقلال لشعوب اسيا وافريقيا بحكم مخططه ايضا في قلب منطقة التقاء الجزأين الاسيوي والافريقي ، وقد كان للاطماع الاستعمارية والصهيونية ما خططت له القوى الطامعة والمستغلة ، واصبح المجال الدولي مهيئا لسوق الدعوى وممارسة تحقيق الاهداف ، وذلك حين بدات الحرب العالمية الاولى وصنعت بمقدماتها ونتائجها الميدان الذي تعاونت فيه القوى الصهيونية مع القوى الاستعمارية الرأسمالية كي لا تتعارض قوى الاطماع مع بعضها بتصفية بعض جبهات يتم بقوى الاطماع ان تبقى الجبهات الاكبر والاوسع حتى تصبح بالفعل والحقيقة ، الاماني الصهيونية في خدمة الاستعمار والاستعمار في خدمة الحركة الصهيونية . وبالفعل فان ظروفا عالمية قد ساعدت على ان تتكاتف وتتعاون الجهود الاستعمارية المستغلة مع الاطماع الصهيونية المتوثبة وحين بدات الحرب العالمية الاولى كانت المسرح العملي للعمل المشترك كي يجني الاستعمار والصهيونية كل واحد منهما اطماعه في الارض والبشر كان ذلك منذ الظروف الجوهرية التي ساعدت

على تصاعد العمل الصهيوني اثر النتائج التي كانت تحققها الصهيونية العالمية من خلال متابعة الاجهزة المتخصصة للمؤثرات الصهيونية التي كانت تعقد عاما بعد الاخر .

ولقد كان للصهيونية اكبر الاثر في سرعة القيام باستيطان فلسطين وخاصة منذ انعقد المؤتمر الصهيوني السابع في عام ١٩٠٥ عقب وفاة هرتزل وقد اكد هذا المؤتمر الذي كان برئاسة (فاديد ولفسون) من ليتوانيا على وجوب اقامة الدولة في فلسطين ، واعاد النظر في مشروع الهجرة اليهودية لتأخذ طابعا اوسع . وفي المؤتمر الصهيوني الثامن الذي تراسه ولفسون ايضا ، تقرر انشاء الصندوق التأسيسي اليهودي ــ كيرن هيسود (١) وانشاء دائرة خاصة لشئون فلسطين تتبع اللجنة التنفيذية للمؤتمر وتأسيس مكتب صهيوني في يافا ، باسم (مكتب فلسطين) واعتبار اللغة العبرية لغة رسمية للحركة الصهيونية (٢) .

ويبدو ان الخلاف على مشروع اوغنده بين الصهاينة (السياسيين) المؤيدين له ، والصهاينة (العمليين) المعارضين له قد تحول الى خلاف بين المدرستين الصهيونيتين ، وافضى الى جدل عريض لم يلبث ان هدأ نهائيا باندماج هاتين المدرستين اثر المؤتمر الصهيوني الثامن . فقد ظل الصهاينة السياسيون يقولون أن فلسطين تحكمها تركيا. وشراء الارض فيها محظور قانونا وانه لا يمكنهم عمل اي شيء الا السعي للحصول على (البراءة) من حيث هي تنطوي على الترخيص السياسي لاستعمار فلسطين. مع التطلع الى الدول الكبرى مثل انكلترا والمانيا لمساعدتهم في الحصول عليها . وقد ساندت هذا الراي المنظمات الصهيونية في المانيا والنمسا ، ومعظم اليهود الغربيين . وفي الوقت نفسه ظل الصهاينة العمليون ، ومعهم

---

(١) لم يكتمل انشاؤه حتى عام ١٩٧١ م .

(٢) انظر : « فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار ١٨٩٧ ــ ١٩٠٥ » ، للاستاذ الدكتور احمد طربين . محاضرات القيت على طلاب قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية ، صفحات ١٦ ــ ١٠٤ من التي تستشهد بها القاهرة عام ١٩٧٠ م .

حاييم وايزمن ، يقولون انهم لا يعارضون جهود الصهاينة السياسيين وانما يؤكدون على ان النشاط السياسي وحده لا يكفي لبلوغ الهدف الصهيوني اذ يجب ان يصحبه انجاز متين وبناء هو الاستيطان العملي الطبيعي لارض فلسطين ، الذي هو بدوره سوف يقترن بتصاعد معنوي للوعي اليهودي ، واحياء اللغة العبرية ، وانتشار معرفة التاريخ اليهودي وتقوية الارتباط بالقيم الدائمة لليهودية (١) . اي ان جهود هرتزل الدبلوماسية فشلت لانه لم يسبقها عمل انشائي صهيوني في فلسطين يثبتها ويساندها . والحق ان كلا من المدرستين كانت مؤيدة للصهيونية السياسية ، والفرق الوحيد بينهما ان المدرسة السياسية اكدت على (الشرعية) والاخرى على استعمار فلسطين وعلى خيالية ثقافية تاريخية . وقد عبر وايزمن ، الذي برز واحدا من اهم الزعماء الصهاينة بعد موت هرتزل ، عن رأي الصهاينة العمليين في المؤتمر الثامن حين شارك في النقاش ودعا الى توحيد جهود الصهاينة السياسيين والعمليين . قال وايزمن : « ان عملنا الدبلوماسي مهم ، ولكنه يزداد اهمية بانجازاتنا الفعلية في فلسطين : فاذا جمعنا بين المدرستين الصهيونيتين (السياسية والعملية) امكننا أن نتجاوز نقطة الموت . ربما نحن لم نعمل شيئا كثيرا حتى الان ، ولكن اذا قلتم لي انه حالت بيننا وبين قصدنا الصعوبات المحلية او السلطات التركية . فسوف لن اقبل سماع ذلك منكم . انها ليست غلطة كلية ، اذ يمكن دائما عمل شيء . وكانت حجة وايزمن انه حتى ولو توفرت (البراءة) كما كان يحلم بها هرتزل « فانها سوف تبقى دونما قيمة ، الا اذا اعتمدت على ارض فلسطين نفسها وعلى يهود استقروا فيها ، وعلى مؤسسات انشأوها لانفسهم . فالبراءة في حد ذاتها ليست سوى قصاصة ورق . ذلك اننا لسنا كسائر الامم والحكومات فنحن لا نملك تحويل تلك البراءة السياسية الى حقيقة واقعة عن طريق القوة ، ليس لدينا ما ندعم البراءة به الا عملنا على تلك الارض ، وطبعا من الضروري ان تبقى قضيتنا ماثلة امام مجالس الراي العام في العالم . ولكن عرضنا لقضيتنا لن يكون مجديا وفعالا الا اذا اقترن بالهجرة والاستعمار

(1) Weizmann Chaim: «Trial and Error», London 1949, Third impression, pp. 156-157.

والتعليم » . ولذا صاغ وايزمن شكلا من التسوية بين المدرستين الصهيونيتين مع تغليب الطابع العملي ، فيما اصبح يعرف بالصهيونية (التركيبية) .

ودافيد بن غوريون لم يخرج عن هذا المعنى عام ١٩١٥ حين هزأ بالصهاينة الذين يظنون ان المقررات الدولية تضمن وتحقق لليهود مطالبهم، ويؤكد ان ما ينجزه الصهاينة على ارض فلسطين نفسها : هجرة واستيطان وعمل هو السبيل لبلوغ الهدف الصهيوني . وان الاستيطان ليس الشراء او الاشغال هو الذي يثبت للشعب حق الملكية ــ او كما قال بكلماته « لن تصبح (ارض اسرائيل) لنا حين يوافق الاتراك والانكليز ، او مؤتمر السلام القادم ويوقعون على معاهدة بهذا القصد ، وانما حين نبنيها نحن اليهود بأنفسنا ولن نحصل من الآخرين مطلقا على وثيقة التملك التي لا تدحض ، وانما نحوزها بعملنا الخاص فقط ، والوطن انما يشاد بفضل الرواد Halutrim ، بفضل الطلائع » (١) . والحق ان هذه العبرة النهجية التي خرج بها الصهاينة اثر توحيد المدرستين السياسية والعملية، اصبحت النهج السياسي المرحلي المتدرج والواقعي ، الذي انتهجته الصهيونية (التركيبية) منذ المؤتمر الصهيوني الثامن (١٩٠٧) ، وهو الذي سيطر على سياساتها في الفترة ما بين الحربين وما بعدها بقليل .

وهكذا باشرت الحركة الصهيونية مشروع الاستيلاء على فلسطين تدريجيا عن طريق التسلل اليها وفرض الوجود السياسي فيها ، ووضع الاطراف المعنية امام الامر الواقع ، ورأت الصهيونية ان المشروع لا يمكن تنفيذه عن طريق الهجرة العادية ، وانما يجري نتيجة حركة سياسية عامة تستقل بفلسطين ، ولذا أعطت الجهود الاستعمارية مقام الاولوية بين الاهداف الصهيونية ، وكانت الهجرة اليهودية هي الركن الاساسي في الصهيونية ، ولذا أقيمت لها الاجهزة والتنظيمات لكيلا ترتطم بالصعوبات التي واجهت الهجرة الاولى في مطلع الثمانينات من القرن الماضي : كانعدام الخبرة بالشئون الزراعية والاعتماد على الفلاح العربي لخبرته وقدرته على

---

(1) Ben Gurion: «Rebirth and Destiny of Israel», N. Y. 1945, P. 5

تحمل الظروف المناخية والاقتصادية ، واعتماد نظام الانتـــاج فيهـــا على الملكية الخاصة والانتاج الفردي .

ولما اوشك الدمار ان يلحق بمستعمراتهـــا ، سارع البارون ادمون دي روتشيلد بتقديم المعونات المالية لها . وبما ان المهاجرين من اليهـــود الشرقيين كانوا لا يملكون المال الكافي للشروع في اي عمل ، فقد اعتمدوا في انشاء المستعمرات بفلسطين على معونة المؤسسات المالية الصهيونية التـــي شكلها اليهود الغربيون .

وكان روتشيلد هو أبرز من ساهم في تلك المعونات وحين سأله وايزمن عن الانطباع الذي تركته زيارته الاخيرة لفلسطين ، قبيل الحرب العالميـــة الاولى بقليل اجاب روتشيلد « لم يكن في مقدور الصهاينة بدوني أن يفعلوا شيئا ، ولا كان مقدرا لعملي اي نجـــاح بدونهم » (١) . وقـــد وصف بن غوريون اولئك المهاجرين الاولين « بأنه كانت تنقصهم الثقافة السياسيـــة والفكرة الواضحة » . ومن المعلوم ان سبب هذه الموجة الاولى من الهجرة يعود في معظمه الى اضطهاد اليهود اكثر مما يعود الى الاماني الصهيونيـــة لدى يهود اوربا الشرقية وروسيا آنذاك اذ لم تكن الفكرة الصهيونية قـــد تبلورت قبل مؤتمر بال الاول .

وفي عام ١٩٠٠ كان قد تم تأسيس ٢٢ قرية ومستعمرة يهوديـــة في فلسطين ، ولكن العنصر الاساسي ، وهو العمال اليهود ، لم يكن متوفـــرا تماما . وقد سد هـــذا النقص بطلائـــع الهجـــرة الثانيـــة Second Abyah التي وصلت الى فلسطين ما بين ١٩٠٤ و ١٩١٤ ويعتبر افرادهـــا اكثـــر اليهود تعصبا ومع ان عددها لم يتجاوز (٤٠) الفا الا ان غالبيتهم انتخبت من أوساط عمالية فتية .

وثمة فوارق بين النظم التي اعتمدتها الهجرةاليهودية الاولىوالثانية، فقد اعتمدت الهجرة الثانية على نظام (الملكية القومية) للارض بدلا مـــن

---

(1) Weizmann, op., cit., p. 165.

الملكية الخاصة ، وعلى النظم التعاونية والجماعية في الانتاج والاستثمار والاستعمار بدلا من النظام الفردي في الانتاج . وعوضا عن تشغيل الفلاح العربي في ارض اجداده ، الحت الهجرة الثانية على طرده منها . وعلى مقاطعة اليد العاملة العربية في المشاريع الصهيونية . هذا الى الربط المحكم بين الاهداف التي اقيمت في ضوئها المستعمرات الزراعية : الاهداف الصهيونية المتطلعة لاسترداد (ارض اسرائيل) ، ولذلك روعي العامل الاستراتيجي التوسعي في انتقاء مواقع المستعمرات الجديدة بينما لم يحسب حسابه بدقة في تعيين مواقع مستعمرات الهجرة الاولى ، التي لم تكن جزءا من حركة صهيونية شاملة ذات برامج محدودة واهداف احتلالية توسعية بعيدة المدى . وحينئذ بدأ الغزو الصهيوني يأخذ طابعا منظما دقيقا من حيث انتخاب عناصر المهاجرين واعداد المساكن والمزارع لاستقبالهم وتأمين الاعمال لهم وتلقينهم العنصرية باضطهاد الآخرين ، وبناء دولة اشبه ما تكون بالمعسكر . وقد لجأت الصهيونية اثناء مرحلتها التنفيذية هذه الى حماية منشآتها بتشكيل منظمة الحراس اليهود التي عرفت باسم (هاشومير) ، والمساعدات على اقامة مستعمرات جديدة ايضا . وكان بن غوريون عضوا في هذه المنظمة ولكن بعد صدور وعد بلفور لم تعد مهمة الدفاع عن المستعمرات تقع على عاتق جماعة متطوعة من الحراس ، وانما على عاتق الجالية اليهودية بأجمعها في فلسطين المسماة (اليشوف) ، وفتح مجال الخدمة فيها امام جميع أقوياء البنية من يهود فلسطين ، وسميت الحركة (الهاغانا) ومعناها بالعبرية (الدفاع) وصارت تنفخ في كل مهاجر يهودي روح الانغلاق والتعصب والعداء للعرب .

ان مسئولية شراء الاراضي ، واستيعاب المهاجرين اليهود ، وتوجيه التعليم وغير ذلك من المهام الضرورية لتهويد فلسطين ، كانت تقع على عاتق الصندوق القومي اليهودي (كيرن كيمت لاسرائيل) الذي تأسس عام ١٩٠١ ، والذي عبر على حرصه على الاستيطان الصهيوني الموحد بتأكيده على مبدأين اساسيين لا يقبلان الاخلال بهما ، وهما (١) :

---

(١) انجيلينا الحلو : « عوامل تكوين اسرائيل » ، مطبوعات مركز الابحاث ـ بيروت .

أ – ابتياع الاراضي بصفتها ملكا جماعيا قوميا للشعب اليهودي .

ب – تأميم العمل اليهودي .

وتتلخص حجج الصهاينة في تبرير ذلك فيما يلي :

١ – الملكية الخاصة نقيض الوحدة القومية اليهودية .

٢ – الملكية الخاصة حليفة التجزئة والتفتيت ، ومبدأ الملكية الجماعية يوضع في خدمة تضامن اليهود القومي .

٣ – الملكية الخاصة قد تغري اليهودي ببيع املاكه الى غير اليهودي بدافع الربح مما يهدد بناء الوطن القومي .

٤ – الملكية الخاصة قد تستخدم عمالا أرخص أجرا لضمان مقدار اكبر من الربح وهذا يؤدي الى بطلان تأميم الطاقة العمالية اليهودية وفشلها ، ويتعارض مع العقائد الصهيونية العامة ، ولا شك في ان استخدام غير اليهودي يحد من طاقة العودة المخزونة لدى الجماهير اليهودية ويفضي بدوره الى نسف عملية التجميع واعادة البناء القومي .

٥ – ينظر الصهيوني الى من يفلح الارض باعتباره عاملا مباشرا في انمائها وتطويرها ، فالفلاح اليهودي يجعل الارض يهودية ، بينما غير اليهودي يسلبها طابعها القومي اليهودي . لذلك يمثل تحالف العمل اليهودي مع الارض القومية المكتسبة صورة متكاملة لعملية التأميم اليهودي .

وبالاضافة الى مسؤولية الصندوق القومي عن ابتياع الاراضي لتحقيق الهدف القومي فانه قام بدور متفرع عنه في اقناع اليهود الموجودين في فلسطين بتحويل ملكيتهم الخاصة الى ملكية عامة ، وكذلك بالامتناع عن استخدام الطاقة العمالية العربية ، فقد صرح الصندوق بأن شروط

الافضليـة حيـال مسألتـي التسليف والمعونـة الفنية ، انما تمنح للفلاح اليهودي الذي يستخدم العامل اليهـودي فقط على ارضـه . وبفضـل مسئولية الصندوق عن شراء الاراضي واستيعـاب المهاجريـن وتوجيـه التعليم ، وبفضل معوناته التي قدمها الى المؤسسات المختلفة ، فانه كان قادرا على الاشراف عليها وضبطها وجعلها في خدمة الهدف الصهيوني (١).

وكان لا بد ان ينعكس ذلك على احياء اللغة العبرية والثقافة والتعليم بوجه خاص ، ففي المؤتمر الصهيوني الحادي عشر تقـرر انشاء جامعـة عبرية في القدس عام ١٩١٣ وهو نفس العام الذي تخرج فيـه اول دفعـة من المدرسة العبرية المسماة (جيمنازيا هرتسليا) ويعرف الكاتب اليهودي موشه مينوحين ، الذي تخرج منها انه منذ اول سنوات دراسته ورفاقـه في المدرسة المذكورة كانوا يلقنون يوميا خطة مطولة عن « واجباتنا المقدسة » نحو امتنا وبلدنا وارض آبائنا وكان يقرع قلوبنا الفتيـة ان ارض آبائنـا يجب ان تخلص لنا نظيفة من الكفار ـ العرب وانه يجب ان نسخر حياتنا لخدمة ارض آبائنا ، وللقتال من اجلها (٢) .

اذن في مجال التطبيق العملـي ، لا تنطـوي الخطـة الاستيطانيـة الصهيونية على الغاء وجود العناصر الاجنبية (او الاممية الكافرة) ضمن الاطار القومي اليهودي فحسب ، وانما يصبح من واجبها القومي ايضا ان تتخلص من العناصر الاجنبية التي تشـوب النقاء اليهودي في عمليـة بنـاء (الوطن) .

باشر الصهاينة اعمالهم بانشاء (مكتب فلسطين) في يافا عام ١٩٠٨ لوضع الخطط اللازمة لتنفيذ اول عملية منظمـة للاستيطان الصهيونـي وبمساعـدة (الصندوق القومي اليهودي) قام المكتب ببناء منطقة سكنية قرب مدينة يافا هي نواة مدينة تل ابيب ، وما زالت تتوسع حتى اصبحت المركز الرئيسي للنشاط الصهيوني عـام ١٩٠٩ وهدفهـا شراء الاراضي

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(2) Mennhin, op., cit., p. 52.

العربية ووضع برنامج ثقافي خاص للمهاجرين الجدد.عند وصولهم الى فلسطين . وكان للمؤسسات الصهيونية المالية اكبر الاثر في الشروع باستعمار فلسطين تحت اشراف مكتب يافا ، اذ قدم (صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار) قروضا قصيرة الاجل للتجار والصناع والمزارعين اليهود ، وساعد (بنك انكو ـ فلسطين) الذي سيصبح عام١٩٢١ (الصندوق التأسيسي لفلسطين ـ كيرين هيسود) المستوطنين في القضايا الضريبية وشراء الاراضي وساهم في تدريبهم بواسطة فرعه الرئيسي في يافا ، وفروعه الثانوية في القدس والخليل وحيفا وبيروت وصفد وطبريه (١) .

وحتى مطلع الحرب العالمية الاولى كان تنفيذ برنامج الاستيطان اليهودي يقع على كاهل الصندوق القومي ، وكان (مكتب يافا) يقوم بتأجير رقعة من املاك هذا الصندوق الى احد المستوطنين، تقدر مساحتها بحسب طاقة المستوطن وعائلته على القيام بفلاحتها دون معونة مأجورة اخرى ، وتمكينه من استصلاحها واعدادها للزراعة . ثم تزويده بما يلزمه من السكن والماشية والمعدات والادوات الزراعية . وقد اقتضى تنفيذ الصندوق القومي لبرنامج تنمية الاستيطان ، انشاء عدة صناديق متفرعة عنه تساعده على تحقيق مهمته منها (صندوق شجر الزيتون) الذي اصبح فيما بعد (صندوق الاشجار) و (صندوق سكن العمال) و (صندوق الاستيطان التعاوني) . وقد منح الصندوق القومي قروضا لبعض الجمعيات الخاصة مثل (جمعية بناء المساكن التعاونية) كما ساعد الجهاز التعليمي اليهودي ، بمنحه المدارس والاموال والاراضي اللازمة (٢) .

وقد ابتاع الصندوق القومي من الافراد اليهود ما مجموعه (٨٧٠٠) دونم من الاراضي ما بين تأسيسه ـ انشاء (مكتب فلسطين) ـ في محاولة لتدعيم مبدأ (الملكية القومية) . وبدأ الصندوق عام ١٩١١ شراء الاراضي

---

(١) اسعد عبد الرحمن : « المنظمة الصهيونية العالمية » مطبوعات مركز الابحاث ـ بيروت ١٩٦٨ ، ص ٦٩ ، اقتباسا عن. Bohon Adolf : «The Jewish Natond Fund».

(٢) المصدر السابق ـ ص ٧٠ عن بوهن ـ ص ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٧ ـ ٥٢ .

من بعض الملاكين العرب ، وبلغت مساحة ما اشتراه منها حتى عام ١٩٢٠ (٢٢٣٦٢) دونما من الارض التي اعتبرت ملكا قوميا .

وحين أعطت بريطانيا للصهاينة (البراءة) متمثلة في وعـد بلفـور ، (١٩١٧) وضمنوه صك الأنتداب (١٩٢٢) قوي مركز الصندوق القومي اليهودي نظرا للتأييد الذي حظي به من دولة الانتداب (١) . وقد أسفـرت جهود استيطان العمل الصهيوني عن هجرة (٤٠) الف يهـودي مـا بين ١٩٠٤ ــ ١٩١٤ ، في حين لم يتجاوز عدد المهاجرين في الفترة الاولى ما بين ١٨٨٢ ــ ١٩٠٤ (٢٥) الفا (٢) .

---

(١) جاء في صك الانتداب ان على الحكومة المنتدبة ان تساعد اليهود ... وورد في المادة السادسة من صك الانتداب : « على ادارة فلسطين ــ مع ضمان عدم الحـاق الضرر بحقوق ووضع جميع فئات الاهالي الاخرى ــ ان تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار اليها في المادة الرابعة ، حشد اليهود في الاراضي الاميرية والاراضي المـوات غير المطلوبة للمقاصد العمومية . وورد ايضا فـي المادة الحادية عشرة : « على ادارة فلسطين ان توجد نظاما للاراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة امور اخـرى ، منهـا المنافع التي تنجم عن تشجيع اكثار المهاجرة واستغلال اعظم ما يستطاع من الارض » . وقد فسرت الدولة المنتدبة هاتين المادتين تفسيرا متحيزا للصهاينة .

(٢) Cohen, Israel, : «A Short History of Zionim», London 1951, p. 254.

الباب الثالث عشر

- القوى اليهودية توجه الحرب العالمية الاولى .
- دور الحركـة الصهيونيـة في الحـرب .
- نتائج الحرب الاولى على حركة الصراع العالمي .
- بريطانيـا تمزق الارض العربيـة .

القوى اليهودية توجه الحرب العالمية الاولى

من الحقائق المسلم بها أن اليهود في العالم كانوا اصحاب مصلحة كبرى في توجيه دفة الحرب العالمية الاولى لصالحهم بالشكل الذي انتهت اليه .

وحين تورطت اطراف عديدة في هذه الحرب كان وراء ذلك جهد يهودي لكي تستثمر النتائج في صالحهم وحدهم .

واذا ما اردنا ان نلقي نظرة فاحصة على المقدمات التاريخية التي كانت توجه مجريات المعارك فاننا سنرى عجبا .

ذلك انه بعيدا عن الظروف الموضوعية التي احاطت باطراف القوى المتصارعة في الحرب العالمية الاولى فان من المقدمات التاريخية التي احاطت بأجزاء من الميادين التي جرت عليها الحرب العالمية ما ساعد على تطوير الاماني والاطماع اليهودية كي تثب الى بعض هذه الميادين وتكون سندا لبعض القوى التي تتصارع لكي تتيح هذه القوى للاطماع اليهودية المجال والميدان لمباشرة وتحقيق الاطماع ، ومن هذه المقدمات ان الغرب الاستعماري كان قبل بدء الحرب العالمية بزمن طويل قد احتل الارض العربية في افريقيا وآسيا ، ومن عجب أن الاحتلال الاوربي للارض العربية كان نتيجة لعدوان مسلح قامت به الدول الغربية على امتداد فترة طويلة مر بها الاستعمار ، وقع خلالها مواثيق وعهود في مؤتمرات باريس وبرلين ولندن وكان العالم العربي على امتداد المرحلة الطويلة قبل الحرب العالمية الاولى والمرتبطة بالقرن التاسع عشر كله في ظل الدولة العثمانية التي كان من اكبر آفاتها الحكومات التي اضعفها الفساد والرشوة والتبذير والسرقة في اموال الشعب ومقدراته .

ولما تم للغرب بالقوة والعدوان احتلال الارض العربية بعد ان كان قد احتل مصر والسودان بل وافريقيا الغربية كلها ، ومراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ابتدأ يصطدم بالقوة التي طالما عمل في العصر الحديث على تجنب مواجهتها صراحة وهي وحدة مشاعر وروح المسلمين في الارض العربية ، ولما كانت الدولة العثمانية لا تقوم على شيء من مقومات القوى او الانظمة مثل دعواها حماية الاسلام والمسلمين ، الى الحد الذي بلغ فيه اشاعة الهيمنة التركية على الاسلام والمسلمين ان السلطان التركي قد قال في البيان الذي وجهه الى القوات الحربية التي صدرت اليها الاوامر لتدخل الحرب العالمية الاولى الى جانب طرف من اطراف القوى المتصارعة وهو « المانيا » في يوم ١٩١٤/١١/١٢ حين وقف السلطان التركي ليقول : « ان تركيا قد اكرهت على حمل السلاح ، لان ملايين المسلمين ، يخضعون لظلم واستبداد بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وانها من اجل هذا تعلن ضد هذه الدول جهادا مقدسا يتوقف على نجاحه مستقبل المسلمين ورفاهيتهم . اننا بعون الله وتأييده نأمل الانتصار في المعركة التي بدأناها بالاتحاد والتحالف مع المانيا والنمسا للقضاء على اعداء الاسلام » .

هذه الروح التي كانت تواجه القوى الاوروبية الغربية المحتلة للعالم العربي وغيره من ارض افريقيا رغم انها لم تكن صادقة او اصيلة الا ان القوى الاوربية كانت تدرك مدى خطرها لو فرضت على القوى الاوربية المجابهة الصريحة والحادة معها خاصة وانه قبل بدء الحرب العالمية الاولى وفي ظل الاحتلال الاوربي للارض العربية المسلمة كان من الرجال العرب من آثر ان يجمع شمل العرب والاتراك بأمل احياء مجد الدولة الاسلامية امام مخطط اطماع الغرب الاستعماري الذي راح يمهد للقضاء على القوة العربية والاسلامية ، ولذا فان الغرب الاستعماري قد استطاع ان يفتت كيان الدولة العثمانية حين ساعد في ان تتفاقم طبيعة التناقض بين الشعب العربي والسيادة التركية التيكانت تصر علىممارسة السيادةالماديةوالمعنوية على العرب باسم الاسلام بغض النظر عن الشعور العربي وحقوق الانسان العربي ، ورغم ان الباب العالي ادرك خطر الدور الذي يلعبه الاستعمار في المنطقة ، حين راح يدخل تعديلات كبيرة على نظام الحكم في الدولة العثمانية وفي الولايات العربية التابعة لها ، ومنها اعلان المساواة بين سائر الرعايا من اتراك وعرب في جميع الحقوق والميادين . الا ان هذه المبادىء التي كان يريد بها الباب العالي ان يمتص آلام الشعور العربي طوال مرحلة طويلة

من تاريخ السيادة العثمانية على الارض العربية فلم يستطع وبقي الشعور العربي في حالة رفض للفكر السياسي الذي كانت تروج له السيادة التركية باسم « الجامعة الاسلامية » فقد كان العرب يدركون ان وراء هذه الدعوة مقصدا تركيا هو أن يكون العرب تابعين أذلاء لسادة الاستانة . ومن عجب ان الاستعمار الاوربي رأى ان يوجه دعايته وينفث سمومه ضد هذه الحركة ليستغل الرفض العربي لها وليوسع علاقات التناقض والتباين بين المستقبل العربي الذي كان يراه العرب في بعث القومية العربية وتحقيق استقلالهم السياسي ، كي يكونوا هم نواة لحركة اخرى تخدم سائر العرب والمسلمين وبين موقف الباب العالي الذي كان لا يشغل تفكيره وأسلوب عمله سوى ان يؤكد سيادة تركيا على العالم العربي والاسلامي حتى ولو لم تكن دواعي هذه السيادة من اعتبارات دين او ولاء او فكر قائمة .

ثم كان بعد ذلك ما طرأ على الظروف الدولية التي كانت سائدة في خلال هذه المرحلة وهو الدور البارز ، او الخطر الماثل الذي ابتدات تمثله المانيا على اطراف قوى كثيرة فوجئت بأن خطر التوسع الالماني بدا أشد واكثر مما كان متوقعا له . واصبح خطر العملاق الاستعماري الجديد موجها مباشرة الى الاطماع البريطانية التي ابتدات هي الاخرى ترسم سياستها على أساس مجابهتها لهذا التمدد الالماني ، وفي هذه الظروف وجدت الدولة العثمانية نفسها امام فرص كثيرة يمكنها ان تستفيد بها الكثير مما يمكن ان يساعدها على التجمع او الوقوف على قدميها . ومن هذه الظروف تغيير القوى الدولية التي تستعين بها في حالة مجابهة تناقضاتها على ان تكون بينها علاقة صداقة وتعاون اكثر مما هي بينها وبين القوى الاستعمارية الاخرى ممثلة في بريطانيا وفرنسا ، ذلك ان السادة الاتراك قد ادركوا ان تأييد بريطانيا وفرنسا لهم لم يكسبوا من ورائه سوى استيلاء بريطانيا وفرنسا على الاقطار التي كانت في حوزة الدولة العثمانية قطرا قطرا ، فبعد الاستيلاء على قبرص وتونس ومصر وليبيا والامارات العربية في الخليج العربي وفي البحر الاحمر وجد السادة الاتراك انفسهم وقد اصبحوا في ظل أسر اقتصادي وسيطرة تامة في ظل تعاون مدعى ضد الاطماع الروسية في السيادة العثمانية دون ان تكلف نفسها السياسة الاوربية مشقة المجابهة مع الروح التي كانت تستغلها السيادة التركية في عواطف المسلمين ومشاعرهم على اساس انه كان لا بد للسياسة الاوربية وخاصة البريطانية كي تصنع الارض لاطماعها في كل منطقة الشرق الاوسط

فلا بد من اقتلاع الوجود التركي وسيادته المدعاة . وباستيعاب كـل هذه الظروف التي كانت مقدمات لتشكيل القوى التي كانت الاطراف المهمة في الحرب العالمية الاولى وجد الباب العالي نفسه في حاجة الى ان يوجه اهتمامه وكل نظره الى تلك الدولة الاوربية الجديدة هذه الدولة الاوربية الكبـرى التي بدأت تعد نفسها بالفعل للتواجد خارج حدودها وكان في تقدير السادة الاتراك ان هذه الدولة الالمانية بكل ما تمثله من قدرات قادرة على مواجهة اطمـاع الدولة الروسية في الارض ضـد السيادة التركيـة ، وقـادرة على وقف التسلط البريطاني الفرنسي على ما تبقى في الدولـة من مظاهـر سيـادة وحدود ارض ، ومن الطبيعي جدا ان الدولة العملاقة الجديدة لم تكن الا لترحب بكل الاتجاه التركي اليها فقد كانت لها بالطبع أكثر مـن اطمـاع سياسية واقتصادية تدفعها الى ان تعمل وتتعاون مع الباب العالي ليتيسر لهـا الزحف نحـو بلـدان الشرق لكي تنـافس بريطانيا وفرنسا اطماعهما وسيطرتهما على الارض العربية .

وبالفعل فان السياسة البريطانية بالذات ادركت اخطار آثار التقارب والتعاون الذي يمكن ان ينجم عن تعميق العلاقة بين القوى الالمانية الجديدة وبين سادة الباب العالي فما ان خطت المانيا اولـى خطواتها في تحقيـق اطماعها هي الاخرى في هذه المنطقة ، حين حصلت على امتياز خط السكـة الحديد الى بغداد ، هذا الامتياز الذي كان يعرف باسم « بغداد بالـن » حتى سارعت بريطانيا الى اعلان حمايتها على الكويت . ثم اتخذت اجراءات دفاعية على طول الخليج الفـارسي « العربي » علـى اساس مـن اعتبار بريطاني ، وهو ان الخليج الفارسي امتداد طبيعي للمحيط الهنـدي . ثم دخل الصراع بين الدولتين والمانيا مرحلة بعد الاخرى من اجل سيطرة كـل منهما على الطرق ثم لم ينته هذا الصراع على هذه البقعة بالذات الا بعدول وتنازل المانيا عن امتياز استغلال ميناء البصرة الذي كان ممنوحا لها لانشاء ميناء على الخليج الفارسي ومع ذلك لم تطمئن بريطانيا الى تقهقر الاطمـاع الالمانية ، فبادرت تتعجل وتحمي نفسها بالاستيلاء على منطقة شط العرب، واكرهت السادة الاتراك على الاعتراف بالمعاهـدات التـي استطاعت أن تبرمها مع مختلف المشايخ في الامارات العربية بالكويت والبحرين وعمـان دون ان يكون للباب العالي في هـذه الاتفاقيـات ابسط اعتبـار او تقديـر لسيادته الاسميـة .

وفي الوقت الذي كان يرى فيه الباب العالي انه بتعميق وبتطوير علاقته بالقوة العملاقة الجديدة بالمانيا سيضيق الخناق على الاساليب البريطانية في توسيع الاطماع فان الاستعمار الاوربي، البريطاني والفرنسي، قد ذهب كل منهما في التمكين لانفسهما في السيطرة على كل امتداد أرض الشرق العربي في آسيا وافريقيا ، ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا قد تمكنت من السيطرة على الخليج العربي والجنوب العربي ، وراحت تمهد لسيطرتها على ارض الحجاز شماله جنوبه حين كان القنصل الانجليزي في « جدة » يقوم بالتفاوض والتفاهم مع شريف مكة حول دور حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا فيما يمكن ان تقوم به من المساعدة لاستعادة عرش الخلافة الاسلامية لواحد من سلالة النبي ، كانت فرنسا هي الاخرى قد ابتدات تمارس انواعا من الضغوط على السادة الاتراك ومنها زيادة الرسوم الجمركية ، واعتراف الباب العالي بالجنسية الفرنسية للمواطنين في المغرب العربي . ثم واصلت فرنسا مرة اخرى اطماعها فطالبت باعتراف الباب العالي وتسليمه لفرنسا باحتكار انشاء الطرق الحديدية وغيرها في كل من لبنان وسوريا . وايضا باستغلال موانىء بيروت وطرابلس ويافا وحيفا . وقبل الحرب العالمية الاولى مباشرة كانت أرض الشرق العربي منطقة اسلاب وفي حالة توزيع حيازات ومغانم على الدول الاوربية ، وقبل ان تبدأ الحرب فان الحال في الارض العربية كان قد اصبح سيئا للغاية ، سيادة اسمية لتركيا على العالم العربي وليس لها أدنى تقدير من عرف او قانون . تفتت في الوجود العربي الذي كان قبل بدء الصراع اقطارا تتجمع مع بعضها في ظل السيادة التركية وفي ظل تخلف مادي واجتماعي خطير ، ثم اصبحت الارض العربية مناطق حرب وقوى صراع متعددة ومتناقضة مع بعضها ، فجزء يحتمي في ظل الاطماع الغربية والآخر في قبضة السيطرة البريطانية بالفعل ، وجزء ثالث بايحاء وتأثير وتوجيه من الاستعمار في حرب مع السيادة العثمانية وكان ذلك حين أعلن فيما بعد واثناء الحرب عام ١٩١٦ الشريف حسين امير مكة الحرب على تركيا وبينما كل الارض العربية سواء التي في يد الاتراك في مخططات الاستعمار ترتج وتهتز في مرحلة اشبه ما تكون بانعدام الوزن بدأت الحرب العالمية الاولى ، بين الامانى الالمانية الطامعة وبين القوى البريطانية المحتكرة والمستغلة ، ومن عجب ان بريطانيا بقوات الحلفاء ، والمانيا بعون المحور كانوا جميعا ميدانا لعمل للاطماع اليهودية كي تمارس دورها بالقطبين ، لكي تستطيع يوم تحقيق

الاطماع ان تكون قوة في المجال الدولي يحسب لها حين تقسم اسلاب الحرب وغنائمها الف حساب ، وقد كان للقوى اليهودية ما ارادت حين خططت مثلا لان يكون مال بيت واحد من بيوتها قبيل الحرب موزعا بين باريس ولندن وبرلين ، وهكذا كان قبيل الحرب بل قبلها بكثير ان اصبح في لندن روتشيلد بريطاني ، وفي باريس روتشيلد فرنسي ، وفي برلين روتشيلد الماني ، وفي فيينا روتشيلد نمسوي . وهكذا راوغ اليهود بالجنسية التي يرتبطون بها ، وهم جميعا في الاصل والاساس شبكة محكمة واسلوب عمل منظم يحيط بالاسواق التجارية وبالحكومات . وفوق هذا فلقد بدات الحرب وبعض من قادة اطراف هذه الحرب أن لم يكونوا يهودا بالجنس المدعي ، فهم من اليهود بالولاء فقد كانت القوى اليهودية قد تغلغلت في حياة كثير من المجتمعات عن طريق المصاهرة او الارتباط في علاقات مال وغيرها وكان من اليهود من استطاع ان يصل الى قيادة الجيش وتولي الوزارة ، وان لم يكن يهوديا من الابوين فهو اليهودي من امه او ابيه .

ولما بدات الحرب العالمية الاولى ولم تكن الكفة الراجحة في الحرب ليست في يد بريطانيا تماما ، وامام الوعود والاماني التي قدمتها ووعدت بها بريطانيا للاطماع الصهيونية استطاعت القوى الصهيونية المنتشرة في شبكة محكمة وقوية في بلدان العالم كله أن تتحول الى الولايات المتحدة الامريكية وضغطت عليها لكي تدخل الحرب لتغير مجراها كي تكون في صالح بريطانيا وبالفعل فان القوى اليهودية قد تمكنت من اقحام الولايات المتحدة في الحرب حين سافر البريطاني « هربرت صموئيل » الصهيوني واتصل بالقاضي « الامريكي » « براندس » الصهيوني والقاضي « الامريكي فرانكفورتز » الصهيوني ، واستطاع الثلاثة بضغوطهم على « السادة » الامريكان ان يدخلوا الولايات المتحدة الامريكية الحرب لكي تصبح هذه الحرب في صالح بريطانيا .

دور الحركة الصهيونية في الحرب :

قلنا انه امام الوعود والاماني التي قدمتها بريطانيا ووعدت بها الحركة الصهيونية وهي لم تكن بعد قد استكملت قدرتها الدولية على السيطرة والتأثير قد جعلها تنطلق تعمل في قوة وتفان في خدمة تصاعد حركة الاستعمار العالمي .

ولقد كان لتواكب العمل الصهيوني والاستعماري في ظل تناقضات

العالم ابان بدء الحرب العالمية الاولى ، مقدمات تاريخية وعقائدية جعلت دور الحركة الصهيونية يستند في نشاطه في ميدان الدول الكبرى على جملة اعتبارات تدفع الحركة الصهيونية وتوجهها ، ذلك ان زعماء الصهيونية قد تابعوا الاتصال بالمسئولين في الدول الكبرى آنذاك للظفر بتأييدهم للصهيونية في تنفيذ خططها مستخدمين جميع الوسائل في سبيل غاياتهم .

فقد كان شعار الصهيونية ، ولا يزال كما وضعه « هيرتزل » الغاية تبرر الواسطة . وعلى هذا سار من بعده زعماء الصهيونية على هذا المبدأ ؛ قابل « هيرتزل » قيصر المانيا وسلطان تركيا وملك ايطاليا والبابا ووزير داخلية روسيا وكثيرين من المسئولين غيرهم من ذوي النفوذ في اوربا . واستعمل في كثير من المناسبات احسن الاساليب كالتجسس والرشوة والوكلاء المأجورين وقد اعترف بهذا « موشي مينوحين » ذاته في كتابه « اضمحلال اليهودية في روسيا » ، وعلى هذا النهج سار من تبع «هيرتزل» من زعماء الصهيونية .

على ان زعماء الصهيونية يدركون دور بريطانيا الاستعماري ومطامعها في المنطقة العربية ، فركزوا عليها اهتمامهم ، و « حاييم وايزمن » الذي اصبح الزعيم الفعلي للحركة الصهيونية بعد موت « تيودور هيرتزل » يقول في مذكراته تعليلا لاختيار الصهيونية لبريطانيا : « ان بريطانيا كانت البلد الذي يمكنه ان يظهر عطفا صحيحا على الحركة الصهيونية ، وان تاريخ العلاقات بين انجلترا والصهيونية حتى ذلك العهد كان يشهد بصحة هذا العطف » . وقد آثر (وايزمن) بريطانيا بهذا العطف اثناء الاتصالات التي اجرتها الصهيونية مع الحكومة البريطانية في حياة « هيرتزل » . فالمنظمة الصهيونية المنبثقة عن المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ اتصلت في عام ١٩٠٢ بالحكومة البريطانية بزعامة « جوزيف تشمبرلين » وبحثت معها مشروعات لاسكان اليهود على حدود فلسطين في شبه جزيرة سيناء . وفعلا جرت دراسات للمنطقة ، لكن السلطات البريطانية في مصر آنذاك لم تشجع الفكرة خشية ما تجره من ازدياد نقمة العرب المصريين على الاحتلال البريطاني في بداية عهده . لذلك اقترح « تشمبرلين » منح الصهيونية مساحة من الارض في اوغندا « تدبيرا مؤقتا » . وقبل « هيرتزل » العرض مبدئيا مما اثار عليه الصهيونيين المتحمسين فلم يرحبوا بالفكرة واتخذوا

قرارا في المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥ بوجوب اقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، اذ لا مصلحة للصهيونية بغير فلسطين .

ورغبة في استغلال جميع الدول ، وفي دفع بريطانيا الى الحرص على تحالفها وفي اخفاء هذا التحالف انشأت الصهيونية عام ١٩٠٨ في استانبول وكالة صهيونية تعمل لحساب المانيا بادارة « فيكتور جاكويسون » وهو روسي المولد الماني الثقافة . كما انشأت فيها جريدة « تركيا الفتية » تهاجم فيها بريطانيا وتدعو الصهيونيين للاعتماد على المانيا ضد انجلترا . وفي اعقاب قيام الثورة التركية (الاتحاد والترقي) جاء الى (استانبول) من برلين دكتور الفريد نوسينج وحاول اقناع الاتراك باسكان اليهود في فلسطين والعراق ، مقابل بذل الصهيونية مؤازرتها ـ خاصة المالية ـ لتركيا الفتية . وتقول مصادر السفارة البريطانية في استانبول آنذاك انه كان لليهود اثر بالغ في تسيير دفة الامور في تركيا .

ويؤكد هذا المبدأ في سلوك الصهيونية قول الدكتور «موسى جاستير» في المؤتمر الصهيوني العالمي الحادي عشر عام ١٩١٣ « ليست الصهيونية ـ عندما كان دعاتها يروجون لالمانيا وحليفتها تركيا ـ حركة المانية ، اننا نقاتل في كل مكان لنوضح اننا لا نشعر باننا المان او انجليز او فرنسيون او روس . ولكن شعورنا وافكارنا يهودية كلها » .

وصدورا عن هذا المبدأ نظموا انفسهم على الوجه الآتي :

في برلين اقاموا ما يعرف بـ « لجنة الشرق » متظاهرين بالعمل على انتصار المانيا . يساعد هذه اللجنة منظمتان : الاولى في (كوبنهاجن) والاخرى في (استانبول) .

وفي الولايات المتحدة الامريكية اقاموا اللجنة الامريكية المؤقتة اضافة الى المنظمة القائمة فعلا برئاسة وايزمن في بريطانيا .

وفي تركيا اقاموا اللجنة الصهيونيةالتنفيذية لخدمة الاغراض نفسها. كانت هذه محاولات لازمة في اجتهاد زعمائها للاحتفاظ لانفسهم ولحركتهم بخط رجعة سليم وللعمل بثقلهم في الجانب الرابح ليطالبوه بنصيبهم من الارباح عند الحساب .

لكن الصهيونية كانت تعتمد على بريطانيا كل الاعتماد بوصفها الدولة الاستعمارية الاولى . وكان زعماء الصهيونية على تفهم تام لمخطط بريطانيا الاستعماري في اقامة حاجز بشري ، قوي غريب ، على المعبر البري الـذي يربط آسيا بافريقية ويربطهما معا بالبحر الابيض المتوسط بحيث يشكـل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة لسكان المنطقـة كفالة لمصالح الاستعمار . وقد اوضح هذا تقرير « برمان » السري لعـام ١٩٠٧ المنشور بواسطة صحفي بريطاني صهيوني قبيل الحـرب العالميـة الاولى ، تبريرا لقيام الدولة اليهودية في فلسطين .

وبأساليب الصهيونية استطاع « وايزمن » ان يكتسب في مطلع عـام ١٩١٤ « س. ب. سكوت » رئيس تحرير المنشستر جارديان ، وقد وثـق سكوت روابط التعاون الاستعماري بين كل من « وايزمن » و « سكولوف » و « تشيلينوف » من زعماء الصهيونية ، وبين لويـد جورج وهيربـرت صموئيل العضوين المؤثرين في الوزارة حينذاك .

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) لعـام ١٩١٤ كتـب « وايزمن » الـى « سكوت » يقول :

« نستطيع ان نقول ، انه اذا اصبحـت فلسطين في نطـاق النفـوذ البريطاني واذا شجعت بريطانيا استيطان اليهود فيها تحت حمايتها ، فاننا نستطيع ان نجمع في مدى عشرين او ثلاثين سنة مليون يهودي او اكثـر ، ينمون البلاد ويعيدون الحضارة اليهـا ويقومـون حـراسا آمنـاء لقنـاة السويس » .

وفي اوائل عام ١٩١٥ كتب « هيربرت صموئيـل » عضـو الـوزارة بعنوان : « مستقبل فلسطين » الى الحكومة البريطانية برئاسة « اللـورد اكسفورد » واقترح فيها هجرة ثلاثة او اربعة ملايين يهودي الى فلسطين تحت الحماية البريطانية . وقال فيها : وتكون قد اوجدنا بذلـك دولـة جديدة موالية لبريطانيا بجوار مصر وقناة السويس .

وفي نفس العام ارسل « سير ادوارد جري » مذكرة باسم الحكومـة البريطانية الى سير ادوارد بوكانان السفير البريطاني في «سنت بطرسبرج» يلخص فيها الافكار البريطانية بشأن العلاقة بين فلسطين واليهودية العالمية. وسلمت المذكرة الى وزير خارجية روسيا « م . سوزانوف » ، وكان محور

المذكرة يدور حول التوصل الى اتفاق لكسب اليهودية العالمية الى جانب الحلفاء . واظهر الروس تأييدهم للفكرة بشرط الحفاظ على المصالح الدينية والروسية في الاراضي المقدسة . وقد نشرت نصوص هذه المذكرة وما تبعها من اتصالات في هذا الشأن بين الحكومة البريطانية والروسية في اكتوبر (تشرين الاول) لعام ١٩١٧ على اثر قيام الثورة البلشفية .

وجاء في مذكرات اللورد « برتي » سفير بريطانيا في فرنسا خلال الحرب ان اتصالات عديدة جرت بين البلدين لاقامة دولة يهودية في فلسطين تحت حماية بريطانيا وفرنسا وروسيا ، علما بأن اليهود يؤثرون ان تكون دولتهم تحت حماية الاولى دون غيرها .

وبالرغم من اختمار فكرة تبني بريطانيا للحركة الصهيونية واقامة وطن قومي يهودي ودولة لليهود في فلسطين لدى معظم قادة بريطانيا من عتاة الاستعماريين . فان الامر لم يخل من معارضة بعض اعضاء الحكومة البريطانية لهذا الاتجاه ، اما حفاظا على المصلحة الامبراطورية من وجهة الرأي داخل الوزارة البريطانية حول وعد بلفور ، وعلى اثر تقديم « لورد روتشيلد » مذكرة الى وزير الدولة للشئون الخارجية . اثر جيمس بلفور. بشأن تشجيع الهجرة الصهيونية الى فلسطين . فشب خلاف بين اعضاء الوزارة وبين « ادوين مونتيجيو » وزير الدولة لشئون الهند . و « لورد كيرزون » من جهة ، وبين « بلفور » من جهة اخرى . وقد بسط وجهة الخلاف « ادوين مونتيجو » وهو الوزير الوحيد اليهودي في الوزارة آنذاك ، مذكرة قدمها للحكومة واشار فيها الى النقاط الآتية :

١ ــ ليست هناك قومية يهودية .

٢ ــ اليهودية دين لا قومية .

٣ ــ لا علاقة بين اليهود اليوم وبين فلسطين . واقامة موطن قومي لليهود تؤدي الى اضعاف حركة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها وتخلق مشكلة الولاء المزدوج .

اما «لورد كيرزون » فكانت معارضته لتصريح بلفور على اساس انه يتعارض مع المصالح الاسلامية والمسيحية في البلاد المقدسة .

ولكن بلفور واجه هذه المعارضة بقوله : « ان اقامة نقطة التقـاء في فلسطين لليهود لا يتعارض مع ادماج اليهـود في المجتمعات التـي يعيشون فيها ، وهي لا تختلف عن موقف الانجليزي الذي يهاجر الى الولايات المتحدة ويندمج فيها ، ولا تخلق مشكلة الولاء المتعدد التي اثارها (مونتيجيو) » .

نتائج الحرب الاولى على حركة الصراع العالمي :

لا جدال في ان الفترة من ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ليست لها سابقة في تاريـخ الصراع ، وصحيح ان الحروب في العصر الحديث كحروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون بونابرت استمرت زمنا وطحنـت بشرا وحرقت وقـودا لكنها لم تكن كطبيعة هذه الحرب . فقد كانت هذه الحـرب اول حـرب واسعة النطاق الى حد تكفل بضعضعة الكيان الاقتصادي للعالم واحراقه. وكانت في تشعبها وتعقيدها تتصل بنواح كثيرة من القضايا الشائكة التـي جدت ولم تكن مقدماتها التاريخية في أواخر القرن التاسع عشر توحي بها ، ومن عجب ان معارك كثيرة دوافعها متباينة ومتناقضة في ظل ظروف مصلحية وقومية عديدة قد ملأت بداية هذا القرن العشرين العجيب ، فمثلا حـين دخلت امبراطورية النمسا والمجر في حرب مـع « الصرب » عـام ١٩١٤ م وحينما انحازت الروسيا الى جانب الصرب اصبح ما يسمى في بداية هـذا القرن « المسألة الشرقية » في غاية التأجـج وحينمـا دخلت امبراطوريـة النمسا والمجر بتاريخها المتعدد القوميات الحرب ضد « الصرب » لم يكن من اليسير عليهما أن يسمحا بنمو دولة الصرب دون العمـل على تفككهـا وضعضعة كيانها وايضا لم يكن امام روسيا « القيصرية » ان تتصور مدى التوسع النمسوي في أرض البلقان وكان عليها ان تتصدر دعـوة شعـوب اوربا الصقلبية للحرب . ولما عبأت المانيا جيشها بجانب النمسا والمجـر ، وفرنسا هي الاخرى بجانب الروسيا والصرب فلأنه لم يكن من الممكـن ان تضيع المانيا او فرنسا ممارسة مصلحتها وسلامة امنها دون تقـديم العون لحليفتها ضد الاخرى . ولقد كانت هناك مصالح عظمى وحقيقية وراء كل عمليات الغليان والتطاحن التي سادت العالم قبل الحرب ، فمثلا حين غزت المانيا بلجيكا كان من الاسباب ان خطة عسكرية تسمى « شليفن » كانت قد وضعت قبل تورط العالم في مقدمات الحرب العالميـة الاولى بعـدة سنين لمواجهة مثل هذه العملية من الغزو التي قامت بها المانيا وبلجيكا وهذه الخطة حين كشفت هي التي حتمت على الجيوش الالمانية ان تسارع في القاء اعظم

نقلها لتوجيه ضربة قوية الى شمال فرنسا ، والى باريس بالذات قبــل ان تتمكن روسيا من التحرك وقبل ان يؤثر عون بريطانيا ويصبــح ممكنــا ، ابضا حين اعلنت بريطانيا رسميا الحرب على المانيا فوق كــل الاعتبــارات التي أشرنا اليها على ارض الشرق الاوسط واطماع كل منهما في هذه الرقعة الكبيرة من الارض ، كان من بين هذه الاعتبارات الموقف الذي اتخذته المانيا من عدم احترامها لحياد بلجيكا والقيام بغزوها ، ايضا لانه حين غزت المانيا فرنسا وكان هناك بين بريطانيا وفرنسا من الاتفاقيــات البحرية بالذات . ـ خوفا من تمدد البحرية الالمانية ـ ما يوجب على بريطانيا ان تقف بجانب فرنسا وبين الغزو الالماني لها ، وبنفس الاعتبارات فانه حين اعلنت اليابان الحرب على المانيا كانت تهدف الى الاستيلاء على ما لالمانيا مــن امتيــازات واستغلال في الصين ، ومن جزر في المحيط الهادي وكما أشرنا مــن قبــل بتفصيل فحينما انضمت الامبراطورية التركية العثمانية الى الالمان كان ذلك لان بريطانيا تمثل خطرا محققا على الاقطار العربية التي تمثــل السيــادة عليها تركيا ولان الروسيا وراء ظهورها الخطر الآخر الــذي يربض ويتحين فرصة للانقضاض .

وباختصار فان النماذج التي سقناها عن الاطراف التي كانت تمثــل طبيعة الصراع الذي أراق الكثير والكثير من الدماء على الارض تقدم لنا انه لم يكن من بديل من القيام بهذه الحرب وخوض العالم غمارها ولقــد كــان الثمن فاحشا للغاية : ذلك ان هذه الحرب لم تكن تعتمد على نفس الاسلوب الذي صارت عليه الحروب فيما بعد فقد كانت حرب جند أكثر منها حرب آلات ومعدات فالنقل الآلي كان لا يزال غير مستعمل تماما والوحدات البحرية كانت مواقعها ضئيلة وخاصة بعد الموقعة التي تسمى « شتلند » عــام ١٩١٦ ، فمثلا حين اوقف الفرنسيون هجوم الالمان عند منطقة « فردون » كــانت نتيجة هذه المعركة ٣٠٠,٠٠٠ رجل من الطرفين .

وحين تقدم البريطانيون في عام ١٩١٧ م حوالي خمسة أميــال فــي المعركة العنيفة « باشنديل » ليكونوا على مقربــة من « ايبري » كان ثمن المعركة ٤٠٠,٠٠٠ رجل .

وحين كان الالمان يقومون بزحفهم العملاق على روسيا في عــام ١٩١٥

فقدت روسيا وحدها مليوني رجل ما بين قتيـل أو جريح او اسير ، وفي سعة المكان وضخامة الموارد البشرية والاقتصادية فان الالمان حين توغلـوا في ليتوانيا وروسيا البيضاء فقدت روسيا في عام ١٩١٦ م مليونا آخـر . ومن عجب ان روسيا ظلت ثابتة في ميدان القتال رغم مهارة الالمان .

وحين دخلت الولايات المتحدة الامريكية الحرب مؤخرا . دخلت وفي جعبتها اربعة ملايين مقاتل فلم تتكبد سوى ١٥٠٫٠٠٠ قتيل ، ولم يموتـوا جميعا في المعارك وفي خطوط النار وانما مات منهم حوالي ٢٥ الفا بوبـاء الانفلونزا الكبير .

وفي المراحل النهائية للحرب شاع استخدام بندقية الماكينة «السوم». من صيف عام ١٩١٦ خسرت بريطانيا في معركة واحدة من اليوم الاول في هذه الهجمة التي قادتها ٦٠٫٠٠٠ رجل ، وبعد قتال شهر كامل لم يتقدموا سوى ميلين وايضا خسر الالمان في موقعة « السوم » كلها ٥٠٠٫٠٠٠ رجـل ثم فقد البريطانيون والفرنسيون ٦٠٫٠٠٠ رجل ، ولما تنته الحـرب واذا بمستوى الخسارة في البشر قتلا وابادة يرتفع في بريطانيا ليصل الى ٧٤٤ الفا ، وفي بقية الكومنولث ، حوالي ٢٠٢٫٠٠٠ ، وفي فرنسا ومستعمراتها ترتفع نسبة الخسارة لتصل الى ١٫٤٠٠٫٠٠٠ ، وفي المانيا ترتفـع نسبـة الخسارة اكثر فتصل الى ١٫٨٨٥٫٠٠٠ وكذلك كان الحال في قوات النمسا والمجر فقد بلغت نسبة الخسارة حوالي ١٫٥٠٠٫٠٠٠ .

واخيرا انتهت الحرب في عام ١٩١٨ ولم يستطع كل طـرف ان يحقق النتائج التي كانت ترتبط بطبيعة الدوافع التي أدت اليها عند كل طـرف من أطراف الصراع ، وكل ما اسفرت عنه بعد عمليـات الطحـن والابـادة للبشر التي اسفرت عنها العمليات الحربية ، فان ممثلي الدول المتحاربة قد اجتمعوا في يناير من عام ١٩١٩ لتسوية ما بعد الحرب . واجتمع ممثلـو الدول ، وكان بينهم متحدثون رسميون لا للحلفاء الكبار الذين أوقدوا نار الحرب ، بل حتى للدول التي قطعت في المراحل المتاخرة علاقاتها الدبلوماسية مع الدول الاعداء مثل « بوليفيا » و « اكوادور » و « بيرو » و « ارجواي » واعتبرت الصين وسيام من دول الحلفاء المحاربة لانهما قد دخلتا الحـرب في آخر ايامها .

وكان توجيه التسوية وخطوطها الاساسية من وضع الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا . وكانت اليابان وايطاليا في ضمن البداية الدائرة الداخليه للدول الرئيسيةولكنهما تغيبتا ، ولم يواصلا الاجتماعات.

وكان اجتماع دول الحلفاء لتسوية ما بعد الحرب عجيبا للغاية ، ويقول الدكتور « دافد تومسن » الذي كان مدرسا للتاريخ بجامعة كامبردج في كتابه « تاريخ العالم من ١٩١٤ ــ ١٩٥٠ م « الذي قام بترجمته الى العربية الاستاذ « حسين كامل ابو الليف » ، ونشرته وزارة التعليم العالي في مصر : كانت اهداف « ولسن » رئيس الولايات المتحدة الامريكية، هي ضمان تطبيق المبادىء العامة التي أعلن ضرورتها لاقامة صلح عادل وانشاء عصبة الامم ، ولبلوغ اتفاق عام بشأن الوصية ، اضطر ولسن الى قبول انصاف الحلول في تطبيق مبادئه العامة بشأن التسويات الاقليمية ، وعزى نفسه بفكرة الاجزاء التي لم يرض عنها في التسوية الاقليمية والسياسية كان من الممكن تحسينها في الوقت المناسب على غير عجلة ، بواسطة عمل الوصية كأداة للتوفيق والتعديل السلمي ، فكانت التسوية الفعلية نتيجة سلسلة من المساومات والتوفيقات بين رغبات ولسن الخيالية الغايات وان تكن عميقة الفكرة في كثير من الاحيان ، وبين مطالب « جورج كليمنصو » ممثل فرنسا وبين أهداف « لويد جورج » ممثل بريطانيا غير المستقرة والنهازة للفرص .

وكثيرا ما انتقدت التسوية خصوصا ذلك الجزء منها المتضمن في معاهدة فرساي المعقود مع المانيا ، لكونها مجموعة مرقعة من الاغراض المتضاربة ولكن هذا لم يكن بالضرورة هو أسوأ ما فيها لاي غرض آخر كان عقد مثل هذا المؤتمر الدولي العظيم ان لم يكن لايجاد أعلى قدر مشترك من الاتفاق بين الدول التي تضاربت أهدافها ومصالحها من نواح كثيرة ؟ لو ان مبادىء ولسن العامة طبقت لكان لها نتائج مهلكة وسخيفة في كثير من الحالات لكن مكانته الشخصية العظيمة افلحت في بث نظرة اوسع واكثر دواما في التدابير ، ولو لم تعتبر المطالب المتطرفة لكليمنصو ، ولويد جورج صلحا قرطاجيا ــ اي قصير الاجل ــ لكنها افلحت في تذكير ولسن بحقائق السياسة الاوربية الاشد صرامة . وهناك فقد كان ما هو اشد خطرا هو ان التسوية لم تكن ترقيعا فحسب ، بل كانت خاطئة في اختيار مواقع الخشونة واساليب اللين ، والحكم بمدى صحة هذا النقد يمكن استخلاصه من دراسة القرارات الرئيسية ومدى دوامها .

ومن هذه القرارات : استردت بلجيكا استقلالها ، واعيد الى فرنسا الالزاس واللورين اللذين اخذتهما منها المانيا عام ١٨٧١ م . ولا نزاع في ان هذا الاجراء كان عادلا ، وكسبت فرنسا ايضا ملكية مناجم الفحم في السار ، على ان تدار المنطقة خمسة عشر عاما بواسطة لجنة لعصبة الامم ، وفي ١٩٣٤ اعيدت الى المانيا بعد استفتاء بين السكان حسب ما تقرر ونفذ هذا القرار ايضا بدرجة كبيرة ومعقولة ، وتقرر ان تبقى منطقة « الرين » محتلة بقوات الحلفاء خمسة عشر عاما ، ضمانا لتنفيذ المانيا المعاهدة ، وكان ذلك حلا وسطا وغير مرض بالمرة وجهة النظر الفرنسية ، فقد طلب كليمنصو في البداية بالحاح من « فوش » السيطرة التامة على رؤوس معابر الرين كضمان حربي لامن فرنسا فرفضت الولايات المتحدة وبريطانيا الموافقة على هذا واقرتا الفرنسيين ، بأن يقبلوا بدلا منه ضمانا « انجلو ـ امريكيا » بالمبادرة التي تجدها فرنسا اذا هددتها المانيا مرة اخرى ، لكن لما لم يصدق مجلس الشيوخ الامريكي على المعاهدة سقط هذا الضمان ، وادعت بريطانيا ان هذا التصرف ابطل نصيبها من الصفقة ، وبالتالي شعرت فرنسا ان حليفتيها غررتا بها بالنزول عن مقومات سلامتها المادية مقابل ما ثبت الآن انه تأكيد دبلوماسي عديم القيمة .

ومن هناك كان سعيها المحموم وراء ضمانات اكثر ثباتا لسلامتها القومية طول سنوات ما بين الحربين ، كما ثبت بالمثل ان احتلال اراضي الرين ، وهمي ، اذ كان معناه ان القوات المتحالفة سوف تسحب نفسها في نفس اللحظة التي تنتهي فيها الفترة من الزمن التي كانت المانيا محتاجة اليها لاحياء مطامحها ولاستعادة قوتها الحربية وبالتأكيد يمكن القول ان الضمانات المادية المنتزعة من المانيا كانت في هذا الشأن جد ضئيلة .



وهذه المراحل المتناقضة اثرت في طبيعة الجو الذي كان يحيط باجتماع الدول المتحاربة لتسوية ما بعد الحرب ، كان من الممكن ان تجد فيها الاطراف المعنية حسبما يتاح لها من تشدد او مناورة او قبول الحلول الوسط فرصتها ، اما الذي لم يكن فيه سوى قوة واحدة تتحرك على انقاض ما صنعته فهو الوجود البريطاني الفرنسي اثناء الحرب في جبهة

الشرق الاوسط او بلدان العرب ، ذلك ان الجيش التركي الذي كان يحارب البريطانيين في الشرق الاوسط بعد اعلان تركيا الحرب على بريطانيا وانضمام الجيش التركي لالمانيا قد تمكنت من سحق القوات التركية في كل من فلسطين وسوريا والعراق رغم ان القوات التركية كانت قد استطاعت في بدء الحرب ان تصل بهجومها على البريطانيين على شرقي قناة السويس مباشرة ، الامر الذي جعل القوات في الشرق الاوسط تجمع نفسها غرب قناة السويس وتفكر في سبيل للانقضاض على القوات التركية او الانسحاب من هذه الجبهة ، وهذا التقدير الثاني رغم انه كان قاسيا على القيادة البريطانية في الشرق الا انه قد عمل حسابه ، غير انه ما ان ظهرت بوادر التقدم لقوات الحلفاء في بعض معارك الجبهات الاوربية ثم اللعب السياسي والمناورة بظهور القوة الجديدة التي امكن اقحامها في الحرب وهي الولايات المتحدة الامريكية الا وقد امكن للجنرال الانجيلزي « اللنبي » ان يشن عدة هجمات على القوات التركية اباد فيها فرقا تركية كبيرة في سيناء وغيرها من الارض التي دخلها غازيا بعد هزيمة الاتراك في عام ١٩١٦ م.

بريطانيا تمزق الارض العربية :

بريطانيا قبيل الحرب العالمية الاولى بعدة سنين كانت قد أدركت طبيعة الحال الذي آل اليه امر السيادة العثمانية على البلاد العربية ، كما رات تاثير الدور الذي لعبته في تعميق هوة التناقض بين فساد السيادة التركية على الارض العربية وآمال الامة العربية في بعث وانطلاق القومية العربية التي يود بها الانسان العربي ان يحفظ آدميته ، فراحت تستغل ضعف الدولة العثمانية وتحتضن في زيف وايقاع ووشاية آمال الامة العربية، وقبيل الحرب مباشرة وجدت بريطانيا في الشريف حسين أمير مكة وسيدها رجلا مناسبا ليكون اداتها في اداء دورين كل منهما يمثل مخطط السياسة البريطانية لاطماعها واستراتيجيتها في الشرق العربي وخاصة قبيل بدء الحرب التي لم يكن هناك من بديل لها امام الظروف والاطماع الدولية التي صنعت هذه الحرب وكان احد الدورين ان ينقض الشريف حسين امير مكة باعتباره مسلما ومن جوار ارض اقدس المقدسات ليعلن الحرب باسم الاسلام على السيادة العثمانية التي لا تمثل العرب والتي تشوه تعاليم الاسلام .

وبهذا الدور يساعد الشريف حسين الانجليز على تحقيق وجودهم

في الارض العربية حين تصبح القوى العقائدية فيها في حالة حرب وصدام.

وكثمن لهذا الدور الذي يقوم به الشريف حسين امير مكة في المساعدة على تفتيت كيان الدولة العثمانية فان بريطانيا قد صنعت هي له الدور الثاني ، وهو ان بريطانيا ترحب باسترداد « الخلافة على يد عربي صميم من الدوحة النبوية المباركة » ومن عجب انه حين ظهرت اتجاهات عربية نسأل عن حدود ارض هذه الخلافة فان الاستعمار قد واجه السؤال بأن هذا تفكير سابق لاوانه ، وما دامت الحرب لما تتضح معالمها بعد فان من الاحسن الانتظار لهذا الموضوع ، خاصة وان ملك بريطانيا حريص على مصلحة العرب ، ويرجو ان يكون هذا الشعور هو نفس الشعور العربي .

هذه المرحلة من عمر الزيف البريطاني على الارض العربية قد جعلت الشريف حسين يجند اكثر من ٢٥٫٠٠٠ جندي في عام ١٩١٦ ويعلن الحرب على تركيا ، هذه الحرب العربية التي كانت من بين الاسباب المساعدة والمؤثرة في انتصار بريطانيا بقيادة الجنرال « اللنبي » على القوات التركية التي تشتت جهدها في هذه الظروف المعقدة .

الباب الرابع عشر

- الحركة الصهيونية تتجه الى فلسطين .
- الاطماع الصهيونية والاستعمارية في فلسطين .
- الارض السياسية التي قامت عليها الدولة .
- الاعلان عن قيام دولة اسرائيل .
- الامم المتحدة وتقسيم فلسطين .
- دور الامم المتحدة في تقسيم فلسطين .
- اسرائيل والاطماع الاستعمارية .

الحركة الصهيونية تتجـه الى فلسطـين :

الحركة الصهيونية التي بدأت أعمالها من مؤتمـر بازل في سويسرا عام ١٨٩٧ م بشكل دقيق ومنظم ، كان لا بد لها باعتبارهـا حركة مصنوعة قائمة على التآمر وعلى التخطيط الدقيق الهادف مـن ان تسعى بشتـى الوسائل لتحقيق هذا الهدف ... وبالفعل فانها بدات العمل بشكلعدوائي من أجل خلق وطن للشعب اليهودي في (فلسطين) بشكل يضمنه القانـون العام . وكانت البداية حين التخطيط لهذا الهدف ان تكون الخطوة الاولـى استعمار فلسطين عن طريق الهجرة وبواسطة العمال الزراعيين والصناعيين على وجه الخصوص ، وقد بدأت الصهيونية العالمية الخطوات العمليـة في التنفيذ لتحقيق هدف الاستيطان عقب قرارات المؤتمـر الصهيوني الاول وابتدات عملية الاستيطان تأخذ شكل العمل المنظـم عندما بادرت الحركـة الصهيونية الى انشاء المؤسسات الزراعية لاستثمار فلسطين عـن طريـق الهجرة وبناء المستعمرات مثل : المصرف اليهودي للمستعمرات (١٨٩٨) ولجنة الاستعمار (١٨٩٨) والصندوق القومي اليهودي .

ثم حـدث بعد وفـاة هرتزل في عـام ١٩٠٤ ان استطـاعت المنظمـة الصهيونية أن تطور جهدها بعد خمـول طفيف دب في حركتها مـن عـام ١٩٠١ الى عام ١٩٠٤ وعندما نشطت قدمت التسهيلات وتوفير كل حاجـة المهاجرين لبناء المستعمرات اليهودية في فلسطين .

ومن عجب انه قبل المرحلة التي بدأت بنشاط المنظمـة الصهيونيـة بتشجيع الهجرة الى فلسطين من عام ١٨٩٨ م ـ الى عام ١٩٠٤ قد قـام المهاجرون اليهود بانشاء بعض المستعمرات الزراعية مثل ريشون صهيون وزيكرون يعقوب ، وروش بينا وذلك في عام ١٨٨٢ ـ (ويزودها ماله) ؛ وصهيون الجديد عام ١٨٨٣ ، وجديرة عام ١٨٨٤ .

وكان من وراء هذه الحركات المهاجرة الـى ارض فلسطين البواعث النفسية الطامعة التي اثرت في هذه المجموعات المهاجرة في هـذه المرحلة المتقدمة على بدء أعمال المنظمة الصهيونية من تأثير ما فعلت جماعات « حركة الشباب » التي بدات في اوروبا الشرقية وكان يطلق عليهم الشعب « الرواد » بعد ان حملوا عقدة الحياة اليهودية في اوروبا الشرقية في هـذه المرحلة ، فكانت حركة الشباب هذه هي التي تنادي برفض حياة اليهـود في المنفى (اي حياة اليهود في خارج فلسطين) كما كانت تنادي برفض جميع الحلول وحتى قبل الحركات الليبرالية الانسانية ، والاشتراكية والثورية في اوروبا الشرقيـة .

وكانت صهيونية هؤلاء اليهود تقضي بالتمسك بحل «مشكلة اليهود» عن طريق تحرير اليهود كشعب من (اللاسامية) على أساس عودة اليهود الى فلسطين (ارض الاجداد والميعاد) والحياة هناك كامة كما كانت تعني (تطهير النفس اليهودية) عن طريـق العمـل اليـدوي والجسدي في تلك الارض كعنوان للثورة على نمط الحياة اليهودية في (المنفى) وكتطبيـق لشعار (استعادة الارض والعودة اليها) .

أما صاحب الاثر الاكبر على رواد الهجرة الثانية في هذا الصدد فهـو أ. د. غوردن (١٨٥٦ — ١٩٢٢) صاحب فلسفة « دين العمل » الذي نادى بالعمل كظاهرة خلاقة وقيمة عليا . كانت تعاليـم غوردن مستوحـاة مـن الرغبة في رفض حياة اليهود في اوروبا الشرقية وفي « المنفى » بشكل عـام من جهة والحث على حياة جديدة في فلسطين من جهة اخرى . ولقد خاطب غوردن اليهود محذرا وموجها بالكلمات التالية :

« ان شعبـا تعود جميـع انماط الحياة عـدا النمط الطبيعي — اي تحقيق الاكتفاء الذاتي عن طريق العمل — لن يصبح شعبا حيا عاملا الا اذا بذل اقصى طاقته لتحقيق هذا الهدف . ان العمل ليس مجرد العامل الذي يحدد علاقة الانسان بالارض وحقه فيها وحسب بل انه القـوة الرئيسيـة في بناء حضارة قومية ايضا . ان العمل هو مثل انساني اعلى للمستقبـل ، والمثل الاعلى يشبه الشمس الصافية . اننا بحاجة الى متعصبين للعمـل متزمتين له بأعلى معاني الكلمة » .

وبهذه الروح التي كانت تسيطر على كثير من الجماعات اليهودية قبيل

بدء العمل الصهيوني المنظم وبعده بدات حركة الهجرة اليهودية الى فلسطين واخذت الحركة الصهيونية بعد ذلك تشجع روح الاستثمار التعاوني ليبدا العمل الصهيوني في ظل ارض قومية وهي عبارة عن مزارع كبيرة تملكها المنظمة الصهيونية بجوار مزارع تعاونية تملكها تعاونيات العمال . ثم دخل العمل الصهيوني المرحلة الجادة والمنظمة حين بدا تاسيس (الكوبيتز) الصهيوني الذي كان استجابة للمتطلبات الصهيونية في ضرورة وجود العمال الزراعيين اليهود في ارض فلسطين يتحركون في اطار عام من حيث الاهداف والمبادىء وفق الخطة الصهيونية التي تعد وتعمل لاستعمار فلسطين .

وبالفعل فان نشاط الكيبوتز قد بدا يتطور ويتصاعد من عام ١٩٠٨ الى ١٩٢١ ، ومما يجب ان ننبه اليه وفي تاكيد لتعميق الحقيقة وابعاد الزيف عنها ان الاراضي التي اقيمت عليها (الكيبوتزات) الصهيونية وخاصة التي لم يكن الضغط البريطاني بالقسر والتشريد قد بدأها ضد جميع شعب واهل فلسطين كان يتم شراؤها من الاقطاعيين غير المقيمين في ارض فلسطين ، وكان الفلاحون الفلسطينيون العرب يعملون على هذه الارض في ظل ظروف سيئة للغاية ، وفي هذه المرحلة لم تستطع الجماعات اليهودية المهاجرة ان تقيم من المستعمرات (الكيبوتز) اكثر من احد عشر مستعمرة موزعة على منطقة وادي الاردن ووادي جزيل .

ولم تستطع الاطماع الصهيونية ان توسع قدرتها على بناء المستعمرات وتنتشر تماما الا في ظل الانتداب البريطاني على ارض فلسطين ، هذا الانتداب الذي كان تتويجا لجهد الصهيونية والاستعمار في ان يحولا ارض فلسطين الى تحقيق اماني واحلام كل منهما في خدمة الاخر .

الاطماع الصهيونية والاستعمارية في فلسطين :

منذ صدر قرار الانتداب البريطاني من قبل عصبة الامم وصدق عليه ثم دخل مرحلة التنفيذ في ٢٩ من سبتمبر ١٩٢٣ م الا وقد اصبحت بريطانيا في حل من ان تمارس « صك » الانتداب على ارض فلسطين على هواها وحسبما يحقق المصلحة للاماني الصهيونية في خدمة الاطماع الاستعمارية . ولما كان من بين مواد « صك » الانتداب : ان الدولة المنتدبة ــ بريطانيا ــ مسئولة عن وضع البلاد ــ فلسطين ــ في احوال سياسية واقتصادية ،

تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي وترقية المؤسسات التي تمارس نوعا من الحكم الذاتي مع صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الجنس والدين .

ولما كان من بين بنود الانتداب ايضا : تشجيع الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الظروف ، كما يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعاون معها في الشئون الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك من الامور التي قد تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين .

كما كان ايضا من بين بنود صك الانتداب الاعتراف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض ويترتب على الجمعية الصهيونية ان تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في انشاء الوطن القومي اليهودي .

وايضا لما كان من بين بنود « صك » الانتداب مادة تقول : على ادارة فلسطين مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الاهالي الاخرى أن تسهل هجرة اليهود في احوال ملائمة ، وان تشجع مع الوكالة اليهودية المشار اليها في المادة الرابعة والتي تنص على الاعتراف بوكالة يهودية تسدي المشورة الى ادارة فلسطين حشد اليهود في الاراضي الاميرية والاراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العمومية فان الاستعمار البريطاني في فلسطين راح وبعنف يزيف هذه الشرعية الباطلة التي صنعها تعبيرا عن ولائه وارتباطه بحركة الصهيونية العالمية ويعمل على تحقيق الاطماع الصهيونية وذلك بتشجيع وتطوير حركة اليهودية العالمية الى فلسطين ومد يد العون بكل السبل والاساليب حتى ولو كان يتعارض تماما مع بنود صك الانتداب رغم انها صنعت لتحقيق الاطماع الصهيونية والاستعمارية في الارض العربية .

ومع ان الاطماع الصهيونية قائمة ومسيطرة على وجدان المتعصبين من اليهود حتى قبل ان تبدأ اعمال المنظمة الصهيونية واسلوبها في استعمار فلسطين فان هذه الاطماع اليهودية لم تكن لتجد الارض التي تتحرك عليها لو لم تجد العون والمساعدة والولاء من الاستعمار ، فالجماعات اليهودية التي

قامت تشد رحالها الى فلسطين بتوجيه من حركات كالتي اشرنا اليها مثل الرواد والتي كانت وراء هجرة الجماعات اليهودية الى فلسطين ، هـــذه الجماعة التي انشأت مستعمرات زراعية في فلسطين مثـــل « ريشون صهيون » قبل ان تبدأ المنظمة الصهيونية اعمالها لم تكن تستطيع القيـــام بهذه المغامرة بتغيير الموطن والقدوم الى ارض شعبها بل وحتى المتسلطين عليها من آل عثمان يرفضون قدومهم واستيطانهم اياها ، ذلك أن الاستعمار البريطاني كان يؤدي دور القنطرة التي تعبر عليها الجماعات اليهودية الـى فلسطين منذ الصلة القديمة التي ترجع لبريطانيا بفلسطين عندما كان لها قنصل في بيت المقدس ابتداء من عام ١٩٣٧ م ولم يكن يشغل بال القنصلية البريطانية في القدس منذ هذا التاريخ سوى العمل على تهيئة المجال لنمـو علاقات التعاطف والولاء والمصالح المشتركة بين الجماعات اليهودية الطامعة والاستعمار البريطاني المستغل ، ومن يطلع على مصدر واحد من مصـــادر حركة الهجرة اليهودية الى ارض فلسطين في مسارها الطويل وخاصة قبل الفترة التي سبقت عقد المؤتمر الصهيوني الاول وبعده الى حين تعاون العمل المشترك بين الصهيونية والاستعمار يلحظ بوضوح الارتفاع العالي في حركة الهجرة اليهودية الى فلسطين منذ المؤتمر الصهيوني الاول ثم اخذت حركة الهجرة في التفاقـــم والتصاعد في ظل الانتـــداب البريطاني باعتباره مخططا لتطوير حركة الهجرة اليهودية وخلق كيان قريب يعزل شعوب الامة العربية بحاجز بشري ، لتكون هذه الارض سوقا للتصدير وحقلا للخـــام ، ففـــي الاحصائية التي قدمت للامم المتحدة في عام ١٩٤٧ من اللجنة التي اوفدتها الامم المتحدة لبحث القضية ، امكن تدوين احصائية تكشف عن مدى التطور والتصاعـــد الذي طرأ على عدد السكان اليهود في فلسطين كنتيجة لزيـــادة الهجرة اليهودية .

ورغم ان مصدر هذه الاحصائية التي قدمت كبيانات للامم المتحـــدة بريطانيا، ولا نتصور انها تحرت الدقة الا ان هذا كدليل غير محايد يكشف على مدى التصاعد في حركة الهجرة اليهودية بعون الاستعمار وارادته بعد احتلال الارض العربية في الحرب العالمية الاولى ، وبعد ان صنع شرعية الباطل فـــي هذه الارض . وتقول الارقام التي قدمت للامم المتحدة عام ١٩٤٧ انه فـــي عام ١٩٢٠ م كان عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين (٥٥١٤) ، وفي عـــام ١٩٢١ م (٩١٤٩) وفي عام ١٩٢٢ م (٧٨٤٤) وفي عام ١٩٢٣ م (٧٤٢١)

وفي عام ١٩٢٤ م ــ وهو العام الذي كان عقب تنفيذ الانتداب مباشرة بلغ عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين (١٢٨٥٥٦) وفي عام ١٩٢٥ م (٣٣٨٠١). فمثلا هاجر من :

النمسا الى فلسطين	٩٩٠٠٨ يهوديا
المانيا الى فلسطين	٤٥٠٥١ يهوديا
المجر الى فلسطين	٤١١٥ يهوديا
اليونان الى فلسطين	٤١٨ يهوديا
لتوانيا الى فلسطين	٤٩٨٢ يهوديا
الاتحاد السوفياتي الى فلسطين	٣١٢٢٣ يهوديا
بولونيا الى فلسطين	٢٤٢/٣٢٢ يهوديا
ومن تشيكوسلوفاكيا هاجر الى فلسطين	١٠٩٠٤ يهوديا
ومن رومانيا هاجر الى فلسطين	٢٢٦٠٩ يهوديا
ومن العراق هاجر الى فلسطين	٧٠١٨ يهوديا
ومن اليمن هاجر الى فلسطين	١٤٠٢٢٠ يهوديا
ومن الولايات المتحدة هاجر الى فلسين	٨٠٨٨٤ يهوديا

ويقول التقرير الذي طبعته الامانة العامة لجامعة الدول العربية في عام ١٩٦١ مستندا الى الدراسة التي اعدتها بريطانيا عن تاريخ فلسطين تحت الانتداب .

ان الهجرة اليهودية التي تمت اثناء الحرب العالمية الثانية التي بدات في سبتمبر عام ١٩٣٩ ــ ديسمبر ١٩٤٤ تمت من البلدان الاتية وبهذا التدفق البشري الكثيف :

اوروبا الشرقية هاجر منها الى فلسطين	١٦٨٣٧ يهوديا
اوروبا الوسطى هاجر منها الى فلسطين	٧٧١٤ يهوديا
اوروبا الغربية هاجر منها الى فلسطين	١٥٦١ يهوديا
اوروبا الجنوبية هاجر منها الى فلسطين	٣٣٤٤ يهوديا
بلاد اوروبية اخرى هاجر منها الى فلسطين	٢٥٦ يهوديا
العراق هاجر منها الى فلسطين	٦٢٢ يهوديا

وفي عام ١٩٢٦م (١٣٠٨١) وفي عام ١٩٢٧ م (٢٧١٣)، وفي عام ١٩٢٨م و١٩٢٩ م (٥٢٤٩) وفي عام ١٩٣٠ م (٤٩٤٤) وفي عام ١٩٣١ م (٤٠٧٥) وفي عام ١٩٣٢ م (٩٥٥٧)، وفي عام ١٩٣٣ م (٢٠٢٣٦) ... وهكذا فقد ظلت حركة الهجرة اليهودية في ظل الانتداب البريطاني حتى عام ١٩٤٦ . وقبل ان تصبح حركة الهجرة مشكلة دولية في عام ١٩٤٧ وصل عدد المهاجرين اليهود الى ١٧٧٦١ ، ولم يترك الاستعمار البريطاني وسيلة الا صنعها في سبيل ان ينمو الوجود اليهودي ويعظم في ارض فلسطين ، فعندما اضطرت بريطانيا في اعوام ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ لظروف الحرب الثانية التي كانت بوادرها قد تأكدت ان تصدر بعض القرارات التي تحد من حركة الهجرة اليهودية المتدفقة في افواج ضخمة الى فلسطين لم تتوقف حركة الهجرة فقد بلغت في عام ١٩٣٦ م (٢٩٧٢٧) وفي عام ١٩٣٧ م (١٠٥٣٦) وفي عام ١٩٣٨ م (١٢٨٦٨) وفي عام ١٩٣٩ (٢٧٥٦١) . وكان هذا التدفق في حركة الهجرة الصهيونية الى فلسطين هو الخطوات العملية لتحقيق المخطط الصهيوني الاستعماري في استعمار فلسطين واستيطان الجماعات ... الصهيونية فيها (١) ..

وقد لعبت المخططات الاستعمارية والصهيونية دورا خطيرا في دفع البلدان التي كان فيها اليهود يمثلون تعاطفا مع فكرة الحركة الصهيونية في استعمار فلسطين واستيطانها ، ففي الفترة من عام ١٩١٩ ــ ١٩٤٧ كانت موجات التدفق اليهودي الى فلسطين من البلدان التي يمثل فيها اليهود تعاطفا مع الحركة الصهيونية وايضا تناقضا مع قوى المجتمع الذي نشأوا فيه وعاشوا على ارضه قوية وعنيفة للغاية .

تركيا هاجر منها الى فلسطين	٤٤٠٤ يهوديا
بلاد آسيوية اخرى هاجر منها الى فلسطين	٤٠٠٦ يهوديا



وبحركة الهجرة هذه التي صنعت الكيان الصهيوني أداة المخطط العدواني للقوى الاحتكارية في العالم لكي تواصل استغلالها في ممارسة الاطماع

---

(١) انظر كتاب « الصهيونية في التاريخ » للمؤلف ، للوقوف على مزيد من البيانات والمصادر المتعلقة بموضوع حركة الهجرة اليهودية في ظل الاستعمار البريطاني في مرحلة الانتداب ــ صادر عن مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٧ ــ القاهرة .

وتحقيق الاماني ، فان الصهيونية العالمية وهي التي ما كان لها ابدأ ان تقف على قدميها وخاصة في فلسطين لولا جهد الاستعمار وعدته ورغبته هو في المقام الاول ، قد استطاعت ان تجابه القوى البريطانية فيما بعد عندما اضطرت الاخيرة كنتيجة لتفاقم حدة الصراع بين العرب والجماعات الصهيونية المهاجرة بينما هي الدولة المنتدبة وصانعة الهجرة فكان كاستبقاء لعلاقة مع العرب خاصة وان بشائر حرب جديدة كانت قد اوشكت وسيكون من بين ميادينها ارض العرب حيث الوجود البريطاني يقوم بالسيطرة والتمدد ان تصدر في ١٧ مايو سنة ١٩٣٩ الكتاب الابيض البريطاني الذي يشير الى رجاء الحكومة البريطانية للوكالة اليهودية ان تخفف من تدفق هجرة الجماعات اليهودية بالشكل المندفع الذي تقوم به الجماعات اليهودية .

ورغم السياسة التي كانت تحيط بهذا الكتاب البريطاني الذي يطالب بخفض معدلات الهجرة لم تكن اكثر من مناورة يهودية ومحاولة لتهدئة عواطف الشعب العربي ، تجنبا للصدام مع قوى الثورة الفلسطينية الهادرة، الا ان القوى الصهيونية قد اقامت الدنيا واقعدتها وثارت ثائرة الصهيونيين عنيفة وقوية ، فقد اعتبروا ما جاء في الكتاب الابيض البريطاني لعام ١٩٣٩ مناقضا لما جاء في صك الانتداب البريطاني على فلسطين وتحللا من بنوده ومواده ، وخاصة المادتين الرابعة والسادسة من صك الانتداب وقد جاء فيهما :

« انه يعترف بالوكالة اليهودية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ـ بريطانيا ـ ترى ذلك ، ويترتب على الجمعية الصهيونية ان تتخذ من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبتغون المساعدة في انشاء الوطن القومي لليهود ـ وعلى ادارة فلسطين ان تسهل هجرة اليهود في احوال ملائمة مع عدم الحاق الضرر بحقوق وواقع الفئات الاخرى وان تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود في الاراضي العربية » .

وعلى تقدير القوى الصهيونية للموقف الذي تصورت انه لا يخدم

الاطماع ـ كما هو بالطبيعة بين الصهيونية والاستعمار ـ رغم ان عـــدد المهاجرين اليهود الى فلسطين في هذا العام الذي صدر فيه الكتاب البريطاني قد بلـغ كمـا ذكرنا من قبـل (٢٧٥٦١) يهوديـا قد وصلوا الى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني الا انها الاطماع الصهيونية التي ذهبت تلعب في ميدانين تضيف بهما الى جهدها وقدرتها في مواجهة هذا الموقف الشكلـي الذي اعلنت عنه مجرد اعلان الحكومة البريطانية لكي تخفف المنظمات اليهودية من ضغطها على الجماعات اليهودية تمويلا واثارة واغراء ومطاردة احيانا لكي يحملوا انفسهم ويتجهوا الى فلسطين ـ قوة جديدة تستطيع بها ان تحـاور وان تتآمر ـ وكان احد الميدانين ، الولايات المتحدة الامريكية ، التي وجد فيها الصهاينة اكبر ميدان واعظم قوة تساعدهم على تحقيق الاماني ، وجـد الصهاينة في الولايات المتحدة منذ ساهمت الولايات المتحدة عام ١٩١٧ م في اصدار الوعد البريطاني حين نال قرار الوعد رضاها (صهيونية الاغيار) التي اشرنا اليها عندما تكون ولاء وارتباط مصلحة مع اماني الحركة الصهيونية العنصرية التي توجت اطماعهـا « بالتنظيم » في بازل عـام ١٨٩٧ فاطمـأن الصهاينة الى ثقل هذا الميدان واستطاعوا بعد ان ركبوا الحياة في الولايـات المتحدة ان يعقدوا لهم مؤتمرا في « اوتيل بليتمور » بنيويورك ، واجتمـع المؤتمر الصهيوني في « اوتيل بليتمور » لتوجيـه ضربة حاسمـة في وجـه السياسة البريطانية التي لم تكن اداة طبيعية في تحقيق الاماني المتفق عليها بين الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية .. واتخذ المؤتمر من قلـب الولايات المتحدة حيث يجتمع الصهاينة عدة قرارات كان من اهمها :

أ ـ انشاء كومنولث يهودي في فلسطين فورا كجـزء مـن العالـم الديمقراطي الجديد .

ب ـ رفض الكتاب الابيض البريطاني لعام ١٩٣٩ م .

ج ـ هجرة غير محدودة لمن يشاء من يهود العالم والاستيطان فـي فلسطين .

د ـ رقابة الوكالة اليهودية على شئون الهجرة والاستقرار .

هـ ـ تاليف قوة يهودية تقاتل تحت علم خاص والاعتراف بها .

وبهذا التبجح السياسي فقد استطاع الصهاينة ان يشجعوا كل ما جاء في الكتاب الابيض وكل ما يمكن ان يؤثر به في سير الهجرة اليهودية الـى

فلسطين وكان يكفي اليهود الصهاينة في هذه الفترة التي يستعد .فيهـا الاستعمار لخوض غمار حرب ثانية بأن يتركوا القوى الاستعمارية تكتسب ولو زيفا ونفاقا اصحاب ارض ستجري على ارض بلادهم نار الحرب ومصالحهم مرتبطة بها ، الا انه بعد نجاح الصهاينة في مؤتمر «اوتيل بليتمور» في نيويورك ومن خلال سيطرتهم على مركز الثقل العالمي الجديد فانهم قد ذهبوا الى الميدان الثاني وهو أحد الميدانين اللذين ذهب اليهما الصهاينة يواجهون من خلالهما ما أعتبروه تحللا من السياسة البريطانية نحوهم عقب الكتاب البريطاني عام ١٩٣٩ ، وكان هذا الميدان الثاني هو بريطانيا نفسها حين استطاعت القوى الصهيونية ان توعز الى حزب العمال البريطاني بأن يعبر عن رأيه بقرارات ينقض فيها ما جاء في الكتاب الابيض .

واستطاع اليهود الصهاينة خلال فترة قصيرة جدا من تاريخ صدور الكتاب البريطاني عام ١٩٣٩ م الى حين استطاعت القوى اليهودية ان تفصم السياسة البريطانية وتمزق الموقف السياسي الذي يمكن ان يعبر عنه الشعب البريطاني وذلك حين اجتمع حزب العمال البريطاني واتخذ موقفا في الهيئة البرلمانية ضد سياسة الحكومة في الكتاب الابيض الذي صدر عام ١٩٣٩ .

وبالفعل فانه في اجتماع الهيئة البرلمانية عام ١٩٤٣ استطاع حزب العمال ان يصدر القرار التالي : (١)

« إن فترة الانتهاء من الحرب « يقصد الاولى » قد اوضحت مأساة اليهود الكبرى انهم اضعف من جميع الشعوب لانهم بلا وطن ولانهم اقلية في كل مكان ، ولقد كان اليهود هدفا سهلا لعدوان الرجعية والفاشست . ان تاريخهم الطويل المحزن من

---

(١) حول الدور الذي لعبته الصهيونية العالمية في تضليل الرأي العام البريطاني وقدرتها على اتخاذ اساليب تمزق بها الخط السياسي الذي يمكن ان تكون عليه امة او يعبر به نظام بعينه ، حين كانت تعمل لان يصدر حزب العمال البريطاني قرارا بشأن الكتاب الابيض ، انظر بتفصيل هذه المرحلة كتابنا « الصهيونية في التاريخ » الصادر عن مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٧ .

الآلاف التي قتلت ظلما واستؤصلت وان هذا المؤتمر من اجل آلام اليهود ايدعم النمو المطرد للوطن القومي اليهودي في فلسطين بالهجرة والاستيطان والمساعدة الدولية ، ويجب ان يسمح للشعب اليهودي ان يستغل الى الحد الاقصى مدى قدرة فلسطين الاقتصادية لاستيعاب المهاجرين الجدد .

والمؤتمر اذ يؤكد تأييده للالتزامات الخاصة بموجب تصريح ـ بلفور ـ والانتداب ليرجو التخلي عن سياسة الكتاب الابيض وما جاء فيه ... » .



وهكذا استطاعت الصهيونية في ظل الاستعمار ان تلعب في كل الميادين وان توجه القوى التي تريد لصالح امانيها وأطماعها . وما ان اصبح الوجود الصهيوني في فلسطين بعد الهجرة والاستيطان قويا ومتمكنا يستطيع العمل والارهاب متصدرا المواجهة والاعلان عن نفسه حتى دخلت القوى الاستعمارية متعاونة في مرحلة التنفيذ لاعلان الدولة !! .. كيف كان ذلك ؟ في الصفحات التالية بعض ضوء من غموض القصة التي كانت ذروة التناقض العالمي في القرن العشرين حين تم صنع دولة « للصهيونية العالمية » في فلسطين العربية باسم (اسرائيل) !! .

الارض السياسية التي قامت عليها الدولة :

اذا ما نظر باحث يدقق في مقدمات الصراع الدولي وتناقضات المعتقدات المختلفة وما يمكن ان تؤول اليه في عالم السياسة والتاريخ ، يجد انه كان من الممكن جدا ان لا تتمكن القوى الصهيونية ـ رغم جبروتها ـ وعون الاستعمار البريطاني لها وارتباطه بها ارتباطا كاد ان يكون صهيونية اخرى تطابق صهيونية المتطرفين من غلاة اليهود ومتعصبيهم من اقامة دولة لليهود في فلسطين باسم « اسرائيل » لو لم يتعاون الاستعمار العالمي كله في اقامة الدولة الاسرائيلية بالرغم من ان هذا التعاون الاستعماري كان سيعرض

مصالح بعض القوى الاستعمارية وبعضها الاخر لمواجهات او منافسات ، غير انه في سبيل الحركة الصهيونية فلا باس في ان تقوم « دوله اسرائيل » لتلتقي عندها مصالح الجميع في النهايه على حدود منطقة من العالم يزداد طمع كل القوى الاستعمارية عليها وتتكالب ، برزت هذه الحقيقة وتأكدت عندما قام الاستعمار الامريكي يؤدي دوره المؤثر في تصاعد حركات الاستعمار وانتشارها ، ولكي يؤدي دوره الفعال في صنع الارض التي تقوم عليها دولة اسرائيل بالتعصب والقهر . وكانت البداية للعمل الامريكي في صنع الكيان الاسرائيلي لكي تصنع له ايضا ـ بالزيف ـ شرعية وجود وحياة في الفترة التي كانت تتسم بالمنافسة بين الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا على سيادة الموقف والسيطرة على ارض الشرق الاوسط منذ ظهور بوادر الحرب العالمية الثانية .

ذلك ان الولايات المتحدة كانت منذ زمن مبكر حتى قبل عقد الاتفاقية الانجلو ـ امريكية ، التي ابرمت بين الطرفين عام ١٩٢٤ م قامت تقود سياسة الاطماع لانه كان على الولايات المتحدة ان تنظر الى مصالحها وما يمكن ان تحصل عليه من امتيازات في منطقة الشرق الاوسط كالامتياز البترولي الذي حصلت عليه بالفعل في البحرين من عام ١٩٣٣ ـ ١٩٩٩ م وكالامتياز البترولي الذي حصلت عليه من السعودية عام ١٩٣٩ .

ومن عجب ان هذه المصالح التي كانت تنظر اليها الولايات المتحدة من زمن بعيد وهي ايضا من الدوافع المصلحية التي كانت توجه التنافس بينها وبين بريطانيا وكانت كفيلة بأن تجعل العقل الامريكي يتدبر مصالحه على المدى الطويل بالعلاقات الانسانية في ظل القوانين الدولية المتفق عليها لتكون العلاقات بين الولايات المتحدة وبين شعوب العالم العربي علاقة خير وسلام الا انها النزعة الاستعمارية التي تربط بالضرورة بين الحصول على الاستغلال وممارسته وبين القوة الغاشمة والمسيطرة ، لذا كان موقف الولايات المتحدة ودورها في اقامة اسرائيل في فلسطين كبيرا للغاية بل كاد ان يكون هو الدور الرئيسي وخاصة في الفترات والمراحل التي سبقت مولد الدولة والتي كانت تتعرض فيها الجماعات اليهودية ، للثورات العربية الفلسطينية التي كانت كثيرا ما تقوم وتندفع في وجه الاستعمار البريطاني ثائرة على زيف ما يصنعه للجماعات اليهودية من ترسيخ وتعميق ارض العدوان التي تتحرك عليها القوى اليهودية التي كانت تتعاظم بسرعة مذهلة .

فما أن كانت الجماعات اليهودية تتعرض كنتيجة لنقمة العرب وسخطهم لبعض الازمات فان الولايات المتحدة كانت هي السند القوي الذي يرعى ويحمي الآمال اليهودية العنصرية ويذلل من امامها الصعاب والمعوقات. فمثلا حين استقرت الجماعات اليهودية في فلسطين وكثر عددها في الفترة التي بدات بالانتداب منذ عام ١٩٢٣ — حتى عام ١٩٤٧ واصبح لها جهاز يستطيع ان يقوم بعمل الحكومة الرسمية وتوجيهها طلبت بريطانيا التي كان نجمها في عالم الاستعمار قد دخل مرحلة الافول الى الامم المتحدة في فبراير ١٩٤٧ ان تضع المشكلة الفلسطينية التي تفاقمت مضاعفاتها بين العرب واليهود في جدول اعمال هذا العام .

ورغم ان الموقف في فلسطين بين العرب واليهود قد تدهور في نفس العام ١٩٤٧ وشهدت حوادث (ابريل) التي قامت بين العرب واليهود استياء العالم (١) واضطرت ازاءها بريطانيا ان تطلب مرة ثانية من الجمعية العامة للامم المتحدة ان تعقد دورة خاصة لتنظر الامر في فلسطين ، الا ان الجمعية العامة بتأثير من ضغوط الاستعمار في تحالفه ضد مستقبل الشعب العربي والفلسطيني لم يتيسر لها ان تجد مخرجا معقولا او مقبولا ، فحتى عندما طلبت الدول العربية الخمس التي كانت يومها اعضاء في الامم المتحدة ان تصدر الجمعية العامة قرارا بانهاء الانتداب البريطاني واعلان فلسطين دولة مستقلة لم يسفر الطلب العربي عن شيء سوى تعيين لجنة تتألف من احد عشر دولة لكي تدرس المشكلة الفلسطينية على ضوء من واقعها وذلك حين يتاح للجنة السماع والنظر لكل الاطراف المعنية .

وانتقلت اللجنة بالفعل الى منطقة الشرق الاوسط فعقدت عدة اجتماعات في القدس واستمعت الى ممثلي الحكومة البريطانية والوكالة اليهودية وقررت الهيئة العربية العليا مقاطعتها (٢) . ثم انتقلت اللجنة الى بعض العواصم العربية فاجتمعت الى رؤساء دولها وحكوماتها كما اجتمعت الى الامين

---

(١) انظر : « المقاومة العربية في فلسطين من ١٩٤٧ — ١٩٤٩ » للاستاذ (ناجي علوش) صادر من مركز الابحاث والدراسات الفلسطينية التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

(٢) انظر في دراسة تفصيلية عن الظروف التي كانت تحيط بالوطن العربي حين كانت لجنة الاحد عشر تدرس المشكلة في كتاب الاستاذ خيري حماد «قضايانا في الامم المتحدة» الصادر عن المكتب التجاري ، بيروت عام ١٩٦٢ .

العام للجامعة العربية ، وعندما شعرت انها قد استوفت ابحاثها عادت لتضع تقريرها الذي قدمته الى الجمعية في شهر تشرين الثاني « نوفمبر » من عام ١٩٤٧ م وفي بدء الدورة الثانية .

وقد انقسم اعضاء اللجنة الى فريقين ضم اولهما ممثلين عن : كندا واستراليا وبيرو ، وتشيكوسلوفاكيا ، وجواتيمالا ، والسويد ، وارغواي وقدم مشروعا سمي بمشروع الاكثرية وضم ثانيهما ممثلين عن الهند وايران ويوغوسلافيا ، وقدم مشروعا ثانيا دعي بمشروع الاقلية ، ويتفق المشروعان اللذان يقضي اولهما بتقسيم فلسطين الى دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية ويقضي ثانيهما بانشاء دولة اتحادية فلسطينية تشمل البلاد كلها على اسس وقواعد وجوب انهاء الانتداب البريطاني باعتباره في الاصل والاساس مصدر البلاء لهذه الارض ثم اعطاء البلاد الاستقلال بعد فترة انتقال قصيرة على ان ينتهي الانتداب والجلاء عن البلاد قبل اليوم الاول من آب « اغسطس ١٩٤٨ » وعلى ان لا يتعدى قيام الدولة الاتحادية او الدولتين اليوم الاول من تشرين الاول « اكتوبر » عام ١٩٤٨ ، وان تتولى لجنة خماسية تختارها الامم المتحدة من الدول الاعضاء ويراعي في اختيارها التوزيع الجغرافي في ادارة البلاد بالتعاون مع السلطات المحلية وتحت اشراف مجلس الامن الدولي وان تقوم اللجنة باقامة حكومة اتحادية موقتة او حكومتين مؤقتتين في الدولتين تتوليان اجراء الانتخابات العامة في غضون شهرين من جلاء قوات الدولة المنتدبة .

وتنص القواعد المشتركة في التقريرين ايضا على الاحتفاظ بالحقوق الراهنة في الاماكن المقدسة والابنية الدينية والمواقع الاخرى وعلى تأمين حرية المرور والزيارة الى هذه الاماكن المقدسة بالنسبة الى جميع الطوائف وعلى اعتماد الوسائل السلمية لاقرار اي حل بالنسبة لاية مشكلة من المشاكل وعدم اللجوء الى القوة او التهديد باستعمالها .

ويقع تقرير الاغلبية الذي اقرته الجمعية العامة في نحو من اربعين صفحة من القطع الكبير ويتضمن بعض القواعد العامة واربعة اقسام . يتناول القسم الاول منها الدستور المقبل وشكل الحكومة في كل من الدولتين العربية واليهودية ، وقد جاء في عدة اجزاء فرعية منها انهاء الانتداب والخطوات التمهيدية للاستقلال والاماكن المقدسة والابنية والمواقع الدينية والحقوق الدينية وحقوق الاقليات والرعوية والمواثيق الدولية والالتزامات

المالية والاتحاد الاقتصادي ، وحرية المرور والزيارة وموجودات الحكومة والعضوية في الامم المتحدة .

ويتناول القسم الثاني منها : الحدود ، وقد نص على ان تشمل المنطقة العربية « الجليل العربي من ارض فلسطين » ولواء نابلس ، والسهل الساحلي المتد من قرية اشدود حتى حدود مصر ، ولواء الخليل وجبل القدس وغور الاردن الجنوبي وتبلغ مساحة هذه المنطقة ١٢٠٠٠ الف كيلو متر مربع يقطنها ٦٦١ الف نسمة منهم ١١ الف يهودي و ٦٥٠ الف عربي ، ويملك اليهود فيها مائة الف دونم بينما يملك العرب ما تبقى من اراضيها.

وتشمل المنطقة اليهودية الجليل الشرقي ، ومرج ابن عامر والقسم الاوسط والسهل الساحلي ومنطقة النقب وتبلغ مساحة هذه المنطقة ١٤ر٢٠٠ كيلو متر مربع يقطنها ٩٩١ الف نسمة منهم ٤٩٦ الفا من اليهود و ٤٩٥ الفا من العرب ويملك العرب ثلثي مجموع مساحة اراضي هذه المنطقة وتشمل المنطقة الدولية مدينة القدس .

ويتناول القسم الثالث مدينة (القدس) وقد نص على اقامة نظام دولي خاص بها تتولى الامم المتحدة الاشراف عليه عن طريقمجلس وصايتها على ان تمتد المنطقة من شمال قرية « شعفاط » شمالا الى جنوب بيت لحم وبيت ساحور جنوبا ، ومن شرق « العبرية » شرقا الى غرب عين مكارم ودير ياسين غربا ، ويتضمن هذا القسم طريقة الحكم في المنطقة واهدافه واجراءات الامن والزيارة والرعوية وحماية الاماكن المقدسة على ان يستمر هذا النظام بصورة اولية مدة عشر سنوات تعود بعدها الامم المتحدة الى اعادة النظر فيه .

وتناول القسم الرابع قضية الامتيازات والضمانات وما شابهها .

اما تقرير الاقليه فيقترح قيام حكومتين احداهما عربية والاخرى يهودية تتمتعان بالاستقلال الذاتي على أن تتألف منهما دولة اتحادية باسم « دولة فلسطين » ويتولى ادارة الشئون السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها مجلس اتحادي يتولى أنتخاب رئيس الدولة الاتحادية ويضع الدستور الواحد ويقرر الرعوية الفلسطينية الواحدة ، وبعالج شئون الهجرة الى المنطقة اليهودية فقط .

وبدات الجمعية العامة في الثالث والعشرين من ايلول « سبتمبر »

مناقشة التقرير بشقيه . وقررت احالته الى اللجنة السياسية الخاصة التي قررت السماح في مستهل جلساتها بالكلام ومناقشة التقرير . وقد ألقى ممثل الهيئة العربية العليا خطابا مطولا شرح فيه القضية الفلسطينية من اصولها وما طرأ عليها من تطورات ، وبين الجوانب العادلة في حق العرب في بلادهم ، وانتهى الى رفض التقسيم ورفض الهجرة وقيام دولة يهودية في اي جزء من فلسطين ، واكد مطالبة العرب بقيام دولة فلسطينية واحدة على اسس ديمقراطية سليمة . وتحدث مندوب الوكالة اليهودية فشرح القضية من وجهة النظر الصهيونية واعلن قبوله بمشروع الاكثرية على ان تجري بعض التعديلات عليه ، بضم الجليل الغربي ومنطقة القدس الى حدود الدولة اليهودية ، واعلن استعداد القوات اليهودية المسلحة لملء الفراغ الذي سيحدثه جلاء القوات البريطانية فورا عن فلسطين .

وتعاقب المتكلمون في الجلسات التي استمرت عدة ايام وكان من اولهم الممثل الامريكي الذي تباكى على حالة اليهود وما يعانونه من اضطهاد من العرب بما لهم من دول مستقلة اصبحت اعضاء في الامم المتحدة وقال : ان حكومته تؤيد مشروع الاكثرية وان كانت تطالب ببعض التعديلات عليه لصالح العرب ليكون اكثر واقعية .

وتعاقب الوفود على الكلام . وبان ضعف العرب في المنظمة الدولية لا بالنسبة الى حقهم ، فقد كان هذا الحق صارخا في وضوحه ، وانما بالنسبة الى نفوذهم امام النفوذ الامريكي والسوفياتي (١) مجتمعين لا سيما وان امريكا قد اعلنت جهارا انها ستكافح وتناضل لاقرار التقسيم واقامة الدولة اليهودية مما دفع مندوب باكستان الى الوقوف ليحذر امريكا من هذا الموقف الذي سيقضي على كل ما لها من صداقات بين العرب والمسلمين . وتحدث المندوبون العرب وناشدوا الامم المتحدة في حقوقهم الانسانية وان لا تسير في ركاب الصهيونية التي تريد تسخيرها لخدمة اغراضها ولكنهم لم يشددوا في هجومهم على الاستعمار نفسه الذي كان اساس القضية وخالقها بل حصروا نطاق هجومهم في الصهيونية .

وايقنت بريطانيا ان خطتها تسير في طريق النجاح ، فأرادت ان توجه

---

(١) للاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٥٢ مواقف نضالية في مساندة الحق العربي وخاصة في قضية فلسطين بعد ان اصبحت الامة العربية في مصر تقود الحرب ضد الاستعمار .

الضربة القاضية وان تحول دون اي تردد ما زال يساور نفوس بعض الوفود فألقى مندوبها كلمة اكد افيها عزم حكومته على الجلاء فورا واصرارها على الاسراع فيه وعدم استعدادها للاشتراك في تنفيذ اي حل لا يقبل به العرب واليهود على حد سواء ، وطالب الامم المتحدة بالاسراع في اتخاذها ما تراه من حل لتضمن بقاء الاستقرار في البلاد المقدسة بعد ان تجلو قوات بـــلاده عنها ، واعلن في النهاية امتناع حكومته عن الاقتراع .

وكانت مفاجأة مذهلة للاعضاء شلت تفكيرهم وقضت على كل ما تبقى من تردد لديهم ، فالقوات البريطانية ستجلو وسيبقى هناك فراغ في البـلاد التي تضم فريقين وصل العداء بينهما حدا طاغيا ما لم تسارع الامم المتحدة الى اتخاذ قرار عاجل وليس امامها الا الخيار بين المشروعين . ولم تتوفـر الشجاعة الادبية عند بعض الدول التي كانت ترى الحق في جانب العـــرب لتطالب بانشاء دولة واحدة ، وتسليم البلاد الى اهلها وفرض هذا الحـــل المنطقي عن طريق الامم المتحدة على الفريقين فشرعت الوفود تتعاقب فـــي اعلان تأييدها للتقسيم وقيام الدولة اليهودية التي زعم ممثلها ان في وسعها ان تضمن الامن والاستقرار .

وهكذا وجد العرب انفسهم وحيدين في المعركة ولا يقف بجانبهم الا ممثلو الدول الاسلامية والهند وهم قليلو العدد .

وتقدم العرب بمشروع قرار الى اللجنة الخاصة يقضي بانشاء حكومة مركزية واحدة تتولى مؤقتا ادارة فلسطين كلها على ان يتم الجلاء البريطاني عن البلاد بعد سنة واحدة من قيام هذه الحكومة التي تتولى انتخابات عامة لجمعية تأسيسية تقوم بوضع دستور ديمقراطي للبلاد يلائمها على اساس وحدتها واستقلالها وتقدمت دول اخرى بمشروع قرار يقضي بانهاء الانتداب البريطاني واتمام الجلاء قبل اول آب « اغسطس » وان تقوم حكومتـــان مؤقتتان عربية ويهودية تشرفان على اجـــراء الانتخابـــات للجمعيتيـــن التأسيسيتين لوضع دستوري الدولتين ، ونص المشروع ان تكون حـــدود الدولتين طبقا لمشروع الاكثرية في تقرير اللجنة مع اجراء بعض التعديـــل بادخال يافا وبئر سبع في الدولة العربية .

وكان من الواضح ان المشروع يتوقف على بقاء القوات البريطانية سنة

واحدة حتى يتم قيام الحكومة الفلسطينية الواحدة . وفوجئت اللجنة وفوجيء العرب معها وكان بعضهم لا يزال يحسن النية ببريطانيا بمندوبها يعلن ان الجلاء سيتم في موعده المقرر اي قبل الاول من آب « اغسطس » وان حكومته ليست مستعدة لاحتمال اية مسئوليات جديدة ولا توافق على استخدام جيوشها بأية صورة من الصور في تنفيذ اي مشروع . واتضح للجمعية ان القصد من هذا الاعلان تدمير مشروع القرار العربي تدميرا كاملا وتعريته من اهم مقوماته ولكي لا يبقى هناك كاحتمال قائم الا مشروع التقسيم .

واقترعت اللجنة الخاصة على المشروع العربي في الرابع والعشرين من تشرين الثاني « نوفمبر » فلم تؤيده الا اثنتا عشرة دولة هي الدول العربية وافغانستان وايران وباكستان وتركيا وكوبا وليبريا ورفضته ٢٩ دولة في مقدمتها الولايات المتحدة (والاتحاد السوفياتي) والدول التي تؤيده ، وامتنعت عن التصويت ١٤ دولة منها بريطانيا .

وشرع رئيس اللجنة في عرض مشروع الاكثرية على الاقتراع فثار المندوبون العرب اعتراضا بعدم صلاحيته لفرض اي حل غير الاستقلال على شعب فلسطين دون رغبته وموافقته ، وطلبوا احالة القضية الى محكمة العدل الدولية لابداء الراي القانوني فيها ، وجرى الاقتراع على هذا الاقتراح العربي ففشل بالاكثرية . ثم اقترح العرب مجرد استشارة المحكمة في صلاحية النظر لفرض التقسيم دون استفتاء ، فاقترع على اقتراحهم من جديد ، وفشل ايضا ، وتقرر تأجيل الاقتراع على المشروع الى اليوم التالي أي الخامس والعشرين من تشرين الثاني « نوفمبر » ، وجرى الاقتراع بالفعل ففاز بالاكثرية ٢٥ مقابل ١٣ وامتناع ١٧ ، وهي الاكثرية لتضمن له النجاح في الجمعية العامة حيث يتعين اغلبية الثلثين التي لم تتحقق هنا ومع ذلك فلم تتوافر هذه الاغلبية الا بعد ان استعملت الولايات المتحدة كل ما لديها من نفوذ لتأخير نجاح المشروع ولتدخل مشروع الاغلبية الى الجمعية العامة وعادت سيرتها الاولى ، واستأنفوا جهادهم لاحباطه فلم يتركوا حجة ولا وسيلة ولا منطقا الا اتبعوها ، وتبين لجميع المراقبين ان المشروع لن يفوز باغلبية الثلثين وان التقسيم مقضي عليه بالفشل رغم انف امريكا وبريطانيا و (روسيا) بالنظر الى تحول عدد كبير من الدول التي كانت ممتنعة عن الاقتراع في اللجنة الى معارضة على لسان

مندوبيها في البيانات التي القوها ، فقد اعلن الجنرال روميليو مندوب الفليبين انه تلقى تعليمات من حكومته تقضي بالاقتراع ضد التقسيم ، ثم القى كلمة حمل فيها على المشروع ودافع عن حق شعب فلسطين في تقرير مصيره ، وانهى كلمته قائلا : ان حل مشكلة تخلص اوروبا من اليهود يجب ان لا يكون على حساب عرب فلسطين وفي اقامة دولة يهودية في بلادهم واعلن مندوب هايتي انه سيقترع ضد التقسيم لانه يعتبر هذا المشروع منافيا للميثاق والحقوق الدولية . واعلن مندوب سيام انه سيقترع ضد المشروع، كما اعلن ذلك مندوب ليبريا ، واعلنت دول عدة منها معظم الدول الافريقية انها ستمتنع عن التصويت اذ انها غير مقتنعة من عدالة المشروع .

واصبح من الواضح الجلي انه لن يحظى بتأييد غالبية الثلثين مطلقا هذا اذا لم يجابه بالفشل المطلق ولا يتمكن من الحصول على الاغلبية العددية .

وكان من المقرر ان بطرح المشروع للاقتراع النهائي في الجلسة السابقة تلك الليلة اي في جلسة السادس والعشرين من تشرين الثاني «نوفمبر» ، واتضح للصهيونية ولامريكا من ورائها ان مشروع القرار سيفشل اذا ما جرى الاقتراع تلك الليلة وفي هذا الجو وبذلك تضيع الجهود التي بذلها الاستعمار وبذلتها الصهيونية وستتحطم آمالها على صخرة الحق العربي الصارخ فهالتهما هذه النتيجة وقررا ان يبذلا جهدا مستميتا في آخر محاولة يقومان بها فلعلها تتوج بالنجاح وارتأيا كخطوة اولى تأجيل الجلسة ذلك المساء وعدم الاقتراع . وتقدمت احدى الدول المؤيدة باقتراح التأجيل معارضة للموقف العربي الذي يطالب بالاقتراع ، ودارت معركة غير متكافئة انتهت بالاقتراع على التأجيل او عدمه ففاز بالاغلبية البسيطة التي تتطلبها كأمر اجرائي بفارق ثلاثة اصوات ليس الا ، وكان اليوم التالي عيد الشكر عند الامريكيين وهو من اعيادهم الكبيرة ولكن لا يعتبر من الاعياد الرسمية في الامم المتحدة فيقرر رئيس الجمعية العامة لاول مرة في تاريخ الامم المتحدة ان لا يعقد اجتماعا للجمعية العامة في اليوم التالي (١) وان

---

(١) انظر : « قضايانا في الامم المتحدة » للاستاذ خيري حماده الصادر عام ١٩٦٢ عن المكتب التجاري ببيروت وهو دراسة جامعة عن اهم القضايا العربية في الامم المتحدة التي كانت تشغل ضمير العالم وتؤرقه مثل قضية فلسطين التي كانت ولا تزال ، وقضية الجزائر التي توج جهاد ابنائها بالتحرير والاستقلال وقضية عمان التي واصل ابناؤها ايمانهم بالحق والتحرر حتى كان لهم ما ارادوا .

يعقدها مساء اليوم الذي يليه وهكذا توفر اكثر من ثمان واربعين ساعة ساعدت للمناورات والمداورات والضغط ومحاولات الاقناع والتأثير. ويروي الذين شهدوا تلك المناورات في الامم المتحدة في « ليك سكسيس » ، اذ لم يكن المقر الحالي قد تم بناؤه بعد ، ان اروقة الامم المتحدة لم تشهد في تاريخها السابق ولا تاريخها اللاحق نشاطا كالذي دب فيها في تلك الساعات الثماني والاربعين ، وتركز الضغط في واشنطن على الرئيس ترومان عن طريق مستشاريه باروخ وناثان وسوب وغيرهم ولم يكن هو في حاجة لهذا الضغط . فقد كان ضالعا مع الصهيونية تماما ومؤيدا لها كل التأييد وقد اعترف بوقوع ضغط عليه فيما بعد ، وكان المخطط الاستعماري يملي عليه هذا الموقف ويملي عليه الحماسة في اتخاذه على الصورة التي كشف فيها عن نفسه وعن نواياه بشكل علني يحمل طابع الاستخفاف بالامم المتحدة وميثاقها وكرامة اعضائها وحريتهم في التعبير .

الاعلان عن قيام دولة اسرائيل :

من الملامح العامة التي وقفنا عليها في الصفحات السابقة فانه من البديهي ان المولد الحقيقي لدولة اسرائيل ليس هو يوم ١٥ من مايو عام ١٩٤٨م حين كان الانتداب البريطاني يطوي اوراقه في يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ اليوم الذي وقف فيه الرئيس الامريكي « ترومان » ليقول انه على استعداد للاعتراف «بدولة» اسرائيل اذا تسلم طلبا بذلك ، الامر الذي جعل من « الياهوايلات » الذي كان يمثل « الوكالة اليهودية » في ذلك الوقت ان يرسل الى الرئيس « ترومان » على الفور ويقول له : « اعلنت دولة اسرائيل كجمهورية مستقلة ضمن الحدود التي رسمتها الجمعية العمومية للامم المتحدة ، واخذت الحكومة المؤقتة على عاتقها ممارسة حقوق وواجبات حكومة لاقرار القانون والنظام ضمن حدود اسرائيل ، واني مخول من قبل الحكومة المؤقتة ان اقدم هذه الرسالة ولاعبر عن الامل في ان حكومتكم ستعترف وترحب باسرائيل . اقول ليس المولد الحقيقي لدولة اسرائيل هو يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ وانما مولد اسرائيل كقوة عدوان واسلوب قهر وسطو واداة للاحتكار قد كان منذ أراد الاستعمار البريطاني في مرحلة « والامريكي في مرحلة ثانية » ثم هما معا في تحالف وقيادة لحركة الاستعمار العالمي على المدى الطويل ان تكون دولة اسرائيل بزيف المعتقدات الدينية والظروف التاريخية التي تحيط باليهود اداة ترتبط بطبيعتها واسلوب تكوينها بالاستعمار كقوة متقدمة له

في قلب منطقة تكثر فيها احتياجاته وتتكالب عليها اطماعه ، فقبل يوم الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ وبزيف ما صنع الاستعمار قبل دورة في لجان الامم المتحدة واروقتها كانت الدولة توشك ان تكون حقيقة تمارس وجودها في ظل الدولة المنتدبة وقبل الاعلان عن المولد غير الشرعي منذ كان يتاح للجماعات اليهودية في ظل الانتداب ان تكون النقابات وتشكل الاحزاب وتقيم المنشآت الخاصة بأعمال الارهاب والسطو .

ولقد كانت دولة الانتداب منذ احتلت الارض العربية تسعى دائما لان تقيم كيانا يهوديا عنصريا يمارس اعماله واهداف المنظمة الصهيونية بدقة وعلى اسلوب مدروس فراحت تساعد في تأسيس « الهستدروت » (١) لكي يأخذ على عاتقه مهمة العمل من اجل استبطان اليهود في ارض فلسطين وخلق المجالات الاقتصادية التي تربطهم بالارض وكان نشاط «الهستدروت» الاقتصادي والسياسي ودوره في تشجيع وتطوير حركة استيطان الجماعات اليهودية في فلسطين يشكل قدرات حكومة دولة في ظل دولة الانتداب بل ان امر الوجود اليهودي كنتيجة لعوامل الهجرة المطردة في ظل تشجيع دولة الانتداب وعونها قد اخذ يحمل على عاتقه تحقيق اساليب ارهابية تعرض وجوده وتفسح الارض امامه ، (فالفرق) الارهابية التي تشكلت في ظل دولة الانتداب مثل « الهاجانا » و « البالماخ » و « الارغون » و «شترن» كانت قد استطاعت ان تجعل من نفسها قوة قهر وارهاب من المرغوب فيه عندها اعتمادا على ما صارت اليه من قوة ومنعة في ظل الاستعمار البريطاني وعونه ان تدخل معه في حوار بل وفي مواجهة ومطاردة اذا تصورت انه لا يعمل كلية في خدمة تحقيق الاطماع اليهودية فمنذ استطاع (فلادمير جابوتنسكي) الرجل ذو النزعة العسكرية الذي يعتمد على العمل بالقهر والدم ان ينشىء « الكلية اليهودية » ليلحقها بقوات الجيش البريطاني حين كانت تواجه اضطرابات القدس عام ١٩٢٠ م ولا يجد من يمنعه حين اصدار اوامره الى الكتيبة اليهودية بأن تعزف النشيد اليهودي وترفع العلم اليهودي وتحييه . ولا مانع أبدا من عصابة يهودية « كالارغون » مثلا وهى المنظمة العسكرية التي أخذت على عاتقها دورا مهما منذ عام ١٩٣٩ ، حين اصدرت بريطانيا الكتاب الابيض الذي اشرنا اليه ، والذي أوضحت

---

(١) انظر : « اسرائيل بين السير والمصير » تاليف الاستاذ (صابر طعيمه) ، الصادر عن مكتبة القاهر ةالحديثة ـ عام ١٩٧٢ م .

فيه كيف يمكن للدولة المنتدبة ان تعمل على تطوير الوجود اليهودي ، الامر الذي ضاق به التجمع اليهودي وراح بعد ذلك يصطدم بالقوى التي يستمد منها مصادر قوته وانتشاره بأمل المزيد من حرية الحركة وتقديم وسائل القوى والمنعة ليؤدي بهما دوره المنتظر يوم الاعلان عن الميلاد المصنوع ، وكان هذا الدور الذي قامت به عصابة « الارغون » كتأكيد للوجود اليهودي وقدرته على العمل والارهاب قبل مولد الدولة ما بين تصريحات رؤساء ونصوص قرارات هو البيانات والنشرات التي قدمتها للصحافة الاوروبية في سكراب عام ١٩٣٩ كتبرير لاسباب قيامها وطبيعة مكوناتها والدور الذي ستقوم به من ارهاب وقهر وبطش وعنف وتتلخص الاسباب التي نشرتها على الصحافة الاوروبية عصابة « الارغون » على حد ما أورده الاستاذ « بسام ابو غزالة » في كتابه « الجذور الارهابية لحزب حيروت » :

(١) ان غزو بلد « واستقلال امة مظاومة » لا يتوج ابدا بالنجاح الا حين تدعمه قوة عسكرية .

(٢) حوادث ١٩٢٠ ــ ١٩٢٩ اثبتت بالتأكيد نية العرب في استعمال العنف المسلح لمقاومة انشاء دولة يهودية وكان موقف اليهود السلبي امام هذا العنف تشجيعا للارهابيين العرب .

(٣) لا يمكن لنا ان نعتمد على قوة الانتداب البريطاني لقهر العنف العربي .

فان الادارة البريطانية هي ضد الصهيونية وضد اليهودية تماما وقد شجعت هذه الادارة العنف العربي لتبرر فسخ تصريح بلفور والانتداب وقد بلغت هذه السياسة ذروتها في كتاب « مكدونالد » الابيض في ايام عام ١٩٣٩ .

(٤) ستكون فلسطين في حالة الحرب نقطة استراتيجية ذات اهمية بالغة للديمقراطية الغربية وفي اثناء الحرب سيكون حق اليهود التاريخي والقانوني والعاطفي في فلسطين اقل احتراما من جانب بريطانيا وانه بالاحتفاظ بقوة مسلحة للدفاع عن فلسطين سيكون في مقدورنا ان نحتل مركزا يجعل بريطانيا تقبل بايجاد دولة يهودية .

ولقد كانت المنظمات الارهابية في فلسطين تحت سمع وبصر الانتداب البريطاني، الحال الذي جاءت بعده «الارغون» عام ١٩٣٩ وارادت ان تجعل

من وجودها واسلوب عملها قوة تستطيع ان تنقض حتى على الوجود البريطاني في فلسطين اذا لم يعمل كلية في خدمة الارهاب الصيهوني ، وتتخذ هي من الاساليب الارهابية والمواجهات السياسية ما يؤكد ما ندهب اليه من ان الوجود الصهيوني في فلسطين في ظل الانتداب البريطاني كان قد اصبح قوة تمارس تحقيق الاماني العنصرية المتطرفة فقد كانت «الارغون» لا تتورع عن ان تجعل موضوع مكوناتها السياسية هو خريطة فلسطين وشرقي الاردن وتتخذ لهذا الهدف شاره تعبر عن طريقها في تحقيق الامل والهدف باسلوب لم يكن عند عصابة « الارغون » من بديل سواه حين رمزت اليه بالبندقية التي تقبض عليها يد يمنى مغلفة بعبارة « راك كاح » هكذا فقط وهكذا فقط تكون عمل العصابات الصهيونية تحقيقا لمشاعر التعصب والعنصرية وتعبيرا عن عقد النقص التي تحيط بكل تاريخ اجيال دعاة التطرف والانانية من ابناء صهيون .

نعود الى ما كنا بصدد الحديث عنه وهو ان مولد دولة اسرائيل في ١٥ مايو عام ١٩٤٨ كان مجرد شارة الوجود الاسرائيلي الذي كان يتمدد ويتعاظم في ظل قوة الانتداب قبل الاعلان عن وجود الكيان الاسرائيلي فلما كانت المراحل الزمنية السابقة قبل الموعد المتفق عليه للاعلان عن هذا الكيان جاء الاستعمار الامريكي وحمل نوبته وأدى دوره في خدمة مصالحه اولا ثم وركوبه حركة الاستعمار العالمي وتأكيد سيادته عليها ثم تعبيرا عن زيف ما صنعت الاطماع الصهيونية في العقل الاستعماري من تضليل حين راحت القوى الصهيونية تقدم في مكر وخبث ودهاء اطماعها واماثيها في ثوب صاحب الحق والدين والتاريخ الذي يود أن يعيش في كنف السادة الاقوياء .

وقبيل الاعلان عن مولد الدولة كان الجهد الاستعماري الامريكي عجيبا للغاية ، ذلك ان الولايات المتحدة « بجلال قدرها » قد أرادت ان تأخذ دورها بالفعل خلفا لبريطانيا في صنع « دولة اسرائيل » ، ففي صيف عام ١٩٤٥ أرسل الرئيس الامريكي « ترومان » الى الحكومة البريطانية يعاتبها على عقدها العزم ان توقف او تخفف من هجرة اليهود الى فلسطين نظرا لسوء الحال الذي اصبحت عليه فلسطين كنتيجة للهجرة ويطالبها بفتح ابواب فلسطين والسماح بالهجرة لمائة الف يهودي في الطريق الى فلسطين ولم تأت بريطانيا العظمى الشجاعة ان تجابه الموقف الامريكي

المفاجيء حين أدركت ان هذه المطالبة بزيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين بقدر ما هي اعتداء امريكي بلا مبرر على الارض العربية فانما هي منافسة ايضا للسياسة البريطانية وانما راحت وفي استسلام خانع على لسان وزير خارجيتها تصدر بيانا يوم ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٤٥ تعلن فيه : ان الحكومة البريطانية دعت حكومة الولايات المتحدة لتاليف لجنة تحقيق مشتركة تعيد النظر في القضية الفلسطينية .

وبالفعل تشكلت اللجنة المشتركة والتي تألفت من كبار الصهاينة في الولايات المتحدة امثال « جوزيف هتشسن » و « جيمس ماكدونالد » و « يانللي كروم » و « فرانك بكستين » و « فرانك ايدلوت » (١) ووليم فيليب ، وبدأت اللجنة طوافها باوروبا اعتبارا من يوم ٤ فبراير ١٩٤٦ للاطلاع على شئون اليهود في المانيا والنمسا وبولونيا وايطاليا واثينا .

ومن عجب ان هذه اللجنة الصهيونية كانت تعرف تماما المهمة التي من اجلها شكلت حين كان الباعث لها ارضاء للموقف الذي اتخذه الرئيس ترومان بطلب المزيد من الهجرة اليهودية الى فلسطين فأرسلت اليه هذه اللجنة تقريرا مبدئيا قبل ان تغادر اثينا متجهة الى القاهرة يوم ٢٩ فبراير عام ١٩٤٦ تقترح ضرورة هجرة اللاجئين اليهود في فلسطين في الحال .

يقول الاستاذ « سامي حكيم » في البحث السياسي الذي كتبه بعنوان « أمريكا والصهيونية » :

وصلت اللجنة الى القاهرة في بداية جولتها بالشرق العربي وفلسطين بعد ان اعلنت موقفها في صراحة ووضوح ثم عادت الى جنيف حيث اعلنت تقريرها يوم ٢٠ من ابريل ١٩٤٦ الذي قلبت فيه الحق والعدل وسايرت مطالب ترومان عندما أوصت بادخال مائة الف يهودي مهاجر وعدم جعل هجرة اليهود مرهونة بموافقة العرب لان اليهود لا يرغبون في الهجرة الى فلسطين .

---

(١) للكاتب البحالة الاستاذ (سامي الحكيم) الذي كان يعاصر كل هذه المرحلة بحكم عمله دراسة موسعة عن هذه الحالة ودور القوى الاستعمارية فيها من اجل انشاء دولة اسرائيل انظر كتابه « امريكا والصهيونية » الصادر عن مكتبة (الانجلو المصرية) في اغسطس عام ١٩٦٧ .

وطلبت اللجنة في ابتذال منها من العرب ان لا يمانعوا في هذه الهجرة « استجابة للبواعث الانسانية » في الوقت الذي انكرت فيه هذه البواعث بالنسبة للعرب الذين حلّ بهم البلاء والتشريد والحرمان .

ورغم ان اللجنة قد قالت « ان صلة اليهود بفلسطين تاريخية قديمة وان العرب اصحابها وانهم الاكثرية العظمى فيها الآن الا انها ساوت في الموقف بين العرب واليهود تمكينا لوضع يرضي اليهود وذلك عندما طالبت بالقضاء على دعوى الفريقين على السواء بأن فلسطين لهم وحدهم وبألا تكون فلسطين دولة عربية ولا دولة يهودية بل دولة يتسنى فيها التوفيق بين الاماني المشروعة لكل من العرب واليهود وانه لا يجوز ان تكون الكلمة العليا في هذه الدولة للاغلبية العددية » .

ومن عجب ان هذه اللجنة التي بدات اعمالها في ٤ فبراير عام ١٩٤٦ حين اتجهت الى اوروبا للاطلاع على احوال اليهود فيها قد اوصت ارضاء لدور الولايات المتحدة في تحقيق اطماع ـ الدولة المنتدبة ـ بريطانيا ـ بابطال كل ما من شأنه ان يحدد او ينظم بيع وانتقال او استيلاء اليهود على الاراضي ، ثم قامت الولايات المتحدة في نفس العام ١٩٤٦ قبل مولد الدولة بضغط على بريطانيا من اجل تحقيق قرارات « لجنة التحقيق » وفي يوم ٢٠ من مايو عام ١٩٤٦ لم تخجل الولايات المتحدة من توجيه نظر البلدان العربية الى ان الولايات المتحدة تنظر باهتمام الى ضرورة تحقيق قرارات اللجنة .

وأمام رد الفعل الفلسطيني على وجه الخصوص فشل «مؤتمر لندن» الذي عقد من نفس العام في سبتمبر ١٩٤٦ والذي كان يهدف من ورائه الاستعمار البريطاني والامريكي وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية ولمدة خمسة اعوام وعلى اساس اباحة الهجرة اليهودية لفلسطين ، الا ان ترومان رئيس الولايات المتحدة ظل يقود التيار الصهيوني المتعصب واستغل فرصة فشل المشروع وطالب بريطانيا بادخال ١٥٠٠ يهودي كل شهر الى فلسطين.

وظل الاستعمار الامريكي يطور من جهود ـ الصهاينة ـ وامكانياتهم حتى ارسلت بريطانيا في يوم ٢ ابريل عام ١٩٤٧ الى الامم المتحدة تطلب عقد دورة استثنائية لمناقشة قضية فلسطين ، وتم عقد الدورة في ٢٨ من ابريل

حتى ١٥ مايو وهو الاجتماع الذي قد تشكلت بناء على توصياته — رغم الرفض العربي — اللجنة المكونة من احد عشر دولة والتي بدات تمارس مهمتها منذ وصولها الى (القدس) في ١٧ من يونيو عام ١٩٤٧ م وهذه هي اللجنة التي اشرنا الى الدور الذي قامت به والى تفاصيل قراراتها حول مستقبل فلسطين وهي القرارات التي لم تكن سوى استجابة لتوجيه الاستعمار الامريكي البريطاني وارادته في تمزيق الارض العربية بادئا بتقسيم فلسطين .

الامم المتحدة وتقسيم فلسطين :

بعد أن قامت اللجنة التي شكلت بقرار من الامم المتحدة لدراسة الحال في فلسطين عرضت تقريرها الذي ينقسم الى رايين اشرنا اليهما في صفحات سابقة بالتفصيل وكان احدهما يقسم فلسطين الى دولتين على ان تكون المنطقة اليهودية مشتملة على الجليل الشرقي ومرج بن عامر ومعظم السهل الساحلي والنقب وكان الراي الثاني يحبذ انشاء نظام فدرالي في فلسطين .

ولما عرض التقرير على الامم المتحدة في اجتماع عادي يوم ١٦ سبتمبر ١٩٤٧ كان الاستعمار الامريكي بالذات بكل جبروته يومها في انتظار التقسيم لاقراره .وفق الظروف التي تراها الولايات المتحدة اقول من اعجب العجب بل انه ليثير دهشة الانسان وحيرته هذا الذي حدث حين قدمت لجنة الاحد عشر قرارها الى الامم المتحدة ، فطبقا لاسلوب العمل المتبع في المنظمة الدولية كان لا بد لكي يمكن عرض القرار لاقراره ان يحال اولا الى اللجنة السياسية التي تنظر القضايا الهامة ، الا ان الولايات المتحدة اصرت على ان يحال القرار الى لجنة خاصة القيت اليها التوجيهات بأن تصرف النظر عن كل ما لا يتعلق « بتقسيم فلسطين » ، ولما كان هناك اكثر من وجهة نظر حول حدود الدولة اليهودية المقترحة كانت الولايات المتحدة في شخص رئيسها « ترومان » اداة طيعة في خدمة الاطماع الصهيونية وخاصة فيما يتعلق بالحدود المقترحة وقبل ان تستقر اللجنة على صياغة القرار كانت ستبعد منطقة « العقبة » ومنطقة « النقب » من حدود الدول اليهودية المقترحة ، وجاء « حاييم وايزمان » القطب الصهيوني الطامع المتعصب والذي كان على مقربة مباشرة مما يجري داخل اروقة الامم المتحدة وطلب

ان يقابل في ١٩٤٧/١١/١٩ الرئيس الامريكي « ترومان » لكي يوضح لـه اهمية ان تكون « العقبة » و « النقب » ضمن حدود الدولة المقترحة .

ومن عجب ان « حاييم وايزمان » في كتابه الشهير « التجربة والخطأ » قد كتب يسجل لقاءه بالرئيس الامريكي « ترومان » ومطالبته بأن تكـون « العقبة » و « النقب » في حدود الدولة المقترحـة فقـال : « ان ترومـان استقبلني بكل ضروب الحفاوة والود ثم تحدثت اليـه في أهميـة النقـب والعقبة بالنسبة « لاسرائيل » والضرر الذي يعود عليها من تقسيم «النقب» وعرضت عليه المشروعات الصهيونية حـول ضم العقبـة وأوضحت له ان مصر ستغلق قناة السويس اذا امتلكتها في وجه الدولة اليهوديـة وكذلـك بالنسبة للعراق الذي سيقيم العراقيل في الخليج العـربي وحتـى يمكـن التغلب على هذه المصاعب لا بد من انشاء قناة الى « تل ابيب » فالعقبـة ولهذا فاننا ندرك اليوم الذي تنشأ منه القناة من البحـر المتـوسط الـى العقبة ، وهو المشروع الذي أقره المهندسون الامريكيون والسويديون » .

واذا ما لاحظ المرء ان طلب وايزمن بضم العقبة والنقب كان في اثناء زيارته للرئيس « ترومان » يوم ١٩٤٧/١١/١٩ وقرار التقسيم الذي جـاء مشتملا في حدود الدولـة اليهودية على النقب والساحل الفلسطيني كلـه عكا وحيفا ويافا والحولة وصور وطبريـه وبيسان والعقولة كان في يـوم ١٩٤٧/١١/٢٩ اي في خلال فترة وجيزة جدا لم تكن تكفـي لمشورة احـد او سماع وجهة نظر او تعبئة موقف لادرك على الفور كيف كان الاستعمـار الامريكي يقود القوى الاستعمارية والصهيونية من أجـل تحقيـق تمزيـق الارض العربيـة واستعمارها بالاستيطان اليهـودي ، ولقـد بلـغ العنف الاستعماري من اجل تحقيق اطماع « صهيون » حدا جعل مـن الـرئيس الامريكي « ترومان » ان يقوم بنفسه بالاتصال ـ تليفونيا ـ بالوفد الامريكي في الامم المتحدة ويبلغه بضرورة العمل على ضم العقبة والنقب الى الدولة اليهوديـة .

وهكذا كانت ارادة الاستعمار في ان يصنع لـه وجـودا متقدمـا في الارض العربية يثب من عليه الى مصالحه واطماعه .

الم اقل ان الاعلان عن مولد الدولة كان متأخرا عن مراحل وجودهـا

الحقيقي حين كانت على الارض العربية الجماعات اليهودية الصهيونية تمثل نزعةالارهاب وارادة الاستعمار ضد الشعب العربي وقد كان وجاء ميعاد مولد الدولة حين كانت الامم المتحدة بكل امل الانسان المعاصر فيها من جراء حربين عالميتين تجتمع لكي تسلب من شعب ارضه وتصنع منها قاعدة للاطماع والعدوان وللاستعمار والتوسع كان ذلك حين صدر قرار تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية في التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٧ م فكيف كان قرار التقسيم ؟

دور الامم المتحدة في تقسيم فلسطين :

من الخطأ الشائع بل ومن الاستسلام الخانع ايضا لهذا الخطأ ان يظل هناك من يقول كما قيل سابقا ان الامم المتحدة هي التي درست مشكلة فلسطين منذ احالتها اليها دولة الانتداب فشكلت الامم المتحدة عشرات اللجان التي عقدت مئات الاجتماعات ثم انتهى الامر بأن قسمت فلسطين الى دولتين عربية ويهودية ، وهذه الدعوى دعوى ان تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ قبل الاعلان الرسمي عن مولد الدولة اليهودية على الجزء المخصص لها في التقسيم قد تم بارادة الامم المتحدة وبأنها حسما لمشكلة الصراع على ارض فلسطين انما تريد ان تصنع شرعية دولية على الارض المتصارع عليها وهذه الشرعية مصدرها منظمة عالمية هي امل الانسان المعاصر بمبادئها وقراراتها، فالواقع الحي الذي تسجله نصوص وقرارات مكتوبة بل واشخاص استيقظ عندهم بقية من ضمير يرفض هذه الدعوى التي تساق لتضليل الراي العام العالمي لصرف انظار العالم عن حق شعب فلسطين في كامل ارضه ووحدة الشعب العربي في كل تراب وطنه .

فالذي حدث قبيل الساعات التي صدر فيها قرار التقسيم كان عجبا للغاية ذلك ان الجنرال « روبيلو » مندوب الفلبين قد صرح قبل الاجتماع الذي تقرر في ١٩٤٧/١١/٢٦ للاقتراع على قرار التقسيم ، هذا الاجتماع الذي كان خاتمة لسلسلة طويلة من الاجتماعات التي قامت بها عدة لجان داخل أروقة الامم المتحدة وقال : ان مشكلة اوروبا وهي تود ان تلفظ اليهود وتتخلص منهم لا يكون على حساب مستقبل عرب فلسطين في اقامة دولة يهودية في بلادهم (١) ...

---

(١) انظر : كتابتنا : « الصهيونية في التاريخ » في المبحث الخاص « بامريكا في فلسطين » وعند الفصل المعنون : « الاتجاه العام ياخذ طريقا مضادا » ، ص ١٨١ .

ثم اضاف بان لديه تعليمات من حكومته بأن يقترع ضد تقسيم فلسطين . ثم اعلن مندوبو هايتي ، وسيام ، وليبريا ان لديهم تعليمات من حكوماتهم بأن يصوتوا ضد تقسيم فلسطين ، وكانت هذه هي الصورة العامة قبل الاجتماع الذي كان مقررا في ١٩٤٧/١١/٢٦ الذي صدر فيه القرار حتى كانت هذه الدول قد أصدرت أوامرها تحت ضغط امريكي بالوعيد والتهديد الى وفودها بان تصوت لصالح تقسيم فلسطين الى دولة عربية واخرى يهودية وكذلك كان موقف وفود دول كثيرة مثل ارجواي ، والاكوادور ، فقد استجابتا للضغط الامريكي واصدرتا اوامرهما الى وفودهما بضرورة التصويت على تقسيم فلسطين ، وتحت ضغط استعماري امريكي ، فلم يكن هناك قوة استعمارية تخطط لاطماعها في العالم مثلما يخطط الاستعمار الامريكي لمصالحه ، رضخت دول من غرب اوروبا مثل بلجيكا وهولندا ولوكسمبرج .

ويوم الاجتماع المقرر ١٩٤٧/١١/٢٦ لم يكن الاستعمار والصهيونية قد استطاعا ان يجندا الرأي العام العالمي في كل الوفود الدولية للحصول على الاكثرية المطلوبة لاقرار مشروع تقسيم فلسطين .

غير انه في يوم ١٩٤٧/١١/٢٦ وقبل ان تضيع فرصة ذهبية من ايدي الاستعمار الامريكي أصدر الوفد الامريكي الى رئيس الجمعية العمومية وكان يومها رئيس وفد الارجنتين أوامره بأن يؤجل التصويت على القرار الذي هم بصدده ، ثم أوعز الوفد الامريكي الى مجموعة من الدول بأن تتقدم هي الاخرى بطلب التأجيل على الاقتراع الى ما بعد اليوم التالي لانه يوافق « عيد الشكر » ، ودارت معركة سياسية بين الوفود حول موضوع « التأجيل » . كانت الوفود العربية على ضآلتها هي التي تقود المعركة مطالبة بعدم التأجيل وتحت ضغط امريكي صهيوني انتهى الامر الى تأجيل الاجتماع في خلال يومين من بدء التأجيل الى يوم ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧ صدرت الاوامر من واشنطن الى ممثلي الدول التي اتضح ان وفدها يعارض التقسيم او ستمتنع عن التصويت انه ما لم يتغير موقف بلادها من الامتناع عن التصويت او التصويت ضد التقسيم فان الولايات المتحدة ستعيد النظر في كل انواع العلاقة القائمة بينها وبين هذه الدول ، واستطاع الرئيس الامريكي « ترومان » وبجهود مساعديه من أمثال «باروخ» و « سوب » و « ناثان » ان يقود اسلوبا رهيبا شل فكر الرأي العام العالمي وقلبه ، فلما كان يوم ١٩٤٧/١١/٢٩ طرح مشروع التقسيم فنال الاغلبية

المطلوبة بان قوبل بالموافقة من ٣٣ صوتا ضد ١٣ عارضوا التقسيم و ١١ صوتا امتنعوا عن التصويت .

وهكذا صدر القرار اللعين بتقسيم أرض فلسطين ، ولم تكن هناك قوة داخل الامم المتحدة او خارجها بقادره على ان توقف من الاندفاعة المحمومة التي انطلق بها الاستعمار الامريكي يشل كل ارادة تود ان تجابه الاطماع وترفضها حتى كان التقسيم للارض العربية الفلسطينية ، ولقد خرج مندوب كندا من الاجتماع ليخفف من عذاب ضميره ويقول : « لقد ايدنا المشروع بقلوب مثقلة بالالم مفعمة بالشكوك » .

وقسمت ارض فلسطين بهذا القرار في ١٩٤٧/١١/٢٩ . ويأتي الاستعمار البريطاني هو الآخر ليكمل باقي حلقات التآمر ويعلن انهاء الانتداب البريطاني من على ارض فلسطين بعد بضعة اشهر في ١٤ مايو عام ١٩٤٨ واضعا كل امكانيات دولة الانتداب في خدمة دولة صهيون المرتقبة كي يكون المجال ميسرا بانهاء الانتداب بعد قرار التقسيم ليأتي الطرف الذي يهمه أمر التقسيم (الحركة الصهيونية) باعتباره مغنما له ويعلن عن قيام « دولة اسرائيل » في ارض فلسطين يوم ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ، ولم يكن هذا الاعلان يعني اكثر من أن مقدمات العدوان اصبحت قوة متقدمة طامعة ومتوسعة بحكم مكوناتها وطبيعتها ومرتبطة بالاستعمار وجزءا منه بحكم ولائها ومصلحتها ، لذا كان على الاستعمار ان يعبىء كل امكانياته وموارده من اجل الحفاظ على قواعده وقواه اذا ما تعرض جزء منه للاقتلاع كرد فعل من زيف وباطل ما صنع بالغدر والحيلة والعدوان .

وهكذا كان بالفعل الدور الرئيسي الذي أداه الاستعمار العالمي في خدمة العدوان والتوسع في ارض فلسطين قبل الاعلان عن الكيان المصنوع وبعده فما أن أدركت الشعوب العربية ان تآمرا قد وقعت فيه وان تحالفا استعماريا ضدها قد وجه اليها بالفعل منذ آلت الامور الى الحد الذي أعلن فيه الاستعمار عن مولد (١) دولة اسرائيل في فلسطين يوم ١٥ مايو

(١) من الجدير بالذكر ان هناك مواقف تشبه حالات التلبس بالجريمة يقع فيها الاستعمار كثيرا فمثلا يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ عقب الاعلان البريطاني عن انهاء الانتداب عن فلسطين وجه الاستعمار انظار العالم الى ما سيقوم به مما يبيت له واعد من اعلان عن « دولة اسرائيل » في الجزء الذي صنع بالقهر والعدوان للاطماع الاستعمارية فقد قال «ترومان» انه على استعداد للاعتراف باسرائيل اذا تسلم طلبا بذلك الامر الذي جعل من « اليا ايلات » ممثل الوكالة اليهودية يسارع الى الرئيس الامريكي « ترومان » ليبلغه بانه قد اعلنت دولة اسرائيل جمهورية مستقلة ضمن الحدود التي رسمتها الجمعية العمومية للامم المتحدة .

١٩٤٨ ، فقررت الشعوب العربية ان تدخل جيوشها فلسطين لتنقذ الارض العربية من اثم ما يصنعه الاستعمار بأبنائها من قتل وتشريد .

وما أن تمكنت القوات العربية رغم هزالها وارتباط حكوماتها بالولاء والمصلحة مع الاستعمار الذي كان يتغلغل في الارض العربية برأس ماله وهيئاته ومؤسساته ان تنطلق مع بزوغ فجر يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ لتسيطر على اريحا والقدس وباب الواد واللطرون واتجهت نحو اللد والرملة واقتربت من تحرير تل ابيب لتندفعهذه القوات العربية منالسهلالساحلي من غزة الى اشدود ومن طولكرم ، وقلقيلية ، وجنين ، ونابلس والخليل حتى اسرع الاستعمار العالمي ينادي بعضه البعض تحت توجيه وضغط القيادة الامريكية التي اوعزت الى كولومبيا يوم ١٦ مايو من عام ١٩٤٨ لكي تقدم طلبا الى مجلس الامن لدعوة الدول الخمس الكبرى الى التشاور فيما اسموه الهجوم العربي على فلسطين ، وواصل الاستعمار في قوة داهمة العمل على حمايته ورعايته للكيان الذي صنعه واوشك الخطر ان يحل به ، ففي اليوم التالي قدم مندوب الولايات المتحدة الى مجلس الامنمشروع قرار طلب فيه أن يعلن المجلس بأن الموقف في فلسطين يعد تهديداً للسلم وان على جميع السلطات والحكومات الكف والامتناع عن كل عمل عسكري واصدار الاوامر بوقف القتال خلال ٣٦ ساعة بعد اقرار المشروع، واستطاع الاستعمار بجهوده ان يقر المشروع حتى يجد فسحة من الوقت يعزز الكيان المصنوع ويضاعف له مسببات حمايته وهذا هو ما كان حتى أصبح هذا الكيان بالقوة المسلحة دولة للتهديد الاستعماري في الارض العربية كلها وأداة للبطش والعدوان ضد أمل الانسان العربي في أن يحيا بالحق والعدل.

اسرائيل والاطماع الاستعمارية :

لما كانت القوى السياسية الصهيونية التي عملت على انشاء دولة اسرائيل في فلسطين تدرك تماما نوع علاقتها بحركة الاستعمار العالمي الذي تكاتف معها في محاولة لقهر الضمير العالمي وقتله حتى يتيسر له العمل على اقامة هذه الدولة فانه كان من الضروري ان تعبر السياسة العامة لهذه الدولة عن سياسة الاستعمار وأهدافه ، هذا في الوقت الذي تعمل فيه السياسة الصهيونية من خلال معتقداتها السياسية على تحقيق امانيها ودعواها العنصرية ، وهذا هو الدور الذي تقوم به دولة أسرائيل في الارض العربية بالفعل .

فقد راحت تخدم الاطماع الاستعمارية مـن حيث تمثـل في موقعهـا العدواني قوة عدوان بين قارتي آسيا وافريقيا ، ولما كان الاستعمار امـام مواجهة حركة التحرير العالمي والتي ابتدات تدفع وتسائد القوى الوطنيـة على ارض آسيا وافريقيا قد اضطر ان يغير اشكاله وألوانه واساليبه ، فكان لا بد وان تكون قواه في اسرائيل اداة قوية وعصرية في هذا الدور الجديد ، وكان من المنطقي والعلاقة بين الاستعمار واداته اسرائيل ان كـلا منهمـا يعمل وفق التعبير عن سياسة الاطماع والاستغلال التي التقيـا عليهمـا ان تصنع اسرائيل لها ارضا للاطماع والتوسع حين يوجهها الاستعمار الىالقيام بدورها الطبيعي في خدمة سياسة العـدوان والاحتكـار في اسواق الارض العربيـة .

وعلى أساس من هذه الاستراتيجية التي تربط بين اهداف كل مـن الاستعمار ودولته « اسرائيل » فقد ذهبت اسرائيل مثلا منذ بداية الاعـلان عن الدولة تقتل في الروح العربي كل مقاومته ورفضه لهذا الوجود الاجنبي وذلك بما قامت به القوى العدوانية التي تصنع كيان اسرائيل من القتـل والتدمير والابادة ضد الشعب العربي في فلسطين ، وان سجل الدم الـذي اراقته قوى العدوان على الارض العربية ضد الشعب العربي لدليل علـى ارادة العدوان وهدفه من جهوده في ان يخلق روح التخـاذل والاستسلام لاطماعه في أمة العرب ، فمذابح « بيت الخوري » يوم ٥ مايو ١٩٤٨ ومذابح قرية الزيتون قرب صفد ٦ مايو ١٩٤٨ ومذابح « بيت دارس » عند منطقة غزة في ١٣ مايو ١٩٤٨ ومأساة وادي عربة الذي يقع بين البحر الميت وخليج العقبةوهو صحراء قاسية لا ماء فيها ولا نبات حين سيق العربالفلسطينيون في افواج ضخمة للاعتقال والتعذيب ، ومذابـح قريـة « شرفات » فيارض الاردن ومذابح « فلمة » في ٩ فبراير سنة ١٩٥١ ، ومذابح قرية النجـار التى دمرت بالقنابل في ١١ يوليو سنة ١٩٥١ ، ومذابح عيد الميلاد في منطقة « بيت لحم » في ٦ يناير ١٩٥٢ ، ومذابح قبية في ١٤ اكتوبر ١٩٥٣ ، وتدمير قرية « نحالين » الاردنية (١) ، فضلا عن العدوان المتكرر كـل يـوم على جنوب لبنان وقراه سنة عدوان اسرائيل الواسع في عام ١٩٦٧ م .

---

(١) نحن نورد نماذج من العدوان شائعة ولمزيد من التفاصيل من الممكن الرجوع الى (اعمال اسرائيل الانتقامية ضد الدول العربية) كمصدر موسع للعدوان فيما بعـد عام ١٩٦٧ للدكتور « محمد المجذوب » صادر عن منظمة التحريـر الفلسطينية ، مركز الابحـاث عـام ١٩٧٠ .

وهذه الروح العدوائية التي بدأت بها دولة اسرائيل وجودها كانت الدليل الحي على طبيعة كيانها ومقوماتها وعلاقاتها بالاستعمار في خدمة أهدافه ومن بينها ان تقتل روح الحياة والامل في قلب الشعب العربي كي لا يفكر في خيرات ارضه او في غده بالحق والعدل .

ولما أراد الشعب العربي في مصر ان يغير وجوده الاجتماعي والاقتصادي تخلصا من مرحلة التخلف والتناقض التي فرضها عليه الاستعمار وراحت قوى النضال الوطني في مصر تصنع عماد الاقتصاد الوطني وكان من بين ما لجأت اليه من مصادر انتاج ومرافق تطوير الاقتصاد تأميم (قناة السويس) ، أدرك الاستعمار ودولته « اسرائيل » إبعاد مرحلة تقدم عليها الامة العربية من مصر لاجتياز عصر الارتباط بالاستعمار والتخلف فكان العدوان الشهير عام ١٩٥٦ م ، والذي لم يكن في مضمونه او هدفه اكثر من انقضاض مبكر في سياسة الاستعمار تقوم به أداته اسرائيل في المنطقة العربية .

ولما استطاعت الامة العربية على امتداد وجودها في ارض القارتين الكبيرتين آسيا وافريقيا ان تتقي ضربة (السويس) عام ١٩٥٦ وان تخرج الى الوجود لتأكيد ذاتها في حياة عربية ثورية وتجاهد في ان ترفض السيطرة والاستغلال وما يتعلق بهما وراحت تبشر وتقود بل وتقاتل من اجل قضية العدل الاجتماعي بالنضال ومد يد العون لشعوب فرض عليها الاستعمار كل صور الاستغلال والاحتكار والسيطرة ذهب الاستعمار بأدواته في الارض العربية وراح يضيق السبل على دعوة الحق والحياة وهي تقتحم على الاستعمار ظلام ما صنع في مواقع كثيرة من ارض شعوب آسيا وافريقيا .

وكان الاستعمار عن طريق اداته (اسرائيل) يتواجد في قلب آسيا وافريقيا كي يحقق اهدافا كثيرة ، فهو اولا قد غير من اساليبه الحادة السافرة ولجأ الى اسلوب تقديم المعونة والخبرة عن طريق اداته اسرائيل التي أمكنها ان تتسرب مثلا الى افريقيا عن طريق الخبراء من الاطباء في الفترة من ١٩٥٨ – ١٩٦٦ والتي بلغ فيها الوجود الاستعماري الاسرائيلي في افريقيا وحدها حوالي ١.٠٩٨٠ خبيرا كانوا هم الارض التي تحركت عليها الصادرات الاسرائيلية الى افريقيا .

وفي اعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ مثلا كانت الصادرات الاسرائيلية الى افريقيا بالدولار على الوجه التـالي : ١٠٧٢٩ ـ ١١٥٦٤ ـ ١٢٧٣٩ ـ وكانت وارداتهـا في نفس الاعـوام بالدولار ايضا : ١٩٩٢٥ ـ ٢٢٠١٥ ـ ٢٦٨٦٧ ـ ولم يكن هذا الاسلوب الاستعماري الذي تقوم به اداة الاستعمار الا لكي تقفل الاسواق امام الشعب العربي فلا يبيع ولا يشتري حاجته كي تظل قوة الاحتكار العالمي قوية ومسيطرة .

ولما اصبحت سياسة الامة العربية ممثلة في قوى وطنيـة وقوميـة تتحمل تبعات المواجهة مع الاستعمار ومع اداته ، ولما اصبحت ايضا أهـم القضايا التي تشغل بال الامة العربية من قلب قواعـد القـوى الوطنيـة والاجتماعية هي قضية العدل الاجتماعي بمفهـوم يقـود التغيير من اجـل مستقبل الجماهير العربية وحياتها الافضل في ظل عمل وحدوي قادر على تحديات العصر التي تجابه الامة العربية كان علـى الاستعمار واداتـه ان يعملا معا من أجل استبقاء اوضاع التخلف والتناقض داخل اوطان الامـة العربية ليتيسر اذلالها واستغلالها فجاء العدوان الاستعماري الرهيب الذي صنعت مقدماته دولة اسرائيل حـين تعرضت بالاغـارة والتهديـد للارض العربية كمبرر لهذا العـدوان الذي خطط لـه الاستعمار العالمي مع اداتـه حتى يحقق بعد الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ مخططات اطماعـه في صنـع انظمة وسياسات ترتبط بمصالحـه وتحقق وجـوده ، لذا كـان عـدوان الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ قويـا وعنيفـا ومدمرا للغايـة يتحرك بروح الانقضاض ، ويقاتل بشراسة الحيوان وعنفه كي يقـوم بالكثير من الهـدم والتخريب والتقتيل ثم التوسع والاحتلال من أجـل مصالـح الاستعمـار وأطماعه من جانب ومعتقدات التوسع الاسرائيلي العنصري من جانب آخر .

غير ان الامة العربية بنضالها الخالد وصمودهـا الابي الشجاع قـد استطاعت ان تقوم من كبوتها وتضمد الجراح لتواجه الاستعمار مرة اخرى اشد يقينا وأقوى بنية واكثر مراسا ، وما الدم الذي يراق كل يـوم علـى الارض العربية من صفوة شباب الامة العربية ومناضليها الا في تأكيد هذا المعنى الحي الذي يملأ قلب وعقل الامة العربية وهي انها تقاتل تحالفـا بين الاستعمار وأداته (دولة اسرائيل) حتى لا تقع الارض العربيـة وشعبهـا وتصبح سوقا للتصدير وحقلا للخام ، وحتى لا يتاح للاطماع الاستعماريـة الاستغلال العدواني من جانب ولزيف المعتقـدات الاسرائيليـة السيطـرة

والتوسع من جانب آخر ، ومن هنا فان قوة النضال العربي والعالمي التـي هبت تحاصر العدوان الاستعماري الاسرائيلي في ذروة مراحله يـوم تمـدد بالانقضاض على الارض العربية وحاول تمزيقها ستظـل في نضالهـا ضـد الاستعمار وفي عون للامة العربية على طريق نضالها في تحقيق مجتمع الحق والعدل ، ولن تضن حركة النضال العالمية وهي تحارب الاستعمار وأدواته في كل مكان من ان تنظم صفوفها وتصفي خلافات مشاكلها ضد الاستعمار حتى يتاح للقوى الوطنية التي تجابه تحالف الاستعمار العـالمي في اقـوى قواعده واكثرها قدرة والتواء ان تقود نضالها الوطنـي ضد شراسة هـذه القواعد واطماعها وان تجد العون الصادق والامان المخلص في ظـل هـذه الصحوة التي هبت بها الامة العربية على ايدي صفوة من شبـاب أبنائهـا تؤكد في ضمير الامة العربية طبيعتها الوحدوية الفذة لتواصل نضالها المرير والطويل ضد باطل الاستغلال الاستعماري وزيف المعتقد الاسرائيلي وحتـى يسقط التحالف بين الاستعمار وأداته فتتلاشى وتنتهي العقيـدة العنصرية المدعاة سطوا واغتصابا للارض ومسخا وتشريدا للشعب .

« وما حرب اكتوبر المجيدة التي امتزج فيها دم الامة العربيـة بصدق .. ومسئوليـة .. حين هب الانسان المصري ليصد عدوان الاطماع والتوسع الصهيوني فيجد عـون اخيـه السوري .. ودرع اخيـه العـراقي .. والجزائري .. والليبي .. والسوداني .. وسند اخيه السعودي .. والمغربي .. والكويتي ، وغيرهم من ابناء الامة العربية حين تكاتفت شعوبا .. وحكومات لتثبت وجودها ورفضها لسياسة التوسع العنصري، ولتضربها هذه المرة في : مواجهة شجاعة .. في ظل قيادة امينـة حققت في براعة فذة قومية المعركـة ضد العـدوان ، واثبتت للعالم امكانيات هذه الامة وقدرتها على البـذل والعطـاء .

أهم المصادر باللغة العربية

١ ـ ول. ديورانت ج ١ ، ٢ ، ٣ ـ من المجلد الثالث «قصة الحضارة» المستشرق ل. أ. سيديو « تاريخ العرب العام » ترجمة عادل زعيتر .

٢ ـ جوستاف لوبون « تاريخ الحضارات الاولى » .

٣ ـ جوستاف لوبون « اليهود في تاريخ الحضارات الاولى » .

٤ ـ دكتور « اسرائيل ولفنسون » تاريخ اللغات السامية .

٥ ـ دكتور « اسرائيل ولفنسون » تاريخ اليهود في بلاد العرب .

٦ ـ سبيتينيو موسكاتي « الحضارات السامية » ترجمة « الدكتور السيد يعقوب بكر » .

٧ ـ جواد علي « تاريخ العرب قبل الاسلام » ـ المجمع العلمي ببغداد.

٨ ـ محمد عزة دروزة « تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم » ـ نهضة مصر .

٩ ـ محمد عزة دروزة « حول الحركة العربية الحديثة » ج ٢ ، ٣ صيدا عام ١٩٥١ .

١٠ ـ شموبل اتينغر « الشعب اليهودي وارض اسرائيل » من مجموعة المقالات الاثنتين والعشرين من كتاب « من الفكر الصهيوني المعاصر » الصادر عن كتب فلسطينية ـ مركز الابحاث ـ بيروت .

١١ ـ اسعد رزوق « اسرائيل الكبرى » ـ صادر عن كتب فلسطينية ـ مركز الابحاث ـ بيروت .

١٢ ـ اسعد رزوق « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » صادر عن « دراسات فلسطينية » مركز الابحاث ـ بيروت .

١٣ ـ اسعد رزوق « الدولة والدين في اسرائيل » صادر عن « دراسات فلسطينية » مركز الابحاث ـ بيروت .

١٤ ـ ابكار السقاف ـ « اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة » ـ عالم الكتب القاهرة ـ عام ١٩٦٧ .

١٥ ـ دكتور فؤاد حسنين علي ـ « اليهود واليهودية المسيحية » ـ معهد الدراسات العربية ـ مطبعة النهضة الجديدة ـ القاهرة ١٩٦٨ م .
١٦ ـ دكتور فؤاد حسنين علي « التوراة الهيروغليفية » ـ دار الكاتب العربي .
١٧ ـ مراد كامل « اسرائيل في التوراة والانجيل » ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة عام ١٩٥٦ .
١٨ ـ ارنولد توينبي « فلسطين جريمة ودفاع » ـ ترجمة « عز الدين الديراوي » ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
١٩ ـ ارنولد توينبي ـ مختصر دراسة للتاريخ ، ج ٣ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ـ احمد عزت عبد الكريم ـ جامعة الدول العربية .
٢٠ ـ ايليا ابو الروس « اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية » دار الاتحاد ـ بيروت ، عام ١٩٦٤ .
٢١ ـ اميل الخوري حرب « مؤامرة اليهود على المسيحية » بيروت عام ١٩٤٧ .
٢٢ ـ دكتور صبري جرجس « التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفريدوي » صادر عن عالم الكتب ـ عام ١٩٧٠ .
٢٣ ـ اسماعيل الفاروقي « اصول الصهيونية في الدين اليهودي » ـ معهد الدراسات العربية العالي ـ جامعة الدول العربية .
٢٤ ـ عصام الدين حفني ناصيف « محنة التوراة على أيدي اليهود » ـ الطبعة الاولى ـ عام ١٩٦٥ ـ القاهرة .
٢٥ ـ عبد الله التل « خطر اليهودية على الاسلام والمسيحية » ـ الطبعة الاولى عام ١٩٦٤ .
٢٦ ـ محمود نعناعة « الصهيونية في الستينيات ـ اليهود والفاتيكان » العدد رقم ١٢١ من الشرق والغرب ـ القاهرة ، عام ١٩٥٤ .
٢٧ ـ دكتور فايز صايغ « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث ـ بيروت ، عام ١٩٦٧ .
٢٨ ـ انور كامل « الصهيونية » مطبعة الاعتماد بالقاهرة ـ الطبعة الاولى عام ١٩٤٧ .
٢٩ ـ « هؤلاء الصهيونيون » شفيق شالاتي ـ دار اليقظة العربية بدمشق عام ١٩٤٧ .

٣٠ ـ محمد علي علويه « فلسطين وجاراتها ـ اسباب ونتائج » ـ لجنة البيان العربي » ـ القاهرة ، عام ١٩٥٤ .
٣١ ـ محمد علي علويه « فلسطين والضمير الانساني » ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ، عام ١٩٦٤ .
٣٢ ـ أحمد فراج طايع « صفحات مطوية عن فلسطين » ـ مطابع الشعب.
٣٣ ـ انطون سليم كنعان « فلسطين والقانون » محاضرة في مؤتمر المحامين المنعقد في ٢٣ سبتمبر ١٩٥٧ .
٣٤ ـ دكتور محمد حافظ غانم «المشكلة الفلسطينيةعلىضوء احكامالقانون الدولي » معهد الدراسات العربية العالية ـ جامعة الدول العربية .
٣٥ ـ علي ابو حيدر « طريق فلسطين » دار الحكمة ـ بيروت .
٣٦ ـ دكتور محمد عبد الرحمن برج « الصهيونية والاستعمار ـ مقدمات ونتائج » وزارة الثقافه والارشاد ـ عام ١٩٦٤ .
٣٧ ـ محمد علي الغنيت « من الحروب الصليبية الى حرب السويس » الجزء الثاني ـ الشرق والغرب .
٣٨ ـ دكتور مصطفى كمال عبد العليم « اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان » رسالة دكتوراه ـ جامعة عين شمس ـ مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٨ .
٣٩ ـ سامي هراوي ، يوسف صايغ « ملف القضية الفلسطينية ـ وابحاث فلسطينية » صدر عن منظمة التحرير ـ مركز الابحاث .
٤٠ ـ الدكتور منير بشور ، خالد مصطفى الشيخ يوسف « التعليم في اسرائيل » منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث .
٤١ ـ خالد قشطيني « الحكم غيابيا ـ القضية الفلسطينية في نظر العالم الغربي » ابحاث فلسطينية ـ صادر عن مركز الابحاث ـ بيروت .
٤٢ ـ دكتور اسماعيل عبد الله ـ « في مواجهة اسرائيل » دار المعارف ـ القاهرة .
٤٣ ـ غسان كنفاني ـ « في الادب الصهيوني » دراسات فلسطينية ـ مركز الابحاث ـ بيروت .
٤٤ ـ نبيل أيوب بدران « التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني» دراسات فلسطينية ـ صادر عن مركز الابحاث بيروت .
٤٥ ـ هيثم الكيلاني « المذهب العسكري الاسرائيلي » دراسات فلسطينية صادر عن منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الابحاث .

٤٦ ـ وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ، ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ـ من ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ م ـ بيروت عام ١٩٦٨ .
٤٧ ـ « فلسطينيات » مجموعة من الباحثين العرب ـ اشراف « انيس صايغ » مركز الابحاث ـ بيروت .
٤٨ ـ الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٦ ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية العربية ـ بيروت .
٤٩ ـ الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٧ ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية العربية ـ بيروت .
٥٠ ـ الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٧ .
٥١ ـ الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٨ .
٥٢ ـ جالينا نيكيتا « دولة اسرائيل » مترجم الى العربية ـ صادر عن «دار الهلال » القاهرة
٥٣ ـ هنري كوستون « امبراطورية المال » ترجمة لجنة جامعية ـ المكتب التجاري ـ بيروت .
٥٤ ـ أسعد عبد الرحمن ـ المنظمة الصهيونية العالمية ـ دراسات فلسطينية ـ صادر عن مركز الابحاث ـ بيروت .
٥٥ ـ أنيس قاسم « نحن والفاتيكان واسرائيل » صادر عن « كتب فلسطينية » مركز الابحاث ـ بيروت .
٥٦ ـ يوميات هرتزل ـ اعداد أنيس صايغ وترجمة السيدة « هيلدا شعبان صايغ » صادر عن مركز الابحاث ـ بيروت .
٥٧ ـ جنرال جواد رفعت اتيلفان « الخطر المحيط بالاسلام » الصهيونية وبروتوكولاتها ـ مطبعة الجاحظ ـ بغداد ـ عام ١٩٦٥ ـ ترجمة وهبي عز الدين .
٥٨ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور « أوربا في العصور الوسطى » .
٥٩ ـ الشيخ صبري عابدين « اليهود وفلسطين » القاهرة ١٩٣٦ .
٦٠ ـ الذبائح البشرية التلمودية ـ حبيب تادرس .
٦١ ـ الكنز المرصود في قواعد التلمود ـ دكتور روهلينج ـ ترجمة دكتور يوسف نصر ، طبع مطبعة المعارف ، ١٨٩٩ .
٦٢ ـ الختان ضلالة اسرائيلية مؤذية ـ بلقم جوزيف لويس وترجمة عصم الدين حفني ناصف ـ دار مطابع الشعب ـ القاهرة .

٦٣ ـ هذه هي الماسونية ـ تأليف فورستيه ـ ترجمة بهيج شعبان ـ دار بيروت للطباعة والنشر ، صدر عام ١٩٥٥ .
٦٤ ـ ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر» طبع فاس بالمغرب ١٩٣٦
٦٥ ـ محمد الخضري « تاريخ الامم الاسلامية » الطبعة الرابعة ، المكتبة التجارية ١٩٣٤ م .
٦٦ ـ امين سعيد « تاريخ الاسلام السياسي » ـ الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه .
٦٧ ـ شاهين مكاريوس «تاريخ الاسرائيليين» طبعة المقتطف عام ١٩٠٤ .
٦٨ ـ دكتور علي عبد الواحد وافي « الاسفار المقدسة في الاديان السابقة للاسلام » ، مكتبة نهضة مصر .
٦٩ ـ دكتور وليم آدي الامريكي « الكنز الجليل في تفسير الاناجيل » ، الطبعة الاولى ، ١٨٨٨ ـ بيروت .
٧٠ ـ د .غوستاف لوبون « اليهود في تاريخ الحضارات الاولى » ، عيسى البابي وشركاه .
٧١ ـ فرانز روزنثال « علم التاريخ عند المسلمين » مكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٣ .
٧٢ ـ الاب جيوفاني روسي «موجز الكمال المسيحي» ـ القاهرة ١٩٦٨ .
٧٣ ـ يوميات هرتزل ـ ترجمة هلدا شعبان صايغ ـ مركز الابحاث ـ بيروت ١٩٦٨ .

اهـم المصادر باللغـات الاجنبيـة

Ben-Gurion looks Back in Talks with Moshe Pearlman New York Simon and Schuster 1956.

Ben-Yosef, A., The Punest Democracy in the World, London and New York, Herzel Press and Thomes Yoseloff, 1963.
Bernstein M., The Politice of Israel, Princeton, University Press, 1957.

Crown, Alan D., «The Changing World of the Kibbutz» Middle East Journal, Autumn 1965.

De Gaury, Gerald, The New State of Israel, London Derek Verschoyle, 1952.

Ellis, Harry B., Israel and the Middle East. New York Ronald Press, 1957.

E. Rackan. Israel's Emerging Constitution, 1948-1957 New York, 1951.

M. Berrestein, The Politice of Israel. The first Dècade of Statehood, New York, 1957.

B. Akzin, The Structure of Government in Israel, Public administration in Israel Abroad, 1960.

Sh. Rasenne The Constitutional and Legal System of Israel, New York, 1957.

Who's who in Israel 1956 «Tel-Aviv, P. 673.

Jogn and David Kimche «The Secret road» P. 38.

Vi Flydda över Oresunct, Thomas Dreyer, Stockholm, 1944.

Storm över Palestiona; Agno Hamrin, Stockholm, 1948.

Easterlin, R, A., «Israel's Development; Past Accomplishments and Future Problems» Quantely Journal of Economics 1961.

Fourastié, J., Le grand espoir du XXC siècle, Progrés technique, progrée économique, progrés social, Paris, 1949.

Gil, B., Projoctions of the Population of Israel (1955-1970) From CBS, Special Publication Series No. 69.

Bachi, R., Immigration into Israel from the Economic of international Migration, London New York 1958.

Bombach, G., «Der Strakturbegriff in der Okonomie» Strukturwandlungen, einer wachenden. Wlrtechaft, Berlin, 1959.

Begin, Manachem. The Revolt-Story of the Irgun. NeY York; Henry Schuman , 1951.

Ben-Gurion, David. Rebirth and Destiny of Israel. New York . Philosophical Library, 1954.

Ben-Gurion Looks Back in talks with Moshe Peariman. New York ; Simon and Sakuster, 1965.

Theodor Herzl, The Jewish State. An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question, trans. by Sylvie D'Avigdor' 4th ed (London, 1949), P. 54 and P. 71.

The Jewish Encyclopedia «Rabbinical Conferences» P. 211.

Georges Ouzou, La Parole de Dieu, Pages

J. Rosenerg; Le harbuch der Samaritanischen Sprache and literatier; Hartleben, Leipzig pestwier; P. 4-5.

Ch Guignebert; Le Mond Juif au Temps Jésus; Paris 1935, P. 213.

Le p. M. -J- Lagrange; le Judaisme avent Jésus-Christ; Paris 131. P. 267. ss.

De Spectaculis par Tertullian.

Frank Sepastin, Cqrouika des gaatzeu tentschen landes 1538.

Avé-Lallement, Friedrich Christian Benebict : Des Deutsche Gauertum.., Leipzig 1858-4 Bd.

Yohann Christoph Wagenseil. Belehrung der Judisch-Teutschen Schreibart. 1099.

M. Luther : Vor der falschen Bettler Buberei.

Einhardi, Ann Mon. Germ. hist. SS. L, 196 Lit. S. 25, f.

Salmon Gessner ; Ruth. die gekröunte hgusliche Tugendin sex Gesgngen.

La Bible, traduite du texte orginal par les membres du Rabbinat français. Tome L. P. 63 Paris, 1890.

S. R. Driver, DD; An Introduction to the literature of the Old Testament, gth edition 1929, Edinburgh.

«Et avec cela, nous l'aimons, car il a vraiment touché toutes nos 9ihdouleurs g.

H. Graetz; Histoire des Juifs, traduit de l'Allemand par Moise Bloch; Paris, 1897 Tome 5, p. 194-210.

H. Hellbardt, Der wist und die Biblische Urgeschichte, 1935.

S. Mowirkel, The two sources of the predenternomic primeval History, Olso 1937.

North, Wherliefering gischte des Pentateuch.

O. Proksch, Das Nord hebraische Sagenbuch, die Elohimque Zlo, Leipzig. 1906.

A. Jéremias, Das Alte Testamert im liht des Alten Orients.

A. Jéremias, Handbuch der Altrientalischen Geisteskultur-Friedrich Delitzsch, Die grosse Taüschung 1920. 21.

A. Von Harnack, Das Evangelium vom Fremden Gott, 1224.

A. von Harnack, Neue Studien zu Marcion, 1923.

Moses Mielziner; Introduction to the Talmud, 3d edition, New York 1925.

Ch. Guignebert; le Monde Juif vers le temps de

M. Mielziner; Introduction to the Talmud; New York, 1925.

Z. H. Chajes; the Students Guide through the Talmud, London 1952 (English Translation by Jacob Shachter).

L. Abbé L. Chiarini; le Talmud de Babylone; Leipzig, 1837.

R. Höniger, Der Schwarze Tod in Deutschland 1882. J. Nohl. Der schwarze Tod. 1924.

M. Stern, König Ruprecht von der Pflz i. Seinen Bezichungen zu den Juden, 1898.

R. Straus, Dic Judengemeind Regensburg im ausge-ender Mittelater, 1932.

Reucblini consilium Maximiliano datum pro libris literariae Reformationis II, 1717. W. Maurer : Kirche and Synagoge, 1953.

Dass Jésus Christus ein Gebrener Jude sei (1523).

L. Poliakov. J. Wnif, Das Dritte Reich und die Juden, 1955 G. Reitlinger, Die Endösung, 1959.

Aspects of Progressive Jewish Thought (London, 1954) p. 115-116. «Reform Judaism From the Point of view of the Reform Jew». P. 847.

Arthur Hertzberg - The Zionist Idea (New York, 1959, p. 400).

Herhert Parzen-Herzel Speaks his Mind on Issues, Events and Men, New York 1960 P. 27.

Some Religious Aspects of Zionism, A. Symposium Published by Palestine House.

Miec Ben-Horin-Max Nordau. Philosopher of Human Solidarity, (London, 1926) P. 199.

Jamis Parhes-Five Roots of Israel «London, 1964».

Sami Hadawi, Palestine, Loss of a Heritage. The Naylon C. 1963.

A. Granott, The land System in Palestien, History and Structure, Exre and Spottiswoode, London 1952.

Maurice Duverger, Political Pirties; Their Orgnisition and Actvity in the Modern State. Trans. by B.**R.North with**a Foreward by D.W. Brogan, John Wlly & Sons Inc. New York 1965.

Joseph Badi «The Government of the State of Israel «Twayne Publishers, Inc. New York, 1963 P. 48.

S. N. Eisenstadt, «Israeli Society» Weidnefeld and Nicolson, London 1967, P. 28.

Oscar Kraines, «Government and Politics in Israel «Houghton Mitflin Co.» Boston 1967 P. 68.

Terence. Pritlie, «Israel, Miracls in the desert. (Pall Mall Press. London) 1967. P. 140.

OP, cit Kraines, P. 70.

Terence. Prittie «Israel, Miracls in the desert (Pall Mall Press, London) 1967, P. 140.

OP, cit Kraines, P. 70.

Leonard J. Fein «Politics in Israel» (Little Brown and Co.) Poston and Toronto 1967.

Chaim Bermant. «Israel. (Toames and Hudson London) 1967, P. 107.

Harry Ellis, «Israel and the Middle East» (The Ronald Press Company New York) 1957.

David Ben Gurion, «Yishuv's Concern for Arabs» «Jewish Observer and Middle East Review» 1964, P. 18-19-20.

Barch C. Crum «Behind the silken Curtain» (Simon and Schuster-New York) 1947, P. 217.

Elston. «Israel, The Making of a nation» (Published for the Anglo

Israel Vssociation, by the Oxford. University Press-London 1964, P. 75.

Yacoub Hazan (Mapam's Knesset member) Concrete Solutions Adapted to Reality «New-Out-Look» Nov. 10,8, P. 61.

James Macdonald «My Mission in Israel, 1948-1951» (Victor Gollencz ltd. Cordor) 195, P. 132

Walter Schwarz. «The Arabs in Israel, Square London 1959, P. 123.

Jerald De Goury, «The New State of Israel» (Derek Verschoyle, 13 Park Plac-St. James London) 1952, P. 84.

الفهرس

البـاب الاول

النشأة التاريخية الاولى ٥
هجرة ابي الانبياء في المنطقة العربية ٦
العلاقة التاريخية للنبي ابراهيم بفلسطين ٨
حول رحلة النبي ابراهيم الى مصر ١٢
ابناء ابراهيم في فلسطين ١٥
اسماعيل في الجزيرة العربية ٢٠
دور النبي اسماعيل في الجنس العربي ٢٣
دور اسحاق في الشعب الاسرائيلي ٢٦
دلالة التسمية باليهود ٣٣
اليهود في العصور الفرعونية ٣٨
اليهود بعد موسى ٤٤
الصلات التاريخية لليهود بمصر ٤٤

البـاب الثانـي

العوامل التي ساعدت على وجود اليهود في مصر ٧١
الموقف اليهودي في مصر القديمة ٧٤
نشاة موسى الرسول في مصر ٧٩
رأي العلامة فرويد في النبي موسى ٨٢
القصص الديني حول شخصية موسى ٨٧
أضواء على القصص الديني الموسوي ٩٢
الخروج الاسرائيلي بقيادة موسى ٩٧

الاطماع الاسرائيلية القديمة في الارض العربية ١١٠
طبيعة العدوان في العلاقات اليهودية ١٢٣
التوسع الاسرائيلي القديم في فلسطين ١٢٦
أوضاع القدس في خضم الصراع ١٣٢
القدس بين التراث العربي والتزييف الاسرائيلي ١٣٦
اورشليم « القدس » قبل العبريين ١٣٦

الباب الثالث

داود ... ومدينته ١٤٣
مدينة داود .. بعد داود ١٤٦
الخراب الاول ، الهيكل الثاني ١٤٨
اورشليم وروما ١٥٠
الخراب الثاني ــ والاخير ــ لاورشليم ١٥١
ايليا كابيتولينا ... لا اورشليم ١٥٢
القيمة العقائدية للقدس في الاسلام ١٥٢
المسجد الاقصى ١٥٥

الباب الرابع

القدس في عهد الاحتلال الصهيوني ١٥٩
التحرير العربي القديم للغزو الاسرائيلي القديم ١٦١
اليهود في عصر الممالك القديمة ١٦٩
منهاجية التوراة ككتاب في التاريخ ١٧٦
اصل النبي داود وعلاقته ببني اسرائيل ١٨٧
النبي داود يقود المعركة ١٩٠
دود النبي داود في اسرائيل ٢٠١
النبوة والرسالة على يد داود ٢١٤
نماذج من الخطيئة في المعتقد اليهودي ٢١٥

الباب الخامس

دور النبي سليمان في اسرائيل ٢٢٧

الحوادث السياسية على يد سليمان ٢٣٢
النبي سليمان في المعركة السياسية ٢٣٨
بداية الضياع السياسي في عصر سليمان ٢٤٣
التفتت السياسي بعد سليمان ٢٤٨
اليهود في ظل السيطرة الاجنبية القديمة ٢٦٠
العلاقات اليهودية الرومانية في عصر الميلاد ٢٦٣
اضواء على الاوضاع اليهودية في عصر الميلاد ٢٦٨
انبثاق المسيحية اليهودية بعصر الميلاد ٢٨١
ملامح المعتقد الديني في الحياة الآخرة ٢٩٤

البـاب الســادس

الغرب الحديث واليهود ٣٠٧
الكتاب المقدس والفكر الاوربي المعاصر ٣١٦
حدود ارض الميعاد ٣١٩
هل كان الوعد نهائيا ٣٢٠
ظهور المسيحية في مجتمع اسرائيل ٣٢٢
المستوى الديني في عصر السيد المسيح ٣٢٤
القضايا الدينية على يد السيد المسيح ٣٢٩
المطاردات اليهودية ضد السيد المسيح ٣٣٨
السيد المسيح والمؤامرة اليهودية ٣٤١
اليهود يقبضون على السيد المسيح ٣٤٤
الاقرار بالخطيئة اليهودية ٣٤٧
حادث الصلب حقيقة دينية مسيحية ٣٥٠
عملية الصلب في المعتقد المسيحي ٣٥٧

البـاب السابـع

السيد المسيح في الفكر الاسلامي ٣٦٧
وادلة هؤلاء على هذا الراي هي ٣٧٣
قوى المقاومة اليهودية للمسيحيين ٣٧٦
موقف الاباطرة من المسيحيين ٣٨٣
علاقة اليهود بالفاتيكان ٣٨٩
اطماع اليهود العقائدية في الفاتيكان ٣٩١

الجـزء الثانـي

البـاب الثامـن

منشأ العلاقة التاريخية لليهود بالعرب ٩
التكتل اليهودي في الارض العربية ٩
اليهود في عصر الدعوة الاسلامية ١٤
المنظمات اليهودية في عصر ظهور الاسلام ١٦
العناد والمقاومة اليهودية للاسلام ١٩
التناقض بين اليهود والاسلام ٢٣
مقدمات الحرب بين اليهود والاسلام ٢٧
تفاقم العلاقة بين اليهود والاسلام ٣٠
الحرب بين اليهود والمسلمين ٣١
جوهر الصراع بين المسلمين واليهود ٣٥
المسلمون يتحررون من اليهود ٣٩
حصون خيبر والقوى المضادة فيه ٣٩

البـاب التاسـع

الخلق اليهودي في اوربا في العصور الوسطى ٤٧
الاضطهاد الاوربي لليهود في العصور الوسطى ٥٢
اليهود في العالم المسيحي الحديث ٥٧
الفكر الاوربي يقاوم الاطماع اليهودية ٦٠
اليهود والحركة الثورية ٧٤

البـاب العـاشر

مقدمة في موضوع العقيدة الدينية ٧٩
من المعتقد الديني قبل اليهودية ٩١
المعتقد الديني عند اليهود القدماء ١٠٠

انموذج العقيدة الدينية في اليهودية	١٠٧
القداسة الدينيــة للتلمود	١١١
طبيعة بروتوكولات حكماء صهيون	١١٣
من الاسس العقائدية عند اليهود	١١٨
الجمعيات الماسونية واطماع اليهود	١٥٢
تطور التنظيم العقائدي عند اليهود	١٥٤
طبيعة المحفل وعضويته	١٥٨

البــاب الحادي عشر

اليهود ودعوى الجنس	١٦٥
الدعوى في ثوبها العلمي	١٦٥
الانتشار اليهودي ودعوى الجنس	١٧٧

البــاب الثاني عشر

الصهيونية العالمية وشعب اسرائيل	١٨٥
مولد الصهيونية العالمية في اوربا	١٨٨
الصهيونية السياسية في المجال الدولي	١٩٣
مؤتمر بازل والعمل الصهيوني	١٩٦

البــاب الثالث عشر

القوى اليهودية توجه الحرب العالمية الاولى	٢١٢
دور الحركة الصهيونية في الحرب	٢١٨
نتائج الحرب الاولى على حركة الصراع العالمي	٢٢٣
بريطانيا تمزق الارض العربية	٢٢٨

البــاب الرابع عشر

الحركة الصهيونية تتجه الى فلسطين	٢٣٣
الارض السياسية التي قامت عليها الدولة	٢٤٣

الاعلان عن قيام دولة اسرائيل ٢٥٢
الامم المتحدة وتقسيم فلسطين ٢٥٨
دور الامم المتحدة في تقسيم فلسطين ٢٦٠
اسرائيل والاطماع الاستعمارية ٢٦٣
اهم المصادر باللغة العربية ٢٦٩
اهم المراجع باللغات الاجنبية ٢٧٥
الفهرس ٢٨١

كتب للمؤلف

صدرت عن دار الجيل

الاسلام ومشكلات السياسة
الاسلام يقينا لا تلقينا
بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم
التاريخ اليهودي العام
تحديات امام العربة والاسلام
التراث الاسرائيلي في العهد القديم
الدين الحق وبنو اسرائيل
العقل والايمان في الاسلام
العقيدة والفطرة في الاسلام
الماسونية ذلك العالم المجهول
المعرفة في منهج القرآن الكريم
هذا القرآن قصة الذكر الحكيم

